الإنسان قيمةٌ عُليا

ⓒ أطياف للنشر والتوزيع، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصفار، حسن موسى

الإنسان قيمة عليا./ حسن موسى الصفار ـ القطيف، ١٤٣٧هـ

٧٧٠ص، ١٧× ٢٤سم

ردمك: ٦-٦-٩٠٨١١-٦٠٣-٩٧٨

١. الإسلام والمجتمع ٢. الإسلام والإنسان أ. العنوان

ديوي٢١٩ ١٤٣٧/٩٦٠٧

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٩٦٠٧

ردمك: ٦-٦-٩٠٨١١-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

القطيف ـ المملكة العربية السعودية

حسن موسى الصفار

الإنسان قيمةٌ عُليا

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

خليل إبراهيم الفزيع[1] ـ الدمام

عرفت الشيخ حسن موسى الصفار من خلال لقاءات متفرقة، وازدادت معرفتي به أكثر، عندما شاركنا معًا في اللقاء الوطني الثاني لمركز الحوار الوطني في مكة المكرمة، الذي بدأت أعماله في اليوم الثامن من الشهر الحادي عشر لعام ١٤٢٨هـ وقد شاركتْ فيه نخبة من علمائنا وأدبائنا ومثقفينا وإعلاميينا المعروفين، ولفتتْ نظري أحاديثه العميقة، ورؤيته الثاقبة، وحواراته المركزة، في جلسات هذا اللقاء، كما فتحت اللقاءات الجانبية على هامش اللقاءات الرسمية مساحة كبيرة للحوار معه، أكد فيه تواضعه، وحرصه على التواصل مع الجميع، ومناقشة هموم الوطن بروح عالية من الوعي والمسؤولية، ثم تكررت لقاءاتنا في العديد من المناسبات الوطنية والثقافية في المنطقة الشرقية، وفي كل لقاء يتجدد الحديث عن الوطن والمجتمع وأهمية العمل على أن تسود المحبة والوفاق جميع أبناء هذا الوطن الغالي، ابتعادًا عن الخصومة وتجنبًا للفتنة.

---

(١) أديب وإعلامي من كتّاب الرأي في جريدة اليوم وجرائد أخرى، ورئيس تحرير سابق لجريدة اليوم، وعضو النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية ورئيس سابق له.

وقد عرف الشيخ الصفار بمنهجيته العلمية في البحث، مما منح كتاباته قيمة علمية إلى جانب قيمتها الأدبية، وما توفره من متعة ذهنية عند القراءة، وامتدت هذه المنهجية إلى مقالاته الصحفية التي عالج فيها بعض القضايا الاجتماعية والوطنية الراهنة، معتمدًا على المعلومة الصحيحة، والابتعاد عمّا تتسم به بعض الكتابات الصحفية من الاسترسال والترهل، فاكتسبت هذه المقالات أهمية أهلتها لأن تُجمع في هذا الكتاب الذي ضم بين دفتيه باقة من بعض ما كتبه في جريدة «اليوم». مما له علاقة بالشأن الاجتماعي والوطني والثقافي، فشكلت هذه المقالات إنجازًا فكريًّا جديدًا، يضاف إلى قائمة الإنجازات الفكرية التي اتسمت بها مؤلفاته الأخرى، وهي من خير ما يمكن أن يقدمه الكاتب لقرائه لغة وأسلوبًا ونضجًا فكريًّا واضحًا.

وهذ الكتاب «الإنسان.. قيمة عُليا» رحلة ممتعة للقارئ يطوف من خلالها في حقول الثقافة والمعرفة، ويستظل بوارف ظلالها، كما يستمتع بقطف ثمارها المكتنزة بتجربة عريضة مع الحياة عاشها الشيخ الصفار، فأثمرت هذا العطاء الفكري المتجدد، وهو انطباع يعرفه ليس من يقرأ له فقط، بل ومن يلتقيه أيضًا في مجلسه العامر الذي يستقبل فيه المثقفين من داخل البلاد وخارجها، لمناقشة الكثير من قضايا الساعة، ومشاكل المجتمع، وشؤون الوطن، وهموم الأمة، وهو في كل ذلك يسعى لنبذ الخلافات، والنأي بالمجتمع عن كل أسباب الفرقة والتطاحن وتأزيم المواقف، يستند في ذلك على عقيدة راسخة بأن الدين الإسلامي الحنيف الذي نهتدي بهديه جميعًا، هو دين أمن وسلام، ووحدة ووفاق، وتلاحم واتفاق، وهي الأسس التي لا بُدّ أن يعتمد عليها الوطن ليظل شامخًا ومتألقًا، في مسيرته التنموية المباركة، بسواعد أبنائه، من جميع مكوناته الاجتماعية، ودون تمييز أو تفرقة.

الكتاب بفصوله الستة يطرح العديد من الأسئلة (عن الوحدة والحوار والتسامح ـ قضايا الثقافة والفكر ـ هموم السياسة ـ بناء الذات وأخلاقيات النجاح ـ الفاعلية الاجتماعية ـ في التنمية الأسرية). وفي نهايته «متابعات إعلامية» استغرقت أكثر من

٥٠ صفحة من صفحات هذا الكتاب، وتتفرع في هذه الفصول عناوين مواضيع طرحتْ بأسلوب متماسك، وبلغة أدبية رفيعة، تسهل على المتلقي مهمة الوصول إلى الهدف، بعد أن تثير في عقله الكثير من التساؤلات عن الإشكاليات التي تكتنف حياتنا، وأسباب هذه الإشكاليات، وكيفية الخروج من مأزق استمرارها، وهذا هو الشغل الشاغل لكتاب الرأي في بلادنا، الأمر الذي يستوجب طرح مثل هذه الأمور بروح المسؤولية، وبعيدًا عن الانفعالات السلبية، لكي تثمر هذه الكتابات، وتُؤتي نتائجها في تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة القارة في أذهان بعض المواطنين، وهي مفاهيم لن تفضي إلى طريق سواء بين فئات المجتمع، بل إن استمرارها هو استمرار لعوامل التخلف الاجتماعي، وعدم الاستقرار الوطني، عندما يتشبث المتطرفون بقناعاتهم الذاتية، دون أي اعتبار لمن يخالفهم في الرأي أو الفكر أو المذهب أو الدين، لتكبر كرة الثلج مع مرور الزمن في انحدارها على سفوح التجاهل وعدم المبالاة، وتكبر معها الكراهية والأحقاد والتطرف، وحول معالجة هذه السلبيات تدور مواضيع هذا الكتاب، لتحظى بأهمية أكبر في هذه الظروف الحرجة التي تمر بها المنطقة والعالم، ونحن جزء من هذا العالم، نتأثر ونؤثر فيما يجري فيه من خير وشر، ومن إيجابيات وسلبيات.

إن معظم فصول الكتاب تركز على قضايا حياتية مُعاشة، يعاني منها المواطن، تتعلق بالأسرة والمجتمع، وبسلوكيات أفراده وعاداتهم المتوارثة، وما طرأ عليها في ظل الوفرة الاقتصادية.. من متغيرات وانتشار الوسائل استهلاكية التي جلبت معها أنماط السلوك المخل بانتظام الحياة العامة في إطارها الذي كان سائدًا، والمبني على التعاون والتكاتف والانسجام بين جميع أفراد المجتمع، إلى أن أفرزت تلك الظواهر السلبية ثقافة هزيلة، أدت إلى الانغلاق على الذات، وأحادية التفكير، والاستهتار بالحياة، ونبذ الآخر، والشعور بالفوقية والتعالي على الغير، كل ذلك سبب ارتباكًا كبيرًا في إيقاع الحياة العامة، وتشويها لواقع التنمية، لذلك فقد احتلت القضايا الأساسية في البناء الوطني، مساحة كبيرة من هذا الكتاب، ومنها مشاكل الأسرة والمجتمع والثقافة والفكر، وغيرها من المشاكل المؤثرة على مفاصل الحياة العامة، وبشكل مباشر،

يوجب المتابعة والبحث عن حلول ليست مستحيلة، إذا صدقت النيات وتوفرت العزيمة.

كما توضح المتابعات الإعلامية الواردة في آخر الكتاب النشاط المكثف للشيخ الصفار من خلال مشاركاته في الندوات والملتقيات الفكرية والاجتماعية، ومحاضراته ومشاركاته في مجالات الحوار الوطني باعتباره الخيار الصحيح لمواجهة التحديات الصعبة، ومكافحة الإرهاب، باعتباره فتنة عظيمة تجب محاربتها بكل السبل، والعمل على تعزيز الوحدة والمحبة بين مكونات المجتمع، وهو بهذه النشاطات العديدة والمتنوعة، يؤكد دور المثقف في خدمة مجتمعه، ورسالته في إرساء قواعد التعاون بين أفراد هذا المجتمع، وصولًا إلى تأصيل مفاهيم المحبة والخير والجمال لدى الإنسان، باعتبار هذا «الإنسان.. قيمة عُليا»، أراد الله بها إعمار الأرض، وإشاعة السلام في ربوعها.

بمثل هذه الكتابات.. يظل التفاؤل قائمًا، والأمل مشرقًا.. لتجاوز مشكلة التناحر بين مواطنين يجمعهم دين واحد ووطن واحد وأهداف واحدة، غايتها الوصول إلى حياة آمنة ومستقرة، بعد تجاوز كل المعوقات والاحباطات، بعزيمة صادقة، وعمل إيجابي مثمر، وكأن الشيخ الصفار يتحدث بلسان كل مواطن عندما قال في مقدمة كتابه: (علينا أن نكون أكثر تفاؤلًا، وتفهمًا لما حولنا ولظروف بلادنا وما يحيط بها من أخطار، وأن نمتلك روح المبادرة، ونتحلى بالإيجابية والفاعلية، فنحن جزء لا يتجزأ من هذا الوطن، وشركاء في بنائه ونهضته، وفي صنع مستقبله وحماية أمنه واستقراره).

والله الموفق إلى سواء السبيل.

مقدمة

هناك من يقدم الدِّين على أنه طريق ومنهج للخلاص والفوز في الآخرة، وأنه لا يعير أهمية لشؤون الحياة، لأن الحياة الدنيا ـ وفق هذا المنهج ـ لا قيمة لها، ولا تستحق الاهتمام، كما هو مفاد نصوص دينية تقتطع من سياقاتها ليعزّز بها أصحاب هذه الرؤية موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٨٥]. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[سورة لقمان، الآية: ٣٣]، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْو﴾[سورة الأنعام، الآية: ٣٢].

وكما جاء في بعض الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ: «اتركوا الدنيا لأهلها»[١]. «هونوا على أنفسكم الدنيا كما تهونون الجيفة»[٢].

وتؤكد هذه الرؤية أن الدين توجه وانقطاع إلى الله تعالى بتوحيده وتعظيمه وعبادته، وأن الدرجة المثلى من الدين تقتضي الإعراض عن الخلق، واللامبالاة بالناس، والميل إلى العزلة عنهم، وإعلان البراءة والعداوة والحرب على أكثرية البشر؛ لأن ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

---

(١) كنز العمال. ج ٣، ص ١٨١، حديث ٦٠٥٨.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص٥٤، حديث ١٣٤٩٦.

وحينما تتبنى أمة هذا الفهم السلبي للدين فإن من الطبيعي أن تصبح على هامش الحضارة والحياة، وأن تضطرب علاقاتها الداخلية وارتباطاتها الخارجية مع سائر الأمم والشعوب.

وعلينا ان نعترف وأن نقرّ بأن هذا الفهم يشغل مساحة واسعة في أوساط أمتنا الإسلامية بدرجات متفاوتة، وأنه يشكل العنصر الأهم في تفسير واقع التخلف والانقسام والاضطراب الذي تعيشه معظم المجتمعات الإسلامية، حيث تتعثر التنمية، ويتوقف الإبداع، وتتوالد الحروب والنزاعات في الأوطان، وتنمو توجهات العنف والتطرف.

ففي ظل ثقافة تحتقر الحياة، وتمجّد الموت والقتل، وتبعث الكراهية والتحريض على الآخر، لا يتوقع غير هذه الثمار المرّة والنتائج المرعبة، دون أن نغفل دور العوامل الأخرى التي تستفيد من هذه الأرضية الفكرية الثقافية المأزومة.

وإذا كنا نتطلع لخلاص أمتنا وشعوبنا من هذا الواقع السيئ الذي تعيشه، فإن ذلك يستلزم السعي والعمل الجادّ لتصحيح هذه الرؤية وهذا الفهم الخطأ للدين، الذي يعاني من خلل في منهجية التعامل مع النص الديني، حيث ينتقي بعض النصوص ويقرؤها خارج سياقاتها الموضوعية والتاريخية، ويأخذ بنصوص غير ثابتة الورود، ويتقيّد بحرفية النص مغفلًا روح التشريع ومقاصده، ويلتزم آراء الأسلاف وفهمهم، دون إعمال العقل وأخذ مستجدات الحياة وتطور المجتمع بعين الاعتبار.

***

إن التحدي الأكبر الذي تواجهه الأمة في هذا العصر هو تنقية تراثها الديني، وتصحيح الرؤية والمفاهيم المنسوبة للدين، ليعود للدين صفاؤه ونقاؤه، كما أنزله الله تعالى دعوة إلى الحياة الكريمة، وبرنامجًا للعيش الأفضل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٢٤]. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[سورة النحل، الآية: ٩٧].

ولتعود الأمة إلى ثقافتها الأصيلة التي تؤكد أن الكرامة منحة إلهية لكل بني البشر ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٧٠] وأن تنوعهم واختلاف انتماءاتهم يجب أن يكون دافعًا إلى التعارف والتعاون: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[سورة الحجرات، الآية: ١٣] وأن تسود بينهم لغة الاحترام المتبادل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[سورة البقرة، الآية: ٨٣] وأن يعيشوا جميعًا في ظل العدالة والرحمة والسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[سورة النحل، الآية: ٩٠]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

***

وبين يدي القارئ الكريم مجموعة من المقالات التي تسلط الضوء على عمق النزعة الإنسانية الحضارية في الدين، وتشير إلى مكامن الخلل في القراءة الأخرى التي أفرغت الإسلام من محتواه الإنساني، ومضمونه الأخلاقي، وأظهرته دين تخلف وجمود وعنف وإرهاب.

وقد نشرت هذه المقالات في جريدة (اليوم) التي تصدر من الدمام في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

ولنشر هذه المقالات في جريدة (اليوم) قصة أودّ تسجيلها إسهامًا في توثيق مساعي التحولات الإيجابية في مسيرة الوطن.

***

كانت البداية من زيارة قمت بها لرئيس تحرير الجريدة آنذاك الأستاذ محمد الوعيل في مكتبه بمبنى الجريدة في الدمام، يوم الإثنين ٢٣ شوال ١٤٢٢هـ الموافق ٧ يناير ٢٠٠٢م، ودار معه الحديث حول دور الإعلام في تعزيز الوحدة الوطنية، ومواجهة إثارة الفتن الطائفية، وخاصة في مجتمع المنطقة الشرقية الذي يعيش تنوعًا مذهبيًا لم يؤثر على تماسكه وتلاحمه منذ مئات السنين.

وهنا تساءلت: لماذا لا يعكس الإعلام المحلي كجريدة (اليوم) واقع التنوع القائم في مجتمع المنطقة بصورته الإيجابية عبر إتاحة الفرصة لظهور الشخصيات الدينية الواعية من مختلف المذاهب والمدارس التي يحتضنها مجتمع المنطقة، حتى لا يكون الإعلام في طرحه الديني أحادي الصورة متسمًا بالإلغاء والإقصاء؟.

فالتقط الأستاذ الوعيل الفكرة ووعدني بدراستها، وبعد ذلك اخبرني عن الموافقة على الموضوع طالبًا مني الالتزام بمقال أسبوعي ينشر ضمن صفحة الرأي بالاسم والصورة كل يوم أربعاء، ليكون رسالة واضحة في تأكيد الانفتاح، وقبول التنوع في الإطار الإسلامي الوطني.

***

وحينما بدأت الجريدة في نشر المقالات، وأولها كان بتاريخ ٢ ذو القعدة ١٤٢٢هـ الموافق ١٦ يناير ٢٠٠٢ في العدد رقم ١٠٤٤٢، كان ذلك حدثًا على الصعيد الوطني والاجتماعي، فلأول مرة تتاح الفرصة لشخصية دينية من خارج الاتجاه السائد، أن تظهر على صفحات جريدة محلية بمقال منتظم، حيث استقبلت الخطوة بترحيب عام على المستوى الوطني، في أوساط الواعين والمهمومين بموضوع الوحدة والانفتاح والاندماج الوطني، والمتطلعين إلى ثقافة دينية جديدة تدعو إلى الحوار وتبشر بحرية الرأي واحترام حقوق الإنسان وتعزيز مفهوم المواطنة. وتلقيت كما تلقى رئيس التحرير رسائل واتصالات إشادة وارتياح.

في المقابل كانت هناك تحفظات وضغوط من قبل من يرون أنفسهم معنيين بحماية العقيدة، وتحصين المجتمع من تسلل أي رأي آخر، أو بروز أي شخصية دينية من خارج إطارهم، حيث يحتكرون تمثيل الدين، ويستكثرون حتى إطلاق صفة (الشيخ) على أحد من خارجهم، وكان من بين إشكالاتهم على الجريدة أنها وضعت صفة الشيخ لكاتب المقالات.

من ناحية أخرى، فقد حذرني بعض أبناء مجتمعي من الوقوع في فخ الإعلام،

الذي سيملي عليّ شروطه لأكتب وفق ما يريد الآخر، على حساب قضايا المذهب والمجتمع الذي أنتمي إليه، بينما أشاع آخرون بأن هناك إرادة سياسية بتلميع شخصية الكاتب واحتوائها من قبل الدولة.

على الضفة الأخرى، تصاعدت الضغوط على إدارة الجريدة باتهامها بخيانة العقيدة، وتهديدها بالمقاطعة، عبر الكتابات على شبكة الإنترنت والمكالمات والرسائل والفاكسات المتواصلة التي اطلعت على بعضها.

ولأن إدارة التحرير معنية برعاية سمعة ومصالح الجريدة، وأخذ رأي المساهمين في مجلس ادارتها بعين الاعتبار، فقد كادت تخضع للضغوط، وتوقفت بالفعل عن نشر المقال في بعض الأسابيع، فبادرت لزيارة سمو أمير المنطقة الشرقية آنذاك الأمير محمد بن فهد، وشرحت له ما جرى وطلبت منه دعم صمود إدارة التحرير تجاه تلك الضغوط، حتى لا تحصل انتكاسة في هذا المسعى الوحدوي الوطني، فبادر مشكورًا للتدخل، مما عزز توجه إدارة التحرير، واستأنفت الجريدة نشر المقال الأسبوعي.

وكان يحدث أحيانًا أن يطلب مسؤول الصفحة استبدال المقال بكتابة مقال آخر، أو تغيير كلمة أو جملة في المقال، عملًا بقاعدة سدّ الذرائع حتى لا يستغلها أحد في الإثارة والتهريج، وكنت أتفهم الموقف وأبدي المرونة الكافية من أجل استمرار التجربة ونجاحها.

وهنا لا بدّ أن أسجل شكري وتقديري للأستاذ محمد الوعيل رئيس التحرير وفريق الإدارة معه، على تجاوبهم وتعاونهم، كما أشكر كل من ساهم في إنجاح هذا المسعى الجميل، والشكر موصول لكل من شارك في التشجيع والتفاعل مع مواضيع المقالات المنشورة، بالاتصال أو الكتابة، لإبداء القبول والإعجاب، أو ممارسة النقد ومناقشة الطروحات.

***

أما نشر هذه المقالات بين دفتي كتاب، فهو لتوثيق هذه التجربة الثقافية الوطنية اعتزازًا بها، وأملًا في ترسيخها، وأن تكون نهجًا في مختلف وسائل إعلامنا الوطني، من صحافة وإذاعة وتلفزيون، فالوطن للجميع، والفرص يجب أن تكون متكافئة بين أبنائه في جميع المجالات، ضمن إطار النظام والقانون والالتزام بالمصالح الوطنية.

وأهيب بإخوتي العلماء، وأبناء مجتمعي الأعزاء، أن ينطلقوا بمبادراتهم الوطنية، فالانكفاء واجترار الغبن، والتشكيك في جدوى التحرك والسعي، والنظرة السلبية للأمور والأوضاع، كل ذلك لا يغيّر مما يشكون منه شيئًا، بل يزيده امتدادًا ورسوخًا.

علينا أن نكون أكثر تفاؤلًا، وتفهمًا لما حولنا ولظروف بلادنا وما يحيط بها من أخطار، وأن نمتلك روح المبادرة، ونتحلى بالإيجابية والفاعلية، فنحن جزء لا يتجزأ من هذا الوطن، وشركاء في بنائه ونهضته، وفي صنع مستقبله وحماية أمنه واستقراره.

وأخيرًا أتوجه بالشكر للأخ العزيز الأستاذ عبدالباري الدخيل لاهتمامه بإعداد هذا الكتاب، وتقديمه للطباعة والنشر، جزاه الله وجميع الأخوة العاملين معي في المكتب خير الجزاء.

ولم نلتزم في الكتاب بترتيب المقالات حسب تاريخ نشرها بل تم تقسيمها ضمن فصول حسب موضوعاتها.

أرجو أن يكون في نشرها نفع وفائدة، وأن يتقبل الله مني هذا الجهد المتواضع في خدمة الدين والوطن.

والحمد للّه رب العالمين.

حسن الصفار

١٠ صفر ١٤٣٧هـ

٢٣ نوفمبر ٢٠١٥م

الفصل الأول

ثقافة الوحدة والحوار والتسامح

العداوات .. الأخطار والأزمات[1]

يحتاج الإنسان إلى أخيه الإنسان في بعدين:

الأول: البعد المادي

للتعاون في تسيير أمور المعيشة والحياة، حيث إن الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يهيئ كل أمور حياته، بل لا بدّ له من التعاطي مع الآخرين من أبناء جنسه، فهو يحتاج إليهم وهم يحتاجون إليه، وكذلك الحال على مستوى المجتمعات والدول، فمهما كانت إمكانات أي دولة من الدول، لا تستطيع أن تعيش في عزلة عن المجتمع الدولي، وخاصة في هذا العصر، حيث وثّقت تطورات الحياة التداخل والتشابك في المصالح بين مختلف الشعوب والدول.

وكلما اتسعت وقويت علاقة الإنسان مع الآخرين، كانت أمور حياته أكثر يسرًا وانتظامًا، وهذا أمر واضح ملموس، فإذا كانت هناك حاجة أو قضية، لدى شخص يمتلك شبكة من العلاقات والارتباطات، ونفس القضية لدى شخص آخر منعزل اجتماعيًا، فإن الأول يكون أقدر على إنجاز حاجته وأسرع في معالجة قضيته من الثاني.

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٦ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ٣٠ يناير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٥٦.

الثاني: البعد النفسي

حيث يأنس الإنسان بأخيه الإنسان، ولو توفرت لإنسانٍ ما كل وسائل الحياة والرفاه، على أن يعيش منفردًا معزولًا، لما ارتاح لذلك، لذا فإن السجن الانفرادي يعتبر من أقسى وسائل التعذيب والتنكيل في المعتقلات.

ويرى بعض اللغويين أن أصل اشتقاق اسم الإنسان من الأنس: (الإنسان فعلان عند البصريين لموافقته مع الأنس لفظًا ومعنى. قيل: سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث إنه لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه).

لذا فإن لمستوى علاقات الإنسان مع من حوله من أبناء جنسه، تأثيرًا كبيرًا في مدى ارتياحه النفسي، فكلما كانت في درجة أفضل، كان أشد سعادة وهناءً.

من هذا المنطلق فإنه يجب أن يحرص الإنسان على علاقته بأخيه الإنسان، وأن يسعى لتطويرها وتفعيلها بأكبر قدر ممكن، فذلك يخدم مصالحه المادية، ويريحه ويسعده نفسيًا.

التودد إلى الناس

وفطرة الإنسان، وتفكيره المنطقي، يقوده إلى هذه الحقيقة، كما أن التعاليم الدينية تؤكد على أهمية حسن العلاقة بين الناس، وتعتبر نجاح الإنسان في علاقاته مع الآخرين مؤشرًا على عمق تدينه ونضج عقله.

فقد روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس»[1].

(١) كنز العمال، حديث ٥١٧٣.

العداوة ومضارها

العداوة تعني وجود خلل في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتعني حدوث حالة معاكسة ومناقضة لما يجب أن يكون، فبدل أن يأنس كل منهما بالآخر، ويتعاونا في تسيير شؤون حياتيهما، تحصل حالة التباعد والكراهية، ثم تتطور لتصل إلى مستوى النزاع والاعتداء المتبادل .. فالبغض والكراهية يأخذ مكان المحبة والأنس، والاعتداء على المصالح يحتل موقع التعاون.

إنها حالة شاذة غير طبيعية، تخالف الفطرة والوجدان، وتصادم المنطق والعقل، وتشكل تهديدًا وخطرًا على بناء حياة الإنسان، وحماية مصالحة.

والنصوص الدينية تحذر الإنسان من خطر العداوة، وتنبهه حتى لا يتورط في مزالقها.

فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «لم يزل جبرئيل عليه السلام ينهاني عن ملاحاة الرجال كما ينهاني عن شرب الخمر وعبادة الأوثان».

وعنه ﷺ: «ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أبغض الناس وأبغضوه».

ويعتبر الإمام علي العداوة مع الناس قمة الجهالة يقول عليه السلام: «رأس الجهل معاداة الناس» و«معاداة الرجال من شيم الجهّال».

وللعداوة مضاعفات وأخطار كثيرة، من أبرزها ما يلي:

عذاب النفس

أرأيت كيف يتعب الإنسان ويرهق حينما يحمل ثقلًا على جسده؟ كذلك فإن العداوات والخصومات تمثل عبئًا ثقيلًا، وحملًا باهظًا على نفس الإنسان، تجلب له الأذى والإزعاج، وتسبب له الهم والغم، وتضغط على قلبه وأعصابه.

إنك حينما تدخل مجلسًا وترى فيه أحبابًا وأصدقاء، ينشرح صدرك، وتجلس مرتاحًا مستأنسًا، بينما إذا دخلت مجلسًا آخر ووجدت فيه من بينك وبينه عداوة وحساسية، تنزعج نفسيًا وتتأذى، وحينما تبقى في المجلس لا تشعر بالراحة والرضا.

وهكذا يكون وجود حالة عداء سببًا للتوتر النفسي، فمجرد مرور ذكره على خاطرك، أو مرور اسمه على سمعك، أو رؤيتك لشخصه، يثير في داخلك مشاعر الغضب والانزعاج.

يقول الإمام علي ﵇: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب».

فالعداوة والخصومة عذاب للنفس، وضغط على الأعصاب، وهي تشغل القلب، وتمرضه، وتفسده، وتسبب الردى والهلاك لصاحبها، وكما قال الإمام علي ﵇: «من ساء خلقه فقد عذب نفسه».

استهلاك الجهد

بدل أن يشتغل الإنسان ببناء ذاته، ويوجه طاقته وجهده لإصلاح أموره، ولتقدمه وتطور حياته، فإن حالة عدائه مع الآخرين، تقتطع جزءًا من اهتمامه وتفكيره، وطاقاته وإمكاناته، وذلك بالطبع لا يتوجه لحماية الذات من الآخر المعادي فقط وإنما لإيقاع الضرر به وتحطيمه، والقضاء على إمكاناته ومصالحه، كما يقوم الطرف الآخر بنفس المحاولة والدور، وبهذا تضيع الجهود وتهدر الإمكانات من الطرفين .

والمثال الأجلى والأوضح هو الحروب التي تنشأ بين الدول المتجاورة، كالحرب العراقية الإيرانية، التي حطمت اقتصاد البلدين، وأثرت على البنية التحتية فيهما، وعوقت التطور والتقدم في الدولتين، مع الخسائر العظيمة في النفوس والأرواح.

مرمى السهام

حينما يعادي الإنسان الآخرين، فيجب ألا يتوقع منهم باقات الورود، ولا رسائل

الحب والاحترام، بل سيكون في مرمى سهامهم، ومعرض انتقامهم، وسيستخدمون ضده الأسلحة التي بأيديهم، خاصة وأن الناس يتفاوتون في مستويات تفكيرهم، وضوابط تصرفاتهم وممارساتهم، وعلى الإنسان أن يتوقع أسوأ الاحتمالات، من جانب المعادين له. قد تتعرض حياته للتصفية، وأمواله للنهب، وسمعته للتشويه، ويعتدى على حقوقه، وتصنع له العوائق والعقبات في طريق أعماله ونشاطاته.

ولا يخلو الإنسان من نقاط ضعف، وثغرات خلل، عادة ما تكون مستورة خافية، فإذا ابتلي بأعداء وخصوم، فإنهم سينقبون عن أخطائه، ويفتشون عن ثغراته، وينفذون من خلال نقاط ضعفه، لإيقاع الضرر به، وتوجيه الأذى إليه.

أوصى الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام أبناءه يومًا فقال لهم: «يا بني إياكم ومعاداة الرجال، فانهم لا يخلون من ضربين: من عاقل يمكر بكم، أو جاهل يعجل عليكم...». ثم أنشأ يقول:

سليم العرض من حذر الجوابا ومن دارى الرجال فقد أصابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

الوقوع في الحرام

بغض النظر عن مبررات العداء، فإن حالة العداء غالبًا ما تدفع الإنسان، لارتكاب مختلف المعاصي والذنوب، من أجل تحقيق الانتصار على عدوه، وإيقاع أكبر قدر من الضرر به، فالكذب والغيبة والنميمة، والسب والشتم، والاعتداء والظلم والتآمر، وما شاكل من المحرمات، كلها وسائل يجد الإنسان نفسه مدفوعًا لاستخدامها في معارك خصوماته وعداواته.

وفي كلمة رائعة يصور الإمام علي عليه السلام موقف من تورط في عداء أو خصومة، بأنه بين أحد خيارين كلاهما مرّ، فإما أن يتنازل ويقصّر في المواجهة، فيعطي الفرصة لعدوه أن يتمكن منه ويتغلب عليه ويظلمه، وإما أن يدخل المعركة بكل ما أوتي من

قوة، ويستخدم كل أسلحة المواجهة، مشروعة وغير مشروعة، وذلك يعرّضه لارتكاب المعاصي والذنوب، ويبعده عن تقوى الله، فيناله الإثم والسخط الإلهي. يقول ﴿عليه السلام﴾: «من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم».

وعلّق على هذه الكلمة أحد شرّاح نهج البلاغة بقوله: «أشار ﴿عليه السلام﴾ في هذا الكلام إلى أن الخصومة داء لا دواء له، ولا يحصل منها الاّ الضرر والخسار، فإن الداخل فيها إذا بالغ يأثم ويبتلى بالخسار الأخروي، وإن قصّر ظلم ويبتلى بالخسار الدنيوي، ويصعب الوقوف بين هذين الحدّين، ورعاية أصل التقوى في البين، فمن أراد النجاح فلا بدّ له من عدم الدخول في الخصومة، والوقوف دائمًا على الصلح والإصلاح»(١).

إضعاف المجتمع

المجتمع الذي تسوده أجواء المحبة والوئام، وينشغل أبناؤه بالعمل الإيجابي، والنشاط البنّاء، ويتعاونون فيما بينهم على خدمة مصالحهم، وتسيير أمورهم، هذا المجتمع تكون بنيته قوية، وكيانه متماسك ثابت، بينما المجتمع الذي تدبّ في أوساطه الخصومات، وتنتشر النزاعات والعداوات، فإنه يصاب بالضعف والهزال، ويبتلى بالتفكك والانهيار.

لذلك يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من خطر التنازع والتعادي، وينذرهم بأن النتيجة الحتمية لذلك هو هدر إمكانات المجتمع، وذهاب قوته، وبالتالي فشل المجتمع في تحقيق مصالحه وأهدافه، يقول تعالى:﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٤٦].

نسأل الله تعالى أن يزرع في قلوبنا المحبة، وأن ينشر في أجوائنا الودّ والوئام، وأن يجنبنا العداوة والخصام، إنه الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) ميرزا حبيب الله الخوئي. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٢١، ص٣٨٩.

احترام مشاعر الناس[1]

لشخصية الإنسان صورتان.

الأولى: مادية تتمثل في جسمه المكوّن من لحم ودم وعظم..

الثانية: معنوية تتجلى في مكانته الاعتبارية عند الناس، وما تنطوي عليه نفسه من عواطف ومشاعر وأحاسيس.

وكما أن للجانب الأول من شخصية الإنسان حدودًا وحقوقًا تجب مراعاتها واحترامها، فلا يصح الاعتداء على جسمه بالقتل أو الضرب أو الجرح، ولا الاعتداء على أمواله وممتلكاته بالنهب أو السرقة أو الغصب.

كذلك فإن للجانب المعنوي حرمة وحصانة، فلا يجوز إسقاط الشخصية الاعتبارية للإنسان، بتشويه سمعته، ولا يجوز خدش عواطفه ومشاعره وأحاسيسه.

وإذا كان متعارفًا بين الناس رعاية الحرمات المادية، فلا يضرب أحدٌ أحدًا أو يجرحه، ولا ينهب منه ماله أو يسرقه، إلا ضمن حالات الخصام أو الإجرام، وهي محدودة شاذة، فإن رعاية الحرمات المعنوية لا تحظى بالاهتمام المطلوب، وغالبًا ما تنتهك وتتجاوز، حتى في أوساط المتدينين والملتزمين.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٣ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ٦ فبراير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٦٣.

فبعض المتدينين يحسب ألف حساب قبل أن تمتد يده لخدش جسم إنسان آخر، أو لأخذ فلس واحد من مال الغير، ولكنه قد لا يتردد كثيرًا في جرح مشاعر الآخرين، وإيذاء أحاسيسهم وعواطفهم.

إن جراحات الجسم يظهر أثرها فورًا وبشكل واضح من خروج دم، أو حدوث كسر، أو تغيّر لون. لكن جراح المشاعر تكون في أعماق النفس، وتختمر تفاعلاتها وتتأجج في قلب الإنسان، بعيدًا عن المشاهدة والعيان. وهي بذلك أشد إيلامًا، وأقسى وقعًا، ونتائجها أسوأ وأخطر. وقد تتحول إلى عقد متراكمة، وأحقاد مضطرمة، تتفجر في المحيط الاجتماعي ناشرة الويل والدمار.

لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «رُبّ كلام كالحسام»، «رُبّ كلام أنفذ من سهام»، «زلة اللسان أشدّ من جرح السنان»، «طعن اللسان أمضى من طعن السنان»[1].

وقال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان

ولو خيّرت أي إنسان بين جرح جسمه أو جرح كرامته، لما اختار الثانية على الأولى إن كان مستقيمًا سويًّا. ومشاعر الإنسان رقيقة شفافة تحتاج إلى دقة في المراعاة والاحترام.

من هنا ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في تعريف المسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2].

فالمسلم الحقيقي هو من لا يعتدي على شيء من حقوق الآخرين المعنوية أو المادية، ونجد أن الحديث الشريف قدّم الحرمة المعنوية على المادية، حيث قال: «من لسانه» أولًا، واللسان هو أداة التجريح المعنوي.

---

(١) عبد الواحد الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) كنز العمال، ج١، ص١٤٩.

(والمراد بالمسلمين هنا كل الناس، وإنما خص المسلمين بالذكر؛ لأن الحديث صدر في بيئة إسلامية، ويدل على إرادة العموم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء، الآية:٧٠] هذا إلى جانب الأحاديث الكثيرة الآمرة بكف الأذى عن الناس إطلاقًا).

التخاطب مع الناس

التخاطب هو وسيلة التواصل بين الناس، وتبادل الآراء والافكار، والتعبير عن المشاعر والأحاسيس، فبكلامك يعرف الآخرون ما يدور في عقلك، وما تنطوي عليه نفسك تجاههم.

والخطاب هو المرآة التي تكشف نظرتك للناس، وموقفك نحوهم، وهو أداة التعامل مع المشاعر والعواطف. فاحترامك للناس ينعكس على تخاطبك معهم، وكلامك إياهم. لأن الكلمة الطيبة تشرح النفوس، وتسر القلوب، يقول الإمام علي عليه السلام: «ما من شيء أجلب لقلب الإنسان من لسان»[1].

وعلى العكس من ذلك: الكلمة السيئة فإنها تجرح المشاعر، وتمزق العواطف.

لذلك تؤكد التعاليم الدينية على ضرورة الحرص على انتقاء أفضل الكلمات، وأجمل التعبيرات، وأحسن الألفاظ، عند التخاطب مع الناس. ففي القرآن الكريم آيات عديدة تحدد المواصفات التي يجب أن يتسم بها الخطاب مع الناس.

١. **القول السديد**: فالإنسان الذي يخشى ربه، عليه أن يحسب حسابًا لكلامه مع الناس، فالكلام السيئ المسيء مخالف لتقوى الله، والمتقي لله يتكلم مع الناس برزانة واحترام. يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[سورة الأحزاب، الآية:٧٠]. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[سورة النساء، الآية: ٩] والقول السديد هو الصواب المحكم الذي لا خلل فيه ونلحظ في

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

الآيتين الكريمتين الارتباط بين تقوى الله والقول السديد.

٢. **القول الحسن والأحسن**: أساسًا ينبغي للإنسان ألا يتلفظ للآخرين وعنهم بكلام سيئ، بل يلتزم إبداء القول الجميل مع كل الناس، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[سورة البقرة، الآية:٨٣]. بل عليه أن يسعى لاختيار أحسن القول والكلام، وأن ينتقي أجمل العبارات أسلوبًا ومحتوى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة الإسراء، الآية:٥٣].

وحتى مع المناوئين والمخالفين في الدين، يجب الحرص على أدب التخاطب والتحادث معهم، ليكون على أفضل وجه، ومن لا يجد في نفسه القدرة على المناقشة للآخرين بأحسن أسلوب، فليترك هذه المهمة لغيره. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة العنكبوت، الآية:٤٦].

هكذا يحدد القرآن الكريم سمات الخطاب والحديث مع الناس، بأن يكون خطابًا معروفًا سديدًا ميسورًا حسنًا.

الكلام الجارح

في حالات الغضب والانفعال، وفي مواقع القدرة والقوة، على الإنسان أن يكون أكثر سيطرة على لسانه، وتحكمًا في حديثه وكلامه، ولا تتأتى هذه الملكة والصفة للإنسان إلا إذا درّب نفسه وعودها على أمرين أساسيين:

الأول: التفكير قبل الكلام، فلا يتكلم اعتباطًا وارتجالًا، ولا تستدرجه الإثارات والانفعالات، بل يتأمل ويتدبر فيما يريد قوله. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»[١] .

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. إحياء علوم الدين، ج٣، (بيروت: دار المعرفة)، ص١١٠.

وفي أكثر من آية في القرآن الكريم يصف الله تعالى عباده الصالحين بأنهم لا يستجيبون لإثارات الكفار والجاهلين، حينما يشتمونهم ويسبونهم، بل يتسامى المؤمنون عن الانحدار والإسفاف إلى مستوى الجهل والكلام السيئ. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[سورة القصص، الآية: ٥٥] واللغو هو الساقط من القول والمقصود به هنا: الشتم والأذى من الكفار. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[سورة الفرقان، الآية: ٧٢] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[سورة الفرقان، الآية:٦٣].

الثاني: أن يجعل الإنسان نفسه مقياسًا، فيضعها مكان الطرف الآخر، فلا يقول للآخرين كلمة حتى يستفتي مشاعره وعواطفه نحوها، هل يرتضيها هو لنفسه؟ وهل يقبل أن تقال له أم لا؟.

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم»[(١)] .

وسمع الإمام علي عليه السلام قومًا من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فقال لهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين».

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنه: خرج حُجر بن عدي وعمرو بن الحمق يظهران البراءة من أهل الشام، فأرسل علي عليه السلام إليهما: أن كُفّا عما يبلغني عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا محقّين؟

قال: «بلى».

قالا: أوَليسوا مبطلين؟

قال: «بلى».

قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟

(١) بحار الأنوار ج٦٨ ص٣١٠.

قال: «كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين تشتمون وتتبرأون، ولكنكم لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءهم ودماءنا، وأصلح ذات بينهم وبيننا، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان منهم من لهج به، لكان أحبَّ إليّ، وخيرًا لكم.»

فقالا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك[١].

لاحظوا أن المسألة ليست أن هذا الطرف يستحق السب واللعن أم لا يستحق، وإنما يجب النظر في الانعكاسات والآثار التي يخلفها ذلك على مشاعر الآخرين وعواطفهم، وإلاّ فإن أحدًا لا يشك في سوء مصير أبي جهل، وكونه من أهل النار، لكن رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحًا هرب منها عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن، خوفًا من أن يقتله رسول الله، وكانت امرأته، أم حكيم بنت الحارث بن هشام، امرأة عاقلة، وكانت قد اتبعت رسول الله، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابن عمي عكرمة قد هرب منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فآمنه، قال ﷺ: «قد آمنته بأمان الله فمن لقيه فلا يتعرّض له»، فخرجت زوجته في طلبه، فأدركته في ساحل من سواحل تهامة، وقد ركب البحر، فجعلت تلوح إليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك وقد استأمنت لك فآمنك، فقال: أنت فعلت ذلك؟ قالت: نعم أنا كلمته فآمنك.

فرجع معها فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة مهاجرًا فلا تسبّوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ»[٢].

وفي النصوص والتعاليم الدينية نهي وتحذير عن كل ألوان الكلام الجارح من

---

(١) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، ج٣، الطبعة الثانية ١٩٦٥م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص١٨١

(٢) بحار الأنوار ج٢١، ص١٤٤.

سب أو شتم أو تعيير أو سخرية وتحقير أو غيبة وبهتان..

حسن الاستقبال والتعامل

الإنسان كتلة من العواطف والمشاعر والأحاسيس، تعصف به التقلبات، وتعرض عليه الانفعالات، كما تضغطه مشاكل الحياة، وعلاقته مع أبناء جنسه هي ملاذه وملجؤه، فإذا توفر له المحيط الاجتماعي الصالح، الذي يتعامل معه بالاحترام والتقدير، ويساعده على امتصاص واستيعاب تأثيرات ضغوط الحياة والتوترات النفسية، ويرفع معنوياته في مقابل المشاكل والأزمات، عندها يجد الكثير من الراحة والسعادة.

أما إذا عاش في وسط اجتماعي يفتقد أجواء المحبة والودّ، ويعاني من الجفاء والجفاف العاطفي والأخلاقي، فإن ذلك سيضاعف عليه العناء، ويملأ حياته ونفسه بالألم والشقاء.

إنك حينما ترى إنسانًا عليك أن تنفذ إلى ما وراء جسمه ومظهره، وتضع في بالك حالته النفسية، وكيانه العاطفي، وتتعاطى مع أحاسيسه ومشاعره، بما يستلزم ذلك من رقة ومحبة واحترام.

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع المؤمنين يصفهم بأنهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[سورة الفتح، الآية: ٢٩] أي يرحم بعضهم بعضًا.

وتقدم التعاليم الإسلامية توجيهات مفصلة شاملة لجميع جوانب التعاطي والتعامل بين أبناء المجتمع على أساس من الاحترام والمحبة والاهتمام. بدءًا من السلام وإلقاء التحية، أو إجابتها بأفضل منها، إلى المقابلة بالبشاشة والاستبشار، إلى الإفساح له في المجلس، والإصغاء لحديثه، ومواساته والتعاطف معه في همومه، ومساعدته وقضاء حاجته.. إلى العشرات من النقاط والتوصيات التي تصنع أفضل علاقة، وتوفّر أجمل رعاية للمشاعر والأحاسيس.

حق الاختلاف[1]

قد تعادي شخصًا لأنه أساء لك أو اعتدى على حق من حقوقك، وهذا موقف مفهوم مشروع، وقد تعادي شخصًا؛ لأنه ينافسك أو يزاحمك على مصلحة من المصالح أو مكسب من المكاسب، وهو أمر وارد وقابل للنقاش، أما أن تعادي شخصًا لأن له رأيًا يخالف رأيك في قضية علمية أو دينية أو سياسية، فذلك موقف لا يسوّغه لك الشرع ولا العقل.

الرأي: شأن خاص

والرأي كما في اللغة: هو الاعتقاد، والجمع آراء. أي ما اعتقده الإنسان وارتآه. تقول رأيي كذا، أي اعتقادي. والاعتقاد والعقيدة: ما عقد عليه القلب والضمير، وما تديّن به الإنسان واعتقده.

وبذلك فالرأي من شؤون قلب الإنسان، وهو من أخص خواصه الذاتية الشخصية، فلا يحق لأي أحد أن يتدخل في هذا الشأن بالقسر والقوة، كما أن التدخل في هذه المنطقة المحرّمة لا يجدي ولا يؤثر، فإذا ما حاولت أي قوة أن تفرض على إنسان رأيًا أو تمنعه من رأي، فإنها لن تستطيع إلا إخضاعه ظاهرًا، أما قراره الداخلي، وإيمانه

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١ ذي الحجة ١٤٢٢هـ، ١٣ فبراير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٧٠.

القلبي، فيستعصي على الفرض والإكراه.

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ينفي إمكانية الإكراه على الدين وينهى عنه يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٥٦].

ورائع جدًا ما قاله العلامة الطباطبائي حول هذه الآية الكريمة،قال: وفي قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، نفي الدين الإجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى، عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علمًا، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقًا علميًا، فقوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكمًا دينيًا ينفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حكمًا إنشائيًا تشريعيًا كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، كان نهيًا عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرهًا، وهو نهي متكئ على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية[1].

من هذا المنطلق، فإن التظاهر بالكفر إذا كان ناتجًا عن ضغط وإكراه، فهو مشروع ولا يناقض الإيمان المستقر في القلب، يقول تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[سورة النحل، الآية: ١٠٦] ويعبّر عن ذلك في الاصطلاح الشرعي بالتقيّة، التي هي: التحفظ عن ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق، اقتباسًا من قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[سورة آل عمران، الآية: ٢٨] .

فالرأي والاعتقاد لا يغيّره الضغط والقهر، والتظاهر بالتخلي عن ذلك الرأي لا يزيله من قرارة نفس الإنسان، بل قد يزداد ثبوتًا ورسوخًا، بدافع التحدي ورد الفعل.

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٣٤٧.

كما ينقل عن قصة العالم الإيطالي (غاليليو غاليلي ١٥٦٤-١٦٤٢م) الذي اعترضت الكنيسة المسيحية وعلماء اللاهوت على آرائه العلمية حول حركة الأرض وأنها ليست مركز العالم، ولا هي ساكنة، بل تتحرك وتدور يوميًا، وأن الشمس هي المركز، واتهم بالهرطقة والخروج عن الدين، وجلبوه إلى روما للمثول أمام محكمة التفتيش، فاعتقل في الحال، ثم استنطق وحقق معه بعد شهرين، وهدد بالتعذيب، ثم أصدرت المحكمة حكمها بأن يعلن (غاليليو) التوبة، ويتنكر لآرائه العلمية، فحضر أمام المحفل الكنسي، وركع على ركبتيه وراح يقرأ ما أجبر على قوله، لكنه عند خروجه من المحكمة عقّب قائلًا: (ومع ذلك فهي تدور) يقصد الأرض[1].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المجال للإنسان في هذه الحياة ليمارس حرية الرأي والمعتقد، فلم يفرض عليه الإيمان به عنوة، بل أنار له طريق الهداية، وترك له حرية الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[سورة الإنسان، الآية: ٢].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[سورة الكهف، الآية: ٢٩].

ولم يسمح الله تعالى حتى لأنبيائه أن يصادروا من الإنسان حرية رأيه واختياره، فهم يعرضون رسالة الله على الناس، دون فرض أو إكراه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ـ٢٢] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، الآية: ٩٩].

وإذا كان للرأي هذه الخصوصية في نفس الإنسان، والموقعية في شخصيته، فكيف يحق لك أن تتدخل في هذه الخصوصية، وأن تعادي إنسانًا أو تسيء إليه لأنه يمارس شأنه الخاص به في أعماق نفسه؟

إننا نعترف للآخرين بخصوصيتهم في سائر المجالات، كالأكل والشرب مثلًا، فلو رأيت إنسانًا يعادي شخصًا لأنه لا يرغب في نوع معيّن من الطعام، أو يعزف عن

---

(١) المهندس أسامة حوحو. مآثر العلماء، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، (بيروت: مؤسسة بحسون)، ص٢٥٢.

لون آخر، لاستنكرت عليه ذلك، على اعتبار أن هذه الرغبات شأن خاص لا علاقة للآخرين بها، والحال أن الرأي آكد خصوصية، وأشّد التصاقًا بنفس الإنسان.

اجعل نفسك ميزانًا

وأنت حينما تعادي زيدًا أو عمرًا لأنه يخالفك في هذا الرأي أو ذاك، هل ترضى أن يعاديك الآخرون على هذا الأساس؟ إنك لا تقبل أن يسيء إليك أحد لأنك تعتقد رأيًا معينًا، حيث تعتبر ذلك شأنًا خاصًا بك، وتعتقد بأحقية رأيك، وعليك أن تعرف أن الآخرين يرون لأنفسهم ما ترى لنفسك.

وفي وصيته الخالدة لابنه الحسن عليه السلام يقول الإمام علي عليه السلام: «يا بني اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلِم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك»[1].

إنها قواعد أساسية هامة في تعامل الإنسان مع الآخرين، ترجعه إلى ضميره ووجدانه، قبل أي شيء آخر.

احتمال الخطأ والصواب

يبالغ بعض الناس في التعصب لآرائهم، ويفرطون في الثقة بها، بحيث لا يفسحون أي مجال ولا يعطون أي فرصة للرأي الآخر، فهم على الحق المطلق دائمًا، وغيرهم على الباطل في كل شيء.

وينتج عن هذه الحالة ـ غالبًا ـ موقف التطرف والحدّية تجاه المخالفين، وحتى في الاختلاف عند بعض القضايا الجزئية، والأمور البسيطة الجانبية.

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، كتاب ٣١.

إنه خلق يخالف تعاليم الإسلام الذي يربي أبناءه على الاستماع لمختلف الآراء ومحاكمتها على أساس الدليل والمنطق، لا التعصب والانفعال. يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[سورة الزمر، الآيتان: ١٧-١٨].

وأكثر من ذلك، فإن رسول الله ﷺ الذي لا يشك في أحقية دعوته بمقدار ذرة واحدة، يخاطب المشركين بمنتهى التواضع والموضوعية قائلًا: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سورة سبأ، الآية: ٢٤]. إنه منهج تربوي عظيم، يصوغ شخصية الإنسان على أساس احترام الآخرين، ومركزية العقل والوجدان.

والتعصب المطلق للرأي، والحدية والتشنج تجاه آراء الآخرين، يمنع الإنسان من الانفتاح على الرأي الآخر، واستماعه والاطلاع عليه، وربما كان هو الرأي الصحيح والصائب. ثم إن ذلك قد يجعل الإنسان في موقف حرج مستقبلًا إذ قد يتبين له خطأ رأيه، فكم من إنسان تراجع عن رأيه، وتغيرت قناعاته؟ وتلك حالة طبيعية قد تحصل للإنسان تجاه مختلف المسائل والقضايا.

يقول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

ربّ فكر بان في لوحة نفسي وتجلى
خلته مني ولكن لم يقمْ حتى تولى
مثل طيف بان في بئر قليلًا واضمحلا
كيف وافى ولماذا فرّ مني؟ لست أدري

وقد رأينا أناسًا كانوا يبالغون في التعصب لآرائهم حول بعض المسائل والأشخاص والجهات، ويعتبرون القول بهذا الرأي هو الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر، أو يعتقدون أن الولاء لهذا الشخص أو لهذه الجهة هو مقياس الحق والباطل، ويعادون الناس ويناوؤنهم على هذا الأساس. لكنهم بعد فترة من الزمن تغيرت قناعاتهم وآراؤهم، مئة وثمانين درجة، مما أوقعهم في حرج مع أنفسهم وتجاه الناس.

إن الاعتدال والوسطية هو المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرفًا ولا متشنجًا حادًا في مواقفه مع الآخرين.

وجميل ما قاله أحد العلماء: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

تفّهم مواقف الآخرين

حينما تعتقد أحقية رأي معين، وتجد آخرين يخالفون هذا الرأي الحق ـ في نظرك ـ فإن عليك قبل أن تتهمهم بالعناد والجحود والمروق، وأن تتخذ منهم موقفًا عدائيًا، عليك أن تتفهم ظروفهم وخلفية مواقفهم.

فلعل لديهم أدلة مقنعة على ما يذهبون إليه.

أو لعلهم يجهلون الرأي الحق، لقصور في مداركهم ومعلوماتهم.

أو لعلهم يعيشون ضمن بيئة وأجواء تحجب عنهم الحقائق.

أو لعلّ هناك شبهات تشوّش على أذهانهم وأفكارهم.

وتجاه مثل هذه الاحتمالات فإن المطلوب منك هو دراسة موقف الطرف الآخر، ومعرفة وجهة نظره، والدخول في حوار موضوعي معه، ومساعدته على الوصول إلى الحقيقة.

ونشير هنا إلى ملاحظة دقيقة، هي: أن الإنسان قد يؤمن برأي من الآراء، ويعتبره حقيقة واضحة، تصل إلى مستوى المسلمات والبديهيات، لأنه قد أشبع الأمر بحثًا، وانشدّ إليه نفسيًا، وعاش ضمن محيط قائم على أساس ذلك الرأي، فالمسألة أمامه واضحة جلية لا نقاش فيها، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للآخرين.

(إن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر

في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون؛ لأنهم لا يملكون ما يهيئ لهم ذلك، تمامًا كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالًا للانطلاق مع إشعاع الشمس، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الأخرى في ظلام دامس. وقد يبدو هذا طبيعيًا عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الأشياء العادية في الحياة، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والأفكار. ولعل قيمة هذا الاتجاه، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين، تبرز في إتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم أرحب، في سبيل تعرف وجهة النظر الأخرى، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة، ومن حيث طبيعة الموقف الذي يتخذونه منا، من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا أكثر قدرة على الحركة بوعي، وعلى ضوء الأجوبة الصحيحة لما يرد من التساؤلات، ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث)[1].

ويربينا القرآن على هذا النهج الموضوعي حينما يتحدث عن فئآت من الرافضين لرسالات الأنبياء، بأن سبب ذلك الرفض هو الجهل وعدم العلم، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٧]. ويقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[سورة النجم، الآية: ٣٠].

فنبي الله نوح عليه السلام في بدء رسالته يخاطب قومه مبديًا تفهمه لظروفهم التي تجعلهم يرفضون رسالته، بسبب التشويش على أذهانهم، ووجود الشبهات التي تعيق تفكيرهم، مع أنه يحمل إليهم الدعوة الصادقة، والحجة الواضحة مطالبًا لهم بتجاوز تلك الحواجز ليروا الحق. يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[سورة هود، الآية: ٢٨].

وفي لفتة تربوية معبرة يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل بعد نجاتهم من الغرق مع نبي الله موسى، وطلبهم منه أن يجعل لهم أصنامًا كما للمشركين أصنام!! ومع

---

(١) السيد محمد حسين فضل الله. خطوات على طريق الإسلام، الطبعة الأولى ١٩٧٧م، (بيروت: دار التعارف)، ص٣٥٧.

سخافة الطلب ومخالفته الواضحة للدين، إلا أن نبي الله موسى عليه السلام أرجع ذلك إلى جهلهم، ثم صار يقرر عليهم حقيقة التوحيد من جديد، يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[سورة الأعراف، الآيات: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وصلوات الله تعالى على نبينا نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يدعو الله تعالى لهداية قومه قائلًا: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

الموقف من الرأي الآخر[1]

إذا ما أصرّ إنسان على رأي خاطأ، ورفض قبول الحق والصواب، فإنه هو الخاسر بالدرجة الأولى، وسيدفع ثمن خطئه، ويتحمل مسؤولية رأيه، وما على المهتدين للحق إلا إرشاده وتوضيح الحقائق له، ثم هو بعد ذلك له كامل الحرية والاختيار، فإن استجاب فقد نفع نفسه، وإن أبى فهو المتضرر.

فمن يريد الذهاب إلى السوق لكنه يسلك طريقًا معاكسًا فإن مسؤوليتك تنتهي عند حدود تبيين الطريق له، فإذا ما أصرّ على سلوك الطريق المعاكس، فإنه لن يصل إلى السوق التي يريدها، والطبيب مهمته أن يقدم العلاج للمريض لكنه إذا لم يلتزم بالعلاج، فسيدفع الثمن من صحته.

ولا داعي لكي يزعج الإنسان نفسه، ويدخل في معارك العداء مع الآخرين لأنهم لم يقبلوا الرأي الذي يراه حقًا.

إن البعض يأخذهم الحماس لمبادئهم وآرائهم بحيث يضغطون على أعصابهم ويتأزّمون نفسيًا ويتجاوزون الحدود في التعامل مع الناس، وكأن لهم الوصاية والسيطرة على أفكار الآخرين وتوجهاتهم، وهذا خطأ فظيع.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية قومه، إلى حدّ أنه كان يجهد نفسه أكثر

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٨ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٢٠ فبراير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٧٧.

من اللازم، فجاءه التوجيه من الله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٣]. أي مهلك نفسك.

وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد أن مهمة النبي والداعية تنتهي عند حدود التبليغ والإرشاد، ولا يصح تجاوز هذه المهمة إلى حدّ ممارسة الوصاية والضغط على الآخرين. يقول تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[سورة النساء، الآية: ٨٠].

وهناك روايات عن أئمة السلف الصالح تؤكد تجنب العداء والخصومة مع الآخرين على أساس الاختلاف في الدين والرأي كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إياكم والخصومة في الدين»(١).

إن هذه التوجيهات الربانية والمفاهيم القرآنية، وسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام تردع الإنسان عن أن يكون حادًا متشنجًا مع من يخالفه في الدين والرأي، أو أن يجعل اختلاف الرأي سببًا ومبررًا للعداء والخصومة.

العداوة تمنع التأثير

إذا كنت مخلصًا لأفكارك، ومتحمسًا لنشرها، واستقطاب الآخرين باتجاهها، فإن الطريق لذلك هو الانفتاح على الآخرين، وخلق جوٍّ من الاحترام والودّ معهم.

فوجود علاقة لك بهم، وتواصل بينك وبينهم، يتيح لك الفرصة لعرض أفكارك وآرائك عليهم، أما القطيعة والعداء، فإنها تسلب منك هذه الإمكانية، وتفقدك الرغبة والاندفاع في تكرار محاولة التأثير عليهم.

من ناحية ثانية، فإن حالة العداء وما تفرزه من سلوكيات منفرة تحول بين الطرف الآخر وبين الإقبال والاستجابة.

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٢، ص١٢٨.

فالعاقل الواعي الذي يريد خدمة أفكاره، وأن تشق طريقها إلى قلوب الناس، هو الذي يمتلك سعة الصدر ورحابة الأفق، ولا ينفعل تجاه الرأي المخالف، حتى ولو تعامل معه الآخرون بشكل سيئ، فإنه يمارس أعلى درجات ضبط النفس، والتحكم في الأعصاب، بحيث يقابلهم باللطف والإحسان، فيمتص التشنجات، ويستوعب الاستفزازات.

وبهذه المنهجية الأخلاقية يدفعهم لإعادة النظر في موقفهم تجاهه، ويشجعهم على الانفتاح على أفكاره، مما قد يغيّر قناعاتهم، ويستقطبهم إلى جانبه وإلى صف رأيه.

ويؤكد القرآن الكريم تأثير أسلوب الرفق والإحسان وأنه يساعد على تغيير المواقف والنفوس لصالح الدعوة والرسالة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[سورة فصلت، الآيتان: ٣٤-٣٥].

فالمنهجية الحسنة القائمة على أساس اللطف والاحترام والودّ مع الآخرين، تختلف في نتائجها عن المنهجية السيئة المعتمدة على الشدة والقطيعة والعداء، فالأولى تفتح الطريق أمام التأثير والكسب، بينما الثانية تسبب النفور وتزيد هوّة التباعد.

لكن المنهجية الحسنة لا تتوفر إلا لمن يُروّض نفسه على الصبر تجاه الإساءات والاستفزازات، ويمتلك نصيبًا عظيمًا من الأخلاق الفاضلة.

وينهى الله سبحانه عباده المؤمنين عن أن يتحدثوا مع المخالفين لهم في الدين إلا بأفضل أسلوب، وأحسن طريقة، رعاية لمشاعرهم، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة العنكبوت، الآية: ٤٦].

لقد واجه رسول الله ﷺ في بداية الدعوة معارضة ومخالفة عنيفة من قبل المشركين، ولكنه تغلب على كل ذلك بأخلاقه العظيمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ولولا ذلك الخلق الرفيع لما تمكن الرسول ﷺ من هداية ذلك المجتمع الجاهلي الغارق في الفساد والتخلف، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

وهكذا فإن على من يعتبرون أنفسهم حملة للحق، وذوي الفكر الصحيح والرأي الصائب، أن يتحلّوا بمصداقية أخلاقية في التعامل مع الناس، وخاصة المخالفين لهم في المذهب أو الرأي أو الموقف، فإن القطيعة والعداوة والإساءة، تخالف تعاليم الدين، وتصادم توجيهات العقل، وتشوّه دعوة وفكرة أصحابها، وتنفّر الناس منهم.

منهج الإسلام وسيرة السلف

من الظواهر المؤسفة في بعض الأوساط الدينية، سوء التعامل مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الاتجاه، حتى أصبحت الغلظة والفظاظة والتجهم والتشدد سمة من سمات التدين عند هؤلاء، وأصبح حتى الاختلاف في بعض المسائل الجزئية الاجتهادية سببًا للقطيعة والعداء.

وهذا مخالف لنهج الإسلام، ولسيرة السلف الصالح، من أئمة أطهار وصحابة أخيار. فالقرآن الكريم يشجع المسلمين على حسن التعامل والبر بالكافرين غير المحاربين والمعتدين، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة الممتحنة، الآيتان: ٨-٩].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: (أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحالٍ لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم. فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا تبعة).

وفي سيرة رسول الله ﷺ أروع الصور الإنسانية، وأسمى المواقف الأخلاقية في التعامل مع الكافرين من يهود ونصارى ومشركين، ليس في العهد المكي فقط، وإنما في العهد المدني وبعد أن جاء نصر الله والفتح.

ومن المواضيع الهامة التي ينبغي بحثها في السيرة النبوية موضوع التعامل مع المنافقين في العهد النبوي، وبعد قيام المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، فمع خطورة الدور المناوئ الذي كانوا يمارسونه ضد الدعوة الإسلامية، والكيان الإسلامي، إلا أنهم كانوا يتمتعون بحقوقهم المدنية الكاملة، كسائر المسلمين والمواطنين في الدولة الإسلامية . يحضرون المسجد، ويرتادون مجلس الرسول ﷺ، ولهم ما لسائر المسلمين من حقوق وامتيازات، مع تنديد القرآن بمواقفهم، وفضح الرسول ﷺ ممارساتهم وتصرفاتهم العدائية. والأحاديث والنصوص التاريخية تنقل لنا صورًا رائعة عن طريقة النبي ﷺ في تعامله معهم، حفظ حقوق العامة.

أخرج مسلم[1] في صحيحة عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي سلول جاء ابنه عبد الله إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فسأله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام النبي ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه و قد نهاك الله أن تصلي عليه، فأجابه رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ و سأزيد على سبعين، قال: إنه منافق. فصلى عليه رسول الله ثم أنزل الله تعالى الآية الكريمة من سورة التوبة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾. وفي رواية عن ﷺ أنه قال: لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت.

وهو ما رواه البخاري والترمذي من حديث عمر بن الخطاب.

وحينما تآمر بعض المنافقين على الفتك برسول الله ﷺ ليلة العقبة التي بين تبوك والمدينة عند رجوعه من غزوة تبوك، وأطلعه الله تعالى على ذلك، وفضح مؤامراتهم وعرفه بأسمائهم، فقال بعض الصحابة للنبي ﷺ: يا رسول الله، أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال ﷺ: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم».

(١) مسلم بن الحجاج النيساوري. صحيح مسلم، حديث ٢٧٧٤.

بل أمر بكتم أسمائهم، وفي رواية أنه ﷺ قال لأسيد بن الحضير: «إني أكره أن يقول الناس ان محمدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه».

فقال: يا رسول الله: فهؤلاء ليسو بأصحاب، فقال رسول الله ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أن لا اله إلا الله؟» قال: بلى، ولا شهادة لهم، قال ﷺ: «أليس يظهرون أني رسول الله؟» قال: بلى، ولا شهادة لهم، قال ﷺ: «فقد نهيت عن قتل أولئك»، وكذلك ينبغي قراءة تعامل أمير المؤمنين علي مع الخوارج في عهده، فرغم أن مذهبهم اشتمل على مخالفات عقدية لمنهج الصحابة والخلفاء الراشدين، كاعتبارهم مرتكبي كبائر الذنوب كفارًا، مخلدين في جهنم، إن لم يتوبوا قبل الممات، وكذلك فإنهم يردون الأحاديث الواردة عن طريق عثمان وعلي ومن شايعهما، ويكفرون عددًا من الصحابة المشهود لهم بالجنة، ويستحلون دماء المسلمين المخالفين لهم في الرأي، ورغم كل هذه المخالفات والانحرافات العقدية والسلوكية إلا أن عليًا لم يكفرهم، ولم يمنعهم شيئًا من حقوقهم. بل أثر عنه ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: «لهم علينا أن لا نمنعهم دخول المساجد، ولا نقطع عنهم الفئ. ولا نبدأهم بقتال ما لم يثيروا فتنة». هذا الموقف من الإمام علي يعتبر تشريعًا وحجة في التعامل مع أصحاب الرأي الآخر، وإن كان على درجة كبيرة من الابتداع والمخالفة للمنهج الحق.

وأخيرًا:

فإن اختلاف الرأي ظاهرة طبيعية في حياة البشر، ولا يصح أن تكون سببًا للتعادي والتخاصم، بل ينبغي أن تستثمر لصالح تكامل المعرفة، واكتشاف الحقيقة، وإثراء الساحة الثقافية.

وأفضل خدمة تقدمها للرأي الذي تؤمن به، حسن تعاملك مع الآخرين، لتقدم بسلوكك الطيب أنموذجًا مقبولًا لأفكارك، ولتكون بسيرتك الصالحة داعية لآرائك، أما أسلوب العداوة والتشدد، فهو يسيء إلى التوجه الذي تنتمي إليه أولًا، وإليك ثانيًا.

أولوية احترام الناس[1]

للدين مهمتان رئيستان في حياة الإنسان:

الأولى: تنظيم علاقة الإنسان مع ربه، بأن يتعرف على خالقه، ويؤمن به وبوحدانيته، ويلتزم عبادته والخضوع له. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

الثانية: تنظيم علاقة الإنسان مع أبناء جنسه، بحيث تكون قائمة على العدل، والاحترام المتبادل للحقوق ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ .

فعلاقة الإنسان مع الناس قضية جوهرية من صميم الدين، وهي ليست متروكة لمزاج الإنسان وأهوائه، فلست حرًا في أن تتعامل مع الآخرين كما تحب وتشاء، بل أنت مقيد بضوابط شرعية تلزمك مراعاة حقوق الآخرين، واحترام مصالحهم المادية والمعنوية.

وإذا آمن الإنسان بربه والتزم أداء الواجبات العبادية لله من صلاة وصوم وحج وما شابه، فإن ذلك لا يحقق له حالة التدين، ولا يوفر فيه مصداقية العبودية لله تعالى، ما

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٦ مارس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٩١.

لم يقترن بحسن علاقته مع الناس، وأدائه لحقوقهم.

فكما أمرك الله تعالى بالصلاة والصيام وسائر العبادات، أمرك أيضًا بالعدل والإحسان، والتعامل الصحيح مع المحيط الاجتماعي، ولا يصح لك أن تأخذ بجزء وتترك الجزء الآخر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم إن الإيمان بالله، وأداء الشعائر والعبادات، ثمرتهما ونتيجتهما يجب أن تظهر وتنعكس على سلوك الإنسان وتعامله مع الناس، وإلا فما جدوى ذلك الإيمان الذي لا يردع عن الظلم؟ وما قيمة تلك العبادة التي لا تدفع إلى الخير؟

الإساءة إلى الغير ظلم عظيم

في رؤية الدين لا شيء أسوأ من أن يعتدي الإنسان على حقوق الآخرين، أو يسيء اليهم ماديًا أو معنويًا، إن الله تعالى قد يغفر للإنسان إذا ما قصّر أو أخطأ تجاه خالقه شرط التوحيد ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. ولكنه تعالى لا يتساهل ولا يغفر للإنسان تقصيره وخطأه تجاه الآخرين.

ويصنّف أمير المؤمنين عليه السلام أنواع الظلم إلى ثلاثة أصناف، ويعتبر أن ظلم الناس هو الظلم الأخطر بعد الشرك بالله تعالى، يقول عليه السلام:

«ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله.. وأما الظلم الذي يغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضًا، القصاص هناك شديد».

إن إيذاء أي إنسان بجرح مشاعره أو إهانة كرامته، أو تشويه سمعته، يعتبر ظلمًا لا يترك، بل يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة حسابًا عسيرًا.

كان سعد بن معاذ صحابيًا جليلًا مجاهدًا في سبيل الله حتى أصيب بجرح خطير في المعركة واستشهد بعد فترة من المعاناة والألم، وقد شهد الرسول ﷺ في حقه حين عاده في مرضه قائلًا:

«اللهم إن سعدًا قد جاهد في سبيلك، وصدق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقّبل روحه بخير ما تقبلت به روحًا»، وعند وفاته شارك الرسول في تشييعه ودفنه، ومع هذه المكانة والمنزلة إلا أنه أصابته ضمّة - أي عصرة في قبره - . فلنكن حذرين جدًا في تعاملنا مع الآخرين، وحتى عوائلنا وأبنائنا، فإننا محاسبون أمام الله تعالى عن تصرفاتنا مع الناس، ولن تغني عنا صلاتنا ولا عباداتنا إذا ما قصرنا أو تجاوزنا على حقوق الآخرين المادية أو المعنوية.

ممارسات خاطئة

يبالغ بعض المتدينين في أدائهم لبعض الشعائر والأعمال العبادية، بطريقة تسبب إيذاءً ومزاحمة للآخرين، ويتصورون أنهم بتلك المبالغة ينالون الأجر والثواب من الله تعالى، وفي الحقيقة إنهم يحمّلون أنفسهم الوزر والإثم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

فمثلًا: ما يحدث في الحج من محاولة بعض الحجيج الاقتراب من الكعبة في الطواف أو استلام الحجر الأسود، بطريقة المغالبة والمزاحمة، مما يؤدي إلى الإضرار بالنفس وبالآخرين، وإيذاء الغير حرام، بينما تقبيل الحجر الاسود مستحب، وكذلك الاقتراب من الكعبة، وهل يصح أداء المستحب بارتكاب المحرّم؟

وقد نجد بعض الناس يحرصون على أن يكونوا في الصفوف الاولى لصلاة الجماعة، وذلك مستحب بلا ريب، وفيه أجر كبير لكنه إذا استلزم إيذاء الآخرين ومدافعتهم، وجرح مشاعرهم، فإنه يتحول إلى سبب للإثم والوزر.

وضمن هذا السياق ما تعارف عليه البعض من رفع صوت المكبرات والسّماعات

(الميكرفونات) أثناء تلاوة القرآن، أو قراءة الأدعية، ومجالس العزاء، في أوقات راحة الناس المجاورين للمسجد أو الحسينية أو المنزل مع عدم الحاجة إلى ذلك فالمستمعون عدد محدود داخل المكان، وصوت المكبّرة يخترق المسافات، مما يزاحم راحة المجاورين، وقد يكون فيها مرضى أو أطفال أوما أشبه، أو أن صوت المكبّرة يزاحم مجلسًا آخر ومسجدًا آخر، فتتعارض الأصوات وتتداخل مما يعطي انطباعًا سلبيًا عن الحالة الدينية، وأغلب المساجد في بلادنا يستخدمون مكبّرة الصوت أثناء صلاة الجماعة، وبشكل مزعج، رغم تحذير وزارة الأوقاف من ذلك.

إن مثل هذه الممارسات خطأ، يكسب أصحابها الإثم؛ لأنه لا يطاع الله من حيث يعصى، ولا يرضى الله تعالى بإيذاء الآخرين وإزعاجهم.

بين حقوق الله وحقوق الناس

يهتم الإنسان المسلم بالتزاماته العبادية مع الله كالصلاة والصوم والحج... ويحرص على تأديتها حسب الأحكام الشرعية، متقربًا بذلك إلى الله تعالى. وما ينبغي التأكيد عليه هو أن احترام مشاعر الناس، ورعاية حقوقهم المعنوية، لا يقل أهمية عند الله تعالى من تلك العبادات والشعائر الدينية، بل يظهر من بعض النصوص والأحكام أولوية حقوق الناس. كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة على حقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤديًا إلى القيام بحقوق الله».

ونذكر بعض الموارد التي يتبين منها موقعية احترام مشاعر الناس في الإطار العبادي.

١. إن المبادرة للصلاة إذا حان وقتها أمر مطلوب من الناحية الشرعية وإذا أقيمت الصلاة للجماعة تكون أكثر تأكيدًا، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الأحرص على هذه الالتزامات الشرعية، لكن الرواية الواردة عن أنس رضي الله عنه قال: أقيمت الصلاة ورجل يناجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما زال يناجيه حتى نام أصحابه، ثم قام فصلى.

٢. ويصلي رسول الله ﷺ بالمسلمين جماعة، فيطيل في سجوده أكثر من المعهود فيسأله القوم بعد الصلاة: يا رسول الله، لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها، كأنما يوحي إليك. فقال ﷺ: «لم يوحَ إليّ، ولكن ابني ـ الحسن بن علي ـ كان على كتفي فكرهت أن أعجله حتى نزل».

٣. ويسمع رسول الله ﷺ بكاء طفل وهو يصلي بأصحابه جماعة، فيخفف صلاته رحمة بذلك الطفل، ورعاية لعواطف أمه. روى أبو قتادة عن النبي ﷺ قوله: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه».

وفي رواية عنه ﷺ: «فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه».

وعن أنس بن مالك: وإن كان ﷺ ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخاف أن تفتن أمه.

٤. وللصوم المستحب فضل عظيم وأجر كبير، لكنك إذا دعيت للطعام من قبل أحد إخوانك المسلمين، فإن استجابتك له أرجح عند الله تعالى من إكمال الصيام.

إن هذه الأحكام والتوجيهات الدينية تريد تربية الإنسان المسلم على احترام مشاعر الآخرين، وحفظ كرامتهم ومكانتهم، وأن ذلك مورد لرضى الله سبحانه، ومخالفته توجب سخطه، والمتدين الذي يهتم بضبط أحكام وضوئه وصلاته، عليه أن يكون أكثر اهتمامًا بضبط أسلوب تعامله وعلاقته مع الناس. فقد قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها. فقال ﷺ: «هي في النار».

فضيلة الاعتذار (١/٢)[١]

صدور الخطأ من الإنسان أمر طبيعي ومتوقع، فما دام ليس معصومًا فهو معرض للغفلة وسيطرة الشهوة وغلبة الانفعال، وتلك هي أرضية الخطأ ومنشأ حدوثه.

لكن الأمر المهم هو كيفية تعامل الإنسان مع خطئه. فهل يتعهد نفسه بالمراقبة والمحاسبة، ويراجع مواقفه وتصرفاته، ليكتشف أخطاءه وعثراته؟ أم يبقى مسترسلًا سادرًا تتكرر أخطاؤه وتتراكم دون اهتمام منه وانتباه؟

من ناحية أخرى، هل يمتلك شجاعة التراجع والاعتذار عن الخطأ؟ أم يصرّ عليه؟ أو يتهرّب من تحمل المسؤولية تجاهه؟

ثم إن خطأ الإنسان قد يكون تجاه نفسه، أو تجاه ربه، أو تجاه الآخرين من أبناء جنسه. وحديثنا الآن مخصص لبحث هذا القسم الأخير.

اتهام الذات قبل الآخرين

حينما يحصل خلل في العلاقة بين الإنسان وآخرين، فإنه غالبًا ما يتنصل من المسؤولية، ويحمّل الطرف الآخر وزر ما حدث، فهو يبرئ نفسه ويصدر حكمًا سريعًا على الآخر بإدانته وتحميله مسؤولية الخلل.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٩ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ١٣ مارس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٩٨.

وهذا ينشأ من حب الذات، والدفاع عنها، والتعود على تبرير التصرفات والممارسات.

أما التفكير بموضوعية، والتعاطي بنضج ووعي، فهو يوجه الإنسان إلى اتهام ذاته أولًا، ومحاسبتها على هذا الأساس حتى يثبت العكس.

وإذا أخذ الإنسان هذه الفرضية بعين الاعتبار، وحاسب نفسه وناقش تصرفاته وتعامله، فقد يكتشف بالفعل أنه كان مخطئا بحق الآخر، أو أنه شريك في الخطأ، ويتحمل نسبة معينة منه.

ويربينا القرآن على هذه المنهجية السليمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

واكتشاف الخطأ هو الخطوة الأولى في طريق المعالجة والإصلاح، أما الخطوة الثانية والأهم، فهي إعلان تحمّل المسؤولية أمام الطرف الآخر، والاعتذار إليه من وقوع الخطأ تجاهه.

وهو موقف بطولي لا يصدر اختيارًا إلا عن ثقة وشجاعة وعدالة وإنصاف.

فالإنسان الذي يحترم نفسه لا يرى الخطأ جزءًا من شخصيته حتى يصعب عليه الاعتذار عنه، بل يراه غباراً ووسخًا يرتاح بإزالته والتخلص منه.

وتحمّل مسؤولية الخطأ مظهر رفيع لالتزام العدل وممارسة الإنصاف، حيث يكون الإنسان في جانب الآخر مقابل ذاته. وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «غاية الإنصاف أن ينصف المرء من نفسه» .

لماذا الاعتذار؟

الاعتذار يعني الإقرار بالخطأ، وطلب العفو والصفح من الطرف الآخر.

قال الجرجاني: الاعتذار: محو أثر الذنب.

وقال الكَفَويّ: الاعتذار إظهار ندم على ذنب تُقرّ بأن لك في إتيانه عذرًا.

وقال المناوِيّ: الاعتذار: تحرّي الإنسان ما يمحو أثر ذنبه.

والاعتذار سلوك حضاري يدل على احترام الإنسان لنفسه، وتقديره لغيره. وينطوي على فوائد وعوائد كثيرة، من أهمها:

١. الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه يشكل رادعًا للإنسان عن تكراره، لأن الاقدام على هذه الخطوة يكتنفها ضغط وعناء نفسي، فليس سهلًا على الإنسان أن يقف موقف الإقرار والاعتذار إلي الآخرين، فهو نوع من العقوبة الاختيارية يفرضها الإنسان على نفسه، مما يخلق لديه حساسية وحذرًا من الوقوع في حالة مشابهة، ويجعله يعيد النظر في الأسباب والعوامل التي أوقعته في الخطأ، وذلك سبيل لإصلاح النفس ومعالجة سلبيات السلوك.

بعكس ما إذا مرّ الإنسان على خطئه مرور الكرام، ولم يشعر بأيّ مضاعفات أو نتائج مؤذية، فقد يستهين بالأخطاء حينئذٍ، ويستسهل ارتكابها.

٢. وهو محاولة لإصلاح الخلل الذي أحدثه الخطأ، وتدارك مضاعفاته على الآخرين، كما يشكل نوعًا من إعادة الاعتبار لمن وقعت عليه الإساءة، وأداءً لحقّه. يقول الإمام علي عليه السلام: «حسن الاعتراف يهدم الاقتراف» .

٣. والاعتذار ينـزع فتيل الغضب من نفس الطرف الآخر، ويطفئ نار العداوة، ويحتوي الأزمة والتشنج. إن أكثر النزاعات والخصومات المترتبة على تصرفات خاطئة يمكن حلها وتجاوزها عن طريق كلمة اعتذار رقيقة، تشيع في نفس الطرف الآخر الرضا، وتشعره بإعادة الاعتبار.

٤. ولا يسود هذا الخلق الحضاري الرفيع إلا عبر المبادرة لممارسته من قبل الواعين الناضجين، إن التزام أي فرد به وخاصة إذا كان في موقعية مرموقة، يشجع الآخرين من حوله على التخلق به، فإذا رأى الأبناء شجاعة أبيهم في الاعتذار إليهم عن زلل صدر منه تجاههم، فإنهم سيقتدون به في تعاملهم مع الآخرين، وإذا لاحظ العاملون في أي مؤسسة أن كبار الموظفين يتحملون

مسؤوليتهم تجاه الأخطاء ويعتذرون عنها، فإنهم سيسيرون على نفس النهج، وهكذا بالنسبة لسائر الموقعيات والمناصب القيادية في المجتمع.

إن كل من يتمنى ويرغب أن يتعامل معه الآخرون بهذا الأسلوب المريح، عليه أن يبادر هو بانتهاجه مع الآخرين، ليترسخ كمبدأ في العلاقات الاجتماعية، وكقيمة أخلاقية سامية.

٥. الفوز برضوان الله والأمن من عقابه يوم القيامة، وذلك بالتخلص من حقوق الناس وظلاماتهم، حيث تؤكد النصوص الدينية: أن الله تعالى لا يتساهل في حقوق الناس على بعضهم بعضًا، وتشير عدة أحاديث مروية عن الرسول ﷺ إلى أن أصحاب المظالم والحقوق يأخذون من حسنات الإنسان يوم القيامة، حتى إذا انتهت كل حسناته توضع عليه من سيئاتهم مقابل حقوقهم عليه .

إن بإمكان الإنسان أن يتخلص من كثير من الظلامات عبر لحظة اعتراف، وكلمة اعتذار، فيوفر على نفسه العناء والعذاب الشديد يوم القيامة.

خلفيات الامتناع

لماذا يصعب على الكثيرين من الناس تدارك أخطائهم بتقديم الاعتذار إلى المتضررين؟ ولماذا التردد والامتناع عن انتهاج هذا المسلك الحضاري؟

يبدو أن هناك خلفيات نفسية وثقافية واجتماعية يمكن اعتبارها عوائق وموانع من انتشار هذا الخلق الكريم.

أولًا: التفكير والتصور الخاطئ بأن الاعتذار عن الخطأ تشكل حالة ضعف وهزيمة لشخصية الإنسان، وفي الحقيقة قد يكون ذلك صحيحًا لأول وهلة، وفي الظاهر، لكن واقع الأمر، إنه يكشف عن ثقة بالنفس، وشجاعة في الموقف، وهو ينتشل الإنسان من موقع الضعف الذي انحدر إليه بخطئه، إلى موقع القوة الذي يرتقيه باعتذاره، وبالتالي فإنه كسب وانتصار للإنسان على المدى البعيد.

فضيلة الاعتذار (٢ – ٢)[١]

وصلنا في الحلقة الأولى من هذا المقال إلى (خلفيات الامتناع) وقلنا إنها تنقسم إلى عدة أقسام طرحنا الأول منها.. ونكمل البقية في هذه الحلقة فنقول:

ثانيًا: التعصب للذات بتبرير أخطائها والدفاع عنها حتى في الزلات والعثرات، وذلك ما يعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.. إنه لا يعترف على نفسه بالخطأ، ولا يقبل لذاته أن يكون في موضع الإقرار و الاعتذار، إنه المحق دائمًا وأبدًا، والمصيب في كل مواقفه وتصرفاته، وإن كان في أعماق نفسه مدركًا لباطله وانحرافه، لكن العزة الآثمة، والعصبية الجاهلية لا تسمح له بالتراجع والتدارك.

ثالثًا: التعالي والشعور بالرفعة والتفوق: وخاصة إذا ما أخطأ الإنسان تجاه من يعتقد أنهم أقلّ منه شأنًا ومكانة، فإنه يأنف ويستثقل طلب المعذرة منهم.

وفي الواقع فإن جوهر الأخلاق الفاضلة، وحقيقة النبل والسمو، إنما تتجلى في مثل هذه المواقف، إذ ليس فخرًا كبيرًا أن يعتذر الإنسان إلى من هم أقوى منه، وأرفع شأنًا ومنزلة، فقد تكون الظروف تفرض عليه ذلك، أو تدفعه بهذا الاتجاه، لكن الفضل والمجد هو في حسن التعامل مع الضعفاء، وأداء حقوقهم، والتزام مكارم الأخلاق تجاههم.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٦ محرم ١٤٢٣هـ، ٢٠ مارس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٠٥.

رابعًا: الثقافة العامة والأجواء الاجتماعية: حيث قد تسود المجتمع ثقافة التفاخر والتباهي، وأجواء العصبية والمزايدات، مما يجعل الأفراد منساقين ضمن هذا التيار العام.

تمامًا كما نقرأ في تاريخ العرب قبل الإسلام، وكيف كانت تحكمهم العصبيات القبلية، ومشاعر الاعتزاز والفخر تجاه بعضهم بعضًا، وكانوا يمارسون مبدأ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» بمعناه الحرفي، ويستجيبون لمبالغات شعرائهم التي كانت تملأ نفوسهم بالزهو، وتزين لهم مواقف التصلب والتعالي على الآخرين.

فهذا أحدهم يقول عن قبيلته:

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

ويقول آخر:

ونحن أناس لا توسّط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ويقول ثالث:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخرّ له الجبابر ساجدينا

ولا تزال رواسب هذه الثقافة الجاهلية، وروح التعالي والتعصب، تلعب دورها في نفوس أبناء الأمة العربية إلى اليوم.

وإلا فكيف تفسر خطابات رئيس النظام العراقي صدام، ومقولات وسائل إعلامه؟

إنه يتحدث عن تفوق العراق، وعن سحق قوى الاستكبار، وعن أم المعارك، وأعظم الانتصارات التاريخية، بينما يعيش نظامه في أسوأ عزلة، ويرزح شعبه تحت أبشع حصار.. ومع كل المآسي التي أوقعها بالعراق والأمة العربية والإسلامية، عبر حربيه الظالمتين ضد إيران واحتلال الكويت، فإنه يرفض الاعتذار عن خطئه، ويكرر مقولاته الشريرة، كما تتمظهر رواسب الثقافة الجاهلية في مجتمعاتنا بأشكال متعددة ومختلفة، على مستوى الأفراد والتجمعات والمجتمعات.

قبول الاعتذار

أن يقدم المخطئ اعتذاره، تلك خطوة رئيسة هامة لتجاوز الخصام و تحقيق الوئام، لكنها يجب أن تقابل بخطوة إيجابية من الطرف الآخر، وهي قبول الاعتذار والصفح عن الإساءة، لتكون ثمرة الإصلاح والود يانعة ناضجة.. ولماذا لا يقبل الإنسان عذر الآخرين، و هو معرض لأن يصدر منه ما صدر منهم؟ وأي عقوبة يريد إيقاعها بالطرف الآخر أشد من هذه العقوبة المعنوية، حيث أقر له بالذنب، واعترف تجاهه بالحق، وتقدم إليه بطلب المعذرة والصفح؟

ثم أيّ كسب يسعى لنيله أكبر من هذا الكسب الاجتماعي، إذ أصبح في موقع المرتجى والملتمس منه، واتضحت أحقيته أمام الناس؟ يقول الشاعر:

ولعمري لقد أجلك من جاء   مقرًا بذلة الاعتراف

إنه إذا تنكر لكل ذلك وأصرّ على رفض الاعتذار، فقد تتأثر موقعيته عند الله وفي أعين الناس، ويتحول من مركز القوة إلى موقع الضعف، ويتوجه إليه اللوم والإدانة لتصلبه وشدته..

ويقول الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه   وكان الذي لا يقبل العذر جانيا

أخلاقيات التحضر

في الأمم المتحضرة والعالم المتقدم، يسود هذا الخلق الحضاري، وعلى أعلى المستويات؛ لأن الأجواء العامة لديهم من سياسية وإعلامية وثقافية تدفع بهذا الاتجاه.

فإذا ما حصل خلل أو خطأ في أداء أي مؤسسة أو جهاز فإن صاحب القرار فيها يعلن تحمله للمسؤولية، ويقدم اعتذاره، وقد يستقيل من منصبه.. ففي كوريا الجنوبية مثلًا أدى تصادم قطار مع حافلة قبل فترة، إلى وفاة عدد من الركاب، فأعلن وزير المواصلات اعتذاره عن الحادث، وقدم استقالته.. وقبل أيام حينما فشلت

القوات الإسرائيلية في اعتقال المجاهد محمود أبو هنود، أحد القادة العسكريين لحركة حماس، وتسبب ذلك في مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين، فإن رئيس القوة البرية الإسرائيلية أعلن تحمله لكامل المسؤولية واستقال من منصبه.

بالطبع إن اليهود يلتزمون هذه الأخلاقيات مع بعضهم بعضًا، أما تعاملهم مع الآخرين، فمحكوم بعنصريتهم وعدوانيتهم البشعة.. وعلى مستوى الدول والأمم فقد أعلنت اليابان في العام الماضي اعتذارها عن الفظائع التي ارتكبها جنودها ضد كوريا وتايلاند والصين إبان الحرب.. كما قدمت ألمانيا الاتحادية عدة مرات اعتذارات رسمية للعديد من الدول الأوروبية ولليهود عن جرائم النازيين. وقدم الرئيس الأندونيسي عبدالرحمن وحيد اعتذاره عن العنف الذي مارسته القوات الأندونيسية ضد سكان تيمور الشرقية طيلة ٢٤ عامًا من الاحتلال.. وحتى رأس الكنيسة الكاثوليكية البابا بولس الثاني أعلن اعتذاره في العام المنصرم عن الكنيسة والتجاوزات التي ارتكبها المسيحيون تجاه الأمم الأخرى، و في خلافاتهم الداخلية.

إننا بحاجة إلى ممارسة هذا الخلق الحضاري في تعاملنا مع أبنائنا وعوائلنا، وفي تعاطينا مع المحيطين بنا، من زملاء عمل وأصدقاء، وأشخاص يعملون تحت إدارتنا ومسؤوليتنا.

الفرار من الخصومات[1]

حالة العداوة مع أي أحدٍ من الناس ليست ممتعة ولا مريحة، فهي عبء على نفس الإنسان، واستهلاك لاهتماماته وجهوده، وهدر لطاقات المجتمع، وتمزيق لوحدته وانسجامه.

لذلك على الإنسان العاقل الواعي أن يتجنب العداوات والخصومات، فلا يبادر أحدًا بخصومة، ولا يصدر منه ما يسبب نزاعًا أو عداءً من قول أو فعل.

وإذا ما حاول أحد أن يستدرجه لعداوة أو صراع، فليتحلّ بالذكاء وضبط النفس كي لا يقع في الفخ، فإن العداوة نفق لا يعرف الإنسان إذا دخله كيف يخرج منه؟

إن من صفات المؤمنين الواعين، التي يشيد بها القرآن الكريم، أنهم لا يستجيبون لإثارات العداء الصادرة من الجاهلين والمخالفين، بل يعرضون عنها كأنها لم تكن، ولا يقفون عندها بل يمرون عليها مرور الكرام، ويرفعون تجاهها شعار المسالمة والموادعة.

١. إن افتعال المشاكل مع الناس حالة سلبية عبثية يقوم بها الجاهلون الفارغون، أو المنحرفون المغرضون، وإذا ما تفاعل الإنسان مع حركاتهم العدوانية، وأبدى

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٩ محرم ١٤٢٣هـ، ٢ ابريل ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥١٨.

بها اهتمامًا، ورد فعل، فإنه يحقق غرضهم، ويساعد في انجاح خطتهم لإيجاد المشكلة معه، وتوريطه فيها. لذا فإن المؤمن الواعي يفوّت عليهم الفرصة، ويتجاهل محاولاتهم لاستدراجه للصراع. يقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[سورة المؤمنون، الآيات:١-٣].

واللغو هو ما لا فائدة فيه. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال: هو أن يتقول الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله. وقال مقاتل: هو الشتم فإن كفار مكة كانوا يشتمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فنهوا عن إجابتهم[١].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[سورة الفرقان، الآية:٧٢].

يقال: «تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه، وقيل: مرورهم كرامًا هو أن يمروا بمن يسبهم فيصفحون عنه»[٢].

ويعبر عن هذا الموقف المتسامي قول الشاعر:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

٢. وإذا كانت نفس الجاهل المغرض تطفح بالمساوئ والرذائل، فيلهج لسانه بكلمات الإثارة، وعبارات الطعن والتجريح، فإن نفس المؤمن الواعي مطمئنة بالخير والهدى، فما يفيض على لسانه إلا حديث الخير والصلاح، فلا يجابه كلمات السفه والعداء، إلا بمنطق السلم والتسامي عن اللغو والجهل.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ

---

(١) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٨، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة)، ص١٣٦.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٩، ص١٣٠.

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[سورة القصص، الآية: ٥٥].

فهم يعرضون عن أصحاب الكلام السيئ التافه، على أساس التزام منهجيتهم المستقيمة، وحتى لا ينزلقوا في طريق السوء والانحراف ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، كما أنهم يرفعون شعار المسالمة، ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولا يضمرون في أنفسهم حقدًا يدفعهم للانتقام والتشفي. وقد يكون ذلك تعبيرًا عن الترك والانصراف فهو سلام وداع، إنهم يعلنون إنهاء اللقاء ولكن بإبداء تحية الوداع ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

يقول العلامة الطباطبائي: «أي إذا خاطبهم الجاهلون خطابًا ناشئًا عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم، كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف، أجابوهم بما هو سالم من القول، وقالوا لهم قولًا سلامًا خاليًا عن اللغو والإثم»[1].

وتكرر آيات عديدة في القرآن هذا المعنى تأكيدًا لأهمية هذا السلوك الواعي، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[سورة الفرقان، الآية: ٦٣].

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزخرف، الآية: ٨٩].

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٢٣٩.

الاستجابة الواعية للتحديات[1]

إذا كانت المعركة قد فرضت على الأمة الإسلامية من قبل أعداء الإسلام، وإذا كانت المواجهة هي قدر الأمة، فعلينا أن نستجيب للتحدي بوعي وإرادة، فلا تسيطر الهزيمة على نفوسنا، ولا يتسلل الضعف إلى قلوبنا، وفي نفس الوقت لا نستدرج للتهور، ولا نتصرف من وحي الانفعال، إن بعض الخطابات الإسلامية المتشنجة، وبعض المواقف المتطرفة، تضرّ مستقبل الإسلام والأمة، وتخدم أغراض الأعداء.

فالمطلوب صمود بوعي، ومواجهة بتخطيط، ومواقف رزينة متعقلة، إننا كمسلمين لا نؤمن بنظرية صدام الحضارات، ولا يصح أن ننساق ضمن مخططاتها؛ لأن ديننا يدعو إلى الحوار والتعارف بين الحضارات، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، وحضارتنا الإسلامية إبان قوتها وازدهارها لم تسحق الحضارات الأخرى، ولم تقمع سائر الثقافات، بل كان شعارها: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾.

فلا يصح أن نستدرج وأن نتحرك أو نتحدث بانفعال وكأننا ضد الشعوب والأمم الأخرى، فمعركتنا هي مع القوى السياسية الاستكبارية، ووظيفتنا الانفتاح مع الأمم والشعوب والتخاطب والتعامل معها باحترام.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٨ صفر ١٤٢٣هـ، ١ مايو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٤٧.

إننا لا نعادي الأمريكيين كأمريكيين ولا كمسيحيين، ولا اليهود كيهود وإنما نعادي الظلم والطغيان والإرهاب من أي جهة كان، ولو أن جهة إسلامية مارست العدوان والظلم ضد مسيحيين أو يهود، لكان علينا الوقوف أمامها والانتصار للمظلوم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وكما فسّر رسول الله ﷺ: مقولة «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» بأن تردع أخاك عن ظلمه إن كان ظالمًا.

تمتين الجبهة الداخلية

لكي تتجه الأمة لهذا التحدي الكبير، فيجب تجاوز الانشغال بالخلافات والصراعات الداخلية، التي استغرقت اهتماماتنا في الفترة الماضية، وشغلتنا ببعضنا، وأعطت الفرصة للأعداء لينفذوا من خلالها بيننا.

هذه النزاعات بين بعض حكومات البلدان الإسلامية، والصراعات بين بعض الشعوب وحكوماتها. والاختلاف بين المذاهب والطوائف.. والاحتراب بين التيارات الفكرية والسياسية.

لقد آن أن نصل جميعًا وفي ظل هذه التحديات الخطيرة، التي تستهدف وجودنا، وتجهز على ما تبقى من كرامتنا، إلى مستوى من النضج والتحضر في التعامل مع خلافاتنا وصراعاتنا الداخلية، على قاعدة الاحتكام للحوار، واحترام الرأي الآخر، والقبول بالتعددية، والاختلاف في إطار العيش المشترك، وتحت سقف المصلحة العامة.

فكم في المجتمعات وبين الدول الغربية من خلافات حدودية، وصراعات مصلحية، وتنوع قومي ومذهبي وسياسي، لكنهم تمكنوا من عقلنة خلافاتهم، وتقنين صراعاتهم، وهم الآن ينسجون وحدتهم الأوروبية بخطوات عملية محكمة، فقد أصدروا عملتهم الموحدة (يورو)، ولديهم برلمانهم الموحّد، ولا زالوا يتابعون خطى وحدتهم، دون تنكر للتمايز والخصوصيات، ودون جور من طرف على آخر.

لقد كان رائعًا جدًا أن جاء طرح الدعوة إلى حوار الحضارات، وتخصيص سنة بهذا

العنوان على المستوى الدولي من قبل الأمة الإسلامية، حيث قدم الاقتراح الرئيس الإيراني السيد محمد خاتمي إلى الأمم المتحدة، وتمت الموافقة عليه واعتمدت السنة ٢٠٠١م لهذا الشعار، وتبنت العديد من الدول الإسلامية مؤتمرات ضمن هذا السياق، كان من آخرها ندوة (الحوار بين الحضارات) التي انعقدت في الرياض (٣-٦ محرم ١٤٢٣هـ).

إنها مبادرة رائعة لكننا بحاجة أكثر إلى تفعيل منهجية الحوار في داخل الأمة، بين قواها وتياراتها المختلفة، لنتجاوز حالة الاحتراب، والتحريض المتبادل على الكراهية، ولنتخذ قرارًا باحترام بعضنا بعضًا، والاعتراف بالرأي الآخر المذهبي والسياسي، ضمن إطار الوحدة الوطنية والإسلامية.

وواضح أن الهجمة الشرسة ضدنا لاتفرق بين عربي وعجمي، ولا بين شيعي وسني، ولا بين قومي وديني، ولا بين قطرٍ وآخر، ما دام عنوانها صدام الحضارات، فكلنا مصنفّون ضمن الحضارة والأمة الإسلامية.

التنمية والارتقاء الحضاري

غالبًا ما كانت سمة خطابنا الإسلامي إظهار الظلامة التي نعاني منها من قبل الأعداء، وجورهم علينا، ونياتهم ضدنا، ثم استثارة العواطف والمشاعر، والتحريض والتعبئة تجاه الآخر.

لكننا قلّ أن نلتفت إلى بناء الذات، ومعالجة نقاط الضعف، ومحاولة الارتقاء بمستوى التنمية، مما جعلنا نراوح مكاننا، وكرّس في واقعنا الثغرات والسلبيات، وأفقد أجيالنا الناشئة الثقة بدينهم وحضارتهم، وجعلهم فريسة لاستقطابات الشرق والغرب.

إننا وفي ظل ما نواجهه من أخطار، مطالبون بالنقد الذاتي، والمراجعة لأفكارنا وأوضاعنا، بموضوعية وشجاعة، مستهدين بالقيم الأساسية، والمبادئ المحورية في ديننا، معتمدين على استشارة عقولنا وفطرتنا، مستفيدين من تجارب الآخرين وتطورات الحياة.

إن المطلوب منا كأفراد ومجتمعات رفع مستوى الفاعلية والإنتاج، فلا يفيدنا اجترار مشاعر الظلامة والغبن، ولا يكفينا ترديد الشعارات، ولا تسيير المظاهرات، ولا التغني بالمبادئ وأمجاد التاريخ، بديلًا عن الكدح والنشاط، ومضاعفة الجهد والعطاء.

إطفاء الحرائق الاجتماعية(١)

بالطبع لسنا بصدد الحديث عن فرق إطفاء الحرائق، وما ذكرناه مجرد مدخل وتمهيد، ننطلق منه إلى تساؤل هام يرتبط بأوضاعنا الاجتماعية، وهو: لماذا لا يبدي الناس اهتمامًا مماثلًا بالحرائق الاجتماعية؟، فحينما تشب نار العداوة والخلاف بين أفراد أو فئات من المجتمع، لماذا يأخذ الآخرون موقف المتفرج وكأن الأمر لا يعنيهم؟ ولماذا لا يبادرون لتطويق هذا النزاع ـ الحريق كما يهرعون لإطفاء الحرائق المادية؟

وإذا كانت الحرائق المادية تصيب الأشخاص والممتلكات، فإن الحرائق الاجتماعية تنال شخصيات الناس المعنوية، وتمزق وحدتهم وانسجامهم، وتعرض السلم الاجتماعي للخطر، وتكون أرضية وسببًا لمشاكل واعتداءات وخسائر وحروب.

كما أن الخلافات الاجتماعية هي الأخرى كالنار تمتد إلى ما حولها وتحرقه بلهيبها، ولا تبقى عند حدود الشخصين أو المجموعتين المختلفتين، فكم من خلاف بسيط بين زوجين تحول إلى نزاع ومعركة بين أسرتيهما وقبيلتيهما؟ وكم من نزاع بين فئتين محدودتين أدخل مجتمعًا في أتون حرب أهلية مدمرة؟

كذلك فإن المتورطين في النزاع قد لا يستطيعون إنهاء نزاعهم فيما بينهم وإن

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٣هـ، ٥ يونيو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٨٢.

أرادوا ذلك، لما يحدث في نفوسهم من انفعالات وحواجز، فيحتاجون إلى مساعدة من خارجهم لترطيب الأجواء، وامتصاص التشنجات، وتقريب كل طرف إلى الآخر.

من هنا فالحاجة ماسة إلى وجود فرق إطفاء للحرائق الاجتماعية، تطوق الخلافات والنزاعات، وتطفىء نيران الفتن والاحتراب، وتحمي السلم الاجتماعي.

إصلاح ذات البين

ويطلق الإسلام على هذه المهمة المقدسة عنوان «إصلاح ذات البين» حيث وردت نصوص كثيرة تؤكد ضرورة القيام بهذا الدور، وتبشر القائمين به بأرفع الدرجات وأعظم الأجر والثواب عند الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة الأنفال، الآية: ١].

إن القيام بدور إصلاح العلاقات بين أبناء المجتمع، وسدّ ثغرات الخلاف والنزاع، هو انعكاس للالتزام تقوى الله، لذلك يأتي الأمر بالاصلاح بعد الأمر بتقوى الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، كما أن الإصلاح شرط من شروط تحقق المجتمع الإيماني ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[سورة الحجرات، الآية: ١٠].

فالمجتمع الذي تسوده أجواء الوحدة والانسجام يكون متنعمًا بالرحمة والأمن، بينما إذا جزأته الخلافات والنزاعات فهو يعيش حالة العذاب والشقاء.

أفضل دور وخير عمل

لماذا يتطوع المؤمن لله تعالى بالصيام، ويتنفل بالصلاة، ويجود بالصدقة؟ أليس بدافع القربة إلى الله ونيل ثوابه ورضاه؟ إذا كان ذلك هو الهدف فإن النصوص الدينية

تؤكد أن من أفضل طرق التقرب إلى الله وكسب رضاه وثوابه، هو السعي لإصلاح ذات البين، فهو أفضل من سائر العبادات والطاعات.

عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين».

وعن ابن عمر عنه ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين».

ولأن المصلح يريد التقريب بين الطرفين المتنازعين، وخلق ثقة متبادلة بينهما، فقد يضطر لإعطاء انطباع إيجابي عن كل طرف للآخر، بالتحدث عنه بكلام طيب لم يقله، وتشجيعًا من الدين لمسعى الصلح، اعتبر هذا التصرف مستثنى من الكذب الحرام، بل لم يعتبره الشرع كذبًا ما دام يصب في مصلحة الإصلاح والوئام.

فقد جاء في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ قوله: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا أو يقول خيرًا».

وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على القيام بدور إصلاح ذات البين والمبادرة إليه، فقد أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن أناسًا من بني عمرو بن عوف، كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأتِ النبي ﷺ فجاء بلال فأذن بالصلاة ولم يأتِ النبي.

وفي حديث آخر: أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله بذلك، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم».

الدور المفقود

لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية صغيرًا كان أو كبيرًا، ومهما كانت درجة وعيه أو تدينه، من وجود خلافات بين بعض أفراده أو بعض فئاته، والاجتماع الإسلامي وإن كان يفترض فيه الالتزام بتعاليم الإسلام، والتحلي بآدابه وأخلاقه، لكن ذلك لا يعني وصول أفراده إلى درجة العصمة، فهو بشر تعتورهم كل نواقص الطبيعة البشرية.

فحدوث النزاعات والخلافات أمر وارد وطبيعي في الاجتماع الإسلامي، بين الأفراد المؤمنين والفئات المسلمة، مع كونهم جميعًا ضمن إطار الإيمان والاسلام، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[سورة الحجرات، الآية: ٩].

لكنه لا يصح السكوت والتفرج تجاه حالات الخلاف والنزاع التي قد تحدث في أوساط المجتمع، بل يجب القيام بدور إيجابي لتجاوز تلك الحالات، وتلافي آثارها ومضاعفاتها، بأن يبادر المخلصون الواعون للسعي في إصلاح ذات البين، فهو واجب كفائي لا يجوز أن يهمل أو يترك حينما تتهدد وحدة المجتمع والكيان الإسلامي، وإذا لم ينهض به من يكتفى به فمسؤولية التخلف عن هذا الواجب الديني الإنساني على عاتق الجميع. لأن الله تعالى يوجه الخطاب للعموم ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[سورة الحجرات، الآية: ٩].

لكن دور السعي لإصلاح ذات البين في صفوف أبناء الأمة مفقود أو ضئيل جدًا مع الحاجة الماسة إليه، لذلك تنتشر الخلافات، وتتطور النزاعات، على حساب وحدة المجتمع وتماسكه وقوته.

فكم من أسرة تشتت شملها، وانهار كيانها العائلي، لخلاف بين الزوجين كان يمكن معالجته لو بذل سعي لإصلاح ذات بينهما؟

إننا بحاجة إلى تفعيل مبدأ إصلاح ذات البين، وأن يبادر المخلصون الواعون من أبناء المجتمع، إلى تشكيل فرق ومجموعات لإطفاء الحرائق الاجتماعية، والتقريب بين مختلف الفئات والجهات، وداخل العوائل والأسر.

الارتياب وتدمير العلاقات[1]

انطباعات الإنسان عن الآخرين، ورؤيته لهم، تؤثر على علاقته بهم، وتعامله معهم. فالانطباع الجيد عن شخص يشكل أرضية للاقتراب منه، وصنع العلاقة معه، بينما الرؤية السلبية تجاه أي شخص تخلق حاجزًا نفسيًا يحول دون الثقة به والانفتاح عليه، وربما تتطور إلى دافع للخلاف والعداوة.

وتتشكل انطباعات الإنسان عن الآخرين من خلال ما يسمعه أو يلحظه من مواقفهم وتصرفاتهم.

بيد أن كل موقف أو ممارسة تصدر من أحد غالبًا ما تحتمل أكثر من تفسير إيجابي وسلبي، فحتى الأعمال المصنفة ضمن قائمة الأعمال الصالحة، يمكن التشكيك في دوافع وبواعث القيام بها، فتكون مصدرًا لانطباع سيىء.

ولأن الإنسان ليس له سبيل إلى القطع والجزم بنيّات الآخرين، ولا يعلم على وجه اليقين دوافع وملابسات كل مواقفهم وتصرفاتهم، فإن التفسيرات والانطباعات التي تنقدح في ذهنه عنهم تبقى مجرد ظنون واحتمالات.

فالتفسير الإيجابي ينتج ظنًا حسنًا بينما التفسير السلبي يعني ظنًا سيئًا، وهكذا

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ١٢ يونيو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٨٩.

تتراوح انطباعات الإنسان عن الآخرين بين حسن الظن وسوء الظن.

إن حسن الظن يمنح الإنسان رغبة واندفاعًا نحو الآخرين، ويجعله أكثر قدرة على صنع العلاقات معهم، وعلى العكس من ذلك فإن سوء الظن يخلق نفورًا من الآخرين وتحفظًا تجاههم، وقد يكون مدخلًا إلى العداوة والخصام.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد ومن حسن ظنه بالناس حاز المحبة منهم».

الارتياب كمسلك

الارتياب من الريب، وهو بمعنى الشك مع التهمة بأن يشك الإنسان في نيّات الطرف الآخر، ويتهمه بسوء في مقاصد أعماله وتصرفاته وهذا الشك والاتهام انما يحصل في نفس الإنسان؛ لأنه يعلم بوجود النزعات الشريرة، ويدرك أن بعض المظاهر البراقة قد تخفي وراءها أهدافًا خبيثة، وبالتالي فهو لا يستطيع ان يخدع نفسه وينظر إلى جميع الأمور والتصرفات ببراءة وثقة.

وحتى لو قرر إنسان أن يكون بسيطًا ساذجًا يتعامل مع الجميع بثقة واطمئنان دون أي حذر أو شك، فإنه سيتعرض لصفعات ونكبات من بعض من منحهم ثقته، تجعله يعيد النظر في ثقته المطلقة بالناس.

إذًا فليس المطلوب من الإنسان أن يكون ساذجًا لا يأخذ الاحتمالات الأخرى بعين الاعتبار وحتى لو طلب منه ذلك فهو غير ممكن؛ لأن ورود الخواطر والظنون على ذهن الإنسان ليس أمرًا اختياريًا.

لذلك ذهب أكثر العلماء المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ إلى أن المراد بالاجتناب عن الظن: الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوءًا فيرميه به، ويذكره لغيره ويرتب عليه سائر آثاره، وأما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فلا

يتعلق به النهي، اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختياريًا.

لكن الخطر الحقيقي يكمن في أن يصبح الارتياب وسوء الظن مسلكًا عامًا للإنسان، بحيث ينظر إلى كل الناس بنظارة سوداء، ويشك في كل أحد وكل شيء.

وهي حالة مرضية يصاب بها البعض فيفقد الثقة فيمن حوله، وقد تتفاقم هذه الحالة فيسيئ الظن حتى في ربه وخالقه كما يحدثنا القرآن الكريم عن بعض المشركين والمنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

وتحدثنا الروايات عمن ساورتهم الظنون السيئة تجاه رسول الله ﷺ وهو أقدس وأطهر إنسان من البشر، أخرج البخاري في كتاب الصلح حديث رقم ٢٧٠٨ عن عروة بن الزبير: إن الزبير كان يحدث: أنه خاصم رجلًا من الأنصار قد شهد بدرًا، إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة ـ أي مسايل الماء في المدينة ـ كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم ارسل إلى جارك» فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله إن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله.

الانطلاق من سوء الظن

أسوأ ما في الارتياب أنه يصبح مدخلًا ومعبرًا إلى التجاوزات العدوانية على الآخرين فهو قد ينتج فتورًا في العلاقة أو قطيعة تامة، كما قد يتحول من مجرد ظن وارتياب داخل نفس الإنسان إلى افتراء على الجهة التي تعلق بها، حيث يشيع الإنسان ظنونه وشكوكه لدى آخرين، وبالتالي فإنه ينال من سمعة ذلك الطرف، ويشوه شخصيته ويصنع عليه جوًّا من الدعاية المضادة، كل ذلك اعتمادًا على ظن مجرد ودون إثبات أو دليل، فيجد الطرف الآخر نفسه في قفص الاتهام محاطًا بالشكوك والتساؤلات وكما قال الشاعر:

قد قيل ما قيل إنْ صدقا وإنْ كذبا ... فما اعتذارك من قول إذا قيلا

وقد تتطور الأمور إلى أكثر من ذلك اعتداءً وإساءة ونزاعًا وفتنة، لذلك تؤكد

التعاليم الإسلامية أهمية اجتناب سوء الظن وعدم جواز ترتيب أي أثر عليه في التعامل مع الآخرين.

الانفتاح والمصارحة

ماذا يفعل الإنسان إذا ألح على قلبه ظن سلبي تجاه إنسان آخر؟ وكيف يستطيع أن يواجه ذلك الخاطر السيئ؟

قد يصعب عليه تجاهل شك سيطر على ذهنه وهو في ذات الوقت لا يرغب في الاستمرار مع مفاعيل الظن السوء.

إن الوعي السليم والتفكير الموضوعي يفرض على الإنسان هنا الانفتاح على الشخص المعني ومصارحته بما يدور في نفسه حوله، لإعطائه الفرصة لتوضيح موقفه، إن كان له مبرر أو مسوغ وتشجيعه على التراجع عن خطئه إن كان مخطئًا.

يقول المفكر «الفرنسي روجيه» ميل: «إنني لا أستطيع اجتناب الشك، ما دام كل إنسان يتميز، أول ما يتميز، بواقع أنه حامل سر لولاه لما تحلى بوجود صميمي إطلاقا. وينجم عن إنني أنا نفسي مما يمكن أن يطاله الشك، ولذا فإنني لا أستطيع الا أشك في الآخرين. فما السبيل إلى الخلاص من هذا الدرب المسدود؟

ليس ثمة غير سبيل واحد: سبيل الاعتراف للآخر بالشك الذي ينتابني بصدد قوله وعمله. وهذا الاعتراف بالشك يستطيع وحده اعادة الحوار ومنحه صحة وصدقًا. ولا شيء ينم عن إحترام الشخص الإنساني مثل أن يقال له: أحسب أنك.. ذلك إنني أسلم نفسي على هذا المنوال إلى الآخر، وأعترف بدوري بأنني موضع ارتياب ممكن ايضًا. وهذا يكفي حتى نبلغ كلانا درجة صدق أسمى».

ما أحوجنا إلى الشفافية والوضوح، وأن يكون الانفتاح والمصارحة هو السبيل لمعالجة تحفظاتنا وإشكالاتنا على بعضنا بعضًا، بدل أن نعيش في ظل أجواء ملبدة بغيوم الشكوك والظنون، وأن تتضرر علاقاتنا الاجتماعية.

بين الحقوق والواجبات[1]

باعتبار الإنسان عضوا في مجتمعه، وجزءًا من محيطه، فعلاقته مع ما حوله علاقة تفاعل بين طرفين، وذلك يعني وجود التزام متبادل له وعليه، وقد أصبح متداولًا أن يطلق على الالتزامات التي عليه مصطلح الواجبات، أي ما يجب عليه تجاه الآخرين، كما يطلق على التزامات الآخرين المفترضة نحوه عنوان الحقوق، أي ما يستحقه منهم. وفي الأصل فإن الحق والواجب يرجعان إلى معنى واحد هو الثبوت، جاء في لسان العرب: حق الأمر يحق ويحق حقًا وحقوقًا: صار حقًا وثبت، قال الأزهري: معناه وجب يجب وجوبًا. وفي التنزيل: قال الذين حق عليهم القول: أي ثبت. وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وجبت وثبتت.

وعن معنى الواجب والوجوب أيضًا في لسان العرب: يقال: وجب الشيء يجب وجوبا إذا ثبت، ولزم.

فالحق له في اللغة معانٍ كثيرة، والمظنون رجوعها إلى مفهوم واحد، وجعل ما عداه من معانيه من باب اشتباه المفهوم بالمصداق، وذلك المفهوم هو الثبوت تقريبا، فالحق بمعنى المبدأ هو الثبوت، والحق بالمعنى الوصفي هو الثابت، وبهذا الاعتبار يطلق الحق عليه تعالى لثبوته بأفضل أنحاء الثبوت الذي لا يخالطه عدم أو

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٩ جمادى الأخرة ١٤٢٣هـ، ٢٨ اغسطس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٦٦.

عدمي، والكلام الصادق حق لثبوت مضمونه في الواقع ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ أي يثبته ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾، أي ثابتًا ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾، أي ثبت، ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي ثبتت، و﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي النازلة الثابتة و﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي ثابت عليّ.

وبناءً عليه فإن الحق والواجب يؤديان معنىً واحدًا، وفي مجال بحثنا فإن الحقوق هي الأشياء الثابتة على الإنسان للآخرين، أو على الآخرين للإنسان، والواجبات هي الثابتة على الإنسان للآخرين، أو على الآخرين له، فالحقوق واجبات، والواجبات حقوق، والفرق إنما هو في النسبة للإنسان أو عليه.

الحقوق متوازية

انتظام حياة الإنسان في مجتمعه يقتضي أن يتمتع بالحقوق التي له، وأن يؤدي الواجبات التي عليه، وإذا ما حصل خلل في هذه المعادلة، فسيؤدي إلى الاضطراب في حياة الفرد والمجتمع.

ففي الحياة العائلية ـ مثلًا ـ هناك حقوق متبادلة بين الزوجين، يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإذا ما التزم كل منهما أداء حقوق الآخر، عاشا في سعادة ووئام، أما إذا تخلف أحد الطرفين عن القيام بشيء من واجباته تجاه الآخر، فسينتج عن ذلك اضطراب العلاقة، وفقدان الانسجام، مما يلقي بظله على مجمل حياة الأسرة، وإنجاز مهماتها الاجتماعية.

وعلى الصعيد السياسي: هناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، بين الحاكم والمحكوم، ورعاية تلك الحقوق من قبل الطرفين، يوفر الأمن والاستقرار، ويفسح المجال لتقدم الوطن والأمة، بينما يؤدي جور الحاكم على حقوق الشعب، أو تجاوز المواطن حق السلطة، إلى الفتنة والفوضى والفساد.

وهكذا الأمر في كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية،

فليست هناك علاقة بين طرفين يختص أحدهما بالحقوق، ويحرم منها الآخر، وحتى بالنسبة لله تعالى وهو الخالق المتفضل على عباده، فقد وعد المؤدّي لحقه تعالى في العبادة والخضوع بالجزاء والثواب.

الواجبات أولا

وإذا كان على الإنسان من الواجبات تجاه الآخرين، بمقدار ما له من الحقوق، فنقطة البداية لبناء علاقة صحيحة ناجحة مع الآخر، يجب أن تنطلق منه بالمبادرة لأداء الحقوق المتوجبة عليه، مما يلزم الآخر ويشجعه على التعامل بالمثل، وحينئذٍ تنتظم العلاقة وتستقيم.

ومعنى ذلك أن يفكر الإنسان في الواجبات التي عليه، قبل أن يفكر في الحقوق التي له، وأن ينجز ما عليه، قبل أن يطالب بما له. لكن مشكلة الأكثرين أنهم يتجاهلون ويتناسون ما عليهم من واجبات، ثم يتجهون ويطالبون بما لهم من حقوق.

وهذا ما يشير اليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف» فكل أحد يجيد التحدث عن الحق، ووصفه وتبيينه إذا كان إلى جانبه، فهو أوسع الأشياء في مقام الوصف والتبيين، أما في مقام التزام أداء الحق للآخرين وإنصافهم، فالجميع يضيقون به ذرعًا.

إن على الإنسان أن يبدأ من نفسه فيلزمها أداء حقوق الآخرين قبل أن يطالب الآخرين بحقوقه.

١. فهو مسؤول أمام الله تعالى عن الواجبات التي عليه، فحقوق الناس جزء لا يتجزأ من حقوق الله. ولكي يخرج الإنسان من عهدة المسؤولية أمام الله تعالى عليه أن يؤدي للناس حقوقهم.

٢. وإذا ما بادر الإنسان لأداء حق الآخر، كان في ذلك تثبيت لحقه، لأن الحقوق «يوجب بعضها بعضًا، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض» على حدّ قول الإمام

علي . كما يشكل ذلك دافعا وإلزامًا قانونيًا وأدبيًا للطرف الآخر تجاه الإنسان.

٣. وأداء الإنسان للحق الذي عليه هو بمقدوره وحسب إرادته، بينما أداء الآخرين لحقوقه عليهم، هو بيدهم، وإذا كان لا يمتلك قرار الآخرين وإرادتهم فإنه يمتلك قراره وإرادته فليكن البدء منه.

محورية الذات

قسم كبير من الناس يوغلون في التمحور حول ذواتهم، فيرون الحق من الزاوية التي يكونون فيها فقط، ويتحدثون دائمًا عن المفروض والواجبات على الغير، دون أن يلتفتوا إلى ما عليهم من حقوق وواجبات، وكأن الحق يدور معهم حيثما داروا.

فمثلًا: إذا كان دائنًا يشدد على واجب المدين في المبادرة إلى أداء الدين، وحرمة المماطلة والتسويف، أما إذا كان مدينًا فإنه يركز على إنظار المدين ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ ويذم الإلحاح والتضييق على المدينين!!

وإذا جاء متأخرا وقد سبقته الجماعة إلى الطعام مثلًا: تحدث عن العجلة المذمومة وعاتب على عدم انتظاره، أما إذا جاء مبكرًا وتأخر غيره، فإنه يتبرم من عدم احترام الوقت، ويدعو إلى التقيد به على حساب المتأخرين!!

وحينما يخرج بسيارته من طريق فرعي إلى طريق رئيس تتواصل فيه حركة السير، ينتقد السائقين في ذلك الطريق على سرعتهم وعدم إعطائهم فرصة لمن يريد الخروج من الطريق الفرعي، أما إذا كان يقود سيارته في الطريق الرئيس، ورأى من يريد الخروج من طريق فرعي، فسيواجهه ببوق سيارته المزعج، مبديًا انزعاجه لعدم صبر الطرف الآخر وتمهله!!

وهكذا نلحظ العديد من المواقف والممارسات التي تعبّر عن محورية الذات وتفصيل الحقوق والواجبات على قياسها.

وكم رأينا ثوارًا كانوا يعارضون السلطات لديكتاتوريتها وقمعها، ويرفعون شعارات المطالبة بالحرية والعدالة، فلما أصبحوا هم في موقع السلطة والحكم جعلوا الأولوية لحفظ النظام وحماية الأمن والاستقرار، على حساب العدالة والحرية، فاختلاف موقعيتهم وتبدل الزاوية التي ينظرون منها، أثر على رؤيتهم للقيم والمعايير.

نحو وعي حقوقي

ولكن لماذا يتجاهل أكثر الناس الحقوق التي عليهم، أو يتساهلون في القيام بها؟

١. هناك عامل الجهل وضعف الوعي الحقوقي، حيث لا يعرف الكثيرون ما يتوجب عليهم تجاه الآخرين، فالعلاقات والارتباطات في مجتمعاتنا تسير بشكل عفوي، وضمن أعراف وتقاليد، ترتكز على قوة الطرف وموقعيته.

ففي الحياة الزوجية وحيث يكون الزوج في موقع القدرة، تصبح حقوق الزوجة مغيبة مهملة، وفي مجال العمل، فإنه وتبعًا لسلطة ربّ العمل تُتجاهل حقوق العامل، وهكذا بين الأب وأولاده، وبين المعلم وتلامذته، وبين الموظف ومديره..

إن الحاجة ماسة لثقافة حقوقية، توضح للإنسان ما له وما عليه، وتوجهه إلى الالتزام بما عليه أولًا.

ولا يعني ذلك أن يتساهل الإنسان في الحقوق التي له، ولا يطالب بها، ويسكت عن مصادري حقوقه. بل المقصود ألا تكون المطالبة بالحقوق بديلًا عن القيام بالواجبات، ولا أن يوزع الإنسان المفروضات والمسؤوليات على الآخرين متناسيًا نفسه، بل يبدأ بنفسه أولًا، ثم يطالب غيره.

٢. وعامل آخر يرتبط بالتربية النفسية، والبناء الأخلاقي لشخصية الإنسان، حيث يحتاج إلى التذكير بالقيم والمبادىء، وأنها يجب أن تكون المقياس والمحور لمواقفه وتصرفاته، وليس مصالحه الذاتية.

من جهة ثانية، فإن اعتراف الإنسان بالحقوق التي عليه يعني تحمله لمسؤولية أدائها، بينما المطالبة بالحقوق التي له، هو تحميل للآخرين، ويشكل لونًا من ألوان التهرب من المسؤوليات.

٣. وفي أحيان كثيرة يتساهل الإنسان في حقوق القريبين منه، على أساس دالته عليهم، وموقعيته بينهم، وكأن ذلك يعفيه من التزاماته تجاههم. وهذا خطأ كبير، فمراعاة حقوق الأقربين أولى، لأنهم الأكثر احتكاكًا وارتباطًا بالإنسان، وإذا ما تعود تجاوز حقوقهم، فسيعيشون معه معاناة دائمة.

وكذلك الحال في العلاقة مع الأصدقاء، فإن تجاوز حقوقهم اعتمادًا على تغاضيهم عن ذلك، يسبب تدمير الصداقة وإنهاء الأخوة.

الأمن والتقدم[1]

السلم كلمة واضحة المعنى، تعبر عن ميل فطري في أعماق كل إنسان، تحكي رغبة جامحة في أوساط كل مجتمع سوي، وتشكل غاية وهدفًا نبيلًا لجميع الأمم والشعوب.

والسلم؛ السلام، وأصله السلامة، أي البراءة والعافية والنجاة من العيوب والآفات والأخطار.

قد يكون الحديث عن السلم أو الحرب على صعيد علاقة المجتمع بمجتمعات أخرى. أو يكون على مستوى الوضع الداخلي للمجتمع والعلاقات القائمة بين أجزائه وفئاته.

فهناك مجتمع يعيش حالة احتراب وصراع داخلي، ومجتمع تسوده أجواء الوئام والانسجام والوفاق.

وحديثنا عن السلم الاجتماعي نقصد به حالة السلم والوئام داخل المجتمع نفسه وفي العلاقة بين شرائحه وقواه. إن من أهم المقاييس الأساسية لتقويم أي مجتمع، تشخيص حالة العلاقات الداخلية فيه، فسلامتها علامة على صحة المجتمع وإمكانية

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٣ شعبان ١٤٢٣هـ، ٩ كتوبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٠٨.

نهوضه، بينما اهتراؤها دلالة سوء وتخلف.

إن تحقق السلم الاجتماعي عامل أساسي لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فقدت حالة السلم والوئام الداخلي أو ضعفت، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هو تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار، حيث تسود حالة الخصام والاحتراب، فيسعى كل طرف لإيقاع أكبر قدر من الأذى والضرر بالطرف الآخر، وتضيع الحدود، وتنتهك الحرمات، وتدمر المصالح العامة، حين تشعر كل جهة أنها مهددة في وجودها ومصالحها، فتندفع باتجاه البطش والانتقام وإحراز أكبر مساحة من السيطرة والغلبة.

وينطبق على هذه الحالة ما روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «من بالغ في الخصومة أثم ومن قصّر فيها ظُلم ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم».

وفي رحاب السلم الاجتماعي يمكن تحقيق التنمية والتقدم، حيث يتجه الناس صوب البناء والإنتاج، وتتركز الاهتمامات نحو المصالح المشتركة، وتتعاضد الجهود والقدرات في خدمة المجتمع والوطن. على عكس ما يحصل في حالة الخصام والاحتراب، ومن انشغال كل طرف بالآخر، ومن تغليب المصالح الخاصة والفئوية على المصلحة العامة والمشتركة. وفي مثل هذا الوضع ليس فقط تستحيل التنمية والتقدم، بل يصعب الحفاظ على القدر الموجود والقائم، فيتداعى بناء المجتمع، وينهار كيان الوطن، وتضيع مصالح الدين والأمة.

وأمامنا بعض الأمثلة القريبة المعاصرة كلبنان وأفغانستان والجزائر والصومال. ففي الجزائر وهي بلد تتمتع بثروة نفطية ولشعبها تاريخ إسلامي نضالي مشرق ضد الاستعمار الفرنسي في العصر الحديث، بلغت حصيلة العنف إلى ما قبل تطورات هذا العام ١٥٠ ألف قتيل حسبما أثبته النقيب والمظلي السابق في الجيش الجزائري حبيب سويدية في كتابه الذي صدر أخيرًا بعنوان (الحرب القذرة). ناهيك عن التدمير العنيف في بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وقدرت دراسة رسمية جزائرية في عام ١٩٩٨م الخسائر الناجمة عن أعمال العنف خلال السنوات الماضية

بأكثر من ١٦ بليون دولار.

وفي الصومال أدت عمليات الاقتتال بين المليشيات المتحاربة إلى مقتل أكثر من مئة ألف إنسان وإلى إصابة الحياة بالشلل وإلى تهجير وتشريد الآلاف من المدنيين معظمهم من النساء والأطفال.

لقد تحولت الصومال إلى محرقة للبشر، وجرى تدمير المدن ومظاهر الحياة المدنية بصورة منتظمة، ويقدر أن أكثر من نصف مليون قد ماتوا نتيجة الجوع أو انهيار الخدمات الصحية، وبعد أن كان نصيب الفرد من الناتج القومي في الصومال يصل إلى ٢٩٠ دولارًا في النصف الثاني من الثمانينيات، انحدر في سنوات الحرب إلى ٣٦ دولارا فقط حسب تقدير منظمات دولية.

وفي لبنان أدت الحرب الأهلية التي استعر أوارها سنة ١٩٧٦م واستمرت أكثر من ١٣ سنة إلى مقتل ٣٥٠ ألف إنسان وإلى تشريد ٧٥٠ ألفا وإصابة ١٢٠ ألفا بإعاقة وإلى فقد نحو ٣٠ ألفًا.

ونلحظ اختلاف الأوضاع والظروف في البلدان التي ابتليت بفقدان السلم الاجتماعي والوقوع في فخ الاحتراب والتناحر. فهناك بلد فقير وآخر غني، وبلد آسيوي وآخر إفريقي، وبلد تتنوع فيه الأعراق، وآخر ينتمي مواطنوه إلى عرق واحد وقومية واحدة، وبلد تتعدد فيه الأديان والمذاهب، وآخر يسوده دين واحد ومذهب واحد، وهكذا مما يعني أن الخطر قد يدهم أي مجتمع لا يمتلك المناعة الكافية، ولا يتسلح بقوة السلم الاجتماعي المتين.

الرؤية الإسلامية

جاء الإسلام دعوة للسلم والسلام على مستوى العالم أجمع والبشرية جمعاء ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾.

وقد تكرر الحديث عن السلم والسلام في أكثر من خمسين آية في القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

كما يوجه الإسلام الأمة المسلمة إلى إنشاء العلاقات السلمية القائمة على البر والقسط والإحسان مع الأمم الآخرى، أما المواجهة فهي محصورة في حدود من يمارس العدوان ضد الإسلام والمسلمين، أو يمنع حركة الدعوة إلى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. ويقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وحتى لو نشبت الحرب والمعركة مع المعادين المعتدين فإن الإسلام يشجع على اغتنام أي فرصة لإيقاف الحرب والقتال إذا ما أظهر الطرف الآخر إرادته في التراجع عن عدوانه والرغبة في إقامة علاقات سلمية، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

السلم الداخلي

وإذا كانت هذه دعوة الإسلام على المستوى العالمي وفي العلاقة بين الأمة وسواها، فمن الطبيعي أن تكون أكثر تأكيدًا وإلحاحًا على الصعيد الداخلي.

لذلك تناول العديد من آيات القرآن الكريم وتشريعات الإسلام قضية الوحدة والوئام والسلم ضمن الكيان الإسلامي، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. وفي إشارة واضحة إلى الآثار التدميرية للنزاع الداخلي، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، فنتيجة النزاع الفشل وانهيار القوة.

أما الآية الكريمة رقم ٢٠٨ من سورة البقرة فهي أمر واضح ودعوة صريحة للالتزام بالسلم الاجتماعي، وتقرير له كشعار للمجتمع، وتحذير من الانزلاق عن مساره. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ

عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. ورغم أن أكثر المفسرين قالوا إن المقصود من السلم في الآية الكريمة هو الإسلام والطاعة لله، إلا أن بعض المفسرين رجح أن يكون المقصود هو السلم بمعناه اللغوي، أي الصلح والمسالمة وترك النزاع والاحتراب داخل المجتمع، وهو الرأي الراجح بالفعل.

وأخيرًا: فإن صفاء أجواء المجتمع من العداوات والصراعات، يجعله مهيئًا للتعاون والانطلاق، ويحفظ قوته من الهدر والضياع، لذلك كان من الطبيعي أن تسعى القوى المناوئة لأي مجتمع إلى تمزيق وحدته وإثارة العداوات بين فئاته، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

ثقافة السلم وأخلاقياته[1]

لماذا تنعم بعض الشعوب بالاستقرار والسلم الاجتماعي، وتتجه لبناء أوطانها وصنع تقدّمها، بينما تعاني شعوب أخرى من أهوال الاحتراب الداخلي، ومرارة الفتن والصراعات، لتكرس بذلك ضعفها وتخلفها، وسوء واقعها المعاش؟

هل يحصل ذلك اعتباطًا وبمحض الصدفة والاتفاق؟ أم أن هناك أسبابًا وعوامل تلعب دورها في توجيه حركة أي مجتمع نحو السلم والتعاون أو النزاع والشقاق؟

بالطبع، لا مجال للصدفة والعبث، في هذا الكون القائم على النظام والدقة، من قبل الخالق الحكيم، سواء على صعيد التكوين والخلق حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أو على مستوى الحركة الإنسانية الاجتماعية، اذ يقول تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

أنموذجان متقابلان

لو درسنا تجربة أي مجتمع مستقر منسجم في داخله، وأي مجتمع مضطرب متمزق، لوجدنا أن هناك صفات وسمات متقابلة بين هذين النوعين من المجتمعات، ففي النوع الأول تتوافر مقومات السلم والوئام، من سلطة مركزية، وعدالة حاكمة،

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٠ شعبان ١٤٢٣هـ، ١٦ كتوبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧١٥.

واحترام لحقوق ومصالح القوى والفئات المختلفة، إضافة إلى العوامل المساعدة على حماية وضع السلم والاستقرار، والمضادة لأي محاولات لنسفه أو تخريبه. بينما في النوع الثاني من المجتمعات تنعدم أو تضعف تلك المقومات، ولا تتوافر الحصانة والمناعة ضد أخطار الفتن والصراعات، مما يعطي الفرصة لأي جرثومة أو ميكروب وبائي للتمكن من جسم المجتمع وإنهاكه.

ولنتأمل الآن تجربتين حاضرتين في واقعنا المعاصر، تمثلان انموذجين متقابلين:

سنغافورة

وهي دولة تتعدد فيها الأعراق، حيث تتكون من أربع مجموعات عرقية... صينيون ٧٥٪، ماليزيون ١٥٪، هنود ـ باكستانيون ٧٪، أوروبيون ٢٪، كما تتعدد فيها الديانات إلى ستّ ديانات هي: البوذية والطاوية والكونفوشية ٥٤٪، الإسلام ١٨٪، المسيحية ١٣٪، الهندوسية ٤٪. وتتعدد فيها أيضا الأحزاب السياسية حيث تصل إلى عشرين حزبًا مسجلًا رسميًا.

ومع هذه التعددية تعيش سنغافورة استقرارًا داخليًا، ووئامًا وانسجامًا بين هذه الأعراق والديانات، وينشط الجميع في صنع تجربتهم الوطنية المتقدمة، وبناء واقعهم الاقتصادي المتطور، حيث يصل معدل دخل الفرد من اجمالي النا تج الوطني إلى أكثر من ١٧,٥٩٨ دولارًا وهو من أعلى المعدلات في آسيا، كما يتمتع شعبها بمستوى عالٍ في مجال الخدمات الصحية والتعليمية والإسكان والمواصلات، وبمستوى مرتفع من المعيشة والرعاية الاجتماعية، ويقدر متوسط العمر التقريبي للمواطنين ٧٥ سنة.

ويتميز اقتصاد سنغافورة بدرجة عالية من التطور والتنوع، فهي مركز مالي تجاري مهم، إضافة إلى استقطابها السياحي وإنتاجها الصناعي مع قلة مواردها الطبيعية، ورغم محدودية أراضيها المخصصة للزراعة التي تساوي ٢٪ فقط إلا ان كثيرًا من الفلاحين

يستخدمون الطرق التقنية المتقدمة، مثل الزراعة المائية، وهي زراعة النباتات في محاليل كيميائية دون تربة، وذلك لزيادة الإنتاج الغذائي، ويعدّ ميناء سنغافورة الأكثر ازدحامًا في العالم من حيث الحمولة الطنية.

إن تعددية الأعراق واللغات والديانات والأحـزاب، لم تتسبب في حدوث اضطرابات ولا نزاعات، ولم تعرقل نمو البلد وتقدمه، بل على العكس من ذلك كانت مصدر اثراء ومبعث اعتزاز لدى الحكومة والشعب. حيث تعترف الحكومة بأربع لغات رسمية هي لغات تلك المجموعات العرقية التي يتشكل منها الشعب، الصينية والانجليزية والماليزية والتاميلية، وتصدر الصحف اليومية باللغات الأربع، وتبث برامج الإذاعة والتلفاز بأربع لغات أيضًا.

رواندا

وعلى الطرف النقيض من تجربة سنغافورة تأتي حالة (رواندا) هذا القطر الإفريقي الذي تبلغ مساحته أربعة اضعاف مساحة سنغافورة حيث تقدر بـ (٢٦,٣٣٨كلم٢) بينما لا تزيد سنغافورة على (٦٣٣ كلم٢) كما ان عدد سكان رواندا سبعة ملايين نسمة، وهو أكثر من ضعف عدد سكان سنغافورة، الذي يقل عن ثلاثة ملايين نسمة.

وخلافًا لسنغافورة فإن رواندا تتمتع بثروات طبيعية من المعادن، كالبترول والغاز الطبيعي والذهب الخام والفحم، وفيها غابات ضخمة توفر الخشب المنشور وأخشاب الصناعة وحطب الوقود، وفيها ثروة حيوانية كبيرة، كما تتنوع فيها المعالم الطبيعية فهناك المرتفعات ذات الفوهات البركانية، والأودية المتعرجة، والبحيرات ذات المناظر الخلابة، فضلًا عن السهولة الممتدة التي تغطيها الحشائش، ويطلق عليها بلد العشرة آلاف هضبة.

وفيها مجموعتان عرقيتان الهوتو ٩٠٪ والتوتسي ٩٪ تنتميان إلى أصل واحد لخضوعهما تاريخيًا لملك واحد هو موامي. ويدين معظم أبناء القبيلتين بدين ومذهب

واحد حيث يتبعون الكنيسة الكاثوليكية.

لكن هذا البلد يعيش وضعًا مأساويًا نكدًا، بسبب افتقاده الاستقرار والسلم الاجتماعي، فمنذ مئات السنين تسيطر قبائل التوتسي ـ الأقلية ـ على قبائل الهوتو التي تشكل الأكثرية، ونتيجة لشعور الاكثرية الهوتو بالاجحاف والغبن تفجر صراع دموي عام ١٩٥٩م ذهب ضحيته ١٥٠ ألف قتيل، وتشرد ١٥٠ ألفًا آخرين، وسيطر الهوتو في أعقاب ذلك على السلطة والحكم، ثم تفجر الصراع مرة أخرى سنة ١٩٩٤م بشكل أعنف، فأدى إلى سقوط نصف مليون قتيل، ونزوح اكثر من مليوني مواطن، لجأوا إلى الدول المجاورة، ولقي عشرات الآلاف من هؤلاء اللاجئين حتفهم من الكوليرا وسائر الأمراض.

ونتيجة لهذا الاحتراب الداخلي، تعيش رواندا تخلفًا شاملًا، فهي دولة فقيرة اقتصاديًا، رغم إمكاناتها الكبيرة، فقطاع الصناعة فيها ما زال محدودًا للغاية، والحياة المعيشية صعبة مما يضطر الكثيرين من مواطنيها للهجرة، طلبًا للرزق في البلاد المجاورة، وتعاني عجزًا في الخدمات التعليمية والصحية، فنسبة الأمية ٥٠٪، وتوسط العمر التقريبي ٤٠ سنة فقط، وفي مجال المواصلات فإن معظم طرقها برية ترابية، وتفتقر لخطوط السكك الحديدية، وتحتاج دائمًا للمساعدات الخارجية.

الحصانة والوقاية

من الطبيعي أن تتأثر العلاقات الداخلية في أيّ مجتمع بمختلف العوامل السلبية والايجابية، فهناك عوامل مساعدة على نمو تلك العلاقات وتوثيق اواصرها، وترشيد مسارها، وهناك عوامل أخرى من داخل المجتمع أو خارجه تلعب دورًا سلبيًا في الإضرار بالسلم الاجتماعي، وإثارة الفتن والخلافات والنزاعات المدمرة.

من هنا تحتاج المجتمعات المهتمة باستقرارها ووحدتها الدينية والوطنية، إلى اليقظة والوعي، وإلى تفعيل المبادرات، والبرامج الوقائية والعلاجية المساعدة على

حماية سلمها من التصدع، وتعزيز وحدتها وتضامنها.

ونشير هنا إلى بعض تلك البرامج الهامة في هذا المجال:

١. **نشر ثقافة السلم**

تلك الثقافة التي تثير في الناس فطرتهم النقية، ووجدانهم الإنساني، وتبعث عقولهم على التفكير بموضوعية وعمق في خدمة واقعهم ومستقبلهم الاجتماعي والوطني، وتلفت أنظارهم إلى التحديات الكبرى والاخطار الرئيسة المحدقة بهم كأمة ووطن، وتدفعهم إلى التنافس الإيجابي والعطاء والإبداع.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

وكمسلمين والحمد لله، فإن تراثنا وتعاليم ديننا الحنيف فيها ثروة عظيمة، وزخم هائل من التوجيهات والإرشادات، التي تجعل الوحدة والسلم في طليعة الفرائض والواجبات، وكما قال احد علماء المسلمين: قام الإسلام على شيئين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ففي القرآن الحكيم عشرات من الآيات التي تدعو إلى حسن التعامل مع الناس بشكل عام، ورعاية حقوقهم المادية والمعنوية، ففي سياق الحديث عن الكفار يحذر الله تعالى من الاعتداء عليهم إن لم يبدأوا هم بالعدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وعند الأمر بالدعوة إلى الله تعالى يؤكد الخالق جل وعلا على رعاية مشاعر المدعوين واحترام أحاسيسهم يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وينهى المسلمين عن ان يتناقشوا مع المخالفين لهم في الدين الا بأفضل أسلوب وأحسن طريقة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وبشكل عام يؤكد القرآن أهمية التخاطب الافضل مع الناس؛ لأن أيّ إساءة لفظية قد تكون مدخلًا للعداوة والبغضاء:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

ويدعو القرآن الكريم إلى التعامل الأفضل حتى مع الأعداء، بغرض تجاوز حالة العداء ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

هكذا يعتبر القرآن السيطرة على الانفعالات، والقدرة على التعامل مع المخالفين والأعداء بحكمة وروية، درجة سامية، لا يرقى إليها إلا ذوو القسط الوافر من الوعي والتقوى.

هذه التعاليم العظيمة نموذج من منظومة مفاهيمية ثقافية متكاملة، تشكل رؤية الإسلام وبرنامجه، لتوطيد السلم الاجتماعي، وتنميته وحمايته. وفي المقابل هناك ثقافة سلبية تقوم بنشر الكراهية والحقد بين الناس، وتضخيم نقاط الاختلاف المحدودة، والتعتيم على مساحات الاتفاق الواسعة، وتشتغل بالتعبئة والتحريض، تحت عناوين مختلفة.. عرقية أو مذهبية أو قبلية.

إن مثل هذه التوجهات تخالف منهج الإسلام، وتجرّ المجتمع إلى الفتن والويلات، وكما قيل: فإن الحرب أولها كلام.

ولو استقرأنا الفتن والحروب الأهلية في المجتمعات الماضية والمعاصرة، لوجدنا بذورها قد نمت في أرضية مثل هذه الثقافة التحريضية البغيضة. لذلك حينما يأمر الله عباده المؤمنين بالدخول جميعًا إلى رحاب السلم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ يحذرهم بعد ذلك مباشرة من الاستجابة للإثارات الشيطانية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فالشيطان لا ينقل المجتمع بقفزة صاروخية مفاجئة نحو الصراع والاحتراب، بل يستدرجهم عبر سياسة الخطوة خطوة، التي قد تبدأ بنشر ثقافة الكراهية والحقد.

٢. التربية الاخلاقية

بأن تكون أجواء الأُسرة، ومناهج التعليم، وسيرة القادة في المجتمع، ملتزمة التربية والتنشئة على أساس الاحترام المتبادل بين أطراف المجتمع.

٣. إصلاح ذات البين

وقد اكد الإسلام الدعوة إلى الإصلاح ومعالجة حالات الاختلاف والصراع داخل المجتمع بين الأفراد أو الفئات يقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إن الخلاف والصراع أمر محتمل الوقوع بين المؤمنين باعتبارهم بشرًا لهم مصالح وأهواء، وقد يتصاعد هذا الاختلاف إلى حدّ الاقتتال، لكن المجتمع عليه أن يتدخل لوضع حدٍّ لهذا الصراع: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

وعن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين».

منهجية التفكير[1]

من مصلحة الإنسان أن يرى الأشياء على حقيقتها، وبحجمها الواقعي، ليتعامل معها بشكل صحيح. فمن يقود السيارة ـ مثلًا ـ يحرص على أن يركز نظره، ويتجنب ما يعرقل الرؤية أو يشوشها، ليرى إشارات المرور، ومنعطفات الطريق، والمسافة بينه وبين السيارات الأخرى، فلا تختلط عليه الألوان، ولا تلتبس عليه المسافات الفاصلة، ليتمكن من القيادة السلمية، أما إذا كان يعاني من خلل في النظر، أو تساهل في التركيز والانتباه، فرأى القريب بعيدًا، أو البعيد قريبًا، أو لم ينتبه لمنعطف أو ارتفاع في الطريق، فإن ذلك يعرضه للسوء والخطر. كذلك في عالم الآراء والأفكار، فإن مصلحة الإنسان تقتضي حرصه على تمييز الأفكار، ومعرفة الصواب فيها من الخطأ، ليأخذ منها الموقف السليم.

لذلك يحتاج إلى تركيز الفكر، والحذر من المؤثرات التي تشوش الرؤية أو تنحرف بها، حتى يتسنى له إدراك الحقائق، والوصول إلى مواقع الصواب.

إن من أهم شرائط التفكير السليم التزام الموضوعية في البحث، دون ميل وإنحياز، ليرى الإنسان الحق حقًا فيتبعه، والباطل باطلًا فيجتنبه. أما إذا أبتلي الإنسان بداء التعصب الفكري، فإنه يفوت على نفسه فرصة الإدراك الصحيح، والرؤية السليمة.

إن لداء التعصب الخطير مظاهر وأعراضًا على مستوى الفكر، كما له انعكاسات

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٨ رمضان ١٤٢٣هـ، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٤٣.

على ساحة النفس، وميدان السلوك. ولعل من أبرز تجليات حالة التعصب الفكري، السمات التالية:

١. الارتباط العاطفي بالفكرة.

٢. الانغلاق على الفكرة.

٣. رفض المراجعة والحوار.

النقطة الأساس في التعامل مع الأفكار والآراء، اعتماد منهجية سليمة في التفكير، بأن يفسح الإنسان المجال لعقله، لكي يمعن النظر في كل فكرة بموضوعية وتجرد، دون تأثير أو تشويش من العوامل العاطفية الذاتية، أو الضغوط الخارجية.

إن التزام المنهجية السليمة في التفكير قيمة عليا، وهدف مقصود، بغض النظر عما يوصل إليه من نتائج صائبة في الرأي، فحتى لو أدى اجتهاد الإنسان الفكري إلى نتيجة خاطئة، لسبب أو آخر، فإنه لا يؤاخذ بخطئه عقلًا وشرعًا، ما دام قد بذل جهده، ضمن منهجية سليمة، بينما لو أدرك نتيجة صائبة باعتماد منهجية خاطئة، فإنه يستحق اللوم والمؤاخذة.

وفي مجال العلوم الشرعية، اتفق علماء الإسلام على أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد، وانما أستحق الأجر مع خطئه لما بذل من جهد ضمن منهجية صحيحة للاستنباط. أما لو سلك منهجية غير سليمة، كالإعتماد على طريق السحر والشعوذة، أو أطياف النوم، لاخذ الرأي الشرعي، فإنه محاسب على انتهاج هذا المسلك الخاطىء، ولو وصل عبره إلى ما يطابق رأي الشرع.

إن سلامة منهجية التفكير تعني تحرر العقل في بحثه ونظره من المؤثرات العاطفية، بأن يعطي الإنسان لعقله حرية العمل والحركة، ولا يقيده برغباته وانشداداته العاطفية والمصلحية، ليقوم العقل بدوره خير قيام، وليؤدي وظيفته على أحسن وجه، ويستطيع الإنسان بعد ذلك أن يعتمد على حكم عقله، وأن يثق بحصيلة فكره. فكما تثق برؤيتك البصرية السليمة، يمكنك الثقة بحكم عقلك المتحرر، لان الله تعالى وهبك العقل

للتفكير، كما منحك العين للابصار.

لذلك تؤكد النصوص الدينية على مرجعية العقل، وعلى الثقة بدوره.

لكن مشكلة الكثيرين من الناس هو التنكر لعقولهم وتجميدها، وتبني افكارًا واراءً دون عرضها على العقل، ودون إعطائه الفرصة لفحصها ودراستها، وقد يقحم البعض من الناس عواطفهم وميولهم في ساحة عمل العقل فيربكون حركته، ويشلون فاعليته.

إن تركيبة العقل وآلية عمله تقتضي التماس الدليل والبرهان، لأي فكرة أو رأي، فإذا توافر الدليل الصادق والبرهان الصحيح، بارك العقل تلك الفكرة وزكاها، أما إذا انعدم الدليل، أو كانت الحجة واهية، فضح العقل زيف تلك الفكرة وأنكرها. لذلك يؤكد القرآن الكريم على محورية الدليل والبرهان في اتخاذ موقف من أية قضية أو رأي.

ففي أربعة موارد من آيات القرآن تكرر قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وفي آية اخرى يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

وكما قال الشاعر:

نحـــــن أتباع الدليل حيثما مــــــال نميل

وقال شاعر آخر:

من ادّعى شيئًا بلا شاهد لا بدّ أن تبطل دعـواه

ولكن لماذا يتجاوز بعض الناس عقولهم، فيتمسكون بأفكار غير مدروسة، لا تستند إلى دليل وبرهان صحيح؟

هناك أسباب عديدة جذرها الانحياز العاطفي، على حساب الموضوعية العقلية:

فتقدير الإنسان لأسلافه، وحبه لعائلته، يجعله راغبًا في وراثة أفكارهم، وقبول متبنياتهم، من غير ان يشعر بالحاجة إلى مراجعتها، واعادة النظر فيها، على ضوء العقل، بل قد يهرب من المراجعة والدراسة، خشية ان تقوده إلى مخالفة السلف، وهو مالا يريده، ولايمتلك الجرأة عليه.

أن اكتشافه لأخطاء منهج آبائه واسلافه، يعني في نظره انتقاصهم والحطّ من مكانتهم وشأنهم، وهذا ما لا يتقبله ولا يرضاه. هكذا يضع الإنسان نفسه أمام خيار اتباع الآباء والأسلاف، والتعصب لآرائهم وتوجهاتهم ورفض ما يخالفها من الحق والصواب.

لقد كانت رسالات الأنبياء، دعوة صارخة لمجتمعاتهم، باستنهاض عقولهم، والخلاص من هيمنة أفكار الآباء والأسلاف، والتي كان الالتزام بها والتعصب لها، مانعا من قبول الهدي الالهي، واتباع منهج العقل السليم.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ❁ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

لقد نشأوا وتربوا على طريقة ومذهب آبائهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾، والأمة هنا الطريقة والمذهب. فقرروا اتباع نهج آبائهم، وتقليدهم والاقتداء بهم، دون دراسة وبحث، ولا دليل وبرهان، وحينما يخاطبهم الرسول بلباقة وأدب: ﴿وَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وذلك بهدف دفعهم للتقويم والموازنة بين نهج الآباء ورسالة الحق، أنه لا يقول لهم: إن أباءكم ضالون منحرفون، مراعاة لمشاعرهم بل يقول لهم: أعطوا لعقولكم الفرصة للمقارنة والبحث، فإن ثبت لكم أن نهج الأباء أفضل وأصوب، فلا لوم عليكم في أتباعه، أما إذا اتضح لكم أن ما أطرحه عليكم أهدى وأحق، فهل ترضون لأنفسكم مخالفة ما أقرت عقولكم أفضليته؟

لكن المؤسف أن جوابهم هو رفض التفكير والمراجعة، وأخذ موقف تعصبي: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. وفي آية أخرى ينقل عنهم القرآن الكريم شعورهم بالاكتفاء بنهج أسلافهم، وادّعائهم عدم الحاجة إلى غيره، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

هذا هو منطق كل المتعصبين بأنهم يمتلكون الحقيقة الكاملة، وأن أي فكرة أخرى لا تضيف لهم جديدًا، لذلك لا يجدون داعيًا لمراجعة أفكارهم، أو دراسة أي رأي مخالف.

وقفة بين الموضوعية والانحياز(١)

قد تصبح بعض الأفكار والآراء مصدرًا لكسب ومصلحة مادية، من مال أو جاه أو منصب، فيتشبث بها المنتفع منها لا لثبوت صحتها وأحقيتها عنده، بل لما تجلبه من مصلحة، ومن ذات المنطلق يتحمس للدفاع عنها والترويج لها.

وفي بعض الأحيان يكون الجانب المصلحي في فكرة ما هو التبرير لواقع أو حالة يعيشها الفرد، ويرغب في استمرارها، فينشأ انسجام بين رغبة الفرد وتلك الفكرة التبريرية.

وقد يتبنى الإنسان فكرة ما ضمن ظرف من الظروف، وعلى أساس مبررات معينة، ثم يتبين أنها فكرة خاطئة، إما لأنها خطأ من الأساس، أو لأن تطورات حصلت ألغت مبرراتها، أو لظهور ما هو أفضل منها، كما هو الحال في النظريات العلمية التي تتراكم وتتطور مع تقدم العلم، فتنسخ ما قبلها، أو تكون أكمل منها.

لكن بعض الناس يصعب عليه التخلي عن فكرة آمن بها ردحًا من الزمن، لأنه يعدها جزءًا من شخصيته وتاريخه، فكأن تركها إدانة لتاريخه وماضيه، ولأنه قد ألفها، وبرمج تفكيره ومعادلاته على أساسها، فيستثقل تجاوزها والتخلي عنها. لذلك يتمسك بها ويصرّ عليها، ويتعصب للدفاع عنها.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٥ رمضان ١٤٢٣هـ، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٥٠.

ومن أسباب فقدان الموضوعية، في التعامل مع الأفكار، رغبة المحافظة على التوافق الاجتماعي، فإذا كانت البيئة الأجتماعية المحيطة بالإنسان، ذات أتجاه فكري معين، فإن الفرد يتهيب مخالفة مجتمعه، ويخشى العزلة عنه، وتشتد هذه الهيبة والخشية عندما تسود المجتمع اجواء ضاغطة، تقمع أي رأي مخالف، مما يخلق عزوفًا عند الفرد، عن التفكير خارج ما هو سائد ومألوف، وإستسلاما لحالة العقل الجمعي، حسب نظرية (جوستاف لوبون) التي تنصهر في بوتقتها عقول الأفراد، وتفقد ثقتها بذاتها، وقدرتها على الاستقلال في الرأي والموقف.

ولعل في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ إشارة إلى هذه الحالة، فإن كثيرًا من أبناء قريش، كانوا يرفضون الانفتاح على دعوة الإسلام، خضوعًا للجّو السائد المضاد، الذي صنعه زعماؤهم تجاه الرسول، واتهامه بأبشع الأوصاف كالجنون، لذلك كان الرسول ﷺ يدعو أفرادهم للاستقلال بالرأي، والتفكير خارج هذا الجو الجمعي المضاد ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

كما أن آيات عديدة في القرآن الكريم تنبه الإنسان وتحذره من الخضوع للتيار العام، على حساب الحق، بأن يجمّد عقله، ويعطّل فكره، وينساق مع الحالة السائدة.

إن أحد أسباب الهوي في نار جهنم هو هذه المنهجية الخاطئة، حيث أجاب الساقطون فيها عن سؤال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾. باجابات، منها: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ويقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تأتي هذه الآيات وأمثالها في سياق تصليب إرادة الفرد للبحث عن الحق، وأمتلاك الجرأة على إتباعه، في مقابل ضغوط البيئة والمحيط الأجتماعي.

من الطبيعي أن تحظى بعض الشخصيات المتميزة بموقعية كبيرة في نفس الإنسان، وأن يمنحها الكثير من ثقته وولائه، لما يلحظه من إخلاصها الديني، أو إنجازها

العلمي، أو دورها الاجتماعي، لكن ذلك لا يصح أن يتحول إلى تبعية عمياء، وتقديس مطلق، وانبهار يفقد الإنسان ثقته بعقله ويسلبه القدرة على النظر والتفكير.

إن أي شخصية بشرية مهما عظمت ـ إلا من عصمهم ـ لا تمتلك الكمال المطلق، فهي معرضة للخطأ، بقصد أو بغير قصد، وقد تتبنى فكرة أو موقفًا ضمن ظرف معين، أو مبررات خاصة، لكن ذلك يتحول في نظر الأتباع المنبهرين إلى صواب مطلق، وحق دائم.

ولن يجدي الإنسان يوم القيامة اعتذاره باتباع الزعامات، إن لم يكن ذلك وفق الضوابط الصحيحة. لذلك يتحدث القرآن عن هذا الموقف الخاطىء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾.

وحينما جاء الحارث بن حوط مضطربًا حول موقف الخارجين على الخلافة الشرعية، وطرح على الإمام علي عليه السلام سؤاله الصارخ قائلا: أتراني أظن أنهم على ضلاله؟ إنهم شخصيات مقدسة في نظره، فكيف يمكن أتهامهم بالخطأ؟ أجابه الإمام علي، بمنطق الإسلام والعقل: «يا حارث، إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت. إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه».

أما موضوع تقليد الفقهاء المجتهدين فذلك في حدود الأحكام الشرعية الفقهية، باعتبار خبرتهم وتخصصهم، والعقل يرشد الإنسان إلى الأخذ برأي الخبراء في مجالات خبرتهم، مع إشتراط عدالة الفقيه.

إن إحترام العقل يستوجب عدم التدخل العاطفي في ميدان عمله، وعدم إرباك حركته الفكرية بالميول والانفعالات، وإذا كانت العواطف والأحاسيس تسعى لفرض هيمنتها على شخصية الإنسان، فإن عليه اليقظة والحذر حتى لا تتغلب عواطفه على عقله فتقوده إلى الخطأ والانحراف.

إن الموضوعية والتجرد في التفكير مهمة صعبة شاقة، لما للعواطف والاهواء من

دور ضاغط وتأثير عميق، لكن المطلوب من الإنسان الواعي، التسلح بالإرادة الكافية، للإنتصار لعقله. ومن مهام الدين الأساسية رفع معنويات الإنسان وتصليب إرادته، في مقابل الأهواء والعواطف، حتى يتعامل مع أية فكرة أو موقف بموضوعية وتجرد دون انحياز مسبق.

ويسمي بعض المفكرين الغربيين الهوى بـ «التحيز» ويعرفون التحيزات، بأنها: «طرائق في التفكير تقررها سلفًا قوى ودوافع انفعالية شديدة كالتي يكون مصدرها منافعنا الذاتية الخاصة، وارتباطاتنا الاجتماعية».

ويقول جوزيف جاسترو: «إن الهوى هو الحكم على شيء مقدمًا، وفي أثناء عملية الإستدلال يجعلنا نتجاهل بعض الوقائع، ونبالغ في تقدير بعضها الآخر ميلًا منا نحو نتيجة في ذهننا منذ البداية».

الدين بين الانتماء والتطبيق[1]

الدين ليس قبيلة ينتمي إليها الإنسان، ولا جنسية بلد يحملها، إنه قيم ومبادىء ومنهج وسلوك، والتدين الصادق هو التزام قيم الدين، والسير على نهجه، بَيْدَ أن المبتلين بمرض الغرور الديني، يخدعون أنفسهم بالاكتفاء بالانتماء الرسمي والاسمي للدين، دون العمل بمبادئه وتشريعاته، ويدّعون لأنفسهم الأفضلية وضمان النجاة في الدنيا والآخرة.

لكن الله تعالى لا يخدع عن جنته، والمقياس هو الالتزام والعمل، وليس الشعارات والادّعاءات، وحينما ادّعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله ﷺ ذات يوم أنهم غارقون في حب الله تعالى، وزايدوا على الآخرين في دعواهم، نزل الوحي من قبل الله تعالى مطالبًا لهم بتصديق دعواهم عمليًا باتباع تعاليم الرسول ﷺ يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

لذلك لا تكاد تجد آية في القرآن تتحدث عن الإيمان إلا وتردفه بالحديث عن عمل الصالحات؛ لأن الإيمان يجب أن يتجسد في سلوك الإنسان وممارساته.

حينما يتحدث القرآن الكريم في العديد من آياته، عمّا أصاب اليهود والنصارى، من غرور في دينهم، فإنه لا يقصد مجرد الذم والتشهير بهم، وإنما يريد تقديم الدرس

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢١ صفر ١٤٢٤هـ، ٢٣ ابريل ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٠٤.

والعبرة، وتحذير المجتمع المسلم من الوقوع في ذات المنزلق، والسقوط في نفس الهاوية.

لذلك جاء الحديث منفصلًا عن ادّعاءاتهم النابعة من الغرور مع تسليط الأضواء على منطلقاتها الخاطئة وكشف ثغراتها الجذرية.

١. فهم يدعون أن الجنة حكر عليهم وملك لهم، لا يدخلها غيرهم، وقد يدّعي غير اليهود والنصارى مثل هذه الدعوى، لذلك جاء الرد القرآني مفندا هذا الادّعاء بشكل عام، من أي جهة انطلق، فالجنة لا تنال بالأماني، وإنما يجب أن يبرهن الإنسان على استحقاقه لها، بالإخلاص لله تعالى في توجهاته، وبالإحسان في سلوكه، ومن اتصف بهاتين الصفتين كان أهلًا لدخول الجنة، من أي أمة كان يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾.

٢. وكانوا يرون لأنفسهم صلة خاصة بالله تعالى، فهم أبناء الله وأحباؤه دون سائر الخلق، لكن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، وحكمه في الآخرة، تناقض مثل هذه الادّعاءات فجميع البشر محكومون بسنن واحدة، ونظام إلهي عادل، لذلك يتعرض المخالف لسنن الله وتعاليمه للعذاب والجزاء دنيا وآخرة، من أي أمة كان، فليس بين الله وبين أحد من خلقه قرابة، وفهم خلقه وعباده جميعًا ..

يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾.

٣. ويخدعون أنفسهم بأن الله تعالى سيتساهل في مجازاتهم، ويتسامح معهم، فلا ينالهم عذاب النار، إلا بشكل محدود، وضمن فترة قصيرة، لخصوصيتهم وامتيازهم على الآخرين.

ويدحض الله تعالى قولهم، بأن ذلك نابع من غرورهم، وأن كل إنسان سيحاسب وفق عمله، وليس حسب انتمائه.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. هكذا يفضح القرآن الغرور الديني بمنطلق إلهي واضح، يقوم على أساس تساوي الخلق أمام الله تعالى، وأن التفاضل هو بالتزام القيم، وتطبيق المبادىء، وليس بالانتماء الاسمي، ولا بالأمنيات والادّعاءات والشعارات.

وهو المنطق المعتمد في الخطاب الإلهي لكل الأمم وأتباع الديانات من يهود ونصارى ومسلمين وغيرهم.

نحن لا نعيش في صحراء فارغة، نردد في أجوائها ادّعاء الأفضلية فلا يسمعنا أحد، بل نعيش ضمن عالم مزدحم بالأديان والمذاهب والنظريات والمناهج، وإذا كنا ندّعي أحقية ديننا على سائر الأديان، وأفضلية مذهبنا على بقية المذاهب، فعلينا أن نثبت ذلك ونحققه عبر طريقين:

الأول: الإثبات العلمي المعرفي بعرض أدلتنا وبراهيننا وتقديم البرامج والمناهج الأفضل، لمعالجة مشاكل الحياة، ورفع مستوى البشرية.

أما إذا كنا عاجزين وفاشلين في وضع البرامج والمناهج التي نحتاجها لتيسير شؤون حياتنا، فكيف نقنع العالم بأننا نمتلك أفضل منهج، وخير سبيل؟

الثاني: السلوك الحضاري المتميز، فإن الله تعالى جعل خيرية الأمة الإسلامية، مشروطة بدورها الريادي في العالم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وبحمل رسالة الإصلاح على مستوى البشرية جمعاء ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. والمعروف مفهوم شامل لكل ما

ينفع الناس، والمنكر عنوان عام لكل ما ينكره العقل والوجدان، إن من المؤسف جدًا أن تنطلق المبادرات الإنسانية والحضارية من مجتمعات أخرى، بينما يعيش أغلب مجتمعاتنا الإسلامية حالة التخلف والجمود، والعجز حتى عن إصلاح شؤونها، وترتيب أوضاعها، مما يناقض الموقعية التي أرادها الله تعالى لهذه الأمة.

مرض الغرور في الدين[1]

الغرور لغة: مصدر قولهم غّره يغرّه، وهو مأخوذ من مادة (غ رر) التي تدلّ على النقصان، والمراد نقصان الفطنة.

اغترّ بالشيء: خدع به، ومنه قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي ما خدعك.

قال ابن منظور: غره يغره: خدعه وأطمعه بالباطل.

واصطلاحًا عرّفه الجرجاني بأنه: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وقال الكفوي: هو تزيين الخطأ بأنه صواب، وعرفه بعض بأنه إخفاء الخدعة في صورة النصيحة.

ويمكن أن نستخلص من التعريفات المختلفة، ومن الاستخدام المتداول في الثقافة المعاصرة: أن الغرور هو مبالغة الإنسان في تقدير حجم إمكاناته وقدراته، أو اعتماد على قوة غير حقيقية.

هناك ألوان مختلفة من الغرور قد تصيب الإنسان، منها اغتراره بحسبه ونسبه واعتقاده بأن انتماءه لهذه العائلة كفيل بنجاحه في الدنيا ونجاته في الآخرة، وبذلك يتوانى عن السعي والعمل والاجتهاد.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٨ صفر ١٤٢٤هـ، ٣٠ ابريل ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩١١.

وقد يغتر الإنسان بماله وثروته، فيرى ذلك مصدرًا للكمال المطلق، ولتحقيق كل التطلعات، غافلًا عن اكتساب سائر مقومات القوة.

وقد يغتر الإنسان بمستواه العلمي فيتصور أنه وصل إلى قمة العلم، وأن لا أحد يدانيه في مكانته العلمية، فيتوقف عن التقدم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ويقول تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال إني عالم فهو جاهل»[١].

كما تحدث القرآن الكريم في العديد من آياته محذرًا من الاغترار بالدنيا، بأن يستغرق الإنسان في شهواتها وإغراءاتها، دون التفات إلى المكاسب المعنوية، والمصير الأخروي، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

وأساس الغرور في كل ألوانه واحد، وهو الجهل أو الغفلة وتبرير التقاعس والكسل، للتوقف عن الاجتهاد والسعي، ونتيجته دائمًا التراجع والفشل والسقوط أمام التحدي والامتحان، يقول الإمام علي عليه السلام: «كفى بالاغترار جهلًا»، «من جهل اغترّ بنفسه وكان يومه شرا من أمسه».

هناك لون خطير من ألوان الغرور قَلّ أن تسلط عليه الأضواء وهو الغرور الديني، ونعني به أن يعتقد الإنسان امتلاكه الحقيقة الدينية المطلقة، دون استعداد للبحث والنقاش، وأنه أفضل ذاتًا من الآخرين، وأن مجرد انتمائه وانتسابه لهذا الدين، وقيامه بهذه الممارسة الدينية، يعني الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

هذا النوع من الغرور يشلّ فكر صاحبه، ويجمّد عقله، وينحرف به عن الطريق القويم ويوفر له الأعذار والتبريرات لكل تقصير أو خطأ يصدر منه، كما يدفعه إلى التعالي على الآخرين والاستهانة بحقوقهم.

والأسوأ من ذلك أنه يقدم نموذجًا مشوهًا للدين الذي ينتمي إليه.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة،

---

(١) كنز العمال، ج١٠، ص ٢٤٣، حديث ٢٩٢٩٠.

ص٢٦): «أفسد شيء للأديان غرور أصحابها، يحسب أحدهم أن انتماءه المجرد لدينٍ ما قد ملكه مفاتيح السماء، وجعله الوارث الأوحد للجنة! ومن ثم فإن صاحب هذا التدين يتوسل إلى أغراضه بما يتاح له من أسباب، بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية».

لكن الدين الحقيقي لا يوجد الغرور في نفس الإنسان، وإنما هي حالة دخيلة، ناشئة عن سوء فهم للدين، أو تحريف لتعاليمه، وبالتالي فهي نوع من الافتراء والكذب على الله، يقول تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فمنشأ الغرور ما افتروه على الدين، وليس من ذات الدين.

وقد تحصل الإضافة والافتراء على الدين من قبل شخص أو جماعة، لكنها تؤسس لنهج خاطىء يسير عليه التابعون، وهنا تأتي ضرورة الوعي والبصيرة في الدين، حتى لا يجد الإنسان نفسه مخدوعًا في دينه إن هناك عدة مظاهر لهذا المرض الخطير على الإنسان أن يتأمل نفسه، ويتفحص سلوكه، ليتأكد من سلامته من هذه الأعراض.

من الطبيعي أن يعتقد كل إنسان صحة ما يعتنقه من دين، لكن ذلك يجب أن يتأسس على الدراسة والبحث الموضوعي، فقد وهب الله تعالى للإنسان عقلًا يدرك به الحقائق ويهتدي به إلى الصواب، والعقيدة لا ينبغي أن يأخذها الإنسان كموروث عائلي، أو استجابة لأعراف البيئة الاجتماعية، وإنما عليه أن يستخدم عقله بالشكل الصحيح، بعيدًا عن تأثيرات الأهواء والمصالح، وأن يعتمد على لغة الدليل والبرهان، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١١١].

ومن مرجعية العقل، واعتماد حجية البرهان، لا يخشى الإنسان المتدين من الانفتاح على مختلف الآراء، بل يدرسها ويمحّصها ليكتشف الأحسن والأقرب إلى الحقيقة والصواب، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

هذا هو مقتضى التدين الواعي، أما المصاب بمرض الغرور الديني، فعادة ما يرفض أي بحث أو نقاش، ويكتفي بادّعاء الأحقية المطلقة، فهو وحده على الحق،

والآخرون كفار وفي ضلال مبين!! وبذلك يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين، سواء كان في أصل الدين أو في قضية من قضاياه.

اعتقاد الإنسان بأحقية دينه لا يعني الاعتقاد بعلو الذات على الآخرين، ولا يسوغ ممارسة التعالي على الغير، بالاستهانة بهم، وانتهاك حقوقهم، والإساءة إليهم.

فينبغي التمييز بين الاعتقاد بعلو المبادىء والقيم، وبين الاعتقاد بعلو الذات، لأن سمو الذات يرتبط بمدى التزامها القيم والمبادىء، وهي لاتشَّرع للظلم، ولا تقبل انتهاك حقوق الغير.

لذلك نجد التعاليم الدينية الحقة، تؤكد إحترام الآخرين والإحسان إليهم، إن الله تعالى يصف المتقين بأنهم الذين: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ويأمر المؤمنين باستخدام الخطاب الأحسن مع الناس: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ولو تأملنا النصوص الدينية الواردة في احترام حقوق أبناء الديانات الأخرى «أهل الكتاب»، لرأينا مدى اهتمام الإسلام بتربية أبنائه على رعاية حقوق الآخرين، فقد أخرج أبو داوود في سننه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إلا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[(١)].

وكان نبي الإسلام محمد ﷺ يظهر الرعاية والاحترام للآخرين، مع إعراضهم عن التصديق بدعوته الواضحة، بل ومع كل محاولاتهم ومؤامرتهم ضده وضد رسالته، حتى أنه ﷺ كان يبدي الاحترام لجنائز موتاهم فضلا عن الأحياء. أخرج البخاري عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: مرّ بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي؟ قال ﷺ: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا»، وفي حديث آخر: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال ﷺ: «أليست نفسًا؟»[(٢)].

---

(١) أبو داوود السجستاني. سنن أبي داود، حديث ٣٠٥٢.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري، حديث ١٣١٢/ ١٣١١.

الدين في حياة الإنسان[1]

الدين حالة وظاهرة عميقة الجذور في تاريخ البشر، فعلماء التاريخ والآثار يؤكدون وجود مظاهر ومعالم للتدين والعبادة في حياة مختلف القرون والشعوب البشرية. ذلك لأن الإعتقاد والإيمان انبعاث فطري وحاجة معنوية روحية في شخصية الإنسان لا يمكن تغافلها أو تجاوزها، كما أن للجسد حاجات ومتطلبات تفرض نفسها على الإنسان.

صحيح أن هناك من يناقش حول دوافع التدين عند البشر ويتلمّس لها أسبابًا وجذورًا غير الفطرة والروح حيث يرى العالم الإنجليزي «برتراند راسل» مثلًا أن منشأ ظاهرة الدين هو الخوف من العوامل الطبيعية ويرى الماركسيون أن الظروف الاقتصادية والحالة الطبقية هي التي تصنع الدين والاعتقاد، ولكن هذه التفسيرات لا تصمد أمام النقد العلمي الموضوعي رغم أنها قد تصدق في بعض الأحيان إلا أنها ليست قانونًا ينطبق على جميع الديانات ولا تنفي الدافع الفطري الروحي للتدين ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وكتب «ويل دورانت» يقول: «إن الأيمان أمر طبيعي وهو وليد الحاجات الغريزية

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٢٧ اغسطس ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٣٠.

والإحساسات المستقيمة بصورة مباشرة، أقوى من الجوع وحفظ النفس والأمان والطاعة والانقياد».

ويقول أيضا: «صحيح أن بعض الشعوب البدائية ليس لها ديانة على الظاهر فبعض القبائل الأقزام في إفريقيا لم يكن لهم عقائد أو شعائر دينية على الإطلاق، إلا أن هذه الحالات نادرة الوقوع ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا إعتقادًا سليمًا وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية».

وفي هذا الصدد يقول «بلوتارك» المؤرخ الإغريقي الشهير منذ نحو ألفي سنة: «من الممكن أن نجد مدنًا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح ولكن لم ير قط مدينة لا يمارس أهلها عبادة».

فبما أن الإنسان كائن عاقل مفكر فمن الطبيعي أن يتساءل مع نفسه عن مبدئه ومصيره، وعن العلة والغاية من خلقته ووجوده في هذه الحياة، وعن تفسير الله واهب الكونية والطبيعية التي يعايشها.

وشاءت حكمة الله تعالى مساعدة البشر في الوصول إلى الحقيقة ليتعرفوا على خالقهم وليفهموا نشأتهم ومعادهم، فبعث الله الأنبياء والرسل ليثيروا عقول الناس، ويرووا ظمأ أرواحهم بالعقيدة الصحيحة والدين الإلهي. حتى بلغ عدد الأنبياء من بداية تاريخ البشر مئة واربعة وعشرين ألف نبي أولهم آدم وآخرهم وخاتمهم نبينا محمد .

وهؤلاء الأنبياء كانت دعوتهم واحدة، والدين الذي يبشرون به واحدًا، وإن اختلفت تفاصيل التشريعات، وتفاوتت مستويات التكامل، تبعًا لاختلاف الأزمنة والعهود، وتطور حياة البشر، إلا أن الجوهر واحد، وهو عبادة الله وتوحيده والاستعداد للدار الآخرة.

وهناك أمم وأجيال من البشر حرمت نفسها من الإستضاءة بهدى السماء، ولكنها

لا تستطيع الحياة من دون عقيدة أو دين فاصطنعت لنفسها اديانًا ومذاهب، نسجتها من تصوراتها البشرية المحدودة، وإشادتها على الخرافات والأساطير والأوهام. كما أن العديد من الديانات السماوية تعرضت للتحريف والتشويه وتحولت إلى أديان ممسوخة بعيدة كل البعد عن واقع الرسالات الإلهية.

ولو تصفحنا تاريخ الديانات وألقينا نظرة على أوضاع شعوب العالم المعاصر المتدينة لرأينا شتى الديانات المختلطة بالأوهام والقائمة على الأساطير. فقد كان العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة وبعضهم كأن يصنع له صنمًا من التمر فيعبده كإله فإذا ما جاع اكله، وإلى الآن نجد في الهند مثلًا من يعبد البقر أو الماء أو الجنس.. وما زال بقايا المجوس يعبدون النار.. وهناك من يعبد الشمس أو القمر أو سائر النجوم..

توارث الأديان

غالبًا ما يكون الدين متوارثًا يأخذه الجيل الناشئ من سلفه، فالأبناء يتعرفون على الدين في أحضان عوائلهم، وبسبب التربية والبيئة، وانشداد الأبناء لعادات وتقاليد أهاليهم وتقديسهم لها، فإن الأبناء يجدون أنفسهم مندفعين لتقبل وتقمص عقائد ومذاهب عوائلهم دون أن يستخدموا عقولهم أو يعملوا أفكارهم في دراسة ومناقشة تلك العقائد والمذاهب التي ورثوها.

ومن هنا فإن أي دين جديد يلاقي صعوبة في الانتشار مبدأ ظهوره، وهذا ما واجهه الأنبياء والرسل، فقد كان تمسك الناس بعاداتهم وتقليدهم لأسلافهم حاجزًا عن تقبلهم لدعوات الأنبياء، وعادة ما تستغل مراكز القوى هذه الحالة في محاربة الدعوة الجديدة. يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ومن تكرار مثل هذه الآيات في القرآن الحكيم وعند الحديث عن مختلف

الأمم والمجتمعات يتبين مدى معاناة الأنبياء من هذه المشكلة وكيف كانوا يسعون لتجاوزها. يقول تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.وحينما يناقش نبي الله إبراهيم عليه السلام قومه حول سبب عبادتهم للأصنام والتماثيل فإن دليلهم وبرهانهم الوحيد على صحة عبادتهم وراثتهم لها من آبائهم. يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ *قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. بالطبع ليس إنشداد الأبناء لتقليد آبائهم هو السبب الوحيد في توارث الأديان والمعتقدات بل إن ضغط الآباء وإصرارهم على أبنائهم للإلتزام دينهم هو عامل مؤثر في هذا المجال ومكمل للعامل السابق، فالوالدان حيث يعتقدان بصحة طريقتهما لا يرغبان لأولادهما الضلال، فيبذلان جهدهما لإقناع الأبناء بدينهما ومنعهم من مخالفته وتركه إلى غيره.

فمصعب بن عمير مثلًا حينما أسلم بذل ابواه جهدًا كبيرًا بالترغيب والترهيب لإرجاعه إلى الكفر حتى سجناه في غرفة ضيقة في منزله ومنعا عنه وسائل الراحة، مع انه كان أرفه شاب في مجتمعه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد رأيت مصعبًا هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حبًا لله ورسوله». وسعد بن أبي وقاص أيضا استخدمت أمه معه أقسى الأساليب لإبعاده عن الإسلام حيث قالت له: لتتركن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فيعيرك الناس بي، ويقولون لك: يا قاتل أمه..

فقال لها سعد: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أترك ديني هذا لشيء، فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت فجاءها فقال لها في عزم وتصميم: يا أماه والله لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني، فإن شئت فكلي أو لا تأكلي.

الدين بين العقل والتقليد[1]

وإذا كان غالبية الناس يتوارثون أديانهم ومعتقداتهم عن آبائهم وأسلافهم فإن هناك من يتنبه فكره أو يتحرك عقله للتأمل والبحث ليختار دينه وعقيدته عن وعي وإدراك.

فسلمان الفارسي الذي ولد ونشأ في قرية «جي» من أصفهان إيران في عائلة وبيئة مجوسية ربته على عبادة النار لكنه حينما تفتح وعيه وتعرف على المسيحية اعتنقها، لأنه وجدها أقرب إلى الصواب من المجوسية، وبعد فترة اتضحت له نقاط الضعف والثغرات في الديانة الجديدة التي اعتنقها، فصار يتنقل من بلد إلى بلد معرضًا نفسه للمغامرات والأخطار حتى نهبت منه جماعة أمواله واسترقته، أي اعتبرته عبدًا تمتلكه وباعته على يهودي مزارع من يثرب، كل ذلك تقبله بسعة صدر في سبيل البحث عن الحق والحقيقة، حتى أدرك أمنيته وتشرف بخدمة الرسول محمد ﷺ وأسلم على يديه.

إن أفرادًا مثل سلمان الفارسي ممن يندفعون ذاتيًا للبحث عن الدين الحق هم قليلون ونادرون في تاريخ البشرية، نعم قد يسبب ظهور دعوة ديانة جديدة هزة في المجتمع تدفع البعض وخاصة من فئة الأحداث والشباب إلى إعادة النَّظر في ديانتهم الموروثة والتمرد عليها باعتناق الدين الجديد.

والطبقة الشابة في كل مجتمع تمثل أرضًا خصبة لتقبل الأفكار الجديدة عادة،

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٦ رجب ١٤٢٤هـ، ٣ سبتمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٣٧.

لتطلعهم للتغيير واستعدادهم للمغامرة، ولضعف تشبعهم بالفكر السائد.

إن تأثر الأبناء وتقبلهم لأفكار وعادات أهاليهم في مرحلة الصغر أمر طبيعي، ولكن بعد أن يتجاوز الإنسان مرحلة الطفولة والصغر ويمتلك رشده ونضجه العقلي فإن عليه أن يجتهد في التفكير والبحث ويناقش الآراء والعقائد السائدة، ليتبين الصواب من الخطأ ولن يكون معذورًا أمام الله وأمام عقله ووجدانه بالاسترسال في تقليد أبويه. والإسلام يؤكد ضرورة استخدام العقل والفكر في قضايا العقيدة والدين ويذم التقليد الأعمى والاتباع الساذج، ومنطق القرآن الحكيم في البرهنة والاستدلال قائم على إثارة العقل والاحتكام إليه.

قداسة الدين

من البديهي أن كل جماعة تؤمن بدين فإنها ترى فيه الصحة والصواب، وإلا فلن تعتنق مبدأ تعتقد زيفه وفساده اللهم إلا أن يكون ذلك لمجرد العصبية والتظاهر.

ويتبوأ الدين في نفوس معتنقيه مكانة رفيعة من القداسة والاحترام، بحيث يندفع المتدينون للدفاع عن عقيدتهم ويقاومون كل من يمسّ قداستها، ويضحون بأنفسهم لحماية مبادئهم وأديانهم. وحتى عبّاد الأوثان والأصنام يثأرون ممن يوجه إساءة لأصنامهم ويخوضون المعارك والحروب للدفاع عن عبادتهم الزائفة.. فنبيّ الله إبراهيم عليه السلام حكم عليه قومه الوثنيون بالموت حرقًا فألقوه في النار، لأنه كان يسخر من عبادتهم وأصنامهم ويعلن بطلانها وفسادها، يقـول تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

وطريف جدًا أن ننقل هنا عن «المهاتما غاندي» تقديسه واحترامه لعبادة البقرة في الهند، وهو شخصية سياسية قيادية مرموقة تحررت الهند على يديه يقول، تحت عنوان «أمي البقرة » ما يلي:

«إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية هي هدية الهند إلى العالم، وهي إحساس

برباط الأخوة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان فهي خير رفيق للمواطن الهندي وهي خير حماية للهند.

عندما أرى بقرة لا أعدّني أرى حيوانًا، لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.

وأُمي البقرة تفضل أُمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا تتطلب منا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي، وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن أُمنا البقرة فلا نخسر لها شيئًا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية؛ لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرن.

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة، إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعدّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين».

إن عددًا من المعارك والحروب نشأت في التاريخ القديم والحديث من منطلق حماية الدين والدفاع عن العقيدة، وحتى في أوروبا المعاصرة التي تسودها المادية فإن فيلمًا قد عرض خلال السنة الماضية فيه إساءة وتجريح لشخصية السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بعنوان «الإغواء الأخير للسيد المسيح » فحصلت على أثره ضجة ومظاهرات من قبل المسيحيين وأحرقوا عدة دور للسينما كانت تعرض ذلك الفيلم.

انتشار الأديان

لأن الدين شأن قلبي روحي، لذلك فإن الطريق الطبيعي لقبول أي دين هو الاقتناع والاختيار الحرّ، فبمقدار ما يمتلك أي دين من حجة وأسلوب مؤثر، وحسب مستوى دعاة ذلك الدين وكفاءتهم، يكون إقبال الناس عليه واعتناقهم به.

وقد اعتمدت الأديان السماوية منطق الحجة والإقناع في طرح مبادئها على الناس، وكانت أخلاق الأنبياء والأوصياء خير وسيلة للاستقطاب والتأثير.

يقول القرآن الحكيم مقررًا لهذا المنهج ومؤكدًا عليه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

كما يستعرض القرآن الحكيم قصص الأنبياء وطريقة تبليغهم للرسالة وعرضها على أقوامهم بالدليل والبرهان واستقبال حالات التكذيب والرفض بسعة الصدر، وحسن الخلق.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يطوي مئات السنين داعيا قومه إلى رسالة الله متحملًا الأذى والإهانة والتكذيب دون أن يتخلى عن أُسلوب الطرح الهادئ ومخاطبة الوجدان والعقل، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۞ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

ونبيّ الله شعيب عليه السلام حينما هدده قومه بأن يرجموه بالحجارة حتى الموت أجابهم بكل ثقة وهدوء ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وبمراجعة سريعة لقصص الأنبياء في القرآن الكريم تبدو هذه الحقيقة جلية واضحة.

لا إكراه في الدين[1]

من الطبيعي أن يسعى أصحاب كل دين لنشر دينهم والتبشير بعقيدتهم ليغطي أكبر مساحة ممكنة من أبناء البشر.

فما داموا يعتقدون الصواب والحق في دينهم فسيكونون مندفعين لدعوة الناس إليه، كما أن وفاء وإخلاص كل شخص لدينه يجعله متحمسًا للتبشير به، ولأن الدين يصبح جزءًا هامًا من ذاتية الإنسان وشخصيته، فأي تقدم أو مكسب للدين يعتبره الإنسان تقدمًا ومكسبًا ذاتيًا وشخصيًا.

بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الأديان توجه أبناءها ومعتنقيها للعمل من أجل نشرها واقناع الآخرين بها، كما هو شأن الإسلام مثلًا الذي يقول على لسان نبيه محمد ﷺ: «وأيم الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس».

بالطبع هناك بعض الديانات تحصر نفسها في عرق معيّن وتغلق أبواب دعوتها على من لم ينحدر من تلك العروق كما ينقل عن المجوسيين الزرادشتيين الذين يحرمون على أي إنسان لم يولد زرادشتيًا أن يعتنق دينهم رغم اعتقادهم بأفضلية دينهم على سائر الأديان، ولذلك أشرف دينهم على الانقراض حيث لا يزيد عدد أتباعه حاليًا على (١٢٠) ألف مجوسي في العالم.

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٣ رجب ١٤٢٤هـ، ١٠ سبتمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٤٤.

ولكن كيف تكون الدعوة إلى الدين؟

إن الطريق الصحيح والمشروع هو محاولة إقناع الآخرين والتأثير على نفوسهم باتجاه الدين، ولكن البعض قد يستخدم القوة والعنف لفرض الدين الذي يؤمن به على الآخرين، وهذا ناتج عن الجهل أو روح التسلط والظلم.

فمن يفرض دينه على الناس بالقوة والقهر إنما يعترف بفشل عقيدته وعجزها عن استقطاب الناس وإقناعهم، أو إنه يستغل الدين كستار وغطاء لعدوانه وتسلطه على الناس، وكم عانت البشرية وتحملت المصائب والمآسي في حروب وصراعات دامية تحت شعارات دينية وفكرية.

ففي العصور الوسطى مثلًا رزحت الشعوب الأوروبية في ظل القمع والإرهاب باسم الكنيسة حيث سنّ الملك الفرنسي (شارلمان) قانونًا يقضي بإعدام كل من يرفض أن يتنصر، ولما قاد حملته القاسية على السكسونيين والجرمان أعلن أن غايته إنما هي تنصيرهم.

ولمحاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة في تلك العصور سمعة سيئة وسجل قاتم مظلم، فقد اجتهدت في فرض آراء الكنيسة على الناس باسم الدين، والتنكيل بكل من يرفض أو يعارض شيئًا من تلك الآراء، فنصبت المشانق وأشعلت النيران لاحراق المخالفين، ويقدر أن من عاقبتهم هذه المحاكم يبلغ عددهم (٣٠٠,٠٠٠)، أحرق منهم (٣٢٠٠٠) أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف (برونو)، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه وذلك يعني أن يحرق حيًا، وكذلك كان، وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليلو (galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

وحينما جاء الإسلام أعلن موقفه الواضح والصريح من حرية الاعتقاد واختيار الدين، وأرسى القرآن الحكيم مبدأ الحرية الدينية الفكرية في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وكانت المسيحية ـ آخر الديانات قبل الإسلام ـ قد فرضت فرضًا بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعًا وحبًا! ولم تقصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية، بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح!

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن ـ من أول ما يعلن ـ هذا المبدأ العظيم الكبير: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه هي أخصّ خصائص التحرر الإنساني.

والإسلام ـ وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء ـ هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكره الناس على هذا الدين.. والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نفي الجنس كما يقول النحويون.. أي نفي جنس الإكراه، نفي كونه ابتداءً فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي عن مزاولته، والنهي في صورة النفي ـ والنفي للجنس ـ أعمق إيقاعًا وآكد دلالة.

والآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على وضوحها وصراحتها ليست هي المورد الوحيد لإعلان الحرية الدينية وتأكيدها في القرآن الحكيم، بل هناك العديد من الآيات الشريفة التي تعالج موضوع حرية العقيدة والفكر من مختلف الجوانب والأبعاد.

فالإنسان في نظر القرآن مسؤول أمام الله عما يصدر منه، يقول تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ويقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

والأنبياء وظيفتهم التبليغ والتذكير، ولو أن الله تعالى يريد الطاعة من الناس بالقسر

لكان سهلًا ويسيرًا على قدرته، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ويقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وآيات عديدة كثيرة في القرآن الحكيم تشكل منظومة كاملة حول حرية الإنسان في هذه الحياة، وما الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إلا الخلاصة والعنوان لهذه المنظومة الهامة الخطيرة.

وننقل ما قاله أحد الغربيين في هذا المجال، يقول lane poole «إنه في الوقت الذي كان التعصب الديني قد بلغ مداه جاء الإسلام ليهتف ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وكانت هذه مفاجأة للمجتمع البشري الذي لم يكن يعرف حرية التدين وربما لم يعرفها حتى الآن، وسار محمد على هذا المنوال مسيرة لم تعرف التردد».

احترام الآخرين في تربية الإسلام[1]

المسلم الممتلئ ثقة بدينه وأنه دين الله الحق، والطريق الوحيد للهدى والصواب، وأن ما عداه باطل وضلال وانحراف، كيف يتّسع فكره وصدره للتعايش مع الديانات الزائفة حسب عقيدته ومع الشعائر الخرافية الفاسدة لتلك الديانات، كعبادة النار والخضوع للأوثان، وكنكاح المحارم وتقديس البقر..؟

إن تربية الإسلام وتعاليمه في الوقت الذي تبني فيه فكر الإنسان المسلم ومشاعره على أساس عبادة الله وتوحيده والتزام دينه الحق فانها تركّز في نفس الوقت على احترام الإنسان كإنسان مهما كان دينه ما لم يكن معتديًا ظالمًا أو محاربًا للحق. فالناس «صنفان إما أخ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق» كما يقول الامام علي بن أبي طالب عليه السلام.

واحترام الإنسان يعني حرمة حقوقه المادية كجسده وماله وحقوقه المعنوية كحريته وكرامته واختياره لدينه.

من هنا يرفض الإسلام اضطهاد الناس على أساس دينهم أو اعتقاداتهم، بل ويوصي الإسلام أبناءه بأن يكونوا المثل الأعلى في الأخلاق وحسن التعامل مع الآخرين، حتى لا تحسب تصرفاتهم غير اللائقة على الإسلام فتشوّه سمعته وتنفّر الآخرين منه.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٠ رجب ١٤٢٤هـ، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٥١.

إن القرآن الحكيم يشجّع المسلمين على البرّ والإحسان للكفار غير المعادين المحاربين، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنهَاكُم اللَّهُ عَن الَّذِينَ لَم يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّينِ وَلَم يُخرِجُوكُم مِن دِيَارِكُم أَن تَبَرُّوهُم وَتُقسِطُوا إِلَيهِم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ﴾.

وإذا كان مطلوبًا من المسلم أن يدعو إلى دينه وأن يوضّح بطلان وفساد الأديان الإخرى إلا أن ذلك يجب أن يكون بأسلوب لائق لا يجرح مشاعر الآخرين ولا ينفّرهم، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم﴾.

وما أروع تأديب الإسلام لأبنائه وتربيته لهم على احترام الآخرين حينما ينهي القرآن الحكيم المسلمين عن سبّ أصنام الكفّار وأوثانهم !! لماذا؟ لأن الكفار يعتبرون الأصنام مقدّسات لهم، وكل إنسان يدافع عن مقدساته وإن كانت زائفة باطلة، فإذا اعتدى المسلمون وأهانوا مقدسات الكفار فستكون ردة الفعل الطبيعية للكافرين إهانة وسبّ مقذسات المسلمين، ولا يرضى الإسلام تبادل الإهانة والسبّ كلغة حوار وتعامل بين أصحاب الأديان، فلنتأمل الآية الكريمة التالية ولتندبّر في أبعادها العظيمة، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدوًا بِغَيرِ عِلمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرجِعُهُم فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾.

فالآية الكريمة تلفت أنظار المؤمنين إلى عدة حقائق يجب أن يأخذوها بعين الاعتبار في تعاملهم مع الآخرين:

١. إن كل أمة أو جماعة لها مبدأ فإنها تعتقد بقداسته وإن كان باطلًا في نظر الآخرين ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم﴾.

٢. الإنسان مسؤول أمام ربه يوم القيامة، ولا يحق لأحدٍ في الدنيا أن يفتش عقائد الناس ويحاكمهم على أديانهم، فذلك الأمر موكول لرب الخلق يوم الحساب.

٣. إن أي فعل تجاه الآخرين يسبب ردّ فعل من نوعه وجنسه، فإذا كان المسلمون

حريصين على احترام دينهم، ومقدساتهم فعليهم أن يحترموا أديان الآخرين ومقدساتهم في ظاهر التعامل معهم وإلا فليتوقعوا الإهانة لمعتقداتهم حينما يسبّون معتقدات الآخرين.

وقد وردت أحاديث ونصوص كثيرة تؤكد على المسلمين حسن التعامل مع الآخرين ففي سنن أبي داوود عن رسول الله ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

إن من حق كل من يعيش في ظل الإسلام أن يتنعم بالعدالة ويشمله التضامن والتكافل الاجتماعي وإن لم يكن مسلمًا، ففي عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، أي يستجدي الصدقة من الناس، فانزعج الإمام من هذا المشهد وقال: ما هذا؟ ولم يقل: من هذا؟ ذلك لأن هذه الحالة غير مقبولة ولا مرضية بغض النظر عن دين صاحبها. وحينما أجابه أصحابه: هذا نصراني! ردهم الإمام غاضبا بقوله: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! أنفقوا عليه من بيت المال.

ولم يكتف الإسلام باحترام الأحياء من أتباع سائر الأديان بل ترى النبي ﷺ يحترم بنفسه أمواتهم ويأمرنا بذلك أيضًا. ففي صحيح البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: «مرّ بنا جنازة فقام لها النبي وقمنا به، فقلنا يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا»».

وفيه أيضًا: «كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمرّوا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما: انها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي ﷺ مرّت به جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسًا»».

فهذا منطق الإسلام يرى للإنسان وحتى لجنازته بأي ملّة ودين كان حرمة وشأنًا ما لم يتجاوز على حقوق غيره .

وعن رسول الله أنه قال: «من آذى ذميًا فقد آذاني».

بهذا الأسلوب وهذه التربية نجح الإسلام في تحقيق التوازن والتعادل في نفس الإنسان المسلم بين ثقته المطلقة بأحقية دينه وصوابيته وبين احترام سائر الأديان وأصحابها، وقد تحدث (غوستاف لوبون) عن هذه الميزة الفريدة للإسلام بقوله: «إن الإسلام هو الذي علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين وقد كان يظنّ أنهما لا يجتمعان».

كما أشار (هاملتون) إلى ذلك عند تعرضه لدراسات مقارنات الأديان فقال: العرب هم أول من ألفوا في الملل والنحل، لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية.

وقد كتب أبو الريحان البيروتي في أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة، فلم يمسّ عاطفة أحد من أهلها، وكان إذا كتب عن نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطّفه في وصف شعائرها.

وكان كتّاب العرب يذكرون جميع المخالفين بكل حرمة، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وطبقات الحكماء لابن القفطي، وطبقات الأدباء لياقوت، والوافي بالوفيات للصفدي، وفي تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي أمثلة لهذا التسامح. فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة.

الحوار منهجية الدعوة[1]

الحقيقة يجب أن تكون هي الغاية التي ينشدها الإنسان فلا يرضى لنفسه اتّباع الجهل والخطأ والوهم، خاصة في مجال الديانة والمعتقد وهي القضية الأهم والأخطر، فلا بد أن يتصف الإنسان بالحذر والدقة، ويتسلح بالموضوعية والمنطق حتى لا يتخبط في متاهات الضلال والانحراف.

وإذا كان الإسلام يقرّ حرية العقيدة والفكر، فإنه في نفس الوقت يدعو أبناء البشر لاختيار الحق واتباع الهدى، وألا تكون حالات التعصب والانفعال والأهواء المصلحية سببًا لابتعاد الإنسان عن الحق وارتمائه في حضيض الباطل.

لذلك حمّل الإسلام دعاته وأبناءه مسؤولية هداية الآخرين والسعي لإقناعهم بالدين الحق عبر الحوار والمناقشة الموضوعية الهادفة في جوّ من الحرية والاحترام.

والحوار الموضوعي لا يتنافى مع الحرية بل هو مظهر صادق لوجودها وطريق سليم للوصول إلى الحق. وينطلق الحوار في نظر الإسلام من منطلق ضرورة البحث عن الحق ولزوم اتباعه، يقول تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾.

﴿أَفَمَن يَهدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهدَى﴾.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٧ رجب ١٤٢٤هـ، ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٥٨.

﴿الَّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحسَنَهُ﴾.

أما وسيلة اكتشاف الحق والتعرف عليه فهي العقل ولا غيره، فالدليل والبرهان المستند إلى العقل هو المقياس والمعيار، يقول تعالى: ﴿أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقِلُونَ بِهَا﴾ ﴿أَوَلَم يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿قُل هَاتُوا بُرهَانَكُم إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾.

وأسلوب الحوار يجب أن يكون موضوعيًا هادئًا بعيدًا عن التشنّج والانفعال وتجريح المشاعر، يقول تعالى: ﴿ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُم بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ﴾ ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ﴾.

ضمن هذه المعادلة يشجّع الإسلام إجراء الحوار مع أصحاب الديانات والعقائد الأُخرى، وينقل لنا التاريخ صورًا رائعة عن مجالس المناظرة والحوار التي كانت تحصل بين أئمة المسلمين وعلمائهم وبين قادة واتباع سائر الأديان، وهي صور ومشاهد يجب أن يعتزّ بها تاريخ البشر كنموذج أسمى للتعامل بين المبادئ والأديان وللانفتاح الفكري والأخلاق الحضارية.

إذا كان ربنا العظيم سبحانه يدخل مع عباده الضعفاء الذين لا قيمة لهم ولا وجود لهم إلا بفضله ورحمته، يدخل معهم في حوار، ويجيب عن إشكالاتهم وتساؤلاتهم، فهل يحق لأحد بعد ذلك أن يترفّع على النقاش أو يعتبر رأيه فوق التساؤلات والإشكالات؟

إن القرآن الحكيم وحينما يخصص مساحة وافية من آياته الكريمة للتحاور مع الرأي الآخر، إنما ليكون مدرسة للمسلمين والبشرية جمعاء، يتتلمذون من خلاله على أسلوب الحوار والتعامل الفكري والعقائدي بعيدًا عن تبادل البطش والإرهاب.

لقد حاور القرآن الحكيم كل المخالفين لرسالات الله والمنكرين لوجوده تعالى فينقل آراءهم بأمانة وإن كانت تشتمل على أفكار باطلة أو عبارات بذيئة ثم يناقشها بموضوعية ووضوح ويردها بالأدلة والبراهين... وكنموذج لأسلوب القرآن في

الحوار، واستعراض الرأي الآخر، ثم مناقشته وتفنيده، نتأمل الآن بخشوع مجموعة من الآيات الكريمة من سورة الطور، وهي تناقش تقولات الكفار المشركين وتشكيكهم في نبوة الرسول محمد ﷺ واتهامهم له بالكهانة والجنون، وإن القرآن الكريم لون من الشعر قد اصطنعه ونسبه افتراء إلى الله، ثم تستعرض هذه المجموعة الكريمة من الآيات إنكارهم لوجود الخالق، وادّعاءهم الفاسد بأن الملائكة بنات الله، ومع فظاعة وشناعة كل هذه التقولات إلا أن القرآن الحكيم يستعرضها ويناقشها عن طريق إثارة الوجدان الفطري، والاحتكام إلى العقل، وأخيرًا فإن لم يحكموا عقولهم أو يستنطقوا ضمائرهم وإن أصرّوا على كفرهم ودعواهم الباطلة فشأنهم وما اختاروا لأنفسهم والحساب والجزاء عند الله يوم القيامة، أما في الدنيا فلهم حريتهم واختيارهم،

يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[سورة الطور، الآيات: ٢٩ ـ ٤٦]

واقع الاختلاف في حياة البشر[1]

كل مؤمن صادق الإيمان يتمنى من أعماق نفسه أن يرى أمته ومجتمعه متوحدًا متماسكا بعيدًا عن الصراعات والنزاعات..

وكل مجاهد واعٍ يحمل منتهى الرجاء والأمل بأن يصبح العاملون لله ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَرصُوصٌ﴾ دون صدامات أو اختلافات..

ولكن كيف تتوحد الصفوف ويجتمع الشمل ونتخلّص من مشاكل الصراعات الداخلية؟

البعض يعتقد أن الوحدة على مستوى الأمة إنما تتحقق باتفاق الآراء وتطابق المصالح ووحدة القيادة فإذا كانت القناعات الفكرية والآراء السياسية واحدة، وتوافقت مصالح كل الأطراف، وخضع الجميع لقيادة واحدة.. فإننا سنتخلص من أي مظهر للتفرقة والاختلاف وسننعم بما نطمح إليه من وحدة واجتماع..

وهذه صورة مثالية ومستوى رفيع قد يستحيل تحقيقه في حياة الأمة إلا بوجود قيادة تخضع لها كل الأمة.

أن يختلف الناس في أفكارهم وآرائهم ومواقفهم وعاداتهم فذلك أمر طبيعي

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٥ شعبان ١٤٢٤هـ، ١ اكتوبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٦٥.

تقتضيه ظروف حياة البشر، فلو استقصينا أزمنة التاريخ لما وجدنا البشرية في أي لحظة من الزمن تجتمع وتتفق على كل الأمور والقضايا بمجملاتها وتفاصيلها اللهم إلا تلك الفترة البدائية القصيرة التي يتحدث عنها القرآن الحكيم بقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي قبل أن يعملوا عقولهم ويتنبهوا إلى ما حولهم من حقائق ومصالح..

وحتى المجتمعات الإيمانية من أبناء البشر كأتباع الأنبياء لم يكونوا جميعًا على مستوى واحد من الفكر والالتزام، ولا كانت آراؤهم متطابقة ولا متفقة على جميع الجزئيات والتفاصيل الدينية و الحياتية.

ونلاحظ جليًا في حياتنا كيف يختلف الناس في كل شيء حتى لا نكاد نجد أمرًا يتفق عليه الجميع وقد يتفاوت أفراد العائلة الواحدة في توجهاتهم وأذواقهم.

ولعلنا نستوحي أو نستشف من بعض الآيات الكريمة في القرآن الحكيم حتمية وجود الاختلاف والتفاوت بين أبناء البشر حسبما شاءت إرادة الله تعالى وحكمته.

يقول تعالى:

﴿وَلَو شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاختَلَفُوا وَلَولاَ كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَينَهُم فِيمَا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ • إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

وتوضيحًا لهذه الحقيقة: الاختلاف ويقابله الاتفاق من الأمور التي لا يرتضيها العقل السليم، لما فيه من تشتيت القوى وتضعيفها. وآثار أخرى غير محمودة، من نزاع ومشاجرة وجدال! وقتال وشقاق، كل ذلك يذهب بالأمن والسلام، غير أن نوعًا لا مناصَ منه في العالم الإنساني وهو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهية إلى اختلاف

البنى فإن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد وهو يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية.

وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك، يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد، والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية، وقد أوضحت الأبحاث الاجتماعية أنه لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني ولا طرفة عين.

وقد ذكره الله تعالى في كتابه ونسبه إلى نفسه حيث قال:

﴿نَحنُ قَسَمنَا بَينَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَرَفَعنَا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعضًا سُخرِيًّا﴾. ولم يذمه تعالى في شيء من كلامه إلا إذا صحب هوى النفس وخالف هدى العقل.

ويقول الشاعر:

رب قبح عند زيدٍ	هو حسن عند عمر
فهما ضدان فيه	وهو وَهْمُ عند بكر
فمن الصادق فيما	يدعيه ليت شعري
ولماذا ليس للحسن	قياس لست أدري

تعليقًا على ما ذكره الشاعر عن الخلاف حول الحسن والقبح تجدر الإشارة إلى أنه يطلق الحسن والقبح على معانٍ ثلاثة: اثنان منها موضع اتفاق الكلاميين والفلاسفة من المسلمين في إمكان إدراك العقل لها، وواحد منها موضع الخلاف.

أما موضع الاتفاق منهما، فهما:

١. الحسن بمعنى الملاءمة للطبع والقبح، بمعنى عدمها، فيقال مثلًا: هذا المنظر حسن جميل، وذلك المنظر قبيح، أو هذا الصوت حسن وذلك قبيح، ويريدون بذلك أنها ملائمة للطبع أو غير ملائمة.

٢. الحسن بمعنى الكمال والقبح، بمعنى عدمه، فيقال إن العلم حسن، وإن الجهل قبيح، يعني أن العلم فيه كمال للنفس بخلاف الجهل.

وموضع الخلاف بعد ذلك هو في المعنى الثالث، وهو:

٣. الحسن بمعنى إدراك ان هذا الشيء أو ذاك مما ينبغي أن يفعل بحيث لو أقدم عليه الفاعل لكان موضع مدح العقلاء بما هم عقلاء، والقبح بخلافه، ولا ينافي ذلك أن يكون منشأ هذا الإدراك، أعني إدراك أن هذا مما ينبغي أن يفعل أو لا يفعل، هو أحد الإدراكين السابقين، بمعنى أن العقل بعد أن يدرك ملاءمة الشيء للنفس أو مجافاته لها أو يدرك كمال الشيء أو نقصه، يدرك مع ذلك أنه مما ينبغي أن يفعل أو لا يفعل.

وحتى الأمور الواضحة والحقائق الجليه لم تسلم من اختلاف البشر حولها.. فهل هناك حقيقة أظهر وأصرح من وجود الحق سبحانه وتعالى؟ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؟ ومع ذلك يتمادى الملحدون والمنكرون في الكفر بوجوده سبحانه وتعالى والشرك به .

فيا عجبًا كيف يعصى الإله … أم كيف يجحده الجاحد
ولـلـه فـي كـل تحريكة … وفـي كـل تسكينة شاهد
وفـي كـل شـيءٍ لـه آية … تـدلّ عـلى أنـه واحـد

ونحن الآن موجودون ونعيش في هذه الدنيا ونتعامل مع أشيائها ولكن هناك من يناقش في هذا الأمر وينكر وجود واقع خارج الشعور، فما هي إلا تصورات ومشاعر يظن الإنسان من خلالها أنه موجود وأنه يعمل كذا ويشاهد كذا، تمامًا كما يرى النائم الأشياء في أطيافه وأحلامه دون أن يستلزم ذلك وجودها الخارجي.. إذًا فحالة الاختلاف بين أبناء البشر عريقة في تاريخ وجودهم، وشاملة تتسع لمختلف أبعاد حياتهم..

والمجتمعات الدينية وإن كانت تمتاز عن سائر البشر، بنعمة الدين والارتباط بالله والإيمان بالرسالة، إلا أن ذلك لا يلغي مجالات الاختلاف والتفاوت..

ثقافة الوحدة والحوار[1]

لسنا بحاجة للتأكيد هنا على أهمية الحوار وضرورته، فهي حقيقة واضحة لا يجادل فيها عاقل، خاصة بعد أن رأينا النتائج الوخيمة، والآثار المرّة لافتقاد الحوار. بيد أن المطلوب توفير الأجواء الملائمة، والعوامل المساعدة، لتكريس منهجية الحوار، ولإنجاح مسيرته، وتفعيل دوره على المستوى الوطني العام. ولعل من أهم ما نحتاج إليه لتكريس منهجية الحوار، على مستوى الأمة والوطن، هو توفير الثقافة الوحدوية الجامعة، التي تهيئ النفوس، وتوجه العقول نحو الوحدة الإسلامية والوطنية، وباتجاه لغة الحوار، واحترام الرأي الآخر. إن من الضروري بعث حركة ثقافية واسعة، تبشّر بالمفاهيم الإسلامية، والقيم الإنسانية، الداعية إلى الوحدة والحوار، وإلى الوئام والانسجام، بين بني البشر عامة، وبين أبناء الوطن بشكل خاص. وفي طليعة هذه المفاهيم والقيم، تأتي قضية حقوق الإنسان، وحرمة المسلم، وحقوق المواطنة.

حقوق الإنسان

لقد سادت في مجتمعاتنا العربية والإسلامية دعوات واتجاهات تركز على الحدود الفاصلة بين الجماعات والانتماءات المتنوعة، لتصنع من خلالها جدارًا سميكًا يعزل كل جماعة عن الأخرى، ويوجد لها عالمها الخاص في الأفكار والمشاعر والمصالح،

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٢ شعبان ١٤٢٤هـ، ٨ اكتوبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٧٢.

مع أنها تعيش على صعيد وطن واحد. ويجري هذا في عالم تهاوت فيه الحدود، وانهارت الحواجز، وانعدمت المسافات، حيث أصبح قرية واحدة حسب التعبير الشائع. وكأن هذه الدعوات لا تعترف بكل هذا التطور الواقع، وتصرّ على طروحاتها الضيقة المنغلقة، منطلقة من فهم ديني خاطئ، لا ينسجم مع إنسانية الإسلام، وعالمية دعوته، ولا يتوافق مع ثوابت نظامه الاجتماعي، كالوحدة والعدل والإحسان. إن التمايز بين الناس في أديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، لا يعني التنكر لوحدتهم الإنسانية، التي يقررها القرآن الكريم في آيات كثيرة:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ﴾، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

كما يذّكر القرآن الكريم أبناء البشر بانتمائهم إلى أبٍ واحد، هو آدم، فيخاطبهم بصفة انتسابهم إليه كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفتِنَنَّكُمُ الشَّيطَانُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِّنكُم﴾.

أما الآيات التي تخاطب الناس من خلال بشريتهم وإنسانيتهم بلفظ ﴿يا أيها الناس﴾ فهي كثيرة جدًا. هذه المنهجية في الخطاب القرآني ليست عفوية ولا عبثًا، وإنما هي تذكير وتأكيد على حقيقة الاشتراك والمشاركة بين أبناء البشر، وإن تنوعت أعراقهم وأديانهم وتوجهاتهم، فهم من أصل واحد، وينتمون إلى عائلة واحدة، ويتساوون في خلقتهم، ويشتركون في الاستفادة من خيرات الكون، وثروات الطبيعة، التي جعلها الله تعالى تحت تصرف الجميع دون تمييز، يقول تعالى: ﴿وَالأَرضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾، أي للناس. ويقول تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِن عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحظُورًا﴾.

إن الالتفات إلى هذه المنهجية القرآنية، يربي الإنسان المسلم على النظر إلى جميع أبناء البشر كأشقاء له في الإنسانية، ونظراء له في الخلق، وشركاء معه في الحياة، مما يؤسس لعلاقة إنسانية إيجابية، تتخطى التمايزات الثانوية، كاختلاف العرق أو الدين،

يقول تعالى: ﴿لاَ يَنهَاكُم اللَّهُ عَن الَّذِينَ لَم يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّينِ وَلَم يُخرِجُوكُم مِن دِيَارِكُم أَن تَبَرُّوهُم وَتُقسِطُوا إِلَيهِم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ﴾.

ويوجه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام واليه على مصر (مالك الأشتر)، بأن يستحضر هذه الرؤية الإنسانية، في تعامله مع مواطنيه، على اختلاف أديانهم يقول: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق».

وفي هذا السياق تأتي أهمية نشر ثقافة حقوق الإنسان، التي هي مبادئ إسلامية أصيلة، وليست مفهومًا غربيًا وافدًا، كما قد تطرحه بعض الجهات، وإذا كانت هناك نقاط معينة نتحفظ عليها في وثيقة حقوق الإنسان من الناحية الشرعية، وإذا كانت بعض الدول الكبرى تستغل موضوع حقوق الإنسان، لتبرير تدخلاتها وضغوطها على الدول النامية، فإن ذلك لا يبرر تجاهل قضية حقوق الإنسان، وضعف حضورها في الخطاب الإسلامي.

بل إن بعض ألوان الخطاب الإسلامي تبدو وكأنها ترفض الاعتراف بأدنى الحقوق الإنسانية لمن يخالفها في الرأي، حيث يكون مهدور الدم، محرومًا من جميع حقوقه المادية والمعنوية. مع أن القرآن الكريم ينص على تكريم الله تعالى للإنسان، باعتبار إنسانيته وقبل أي شيء آخر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَحَملنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ وَرَزَقنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقنَا تَفضِيلًا﴾. قال ابن عاشور محمد الطاهر في تفسيره (التحرير والتنوير): «والمراد ببني آدم جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنما هي أحكام للنوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تستند إلى الجماعات». وجاء في تفسير آخر: «إن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر، مع الغض عمّا يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الروحية المحضة، فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق».

حرمة المسلم

من الطبيعي أن تتعدد الآراء، وتتنوع التوجهات ضمن المجتمع الإسلامي الكبير، سواء في مجال فهم الدين، الذي هو عبارة عن النص الشرعي المنقول، المتمثل في الكتاب العزيز، والسنة الشريفة، وذلك إما للاختلاف في ثبوت النص، كما هو الحال بالنسبة لبعض أحاديث السنة النبوية، أو للاختلاف في فهم دلالته، وإن كان صدوره قطعيًا ككتاب الله المجيد. أو في مجال تشخيص المصالح الخارجية، حيث يبتني على الاختلاف فيها، تنوع المواقف السياسية، والانتماءات الاجتماعية. لكن هذا التنوع لا يصح أن يؤثر على الإقرار بالهوية المشتركة، والانتماء الواحد، لجميع أبناء الأمة وهو الإسلام. فكل من آمن بالإسلام دينًا، وأقر بأصوله وأركانه فهو عضو في المجتمع الإسلامي، وجزء لا يتجزأ من الأمة، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، يتعاملون معه كأخ لهم، ويتمتع بالحصانة الكاملة، من حرمة دمه وماله وعرضه، إلاّ بحقّ، ضمن ضوابط القانون الذي ينطبق على الجميع.

ولا يصح لأيّ جهة أن تحتكر الهوية الإسلامية لنفسها، وتسلبها عن الآخرين المختلفين معها، في الآراء أو المواقف، ولا أن تنتهك شيئًا من حرماتهم، ما داموا يعلنون انتماءهم للإسلام، والتزامهم أركانه. وقد تضافرت النصوص الشرعية بتأكيد هاتين الحقيقتين بشكل مطلق عام، وهما عضوية معلن الإسلام إلى المجتمع المسلم، وتمتع كل أبناء الأمة بحصانة الإسلام، ولا يؤثر اختلاف الآراء والمواقف على شيءٍ من مقتضيات هاتين الحقيقتين.

ومن النصوص التي تقرر الحقيقة الأولى، قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيكُمُ السَّلاَمَ لَستَ مُؤمِنًا تَبتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنيَا﴾. فالآية الكريمة نص صريح في النهي عن التشكيك في إسلام من أعلن إسلامه، ولو كانت هناك قرائن تستدعي الشك، كظروف الحرب، وكونه قد أظهر الإسلام لمجرد السلامة والنجاة.

والأحاديث الواردة في شأن نزول الآية الكريمة، تؤكد هذا الأمر، ومنها ما أورده

البخاري عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه أورده البخاري عن أسامة بن زيد بن حارثة (رضي الله عنهما) قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحَرقَة من جُهينة ـ قبيلة من القبائل ـ قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي، فقال لي: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذًا، قال ﷺ: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟» قال: فما زال يكررّها عليّ، حتى تمنّيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

وفي صحيح البخاري أيضًا عن المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زهرة، وكان شهد بدرًا، مع النبي، أنه قال: يا رسول الله، إن لقيت كافرًا فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله». قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يدّي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها، أقتله؟ قال ﷺ: «لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

وفي تفسير الآية الكريمة يقول ابن عاشور محمد الطاهر: وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية، وهي بثّ الثقة والأمان بين أفراد الأمة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سدّه، وكما يَتهم المتهمُ غيره فللغير أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، وانظر معاملة النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين.

وقال الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره: إن كل من نطق بكلمة الإسلام، وقال أنا مسلم، فحكمه حكم المسلمين من حيث الزواج والإرث، وما إلى ذلك من الأحكام التي تترتب على مجرد إظهار الإسلام، لا على نفس الإسلام حقيقة وواقعًا.

رفض الانغلاق[1]

إذا انغلق الإنسان على رأيه، وأعرض عن الانفتاح على الآراء الأخرى، فإنه سيعزل نفسه عن تطورات الفكر والمعرفة، ويحرم نفسه من إدراك حقائق ومعارف مفيدة، وقد يكون رأيه الذي انطوى عليه خاطئًا، فلا يكتشف بطلانه في ظلّ حالة الانكفاء والانغلاق.

لقد ذم القرآن الكريم منهجية الانغلاق الفكري، من خلال إدانته لرفض المخالفين للأنبياء الاستماع والإصغاء لما يطرحه الأنبياء، لموقفهم المسبق من رسالاتهم.

فهؤلاء قوم نبي الله نوح عليه السلام كانوا يرفضون مجرد السماع إلى دعوته، فإذا جاء لمخاطبة أحد منهم أمسك على أذنه بأصابعه، بل غطى وجهه عنه، حتى لا ينفذ إلى ذهنه شيء من كلامه، أو تتأثر نفسه بملامح شخصيته وإشاراته. حتى شكاهم نوح إلى ربه كما ينقل القرآن الكريم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِم وَاستَغشَوا ثِيَابَهُم وَأَصَرُّوا وَاستَكبَرُوا استِكبَارًا﴾.

وكفار قريش كانوا يظهرون أمام رسول الله ﷺ لا مبالاتهم بسماع دعوته، ورفضهم للنظر في شأنها، يقول تعالى: ﴿فَأَعرَضَ أَكثَرُهُم فَهُم لاَ يَسمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدعُونَا إِلَيهِ وَفِي آذَانِنَا وَقرٌ وَمِن بَينِنَا وَبَينِكَ حِجَابٌ﴾. فهم يعلنون أن عقولهم

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ، ١٩ نوفمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١١٤.

مغلقة مؤصدة أمام دعوته، وسمعهم ثقيل لا يخترقه صوته، وبينهم وبينه مسافة وحاجز يمنعهم عن التفاعل معه.

بل كانوا في بعض الأحيان يخلقون جوًّا من الفوضى والضجيج، حينما يبدأ الرسول ﷺ في تلاوة شيء من آيات القرآن الكريم، لئلا يسمع أحد تلاوته، ويتأثر بكلامه، وكانوا يطلبون من الناس ألا يصغوا لسماع آيات القرآن، وأن يقابلوها باللغو صياحًا وتصفيرًا وتصفيقًا. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. قال ابن عباس: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه، ويقولون لهم: لا تسمعوا له والغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها.

لماذا الانغلاق؟

لماذا يفرض الإنسان حصارا على عقله؟ ولماذا يرفض الانفتاح على الرأي الآخر؟ إن لذلك مبررات وأسبابًا، من أبرزها: الجهل والسذاجة، فمن يدرك قيمة المعرفة والعلم، ويتطلع إلى الحقيقة والصواب، يظل باحثًا عن الحق، طامحًا إلى الرأي الأفضل والأكمل. أما الجاهل الساذج فيعيش شعورًا بالاكتفاء ويرى أن ما لديه من رأي يمثل الحقيقة المطلقة، والسقف الأعلى للمعرفة.

وقد يكون الانغلاق منطلقًا من حالة اللامبالاة تجاه القضية التي تتعدد حولها الآراء، وتكون مثارًا لاختلاف الأفكار، فهو لا يجد نفسه معنيًا بتكوين رأي أو اتخاذ موقف، فلماذا يشغل ذهنه بالتفكير والبحث والمقارنة.

وقد يكون دافع الانغلاق الكسل عن البحث والتحقيق، لما قد يستلزمه الانفتاح على الرأي الآخر من إعمال الفكر والنظر، وبذل جهد في الدراسة والمقارنة بين الآراء والأفكار.

وفي كثير من الأحيان يكون ضعف الثقة بالذات صارفًا عن التعرف على الرأي الآخر، حيث لا يجد الإنسان نفسه مؤهلًا للاستقلال بتكوين رأي أو اتخاذ موقف، ولا قادرًا على التمييز بين الخطأ والصواب، فيترك هذا الدور للمؤهلين مكتفيًا بدور التقليد والإتباع.

وإذا كان ذلك صحيحًا في الأمور التخصصية العلمية، فإنه لا يصح فيما عداها، وإلا لتوقف دور العقل، وانحصرت الاستفادة منه في حدود شريحة معينة.

وقد يتهيب الإنسان مواجهة الحقيقة في مجال من المجالات، لما قد يترتب عليه من تغيير في أوضاعه ومواقفه، فيتهرب عن الاطلاع على الرأي الآخر، حين يكون غير واثق تمامًا من الرأي الذي يعتنقه، فيحرجه الانفتاح على الرأي الآخر، الذي قد يكشف له خطأ فكرته ورأيه.

كل ما سبق يدخل ضمن عوامل الامتناع الذاتي عن الانفتاح على الرأي الآخر، وهناك عامل آخر يتمثل في وجود تشويش وإعلام مضاد للرأي الآخر، يخلق عزوفًا عند المتأثرين به عن الاقتراب من ذلك الرأي. والإعلام المضاد سلاح يشهر دائمًا في الصراعات والخلافات، وخاصة ذات الطابع الفكري والثقافي، ويتوقع من الإنسان الواعي ألا يقع تحت تأثير الدعاية والإعلام بين الأطراف المتنازعة، على حساب مرجعية العقل، والتفكير الموضوعي، فيتيح لنفسه فرصة الدراسة والبحث، ويعطي لعقله مجال الاطلاع المباشر على الآراء المختلف حولها.

وفي عصرنا الحاضر ومع تطور وسائل الاتصالات المعلوماتية، وتعدد قنوات الإعلام، التي تتجاوز السدود والحدود، فإن محاولات محاصرة الرأي، تصبح جهدًا ضائعًا، وسعيًا فاشلًا.

مؤسسات أهلية للسلم الاجتماعي[1]

تبدو الحاجة إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي كواحد من أهم الحاجات، وأبرز التحديات، التي تواجه الأمة الإسلامية في هذا العصر. فالاستقرار السياسي والاجتماعي هو الذي يضع الأمة على طريق الوحدة، ويتيح لها فرص التنمية والبناء، ويمكنها من التوجه للتحديات الخارجية. ومع انعدام الاستقرار يبقى التطلع للوحدة مجرد شعار وأمنية، وتتلاشى اهتمامات التقدم والبناء، وتضعف الأمة أمام مواجهة التحديات.

ونقصد بالاستقرار السياسي والاجتماعي وجود نظام مقبول من العلاقات بين قوى الأمة وأطرافها. ويقابل ذلك حالة الاضطراب، حين تختل علاقة الأطراف مع بعضها، فيقع بينها العداء والنزاع والاحتراب. وقد حذر القرآن الكريم الأمة من خطر التنازع، الذي هو ناتج طبيعي لاضطراب العلاقات. يقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم وَاصبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

فالتنازع يؤدي إلى الفشل الداخلي في إنجاز التنمية والبناء، وإلى الضعف الخارجي الذي عبرت عنه الآية بذهاب الريح ﴿وَتَذهَبَ رِيحُكُم﴾، أي تضيع قوتكم.

وبينما ركز أغلب مفسري الآية الكريمة على تحذير الله تعالى ونهيه عن التنازع،

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٦ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، ٢٨ يناير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٨٤.

دون أن يشيروا إلى أرضية تكوّنه، وأسباب وجوده، التي تتمثل في اختلال العلاقات الداخلية واضطرابها، فإن الشيخ ابن عاشور التونسي، قد نبّه إلى هذه الحقيقة عند تفسيره للآية الكريمة، حيث قال ما نصّه: «وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم والتشاور ومراجعة بعضهم بعضًا»(١).

إن وجود المؤسسات الأهلية، التي تتبنى الدعوة إلى تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي بين الدول الإسلامية، وبين الحكومات والشعوب، وبين الفئات والتجمعات داخل الأمة، أمر مطلوب، ويشكل استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إننا نجد في المجتمعات المتقدمة آلاف المؤسسات الأهلية، ذات الاهتمام بقضايا العلاقات الاجتماعية، بينما نفتقد مثل ذلك في مجتمعاتنا.

لقد تأسست قبل خمسين عامًا دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، بجهد أهلي من قبل مرجعيات شيعية وسنية، وكانت تجربة رائدة، تجاوب معها العلماء المصلحون من مختلف المذاهب، وأصدرت مجلة رائعة تحت عنوان (رسالة الإسلام) وهي مجلة فصلية، صدر منها ستون عددًا، من سنة ١٣٦٨هـ إلى سنة ١٣٩٢هـ، وكانت منبرًا جامعًا لعلماء ومفكري مختلف المذاهب، الذين يبشرون بثقافة الوحدة والحوار، ويدعون إلى التقارب والتواصل، لكن هذه المؤسسة (دار التقريب) لم تستطع الصمود أمام تقلبات السياسة، ولم يتوفر لها الدعم الشعبي المطلوب، فتوقف نشاطها، وشلّت حركتها.

إن الأمة بحاجة إلى مئات المؤسسات الأهلية، التي تتبنى الدعوة إلى السلم الاجتماعي، وتبذل الجهود لإصلاح ذات البين بين مختلف فئات الأمة، من قوميات ومذاهب وتيارات. لقد تفجرت أمام أعيننا في هذه العقود صراعات قومية عنيفة، في العالم الإسلامي، بين القوميات الإسلامية، وأبرزها: المشكلة الكردية في العراق وتركيا وإيران، وتطورت إلى نزاع دموي، قتل فيه الألوف، وشرّد مئات الألوف،

---

(١) التحرير والتنوير، ج ٩، طبعة ٢٠٠٠م، (بيروت: مؤسسة التاريخ)، ص ١٢٣ .

واستخدمت فيه حتى الأسلحة الكيماوية، كما حدث في (حلبجة) حيث استخدم النظام البائد في مارس ١٩٨٨م فأودت بحياة خمسة آلاف من المواطنين الأكراد من الرجال والنساء والأطفال!! وكان مخجلًا جدًا أن يأخذ العلماء والمفكرون والواعون من الأمة موقف التفرج على أحداث هذا الصراع، أو الاكتفاء بالإدانة وبشكل فردي، دون أن تتأسس في الأمة على سعة رقعتها مؤسسة أهلية واحدة، تدعو للتعايش بين القوميات الإسلامية، واحترام حقوق وخصوصيات أبنائها في إطار الإسلام، وضمن قيم العدل والمساواة.

وكذلك الحال بالنسبة للصراعات المذهبية الطائفية، التي برع السياسيون في إثارتها واستغلالها، وتجاوب معهم ذوو العقليات الساذجة من الزعامات المذهبية، فصدرت فتاوى التكفير وكتب التحريض على الكراهية، بل تكونت ميلشيات طائفية للتصفيات المتبادلة، كما في باكستان، ووصل الأمر إلى الاعتداء المتبادل على المساجد وقتل المصلين، ومن أواخر الشواهد ما حدث في مسجد كويتا في باكستان، حيث حصل تفجير إرهابي أصاب أكثر من مئة من المصلين بين قتيل وجريح. وبعض مساجد بغداد في العراق.. يحصل كل هذا، مع فراغ ساحة الأمة من أي جهد أهلي مؤسسي، للوقوف أمام هذه الفتن الخطيرة.

لقد شاركت في مؤتمر عقد في الكويت تحت عنوان (الجماعات الإسلامية ودورها في الإصلاح السياسي في الشرق الأوسط) في الفترة من ٦-٨ ديسمبر ٢٠٠٣م. وكانت الجهة التي بادرت بالدعوة إلى المؤتمر، هي: (معهد كارينجي للسلام الدولي) بالتعاون مع دار صحيفة الوطن الكويتية. وقد جاء في تعريف (معهد كارينجي) أنه مؤسسة أبحاث سياسية مرموقة في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة، تأسس سنة ١٩١٠م على يد (أندرو كارينجي)، أحد أهم رواد الصناعة في تلك الحقبة، الذي جنى ثروة كبيرة في صناعة الفولاذ، ثم قرر تكريسها لتحقيق الأهداف التي شعر بأن المنظمات الخاصة لا يسعها أن تعهد بها كليًا إلى الحكومة، وأحدها قضية نشر

السلام في العالم. فأين دور علمائنا وأثريائنا في مجال تأسيس المؤسسات الأهلية التي تعمل لتوحيد صفوف الأمة وإطفاء فتن النزاع والتفرقة؟!

ثقافة التعايش

تحتاج مجتمعاتنا إلى ثورة ثقافية لجهة الوعي بحقوق الإنسان، وقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، واجتناب أساليب العنف.إن تاريخ الاستبداد الطويل الذي عاشته الأمة، مسخ الكثير من معالم ثقافتها الإسلامية الأصيلة، التي ترتكز على أساس الاعتراف بكرامة الإنسان بما هو إنسان وبغض النظر عن أي عنوان آخر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ﴾. وترفض أي مساس بحرية الإنسان ولو كان لجهة خضوعه لربه، يقول تعالى: ﴿لا إِكرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

وحتى الأنبياء والرسل لم يعطهم الله تعالى حق الفرض على الناس أو المسّ بحرية اختيارهم ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾. ﴿فَذَكِّر إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَستَ عَلَيهِم بِمُصيطِرٍ﴾. وقد أنتج واقع الاستبداد الذي سيطر على الأمة ثقافة استبدادية، جيّرت لها بعض النصوص الدينية، فكانت أرضية للتكفير والتبديع، وسياسات الإقصاء والتمييز والإرهاب الفكري، وهو ما يؤدي إلى التشنجات والاضطرابات الاجتماعية.

فلا بدّ من حركة ثقافية واسعة تعود بالأمة إلى معالم دينها الصحيح، وتربي أجيالها على الحوار وآداب الاختلاف، ومبادئ التعايش.

هل نقرأ الآخر؟[1]

لسنا مخيرين في وجود الآخر فهو حتمية اقتضتها حكمة الله تعالى في الخلق لتكون الحياة أكثر ثراءً، وليشحذ التنافس همم أبناء البشر، ويفجر طاقاتهم. ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

والآخر هو المختلف عنا في أي جانب من الجوانب التي نهتم بها، فقد يكون آخر من حيث انتمائه الاجتماعي، لعرق أو قومية أو قبيلة.

وقد تكون آخريته لجهة انتسابه الديني والثقافي، لمبدأ أو مذهب أو مدرسة فكرية.

كما يكون اختلاف التوجه السياسي أو النهج السلوكي سببًا لتشكيل الآخرية.

وهكذا يتحدد الآخر في مختلف دوائر اهتمامات الإنسان ومجالات تركيزه.

والآخر قد يكون جزءًا من بيتنا العائلي وأسرتنا الصغيرة حيث قد يختلف الدين أو المذهب أو المسلك بين الزوجين وبين الوالدين والأولاد، وفيما بين الإخوة الأشقاء.

وقد يكون جارًا لنا في السكن أو زميلًا لنا في العمل.

وفي إطار أوسع قد يكون شريكًا لنا في الوطن والانتماء الحضاري.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٢ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، ٢ فبراير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٩١.

وعلى المستوى الدولي هناك جوار جغرافي وتشابك في المصالح خاصة في عالم اليوم الذي أصبح قرية كونية واحدة.

مما يعني أن الآخر جزء من حياتنا كأفراد وشعوب ودول نتداخل معه، ونتأثر به ونؤثر فيه، إنه لا يمكن إلغاء الآخر وإلا الانفصال عنه كليًا.

تلك هي الحقيقة التي لا مراء فيها ولا يمكن تجاهلها.

بيد أن الامتحان الحقيقي أمام الإنسان هو مدى قدرته على تنظيم علاقته مع الآخر أخذًا وعطاءً، حتى لا يصبح التمايز سببًا للجفاء والعداء، بل دافعًا للتنافس الإيجابي والتعاون والتكامل والإثراء.

التعارف قاعدة أساس

إن الخطوة الأولى، والقاعدة الأساس، لتنظيم علاقة مع الآخر هي التعارف.

بأن يتعرف كل من الطرفين على الآخر، خاصة فيما يرتبط بزاوية التغاير والتمايز بينهما.

ذلك أن الجهل وسوء الفهم غالبًا ما يؤديان إلى التباعد حذرًا، أو إلى النزاع والخصومة عداءً.

يقول تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَومًا بِجَهَالَةٍ فَتُصبِحُوا عَلَى مَا فَعَلتُم نَادِمِينَ﴾.

وورد عن الإمام علي ﵇: «الناس أعداء ما جهلوا».

إن المعرفة بالآخر تكشف لك نقاط قوته ومكامن ضعفه، فتمكنك من الاستفادة منه وإفادته، وتبرز لك مناطق الاشتراك ومواقع الاختلاف، بما يؤسس للتعاون وتنمية العلاقات.

لذلك يؤكد القرآن الكريم محورية التعارف بين فئات البشر، باعتباره قاعدة أساس للعلاقات فيما بينهم، يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلنَاكُم

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقَاكُم﴾.

كما أن أول أمر بدأ به الوحي، حين نزل للمرة الأولى على رسول الله، هو الأمر بالقراءة، حيث اتفق المسلمون على أن أول مانزل من القرآن هو قوله تعالى: ﴿اقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

والقراءة المأمورة بها ليست مجرد عملية تتبع الكلمات والنطق بها، أو قراءتها بالنظر، بل هي أعمق من ذلك، إنها تعني عملية التفكير والفهم، وهو المعنى الذي أصبح متداولًا في الأوساط الفكرية، كما لخصت الباحثة (سيزا قاسم ـ ١٩٩٥م) هذا المفهوم للقراءة بقولها: «إنها خبرة محددة في إدراك شيء ملموس في العالم الخارجي، ومحاولة التعرف على مكوناته، وفهم هذه المكونات، وظيفتها ومعناها»[١].

ولم يحدد الوحي لفعل ﴿اقرَأ﴾ مفعولًا، مما يؤيد أن المقصود التوجيه لذات الممارسة والفعل، وأول ما يحتك به الإنسان ويحتاج لقراءته وفهمه، هو الوجود البشري الذي ينتسب إليه، فعليه أن يتأمل التمايزات الهامة بين فئات هذا الخلق، ليرى من خلال ذلك عظمة الله تعالى وحكمته، لتنظيم حياته بإرساء علاقات سليمة مع من حوله.

وقراءة التمايزات بين أبناء البشر هي ما يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَاختِلَافُ أَلسِنَتِكُم وَأَلوَانِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلعَالِمِينَ﴾

الآخر الجوّاني

اصطلح الكتاب المحدثون على تقسيم الآخر إلى نوعين:

الآخر الخارجي المنتمي إلى حضارة وكيان آخر.

(١) الدكتور علي بن عبدالله حاجي. واقع القراءة الحرة لدى الشباب، ٢٠٠٣م، (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج)، ص ٩٦.

والآخر الداخلي أو الجوّاني وهو المختلف ضمن ذات الإطار الديني أو الوطني، حيث تعددت المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية والتوجهات السياسية ضمن الأمة الإسلامية.

وهنا تكون حساسية الاختلاف أشدّ؛ لأنه في الدائرة الأقرب، والخطأ في التعاطي مع هذا الآخر خطير جدًا، لما له من تأثير على تماسك المجتمع واستقراره.

وبالتالي، فإن القراءة الصحيحة لهذا الآخر الداخلي أكثر إلحاحًا وأشدّ ضرورة.

هنا لا نواجه حالة الخمول التي نجدها في الاهتمام بالآخر الخارجي، بل نلاحظ حالة من الاستغراق والانشغال الكبير، بالفوارق والاختلافات بين الفرق والمذاهب.

وقد تأسس علم جديد في وقت مبكر من تاريخ الأمة بعنوان علم الملل والنحل، و المذاهب والفرق.. كان انعكاسًا للنزاعات والخلافات العاصفة التي عاشتها الأمة بين تياراتها الفكرية وطوائفها الدينية، وكان للمصالح السياسية في ذلك دور محوري.

ولكل فرقة كتب في الدفاع عن نفسها والردّ على الفرق الأخرى، ويمكن القول إن الاهتمام بالخلافات المذهبية أخذ حيزًا كبيرًا من الثقافة الإسلامية في الماضي والحاضر.

لكن القسم الأعظم من هذه الكتابات والطروحات، يتسم بإصدار الأحكام وتقرير الإدانة للآخر، أكثر مما هو قراءة له.

التعرف على الآخر: من سمات التقدم[1]

تحرص المجتمعات المتقدمة، ممثلة بمراكز الدراسات والأبحاث فيها، الرسمية والأهلية، وعبر المبادرات الفردية الطموحة، على تحصيل أكبر قدر من المعلومات عن البلدان والشعوب الأخرى، لإثراء المعرفة، ولخدمة المصالح والأغراض.

وتمثل حركة الاستشراق التي قام بها الغرب أوسع نموذج منظم في هذا السياق، حيث اهتمت بدراسة الثقافات الشرقية (الآسيوية غالبًا)، وأوضاع المجتمعات الإسلامية في مختلف المجالات.

وكانت بدايتها في القرن الثالث عشر الميلادي، بترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى اللغات الأوروبية. وأنشئت في القرن الثامن عشر الميلادي، كليات لتدريس اللغات الشرقية في عواصم أوروبا. كما أنشئت معاهد ومراكز أبحاث في عدد من البلدان الشرقية، وزحف إلى الشرق عدد من العلماء والباحثين الغربيين، لدراسة الأوضاع والمجتمعات ميدانيًا، وأصبحوا يعرفون بالمستشرقين، وعقدوا أول مؤتمر لهم في باريس سنة ١٨٧٣م وتوالت بعده المؤتمرات إلى اليوم.

وصـدرت عدة مجلات متخصصة بالأبحاث الشرقية، مثل مجلة (العالم الإسلامي)، والمجلة الآسيوية لجمعية المستشرقين الفرنسيين، ومجلة الجمعية

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٩ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، ١١ فبراير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٩٨.

الآسيوية الملكية لجمعية المستشرقين الإنجليز، ومجلة الجمعية الشرقية الأمريكية لجمعية المستشرقين الأمريكيين.

وصدرت دائرة المعارف الإسلامية بعدة لغات.

وقام جمع من المستشرقين بوضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، في ثمانية مجلدات، شمل الكتب الستة المشهورة، إضافة إلى مسند الدارمي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وموطأ الإمام مالك. كما وضع الدكتور أ.ي. فينسنك معجمًا آخر بعنوان (مفتاح كنوز السنة) للكشف عن الأحاديث النبوية في كتب أربعة عشر إمامًا.

وأول معجم مفهرس للقرآن الكريم وضعه المستشرق (فلوغل)، وسماه (نجوم الفرقان في أطراف القرآن)، وهو العمل الإحصائي الأبجدي الذي اعتمد عليه محمد فؤاد عبدالباقي في وضع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. ولسنا الآن بصدد تقويم أغراض حركة الاستشراق، ولا أعمال المستشرقين، فمن الواضح أن كثيرًا منهم لم يكن حياديًا ولا منصفًا، وكان يخدم أغراضًا استعمارية، لكن بعضهم اتصف نتاجه بالموضوعية والاعتدال، مثل الإنجليزي (توماس آرنولد ت١٩٣٠م) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام). و (زيجريدهونكه) في مؤلفها الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب)، والهولندي (هادريان ربلاند ت ١٧١٨م) في كتابه (الديانة المحمدية) الذي حرمت الكنيسة تداوله آنذاك. لسنا بصدد التقويم، ولكننا نشير إلى مدى اهتمام الغرب كمجتمع متقدم جادّ في خدمة مصالحه، بالتعرف على الآخر.

وقد ذكر الدكتور إدوارد سعيد في كتابه الهام عن (الاستشراق) أنه بين ١٨٠٠م إلى ١٩٥٠م صدر في الغرب عن الشرق الأوسط ٦٠ ألف مؤلف.

ومن المؤسف أنّا لا نجد في حضارتنا الإسلامية جهدًا معرفيًا يهتم بقراءة الآخر ودراسة أوضاعه الفكرية والحياتية ميدانيًا وبشكل تفصيلي مباشر.

نعم هناك جهود فردية مبتورة من أبرزها ما أنجزه العلامة أبو الريحان البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ/ ٩٧٣ - ١٠٤٨م) حول دراسة مجتمعات الهند ضمن كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة).

فقد عاش في الهند مدة كافية، اهتم فيها بالتعرف المباشر على الاتجاهات الدينية والفلسفية والعادات الاجتماعية، والأوضاع المعيشية، وسجّل كل ذلك بموضوعية، مما جعل كتابه مرجعًا لكل باحث في تاريخ الهند، ومحل تقدير للعلماء والمثقفين الهنود.

ولعل من أسباب عزوف الباحثين والعلماء المسلمين عن دراسة المجتمعات الأخرى في الماضي، الشعور بالقوة والاعتزاز الذاتي بالإسلام، مما يقلل في نظرهم أهمية ما لدى الآخرين، وألا شيء يدعو لصرف الجهد في التعرف على أوضاعهم.

دون أن نغفل هنا حركة الترجمة التي حصلت في العصر العباسي لكنها اقتصرت على جانب العلوم الطبيعية والفلسفية بترجمة كتبها إلى اللغة العربية ولم تتسع للجوانب الدينية والإنسانية الاجتماعية، كما لم تأخذ شكل الدراسات الميدانية والبحث والاطلاع الاجتماعي المباشر.

نحو قراءة موضوعية للآخر[1]

القراءة الصحيحة فيما بين الأطراف تؤسس للرؤية السليمة والتعامل الإيجابي، بينما خطأ القراءة ينتج سوء الفهم والتفاهم، ويؤدي إلى علاقات سلبية.

فكيف ينبغي أن نقرأ الآخر؟

هناك شروط هامة للقراءة الصحيحة من أبرزها القراءة المباشرة.

فإن قراءة الآخرين عبر الوسائط لا توفر للقارئ صورة واضحة دقيقة؛ لأن الوسيط قد لا يكون محايدًا، فيتأثر نقله بموقفه المنحاز، وقد يكون اطّلاعه ناقصًا، أو مصادره غير موثوقة، أو استنتاجاته غير صائبة، إلى ما هنالك من الاحتمالات..

وما دام الطرف الآخر موجودًا، والوصول إليه ميسورًا، وهو يرفع صوته معبرًا عن ذاته وآرائه، فما هو مبرر الإعراض عنه، والإصرار على أخذ صورته من الغير.

اللهم إلا أن يكون هناك غرض للإدانة والتشويه.

إن بعض النقولات عن هذا المذهب أو تلك الطائفة، قد تكون فرية واتهامًا لا أساس ولا مصدر لها عندهم، لكنها تتداول عليهم لدى الآخرين كمسلمات ثابتة.

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٤ محرم ١٤٢٥هـ، ٢٥ فبراير ٢٠٠٤م، العدد ١١٢١٢.

ويجد الباحث هذه المشكلة سائدة في أكثر الكتابات المتداولة عن العقائد والمذاهب.

أما الشرط الآخر فهو الموضوعية، وهي أن تكون القراءة هادفة لمعرفة الآخر كما هو: على حقيقته: دون ميل أو انحياز مسبق، يجعل بصر القارئ زائغًا.

وكذلك تعني الموضوعية عدم إساءة التفسير لرأي الآخر وعمله، ما دام يحتمل وجهًا للصحة.

إن البعض يقرأ الآخرين متبرعًا بالتعبير عن نياتهم ومقاصدهم، فيشكك في الصحيح من أعمالهم: والظاهر من معاني أقوالهم، بأن لذلك معاني وأهدافًا أخرى. وقد نهى الله تعالى عن سوء الظن: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[سورة الحجرات، الآية: ١٢].

جاء في سنن أبي داود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

وورد عن الإمام علي أنه قال: «لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءًا وأنت تجد لها في الخير محتملًا».

يقول الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي:

تجد الغلاة دائمًا يسارعون إلى سوء الظن والاتهام لأدنى سبب، فلا يلتمسون المعاذير للآخرين، بل يفتشون عن العيوب، ويتقممون الأخطاء، ليضربوا به الطبل، ويجعلوا من الخطأ خطيئة، ومن الخطيئة كفرًا!!

وإذا كان هناك قول أو فعل يحتمل وجهين: وجه خير وهداية، ووجه شر وغواية، رجحوا احتمال الشر على احتمال الخير، خلافًا لما أثر عن علماء الأمة من أن الأصل: حال المسلم على الصلاح، والعمل على تصحيح أقواله وتصرفاته بقدر الإمكان.

وقد كان بعض السلف يقول: إني لألتمس لأخي المعاذير من عذر إلى سبعين، ثم

أقول: لعل له عذرًا آخر لا أعرفه!

من خالف هؤلاء في رأي أو سلوك ـ تبعًا لوجهة نظر عنده ـ اتّهم في دينه فإذا أفتى فقيه بفتوى فيها تيسير على خلق الله، ورفع الحرج عنهم، فهو في نظرهم متهاون بالدين.

وإذا عرض داعية الإسلام عرضًا يلائم ذوق العصر، متكلمًا بلسان أهل زمانه ليبين لهم، فهو متهم بالهزيمة النفسية أمام الغرب وحضارة الغرب.. وهكذا.

ولم يقف الاتهام عند الأحياء، بل انتقل إلى الأموات الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، لهذا أرى أن أول ما ينبغي أن نطرحه من طريقنا، لكي نقرب الأمة بعضها من بعض، هو: سوء الظن، وأن نغلب فضيلة حسن الظن فيما بيننا، كما هو شأن أهل الإيمان[١].

والشرط الثالث هو الاستيعاب، وذلك بالاطلاع على مختلف أبعاد الرأي الآخر، أما الاقتصار على جانب واحد فهو يشكل قراءة ناقصة مبتورة.

ومن سمات القراءة الخاطئة أن يهتم القارئ بالاطلاع على ثغرات الطرف الآخر ونقاط ضعفه، ويتجاهل جوانب قوته، وموارد إصابته، فتكون الصورة حينئذٍ مشوهة قاصرة.

ومما يعنيه الاستيعاب معرفة الخلفيات الفكرية والتاريخية والاجتماعية التي أسهمت في تشكيل آراء ومواقف الجهة المقروءة. فذلك يساعد على الفهم الصحيح، والرؤية الواضحة.

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوي، مبادئ في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية، ص ١٠ – ١٣، مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية وأثره في تحقيق وحدة الأمة، البحرين.

كيف نقرأ الآخر[1]

في كل أمة وطائفة تتعدد الآراء والمواقف، وقد تتبنى بعض الآراء أقلية منهم، وحين الحديث عن هذه الأمة أو المجتمع، لا يصح وصفهم جميعًا بذلك الرأي، بل تقتضي الموضوعية الإشارة إلى تنوع الرأي لديهم، والى النسبة التي يمثلها القائلون بذلك الرأي في أوساطهم.

إننا نواجه في الأزمة مع الغرب وخاصة أمريكا هذه المشكلة بصورة واضحة، حيث تسعى بعض الدوائر هناك، وكثير من وسائل الإعلام إلى وصف المسلمين بصفات سيئة كالإرهاب؛ لأن فئة محدودة منهم تبنت هذا المسلك. وفي المقابل نجد عندنا من لا يرى في الغرب الا انحلالًا اخلاقيًا ونشاطًا استعماريًا. متجاهلًا المساحة الواسعة من الأخلاقيات الإيجابية في المجتمعات الغربية، ومن الجهود التي تبذل لخدمة القضايا الإنسانية هناك.

ويعطينا القرآن الكريم درسًا في التزام الموضوعية، وتجنب التعميم والتنميط في تقويم المجتمعات الأخرى، حين يتحدث عن ظاهرة كانت لدى بعض يهود يثرب، في عدم الالتزام بحرمة أموال الآخرين، فيشير القرآن الكريم إلى ان عدم الوفاء بالأمانة المالية ليس سمة عامة لجميع اليهود، بل هي ممارسة لقسم منهم، يقول تعالى:

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١١ محرم ١٤٢٥هـ، ٣ مارس ٢٠٠٤م، العدد ١١٢١٩.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

والقنطار هو المال الكثير.

ويجد المتأمل في آيات القرآن الكريم عند الحديث عن أهل الكتاب وذكر ظواهر الانحراف في أوساطهم ترفع القرآن الكريم عن أسلوب التعميم، واستخدامه فيما يفيد التبعيض، كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٠١]. ويقول تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٦٩].

هكذا يربينا القرآن الكريم على الموضوعية في النظر للآخرين وتقويم أحوالهم، بعيدًا عن أسلوب التعميم والتنميط الخاطىء الذي يشكل قراءة مبتورة.

بين الصيرورة والاستصحاب

المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية ليست قوالب جامدة، بل يحصل في أوساط علمائها ومجتهديها التغيير والتطور، وعند القراءة لأيّ مدرسة أو مذهب ينبغي أخذ الصيرورة في ثقافته بعين الاعتبار، ولايصح استصحاب الآراء والمواقف التاريخية كإرث حتمي ثابت. في المؤتمر الذي انعقد قبل أيام في الكويت تحت عنوان (الجماعات الإسلامية وأثرها في الإصلاح السياسي في الشرق الاوسط) كان يناقشني أحد الامريكيين المشاركين عن موقف الإسلاميين من المرأة مستشهدًا بكلام لأبي حامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥هـ)، قلت له: ولكن هناك غزالي معاصر الشيخ محمد الغزالي له كلام آخر يدافع عن حقوق المرأة ويدعو إلى مشاركتها السياسية والاجتماعية. إن تراث المسلمين وتاريخهم مليء بالنزاعات والمواقف العدائية تجاه بعضهم بعضًا، لكن علماء مختلف المذاهب الإسلامية قد تجاوزوا الكثير من تلك الآراء والمواقف المتشددة، فلا ينبغي الرجوع إلى الوراء ونبش ما في كتب التراث، واعتبار ما ورد فيها رأيًا للاجيال المعاصرة.

عوامل مساعدة للقراءة الصحيحة

أولًا: نشر الوعي والثقافة التي تدعو إلى قراءة الآخر قراءة صحيحة، والتوقف عن أسلوب التلقين وتوارث النظرات والمواقف تجاه الآخر. خاصة وقد توفرت الآن وسائل المعرفة، وزالت الحواجز، وأصبح التواصل الثقافي والمعرفي أمرًا ميسورًا.

ثانيًا: أن تسعى مختلف الجهات والفئات إلى تقديم نفسها، وعرض آرائها ومواقفها، فلا مجال للتوجهات الباطنية في العقيدة والمذهب، ولا مبرر للتقية والكتمان.

إن الانطواء والانغلاق من قبل أي فئة على نفسها يفسح المجال لظنون السوء، وللجهات المغرضة أن تشوه صورتها.

فعالم اليوم عالم مفتوح، وهناك درجة كافية من الحصانة لإنسان العصر ليعبر عن آرائه الدينية من أي دين أو مذهب كان.

ثالثًا: أن تتيح الحكومات فرصة كافية لمختلف المذاهب والتوجهات لتعبر عن نفسها. تطبيقًا لمفهوم التعارف الذي طرحه القرآن الكريم ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فذلك أدعى لاستقرار المجتمعات، وتوطيد انسجامها وألفتها.

رابعًا: تحتاج بلادنا إلى مؤسسات أهلية تقوم بدور التعارف والتعريف بين التوجهات والمدارس. خاصة أننا كنا نعيش زمنًا من القطيعة والتجاهل على هذا الصعيد.

ونأمل أن يسهم مركز الحوار الوطني الذي دعا إلى انشائه سمو ولي العهد، وصدرت موافقة خادم الحرمين الشريفين على تأسيسه، في تلبية هذا الطموح.

الدين يصنع الوحدة ويُستغل للتمزيق(١)

إن العمل من أجل وحدة الأمة الإسلامية وتعزيز تماسكها وتلاحمها هو من أهم الفرائض والواجبات، خاصة في هذا الزمن العصيب، الذي تراجعت فيه مكانة الأمة على المستوى العالمي، وأصبحت دولها تصنف ضمن خانة الدول النامية، أو العالم الثالث، وعادة ما تحتل أواخر الدرجات ضمن أي تقرير دولي لرصد مسيرة التقدم العلمي، أو التنمية الاجتماعية.

وإذا كانت الوحدة مطلوبة على كل الصّعد والمستويات، فإنها أكثر إلحاحًا وضرورة على الصعيد الديني، ذلك أن العامل الديني هو من أعمق العوامل وأشدّها تأثيرًا على نفس الإنسان وسلوكه.

فالقيم الدينية الصحيحة حين تأخذ موقعها في نفوس أبناء المجتمع وأفكارهم، تدفعهم إلى أعلى درجات التماسك والتلاحم، وتصنع منهم أفضل واقع وحدوي، وتمنحهم القدرة على تجاوز عوامل التجزئة والنزاع.

وهذا ما حصل بالفعل عند انبثاق نور الإسلام، ودخول القبائل العربية إلى رحابه، حيث نقلهم من حالة التشرذم والاحتراب إلى آفاق الإخوة والتآلف يقول تعالى: ﴿وَاذكُرُوا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيكُم إِذ كُنتُم أَعدَاءً فَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَأَصبَحتُم بِنِعمَتِهِ إِخوَانًا﴾.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٦ محرم ١٤٢٥هـ، ١٧ مارس ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٣٣.

وقد عبرّ القرآن الكريم عن المستوى الرفيع لوحدتهم وتماسكهم بأنهم: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرصُوصٌ﴾، كما وصف رسول الله ﷺ تلك الدرجة العالية التي بلغوها من التوحد والتضامن بأنهم أصبحوا كجسد واحد. جاء في صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[1].

هذا هو العطاء الطبيعي للقيم الدينية الصحيحة، التي تزرع في النفس روح المحبة للآخرين، واحترامهم، وتربي على أخلاقيات التعاون وخدمة المصلحة العامة، وتحصّن الإنسان عن التأثير السلبي للعصبيات العنصرية والقومية والقبلية والفئوية. وكما أن الدين بقيمه وتعاليمه الصافية يكون مصدرًا وصانعًا لأرقى حالات الوحدة والانسجام في الأمة، فإنه عندما تتعرض قيمه ومفاهيمه للتحريف والتزييف، يساء استخدامه كأشد معول للتفرقة والخصومة والنزاع.

وطالما أستغلت الأديان في تمزيق الشعوب، وإشعال الفتن والحروب، حين يتخذ البعض من الدين غطاءً لنزعة الهيمنة والاستبداد، ويحتكر لنفسه حق فهم الدين وتفسيره، وفقًا لتوجهاته السياسية والفكرية، قامعًا لكل الآراء الأخرى، ومصادرًا لحريات معتنقيها، الذين سيضطرون للدفاع عن حقوقهم، ونصرة آرائهم ومذاهبهم في تفسير الدين وفهمه، مما يقود الأمة إلى حالة الفتن المذهبية، والصراع الداخلي، وعادة ما تكون الخصومات الدينية في المجتمعات هي الأكثر حدة وعنفًا.

وقد حذّر القرآن الكريم من استخدام الدين أداة للفرقة والنزاع، يقول تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزبٍ بِمَا لَدَيهِم فَرِحُونَ﴾. ويقول تعالى: ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني)، ص١٣٩٦، حديث ٢٥٨٥.

إن تعدد الآراء والاجتهادات في إطار الدين هو أمر طبيعي لا مناص من حدوثه وحصوله، فالدين مجموعة من النصوص المنقولة، يستخدم العلماء والفقهاء عقولهم لفهمها وإدراكها، ولأنهم بشر يتفاوتون في مستوياتهم العلمية ومداركهم الفكرية، ويتنوعون في بيئاتهم وتجاربهم، فمن الطبيعي أن ينعكس ذلك التفاوت والتنوع على أفهامهم وتفسيراتهم للنص الديني، فضلًا عن إمكانية اختلافهم في إثبات صدور ذلك النص بالنسبة لما عدا القرآن الكريم؛ لأنه قطعي الصدور.

لكن تعدد الآراء واختلاف الاجتهادات لا يؤدي بالضرورة إلى النزاع والخصام، بل يثري حركة المعرفة والاجتهاد، ويشجع التنافس العلمي الإيجابي، ويتيح أمام الأمة أكثر من خيار شرعي في التعامل مع قضايا الحياة على ضوء مختلف الاجتهادات. وقد عاش أئمة الدين وفقهاء الأمة في العصور السابقة مع بعضهم، يتواصلون علميًا ومعرفيًا، يتتلمذ بعضهم على بعض، ويحاور بعضهم بعضًا، ويأخذون عن بعضهم بعضًا، ويتبادلون المودة والاحترام. حتى جاء جيل من الأتباع لأولئك الفقهاء، ينقصهم الإخلاص للدين، والتخلق بآدابه، والوعي بمصلحة الأمة، فحولوا انتماءهم لأولئك الأئمة الأعلام، إلى عصبية مذهبية، وتكتل فئوي، وانحياز طائفي.

فذاقت الأمة وبال الفتن والنزاعات مما بدد شملها ومزّق وحدتها وخاصة في عصرنا الحاضر، حيث جنح التطرف والغلو ببعض الفئات إلى تكفير مخالفيها من المسلمين، واتهامهم بالشرك والضلال والابتداع.

تجاه هذا التطرف الخطير على وحدة الأمة وأمنها واستقرارها كان لا بدّ من دور للواعين المصلحين، للتذكير بفريضة الوحدة الواجبة، وللتأكيد على احترام كل المذاهب الإسلامية وحرية الانتماء إليها، وأن تعدد المذاهب الفقهية والمدارس الفكرية، أمر مشروع وقديم الوجود في تاريخ المسلمين. وهو لا يبرر النزاع والخلاف، ولا ينبغي أن يؤثر على علاقات الأخوة والمواطنة بين أبناء الأمة.

التعاون سبيل النهوض[1]

القدرة على التعاون مع الآخرين، والنجاح في العمل الجمعي، هو مظهر لنضج الوعي، وسمو الخلق، وهو مفتاح التقدم والنهوض على الصعيدين الفردي والإجتماعي.

فحين يتعاون الإنسان مع الآخرين، يتسع أفق تفكيره، لإضافة آرائهم إلى رأيه، كما تتضاعف إنتاجيته لانضمام طاقاتهم إلى طاقته.

وفي التعاون ترويض للنفس على المرونة، وحسن التوافق، وتنمية للقدرات الإدارية والأخلاقية.

إن أي إنسان مهما عظمت كفاءته وقدرته، فإنها تبقى محدودة أمام آفاق الحياة وإمكاناتها، وأمام تحديات الواقع ومجالات التطلع والطموح.

لذلك يجد نفسه إن كان طموحًا، أمام أحد خيارين:

الانكفاء على قدرته والانطلاق منها لتحقيق الممكن من الإنجازات، أو التعاون مع الآخرين لمزيد من الإنتاجية والتقدم.

إن ضيق الأفق، وضحالة الوعي، وضعف الهمة، تدفع الكثيرين للخيار الأول،

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٢١ إبريل ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٦٨.

بينما ينطلق الواعون الناضجون باتجاه خيار الشراكة والتعاون.

والمجتمع المتقدم هو الذي تسود فيه حالة العمل الجمعي، في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، بينما يفرز واقع التخلف أسلوب العمل الفردي والعجز عن الشراكة والتعاون في شتى المجالات.

والتفاوت القائم اليوم بين حال المجتمعات الغربية المتقدمة، وواقع مجتمعات العالم الثالث المتأخرة، مصداق بارز لهذه الحقيقة الواضحة.

هناك تتعاون الحكومات مع قوتها، ضمن أحلاف وتكتلات، كالاتحاد الأوروبي، الذي يضم دول أوروبا، ويهدف إلى تحقيق تكاملها الاقتصادي، وتنسيق جهود التنمية الاجتماعية، وتحقيق الوحدة السياسية، وقد أصدرت عملة موحدة (يورو) ولديها برلمان منتخب من جميع دولها.

وكذلك حلف شمال الأطلسي الذي يضم ستّ عشرة دولة، هي دول أوروبا والولايات المتحدة وكندا، ويعمل كمنظمة دولية دفاعية، ويستهدف حل الخلافات بين الدول الأعضاء بالطرق السلمية، واعتبار أي اعتداء على دولة في الحلف اعتداءً على الجميع، ويضع خططًا دفاعية مشتركة.

إضافة إلى مجموعة الدول الصناعية السبع (كندا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان، بريطانيا، أمريكا). وأمثال ذلك من التكتلات العالمية التي تواصل تعاونها وتخدم مصالح المشاركين فيها.

وفي تلك المجتمعات غالبًا ما يكون النشاط الاقتصادي والصناعي، في إطار شركات تتراكم فيها الخبرات ورؤوس الأموال، وبعضها أصبح عابرًا للقارات، ومتعدد الجنسيات.

وبين حين وآخر يحصل اندماج واتحاد بين شركات كبيرة عملاقة، في نفس البلد أو من بلدان مختلفة. كالاندماج الذي حصل بين شركتي (شيفرون) و (تكساسكو)

النفطيتين الأمريكيتين. واندماج ثلاث شركات كبرى للفولاذ، من ألمانيا وفرنسا وأسبانيا لتصبح شركة واحدة عملاقة هي الأكبر في العالم، تنتج سنويًا مليون طن من الفولاذ. ووصفت هذه الصفقة بأنها مذهلة؛ لأن الشركات الثلاث هي في الأصل غريمة لبعضها.

كما أعلن أخيرًا عن اندماج شركتين أمريكيتين ضخمتين في عالم الإنتاج الموسيقي هي شركة (إي. أم. آي) وشركة (تايم وورنر) وتقدر قيمة الشراكة الجديدة بعشرين مليار دولار، وحجم مبيعاتها ثمانية مليارات دولار سنويًا.

أما على الصعيدين العلمي والاجتماعي في الغرب، فإن المؤسسات هي إطار الفاعلية والعمل، وقد انقرضت لغة العمل الفردي، ولم تعد مقبولة في تلك المجتمعات. وأصبح أفق التعاون عندهم عالميًا يتجاوز الدول والقارات، فقبل شهرين أعلن عن اتحاد الأحزاب الخضر في أوروبا، التي تهتم بحماية البيئة وتعارض الحروب وإنتاج الأسلحة الفتاكة فاتحدت ٣٢ حزبًا من ٢٩ دولة لتدخل البرلمان الأوروبي كقوة موحدة.

بالتأكيد فإن هذه المنهجية السائدة هناك، واعتماد لغة العمل الجمعي والتعاون المشترك، هي من أبرز أسباب تقدم تلك المجتمعات واستقرار أوضاعها السياسية وعلاقاتها الاجتماعية.

بينما نرى على الضفة الأخرى، في مجتمعات العالم الثالث التي ننتمي إليها، أن هذه المنهجية لا تزال محدودة التداول والاستخدام، فالفردية هي اللغة الشائعة في مختلف الميادين، ومشاريع التعاون والشراكة غالبًا ما تتعثر وينفرط عقدها.

لقد مضى على تأسيس جامعة الدول العربية حوالي ستين عامًا، ومع ضخامة التحديات التي يواجهها العالم العربي، وخاصة في هذه الأعوام الأخيرة، مما يجعل التعاون بين الدول العربية أشدّ إلحاحًا وأكثر ضرورة، إلا أن ما يحصل في إطار الجامعة العربية يدل بوضوح على ضعف إرادة التعاون، وغياب روح العمل الجمعي،

حيث لا تزال العلاقات مضطربة بين أكثر من دولة عربية، ولم تنجز الجامعة مشاريع مشتركة هامة تلامس مصلحة المواطن العربي، وجاء انفراط عقد الاجتماع الأخير للقمة العربية في تونس، وقرار تأجيله ليكشف بجلاء تعثر منهجية التعاون والعمل الجمعي على مستوى الدول العربية. وفي مظهر آخر لعمق الخلل في العلاقات العربية، وعجزها عن تحقيق أدنى مستويات التعاون، جاء تعثر الإعداد للمشاركة في معرض الكتاب الدولي في فرانكفورت، في دورته السادسة والخمسين بتاريخ ٦-١٠ أكتوبر من هذا العام ٢٠٠٤م، هذا المعرض الذي يعتبر أضخم مهرجان ثقافي عالمي، وتقرر من قبل ثلاث سنوات أن يكون العالم العربي هو ضيف الشرف فيه هذا العام، حيث يتمتع ضيف الشرف بجناح يخصص له، وتغطى معارضه وأنشطته بإعلام دولي مكثف، كما تتاح له فرصة إقامة مختلف الأنشطة الثقافية لمدة عام كامل على مستوى ألمانيا.

ومع ما يتعرض له العالم العربي من حملات إعلامية ضارية، لتشويه سمعته، كل ذلك يفترض أن يوجب أشد الحرص لاستثمار هذه الفرصة العظيمة، لكن واقع العلاقات العربية قد يضيع مثل هذه الفرصة، أو يضعف إمكانية الاستفادة منها بالمستوى المطلوب.

إن المساحة المخصصة في المعرض للعالم العربي تسعة آلاف متر مربع، ولم تسدد إلا بعض الدول العربية مبلغ سبعمائة ألف دولار من الرسوم التي تبلغ ثلاثة ملايين دولار!!

وكان من المقرر ترجمة ١٠٠ كتاب عربي إلى اللغة الألمانية، لم ينجز منها إلا عشرون كتابًا!!

ومن قائمة ٣٥٠ ناشرًا عربيًا يفترض مشاركتهم في المعرض، لم يتقدم إلا ١٥٠ ناشرًا فقط!!

وحسب البرنامج المقترح سيشارك حوالي ٧٥٠ من المؤلفين والمفكرين والأدباء

والفنانين والإعلاميين العرب، ليتعرف عليهم جمهور المعرض، وليشاركوا في فعالياته الثقافية، لكن الأموال اللازمة لنفقات سفرهم لم تؤمن بعد!!

بالتأكيد لو كان ضيف الشرف دولة عربية واحدة، لقامت بما يلزم لذلك بمفردها، لكن شمول المشاركة لكل الدول العربية، أوجب هذا التعثر.

ولا تقف المشكلة عند حدود ضعف التعاون بين الدول العربية، بل إن هناك صراعًا حول المشاركة في المعرض بين اتحاد الناشرين العرب والمراجع الرسمية العربية، ثم بين اتحاد الناشرين العرب والجامعة العربية، وبين الناشرين من بعض الدول العربية واتحاد الناشرين المصريين.

كيف ننمي إرادة التعاون؟[1]

إن واقع التعاون داخل الشعوب والمجتمعات الإسلامية ليس أحسن حالًا منه بين الحكومات، فحالة التنافر والتباعد هي السائدة بين مختلف القوى والجهات، من مذاهب وطوائف وأحزاب ومؤسسات، وحتى ضمن المذهب الواحد والمدرسة الواحدة، هناك عجز عن التعاون وتنسيق المواقف والجهود.

في هذا السياق نشرت الصحف هذه الأيام خبرًا من العراق يحمل الكثير من الدلالات، حيث دشّن ممثل (الكنيسة الانغليكانية) البريطاني (اندو وايت) المركز العراقي للحوار والمصالحة والسلام، وباشر دوره للقيام بالمصالحة بين القيادات الدينية العراقية السنية والشيعية، ونجح في عقد أول لقاء من نوعه بين السيد حسين الصدر كبير علماء الشيعة في بغداد وبين الشيخ عبدالقادر العاني من كبار علماء السنة هناك.

هكذا يحتاج عقد لقاء بين عالمين مسلمين عربيين عراقيين في مدينة واحدة، يعيش بلدهما أصعب الظروف حيث الاحتلال الأجنبي، وخطر التمزق الطائفي، يحتاج ذلك إلى وساطة من قبل ممثل الكنيسة البريطانية!!

إن هذه المفارقة المذهلة بين عجزنا عن التعاون فيما بيننا على مختلف المستويات،

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٩ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٢٨ إبريل ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٧٥.

ونجاح الآخرين في اعتماد التعاون والمشاركة منهجية عامة لحياتهم وعلاقاتهم، تجعلنا أمام تحدٍّ كبير، وسؤال خطير، عن الأسباب الكامنة وراء هذه المفارقة؟

إننا ننتمي إلى دين يقرر الوحدة بين أتباعه كأصل لازم، إلى جانب أصل عبادة الله تعالى وتقواه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاعبُدُونِ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُونِ﴾.

ويوجه القرآن الكريم أمرًا صريحًا بوجوب التعاون والمشاركة في أعمال الخير، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقوَى﴾.

إن نصوصًا دينية أخرى تأمر الإنسان بالقيام بأعمال البر والتقوى، لكن هذه الآية تأمر بالمشاركة واعتماد منهجية العمل الجمعي لإنجاز أعمال البر والتقوى.

وفريضة الحج أوجب الله تعالى أداءها بشكل جمعي بتحديد زمان ومكان ونسك واحد لجميع الحجيج.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يد الله مع الجماعة»[١].

هذه التعاليم الدينية تهدف بعث روح العمل الجمعي، وتربية الأمة على منهجية التعاون والمشاركة. فلماذا لا تترك أثرها المطلوب في واقع حياة المسلمين؟

إن الوحدة والتعاون بين قوى الأمة شعار يرفعه الجميع، وقضية لا يعلن أحد معارضتها، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك وتجسيده على أرض الواقع؟

يبدو أن هناك عوائق وإشكاليات أمام إرادة التعاون في مجتمعاتنا، تحتاج إلى تسليط الأضواء، والمعالجة الصريحة، وهي في غالبها ذات بعد نفسي سلوكي، ومن أبرزها:

عدم الشفافية والمكاشفة عند بحث العلاقات، ومشاريع التعاون، ففي المجتمعات

---

(١) كنز العمال، حديث ٢٠٢٤١.

الأخرى يتكلم كل طرف أمام الآخر عن مصالحه بجرأة ووضوح، ويحدد ما يريد وما يرفض، ويعرب عن هواجسه ومخاوفه بدون مواربة، أما في مجتمعاتنا فإن أسلوب المجاملة والمداراة هو المتداول، حيث تتكلم الأطراف حينما تلتقي بلغة المبادئ، وتتزايد على بعضها في إظهار التسامي على المصالح، وإبراز الثقة المتبادلة، وإعلان الموافقة على ما يطرح، مع إضمار ما يخالف كل ذلك!!

وقد شاع التعبير عن مثل هذه الحالة بأنها معالجة المشاكل على طريقة «تبويس اللحى».

وأذكر مرة أني شاركت في لقاءٍ جمع بين جهتين دينيتين متنازعتين لإصلاح ذات بينهما، وفوجئت بما ساد اللقاء من أجواء إيجابية، حيث أكد كلا الطرفين بأن ليس هناك ما يستحق النزاع، وأن رضا الله تعالى هو الهدف، وبعد اللقاء أبدى كل منهما شكوكه في كلام الآخر، وإصراره على التمسك بمواقفه؟!

إننا بحاجة إلى تجاوز هذه الازدواجية، واستخدام لغة المكاشفة والمصارحة، فالاهتمام بالمصالح والدفاع عنها ليس عيبًا، وعرض المطالب والرغبات أمر مشروع، والإعراب عن الهواجس والمخاوف ليس إساءة، إن الوضوح والشفافية بين الأطراف هو الخطوة الأولى في طريق التفاهم والتعاون.

الخوف من التعاون[1]

من عوائق التقارب والتعاون محورية العواطف والأحاسيس في نظرة الأطراف إلى بعضها، لقد تجاوز الأوربيون آثار حربين عالميتين حصلت فيما بينهم خلال نصف قرن من الزمن، الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، وقد سببت الحرب العالمية الأولى دمارًا كبيرًا، إذ مات نحو ١٠ ملايين جندي نتيجة الحرب، وجرح نحو ٢١ مليون رجل، ولا أحد يعرف كم عدد المدنيين الذين ماتوا من المرض والجوع والأسباب الأخرى المتعلقة بالحرب، ويعتقد بعض المؤرخين أن عدد المدنيين الذين ماتوا كان يساوي عدد الموتى من الجنود ١٠ ملايين. أما الخسائر الاقتصادية فتقدر بنحو ٣٣٧ بليون دولار أمريكي، عدا الآثار السياسية والاجتماعية.

أما الحرب العالمية الثانية فيزيد عدد ضحاياها من الجنود على ٣٠ مليونًا وقد يصل العدد من الضحايا المدنيين إلى ضعف ذلك[2].

لكنهم تجاوزوا كل تلك الآثار، وصاروا يتعاونون كحكومات وشعوب وجماعات

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٦ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٥ مايو ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٨٢.

(٢) الموسوعة العربية العالمية، ج٩، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، (الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع)، ص ٢٠٩- ٢٤٢.

ومؤسسات، يتحدثون عن تلك الحروب كتاريخ مضى، ويخلدون أحداثها ضمن المتاحف والمعارض، دون أن يوظفوها في تعبئة الانفعالات، وإثارة الكراهية والبغضاء.

لكننا ما زلنا نعيش آثار معارك التاريخ الغابر لأمتنا، ونحمّل بعضنا بعضًا نتائج ما حصل بين الأسلاف، وبدل أن نأخذ من التاريخ دروسه، ونستفيد من عبره، أصبحنا أسارى لانفعالات وقائعه وأحداثه، لتذكي بيننا مختلف ألوان الصراعات المذهبية والقومية والسياسية والإقليمية والقبلية.

وحتى على المستوى العائلي يتوارث الأبناء صراعات آبائهم وأجدادهم لتبقى الأرحام مقطوعة، والعلاقات متشنجة.

إننا بحاجة إلى إثارة عقولنا وترويض عواطفنا وانفعالاتنا، لندرك أن مصلحتنا في التعاون والتقارب.

ولعلّ من أسوأ عوائق الوحدة والتعاون في ساحة الأمة، ما يسميه البعض التزامًا شرعيًا مبدئيًا يمنعه من الاقتراب من الآخر المخالف له في الرأي، والمشاركة معه في أي مشروع؛ لأنه يعتبر الآخر مبتدعًا ضالًا، يأمر الشرع بهجره ومقاطعته، بل ومحاربته، وبغض النظر عن خطأ مثل هذه الأحكام غالبًا، فإن الشرع يفسح المجال للتحالف حتى مع غير المسلمين حينما تكون هناك مصلحة مشتركة، كما نصت صحيفة المدينة التي وضعها رسول الله ﷺ بداية الهجرة على التحالف مع قبائل يهود المدينة، وكان هناك عقد معاهدة بينه وبين قبيلة خزاعة من المشركين، إضافة إلى عدد من المعاهدات والأحلاف الأخرى المذكورة في السيرة النبوية.

إن التحديات الخطيرة التي تواجه الأمة تفرض نوعًا من الاستقرار في علاقاتها الداخلية، وتوجب مستوى من التعاون بين أطرافها وقواها المتنوعة فكريًا وسياسيًا، وتجاهل ذلك نوع من الجهل والغباء، والتبريرات الشرعية المدعاة هي خطأ في فهم مراد الشرع، أو التباس في موارد التشخيص والانطباق.

مواقع الاتفاق ونقاط الاختلاف

وهناك عائق آخر يتمثل في التسمّر أمام نقاط الخلاف، وسيطرتها على الأذهان والنفوس، مما يمنع الاتجاه إلى مواقع الاتفاق، وموارد الاشتراك، فليس شرطًا أن تتفق الأطراف المختلفة على كل شيء لتبدأ التعاون، بل يمكن الانطلاق من نقطة اتفاق واحدة لخدمة مصلحة مشتركة.

وهذا ما عرضه القرآن على اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿قُل يَا أَهلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَينَنَا وَبَينكُم أَلاَّ نَعبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعضُنَا بَعضًا أَربَابًا﴾.

ومن هذا المنطلق كانت معاهدات رسول الله ﷺ مع غير المسلمين من يهود ونصارى ومشركين.

إن وجود مشروع مشترك ومصلحة متبادلة في جانب ما بين الأطراف المختلفة، يجعلها أقدر على معالجة سائر الجوانب، أو تجميد الآثار السلبية للاختلاف فيها.

ومن المتعارف الآن في العلاقات السياسية أن تذكر البيانات المشتركة مواقع الاتفاق إلى جنب نقاط الاختلاف، كما أن أنظمة المؤسسات الجمعية الدولية والإقليمية، تفسح المجال لفرز الأصوات، الموافق منها والمخالف والممتنع عن التصويت، حول أي مشروع يطرح. فإذا ما اختلفنا حول مسألة أو قضية لا يعني ذلك إنهاء العلاقة، وإلغاء التعاون والانسحاب من الشراكة.

لماذا الخوف من التعاون

إن البعض يخشى من التعاون مع الآخرين لضعف ثقته بذاته، وأنه حينما يتعاون معهم قد يقع تحت تأثيرهم، أو يُحتوى وضعه لصالح نفوذهم، وقد يخشى البعض من أن التعاون يجعل ساحة تيارها مفتوحة أمام تأثير الآخرين، لكن هذه المخاوف وأمثالها تشكل تكريسًا لحالة الضعف وتسترًا عليها، والجهة الواعية هي التي تقبل

التحدي وتستجيب له، لترتفع إلى مستواه، فتتعاطى مع الآخرين بثقة، وتدخل حلبة التنافس الإيجابي باطمئنان، وبذلك تكتشف نقاط ضعفها فتعالجها، وتدرك مواقع قوتها فتنميها، فالتعاون بثقة سبيل لاكتساب القوة.

وفي بعض الأحيان تتضخم الأنا والذاتية عند البعض، فلا يرون الآخرين أندادًا لهم يستحقون التعاون، فهم الحق وغيرهم باطل، وهم الشرعية وسواهم أدعياء، وهم الكبار ومن عداهم أقزام، وقد يحيط البعض نفسه بهالة من العظمة والقداسة أمام الأتباع، فيخاف من التعاون أن يظهره على واقعه.. وهذه الأوهام تمثل حالة مرضية؛ لأن التفكير السليم يدفع القوي إلى تفعيل وجوده بالانفتاح على الآخرين وليس بالانكفاء دونهم.

إن الدول الكبرى في العالم تشارك في عضوية المؤسسات الدولية إلى جانب أصغر الدول، وتدخل معها في اتفاقات وتحالفات.

علماء الدين والمسؤولية الخطيرة[1]

التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي حققته الحضارة الغربية المعاصرة لم يستطع إلغاء الدين في حياة الإنسان، ولا التعويض عنه والحلول محله، كما توقع المنبهرون بهذه الحضارة المادية مطلع القرن العشرين.

بل على العكس من ذلك، فقد أفرزت هذه الحضارة الكثير من الأزمات الاجتماعية، وأثارت العديد من التساؤلات الفلسفية والفكرية، ووضعت الإنسان أمام تحديات صارخة في مختلف جوانب الحياة.

مما أكد لإنسان العصر ضرورة العودة إلى الدين، والتفيؤ بظلاله الوارفة وأحضانه الدافئة هربًا من العراء والتصحر المادي الذي أفقد الإنسان إنسانيته، وأضاع أحاسيسه ومشاعره النبيلة، وحوله إلى أداة وسلعة تتحدى قيمته بمدى إنتاجه المادي، ويتعاطي معه على أساس نفعي مصلحي مجرد.

وعودة الدين إلى حياة الإنسان، بل عودة الإنسان إلى أحضان الدين، في هذا العصر، ظاهرة عالمية واضحة في كل أرجاء المجتمعات البشرية، وضمن مختلف الديانات، إلا أن الإسلام يأتي في طليعة الديانات الأوسع نموًا وانتشارًا والأقوى حضورًا وإحياءً في ساحة معتنقيه.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، ١١ أغسطس ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٨٠.

هذه الظاهرة تجعل الدين، من جديد، على محك التجربة العنيفة، وأمام الامتحان الصعب .. فهل يقدم للبشرية ما تحتاج إليه من إجابات؟ وهل يمتلك الحلول والمعالجات للأزمات الحادة التي تعانيها المجتمعات الإنسانية المعاصرة؟

إن علماء الدين هم الجهة المعنية أساسًا بهذا التحدي الذي يواجهه الدين اليوم، فهم المتخصصون في دراسته، والمتعمقون في معرفته والمتصدون لنشره وتبيين مفاهيمه وأحكامه .

وعلى عاتقهم تقع مسؤولية تقديم البرامج والمعالجات للإشكاليات المثارة، والتحديات القائمة، على ضوء هدي الإسلام ومن خلال مبادئه وتعاليمه.

لكن المشكلة أن الكثيرين من علماء الدين يعيشون الغربة عن عصرهم، فلا يواكبون التطورات ولا يدركون عمق التحديات، وتشغلهم اهتمامات العصور الماضية في مجالات الفكر والفقه.

تعيش الأمة الإسلامية واقعًا غير إيجابي، فبينها وبين ركب الحضارة المادية المتقدم مسافة شاسعة.

وفي شتى مجالات الحياة، تواجه المعضلات والتحديات، فالوضع السياسي مضطرب في أغلب الدول الإسلامية جرّاء فقد الاستقرار والأمن.

والحالة الاقتصادية سيئة، مع وفرة الإمكانات والثروات في العديد من البلدان الإسلامية لكن الإدارة متخلفة، والتنمية الاقتصادية متعثرة.

والحركة العلمية والفكرية ضعيفة بطيئة، حيث يقل الإبداع والتطوير.

والعلاقات الداخلية بين الدول والجهات والقوى المختلفة في الأمة لا تتسم بالتفاهم والانسجام بل تسودها حالات النزاع والخصام.

لكن ما يبعث الأمل هو حركة جماهير الأمة، وانبعاث الصحوة الإسلامية المباركة في هذا العصر.

هذا الانبعاث بحاجة إلى مناهج ورؤى فكرية ثقافية تصوغ ذهنيات أبناء الأمة، وتحفظ أصالتهم، وترشد حركتهم، وتعينهم على استيعاب تطورات العلم والفكر. وبحاجة إلى برامج وخطط عملية لبناء المستقبل المنشود. وإذا لم تتوفر المناهج الفكرية والبرامج العملية، وبقي الحماس والاندفاع وحده سيد الموقف، فإن هذا الانبعاث تتهدده أخطار عظيمة، قد تنحرف بمساره وتغتال الآمال المعقودة عليه.

وما يلاحظ الآن من وجود حالات تزمّت وتطرف عند بعض الجهات العاملة باسم الإسلام، أو سياسات خاطئة منحرفة تطبقها قوى إسلامية، كل ذلك مؤشر على الفقر في المناهج والبرامج الفكرية العلمية، يثير القلق على مستقبل الدين والأمة.

والأنظار شاخصة نحو علماء الدين لكي يتصدوا لإبداع المناهج، وابتكار البرامج المنبثقة من وحي الدين، التي تساعد الأمة على إنجاز عملية النهوض والتغيير، وترسم أمامها طريق المستقبل الحر الكريم.

المطلوب من علماء الدين في هذا العصر بالدرجة الأولى استنباط الحلول والمعالجات لما يواجه البشرية من مشاكل وأزمات، وذلك يقتضي فهم قضايا العصر، والانفتاح على تطورات العلم والحياة.

الأمة ومشاريع الوحدة[1]

الوحدة أصل ثابت من أصول مقاصد الإسلام، وهدف أساس للأمة الإسلامية التي أرادها الله أمة واحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ والاختلاف والنزاع حالة مضادة ومناقضة لأساس الدين وغايته، يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

لسنا بحاجة للوقوف طويلًا، للحديث حول ضرورة الوحدة، وأهميتها، وموقعيتها، على المستوى الديني، فذلك أمر مفروغ منه، واضح لدى كل مسلم واعٍ.

لكن، وبالنظر إلى الواقع التجزيئي الذي تعيشه الأمة، فإن السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح، هو: ما الخطوة الأولى في طريق الوحدة؟

فمنذ أكثر من نصف قرن، كان هناك من يراهن على دور الأنظمة والحكومات، في العالم العربي والإسلامي، لكي تصنع واقع الوحدة، من خلال الأطر والمؤسسات الرسمية، وعبر العلاقات والتحالفات الثنائية بينها .. وكانت جماهير الأمة تهلل فرحًا، لكل مؤسسة رسمية، ترفع راية الوحدة، أو إطار إقليمي يتبنى التعاون والتنسيق، أو أي صيغة تبشّر بتوجه وحدوي، ولو بين دولتين وقطرين من أقطار المسلمين.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢ رجب ١٤٢٥هـ، ١٨ أغسطس ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٨٧.

لكن أغلب الحاكمين، تسيطر عليهم نزعة التسلط والتفرد، وليسوا مخلصين لمصلحة الأمة، ولا جادّين في تحقيق آمالها وتطلعاتها، كما لا يمتلكون مستوى من الوعي السياسي الحضاري الذي يدفعهم للتعاون فيما بينهم.

من هنا، أصبحت المؤسسات الرسمية ذات الطابع الوحدوي هياكل شكلية، وبقيت الأطر دون محتوى ومضمون حقيقي، وانتهت أغلب مشاريع الوحدة إلى التفكك والخلاف والنزاع، كمجلس التعاون العربي الذي دعا إليه صدام قبيل غزوه للكويت والاتحاد المغاربي.

وهناك من يرى أن الوحدة يجب أن تبدأ من جماهير الأمة، وذلك بتعبئة الجمهور، ودفعه لفرض الوحدة، وأن يمارس الناس السلوك الوحدوي، ويجسدون عملية الوحدة في تعاملهم الاجتماعي.

وإذا ما أصبحت الوحدة مطلبًا للناس، وتحركوا لتحقيقه، فإن إرادتهم ستنتصر على القوى والعناصر المناوئة والمضادة للتوجه الوحدوي.

ولكن، كيف يمكن تعبئة الناس باتجاه الوحدة، وهناك واقع من التمايز والتنوع القومي والعرقي والمذهبي والإقليمي والسياسي والطبقي؟ .. وكل لون من ألوان التمايز، قد صنع له فلسفة وتنظيرًا، وشاد عليها مواقف وهياكل ومؤسسات، بهدف الدفاع عن الذات، والخصائص المميزة، في مواجهة ما يعتبره تهديدًا لتلك الخصائص ومحاولة لفرض الذوبان وتجاوز الحقوق.

كانت الأمة في سالف عصورها الأولى، تعيش حالة حضارية ونموذجية للوحدة حيث انصهرت في بوتقة الإسلام شعوب مختلفة ومتمايزة عرقيًا وقوميًا وقبائليًا، ومع انبثاق مدارس اجتهادية متعددة دينيًا وسياسيًا إلا أن الأجواء العامة للأمة كانت تنعم بمشاعر الوحدة، وكانت الأنظمة والقوانين السياسية والاجتماعية قائمة على هذا الأساس.

ومع حصول الكثير من الانحرافات السياسية والإدارية على الصعيد الرسمي إلا أن الحالة الشعبية كانت تعيش واقع الوحدة والاندماج ولم يكن هناك شعور بالتناقض والتعارض بين الخصائص والميزات العرقية والقومية، التي لم تكن ممارستها تثير أية حساسية، ولا كان يترتب عليها أي أثر، في الحقوق العامة، يميز بين ذوي تلك الانتماءات وما بين الانتماء إلى الكيان الواحد للأمة الواحدة.

لكن المؤسف والمؤلم هو ما حصل في هذه العصور المتأخرة، من حصول زخم من المشاعر والأحاسيس العميقة في نفوس أبناء الأمة باتجاه التأكيد على جوانب التمايز القومي والعرقي والطائفي والمذهبي.

مما يجعل عملية التوعية والتعبئة باتجاه الوحدة تحتاج إلى جهد خارق وبرمجة دقيقة لكي تتجاوز حالة الشعار والمشاعر، وتتحول إلى طروحات فكرية وبرامج عملية تعالج المخاوف والتحفظات وتعطي الاطمئنان لمختلف الجهات، بأن الوحدة لا تعني مصادرة خصائصها وميزاتها، بل تفسح لها المجال لتشارك في بناء الكيان الشامل، ولتتكامل مع سائر الجهات والأطراف.

ومشكلة أخرى نواجهها في طريق تعبئة جمهور الأمة باتجاه الوحدة، هي وجود الدعاوى والمدعين، من حاملي رايات الوحدة، ورافعي شعاراتها، من حكام وأحزاب، ومراكز قوى وفاعليات، في الوقت الذي تجيّر فيه هذه الدعوات وتستثمر لأغراض مصلحية مناقضة للهدف الوحدوي، فكم من تجزئة وتفرقة ونزاع جرى تحت رايات الوحدة وعلى أنغام موسيقى شعاراتها؟ مما أحدث شيئًا من اليأس وردة الفعل والتشكيك في الدعوات الوحدوية لدى قطاع من جماهير الأمة.

كما يحصل الالتباس والخلط، فيصعب على الناس التمييز بين الدعوات الصادقة والأخرى الزائفة.

العلماء والاختلافات في الأمم السابقة[1]

لأهمية موضوع وحدة الأمة، فإن القرآن الكريم، يتناوله في العشرات من الآيات والسور ويعالجه من زوايا متعددة وجوانب مختلفة.

فبعض الآيات الكريمة تؤكد أهمية الوحدة وضرورتها في حياة الأمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

وآيات أخرى في القرآن الكريم تبين أضرار وأخطار الفرقة والخلاف وتحذر منها، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

بينما تشير مجموعة من الآيات القرآنية إلى الجهات الداخلية والخارجية، التي تعمل على تمزيق المجتمع وتغذي حالة النزاع والتمزق في الأمة، منها قوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، والمقصود في الآية الكريمة المنافقون.

ومن المسارات التي سلكها القرآن الكريم في تناول موضوع الوحدة التوجيه إلى قراءة أحوال الأمم السابقة في هذا المجال، وأخذ العبر والدروس من التحولات

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٩ رجب ١٤٢٥هـ، ٢٥ أغسطس ٢٠٠٤م العدد ١١٣٩٤.

السلبية التي حصلت لها، وعصفت بوحدتها وتماسكها وجعلتها عرضة للتفرق والتمزق.

فمن أي وسط بدأ الخلاف في الأمم السابقة؟ ومن أي شريحة اجتماعية انطلق وانتشر؟ اللافت للنظر ما يؤكد عليه القرآن الكريم في هذا السياق، من أن سبب الاختلاف في تلك الأمم ليس الجهل بالحقائق، ومنطلق الخلاف ليس من الأوساط الجاهلة بالدين والبعيدة عنه، وانما جاء الاختلاف من واقع العلم والمعرفة وانبثق من الأوساط العالمة بالدين التي تحتضن الدعوة والكتب السماوية المقدسة وهذا ما يظهر من آيات قرآنية كثيرة.

وقد استوقفت هذه الملاحظة العديد من العلماء المفسرين للقرآن عند تناولهم بعض هذه الآيات الكريمة.

جاء في تفسير الآية ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الجاثية، الآية: ١٧].

يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق، لم يكن عن شبهة أو جهل، وإنما أوجدها علماؤهم بغيًا وكان البغي دائرًا بينهم).

ويقول عند تفسيره للآية ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢١٣] (إنه تعالى يخبرنا أن الاختلاف نشأ بين النوع في نفس الدين، وإنما أوجده حملة الدين ممن أوتي الكتاب المبين: من العلماء بكتاب الله بغيًا بينهم وظلمًا وعتوًا).

ويؤكد نفس الحقيقة الدكتور وهبة الزحيلي فيقول:

(ثم ذكر الله تعالى أن بعض أهل الكتاب، جعلوا كتابهم مصدر الاختلاف عدوانًا وتجاوزًا للحق، فقال: لقد اختلف الرؤساء والأحبار وعلماء الدين في الكتاب الذي أنزله الله للحق، بعدما جاءتهم البينات الواضحة، والأدلة على سلامة الكتاب،

وعصمته من إثارة الخلاف، وأنه لإسعاد الناس، لا لإشقائهم والتفريق بينهم، ولم يكن ذلك الاختلاف من أولي العلم القائمين على الدين الحافظين له بعد الرسل، والمطالبين بتقرير ما فيه الا حسدًا وبغيًا ـ جورًا منهم ـ وتعديًا لحدود الشريعة التي أقامها حواجز للناس).

وحول تفسير الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٠٥] يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي:

(ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذي جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعًا، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال وإنما صدر عن علم وقصد سيىء وبغي من بعضهم على بعض).

ولعل القرآن الكريم من خلال إثارته وطرحه المكرر، للدور السلبي الذي لعبه علماء الدين في الأمم السابقة الذين اتخذوا الدين مطية للوصول إلى مواقع الزعامة والنفوذ، وسلاحًا في معاركهم الداخلية المصلحية مع بعضهم البعض، فمزقوا وحدة أممهم وحولوها إلى أحزاب متناحرة وشيع متصارعة باسم الدين.

لعل القرآن يريد بذلك تنبيه الأمة وتحذيرها، لتنظر إلى علمائها بعقول واعية، وتتعامل معهم بعيون مفتوحة، لا بثقة عمياء وتقديس مطلق.

إن علماء الدين هم الجهة الأكثر تأهيلًا وقدرة على شق طريق الوحدة أمام الأمة وذلك للأسباب التالية:

أولًا: لما يفترض فيهم من أنهم الأكثر تمسكًا بتعاليم الإسلام، والأحرص على تطبيق مبادئه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ والوحدة كمبدأ ونظام ينبثق من عمق الدين عقيدة وتشريعا، لا بدّ وأن يحتضنها العلماء، ويهتموا بتنفيذ أوامر الله حولها.

ثانيًا: العلماء مدعوون ومطالبون من قبل الله تعالى، قبل أي جهة أخرى بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وأي معروف أكبر من الوحدة وأي منكر أخطر من التجزئة والتفرقة.

ثالثًا: للعلماء رصيد كبير من الثقة في نفوس الناس مما يجعل دعوتهم أكثر قبولًا ويمكنهم من التغلب على حالات اليأس والتشكيك والالتباس وأن يتعاطى الجمهور مع دعوتهم بثقة وجدية.

حين يختلف العلماء[1]

قد يحدث الاختلاف والنزاع داخل أي شريحة من شرائح المجتمع، وعلى أي مستوى من مستوياته، وهو أمر سيئ ضار، لكن أضراره تبقى ضمن حدود معينة، أما إذا حدث الاختلاف والنزاع في وسط علماء الدين، فإن الأضرار ستكون أشدّ، والخطر أعظم، وذلك لأنه ينطوي على الأبعاد التالية:

استغلال الدين

في الخلاف بين علماء الدين، يصبح الدين هو ميدان الصراع، وتكون القضايا الدينية هي أدوات النزاع والخلاف، حيث يسعى كل طرف للتحصن بالدين، في مقابل الطرف الآخر، وتعزيز موقفه في النزاع بمبررات دينية، وقد يكون جوهر الصراع في بعض الأحيان اختلافًا مصلحيًا، لكنه ما يلبث أن يأخذ المنحى الديني، أو يكون في البداية اختلافًا محدودًا، ضمن مسألة من المسائل الدينية، لكن حالة الصراع توسّع رقعة الخلاف، وبشكل مفتعل متكلف، يطال أغلب المسائل والقضايا الدينية، حتى يصبح الدين الواحد دينين، والمذهب مذهبين، والمدرسة الفكرية تنشطر إلى مدرستين..

ثم يزايد كل طرف على الآخر في التمسك بالدين، ويتهمه في دينه وعقيدته

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٦ رجب ١٤٢٥هـ، ١ سبتمبر ٢٠٠٤م، العدد ١١٤٠١.

والتزامه، ويعطي لنفسه الحق في إصدار أحكام التكفير والتفسيق والمروق والخروج من الدين..

وهكذا يصبح الدين ساحة صراع، وخنادق للقتال، ومواقع للمهاجمة والرمي وتصويب السهام، فتتمزق الأمة وتحترب وتتشرذم باسم الدين، وتحت رايات تحمل شعاراته وخلف قيادات تلبس مسوحه.

طمس الحقائق الدينية وتحريفها

لعلّ من أسوأ وأخطر آثار الصراع والخلاف بين علماء الدين، انعكاسه على طرح وتبيين الحقائق الدينية.

فقد يلجأ بعض أطراف الصراع أو كلاهما إلى إنكار حقيقة دينية، أو طمسها، لأن الطرف الآخر يستفيد منها، أو يقول بها.

وقد يحرّف شيئًا من مفاهيم الدين، أو ينسب للدين ما ليس منه، نكاية بالطرف الآخر، وكم حصل في الديانات السابقة وحتى في الإسلام، تحريف وتزوير وإضافة وإنقاص، بسبب حالات الخلاف والصراع، بين المذاهب والمدارس والجهات الدينية.

وفي اكثر من آية في القرآن الكريم، جاء التحذير من التحريف والتزوير، والطمس للحقائق الدينية، بدوافع مصلحية، وعلى خلفية التعصب والاختلاف. يقول تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يصرفونه عن المعنى المقصود منه وينسبونه إلى معنى آخر.

وحينما يجد عالم الدين نفسه في مقابل عالم آخر، فإن الدوافع الذاتية قد تدفعه لإثبات تميزه، أو تفوقه على مقابله، وإن كان ذلك على حساب الحق والحقيقة، إلا من عصم الله من الورعين المخلصين الأتقياء.

من هنا جاءت شريعة الإسلام، وتوجيهات أئمة الهدى، للتحذير من الدخول في

أي نقاش أو مناظرة تشوبها الدوافع الذاتية، فالحوار والجدال مع الآخرين المختلفين مع الإنسان دينيًا، يجب أن يكون خالصًا لخدمة الحق، واستكشاف الحقيقة، وضمن الآداب والضوابط، التي ترتقي بالحوار والجدال إلى أفضل مستوى، وأحسن أسلوب، كما يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

إن الإخلاص للحقيقة والموضوعية في الحوار والمناظرة عند الاختلاف، تستلزم القبول بالحق، وإن جاء على لسان الخصم، وحتى لو كان الطرف الآخر مبطلًا في أصل دعواه واتجاهه، لكنه أورد برهانًا صحيحًا في معرض جداله، فإنه لا يصح رفض البرهان الصحيح بسبب العجز عن مقابلته.

وقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي بابًا في موسوعته (إحياء علوم الدين) لبيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق.

الفصل الثاني

قضايا الثقافة والفكر

حركة الوعي والثقافة في المجتمع[1]

يقاس مستوى تقدم أيّ مجتمع من المجتمعات، بمقدار فاعلية حركة الوعي والثقافة في أوساطه، فعلى أساسها تتحدد مكانة المجتمع، وتصاغ شخصيات أبنائه.

والوعي كما يقول علماء اللغة العربية هو: حفظ القلب الشيء. وعى الشيء والحديث يعيه وعيًا وأوعاه: أي حفظه وفهمه. وفلان أوعى من فلان أي أحفظ وأفهم. وفي الحديث: نضّر الله امرأً سمع مقالتي ووعاها. أي فهمها. وفي حديث أبي أُمامة: لا يعذّب الله قلبًا وعى القرآن. قال ابن الأثير: (أي عقله إيمانًا به وعملًا، فأما من حفظ ألفاظه وضيع حدوده فإنه غير واعٍ له)[2]. وإنما سمي الإناء إناءً لأنه يحفظ ما يوضع فيه.

وجاء في القرآن الكريم: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[سورة الحاقة، الآية: ١٢]. وذلك في سياق الحديث عن أخبار الأمم السالفة، وكيف كان مصيرهم إلى الدمار، بسبب انحرافهم عن منهج الله وفسادهم الاجتماعي. حيث تشير الآية الكريمة إلى أن هذه الأخبار والمعلومات التاريخية ليست للتسلية أو للترف الفكري، وإنما المقصود منها حصول الوعي بفهم سنن الحياة وقوانين التاريخ، وعبّر بالأذن الواعية؛ لأن السمع هو نافذة الإنسانية على

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ١٦ يناير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٤٢.

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب.

أخبار التاريخ الماضي غالبًا، وهي مجرد جهاز توصيل، والفهم والإدراك يتم فيما وراء الأذن حيث قلب الإنسان وفكره، هو الوعاء الذي تجتمع فيه المعلومات وتختمر لتتحول إلى فكرة ورؤية واستنتاج.

أما الثقافة لغةً فهي من ثَقِفَ الشيء أي حذقه وفهمه. ورجل ثَقِفْ أي حاذق الفهم. وقال ابن السُكّيت: رجل ثَقْف لَقْف إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به. ويقال: ثَقِفَ الشيء وهو سرعة التعلم. وقال ابن دريد: ثَقِفْتُ الشيء: حذقتُه، وثقفته إذا ظفرت به. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٥٧] أي إذا أدركتهم وسيطرت عليهم. وفي حديث الهجرة: وهو غلام لَقِن ثَقِف، أي ذو فطنة وذكاء(١).

واصطلاحًا للثقافة تعريفات كثيرة تزيد على مئة تعريف، وأشهرها تعريف «تايلر» عالم الانتروبولوجيا البريطاني، الذي عرّف الثقافة بأنها: ذلك الكل المركب من المعلومات والمعتقدات والفنون والأخلاق والعادات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في المجتمع.

الثقافة والوعي في حياة الإنسان

يدرك كل إنسان دور الجانب المادي في حياته، فبه ينظم شؤون معيشته من غذاء ولباس وسكن وما شابه، لكن دور الوعي والثقافة ليس واضحًا لدى الكثيرين، حيث لا يعتبرونها من أساسيات الحياة، بل هي شأن كماليٌّ زائد.

والواقع أن حياة الإنسان تتأثر بثقافته ووعيه، وكلما كان أكثر ثقافةً ووعيًا، كانت حياته أرقى وأفضل، وانخفاض المستوى الثقافي يقابله تدنٍ وانحطاط في المستوى الحياتي العام.

فمثلًا في الجانب الصحي هناك فرق واضح بين من يحمل ثقافةً ووعيًا صحيًا،

---

(١) محمد بن مكرم ابن منظور. لسان العرب.

ومن يفتقد ذلك، ويتجلى الفارق في نوعية الغذاء، وفي أسلوب الحياة، والتعامل مع الأمراض والحوادث، بل في تعاطي الإنسان مع أعضاء جسمه، فكم من مرض خطير يحصل بسوء تصرف وممارسة خاطئة ناتجة عن الجهل وعدم الوعي.

وفي الجانب المالي فإن أفضل المستثمرين هم مَن يعتمدون على متابعة حركة الاقتصاد، وفهم تأثير الأحداث والتطورات فيها، فوعي الإنسان وثقافته في هذا المجال تجعله أقدر على استثمار الفرص، وتحقيق المكاسب، بينما تفوت غير المتابع المطلع فرص كثيرة، ويخسر مصالح ومكاسب.

وكمثال بسيط على ذلك ما ذكرته بعض التقارير الاقتصادية من أن العرب يخسرون سنويًا في أوروبا أكثر من ٢٥٠ مليون دولار، نتيجة جهلهم وغفلتهم عن قانون استرداد الضريبة المضافة، ففي دول الاتحاد الأوروبي تؤخذ ضريبة على كل بضاعة أو سلعة بالنسبة للمواطن والمقيم، أما السائح فإن بإمكانه استرجاع ضريبة البضائع التي يشتريها و يخرج بها من ملابس وهدايا وأجهزة، بتقديم فواتيرها لجهة خاصة في المطار عند المغادرة، لكن الكثيرين لا يعرفون ذلك أو لا يهتمون به فيخسرون مبالغ كبيرة.

ونجد الآن في مجتمعاتنا كيف أن بعض الناس يمتلكون مبالغ كثيرة، كالمتقاعدين الذين يتسلمون ادّخارهم وحقوقهم من الشركات عند سن التقاعد لكنهم لا يعرفون كيف يوظفونها ويستثمرونها، فتتبخر من أيديهم هنا وهناك.

كما نلحظ أن بعض الأشخاص يعيشون وضعًا اقتصاديًا سيئًا مع أن لهم دخلًا، إلا أنهم لا يعتمدون التخطيط والتدبير في نفقاتهم ومصروفاتهم.

ومثل ذلك يجري في الحياة العائلية والعلاقات الاجتماعية حيث للثقافة والوعي دور أساس في نجاحها وارتقائها، بينما يصيبها التدهور والتأزم بسبب الجهل وانعدام الوعي غالبًا.

الوعي الديني

للوعي والثقافة في المجال الديني أهمية خاصة؛ لأن تدين الإنسان يجب أن يكون نتيجة قناعة منه، وإيمان واندفاع ذاتي، وليس حالة من الاسترسال والانسياق الوراثي أو الاجتماعي.

كما أن للدين قيمًا ومبادئ، ومقاصد وغايات، فإذا لم يتوفر للإنسان الوعي بذلك، يصبح تدينه مظاهر وممارسات قشرية فارغة.

وضعف الوعي بالدين يعرّض الإنسان لأخذ خطرين بليغين: أما الانسلاخ من الدين، وخاصة حينما تعصف به الشبهات والتيارات المضادة، فلا يجد ما يعتصم به من وعي ومعرفة راسخة.

أو أن يُستغل باسم الدين من قبل زعامات مصلحية، و قوىً انتهازية، ففي بداية عام ٢٠٠٠م حصلت مأساة مروعة في جنوب غرب أوغندا، على يد قس ينتمي إلى الكنيسة الكاثولوكية، يقود حركة دينية باسم «مجموعة إحياء الوصايا العشر» وقد أقنع أتباعه بأن نهاية العالم وشيكةٌ، وستقوم القيامة، ودفعهم إلى بيع بيوتهم وممتلكاتهم، ليشتروا عَبره أماكن لهم وقصورًا في الجنة، وحدد لهم يومًا معينًا وساعةً محددةً ليدخلوا الكنيسة ويضعوا حدًا لحياتهم بأيديهم لتلتحق أرواحهم بالملكوت الأعلى، وهو سيسافر إلى أوروبا ومنها يسبقهم إلى الجنة ليستقبل أرواحهم!! وبالفعل دخل حوالي ٤٧٠ شخصًا كنيستهم، وأغلقوا عليهم الأبواب والنوافذ، وثبتوا المسامير فيها حتى لا يفكر أحد في الهرب والخروج ويخسر فرصة الانتقال إلى الفردوس، وصبّوا الوقود في أنحاء الكنيسة وأشعلوا النار، وماتوا كلهم اختناقًا واحتراقًا، وفيهم عدد من النساء والأطفال!!.

وقد تناقلت الخبر وكالات الأنباء، وتباينت التفسيرات والتحليلات حول دوافع الحدث وتفاصيله.

إن هذا الحدث نموذج صارخ للتضليل والاستغلال الديني، والجهل وضعف الوعي والثقافة يوفّر الفرصة لظواهر وممارسات من هذا القبيل، وضمن كل دين أو مذهب قد تظهر وتنمو قوى ومراكز تستغل الدين لاستعباد الناس واستخدامهم، ورأينا حتى في عصرنا الحاضر كيف انبثقت جماعات وحركات منحرفة باسم الإسلام، دفعت أتباعها إلى أبشع الممارسات الإرهابية، والسلوكيات الرجعية المتخلفة.

إن الوعي الديني الصحيح والثقافة السليمة هو ضمانة الاستقامة، وتجاوز محاولات الاستغلال والتضليل. جاء في صحيح البخاري عن أبي عبد الرحمن عن علي بن أبي طالب ﵇ قال: بعث النبي ﷺ سريةً ـ فرقة صغيرة من الجيش ـ فاستعمل عليها رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب ـ ذات يوم ـ فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبًا، فجمعوا. فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها. فقال: ادخلوها، فهمّوا وجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه. فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[1].

إذًا فالثقافة والوعي لها تأثير كبير على حياة الإنسان في مختلف المجالات، وكلما كان الإنسان أكثر ثقافة ووعيًا كانت حياته أرقى وأفضل، فهي ليست أمرًا ترفيًا كماليًا؛ لأن الإنسان تنطلق ممارساته ومواقفه من قناعاته وأفكاره، والثقافة الأفضل تنتج قناعات ورأيًا أفضل، ينعكس على سلوك الإنسان وتصرفاته.

رؤية الدين

النصوص الدينية تعطي لقضية الوعي والثقافة اهتماما كبيرًا لا يعدله أي اهتمام، فالقرآن الكريم يقرر أن هناك فارقًا مائزًا لا ينكر بين العالمين الواعين وغيرهم، ويتساءل على سبيل التقرير والإثبات ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي.

يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الزمر، الآية: ٩]... ويكفي أن نعلم أن أول آية نزلت من القرآن الكريم هي دعوة إلى الثقافة والوعي، يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥] إنها أمر بالقراءة أي الفهم والمعرفة، وإشادة بالقلم كأداة للعلم والتعليم. وهناك سورة أخرى باسم سورة القلم، يبدؤها الله تعالى بالقسم بالقلم وما يخطه، في مجتمع كانت تسوده الأمية، ومن يستطيعون القـراءة والكتابة فيه عددهم محدود جـدًا، يقـول تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[سورة القلم، الآية: ١].

وهناك أحاديث وروايات كثيرة تعتبر فهم الإنسان ومعرفته هي المقياس لمستوى تدينه ومكانته عند الله، كالحديث الوارد عنه: «أفضل المؤمنين إيمانًا أفضلهم معرفةً»

وورد عن النبي ﷺ: «ساعة من عالم يتكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عامًا»..

التثقيف الذاتي

إدراك قيمة الوعي والثقافة، والاستجابة لتوجيهات الدين، يعني أن يهتم كل إنسان بتثقيف نفسه، وتحصيل أكبر مستوى من الوعي لذاته، خاصةً ونحن نعيش عصرًا توفرت فيه وسائل العلم والمعرفة، وفرص التثقيف والوعي.

فالإنترنت مثلًا وهو من أهم إنجازات البشرية في هذا العصر يفتح أمام الإنسان آفاق العلم والمعرفة لمن يتطلبها، لكن المؤسف أن البعض يسيء الاستفادة من هذه الوسيلة الهامة، فيستخدمها في الاتجاهات السيئة.

في بداية سنة ٢٠٠٠م بلغ عدد المشتركين في شبكة الإنترنت على مستوى العالم ٢٤٨ مليون مشترك. ومن البلاد العربية التي يبلغ تعداد نفوسها أكثر من ١٥٠ مليون عربي، وصل عدد المشتركين في الإنترنت ٤٩٠ ألفًا، بينما وصل عدد المشتركين في الكيان الإسرائيلي الغاصب الذي لا يزيد عدد سكانه على خمسة ملايين إلى ٨٠٠

ألف مشترك!!، وفي ذلك مؤشر على ضعف وتخلف مستوانا الثقافي.

كما أن واقع حركة الكتاب في بلداننا يكشف هو الآخر عن مدى هذا التخلف والضعف، فالعالم الآن يستهلك سنويًا ٨٠ مليون طن من الورق لصناعة الكتب والمطبوعات، حيث يطبع سنويًا مليون كتاب جديد في عشرين بليون نسخة، إضافة إلى نصف مليون مطبوعة دورية في مئتي بليون نسخة، ويقال إن هذا المقدار من الورق الذي يستهلكه العالم في المطبوعات يكفي لتغليف الكرة الأرضية سبع مرات ومعلوم أن مساحتها تبلغ ١٣٦ مليون كيلومتر مربع.. فما هو نصيبنا نحن من حركة الكتاب على مستوى العالم إنتاجًا وقراءةً؟؟.

إننا ننتمي إلى أمة يبدأ دينها بالدعوة إلى القراءة ﴿اقْرَأْ﴾ فإلى أي حدٍّ تأخذ القراءة حيزها في برامج حياتنا وأوقاتنا؟. الكتاب مصدر من مصادر الوعي والثقافة، فينبغي أن يهتم كل واحد بعلاقته مع الكتاب، وأن نربي عوائلنا وأبناءنا وبناتنا على الارتباط بالكتاب، في البلاد الغربية أصبحت المكتبة جزءًا من لوازم البيت والعائلة، لذلك فإن أي تخطيط أو تصميم لترتيب المنزل وتأثيثه لا بدّ وأن يحتوي على رفوف للكتب، ولأن طريقة التصميم والتأثيث عندنا مستوردة منهم، فإن في غالب بيوتنا الآن مكانًا للكتب، لكنها قد تشغل بأشياء أخرى، لضعف التوجه والاهتمام لدينا بالقراءة والثقافة.

الحركة الثقافية

اهتمام أبناء المجتمع بالثقافة يتأثر بمستوى النشاط والحركة الثقافية العامة في البلاد، فإذا كانت هناك فاعلية ونشاط ثقافي، فإنها تخلق أجواء دافعة ومشجعة باتجاه الوعي والثقافة، لدى أكبر عدد وأوسع رقعة اجتماعية.

ومن مفردات تنشيط الحركة الثقافية في المجتمع:

١. التشجيع والتوجيه نحو الثقافة من قبل وسائل الإعلام، وعلماء الدين، وخطباء المنبر، ومعلمي المدارس.. ومن قبل كل ذي تأثير ونفوذ.

٢. توفير المجال وإتاحة الفرصة أكثر للأنشطة الثقافية المختلفة، من قبل الأجهزة الرسمية المعنية كوزارة الإعلام ورعاية الشباب ووزارة المعارف، ومن قبل الجهات الأهلية المتصدية، ففي كل منطقة يوجد نادٍ رياضي، ومسجّل على لوحته أنه رياضي اجتماعي ثقافي، وللنشاط الثقافي في الأندية مستحقات ومخصصات من قبل رعاية الشباب، لكن المطلوب من إدارات الأندية أن تولي الجانب الثقافي اهتمامًا أكبر. كما أن المساجد يمكنها أن تلعب دورًا أكبر في تنشيط الحركة الثقافية، ضمن الضوابط والقوانين الشرعية.

٣. تسهيل حركة الكتاب تأليفًا وطباعةً ونشرًا. ووجود المكتبات العامة للمطالعة والبحث يعتبر معلمًا من معالم الحركة الثقافية في المجتمع، فينبغي الاهتمام بالمكتبات العامة، وإلفات النظر إليها، ففي القطيف مثلًا لدينا مكتبتان لا يعرف عنهما كثير من الناس، لذا فإن الاستفادة منهما محدودة، لدينا المكتبة العامة بالقطيف، وتقع في المنطقة الخامسة، تأسست عام ١٤٠٨هـ من قبل وزارة المعارف، وتحتوي على عشرة آلاف كتاب، ومساحتها جيدة، ويعمل فيها ١٣ موظفًا، يداومون على فترتين صباحًا ومساءً. والمكتبة الأخرى في مركز الخدمة الاجتماعية بالقطيف وتضم خمسة آلاف كتاب.

إمكانات ومقومات

تتوفر في مجتمعنا إمكانات ومقومات عديدة، تساعد على انطلاق حركة ثقافية فاعلة.

أولًا: تقدم المستوى التعليمي فقد انخفضت نسبة الأمية في بلادنا والحمد لله إلى أدنى حد، وكل أبنائنا وبناتنا متعلمون.

ثانيًا: توفر وسائل الاتصالات والمعلومات التقنية والتكنولوجية، من تلفزيون، وأجهزة التقاط فضائي، وكمبيوتر، وفاكس، وإنترنت..

ثالثًا: الماضي العلمي والثقافي العريق لمجتمعنا العربي.

رابعًا: وجود الكفاءات والقدرات العلمية والأدبية في مختلف المجالات،

خامسًا: توفر القدرة المالية، فالحركة الثقافية تحتاج إلى تمويل وانفاق. وعندنا أثرياء متمكنون، ورجال أعمال مقتدرون، ونرى أن هناك إقبالًا على أعمال الخير في بلادنا كبناء المساجد، ومساعدة الفقراء والضعفاء، وما نحتاجه هو التوجيه إلى أهمية الإنفاق والعطاء في الأنشطة الثقافية، وأن ذلك مورد لثواب الله تعالى ورضاه، وسبب لصلاح المجتمع وتقدمه.

كما أن الحقوق الشرعية من أخماس وزكوات، والأوقاف الخيرية والدينية، وهي متوفرة في المجتمع، ينبغي أن تقوم بدور أكبر في دعم النشاط الثقافي، وتفعيل حركة الوعي والمعرفة.

هذه المقومات يمكنها أن تشكل أرضية مناسبة لنهضة ثقافية واعية، ترفع مستوى المجتمع، وتطور حياته في مختلف المجالات، وتمكنه في الإسهام في بناء الوطن ورفعة شأنه.

معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة[1]

يبدي كثير من الباحثين الأجانب، غربيين وشرقيين، دهشتهم لضخامة الإنجاز الذي حققه الرسول محمد، في مدة قياسية، ومساحة زمنية محدودة، فما كاد يمر على بدء الدعوة عقد ونصف من الزمن، حتى تمكن رسول الله ﷺ من بناء مجتمع إيماني متماسك، وإقامة كيان رسالي متحضر، على أنقاض حياة جاهلية قبلية متخلفة. لينطلق بعد ذلك مارد الحضارة الإسلامية المشرقة.

وفي الحقيقة فإن النشاط الجاد المكثف، والجهد الدعوي الكبير، الذي بذله رسول الله، هو الذي اختصر أمام الرسالة مسافة الزمن، وضاعف من سرعة خطوات حركتها المباركة، وذلك بتوفيق الله تعالى ورعايته.

فبعد نزول الوحي عليه ﷺ أصبح في حركة دائبة، وسعي متواصل، لم يعرف للراحة طعمًا، ولم يجد التعب والكلل إليه سبيلًا. وتقلص حتى نومه في الليل، استجابة لأمر ربه تعالى الذي حمله المسؤولية الخطيرة الثقيلة وخاطبه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

وقد روي عن السيدة خديجة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي،

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٧ ربيع الأول ١٤٢٣هـ، ٢٩ مايو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٧٥.

ترك كل راحة، وكان يدأب ليل نهار في العبادة والعمل، فقلت له: يا رسول الله، ألا تستريح ألا تنام؟ فقال: «لقد مضى عهد النوم يا خديجة».

وكانت قضية الرسالة تأخذ من نفسه ﷺ مأخذًا كبيرًا، حتى دعاه الله تعالى الى الرأفة بنفسه، والشفقة عليها، وخاطبه تعالى بقوله: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى *إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

الراحة والرخاء قبل البعثة

كان ﷺ قبل البعثة يعيش حياة راحة ودعة، فهو ينتمي إلى أفضل أسرة في قريش، ويحظى بحب شيوخ أسرته واحترامهم، فهو قد ولد يتيمًا، حيث مات أبوه عبدالله في ريعان شبابه، وبعد ذلك فقد أمه آمنة بنت وهب، مما جعله محل عطف وشفقة زعيم الأسرة جدّه عبدالمطلب، ثم موضع تقدير خلفه في الزعامة أبي طالب، إضافة إلى حسن سلوكه ومكارم أخلاقه، فقد أكسبته الاحترام العام في المجتمع، حيث لم يلحظ عليه أحد أي ميل أو نزوع لنزق الشباب آنذاك وطيشهم، ولم تجتذبه أي ممارسة من العادات والتقاليد الوثنية الجاهلية، وما سجل عليه خلل في قول، ولا خطل في فعل، فأصبح يعرف وسط مجتمعه بالصادق الأمين.

وزواجه من خديجة بنت خويلد، أثرى وأعزّ امرأة في قريش، التي كان الرجال يتاجرون في أموالها، وكان الزعماء يطمحون للاقتران بها، هذا الزواج الذي جاء برغبة منها، وفّر للنبي أجواء هانئة، وعيشة مستقرة وادعة.

حيث أغدقت عليه خديجة حبها وحنانها، ووضعت تحت تصرفه كل ثروتها وإمكاناتها.

هكذا كانت حياته قبل البعثة، استقرارًا نفسيًا، وسعادة عائلية، ورخاء اقتصاديًا، واحترامًا وسمعة اجتماعية.

معاناة التبليغ

وما أن صدع محمد ﷺ برسالة ربه، وأعلن ثورته الإلهية على واقع الوثنية والشرك، حتى انقلبت أوضاع حياته رأسًا على عقب، حيث لم يكن من السهل على أولئك الناس الذين ألفوا عبادة الأصنام، ونشأوا على الوثنية والفساد، أن يتخلوا عن عاداتهم وممارساتهم المتجذرة في حياتهم، كما أن الزعامات ومراكز القوى كانت تريد الحفاظ على نفوذها ومكانتها، وترى في الرسالة الجديدة نسفًا لمواقعها، وتهديدًا لمصالحها.

من هنا فقد انتفض الجميع في مكة رفضًا لرسالة محمد، ومعارضة لدعوته، وعداء ومناوأة لشخصه ووجوده. وشنوا عليه حربًا ضارية شاملة، فقد اتهموه بالكذب والجنون والسحر، بعد أن كانوا يسمونه الصادق الأمين، وصاروا يواجهونه بالسخرية والإهانة والتحقير، بعد أن كان معززًا محترمًا في أوساطهم، وتجرأ عليه حتى جهالهم وسفهاؤهم يؤذونه حينما يمشي في الطريق. ثم تطور عدوانهم إلى حالة فرض الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الاجتماعية عليه وعلى أسرته بني هاشم، فاتفقت قبائل قريش وتعاهدت على ذلك، وكتبوا صحيفة علقوها في جوف الكعبة، بألا ينكحوا أحدًا من بني هاشم، ولا ينكحوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

ولجأ محمد ﷺ وأسرته الى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يعانون الحرمان والحصار الاقتصادي والاجتماعي، ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون بها جوعهم.

روى البلاذري عن ابن عباس قال: حصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة حتى أن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبايع حتى يرجع، حتى هلك من هلك.

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سرًا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش. حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرأوا به غوائل الجوع، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضاغون من الجوع.

صور من المعاناة

من أصعب ألوان المعاناة على الإنسان، إذا كان محترمًا عزيزًا وصاحب سمعة في مجتمعه، أن تتعرض صورته للتشويه، وأن تتحطم سمعته ومكانته عند من حوله، وهذا ما واجهه رسول الله ﷺ من المشركين، فقد صبّوا عليه صنوف الأذى والإهانة، فتحملها في سبيل الله صابرًا محتسبًا، حتى قال ﷺ ـ كما روى عنه أنس بن مالك ـ: «ما أوذي أحد مثل ما أوذيت في الله».

ولننقل بعض صور المعاناة التي تحملها رسول الله ﷺ:

كان رسول الله ﷺ غنيًا يتصرف في أموال زوجته خديجة كما يشاء، لكنه أنفقها في سبيل الله، كما عاش حالة الحصار والمقاطعة من قبل المشركين، لذلك كانت تمر عليه فترات من الزمن وهو يتضور من الجوع، ولم يكن يتوافر له في اليوم من الطعام إلا مقدار بسيط يمكن اخفاؤه تحت الإبط، كما روي عنه ﷺ أنه قال: «لقد أتت عليّ ثلاثون من يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال».

كم هو صعب على الانسان إيذاء الأقربين له؟ وكم هو مؤلم أن يشهر به ويعيبه أرحامه؟ هكذا كانت حال رسول الله ﷺ مع عمه أبي لهب.

عن طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فمرّ وعليه جبة له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت:من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبدالمطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبدالعزى وهو أبو لهب.

روى البخاري وابن المنذر وأبو يعلى والطبراني عن عروة قال: سألت عمرو بن العاص فقلت: أخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ. قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على

عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا.

روى البزار وأبو يعلى برجال الصحيح عن أنس ﷺ: لقد ضربوا رسول الله حتى غشي عليه. فقام أبو بكر ينادي: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر.

روى الشيخان والبزار والطبراني عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور (كرش ناقة مذبوحة) نحرت بالأمس قريبًا، فقالوا: من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط، فجاء به فقذفه على ظهره، فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض، والنبي ﷺ ما يرفع رأسه، وجاءت فاطمة ﷺ، فطرحته عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، رفع رأسه فحمد الله تعالي وأثنى عليه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، واذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «اللهم عليك بالملأ من قريش».

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أعطى كل وجوده وحياته، وتحمل ضروب الأذى والمشاق في سبيل الدعوة إلى الله، فهل نبخل نحن بأنفسنا وأموالنا وأوقاتنا وسمعتنا وجاهنا؟

إن البعض يتلكأ عن تحمل أبسط المسؤوليات، والقيام بأقل المهام، حفاظًا على راحته، وحرصًا على جاهه وسمعته، فكيف إذا ننال ثواب الله إذا لم نضحِّ ونتحمل الأذى في سبيله؟ ثم كيف ندّعي الإنتماء إلى رسول الله ولا نحاول التأسي به؟

حصانة المسلم وحقوق المواطنة(١)

من المبادئ الأساسية التي تؤكدها كثير من النصوص الدينية حصانة المسلم في المجتمع الإسلامي، بمعنى حرمة حقوقه المادية والمعنوية. وهذا ما ركز عليه رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع، كأهمّ قضية، حيث قال فيها: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا.... أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلّمُن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

ومن خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام في أول خلافته قال: «إن الله حرّم حرامًا غير مجهول، وأحلَّ حلالًا غير مدخول، وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها».

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٩ شعبان ١٤٢٤هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٧٩.

نهج الرسالة

وتبييناً لهذه النصوص الإسلامية، وتطبيقًا لها على صعيد الواقع، كانت سيرة الرسول ﷺ في التعامل مع المنافقين، الذين تتحدث آيات القرآن الكريم عن كذب ادعائهم للإسلام، وأن ما يظهرونه لا يعبر عن حقيقة ما في نفوسهم، من التكذيب بالنبوة، يقول تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

كما تتحدث الآيات القرآنية عن سعيهم لعرقلة مسار الدعوة، ومحاولاتهم للتخريب والإفساد داخل المجتمع الإسلامي، ومع أن الله يتوعدهم بالعذاب والخزي، إلا أن الرسول ﷺ كان يتعامل معهم كسائر المسلمين من حيث الحقوق والواجبات. وقد بحث هذه الظاهرة، (حال المنافقين في المجتمع المدني، على عهد رسول الله ﷺ العلامة محمد عزة دروزة في كتابه القيّم (سيرة الرسول) وانتهى إلى النتيجة التالية:

هي عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي ﷺ قد اعتبر المنافقين أعداءً محاربين، أو عاملهم كذلك، أو قتل بارزيهم بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه، من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة، التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم، والتي احتوت صورًا كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودسّ الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الفاحشة، والإرجاف بين المسلمين...

وفي حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين، والإغلاظ لهم، واعتبارهم أعداء، وأمر بقتل من لم ينتهِ منهم عن مواقف الأذى والإرجاف، وبنفيه، وبتقتيله أينما ثقف، فضلًا عما أنذروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين، وفي حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقريرات الحاسمة..

فإزاء هذا لا نعدو الصواب إذا قلنا: إن النبي ﷺ لم يعتبر المنافقين أعداءً محاربين،

فلم يقاتلهم فعلًا، وقد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية كتوجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها، والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين....

وفي روايات السيرة أن عبدالله بن أُبي هو الذي قال: «لئن رجعنا على المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ» و«لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا» وأن عمر بن الخطاب ﵁ استأذن النبي ﷺ بقتله فأبى ﷺ قائلًا ما مفاده: لا أريد أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه. وأن كعب بن عبدالله ﵁، وكان مخلصًا، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، إن كنت قاتل أبي فأمرني أنا أقتله ولا تأمر غيري لأني لا أطيق أن أرى قاتلًا لأبي، فأقتله فأكفر! فأجابه النبي ﷺ قائلًا: بل نعفو ونصبر عنه، وفي هذا مصداق ما قررناه آنفًا.

هذه هي سعة الإسلام وسماحته، لكن الغلاة والمتطرفين، ابتدعوا حالة من التشدد والتصنيف، وصاروا يصنفون أبناء الأمة، فيعتبرون من خالف رأيهم في بعض التفاصيل العقدية والفقهية مشركًا أو كافرًا أو مبتدعًا، أو فاسقًا، ويسلبونه صفة الإسلام والإيمان، وينتهكون حقوقه وحرماته، ويحرّضون على كراهيته وإيذائه.

في مقابل هذه التعبئة التجزيئية للمجتمع، تجب العودة إلى هدي الإسلام، ونشر مفاهيمه الوحدوية الجامعة، التي تركز على أصول الإيمان وأركان الإسلام، تاركة الفروع والتفاصيل لميدان البحث والاجتهاد، فمن اجتهد في أي مسألة دينية عقدية أو فقهية، حسب ضوابط الاجتهاد العلمية، فإن له أجرين إن أصاب، وأجرًا واحدًا إن أخطأ، كما هو مفاد حديث نبوي اتفق على صحته المسلمون.

ورد في الحديث عن ابن عباس عن رسول الله ﷺأنه قال: «بحسب امرئ من الإيمان أن يقول رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا».

وعن ابن عمر عنه ﷺ: «حقيقة الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا».

حقوق المواطنة

حينما تنتمي أمة من الناس لوطن واحد، بما يعنيه الوطن من حدود جغرافية، وكيان سياسي، فإن هذا الانتماء يخلق بينهم عيشًا مشتركًا، ومصلحة متداخلة، مما يوجب وجود صيغة عادلة للتعايش والتعاون، تتحقق بها المشاركة في المكاسب، والوحدة أمام الأخطار والتحديات.

وقد تختلف الانتماءات الدينية والعرقية والسياسية للمواطنين، لكن الوطن يجب أن يبقى إطارًا جامعًا لكل أبنائه، بمختلف انتماءاتهم. وذلك يستدعي الاعتراف المتبادل بين الجميع، بالشراكة والتساوي في حقوق المواطنة وواجباتها.

أما إذا اختلت هذه الشراكة، وحدث شيء من الاستئثار أو التمييز بين أبناء الوطن، بسبب تنوع التوجهات، فإن ذلك يهدد وحدة الوطن، وأمن المجتمع واستقراره. كما تدلّ على ذلك حوادث التاريخ في الماضي والحاضر. إن أخطر شيء على وحدة الأوطان ومصالحها، أن تتضخم الانتماءات على حساب الانتماء للوطن، فتنظر كل جهة للجهات الأخرى عبر دائرة انتمائها الخاص، وهنا تضيع المصلحة العامة، وتضعف وحدة المجتمع. ولمواجهة هذا الخطر لا بدّ من وجود وعي وطني، ومساواة حقيقية بين جميع المواطنين. لقد وضع رسول الله ﷺ صحيفة المدينة، في بداية هجرته إليها، لإقرار صيغة تعايش مشترك بين مواطني المدينة آنذاك من المسلمين واليهود، على أساس العدل والإنصاف.

وتعاليم الإسلام في حسن الجوار وحقوق الجار، وفي حقوق الصحبة، حتى مع اختلاف الدين، توجيه إلى أن اشتراك المصلحة يوجب حقوقًا متبادلة بين المشتركين.

التغيير الثقافي أولا

من أجل تعزيز الوحدة الإسلامية والوطنية، ولتكريس منهج الحوار على مستوى الأمة، لا بدّ أن ننفض عن نفوس المواطنين وعقولهم غبار ثقافة التطرف والتشدد،

ببعث حركة ثقافية وحدوية، تنطلق من محورية حقوق الإنسان، وتركز على حرمة المسلم، وتؤكد على الوحدة الوطنية، وتساوي المواطنين في الحقوق والواجبات.

فالوحدة والحوار لا يتحققان عبر طرحهما كعنوان وشعار، ولا بالحديث حولهما في قاعات المؤتمرات بين العلماء والمفكرين، وإنما حين يصبحان قناعة في نفوس أبناء المجتمع، ومنهجًا في تفكيرهم، وسلوكًا في حياتهم اليومية.

يجب أن نبدأ التغيير الثقافي من مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وخطب الجمعة، واستخدام كل قنوات التوجيه والتأثير، ليتربى الجيل الجديد على المحبة والتسامح، ولينظر كل مواطن إلى إخوانه المواطنين، بمختلف انتماءاتهم من منظار الإنسانية، فيحترم حقوقهم كبشر، وبرؤية الإسلام، فيراعي حرماتهم كمسلمين، وضمن إطار المواطنة، فيعترف بهم ويتعاون معهم كشركاء مساوين له في الحقوق والواجبات.

القدوة الصالحة[1]

الحياة بالنسبة لكل إنسان تعتبر تجربة جديدة، فهو يأتي إليها لسفرة واحدة فقط، غير قابلة للتكرار، ويواجهها دون سابق خبرة أو معرفة، لذا فإن الفشل في تجربة الحياة لا يمكن تداركه أو تعويضه، وكما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

ولكن كيف يُنجح الإنسان تجربته الواحدة والوحيدة في هذه الحياة، وهو يواجهها كمتاهة واسعة، مزروعة بالألغام، مليئة بالشهوات والمغريات، تتشعب فيها الطرق، وتتعدد الخيارات؟

إنه بأمسّ الحاجة إلى خريطة واضحة، تدله على طرق النجاة، وتنبهه على مناطق الخطر.. وذلك هو الدور الذي تؤديه الرسالات السماوية، التي تفضّل الله بها على الإنسان لهدايته، وإنجاح تجربته.

لكن وجود الخريطة والبرنامج قد لا يكون كافيًا وحده، بل هو بحاجة إلى تعزيز وتفعيل، يجعل الإنسان أكثر ثقة وأقوى إرادة، على انتهاج طريق الهدى والصواب.

وذلك عبر وجود القدوات، التي تجسّد أمام الإنسان برنامج الهداية والصلاح،

(١) جريدةاليوم، الأربعاء ٢٦ شعبان ١٤٢٤هـ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٨٦.

وتقدم له تجربة حيّة ميدانية، في الالتزام بالقيم، وتحقيق الاستقامة.

إن وجود قدوات صالحة ناجحة، أمام الإنسان، يحقق العديد من النتائج والأغراض، من أهمها مايلي:

التبشير بالقيم

إن القيم الفاضلة، والمبادئ الحقة، تحتاج إلى من يتبنى نشرها في المجتمع الإنساني، ويبشّر بها ويدعو الناس إليها، ولا يقوم بهذه المهمة على أفضل وجه، إلا من كان عارفًا بتلك القيم، مستوعبًا لها، ملتزمًا بها، ليكون صادقًا فيما يطرح، مخلصًا للوظيفة التي يؤديها.

التجسيد الحي

تطبيق القيم والتزام المبادئ يستلزم حالة من الصراع والصدام مع الأهواء والشهوات في نفس الإنسان، وهي متجذرة راسخة قوية، إلى حدٍّ يتصور فيه الإنسان نفسه عاجزًا عن مواجهتها، فيبرر ضعف إرادته، واستجابته لضغوط الهوى، بمختلف التبريرات، ومن أقواها تضليلًا وإغراءً لنفس الإنسان: القول بمثالية القيم والمبادئ، وأن الالتزام بها برنامج نظري خيالي، وأن تجسيدها وتطبيقها شيء غير ممكن ما دام الإنسان هو الإنسان بشهواته وأهوائه ورغباته.

ومثل هذا التصور (مثالية القيم) يرتاح له الإنسان؛ لأنه يشكل تبريرًا لاعتدائه على هذه القيم، وخروجه عن حدودها، فهو لا يرى نفسه حينئذٍ مسؤولًا عن الالتزام بها، ولا يحاسب نفسه على احترامها، مادام يعتقد أنها مجرد نظريات مثالية غير قابلة للتطبيق والالتزام.

وواضح كم هو خطير هذا التصور على سعادة المجتمع الإنساني، ولكن كيف ندرأ عنه هذا الخطر؟ لا يمكننا ذلك إلا إذا أثبتنا للإنسان خطأ هذا التصور، وأقنعناه

بواقعية تلك القيم، وإمكانية تجسيدها، وهذا لا يتم إلا بوجود مجموعة من الناس، يتحملون مسؤولية التزام هذه القيم، وتجسيدها في الواقع الحياتي، في الوقت الذي يكونون فيه كسائر أفراد البشر من حيث امتلاك الغرائز والرغبات، والعيش في نفس الظروف والأجواء.

ووجود هذه الفئة التي تطبق القيم حرفيًا، وتتحمل كل الصعوبات في سبيل ذلك، يشكل دافعًا قويًا لسائر الأفراد للالتزام بالقيم، والاقتداء بتلك الفئة، وتقمص أدوارها ومواقفها.

لله الحجة البالغة

ومن ناحية أخرى، فإن الله تعالى سيطالب الإنسان ويحاسبه يوم القيامة، على مدى تمسكه والتزامه بتلك القيم، فإذا كان الإنسان يعتقد مثالية تلك القيم، واستحالة تطبيقها، فستكون له الحجة على الله، وسوف لا يكون من حق الله تعالى، أن يحاسبه على التزام شيء لا يرى نفسه قادرًا على الالتزام به.

إذًا فلا بدّ وأن يقيّض الله تعالى أفرادًا من البشر، يقومون بدور التطبيق والتجسيد لهذه القيم.

ولهذا أوجد الله تعالى الأنبياء وأتباعهم، وهذا دورهم الرئيس في الحياة، يقول تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ﴾.

وورد أنه يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي قد افتتنت في حسنها فتقول: يا ربّ، حسنت خلقي حتى لقيت ما لقيت. (لاحظ كيف تعتبر الانحراف شيئًا طبيعيًا لأنه لا يمكنها الالتزام مع وجود دواعي الإغراء)، فيجاء بمريم عليها السلام فيقال: أنت أحسن أو هذه؟ قد حسنّاها فلم تفتتن.

ويجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه فيقول: يا ربّ، حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت.

فيجاء بيوسف عليه السلام ويقال: أنت أحسن أو هذا؟ قد حسنّاه فلم يفتتن.

ويجاء بصاحب البلاء الذي قد أصابته الفتنة في بلائه. فيقول: يا ربّ، شددت عليّ البلاء حتى افتتنت. فيؤتى بأيوب فيقال: أبليتك أشدّ أو بلية هذا؟ فقد ابتلي فلم يفتتن.

التفاصيل والمنعطفات

وقد تكون العناوين العامة للقيم واضحة في أذهان بعض الناس، ويلتزمون مراعاتها حينما يتوفر لهم الوضوح في المواقف والموارد، لكن هناك بعض الجوانب التفصيلية، وبعض الحالات الدقيقة، والمنعطفات الحساسة، تحتاج من الإنسان إلى شفافية كبيرة، وإرادة قوية، ونظر ثاقب، حتى لا تلتبس عليه الأمور، وتختلط الأوراق، ثم قد تتزاحم القيم والمبادئ في موقف من المواقف، فيرتبك الإنسان في التزام ايٍّ منها.

وهنا يأتي دور القدوات الصالحة الناجحة القادرة على تشخيص المواقف، ومعرفة تفاصيل القضايا وتطبيقاتها، وتحديد الأولويات ومعالجة الحالات الحسّاسة الخطيرة.

الأنبياء والصالحون

لكل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى نصب الأنبياء، إلى جانب إنزال الشرائع والكتب السماوية، ليكونوا قدوات للناس، على طريق الخير والهدى.

إنهم قدوات للبشر على امتداد التاريخ، لذلك خلّد الله تعالى ذكرهم وسيرهم، عبر وحيه وقرآنه، ففي القرآن الكريم سور باسم الأنبياء والأولياء، كسورة آل عمران، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وسورة مريم، وسورة لقمان، وسورة محمد، وسورة نوح.. كما أن الحديث عن قصص الأنبياء ومواقف الأولياء، مبثوث في مختلف سور القرآن، وفي العديد من آياته.

إنه تعالى يأمر نبيه محمدًا ﷺ بأن يتحدث للناس عن حياة هؤلاء القدوات العظام كقوله تعالى: ﴿وَاذكُر فِي الكِتَابِ مَريَمَ إِذ انتبَذَت مِن أَهلِهَا مَكَانًا شَرقِيًّا﴾. ﴿وَاذكُر فِي الكِتَابِ إِبرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿وَاذكُر فِي الكِتَابِ إِسمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾. ﴿وَاذكُر عِبَادَنَا إبرَاهِيمَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ أُولِي الأَيدِي وَالأَبصَارِ﴾.

وذكر سيرهم وقصصهم إنما هو لتقديمهم كنماذج وقدوات للبشر، كما يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُم اقتَدِه﴾. ويقول تعالى: ﴿قَد كَانَت لَكُم أُسوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾. ﴿قَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

القدوات الزائفة

وفي هذا العصر بالذات ما أحوج المجتمعات البشرية إلى إبراز القدوات الصالحة، حيث إن إعلام الحضارة المادية، يصنع ويقدم للناس قدوات زائفة فاسدة، تتمثل في العناصر المتاجرة بجمالها ومفاتنها، والمجاهرة بالانحراف والفساد الأخلاقي، فالمجلات والصحف تتسابق على نشر صور المغنين والمغنيات، والممثلين وعارضات الأزياء، وعلى متابعة أخبار هذه الطبقة بما فيها من مجون وخلاعة وفساد، وفي عصر العولمة، أصبحت هذه العناصر بترويج الإعلام لها شخصيات عالمية، تنشر صورها وأخبارها في كل مكان. وما زال العالم يتذكر كيف شغلت (ديانا) في حياتها، مساحة واسعة من اهتمام الناس، في شتى بقاع الدنيا، وكيف كانت أخبارها تغطى بدقة ومتابعة، وكيف أصبحت وفاتها الحدث الأمثل والأهم لفترة من الزمن، فبكاها الكثيرون، ورثاها الشعراء والأدباء، وتابع مراسيم تشييعها مئات الملايين، ومعروف أنها كانت ذات مغامرات عاطفية لا شرعية حتى لحظة مقتلها بصحبة عشيق، وقد اعترفت بخيانتها لزوجها ولي عهد بريطانيا على مرأى ومسمع من العالم كله.. وهي بهذه السيرة تقدم كنموذج وشخصية رائدة!!..

شهر رمضان ومكاشفة الذات[1]

لو تأمل كلّ إنسان في ذاته، واستقرأ حياته وأوضاعه، لوجد أن له أفكارًا يتبناها، وصفات نفسية وشخصية يحملها، وسلوكًا معينًا يمارسه، وأنه يعيش ضمن وضع وقالب يؤطر حياته الشخصية والاجتماعية.

والسؤال الذي يجب أن يطرحه الإنسان على نفسه، هو: هل هو راضٍ عن الحالة التي يعيشها؟ وهل يعتبر نفسه ضمن الوضع الأفضل والأحسن؟ أم أنه يعاني نقاط ضعف وثغرات؟ وهل أن ما يحمله من أفكار وصفات، وما يمارسه من سلوك، شيء مفروض عليه لا يمكن تغييره أو تجاوزه؟ أم أنه إنسان خلقه اللّٰه حرًا ذا إرادة واختيار؟

إن هذه التساؤلات كامنة في نفس الإنسان، وتبحث عن فرصة للمكاشفة والتأمل، يتيحها الإنسان لنفسه، لينفتح على ذاته، وليسبر غورها، ويلامس خباياها و أعماقها.

ورغم حاجة الإنسان إلى هذه المكاشفة والمراجعة، إلاّ أن أكثر الناس لا يقفون مع ذاتهم وقفة تأمل وانفتاح: لأسباب أهمها ما يلي:

أولًا: الغرق في المواقف الحياتية العملية، وهي كثيرة، ما بين ما له قيمة وأهمية، وما بين ما هو تافه وثانوي.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٤ رمضان ١٤٢٤هـ، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٩٣.

ثانيًا: وهو الأهم، أن وقفة الإنسان مع ذاته، تتطلب منه اتخاذ قرارات تغييرية بشأن نفسه، وهذا ما يتهرب منه الكثيرون، كما يتهرب البعض من إجراء فحوصات طبية لجسده، خوفًا من اكتشاف أمراض تلزمه الامتناع عن بعض الأكلات، أو أخذ علاج معين.

دعوة إلى مكاشفة الذات

في تعاليم الإسلام دعوة مكثفة للانفتاح على الذات ومحاسبتها، بعيدًا عن الاستغراق في الاهتمامات المادية، والانشغالات الحياتية، التي لا تنتهي. ورد في الحديث عن رسول اللَّه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا».

وعن الإمام علي: «ما أحق الإنسان أن تكون له ساعة لا يشغله عنها شاغل، يحاسب فيها نفسه، فينظر فيما اكتسب لها وعليها في ليلها ونهارها».

إن لحظات التأمل ومكاشفة الذات، تتيح للإنسان فرصة التعرف على أخطائه ونقاط ضعفه، وتدفعه لتطوير ذاته نحو الأفضل. يقول الإمام علي: «ثمرة المحاسبة إصلاح النفس».

ولعل من أهداف قيام الليل، أن يقف الإنسان خاشعًا أمام خالقه، وسط الظلام والسكون، وهذا يتيح الفرصة للإنسان.

كذلك، فإن عبادة الاعتكاف قد يكون من حكمتها هذا الغرض، والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد العبادة، لثلاثة أيام أو أكثر مع الصوم، بحيث لا يخرج من المسجد إلا لحاجة مشروعة.

شهر التأمل

لا يوجد شهر آخر يماثل شهر رمضان، فهو خير شهر يقف فيه الإنسان مع نفسه متدبرًا متأملًا، ففيه «تتضاعف الحسنات، وتمحى السيئات» كما روي عن رسول اللَّه،

وفي هذا الشهر فرصة عمر كبرى للحصول على مغفرة اللّه «إن الشقي من حرم غفران اللّه في هذا الشهر العظيم» كما في الحديث النبوي، وفي رواية أخرى: «من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فأبعده اللّه»، وورد أيضًا عنه: «فمن لم يغفر له في رمضان ففي أي شهر يغفر له».

وقد يغفل البعض عن أن حصول تلك النتائج هو بحاجة إلى توجّه وسعي، فهذا الشهر ينبغي أن يشكل شهر مراجعة وتفكير وتأمل ومحاسبة للذات، إذ حينما يمتنع الإنسان في هذا الشهر الكريم عن الطعام والشراب، وبقية الشهوات التي يقوم بها يوميًا، فإنه يكون قد تخلص من تلك المواقف، مما يعطيه فرصة للانتباه نحو ذاته ونفسه، وتأتي تلك الأجواء الروحية التي تحث عليها التعاليم الإسلامية، لتحسّن من فرص الاستفادة من هذا الشهر الكريم، فصلاة الليل مثلًا فرصة حقيقية للخلوة مع اللّه.

وقراءة القرآن الكريم التي ورد الحث عليها في هذا الشهر المبارك، فهو شهر القرآن يقول تعالى: ﴿شَهرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ﴾، وفي الحديث الشريف: «لكل شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان»، كما ورد أن «من تلا فيه آية كان له مثل من ختم القرآن في غيره من الشهور». هذه القراءة إنما تخدم توجه الإنسان للانفتاح على ذاته، ومكاشفتها وتلمس ثغراتها وأخطائها، لكن ذلك مشروط بالتدبر في تلاوة القرآن، والاهتمام بفهم معانيه، والنظر في مدى التزام أوامر القرآن ونواهيه.

روي عن الإمام علي: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر». «تدبروا آيات القرآن واعتبروا به فإنه أبلغ العبر».

إن البعض من الناس تعودوا قراءة القرآن في شهر رمضان، وهي عادة جيدة، لكن ينبغي ألّا يكون الهدف طي الصفحات دون استفادة أو تمعّن.

وإذا قرأ الإنسان آية من الذكر الحكيم، فينبغي أن يقف متسائلًا عن موقعه مما تقوله تلك الآية، ليفسح لها المجال للتأثير في قلبه، وللتغيير في سلوكه، ورد عنه ﷺ

أنه قال: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: يا رسول اللَّه، فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن».

وبذلك يعالج الإنسان أمراض نفسه وثغرات شخصيته، فالقرآن ﴿شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

والأدعية المأثورة في شهر رمضان، وأدعية الأيام والليالي، كلها كنوز تربوية روحية، تبعث في الإنسان روح الجرأة على مصارحة ذاته، ومكاشفة نفسه، وتشحذ همته وإرادته، للتغيير والتطوير والتوبة عن الذنوب والأخطاء. كما تؤكد في نفسه عظمة الخالق وخطورة المصير، وتجعله أمام حقائق وجوده وواقعه دون حجاب.

مجالات التأمل الذاتي

إن حاجة الإنسان إلى التأمل والمراجعة لها أهمية قصوى في أبعادٍ ثلاثة:

البعد الأول: المراجعة الفكرية

أن يراجع الإنسان أفكاره وقناعاته، ويتساءل عن مقدار الحق والصواب فيها، ولو أن الناس جميعًا راجعوا أفكارهم وانتماءاتهم، لربما استطاعوا أن يغيروا الأخطاء والانحرافات فيها، غير أن لسان حال الكثير من الناس ﴿إِنَّا وَجَدنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقتَدُونَ﴾ وليكن الإنسان حرًا مع نفسه، قويًا في ذاته. إذا اكتشف أنه على خطأ ما، فلا يتهيب أو يتردد من التغيير والتصحيح.

البعد الثاني: المراجعة النفسية

أن يراجع الإنسان الصفات النفسية التي تنطوي عليها شخصيته، فهل هو جبان أم شجاع؟ جريء أم متردد؟ حازم أم لين؟ صادق أم كاذب؟ صريح أم ملتوٍّ؟ كسول أم نشيط؟.. إلخ. وليطرح الإنسان على نفسه عددًا من الأسئلة التي تكشف عن هذا البعد، مثل: ماذا سأفعل لو قصدني فقير في بيتي؟ ماذا سأفعل لو عبث الأطفال بأثاث المنزل؟ ماذا سأفعل لو حدث أمامي حادث سير؟ وكيف سيكون رد فعلي لو أسيء إليّ

في مكان عام؟ وكيف أقرر لو تعارضت مصلحتي الشخصية مع المبدأ أو المصلحة العامة؟

وتأتي أهمية هذه المراجعة في أن الإنسان ينبغي أن يقرر بعدها أن يصلح كل خلل نفسي عنده، وأن يعمل على تطوير نفسه، وتقديمها خطوات إلى الأمام.

البعد الثالث: المراجعة الاجتماعية والسلوكية

أن يراجع الإنسان سلوكه وتصرفاته مع الآخرين، بدءًا من زوجته وأطفاله، وانتهاء بخدمه وعماله، مرورًا بأرحامه وأصدقائه، وسائر الناس، ممن يتعامل معهم أو يرتبط بهم.

وهذا الشهر الكريم هو خير مناسبة للارتقاء بالأداء الاجتماعي للمؤمن، ولتصفية كل الخلافات الاجتماعية، والعقد الشخصية، بين الإنسان والآخرين، وقد حثت الروايات الكثيرة على ذلك.

من جانب آخر، فقد يسيطر على الإنسان بعض العادات والسلوكيات الخاطئة، ومهما كان عمقها في نفس الإنسان، والتصاقه بها، فإن الإرادة أقوى من العادة، وشهر رمضان أفضل فرصة لنفض وترك العادات السيئة الخاطئة.

فهنيئًا لمن يستفيد من أجواء هذا الشهر المبارك في الانفتاح على ذاته، وإصلاح أخطائه وعيوبه، وسدّ النواقص والثغرات في شخصيته، فيراجع أفكاره وأراءه، ويدرسها بموضوعية، ويتأمل صفاته النفسية ليرى نقاط القوة والضعف فيها، ويتفحص سلوكه الاجتماعي، من أجل بناء علاقات أفضل مع المحيطين به.

شهر رمضان وعادات خاطئة[1]

شهر رمضان المبارك أفضل منطقة زمنية يمر بها الإنسان خلال العام، حيث اختصه اللَّه تعالى بالخير والفضل، من بين سائر الأزمنة والأوقات، وجعل فيه ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، واختاره ليكون مهبطًا لوحيه ورسالاته، حيث أنزل فيه القرآن الكريم، وقبل ذلك كان فيه نزول التوراة والإنجيل والزبور.

ويكفي في فضل هذا الشهر ما ورد عن رسول اللَّه ﷺ: «سيد الشهور شهر رمضان».

ولتأكيد الخاصية والتميزّ لهذا الشهر الكريم، فرض اللَّه صيامه على الناس، ليعيشوا فيه جوًا وبرنامجًا فريدًا، يساعدهم على الارتقاء لمكانة هذا الشهر، ومقامه العظيم.

فعلى الصعيد النفسي فإنه دورة تدريبية، لتربية الإنسان على التحكم في رغباته وشهواته، حيث يمتنع بقرار ذاتي عن الطعام والشراب، وسائر المفطرات، مع ميله إليها، أو حاجته لها، في بعض الأحيان.

واجتماعيًا: يتحسس الإنسان من خلال الصوم جوع الفقراء والمعدمين، ويشعر بمعاناتهم وحاجتهم.

وروحيًا: فإن التسامي على الرغبات، والتفاعل مع الأجواء المباركة للشهر الكريم،

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١١ رمضان ١٤٢٤هـ، ٥ نوفمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٠٠.

ينتج صفاءً روحيًا، وحيوية معنوية عالية.

لكن هذه الفوائد والمنافع وأمثالها، إنما تتحقق مع الوعي بها والتوجه إليها، وإتاحة الفرصة لفريضة الصوم المباركة، ولأجواء رمضان الكريمة، أن تؤدي مفعولها، وتعطي آثارها، دون معوقات أو حالات مضادة مناوئة.

ومما يؤسف عليه نمو بعض العادات الخاطئة، والحالات السلبية، التي تجهض آثار الصوم، وتقلل الاستفادة من بركات الشهر الكريم.

لا للكسل والخمول

حينما يمتلك الإنسان وقتًا غاليًا مهمًا، فإن عليه أن يقضيه في أفضل الأعمال والبرامج، لا أن يضيعه في التوافه والأمور البسيطة.

وشهر رمضان كأفضل وأغلى فترة زمنية تمرّ على الإنسان في العام، ينبغي له أن يحرص على كل ساعة من ساعاته، ولحظة من لحظاته.

ومعنى ذلك أن يحفل شهر رمضان بأفضل البرامج، وأحسن الأعمال، وأن يكون إنتاج الإنسان فيه أكثر، وفاعليته أكبر.

لذا نرى التعاليم الإسلامية تقدم برامج مكثفة من الأعمال العبادية في شهر رمضان:

- فهناك أوراد وصلوات مستحبة كثيرة.
- وأدعية متنوعة لأيام وليالي هذا الشهر.
- وقراءة القرآن الكريم يستحب زيادتها ومضاعفتها.

وفي المجال الاجتماعي: هناك توجيه ديني لتكثيف النشاط الاجتماعي في شهر رمضان، فهو شهر النشاط والحركة والعمل.

لكن ما تعوده الكثيرون في مجتمعاتنا، هو اتخاذ هذا الشهر الكريم موسمًا

للخمول والكسل، حيث يتدنى فيه الأداء التعليمي في المدارس، والوظيفي في الدوائر والمؤسسات، ويقضي قسم كبير من الناس فيه النهار نومًا واسترخاءً، بحجة الصيام، وكأن الصوم داعٍ للكسل، أو بديل عن العمل، فيوقف الإنسان حركته لكي يصوم، ويلحظ بعض التقارير انخفاض مستوى الإنتاجية العملية لدى قسم من المجتمعات الإسلامية في شهر رمضان..

بينما نجد في تاريخنا الإسلامي أن شهر رمضان المبارك قد احتضن الكثير من المعارك الفاصلة بين المسلمين والكفار، وسجّل المسلمون فيه أروع البطولات والانتصارات، فغزوة بدر الكبرى وقعت في أول شهر رمضان يفرض اللّٰه صومه، في السنة الثانية للهجرة، وفتح مكة المكرمة حصل في السنة الثامنة للهجرة، و فتح المسلمون جزيرة (رودس) سنة ٥٣هـ كما فتحوا ثغور الأندلس عام ٩١هـ.

وفيه انهزام الإفرنج المسيحيين الذين استولوا على سوريا وضواحيها، على أيدي جيوش المسلمين عام ٥٨٤هـ.

وآباؤنا وأجدادنا كانوا يصومون شهر رمضان، مع قيامهم بكل وظائفهم الحياتية، فما كانت الأعمال تتوقف في بلادنا فترة الصيام.

فكيف حدثت هذه الظاهرة السلبية باستيلاء الخمول والكسل على الكثيرين في نهار شهر رمضان؟

ومن الناحية الصحية: فإن النوم فترة الصيام، يضعف استفادة الجسم من الصوم، فقد ذكرت المراجع الطبية: إن الحركة العضلية في فترة ما بعد امتصاص الغذاء ـ أثناء الصوم ـ تنشط جميع عمليات الأكسدة لكل المركبات التي تمد الجسم بالطاقة، وتنشط عملية تحلل الدهون، كما تنشط أيضًا عملية تصنيع الجلوكوز بالكبد، من الجليسرول الناتج من تحلل الدهون في النسيج الشحمي، ومن اللاكتيت الناتج من أكسدة الجولكوز في العضلات.

ويحتوي كتاب (الصيام معجزة علمية) للدكتور عبد الجواد الصاوي، على بحثًا علميًا جميلًا حول هذا الموضوع تحت عنوان: (هل الأفضل في الصيام الحركة أم السكون)؟.

يضاف إلى ذلك أن نوم النهار للصائم يشكل مصادرة لأغلب استهدافات الصوم.

فهو لا يتحسس الجوع، ولا تستثيره الرغبة أو الشهوة، فكيف يصدق على الصائم النائم أنه يذوق مسّ الجوع فيشعر بمعاناة المعدمين؟ أو أنه يتعالى على شهواته ورغباته فتنمو عنده ملكة التقوى؟

وإذا كان الإنسان طوال السنة، يأكل ويشرب أثناء النهار، ويمتنع عن الأكل والشرب عند نومه في الليل، فإنه في هذه الحالة يعكس برنامجه، فيأكل ويشرب أثناء الليل، ويمتنع عن الأكل وهو نائم في النهار فما الفرق إذًا؟

انطلاق شهوة الطعام

من أجلى فوائد الصوم الظاهرة تربية الإنسان على التحكم في شهوة الطعام.

وأغلب مشاكل الإنسان الصحية تأتيه من الاسترسال مع شهوة الطعام والشراب، خاصة في هذا العصر الذي تتفنن فيه وسائل الدعاية والإعـلام، لتشجيع حالة الاستهلاك، وتسعى مصانع ومتاجر الأغذية، لإثارة رغبات الناس أكثر في ألوان المنتجات الغذائية، كما أن طبيعة الحياة عند الكثيرين لا تستلزم بذل جهد وحركة، لتصريف الطاقة التي يوفرها الطعام للجسم.

وتأتي فريضة الصوم لتلفت نظر الإنسان إلى ضرورة التحكم في طعامه وشرابه، وضبط رغبته وشهيته، لكن المؤسف جدًا هو ما يسود حياة أغلب مجتمعاتنا، حيث ترتفع وتيرة الاستهلاك الغذائي في شهر رمضان، وحسب بعض التقارير الاقتصادية، فإن استهلاك الدول الإسلامية من المواد الغذائية يزداد في شهر رمضان.

فقد أصبح الشهر الكريم موسمًا للأكل، وانطلاق شهوة الطعام!

وفي مجتمعاتنا وحيث الوفرة الاقتصادية، والاسترسال مع الشهيّة والرغبة، أصبحنا نعاني انتشار بعض الأمراض الخطيرة، التي تنتج غالبًا من عدم التحكم في البرنامج الغذائي.

فقد أعلن في مؤتمر السكر العالمي الذي انعقد بالقاهرة، عن تصدر السعودية قائمة الدول التي ينتشر بها مرض السكري، بعد أن تم تشخيص ٩٠٠ ألف حالة سكري بالمملكة أي ما يعادل ١٧٪ من جملة السكان.

ففي عام واحد حصلت ١٣ ألف عملية بتر أعضاء في المملكة بسبب السكري، وفي الرياض وحدها تجري ٣٦ عملية بتر أعضاء يوميًا!! وهي نسب أعلى من المعدلات العالمية.

ويشير التقرير السنوي الذي تصدره منظمة الصحة العالمية إلى أن معدل الزيادة السنوية لمرض السكر في المملكة نسبتها ٤٪ أي أن ٣٦ ألف شخص جديد كل عام يصابون بالسكري في المملكة!! والمنطقة الشرقية قد تكون هي الأولى في زيادة الإصابة بهذا المرض.

وإلى جانب مرض السكري يزداد انتشار أمراض القلب التي تنشأ غالبًا من زيادة نسبة الكلوسترول والدهون في جسم الإنسان.

إن علينا أن نعيد النظر في برامجنا وعاداتنا الغذائية مع تغيّر نمط حياتنا ومعيشتنا، ولا يصح أبدًا الاستجابة للرغبات والشهوات على حساب صحتنا ومستقبل حياتنا.

وعلينا أن نسأل أنفسنا: هل نحن نعيش لنأكل أم نأكل لنعيش، إذا كان الأكل من أجل الحياة فلنضبطه حسب مصلحة الحياة.

وشهر رمضان ينبغي أن نتدرب فيه على الانضباط الغذائي، لنستفيد من فريضة الصوم العظيمة.

ليلة القدر: قرارات التحول والتغيير(١)

يصف اللّٰه تعالى ليلة القدر بأنها ﴿خَيرٌ مِن أَلفِ شَهرٍ﴾ وأنها ليلة التقدير ﴿فِيهَا يُفرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكِيمٍ﴾ حيث تتقرر الأحداث والأقدار والقضايا المصيرية، التي ترتبط بالإنسان والحياة، في هذه الليلة، من قبل اللّٰه تعالى.

فليلة القدر إذًا ليلة التقدير الإلهي، لما يجري على الناس في سنتهم القادمة، وليلة القرارات الإلهية الكبيرة، فلتكن إذًا هذه الليلة ليلة القرارات الحاسمة عند الإنسان.

فكم يكون التوافق مباركًا، وذا قيمة عظيمة، أن يوقت الإنسان لنفسه، اتخاذ قراراته المصيرية والرئيسة، في تلك الليلة المباركة، التي جعلها اللّٰه سبحانه وتعالى موعدًا وميقاتًا لقدره الذي يقدره على الناس.

ثم تأتي الأجواء الروحية العظيمة التي تكتنف هذه الليلة، لتزيد من حظوظ الإنسان في اتخاذ قرارات مصيرية صائبة موفقة.

وليس من شك أن دائرة قرارات الإنسان في هذه الليلة المباركة، ينبغي أن تتسع بحيث تشمل كل ما له دور وتأثير في استقامته وصلاحه، وأن تشمل طموحات الإنسان الدنيوية والأخروية، فيضع لنفسه مخططًا وبرنامجًا عمليًا وسلوكيًا يسير عليه في سنته القادمة.. ثم يعاهد اللّٰه في تلك الليلة، بل وفي ليالي القدر المحتملة كلها، على أن

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٠٧.

يستمر في تطبيق ذلك البرنامج، ويطلب من اللّه المدد والعون، وأن يجعل قضاءه وقدره جلّ وعلا موافقًا لأمنياته وطموحاته الخيرة.

فلسفة الاستغفار

إن واحدًا من أهم الأعمال في هذه الليلة هو الاستغفار.

إن الاستغفار الحقيقي ليس هو مجرد قول: «أستغفر اللّه» وتحريك اللسان بهذه الألفاظ، بل إن هذه الألفاظ ينبغي أن تكون شعارًا ظاهرًا، لقرار عميق الجذور في نفس المستغفر.

إن مصداقية الاستغفار ـ في الحقيقة ـ مرهونة باشتماله على خطوتين رئيسيتن هامتين:

الأولى: اكتشاف الخطأ، والإقرار بوجوده، وأنه خطأ لا يجوز الاستمرار عليه.

الثانية: التصميم على الإقلاع عنه والتخلص منه.

فإذا ما عرفت الخطأ وشخصته، ثم صممت على تجاوزه والإقلاع عنه، فتعلن حينئذٍ عن قرارك القلبي، بلسانك وتقول: «أستغفر اللّه ربي وأتوب إليه».

إن الاستغفار بهذا المعنى يتحول من ذكر مجرّد، إلى نقلة نوعية نحو واقع أفضل وأصوب، ويصبح دواءً لأمراض الإنسان وعلله.

أما إذا كان الاستغفار مجرد تحريك اللسان، ولا يكشف عن أي تصميم داخلي للإقلاع عن الذنب، فإنه ـ والحال هذه ـ يتحول إلى ذنب يؤاخذ عليه الإنسان، وما أبلغ قول الإمام علي عليه السلام في الإشارة إلى هذه الحقيقة: «الاستغفار مع الإصرار ذنوب مجددة» ذلك أن هذا الاستغفار عبارة عن وعد قولي قاطع، مع عزم داخلي على عدم الوفاء به، واللّه تعالى مطلع على ما في نفسك.

إن كل إنسان معرّض للخطأ ولا ينجو من الوقوع فيه إلا من عصم اللّه يقول تعالى:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفسِي إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، والتوفيق هو أن يتنبه الإنسان لنفسه أنه يسير على خطأ ما، أو أنه لم يتوفق بعد للوصول إلى كمالٍ من الكمالات السامية، وهذه هي بداية التوفيق الإلهي، حيث هي نقطة التحول نحو الهداية. يقول: «إن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

والاستغفار تصميم على تغيير السلوكيات الخاطئة، وإن تحولت إلى عادة ألفها الإنسان فترة طويلة.

ولعل في الأمر شيئًا من الصعوبة، ولكن ما أعطاه اللّه للإنسان من إرادة وعزم، وعقل وقدرة على الاختيار، كل ذلك يتيح للإنسان التغلب على نواقصه وأخطائه.

لقد استخدم المسلمون الأوائل إرادتهم، وتخلصوا من الشرك، واعتنقوا الإسلام، رغم أن عادات الشرك كانت قد تحكمت فيهم، وأصبحت جزءًا لا ينفك من حياتهم.

وهؤلاء الذين يدخلون الإسلام حديثًا كيف يستطيعون أن يتخلصوا من عاداتهم المشابهة؟..

وقد نقلت جريدة الشرق الأوسط تقريرًا عن خواطر بعض المسلمين الذين أسلموا حديثًا، وكان من بينهم السفير الألماني السابق الدكتور (مراد هوفمان) ذكر فيه:

أنه كان مولعًا بشرب الخمر، وكان خبيرًا بأنواعه المختلفة، وكان يتصور أن من الصعب عليه جدًا أن يترك الخمر، وأنه لن يستطيع أن ينام جيدًا دون جرعة من الخمر!! ولكنه حينما اقتنع بالإسلام والتزم أوامره، تسلح بالإرادة وتغلب على تلك العادة الخاطئة المتأصلة في حياته.

والأدعية المأثورة التي يقرأها المؤمن في هذا الشهر الكريم ليست هي بذاتها ـ كما يظن البعض ـ العلة التامة لحصول المغفرة، بل إنها وسيلة لتذكير الإنسان، وصرخة لدفعه، وأرضية روحية تهيئه للتغيير والتحول، فإن كان ثمة خطأ يحتاج إلى التغيير فليكن قرارك الآن بتغييره.

فمثلًا: كيف تتعامل مع أداء الصلاة؟ هل تؤديها لوقتها أم تتساهل فيها؟

وهل تواظب على صلاة الجماعة أم لا؟

وإذا كنت مستطيعًا للحج ولم تحج فكيف يجب أن تصل إلى قرار بالحج؟

وماذا عن أداء الحقوق الشرعية كالخمس والزكاة؟ وفي الجانب السلوكي كيف تعاملك مع عائلتك؟ هل أنت قائم بواجباتك تجاه والديك وزوجتك وأولادك؟ وأين هو مجال التقصير والنقص؟

وفي العلاقات الاجتماعية هل لديك عداء مع أحد؟ ولماذا تستمر في العداء مع آخرين من أبناء مجتمعك؟

وحتى في العادات الشخصية كالتدخين، والعادات غير المناسبة صحيًا أو اقتصاديًا، عليك أن تتحلى بالشجاعة لاتخاذ قرارات التغيير والتحول تجاهها.

إن تلاوة القرآن وقراءة الأدعية المأثورة، والوعي بقيمة الزمن المبارك كليلة القدر، كل ذلك يحفز إرادة الإنسان، ويستنهض شجاعته، ويستثير ثقته بنفسه، ليتخذ القرارات الصعبة التي يغيّر بها الخطأ من عاداته وممارساته.

كما أن للأجواء المحيطة بالإنسان إن كانت صالحة أثرًا في مساعدته على التحّول إلى الخير والصلاح. وعلى العكس من ذلك لو كان ضمن أجواء سلبية فاسدة.

فليكن قراره الأول هو مغادرتها والتخلص منها.

إن البعض قد يقرر ولكنه يضعف ويتراجع عند التنفيذ، والبعض يلتزم قراره لفترة ثم يتساهل ويميّع قراره، وهذا يكشف أنه لا يحترم نفسه، ولا يقدّر التزاماته تجاهها.

نرجو أن يوفق اللّه الجميع لاغتنام فرصة هذه الليالي المباركة لاتخاذ القرارات التغييرية نحو الأفضل، ولو اتخذ كل إنسان منا ولو قرارًا واحدًا صالحًا، والتزمه طوال السنة لأدركنا خيرًا كثيرًا.

الانفتاح على الرأي الآخر[1]

حين تذهب إلى السوق لشراء سلعة تحتاجها كسيارة أو جهاز حاسب آلي، أو أي شيء آخر، ولا تجد في السوق إلا نوعًا واحدًا من تلك السلعة، فإنك ستشتريه سدًّا للحاجة، وقد لا تجد داعيًا لتفحص ميزاته والتدقيق في خصائصه، فأنت ستقتنيه على أي حال؛ لأنه الخيار الوحيد أمامك.

أما إذا رأيت أمامك أنواعًا مختلفة من السلعة التي تريدها، فستبذل جهدًا لفحص ميزات كل نوع، ومدى امتيازاته، ثم تختار الأفضل والأنسب لك من بين الأنواع المعروضة عليك.

إن الفارق بين الحالتين واضح، ففي الأولى أنت لا تضمن الحصول على الأفضل، وقد لا تهتم لمعرفة خصائص ما تختار. أما في الحالة الثانية فإن تعدد الخيارات يمنحك فرصة البحث والمقارنة، ويجعلك أكثر فهما لما تختار.

وهكذا الأمر لو كنت تبحث عن مشروع اقتصادي للاستثمار، أو برنامج سياحي لمنطقة معينة، أو علاج لمشكلة صحية، فإن تعدد الخيارات في كل مجال يوفر لك أفضل الفرص، وأعلى درجة من المصلحة.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١ شوال ١٤٢٤هـ، ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٢١.

هذه المعادلة الواضحة في القضايا المادية، تنطبق أيضًا على الصعيد الفكري والمعرفي، فإذا كنت مهتمًا بقضية فكرية، ووجدت نفسك أمام رأي واحد في معالجتها، فقد تعتنق ذلك الرأي دون كثير من التأمل والتفكير، أما إذا تعددت أمامك الآراء والأفكار، فسيدفعك ذلك للدراسة والمقارنة فيما بينها، والبحث عن الرأي الأفضل والفكرة الأصح. وبذلك تكون أكثر إدراكًا ووعيًا بالرأي الذي تعتنقه.

فالنظر في الآراء المختلفة يتيح فرصة البحث عن الرأي الأفضل، ويوفر درجة أعلى في فهم ومعرفة الرأي المختار.

لذلك يدعو القرآن الكريم الإنسان إلى التفكير فيما يتبنى من آراء ومعتقدات، فلا يجعل نفسه أمام اتجاه واحد إجباري، ولا ينغلق على موروثاته من آبائه وأسلافه، دون دراسة وتمحيص، ولا يرفض الانفتاح على أي فكرة ومحاكمتها على ضوء العقل، لقبولها إن كانت أصح وأفضل.

إن الله تعالى يبشر عباده المنفتحين فكريًا، والذين يدرسون مختلف الآراء، ليتبنوا أفضلها وأحسنها، بأن منهجية الانفتاح هي التي ستقودهم إلى الهداية، وتمكنهم من استثمار عقولهم، واستخدامها بالشكل الصحيح.

يقول تعالى: ﴿... فَبَشِّرۡ عِبَادِ. ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.. إنهم يستمعون القول، أي يقصدون الإصغاء إليه باهتمام، وليس يسمعون بشكل عفوي عابر، واستخدام القرآن الكريم للفظ يستمعون يلفت إلى ذلك.

والقول جنس يشمل كل قول، والمقصود به الكلام الذي يعبر عن فكرة ورأي.

جاء في تفسير الآية الكريمة:

«الآيتان المذكورتان اللتان وردتا بمثابة شعار إسلامي، بينتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الاختيار في مختلف الأمور. ففي البداية تقول ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ ثم

تعرج على تعريف أولئك العباد المقربين بأنهم أولئك الذين لا يستمعون لقول هذا أو ذاك ما لم يعرفوا خصائص وميزات المتكلم، والذين ينتخبون أفضل الكلام من خلال قوة العقل والإدراك، إذ لا تعصب ولا لجاجة في أعمالهم، ولا تحديدا وجمودا في فكرهم وتفكيرهم، إنهم يبحثون عن الحقيقة وهم متعطشون لها، فأينما وجدوها استقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافي من دون أي حرج حتى يرتووا.

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومناقشة مواضيع وآراء بقية المذاهب، إذ إنهم يخافون من أن تكون حجة الآخرين أقوى من حجتهم الضعيفة، وهذا ما يسبب فقدان الأتباع الذين قد يلتحق بعضهم بالمذاهب الأخرى الأفضل.

إلا أن الإسلام ـ كما شاهدنا في الآيات المذكورة أعلاه ـ ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين، الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون قيد أو شرط، ولا يتقبلون كل وسواس. الإسلام الحنيف يبشر الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السيء، وإنما ينتخبون الأحسن ثم الأحسن من كل قول ورأي».

وعلى ضوء الآية الكريمة، وردت أحاديث وروايات، تشجع الإنسان على البحث عن الحقيقة والصواب من أي مصدر كان، وهذا يعني الانفتاح على مختلف المصادر وإن كانت في اتجاه آخر مخالف، بل هو ما تصرح به الأحاديث والنصوص.

فحينما يقول حديث مروي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها».

والضالة هي الشيء الذي يفقده الإنسان فيبحث عنه، ويعلق الإمام أبو الحسن الحنفي السندي في شرحه لهذا الحديث قائلًا: «أي مطلوبة له بأشد ما يتصور في الطلب، كما يطلب المؤمن ضالته، وليس المطلوب بهذا الكلام الإخبار، إذ كم من مؤمن ليس له طلب للحكمة أصلًا، بل المطلوب به الإرشاد كالتعليم، أي اللائق بحال

المؤمن أن يكون مطلوبه الكلمة الحكمة».

وورد عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها». وفي كلمة أخرى قال رضي الله عنه: «الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق».

وهناك رواية جميلة مذكورة في عدة مصادر عن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: «خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقاد الكلام».

فما دام الإنسان يمتلك عقلًا يميز به الصواب من الخطأ فلا خوف من الانفتاح الفكري، على مختلف الآراء والأفكار، والمهم هو دراسة الرأي والفكرة، بغض النظر عن مصدرها، وعن الموقف منه.

الشورى على صعيد الفرد والمجتمع(١)

ينطلق نهج الشورى في الاسلام من مبدأين أساسيين:

المبدأ الأول: احترام الإرادة الشعبية، والاعتراف بسلطة الناس على أنفسهم وأموالهم وحقوقهم.

وقد عدّ كثير من الفقهاء قاعدة التسلط، (إن الناس مسلطون على أنفسهم وأموالهم وحقوقهم)، ضمن سلسلة القواعد الفقهية، التي يعتمد عليها الفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية في المجالات المختلفة وكل العلماء يأخذون بمفاد هذه القاعدة.

وبمقتضى هذا المبدأ الشرعي العقلي فإن التصرف فيما يرتبط بشؤون الناس، يجب أن يكون بإرادتهم ورضاهم. وإلا كان تعديًا على حقوقهم وإلغاء لسيادتهم على أنفسهم وأموالهم.

المبدأ الثاني: الحرص على اكتشاف الرأي الأفضل والأصوب، وذلك يستلزم استنهاض مختلف العقول، وحشد إمكاناتها وطاقاتها، فتنبثق الآراء، وتظهر نقاط قوة وضعف كل رأي، ثم تتلاقح وتتكامل، لتصل إلى افضل ما يمكن من نضج وصواب.

وفي اللغة العربية نجد أن الشورى والمشاورة والمشورة: مصادر للفعل شاور.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٨ شوال ١٤٢٤هـ، ٣ ديسمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٢٨.

تقول: شاورته في الأمر، أي طلبت رأيه واستخرجت ما عنده وأظهرته.

وشار العسل: إذا استخرجه.

وشار الدابة: استخرج أخلاقها.

والشارة والشورة: الهيئة والمظهر الحسن. قال ابن الأثير: هي بالضم، الجمال والحسن كأنه من الشور عرض الشيء وإظهاره.

وشرت الدابة شورا: عرضتها على البيع اقبلت بها وأدبرت.

وركب فرسًا يشوره، أي يعرضه.

ويقال شرت الدابة إذا أجريتها لتعرف قوتها.

فأصل المشاورة إذًا الاستخراج والإظهار والعرض.

وهذه هي الوظيفة التي تؤديها الشورى بمعناها الاصطلاحي، إنها استخراج الرأي واستظهاره واستعراضه.

وتشير الأحاديث والروايات إلى دور الشورى في إنضاج الرأي والوصول به إلى مستوى الرشد والصواب.

يقول الإمام علي بن أبي طالب: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ».

الاستشارة على الصعيد الفردي

حينما يواجه الانسان مشكلة، أو يريد إتخاذ قرار في قضية تهمه، فإن عليه أولًا أن يرجع إلى عقله ويجتهد في التفكير الموضوعي ثم من الأفضل له أن يستفيد من آراء الآخرين، باستشارتهم، فقد يلفتونه إلى فكرة لم ترد على ذهنه، وقد ينبهونه الى ثغرة لم يكن منتبهًا لها وقد يضيفون إلى رأيه ما يكمله.

قال بعض من حضر: كنّا عند علي الرضا فذكرنا أباه موسى الكاظم. فقال: كان

عقله لا توازى به العقول، وربما شاور الأسود من سودانه، فقيل له: تشاور مثل هذا؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه. قال فكانوا ربما أشاروا عليه بالشيء فعمل به.

ومهما كان مستوى عقل الإنسان وإدراكه فإن الإستشارة تضيف له كسبًا ونفعًا. وقد يتحمس الانسان لرأي معين بدافع غير موضوعي، لرغبة أو رهبة، لكن من يستشيرهم يكون رأيهم خارج هذه المعادلة وأقرب إلى الموضوعية.

ونلمح في التوجيهات الإسلامية، أنها تهدف إلى تربية الإنسان المسلم على نهج الشورى، والاستفادة من الرأي الآخر. حتى يصبح ذلك سلوكًا وعادة للأفراد وظاهرة عامة في الحياة الاجتماعية.

الشورى في الاجتماع الإسلامي

إن توجيهات الشارع الحكيم، تشجع الإنسان على استطلاع آراء الآخرين والاستفادة منها، فيما يرتبط بشؤونه الشخصية فإن أوامر الدين صريحة وواضحة في النهي عن التفرد بالرأي والاستبداد بالقرار، فيما يرتبط بالشأن العام.

لان الشؤون العامة تمسّ حياة الناس ومصالحهم فلا يصح تجاوز إرادتهم ولا تجاهل رأيهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بالمشاورة، مع أنه الأكمل عقلًا، والأفضل رأيًا، وهو مسدد بالوحي من قبل الله تعالى، وكان المسلمون ينظرون إليه ليس كقائد فقط، وإنما هو نبي رسول يخضعون له من أعماق نفوسهم ولا يجدون في أنفسهم حرجًا من طاعته والتسليم له.

مع كل ذلك يأمره الله تعالى بالتزام نهج الشورى، ليرسي هذا النهج ويركزه، وليكون قدوة لأي قائد أو حاكم بعده. يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. والسيرة النبوية حافلة بالموارد والمواقف التي استشار النبي ﷺ

فيها أصحابه، في قضايا الحرب وشؤون السلم ففي غزوة بدر، شاورهم أولًا في الخروج لعير قريش ابتداءً، ثم شاورهم ثانيًا عندما خرجت قريش لتدافع عن عيرها، وشاورهم في موقع النزول يوم بدر، واخيرا شاورهم في أسرى بدر.

وفي غزوة أحد، شاور أصحابه، عندما بلغه خبر خروج قريش للقتال، وكان رأيه ﷺ البقاء والتحصن في المدينة، لكنه إستجاب لرأي الأغلبية بالخروج.

وفي غزوة الخندق، أستشارهم في أسلوب التحصن بالمدينة فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق وأخذ الرسول برأيه. ثم استشار الأنصار في مصالحة الأحزاب بإعطائهم ثلث ثمار المدينة إنْ هم فكّوا الحصار عنها ورجعوا، فلم يقبل ذلك الأنصار واستجاب الرسول ﷺ لرأيهم.

الشورى تربية وسلوك[1]

كان رسول الله ﷺ يكرر في مواقف كثيرة قولته المشهورة: «أشيروا عليَّ».

وحتى في موضوع بسيط كصنع منبر يخطب عليه في المسجد، لم يقرر ذلك إلا بعد عرضه على الناس وأخذ رأيهم. جاء في طبقات ابن سعد: كان رسول الله ﷺ، يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائمًا، فقال: إن القيام قد شقّ عليّ، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبرًا كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور رسول الله ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه.

وحقًا ما قاله أبو هريرة فيما روي عنه: «ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ».

ومثله ما رواه عروة عن أم المؤمنين عائشة قالت: «ما رأيت رجلًا أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ».

بالطبع، فإن استشارة الرسول ﷺ هي في مجال تطبيق الأوامر الإلهية، وفي السياسات والتدابير الإجرائية، أما التنزيل وما جاء به من الأحكام والتشريعات فهي من قبل الله تعالى.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٦ شوال ١٤٢٤هـ، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٣٥.

ويصف القرآن الكريم مجتمع المؤمنين بانتهاج نهج الشورى في أمورهم العامة، فلا أحد يقرر بمفرده فيما يرتبط بالشأن العام، ولا مكان للديكتاتورية والاستبداد، في إدارة الأمور. يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

والسورة التي وردت فيها هذه الآية، تحمل اسم (الشورى)، لتأكيد وتثبيت هذا المبدأ الهام في نفوس المسلمين وحياتهم.

ولاحظ بعض المفسرين أنه قد وردت جملة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ اسمية مع أنها معطوفة على جملتين فعليتين ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ للدلالة على أن التشاور كان حالهم المستمر.

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا يستبد أحد منهم برأيه، في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم، وتآلفهم، فمن كمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور، التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو، والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيرها، وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

لقد جاء وصف المجتمع بالتشاور، بعد وصفه بإقامة الصلاة، وقبل وصفه بأداء الزكاة، ليعطي لصفة التشاور صبغتها الدينية، وموقعيتها بين أهم الفرائض والواجبات. ذلك يعني أن مجتمع الاستبداد، الذي لا ينتهج الشورى في أموره العامة، لا يصدق عليه عنوان الاستجابة لله، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، حيث يفتقد ركنًا بارزًا من معالم الاستجابة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

وكما يقول الشيخ عبدالقادر عودة: «فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة».

فالشورى في الإسلام ليست مجرد نظام سياسي يلتزمه الحاكم في العلاقة مع الشعب، بل هي نهج تربوي، وسلوك اجتماعي، يصدر عن رؤية دينية ثقافية، فينتج نظامًا شوريًا على المستوى السياسي، حيث يوجه الإسلام أبناءه إلى الحرص على استشارة الآخرين فيما يواجهونه من قضايا وأمور في شؤونهم الخاصة، ليصبح ذلك نهجًا عامًا في حياتهم، وعلى الصعيد العائلي تدعو تعاليم الإسلام إلى معالجة قضايا الأسرة، ضمن إطار التشاور والتراضي، فمثلًا: فطام الطفل عن الرضاعة من لبن أمه قبل انتهاء مدة الرضاعة الطبيعية، وهي سنتان، ينبغي أن يتم بالتوافق بين الوالدين، بعد تشاورهما ودراستهما للموضوع لتقويم مصلحة الطفل، يقول تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ﴾.

وإذا ما حصل شقاق وسوء تفاهم بين الزوجين، فلا يصح أن يترك مصير العائلة للقرارات الفردية المنفعلة، بل تتدخل عائلتا الزوجين، وتختار كل منهما ممثلًا، ويجتمع الممثلان كحكمين ليتدارسا موضوع الخلاف، ويتفقا على أسلوب المعالجة والحل. يقول تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾.

وعلى الصعيد الاجتماعي فإن القرآن يصف مجتمع المؤمنين بأنهم يتشاورون في أمورهم العامة ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ وباعتبار أن الآية مكيّة النزول، فهي تتحدث عن وضع جماعة المؤمنين قبل قيام الدولة، ونشأة الكيان السياسي في المدينة.

هذه التربية على الشورى، واعتمادها كسلوك وممارسة اجتماعية، ولكونها تنطلق من فهم ورؤية دينية ثقافية، كل ذلك يفترض أن يؤدي إلى التزام الشورى في المجال السياسي، حيث لن ينسجم هذا المجتمع مع حالة الاستبداد والديكتاتورية، التي يجدها منافية لمبادئه الفكرية، وتربيته الأسرية، وسلوكه الاجتماعي.

في ظل الشورى[1]

المجتمعات الديمقراطية تمارس الديمقراطية كصبغة عامة لحياتها، في الأسرة والمدرسة والمصنع والمؤسسة الدينية والنشاط الاجتماعي، وانتهاءً بمجال السلطة والحكم، بينما تسود الفردية والديكتاتورية مجتمعات الاستبداد، على كافة الصُّعد.

من هنا تجد التناغم واضحًا بين شكل الحكم السياسي، وطبيعة الحالة الاجتماعية، وكما ورد في الأثر: «كما تكونوا يولى عليكم».

ومجتمعاتنا الإسلامية الطامحة للديمقراطية ضمن ضوابط الإسلام، عليها أن تعود لاستيعاب مبدأ الشورى، ومعرفة جذوره الفكرية، وتطبيقاته الاجتماعية، ونماذج ممارسته في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ليشكل ذلك خلفية فكرية ثقافية تأخذ موقعيتها في أذهان أبناء الجيل، الذين بهرتهم ديمقراطية الغرب، وعاشوا ضمن أجواء بعيدة عن نهج الشورى والحرية. حتى التبس عليهم الأمر بين رؤية الإسلام وواقع المسلمين.

إن الطريقة المتبعة في مجتمعاتنا لإدارة الشؤون الدينية والاجتماعية لا تزال قائمة على الرأي الفردي، والإرادة الأحادية، فلماذا لا يسعى الواعون المصلحون لتطويرها، حتى تأخذ بنهج الشورى، والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الآراء والطاقات.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٢ شوال ١٤٢٤هـ، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٤٢.

وفي هذا السياق ينبغي للناس أن يتفاعلوا مع المؤسسات الأهلية ـ الرسمية، بحضور جمعياتها العمومية، والترشيح والانتخاب للتصدي لشؤون الإدارة. مثل الجمعيات الخيرية، التي تنتخب الجمعية العمومية فيها أعضاء مجلس الإدارة، ثم ينتخب المجلس رئيسه من بين الأعضاء، وهناك نظام للمتابعة والمساءلة.

وكذلك الحال بالنسبة لغرف التجارة والصناعة في مناطق البلاد التي يتم فيها الاقتراع لانتخاب مجلس الإدارة واختيار الرئيس.

والقرار الذي صدر أخيرًا من مجلس الوزراء الموقر باعتماد نظام الانتخاب الجزئي للمجالس البلدية، يوفر فرصة أخرى لممارسة هذا النهج، ونأمل أن تتسع رقعته ليستجيب لتطلعات المواطنين في إنجاز الإصلاحات الشاملة إن شاء الله.

كما أطلقت وزارة التربية والتعليم مشروعًا رائدًا قالت إنها ستبدأ في تنفيذه مطلع العام الدراسي الجديد ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤م، بتكوين مجالس الشورى للطلاب في سبعين مدرسة مختلفة المستويات التعليمية، كتجربة أولية، وسيتضاعف العدد في الفصل الدراسي الثاني ليصل إلى ١٤٠ مدرسة، بحيث يمثل كل فصل في المدرسة طالب واحد، اضافة إلى مدير معه أربعة تربويين، ويعقد المجلس حلقات نقاش وحوارًا مع الطلاب، شهريًا، ليرفع تقاريره وتوصياته إلى مدير المدرسة، الذي عليه أن يدرسها مع الهيئة الإشرافية بالمدرسة، من أجل تطبيق التوصيات ومتابعة تنفيذها.

في ظل الشورى والديمقراطية، يشعر الناس بكرامتهم، واحترام إرادتهم ورأيهم، فتبدع العقول، وتتطور الأفكار، وتظهر الكفاءات والمواهب، وتتوفر فرصة التعبير عن الرأي. ويتحمل المجتمع مسؤولية القرارات التي تتخذ لإسهامه في صنعها.

وعلى العكس من ذلك تمامًا حالة الفردية والاستبداد، لذلك تسود المجتمعات الديمقراطية حياة الاستقرار، وينمو معدل تقدمها في مختلف المجالات، بينما تعاني المجتمعات الأخرى من الاضطرابات والمشاكل، وتراوح مكانها في قاع التخلف والانحدار.

إن المجتمع إذا امتلك صفات من بينها الشورى فهو جدير بالحياة على ظهر الأرض، وإلا فهو مجتمع ميت مكانه بطن الأرض. روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها...».

وكنموذج للفارق بين مجتمع الشورى ومجتمع الاستبداد ينقل الدكتور أحمد شوقي الفنجري (في كتابه الحرية السياسية في الإسلام) هاتين القصتين:

أثناء الفتح الإسلامي لأرض فارس طلب قائد الفرس أن يلتقي بالقائد العربي قبل المعركة، ليتفاوض معه في حقن الدماء، وبعد أن عرض الفارسي مقالته قال العربي: «أمهلني حتى أستشير القوم». فدهش الفارسي وقال: ألست أمير الجند؟ قال: نعم.

قال الفارسي: إننا لا نؤمر علينا من يشاور.

قال له العربي: ولهذا فنحن نهزمكم دائمًا، أما نحن فلا نؤمر علينا من لا يشاور.

وهكذا انتصر المتواضع الذي يشاور على المغرور الذي يستبد برأيه. ومرت السنوات على هذا الحادث، أربعة عشر قرنًا من الزمان، ثم جاءت الصهيونية تغزو قلب العالم الإسلامي، وهزمت العرب في ثلاثة حروب متتالية.

وتتكرر القصة مرة أخرى، فيقول وزير الدفاع الإسرائيلي موشي ديان عن حرب ١٩٦٧م في مذكراته: إنه كان يتعجب من أمر الجيوش العربية، فبعض الوحدات كانت تقاتل بشراسة ورجولة حتى آخر رمق وآخر طلقة، وبعض الوحدات في نفس الجيش كانت تستسلم دون طلقة واحدة، ولم يعرف السر في ذلك، إلى أن استسلم أحد القادة العرب ومعه جنوده وجميع أسلحته، فأخذ يسأله: «هل أخذت رأي زملائك الضباط والجنود قبل أن تأمرهم بالاستسلام لنا؟» فقال في كبرياء: إننا لا نستشير من هم دوننا في الرتبة.

فقال له لهذا السبب فنحن نهزمكم دائمًا.

مبدأ الشورى وصيغة التطبيق[1]

جوهر الشورى هو استطلاع رأي المجتمع، بشكل مباشر، أو عبر من ينوب عنه، في الأمور العامة المتعلقة به.

وقد مارسها المجتمع الإسلامي بداية نشأته وتكونه في عهد رسول الله، وعهد الخلافة الراشدة، ضمن إطار الشورى العامة، حيث كان المسجد مركز تجمع المسلمين، وكان ذوو الرأي من المجتمع يحيطون بالقيادة، وعند أي قضية أو مسألة كان رسول الله ﷺ يخاطب المسلمين المجتمعين ليطلب منهم رأيهم، ويتدارس الأمر معهم، ثم يتخذ القرار المناسب.

ومع اتساع رقعة الأمة، ودخول البلدان والشعوب المختلفة إلى الإسلام، وتطور قضايا الحياة والمجتمع الإسلامي، كان الأمر بحاجة إلى أن تتطور وسائل تطبيق مبدأ الشورى.

لكن ما حدث هو تراجع الالتزام بهذا المبدأ العظيم بعد الخلافة الراشدة، في العهدين الأموي والعباسي، عدا زمن خلافة عمر بن عبدالعزيز. وبذلك دخلت الأمة نفقًا اختلف عن العهود السابقة، والذي أوصلها إلى حالة من الركود والتخلف، امتدت إلى عهد العثمانيين، حتى استفاقت الأمة على هول الصدمة مع تقدم الصليبيين، ونهضة

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٤٩.

أوروبا الحديثة. وسيطرة الاستعمار الغربي على أغلب بلدانها وشعوبها. وفي عصرنا الحاضر، فإن المجتمعات البشرية المتقدمة، طورّت تجاربها السياسية والاجتماعية، على صعيد نهج الشورى والديمقراطية، وأصبحت السلطة تعتمد على ثلاث دعامات مستقلة عن بعضها، هي: السلطة التشريعية، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، وهناك دستور يشكل مرجعية لهذه السلطات، وانتخابات يختار فيها الشعب ممثليه.

والمجتمع الإسلامي يمكنه الاستفادة من تجارب الشعوب والمجتمعات الأخرى، بما لا يتنافى مع قيمه ومبادئه.

لقد قرر الإسلام مبدأ الشورى لكن صيغ التطبيق، وأساليب التنفيذ، قابلة للتغيير والتطوير، حسب اختلاف الظروف، وتطور مستوى المجتمع، وقضايا الحياة.

يقول سيد قطب (في ظلال القرآن): «أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوبًا في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان».

ويقول الشيخ أبو الأعلى المودودي: «أما تبيين من يحوز ثقة المسلمين، فالظاهر في بابه أنه لا يمكن أن يختار له اليوم نفس ذلك الطريق الذي اختاره المسلمون في بدء الإسلام، خاصة وأن ما يواجهنا اليوم من العقبات والمشكلات، لم يواجه الناس حينذاك، فيجوز أن نستخدم اليوم على حسب أحوالنا وحاجاتنا كل طريق مباح يمكن به تبين من يحوز ثقة الأمة».

وأضاف: «ولا شك أن طريق الانتخاب في هذا الزمان هي أيضًا من الطرق المباحة، بشرط أن لا يستعمل فيها الحيل والوسائل المرذولة» (الدكتور عبدالحميد إسماعيل الأنصاري في كتابه: الشورى وأثرها في الديمقراطية).

ويرى الدكتور أحمد شوقي الفنجري أنه: إذا أردنا ترجمة صادقة وأمينة لكلمة الشورى في عصرنا هذا لقلنا إنها تعني الحياة النيابية الحرة السليمة التي يطبقها الغرب في أيامنا هذه، ولا عجب في ذلك إذا وجدناهم أكثر منا تطبيقًا لمبادئ الإسلام..

فقديمًا قال الشيخ محمد عبده: ذهبت إلى أوروبا فوجدت الإسلام ولم أجد المسلمين، وعدت إلى الشرق فوجدت المسلمين ولم أجد الإسلام.

وعندما سئل الشيخ محمد عبده عن الشورى في عصرنا هذا قال:

إن الشورى تعني كل ما توصل إليه الإنسان الغربي في عصرنا هذا من التنظيمات الديمقراطية الحديثة، وإذا كان تحقيق الشورى لا يتم إلا بها فإن وجودها في الإسلام واجب، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[١].

وأخيرًا فإن علماء الأمة ومفكريها مطالبون بدراسة هذا المبدأ العظيم من الدين (الشورى)، ودراسة صيغ تطبيقه في العصر الحاضر، على ضوء هدي الإسلام، وتجارب المجتمعات البشرية، لتسير الأمة على طريق الخلاص من واقعها الأليم.

(١) أحمد شوقي الفنجري، الحرية السياسية في الإسلام.

الدماء خط أحمر[1]

الحياة بالنسبة لأي إنسان هي قرار إلهي خارج عن إرادته وسيطرته، وبالتالي فإن أي محاولة لمصادرة تلك الحياة هي إعتراض على الإرادة الإلهية، فيتشكل بذلك معيار لفرز النظم القانونية والثقافية، فكل نظام لا يسعى للحفاظ على حياة الانسان هو نظام مرفوض وفق السنن الإلهية، وبعكسها تكون النظم التي تشكل سياجًا للمحافظة على حياة الإنسان، وهي نظم تنسجم مع الإرادة الإلهية، وطبيعة الإنسان، الذي كتبت له الحياة، لذا كان الانتحار جريمة في نظر كل الشرائع الدينية والقوانين الدولية، بل تميز الشرع الإسلامي بوضع قيود أكثر دقة للحفاظ على الحياة.

وأفتى فقهاء الإسلام بأنه لا يحق للطبيب سحب أجهزة طبية وضعت لمريضه، فبعثت الحركة في قلبه وإن مات المخ، فأصبحت حياة المريض كحياة النبات لا تدوم إلا بعمل تلك الأجهزة، وذلك لأهمية النفس المحترمة في الإسلام.

وعلى الطبيب ألا يعتني بطلب المريض أو طلب اقاربه بسحب تلك الأجهزة، وإذا سحبها فمات المريض لذلك عدَّ الطبيب قاتلًا.

كما أفتى الفقهاء بأنه يحرم على المكلف إيقاع الضرر بنفسه، ويجب عليه ترك ذلك، وحفظ نفسه من الأضرار.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢١ صفر ١٤٢٥هـ، ١٢ مايو ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٨٩.

فالنظرة إلى الحياة كحقيقة يجب الحفاظ عليها هي بداية السير في الاتجاه الصحيح، ومن هنا كانت الحياة أقدس شيء في الإسلام، فإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ نجد الآية الكريمة قد أصّلت حقيقة مفادها أن الحياة البشرية حقيقة واحدة، والاعتداء على أي فرد اعتداء على كل المجموعة، وبالتالي يجب أن تتعبأ الأفكار والمشاعر ضد أي حادث قتل ولو كان المستهدف شخصًا بعيدًا، إذ يجب أن يشعر كل إنسان أن الاعتداء وقع عليه، يقول ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (ج ٥، ص ٨٩):

(ومعنى التشبيه في قوله تعالى ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ حث جميع الأمة على تعقب قاتل النفس وأخذه أينما ثقف والامتناع من إيوائه أو الستر عليه، كل مخاطب على حسب مقدرته، وبقدر بسطة يده في الأرض، ومن ولاة الأمور إلى عامة الناس، فالمقصود من ذلك التشبيه تهويل القتل) ولا يصح الأعتراض هنا على تشريع الإسلام جواز قتل القاتل مثلًا؛ لأن القتل أصلًا عقوبة قانونية ضمن ضوابط شرعية مشددة للحفاظ على حياة الآخرين، يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ففي حالة تعارض القيم يقدم الأهم، فالحفاظ على حياة القاتل قد يكون مهمًا ولكن الأهم منه الحفاظ على حياة الكل، ونشير هنا إلى أن الإسلام فسح المجال لإسقاط عقوبة القصاص على القاتل إذا تنازل أولياء دم المقتول بل وشجع على ذلك يقول تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

وهكذا فإن من أبجديات الثقافة التي حاول الإسلام تكريسها في نفوس الناس، حتى تشكل قاعدة ومنطلقًا لسلوك حضاري رصين، هي قدسية الحياة وضرورة الحفاظ عليها، وقد ركزت مجموعة من النصوص الشرعية على هذه الثقافة، حيث شددت على خطورة العدوان على حياة الآخرين، ففي حديث مروي عن رسول الله ﷺ يعتبر أن أي خطأ يرتكبه العبد قابل للتدارك والاحتمال أما إذا تجرأ على سفك دم محرم، فذلك ما لا مجال لتداركه، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ:

«لايزال العبد في فسحة من دينه مالم يصب دمًا حرامًا».

وفي حديث آخر عنه ﷺ يشير إلى أن قضية سفك الدماء هي أولى القضايا المطروحة على ساحة المحشر يوم القيامة، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

كما تؤكد النصوص الدينية على أن من ينتج ثقافة تحرض على القتل والعدوان فهو شريك في جريمته، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من شرك في دم حرام بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آئس من رحمة الله».

وإبرازًا لخطورة سفك الدماء يروي البراء عن رسول الله ﷺ: «لزوال الدنيا جميعًا أهون على الله من دم يسفك بغير حق».

إن الدنيا خلقت من أجل الإنسان ولا قيمة لها إذا لم تحترم فيها حياة الإنسان ووجوده.

وهناك حادثة وقعت في عهد الرسول ﷺ تكشف عن مدى اهتمام الإسلام بالحياة فقد وجد رجل مقتول من قبيلة جهينة ولا يعلم قاتله فغضب رسول الله ﷺ لذلك، فأمر باجتماع المسلمين في المسجد وصعد فيهم خطيبًا قائلًا: «أيها الناس، أيقتل انسان ولا يعلم قاتله،والله لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا في دم مسلم واحد برئ أو رضوا به لكان حقًا على الله أن يكبهم كلهم على مناخيرهم في نار جهنم»، وغيرها من النصوص التي أصّلت لثقافة احترام أرواح الآخرين.

قدسية الحياة[1]

قدسية الحياة ثقافة غابت مفرداتها عن عقلية الكثير من المسلمين المعاصرين، في حين أننا نرى الدول المتقدمة استثمرت الثقافة الحية التي هي الموروث الحضاري لدعوة الأنبياء وانطلقت بها تؤسس نظمًا وقوانين تحترم حياة الإنسان، حتى أصبحت جزءًا من الخلفية الثقافية للمجتمع الغربي، وبرغم الوحشية التي تمارسها تجاه الآخر إلا أنها تحترم شعوبها وأفراد مجتمعاتها، فعندما يصاب مواطن أمريكي مثلًا تهتز له كل المؤسسات الحكومية، وتكرس له كل وسائلها الإعلامية، وكذا الحال بالنسبة للصهاينة مما جعل شعوب العالم تحترمهم بسبب احترامهم لأنفسهم، واتفاقية تبادل الأسرى بين حزب الله في لبنان وإسرائيل خير دليل على ذلك، فقد استمرت المفاوضات لسنوات طويلة وشاركت فيها أطراف دولية كثيرة، وقدمت إسرائيل تنازلات مختلفة من أجل إطلاق أسير واحد واستعادة ثلاث جثث من الإسرائيليين، مما جعل الأمين العام لحزب الله الشيخ حسن نصر الله يصرح في خطابه قائلًا: رغم العداء الذي نعيشه مع إسرائيل وعلمنا بجرائمهم إلا أننا يجب أن نعترف لهم بمدى احترامهم لأبنائهم.

وبينما يعيش الآخر ثقافة احترام الحياة، نعيش نحن المسلمين في كثير من ساحاتنا

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٩ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ١٩ مايو ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٩٦.

ثقافة الاستهتار بالحياة، التي تسربت إلى وعينا وصبغت سلوكنا بمجموعة من التصرفات اللامسؤولة، وأقرب مثال لذلك حركة السيارات في الطرقات العامة وعدم الاكتراث بالقوانين المرورية، فقد أفادت إحصائية عام ١٤٢٤هـ أن عدد الحوادث المرورية في المملكة بلغت (٣٠٠٠٠٠) ثلاثمائة ألف حادث، مات بسببها (٤٠٠٠) أربعة آلاف شخص، وأصيب (٣٠٠٠٠) ثلاثون ألفًا بين جريح ومعوق.

العمليات الارهابية

إذا لم يكن بإمكاننا إيجاد تبرير لضخامة الحوادث المرورية سوى الاستهتار بالحياة ففي اي خانة نضع تلك العمليات الارهابية التي تستهدف الأبرياء في حالة جنونية من القتل الجماعي. مما يدلل على انتكاسة خطيرة في وعي الأمة يجب الإسراع في معالجتها، بتكريس رؤى ثقافية جديدة، تؤكد على قدسية الحياة التي لا يمكن تجاوزها تحت أي اسم، فلم تكن توصيات الرسول ﷺ للمقاتلين بعدم التعرض للشيخ الكبير والمرأة والطفل والزرع في الحروب ضربًا من النظرية المثالية، وإنما تأسيس قواعد للتعايش البشري.

وإذا نظر المتتبع لسيرة الرسول ﷺ يجد أن هناك تحفظًا وحذرًا من إراقة الدماء فقد أحصى المؤرخون ثلاثا وثمانين غزوة وسرية في عهد رسول الله ﷺ وبرغم ذلك لم يتجاوز عدد القتلى١٤٠٠ شخص، على أكثر التقادير من شهداء المسلمين مع كل من قتل من واليهود والمشركين في حين أن الحروب آنذاك كانت تحصد أعدادًا كبيرة، كما أن الحروب اليوم تحصد أرواح الملايين من البشر مما يكشف عن الحالة الهستيرية التي تسيطر على العقلية المعاصرة، فمن هنا كانت سيرة الرسول تطبيقًا عمليًا وتجسيدًا فعليًا لقيمة الحياة، فقد كان بإمكانه القضاء على أهل مكة عندما وقعوا تحت رحمة سيفه، ولكن قدسية الحياة وفتح باب الفرص للعيش الكريم، جعلت الرسول يقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا كانت سيرة أمير المؤمنين علي الذي كان يلتمس الأعذار ويحتاط عند الشبهات للحفاظ على حياة الآخرين.

يقول الامام علي: «الناس صنفان إما أخ لك في الدين او نظير لك في الخلق» فما شهدته الرياض يوم الأربعاء الثاني من ربيع الاول ١٤٢٥هـ من انفجار استهدف مبنى حكوميًا يضم الإدارة العامة للمرور وقوات الطوارئ الخاصة وإدارة الأدلة الجنائية يكشف عن مدى تحجر عقول الواقفين خلفه، وبعدهم عن الثقافة الإسلامية، ومن هنا نحن ندين تلك الأعمال الإجرامية في المملكة، وفي كل مكان كالتي حدثت في البصرة وكربلاء والنجف وراح ضحيتها المئات من الأبرياء، وما حصل قبل ذلك في المغرب وجزيرة بالي باندونيسيا وغيرها من الأعمال الإرهابية الفظيعة، ومن المخجل جدًا ما حصل في إسبانيا من تفجير القطار الذي حدث في مدريد، إذ أعلنت الحكومة الاسبانية بداية أن هذا الحادث ليس له علاقة بالاسلاميين، وانما وراءه منظمة إيتا الانفصالية ولكن الجهات المتطرفة المنتسبة للإسلام أصدرت بيانا تتبنى فيه العملية وكأنها تفتخر بذلك.

فتحتاج الأمة إلى صياغة جديدة لوعي الإنسان المسلم لعلنا نطبب تلك الجراحات التي أحدثتها ثقافة الاستهتار بالحياة، ونرسم لوحة من القيم النبيلة لصورة الإسلام الحقيقي التي عملت تلك العقليات الخربة على تشويهه في نظر الآخرين، حتى صار الإرهاب سمة بارزة من سمات الإسلام عندهم.

وإنْ كان من حق الإنسان أن يعارض أي نظام سياسي يرى عليه بعض المآخذ إلا أن ذلك لا يعطيه الحق في أن يتخذ أي أسلوب وإنما إتخاذ الحق هدفًا ووسيلة فهناك كثير من الطرق العقلانية التي تتيح للإنسان حق المعارضة، بل هي أكثر جدوى وفاعلية، وقد أثبتت التجربة والتاريخ أن العمل الإرهابي غير مجدٍ لتحقيق أي مكسب سياسي، وتجربة الإسلاميين المتشددين في الجزائر ومصر خير دليل على ذلك، ومن هنا كان أسلوب العنف مرفوضًا؛ لأنه يتنافى مع قدسية الحياة ولا ينسجم مع أي مفردة من مفردات العقيدة الإسلامية.

ثقافة الاستهتار بالحياة[1]

هذا الدين العظيم الذي يقدّس الحياة، ويعتبر العدوان عليها أشدّ جريمة، كيف سادت في بعض أوساط أبنائه ثقافة الاستهتار بالحياة؟! وكيف أصبح ستارًا وغطاءً لأفظع جرائم العدوان على الحياة؟!

لقد تناقلت الصحافة السعودية أن شابًا أندونيسيًا (روسلي سادي ٢٦ عامًا) قدم إلى الحج عام ١٤٢٣هـ ولتوه قد تزوج، ألقى بنفسه من الطابق التاسع من فندق بشارع أم القرى في مكة، تاركًا رسالة تفيد بأنه سمع عن فضل من مات في مكة وأنه يدخل الجنة، فقرر ألا تفوته هذه السعادة، فودّع زوجته قائلًا: «إلى اللقاء في الجنة» وقفز أمامها لتتحول جثته إلى أشلاء!![2].

وفي حادثة أخرى: ضبطت شرطة الحرم المكي الشريف حاجًا أوروبيًا إثر اعتدائه على حاج يمني الجنسية بسكين غرسها في ظهره، زاعمًا أن الحاج اليمني هو المسيح الدجال! ذاكرًا أنه قبل قدومه إلى مكة المكرمة رأى في المنام أنه سيتمكن من رؤية المسيح الدجال في مشاعر الحج، واصفًا شكله بأنه ذو لحية طويلة، وكريم عين، وهي المواصفات نفسها التي تنطبق على الحاج اليمني الضحية لذا راقبه أثناء الطواف

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٦ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ٢٦ مايو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٠٣.

(٢) جريدة عكاظ، ٤ ذو الحجة ١٤٢٣هـ.

وهجم عليه صارخًا: «إنه المسيح الدجال.. إنه المسيح الدجال»، يذكر أن هذا الحاج المعتدي أوروبي في العشرينيات من العمر ويدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة![1].

كما ذكرت الأنباء أن الشرطة الألمانية اعتقلت مهاجرًا تركيًا يبلغ من العمر ٥٩ عامًا، أقدم على قتل تركيين آخرين بالرصاص بعد صلاة الفجر في مسجد في بلدة غلزنكيرشن غرب ألمانيا، واعترف القاتل بجريمته مدّعيًا أن القتيلين كانا تفوها بألفاظ تضمنت إهانة لشرفه ومساسًا بشرف زوجته.

وقد عرف عن القاتل شدة تدينه ومواظبته على الصلاة، وقيامه بالحج إلى مكة المكرمة[2]، أليس مخجلاً صدور مثل هذه الممارسات من أشخاص يعيشون أجواء دينية؟ ألا يشير ذلك إلى خلل في الثقافة التي ينهلون منها؟ صحيح إنها حالات فردية، لكنها مع تكرارها جرس إنذار يجب أن يدفعنا إلى الدراسة والفحص عن الخلفيات والأسباب.

وفي هذا السياق تأتي جرائم العدوان والقتل تحت عنوان الدفاع عن الشرف أو جرائم الشرف، وذلك بأن يقوم الأب أو الأخ أو الزوج بقتل المرأة عند الشك في سلوكها الأخلاقي، وتكثر هذه الحوادث في الأردن؛ لأن القانون يتساهل في عقوبتها، وقد أزهقت أرواح كثير من الفتيات لمجرد الظنون والشكوك، وبأيدي أقربائهن، وضمن صور ومشاهد مأساوية فظيعة!!

وقد تأتي الوفود لتهنئة القاتل ومساندته ويلقى تعاطفًا واسعًا. ويقتل في الأردن ما لا يقل عن ٢٥ امرأة سنويًا بهذا الشكل.

وقالت منظمة العفو الدولية في تقرير لها عام ١٩٩٩م عن باكستان: إن عدة مئات من النساء يتعرضن للقتل باسم الشرف في باكستان كل سنة، ونادرًا ما يحال القتلة إلى ساحة العدالة. ففي يوم ٦ يناير ١٩٩٩م أضرمت النار في فتاة تدعى (غزالة) وورد

(١) جريدة الوطن السعودية، ٢٣ فبراير ٢٠٠٢م.

(٢) جريدة الحياة، ٢٧ يناير ٢٠٠٤م، العدد ١٤٩١٥.

أن أخاها هو الذي أشعل النار فيها حتى ماتت حرقًا، في مدينة جوهر آباد بمقاطعة البنجاب، لأن أسرتها كانت تشتبه في أنها أقامت علاقة غير مشروعة مع أحد الجيران، وورد أن جسدها العاري المحترق ظل ملقى على قارعة الطريق لمدة ساعتين بسبب عزوف الجميع عن التدخل في الموضوع (موقع منظمة العفو الدولية على شبكة الانترنت، وثيقة رقم **ASA ٢٣/ ٢/ ٩٩**).

وتأتي الآن العمليات الانتحارية والإرهابية التي تستهدف الأبرياء من رجال ونساء وأطفال تحت عنوان الجهاد ومحاربة الكفار والموالين لهم، كأفظع نتاج لثقافة الاستهتار بالحياة وباسم الدين مع الأسف الشديد.

الدين للحياة

في مقابل إفراط الإعلام الغربي في إثارة الغرائز وتأجيج الشهوات، وتجاهله للقيم الروحية، والمبادئ الانسانية غالبًا، فإن الخطاب الإسلامي يعاني التفريط غالبًا في التذكير بقيمة الحياة، وأهمية حمايتها، ودعوة الإنسان للاستمتاع بخيراتها ومباهجها.

حتى ساد تصور في بعض الأوساط الدينية وكأن الإسلام دين من أجل الآخرة فقط، وبرنامج للحياة الأخرى، أما الدنيا فلا قيمة لها، ولا أهمية للحياة فيها.

يبدو للبعض أن هناك تعارضًا ظاهرًا بين طائفتين من النصوص الدينية: إحداهما تؤكد على قيمة الحياة وأهميتها، وضرورة استثمارها والاستفادة منها، والأخرى توجه نظر الإنسان إلى الدار الآخرة باعتبارها المقر النهائي والحياة الخالدة، وتنصح بالزهد في الدنيا والابتعاد عن شهواتها.

وينبغي النظر إلى هاتين الطائفتين من النصوص بموضوعية وتوازن، ولا يصح الاهتمام بإحداهما وإهمال الأخرى.

إن النصوص الدينية التي تتحدث عن أفضلية الآخرة وضرورة التوجه إليها، وتدعو إلى الزهد في الدنيا، إنما تريد كبح جماح الشهوات والغرائز الهائجة عند الإنسان، التي

تسف به إن استجاب لها دون حدود إلى المستوى الحيواني الهابط، إنها تريد تذكير الإنسان بالجانب الأهم في شخصيته، جانب العقل والضمير والوجدان، ليمارس حياته ملتزمًا القيم والمبادئ.

أما النصوص التي تتحدث عن قيمة الحياة وأهميتها فهي واضحة صريحة، إن القرآن الكريم يقدم الدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة الحياة، يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم﴾.

والمؤمن الواعي ـ كما يصفه القرآن الكريم ـ يطلب من الله تعالى النجاح في الدنيا أولًا ثم النجاح في الآخرة، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

ولتذكير المؤمن بالحفاظ على دوره وحصته من الاستمتاع بخيرات الحياة يتوجه إليه الأمر الإلهي: ﴿وَابتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنيَا﴾.

إن واجب الانسان شرعًا أن يحرص على أي لحظة يعيشها في هذه الحياة الدنيا فلا يفرّط فيها؛ لأن الحياة الدنيا مزرعة للآخرة وهذا حكم شرعي يجمع عليه فقهاء الإسلام، فلا يجوز للإنسان أن ينهي حياته ولو حدد له الأطباء ساعة معينة سيفارق فيها الحياة، إن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تُلقُوا بِأَيدِيكُم إِلَى التَّهلُكَةِ﴾.

وفي كتب الأحاديث الدينية باب حول كراهة تمني الموت. جاء في صحيح البخاري حديث رقم ٥٦٧١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه».

نعم هناك حديث عن قيمة الشهادة في سبيل الله تعالى، ولكنها تعني الموت من أجل توفير حياة أفضل للبشر، أي للانتصار لقيم الحق والعدل، ضمن معركة شرعية وبقيادة شرعية، تلتزم الحدود والضوابط.

أما أن يستهتر الإنسان بحياته أو حياة الآخرين فهو تهور وتهلكة وإجرام وليس من الجهاد والشهادة في شيء.

قصة من التاريخ في الدفاع عن حقوق الإنسان[1]

ذكروا أنه حدث في عهد (المعتضد العباسي) الذي تولى الخلافة من سنة ٢٧٩ إلى ٢٨٩هـ أن اقترض أحد الضباط الكبار بعضًا من المال من عجوز في بغداد، ورفض فيما بعد أن يرده عليه.. وكلما حاول الحصول على ماله لا يستطيع. حتى أرشده أحد الناس إلى خياط بسيط قائلًا له:

ـ إنه الوحيد الذي لا يستطيع أن يحصل لك على مالك.

ذهب إليه. كان خياطًا بسيطًا للغاية ولذلك أدهشه أنه قال له:

ـ اجلس هنا فسرعان ما سآخذ لك بحقك

ثم أمر أحد العمال أن يذهب إلى بيت الضابط، ويقول له أن يأتي إليه، ومعه نقود الرجل.

وبعد لحظات كان الضابط يسلم الرجل العجوز دينه الذي عليه ويعتذر إليه، كما يعتذر الطفل إلى أبيه...

وبعد أن ذهب الضابط قال العجوز للخياط:

كيف أصبحت لك سلطة على هؤلاء؟

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٣ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ٢ يونيو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣١٠.

فأجابه الخياط:

إن لي قصة. فأنا كما ترى خياط عادي وليست لي أية صفة رسمية وإنما حصلت على هذا المركز الذي شاهدت آثاره لقضية حدثت هنا.. فقد كنت جالسًا في شرفة بيتي ذات ليلة وإذا بي أرى أن أحد الضباط يمر وهو على فرسه من أمام بيتنا، ومن جانب آخر كانت امرأة جميلة تمر بهدوء ورزانة، وفجأة نزل الضابط من على ظهر جواده، وأمسك بالمرأة، وأركبها بالقوة على الجواد وانطلق بها نحو بيته بينما كانت المرأة تصرخ مستغيثة:

لست زانية.. أنا متزوجة وزوجي أقسم عليَّ بالطلاق إن بت ليلة واحدة خارج الدار.

ولكن لم يعتنِ لها.

فنزلت من الشرفة، وجمعت بعض الرجال، وذهبنا نتوسط في قضيتها، ولكنه أمر الشرطة فضربونا، ومزقونا.. فجئت إلى البيت، لكني لم أذق النوم لحظة واحدة كنت أفكر في المرأة، وكيف أن زوجها سيطلقها إذا باتت هذه الليلة في بيت ذلك الضابط..

وفيما أنا أفكر في ذلك، جاءتني فكرة أن أذهب إلى مئذنة الجامع وأؤذن للصبح، وبالطبع فإن الضابط سيظن أن الصبح قد حان، فيتركها لشأنها، فتذهب إلى الدار قبل أن يتم الليل، وبذلك نتخلص من الطلاق.

وهكذا ذهبت إلى الجامع، وصعدت المئذنة وبدأت أؤذن بصوت عالٍ.. وما إن أنهيت الآذان حتى رأيت الشرطة وقد أحدقوا بالجامع، وطلبوا مني أن أذهب معهم إلى قصر الخليفة (المعتضد) (فهو بانتظارك) كما قالوا لي.. فذهبت إليه، وكان ممتلئًا بالغضب فبادرني قائلًا:

ـ ما هذا بوقت أذان؟ أليس للبلد أحكام.

ـ فقلت له: طول الله بال الأمير. إن أحكام البلد قد ديست بالأقدام يوم ترك للكبير

أن يفتك بأعراض النساء ولا من رادع.

ثم قصصت عليه ما جرى. فأمر بإحضار الضابط، والمرأة وبعد أن تأكد من أمرهما، أمر بقتل الضابط فقتل، ثم أفرج عن المرأة وأكرمها.. وطلب مني أن (أؤذن) كلما رأيت حادثة من هذا النوع.. وبما أن الخبر شاع بين الضباط والرؤساء فإنهم يهابونني ولهذا كانت لي عليهم السلطة.

نذكر هذه القصة التاريخية كمدخل للحديث عن المسؤولية العامة للمواطنين في الدفاع عن حقوق الإنسان. فنحن في هذه القصة بناءً على وقوعها أمام مواطن عادي، رأى أمامه انتهاكًا لحقوق الإنسان، من قبل موظف كبير في الدولة، استغل موقعه للاعتداء على آخرين، فلم يسمح لهذا المواطن البسيط ضميره أن يسكت على هذه الظلامة، ولم يبرر لنفسه بمحدودية إمكاناته أمام قوة ونفوذ ذلك الضابط، بل اعتصر ذهنه للتفكير في وسيلة ممكنة للدفاع عن حق تلك المرأة الضعيفة وإنقاذها، وهداه الله تعالى بإخلاصه وصدق نيته إلى طريقة مبتكرة فتحت له السبيل للانتصار لأي مظلوم، والدفاع عن كل حق.

وهذا هو الدرس الهام الذي تقدمه لنا هذه القصة: فكل مواطن يجب أن يتحمل مسؤوليته تجاه حقوق الإنسان، لأنها أهم وأقدس قضية تستحق الاهتمام والكفاح. فحقوق الإنسان هي مقومات إنسانيته، وانتهاكها يعني الانتقاص من إنسانيته، والنيل من كرامته التي منحها الله تعالى له.

الدفاع عن الحقوق[1]

غريزة حب الذات التي أودعها الله تعالى في أعماق نفس كل إنسان، تدفعه إلى الدفاع عن حقوقه وحماية مصالحه، فلا يحتاج الإنسان إلى أوامر إلهية تشريعية تحثه على ذلك، لأن وضعه التكويني بما لديه من غرائز وملكات، يبعثه على السعي لنيل حقوقه، والأوامر الدينية في هذا المجال هي من نوع الأوامر الإرشادية حسب اصطلاح علماء الأصول، كما أنها تساعد الإنسان على تخطي العقبات، وتحمل الصعاب التي تعترض طريق الدفاع عن الحقوق.

إن القرآن الكريم يشجّع مَنِ انتهك شيء من حقوقه أن يجهر بالاعتراض وإعلان ظلامته، بما يقتضي ذلك من نيل وتشويه لسمعة الجهة المعتدية، والإساءة إليها، يقول تعالى: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الجَهرَ بِالسُّوَءِ مِنَ القَولِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾.

ومن سعى وتحرك للانتصار لحقوقه، والدفاع عن مصالحه المشروعة، فقد مارس حقه الطبيعي، ولا لوم عليه ولا مؤاخذة له. يقول تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعدَ ظُلمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

وفي صحيح البخاري (حديث رقم٢٤٠١): أن رجلًا كان له دين على رسول الله ﷺ فأتاه يتقاضاه، وأغلظ في مطالبته وحديثه لرسول الله ﷺ، فهمّ به أصحاب

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٠ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ٩ يونيو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣١٧.

رسول الله ﷺ ليردعوه عن سوء أدبه فقال ﷺ: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا».

ولا ينبغي للإنسان أن يتساهل ويفرّط في مصالحه فيقع عليه الحيف من الآخرين، فإنه بذلك لا ينال التقدير من الناس ولا الثواب من الله سبحانه.

والدفاع الواجب عن حقوق الإنسان لا يقف عند حدود المصالح المرتبطة بذات الشخص، بل يعني تحمّل المسؤولية تجاه أي حق إنساني ينتهك، حتى إن الله تعالى يحرّض المؤمنين على القتال من أجل إنقاذ المستضعفين من واقع الاضطهاد، يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُم لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالمُستَضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالوِلدَانِ﴾، قال القرطبي في تفسيره (ج٥، ص١٨٠): «فأوجب الله تعالى الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس، وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هي أهون منها. قال مالك: واجب على الناس أن يفدوا الأسارى بجميع أموالهم. وهذا لا خلاف فيه. قوله تعالى: ﴿وَالمُستَضعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله عزّ وجلّ، أي وفي سبيل المستضعفين فإن خلاص المستضعفين من سبيل الله».

إن السكوت على انتهاك حقوق الآخرين مع القدرة على مساعدتهم يعتبر مشاركة في الظلم، وتكريسًا لواقع فاسد، تشمل مضاعفاته وآثاره الجميع. لذلك يروي ابن عباس عن رسول الله ﷺ: أن الله تعالى يقول: «وعزتي وجلالي لانتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولانتقمن ممن رأى مظلومًا فقدر أن ينصره فلم ينصره»[١].

وروي عنه ﷺ أن الله تعالى قال لنبيه داود عليه السلام «إنه ليس من عبد يعين مظلومًا أو يمشي معه في مظلمته إلا أثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام»[٢].

وأوصى الإمام علي ولديه الحسنين قائلًا: «كونا للظالم خصمًا وللمظلوم عونًا».

---

(١) كنز العمال، حديث ٧٦٤١.

(٢) كنز العمال، حديث ٤٣٤٦٧.

وعن سهل بن حنيف عن النبي ﷺ أنه قال: «من أُذلَ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة»[١].

إن انتهاك حقوق أي فرد أو شريحة من شرائح المجتمع، يجعل مصداقية المجتمع كله على المحك، فسكوتهم على وقوع ذلك الانتهاك، وعدم تحملهم المسؤولية للوقوف أمامه، يهدد مستقبل كرامة المجتمع كله.

وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بما روي عنه: «إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[٢].

الإنسانية لا تتجزأ

حقوق الإنسان ثابتة للإنسان بما هو إنسان وبغض النظر عن أي صفة ثانوية لاحقة، كالجنس أو العرق أو الدين أو النسب.

فقد منح الله تعالى التكريم لبني آدم جميعًا دون تقييد أو تخصيص، قال تعالى: ﴿وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَد خَلَقنَا الإِنسَانَ فِي أَحسَنِ تَقوِيمٍ﴾، وتؤكد آيات القرآن الكريم على أن هدف الشرائع الإلهية إقامة العدل بين الناس وحماية حقوقهم، وليس بين فئة خاصة من الناس فقط، يقول تعالى: ﴿لَقَد أَرسَلنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسنًا﴾.

وتبلغ الآيات التي تتحدث عن هذا العنوان (الناس) ٢٤١ آية في القرآن الكريم، كما تبلغ الآيات التي تتحدث عن عنوان (الإنسان) ٦٥ آية، والتي تتحدث بعنوان (بني آدم) سبع آيات.

وتأكيدًا لاحترام حقوق الإنسان بكل أفراده، جاءت النصوص الدينية التي تحذر

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث ١٦٠٨١.

(٢) كنز العمال، حديث ٥٥٤٣.

من انتهاك حقوق المخالفين في الدين أي غير المسلمين، الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، وفي ذمتها ورعايتها.

كما ورد في سنن أبي داود (حديث: ٣٠٥٢) عن رسول الله ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

ثقافة حقوق الإنسان[1]

إن أول خطوة في طريق إحقاق حقوق الإنسان والدفاع عنها، هي التعريف بتلك الحقوق، ونشر ثقافتها. ذلك أن الكثيرين في مجتمعاتنا لا يعرفون الحقوق التي لهم والتي عليهم تجاه الآخرين، فلا يطالبون بما لهم، ولا يلتزمون بما عليهم، بسبب الجهل وانعدام المعرفة.

إن ثقافة الحقوق ليست جزءًا من نظام حياتنا ومعارفنا على مختلف الصّعد والمستويات، حيث نمارس حياتنا الاجتماعية والسياسية بعفوية واسترسال وخضوع للواقع المعاش، دون التفات إلى ما قد ينطوي عليه هذا الواقع من انتهاكات لحقوق الإنسان وتجاهل لكرامته.

فليس هناك برنامج يتعرف من خلاله الطالب على حقوقه ضمن المؤسسة التعليمية.

وقد لا يطلع الموظف على ضوابط علاقته بدائرة عمله.

وفي الحياة العائلية يقترن الزوجان دون أن يتعرفا على نظام الحقوق في العلاقات الزوجية.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٧ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ١٦ يونيو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٢٤.

وعلى الصعيد السياسي لا يعرف الناس حقوقهم كمواطنين، وفي تعاملهم مع أي مؤسسة من مؤسسات الدولة، لا يطلعون على الأنظمة الخاصة بتلك المؤسسة.

لا شك في أن هناك أنظمة وقوانين لمختلف تلك الجوانب والمؤسسات، بغض النظر عن درجة الكمال أو النقص فيها، لكن المشكلة تكمن في انعدام برامج التوعية والتثقيف في مجتمعاتنا بالقضايا الحقوقية.

أما في المجتمعات المتقدمة فإن الثقافة الحقوقية جزء أساس في مناهج التعليم، وبرامج الإعلام، والتنشئة العائلية، ونظام العلاقات المهنية، وفي صيغة أي تعامل أو تعاقد بين طرفين.

فقلم المرور هناك ـ مثلًا ـ حين يسجّل عليك مخالفة مرورية، يخبرك بالخيارات التي يتيحها لك القانون للتعامل مع الموقف، وحينما تستوقف للاستجواب يطلعونك على حقوقك، وأن بإمكانك أن تطلب كذا وأن ترفض كذا.. ولا ينضم موظف إلى مؤسسة إلا بعد أن يقرأ نظام التعاقد معها ويوقع على البنود الواردة فيه.. وهكذا في مختلف المجالات.

إننا بحاجة إلى جهود كبيرة لنشر ثقافة الحقوق في مجتمعاتنا، بدراسة وثائق حقوق الإنسان، والاطلاع على الأنظمة والقوانين الوطنية، ومعرفة الضوابط والحدود في علاقاتنا الاجتماعية.

وفي ثقافتنا الإسلامية حث واهتمام كبير بحقوق الإنسان ونظام العلاقات الاجتماعية. إن أبواب الفقه الإسلامي زاخرة بالمبادئ والتقنينات للحقوق المتبادلة بين الناس. بين الحاكم ومواطنيه، وبين رب الأسرة وأفراد العائلة، وبين فئات المجتمع مع بعضهم.

لكن هذه الثقافة الإسلامية الحقوقية بحاجة إلى بلورة جديدة، وحسن صياغة وعرض، لتواكب لغة العصر، وتطور المعرفة الإنسانية على هذا الصعيد.

وفي كثير من الأحيان يكون الطرح الحقوقي في خطابنا الديني أحاديًا، حيث يتم التركيز على حقوق طرف وتجاهل حقوق الطرف الآخر، بما يخدم نظام الهيمنة، تحت هاجس الخوف من التمرد، فمثلًا يجري التأكيد على حقوق المعلم دون تبيين حقوق الطالب، والتأكيد على حقوق الوالدين مع إغفال حقوق الولد، وتضخيم حقوق الزوج مع إهمال حقوق الزوجة، والتركيز على حقوق الحاكم على حساب حقوق المحكومين.

وهو أسلوب خاطئ لا يخدم حقوق الإنسان، بل يشجع ويغطي على انتهاكها. بينما نجد في تراثنا الإسلامي أن الإمام علي بن أبي طالب حينما تولى الخلافة، كان في أغلب خطبه وكتبه للولاة على الأمصار، يتحدث بتوازن عن الحقوق المتبادلة بين الحاكم والشعب.

فقد جاء في أوائل خطبه: «أيها الناس إن لي عليكم حقًا، ولكم عليّ حق: فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم».

وحينما أعلن الخوارج معارضتهم له، بادر هو إلى الإقرار بحقوق المعارضة، وتحدث عنها أمام الجمهور. جاء في تاريخ الطبري (ج٤ ص٥٣) أنه: قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل من جانب المسجد: لا حكم إلا لله، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يحكّمون. فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل! أما أن لكم عندنا ثلاثًا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا».

هكذا يعلن الإمام ابتداءً حقوقهم وضمانته لها، فمن الناحية الأمنية لن يتعرض لهم بسوء ما لم يمارسوا العنف، ومن الناحية الاقتصادية لن ينقطع عطاؤهم من بيت المال، وعلى الصعيد الاجتماعي لن يحاصروا ولن يقاطعوا، بل يحضرون جماعة المسلمين.

وفي نفس السياق كتب الإمام علي بن الحسين زين العابدين رسالة الحقوق تحدث فيها عن خمسين حقًا، مراعيًا فيها التقابل والتوازن، حيث عرض لحق الحاكم وحقوق الرعية، وحق الوالدين وحق الولد، وحق المدعي وحق المدعى عليه، وحق المعلم وحق المتعلمين، وحق المسلمين وحق غير المسلمين.. وهي من روائع تراثنا الإسلامي.

العمل من أجل حقوق الإنسان[1]

التقدم الذي أحرزته المجتمعات الأخرى في مجالات حقوق الإنسان، لم يحدث بين عشية وضحاها، ولم يتحقق دفعة واحدة، ولم يأتِ بسهولة ويسر، لقد رزحت تلك الشعوب طويلًا تحت وطأة استبداد الكنيسة الديني، وظلم الإقطاع السياسي، فانبعثت أفكار التحرر والإصلاح من رحم المعاناة الشديدة، واحتاجت مدى من الزمن، وركامًا من الجهود والتضحيات، لتخضر بعدها غصون وثائق حقوق الإنسان، ولتؤتي ثمارها يانعة في ربوع تلك المجتمعات.

وحين تتطلع مجتمعاتنا إلى اللحاق بذلك الركب المتقدم، فإنها بحاجة إلى جهد مكثف، وعمل دؤوب، من أجل تحقيق ذلك التطلع، وفي تراثنا الاسلامي رصيد ضخم من القيم والمفاهيم والتعاليم، التي يمكننا الانطلاق منها بقوة واندفاع، في الوقت الذي نستفيد فيه من تجارب الشعوب والمجتمعات الأخرى، ونتلافى النواقص والثغرات التي نتجت من طبيعة أوضاعها وخصوصياتها. إننا بحاجة الى العمل من أجل حقوق الإنسان على ثلاثة صُعُد:

الأول: على صعيد القوانين والتشريعات: بأن تكون الأنظمة والسياسات المعتمدة منسجمة مع مواثيق حقوق الإنسان الإسلامية والعالمية، وأن يعاد النظر في أي

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٥ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٣ يونيو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٣١.

واقع تنظيمي ينتهك شيئًا من تلك الحقوق، أو يشكل ثغرة لانتهاكها. وهنا يأتي دور المجالس التشريعية، كمجالس الشورى، ومجالس النواب، التي ينبغي أن تتعامل مع موضوع حقوق الإنسان كقضية أساس، وهدف أول، يلقي بظلاله على جميع التقنينات والتشريعات.

والمفكرون ودعاة الإصلاح في الأمة يجب أن يركزوا على أولوية حقوق الإنسان قبل أي شيء آخر.

والمنظمات والجمعيات الحقوقية عليها أن تهتم بملاحظة وملاحقة الأنظمة التقنينية والسياسات المتبعة، ومدى توافقها مع حقوق الإنسان، بدل أن تستغرق في قضايا ومسائل جزئية، هي انعكاس ونتائج لذلك الواقع التقنيني السياسي.

الثاني: على مستوى الأداء التنفيذي لأجهزة الدولة وموظفيها، لأن نسبة كبرى من انتهاكات حقوق الإنسان، تحدث نتيجة ممارسات خاطئة من بعض المسؤولين والموظفين في مؤسسات الدولة، ممن لا يراعون شرف الوظيفة، ويسيئون استغلال مواقعهم ومناصبهم، وقد يستفيدون من بعض الثغرات في القوانين والأنظمة، وهنا لا بدّ من تفعيل مؤسسات الرقابة والتدقيق، وديوان المظالم، ووسائل الإعلام، لتشكل قوة ردع وضغط لحماية حقوق المواطنين.

ولسلبية المواطنين دور كبير في تكريس هذه الحالة، حين يسكتون عليها ويخضعون لها، بينما يجب عليهم أن يكشفوا هذه الحالات أمام ولاة الأمر.

إن شياع بعض الأفكار السلبية يمنع سعي الكثيرين في الدفاع عن حقوقهم، وعرض ظلاماتهم، حيث يتصورون عدم جدوى المطالبة والتشكي، وأن الدولة تعرف عن كل ما يجري، وأن هذا الموظف ظهره قوي، وأن التظلم قد يزيد المشكلة تعقيدًا، ويسبب ضررًا جديدًا.

في مقابل هذه الأفكار السلبية، يجب نشر ثقافة المسؤولية تجاه الوطن والدولة

وحقوق الإنسان، فالمواطن الذي يعترض على الخطأ، ويرفع ظلامته، إنما يخدم مصلحة الدولة والوطن، ذلك أن سوء تصرف أي موظف لا يخدم الدولة بل يضرها ويسيء إليها.

إن البعض يكتفي باجترار الغبن، ويحترف نقد أجهزة الدولة في المجالس، دون أن يقوم بسعي إيجابي لمعالجة الخطأ، وتلك هي صفة السلبيين المتقاعسين عن مسؤولياتهم الدينية والوطنية.

الثالث: فيما يرتبط بالعلاقات الاجتماعية، فهناك خروق وانتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان على المستوى الاجتماعي، في علاقات الناس مع بعضهم، ومن مظاهرها حالات العنف الأسري، في التعامل مع الأولاد والزوجات، حيث يمارس بعض الآباء سلطة وحشية على أبنائه، كما يتعدى بعض الأزواج على الحقوق الإنسانية والشرعية لزوجته، وكذا الحال في التعاطي مع الخدم والموظفين.

وفي العلاقة بين الفئات الاجتماعية يتطلب بذل جهود لحماية حقوق الإنسان على هذا الصعيدن، بنشر الوعي الاجتماعي، والتأكيد على مراعاة مصالح الآخرين واحترام مشاعرهم وخصوصياتهم. وتشكيل لجان ومؤسسات اجتماعية لإصلاح ذات البين، ومعالجة المشاكل والتجاوزات.

وقد تناول الفقيه الشيخ المنتظري في بحوثه الفقهية الجديدة عمومية النصوص الدينية التي تتحدث عن حقوق الإنسان، لكل بني البشر، وعدم اختصاصها بالمؤمنين أو المسلمين فقط.

فهو يناقش مثلًا ما ذهب إليه أكثر الفقهاء، من أن: حرمة السب والغيبة، التي تمثل انتهاكًا للحقوق المعنوية خاصة بالمؤمن فقط، فيقول: إن ظلم الناس غير جائز بحكم العقل وبحكم الكتاب والسنة أيضًا، نحن نعتقد أن القرآن إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فهو يقصد أن بني آدم مكرمون لأنهم بنو آدم. فحينما يقال حقوق الإنسان، معنى ذلك أن للإنسان شرفه وكرامته بما هو إنسان حتى لو كان كافرًا، لأن الإنسان محترم

بذاته عند الله وهذا صريح معنى الآية، ويقول علي في عهده لمالك الأشتر: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أونظير لك في الخلق» وبالتالي فإن للإنسان حرمته بما هو إنسان. إن السب حرام وعلى المؤمن أشدّ حرمة، ربما اعتبروا روايات تحريم السب خاصة بالمؤمنين لأن ذلك هوالقدر المتيقن. إن تشديد الروايات على المؤمن ربما كان لإثارة المشاعر، حيث يقال: إن هذا الشخص مؤمن ومقتضى ذلك أن بعض التهم لا تنطبق عليه.

وفي حرمة السب يمكن كذلك اعتماد الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[سورة الحجرات، الآية: ١١]، وليس فيها قيد المؤمن والمسلم. يقول الله إنه يكره اختلاق الألقاب السيئة. ويقول أيضًا: ﴿لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ولا يقيد ذلك باعتناقهم الاسلام؛ لأن الله أراد أساسًا أن تكون العلاقات الاجتماعية سليمة ولا يخاطب الناس بعضهم بعضًا بالسوء، إنه حكم يشمل غير المسلمين أيضًا. السب مذموم عند الله في نفسه، سواء كان ضد مؤمن أو ضد غير المؤمن.

الخطاب الإسلامي والانتماء للعصر[1]

وتفجرت ينابيع المعرفة أمام إنسان هذا العصر، وتدفق عليه سيل المعلومات من كل الاتجاهات وعن كل الأشياء.

أوشكت الأمية على الانقراض، فبعد أن كان القادرون على القراءة والكتابة في سالف الزمان عددًا قليلًا من الناس، يعدون على الأصابع في كل مجتمع من المجتمعات، أصبحت الأمية نسبة ضئيلة تتقلص كل عام وعلى مستوى العالم.

وحتى من يفقدون السمع والبصر أتيحت لهم فرص التعلم، وتوافرت لهم وسائل الخلاص من الأمية. وانفتحت آفاق علوم الأرض والسماء أمام أبناء البشر، من مختلف الأعراق والألوان والأصقاع والشرائح والطبقات، ولم يعد العلم حكرًا على نخبة من أبناء السلاطين والأثرياء الارستقراطيين.

وأصبح العالم بأحداثه وتطوراته حاضرًا أمام الإنسان، وهو مضطجع على سرير نومه، أو متكىء على أريكته، يشاهد كل خبر أو حدث هام لحظة وقوعه، بالصورة الملونة، والصوت الواضح بأي لغة يتقنها.

أما الحاسب الآلي، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت) فهي العصا السحرية المتاحة

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ٣٠ يونيو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٣٨.

لكل إنسان في هذا العصر، ليستحضر بها أي معلومة يريدها، وأي فكرة يبحث عنها، وبها يفتح كل أبواب خزائن العلم والمعرفة، في مختلف المجالات والتخصصات، وقد بلغ عدد مستخدمي الإنترنت في العالم لعام ٢٠٠٣م (٦٢٢,٩ مليون إنسان) ويتوقع أن يصل إلى (٧٠٩,١ مليون) في هذا العام.

قبل سنوات قرأت في أحد التقارير: إن العالم أنتج من المعلومات خلال الثلاثين سنة الماضية، ما يزيد على الذي تم إنتاجه في الخمسة الآف سنة السابقة.

ونسخة واحدة من عدد لأحد لصحيفة (نيويورك تايمز) تحتوي على المعلومات التي يمكن أن يكتبها أوروبي في القرن السابع عشر طيلة حياته. وكل يوم هناك نحو عشرين مليون كلمة، تنتج بواسطة الوسائل الإعلامية والمعلوماتية المختلفة.

والقارىء الذي يستطيع أن يقرأ ألف كلمة في الدقيقة، سيستغرق شهرًا ونصف الشهر لقراءة إنتاج يوم واحد فقط. وفي نهاية هذه المدة سيتكدس لديه ما يحتاج إلى خمس سنوات ونصف السنة من القراءة.

وقبل سنتين أشارت أرقام اليونسكو واتحاد الناشرين الدولي إلى أن العالم يصدر فيه سنويًا حوالي مليون وربع المليون عنوان من الكتب، وحوالي نصف المليون دورية مطبوعة، وحوالي خمسة ملايين تقرير علمي وفني، وحوالي ربع المليون رسالة ماجستير ودكتوراه، وربع المليون كتاب ودورية إليكترونية.

في هذا العصر الذي تزدحم أمام إنسانه الأفكار، وتتراكم المعارف وتتوالى المعلومات، كيف يمكن للخطاب الديني أن يشق طريقه إلى عقل هذا الإنسان المعاصر؟

وكيف يرقى إلى مستوى المنافسة والتحدي؟

إن أول شرط تأهيلي لمقبولية الخطاب الديني، يكمن في انتمائه لهذا العصر الحاضر، بأن يستخدم لغته، ويعيش قضاياه واهتماماته، ويستفيد من وسائله وتقنياته.

إن تقدم العلم وتطور المعرفة ويسر تداول المعلومات وانتشارها، ليس مشكلة ولا عامل تحدٍّ سلبي أمام الخطاب الإسلامي بل هو في الواقع مكسب عظيم للإنسانية، وداعم لحقائق الدين، المنسجمة مع الفطرة، المتوافقة مع سنن الله تعالى في الطبيعة والحياة.

فالجهل هو العائق الأكبر أمام إهتداء الإنسان للدين، وهو سبب إنحداره إلى مهاوي الكفر والشرك والضلال، لذلك يستعيذ المؤمن بالله تعالى من الجهل: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ويحذر الله تعالى نبيه من مستوى التفكير الهابط للجهلاء يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

أما العلم فهو طريق الإيمان والهدى واكتشاف الحق، يقول تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾.

تأسيسًا على هذه الحقيقة فإن التقدم العلمي يخدم المبادىء الدينية، ويجعل الناس أكثر تهيؤًا لقبولها والتفاعل معها، كما أن تطور وسائل المعرفة يتيح أفضل الفرص لعرض قيم الإسلام، وإيصال صوته إلى المسامع والعقول.

وفي المجتمع عدد وافر من الأخصائيين والمتخصصين يمكن استشارتهم والاستفادة من آرائهم لمعالجة القضايا المرتبطة بتخصصاتهم.

إن ضعف الأعداد والتحضير للخطاب يجعل المعالجة فيه سطحية بسيطة، كما أن هندسة الموضوع ومنهجية الطرح، تصبح مرتبكة أو غير متقنة.

بينما يكون الخطيب المجتهد في الإعداد والتحضير مهيمنًا على موضوع بحثه، منسقا لنقاطه وافكاره مشبعًا له بالأدلة والشواهد المؤثرة، مما يجعله أكثر فائدة وأقدر على الإقناع والتأثير.

أولًا: باختيار مواضيعها من خلال معايشة هموم المجتمع ومتابعة قضايا العصر.

ثانيًا: بالاجتهاد في بحث كل موضوع من خلال المصادر المتوافرة من الكتب والصحف والمجلات ومواقع الإنترنت.

ثالثًا: باستشارة ذوي التخصصات في المواضيع التي تتطلب.

رابعًا: بذل الجهد في منهجية البحث، واختيار أفضل الأساليب والعبارات المناسبة.

الخطاب الديني من أجل التنمية والبناء[1]

يتوفر الخطاب الإسلامي المعاصر في معظمه على لونين من الاهتمامات:

الاهتمام الأول المتمثل في عرض المعتقدات والأحكام والأخلاقيات، والاهتمام الجهادي الذي يعبأ باتجاه مقاومة الأعداء الخارجيين والداخليين، ودفع أبناء الأمة للبراءة منهم ومواجهتهم.

وقد تشكلت لكل من الاتجاهين ثقافة واسعة، مليئة بالاستشهادات من نصوص الكتاب والسنة، وأقوال السلف، وبالمصطلحات العلمية والفكرية، وبالشواهد التاريخية، والخبرات والتجارب المستجدة.

ولكل من الاتجاهين قنوات تواصل مع الجمهور عبر الوسائل المسموعة والمطبوعة، وبالاستفادة من تطورات التكنولوجيا الحديثة في مجال الإعلام والاتصالات.

بالتأكيد فإن هذين الاتجاهين نابعان من صميم المعرفة والتشريع الإسلامي، ولا يمكن الاستغناء عنهما ولا تجاهلهما في حياة الأمة. بيد أن هناك اهتمامًا آخر يبدو أنه مغيب أو مهمّش في الخطاب الديني المعاصر، مع شدّة الحاجة إليه، وهو الاهتمام بجانب التنمية والبناء.

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ٧ يوليو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٤٥.

فمجتمعاتنا الإسلامية تواجه تحديات عميقة على صعيد تسيير أمور حياتها، وحفظ مصالحها، وإنتظام علاقاتها الداخلية والخارجية، وتحتاج إلى الكثير من المعارف والخطط والبرامج لمواجهة هذه التحديات.

إن توفر العقيدة الصحيحة، وأداء العبادات المشروعة المطلوبة، والبراءة من أعداء الله، كل ذلك وحده لا يحقق مقاصد الشريعة، في إقامة العدل والقسط، الذي نصت عليه الآية الكريمة: ﴿لَقَد أَرسَلنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسطِ﴾، وفي بناء الحياة الطيبة التي تحدثت عنها الآية الكريمة: ﴿مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، وفي تقديم النموذج الحضاري الأفضل للمجتمعات البشرية، الذي تشير إليه أكثر من آية في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾.

إن هذه المقاصد والأهداف وأمثالها لا تتحقق إلا عبر برامج ومناهج لتنظيم مختلف شؤون الحياة. وحينما لا تتوفر هذه المناهج في إطار عقيدة الأمة وشريعتها، فإن البديل هو الاستعارة من حضارات الآخرين، والتخلف والجمود.

وهذا هو بالضبط ما تعانيه أكثر مجتمعاتنا الإسلامية، وأول خطوة في تجاوز هذه المعاناة، هي الاجتهاد في بلورة برامج الإسلام ومناهجه، لصياغة حياة المجتمع، وبناء علاقاته الداخلية، وتحفيز قدرات أبنائه على الفاعلية والإنتاج، ورسم خطط التنمية في أبعاد الحياة المختلفة.

ومن أبرز ما يجب أن يركز عليه الخطاب الديني في مجتمعنا ما يلي:

١. رفع مستوى التعليم: فهناك تدنٍّ ملحوظ في اهتمام الشباب بالدراسة والتعليم، وهذا ما تشكو منه الوزارة وإدارات التعليم والعوائل، ومع أن هناك عوامل عدة لهذه الحالة، إلا أن مدى جدية الطالب واهتمامه هي العامل الأهم، فنحتاج إلى تعبئة شعبية لرفع مستوى الاهتمام الدراسي، وتشجيع الأبناء على الاستمرار

لمواصلة الدراسات العليا، ودعوة أهل الخير لتبني المشاريع التعليمية كبناء المدارس وإنشاء الجامعات الأهلية، وابتعاث الطلاب للدراسات التخصصية.

فذلك هو من أفضل سبل خدمة الدين والأمة في هذا العصر، ومن أبرز مصاديق العمل في سبيل الله، وليس بناء المساجد أو طبع الكتب الدينية أو مساعدة المحتاجين فقط.

إننا نريد أن يظهر أثر خطب الجمعة على المستوى التعليمي لأبنائنا بمعنى أن يخرج الطالب من صلاة الجمعة وهو أكثر حماسًا لدراسته واجتهادًا فيها.

٢. التحريض على الفاعلية والعمل في مختلف ميادين الحياة، إن مختلف أجهزة الدولة، والشركات الخاصة تشكو من ضعف التزام بعض الموظفين والعاملين بأداء واجباتهم الوظيفية، فيجب أن نثير عند كل موظف وعامل الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى ثم تجاه الشعب والوطن، ليكون أكثر انضباطًا وأفضل أداءً وإنجازا.

إن التساهل في أداء العمل الوظيفي لا يقل إثمًا عن التساهل في أداء الصلاة وسائر العبادات الدينية، بل قد تكون تبعاته أسوأ أثرًا في حياة المجتمع.

فتساهل الطبيب أو الممرّض قد يؤدي بحياة إنسان، وتساهل أي موظف في جهاز حساس قد يضيع مصالح الوطن والمواطنين.

٣. التأكيد على وحدة المجتمع وسلامة العلاقات الداخلية بين أبناء الأمة، فقد أثخنت جسم الأمة جراحات التفرقة والخلافات، وبمختلف العناوين الدينية والقومية والقبلية والفئوية، فيجب مكافحة توجهات التحريض والتعبئة بين كل الأطراف، والدعوة إلى التعايش والتحاور والتعاون، بما يعني ذلك من قبول التعددية واحترام الرأي الآخر، والاهتمام بالمصالح المشتركة.

الفصل الثالث

من هموم السياسة

أمريكا وصدام الحضارات[1]

يبدو أن العقلية السياسية في أمريكا مبرمجة على أساس التصدي والمواجهة لعدو ما على مستوى العالم، لتكون هذه المواجهة شعارًا وإطارًا للتعبئة والحشد داخليًا ودوليًا، كما توفر مبررًا وغطاءً لممارسة الهيمنة وفرض الزعامة والنفوذ العسكري والسياسي على العالم.

فبعد الحرب العالمية الثانية وانتهاء خطر النازية، ظهرت كتابات داخل أمريكا من دوائر التخطيط السياسي، تهيىء الرأي العام لمواجهة عدو جديد بعد النازية، وهو الشيوعية، وكان «جورج كينان» الدبلوماسي والأستاذ الجامعي الأمريكي، هو الذي وضع نظرية احتواء الشيوعية، وتنبأ بأن القضاء على النازية ليس هو نهاية المشاكل العالمية، وأن الشيوعية ستصبح الخطر الجديد، وأنها ستهدد الغرب، ولا بدّ من احتوائها بتأسيس أحلاف عسكرية تحيط بالاتحاد السوفيتي، ووضع خطط لمنع نتشار الشيوعية في الدول الغربية ودول العالم الثالث.

وكانت المواجهة مع المعسكر الشرقي، ومحاربة النفوذ الشيوعي، هي مبرر سباق التسلح الذي خاضته أمريكا مع الاتحاد السوفيتي، وهي محور الزعامة الأمريكية للغرب أو ما أطلق عليه العالم الحرّ، وكانت إطارًا وعنوانًا لفلك الهيمنة والسيطرة الأمريكية على العالم عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١١ صفر ١٤٢٣هـ، ٢٤ ابريل ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٤٠.

وبعد سقوط الشيوعية، كان لا بد من البحث عن عدو جديد لأمريكا والغرب، وهنا جاء طرح «صامويل هنتنغتون» الأستاذ بجامعة هارفارد، والقريب من دوائر مراكز القرار السياسي في أمريكا، حول «صدام الحضارات» الذي نشره عام ١٩٩٣م في دورية «فورين» وهي مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية، ثم وسّعه وعمقه ونشره على هيئة كتاب سنة ١٩٩٧م بعنوان «صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي».

ويؤكد هذا الطرح أن القضاء على الشيوعية ليس نهاية المشاكل العالمية، وأن حضارات العالم الثالث وفي مقدمتها الإسلام ستشكل الخطر الجديد على الحضارة الغربية.

هذه النظرية وأمثالها تلعب دور التحضير والتهيئة للمعركة التي تريد أمريكا قيادة الغرب والعالم نحوها ضد الإسلام والأمة الإسلامية. ويعترف «هنتنغتون» نفسه بأن من طبيعة الغرب افتعال معارك الصراع والصدام مع الحضارات والأمم الأخرى، فيقول: «ابتداءً من سنة ١٥٠٠م بدأ التوسع الضخم للغرب مع جميع الحضارات الأخرى، وقد تمكن الغرب أثناء ذلك من الهيمنة على أغلب الحضارات وإخضاعها لسلطته الاستعمارية، وفي بعض الحالات دمر الغرب تلك الحضارات»

لقد وقع اختيارهم على الإسلام كعدوٍّ جديد يعبئون قواهم وطاقاتهم ضده، ويهيمنون على العالم باسم مواجهته، تحت شعار مكافحة الإرهاب، ذلك لأن الإسلام يحمل قيمًا حضارية تنافس الطروحات الغربية، ولأن هناك انبعاثًا في أوساط المسلمين، وإقبالًا على الإسلام في داخل أمريكا والبلدان الأوربية..

وتستهدف هذه المواجهة تعويق نهضة الأمة، وتحديد انتشار الإسلام، وإبقاء العالم الثالث تحت الهيمنة، والحفاظ على مركز الزعامة العالمية للأمريكيين.

وجاءت أحداث ١١ سبتمبر إيذانًا بدخول المعركة إلى مرحلتها التنفيذية، وإعلانًا لبدء الحملة السافرة الشاملة على الإسلام والمسلمين، ولا يزال غموض كثير يلف ذلك الحدث العجيب في ١١ سبتمبر، ويلقي بظلال من الشك حول الجهة التي قامت به، وسوء استخدام الأمريكيين لتلك الأحداث، وإفراطهم في استغلالها يؤكد تلك الشكوك ويضع الكثير من علامات الاستفهام.

من برنامج الصدام

وماذا تفعل أمريكا الآن؟

١. إنها تقود حملة عالمية للتعبئة ضد الإسلام والمسلمين تحت شعار مكافحة الإرهاب، ومن مظاهر تلك الحملة التصريحات المسيئة التي صدرت من قبل العديد من المسؤولين الأمريكيين والغربيين، وكذلك الكتابات الصحفية التحريضية على الإسلام والمسلمين، حتى دعى رئيس تحرير إحدى المجلات الواسعة الانتشار في أمريكا إلى ضرب مكة المكرمة بالقنبلة النووية، وأصبح كل عربي ومسلم في موقع الشبهة والاتهام.

فقد نشرت مجلة (ناشيونال ريفيو) **(National review)** المعبرة عن صوت الاتجاه السياسي المحافظ في أمريكا، مقالة لمحررها « ريتش لوري» اقترح فيها ضرب مكة بقنبلة نووية، لتكون بمنزلة إرسال إشارة للمسلمين.

وأضاف في مقالته: « إن مكة متطرفة بالطبع، بالطبع، ومن ثم قد يموت بعض الناس ولكن ذلك سوف يرسل إشارة»، وأشار « لوري» إلى عامل الردع النفسي الذي سيساور المسلمين الراديكاليين إذا علموا أن الأميريكيين شديدو الغضب لدرجة قد تدفعهم إلى تحويل مدينتهم المقدسة إلى تلال من الحطام.

٢. وتسعى لفرض وجودها العسكري والأمني على العديد من البلدان العربية والإسلامية. كما هو الحال في أفغانستان وباكستان واليمن والصومال.. ومحاولات ضرب العراق وتهديد إيران.

٣. إطلاق العنان للإجرام الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني، فمع كل مايقوم به شارون من مجازر جماعية وحرب إبادة وتدمير، في الأراضي الفلسطينية، إلا أن الإدارة الأمريكية تواصل دعمها السياسي له، وتمنع حتى صدور قرار برقابة دولية من قبل مجلس الأمن، قد تحدّ من حرية الإجرام الإسرائيلي، وتبرر كل الفظائع والمجازر التي ترتكبها إسرائيل بأنها دفاع عن النفس، ومقاومة للإرهاب.

والهدف الأمريكي من كل ذلك، هو الحفاظ على وجود إسرائيل وتفوقها العسكري على دول المنطقة، وكسر روح الصمود والتحدي الفلسطيني والإسلامي، ولكي ترفع الشعوب الإسلامية راية العجز والإستسلام أمام الصهاينة والأمريكيين.

٤. تضييق الخناق على المؤسسات الإسلامية بإدراجها في قوائم الجهات الإرهابية، لشل حركتها وتجميد أموالها.

إن من أهم إنجازات الصحوة الإسلامية المعاصرة، قيام مؤسسات ناجحة في مجال العمل الخيري والثقافي والاقتصادي، بدأت في تطوير تجربتها وتوسيع نطاق عملها على المستوى العالمي، مما يوّفر لها الخبرة والكفاءة، وتنمية قدراتها في الاستثمار والتنمية، ويعطي المصداقية لطروحاتها وأفكارها.

ويبدو أن ذلك يزعج الأمريكيين، فهم لا يريدون للإسلام أن يطرح بهذه الطريقة، ولا أن يعمل دعاته بهذا الأسلوب، من هنا تقع هذه المؤسسات ضمن دائرة الاستهداف الأمريكي في هذه المرحلة.

٥. الضغط على الدول الإسلامية لإلغاء وإضعاف مناهج التعليم الديني بحجة أنها تغذي التطرف.

بالطبع لا يمكن إنكار حاجة مناهج التعليم بشكل عام والتعليم الديني بشكل خاص إلى التطوير والإصلاح، فتطورات الحياة المعاصرة، تطرح تحديات بالغة تجاه الفكر والثقافة والنظام الأخلاقي للمجتمع.

وطالما دعا المصلحون الواعون، والعلماء والمثقفون المتنورون لمراجعة هذه المناهج، على قاعدة التمسك بالأصالة الدينية، وحفظ ثوابت القيم والمبادئ، مع تطوير الآليات والبرامج، وأساليب العرض، وجدولة الأولويات.

في مواجهة الحملات والضغوط[1]

كان متوقعًا أن تشتد الضغوط السياسية والإعلامية ضد المملكة العربية السعودية في هذا الظرف العصيب من تاريخ الأمة، ومع التغيرات التي يشهدها عالم ما بعد ١١ سبتمبر. ذلك أن القضية الفلسطينية تدخل مرحلة فاصلة حاسمة، فلأول مرة تصبح إسرائيل في مواجهة مباشرة شاملة مع الشعب الفلسطيني، بعد أن كانت تخوض المعارك مع دول الجوار، لتبتزهم باحتلال أجزاء من أراضيهم، ولتكون المعركة خارجها وعلى أراضِ الدول العربية..

أما الآن فالمعركة في الداخل وعلى الأراضي الفلسطينية التي تريد مصادرتها واغتصابها، والمواجهة ليس مع جيوش الدول المجاورة، وإنما مع أطفال فلسطين وشبابها ونسائها وكهولها وشيوخها، مما يعني صعوبة الخيارات أمام اسرائيل، مع إمتلاكها لقوة ضخمة هائلة، لكن إستخدام هذه القوة بدرجاتها القصوى يكلف إسرائيل ثمنًا غاليًا سياسيًا وإعلاميًا وأمنيًا.

وهنا يبرز دور المملكة العربية السعودية في أنها الجهة المرشحة لمحاولة التأثير على القرار الأمريكي تجاه القضية الفلسطينية. لدفعه نحو الحيادية، والموقف العادل، أو لتقليل انحيازه بالمقدار الممكن. ما دامت أمريكا في موقع الراعي للعملية السلمية

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٢ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ٣ يوليو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦١٠.

في الشرق الأوسط كما يفترض.

وقد تابع العالم زيارة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز لأمريكا باهتمام بالغ، ولاحظ الجميع تأثيرات لقاءاته مع الإدارة الأمريكية، وذلك هو ما يغضب إسرائيل ويزيد في حنقها وغضبها على الدور السعودي، فلا بدّ وأن تنشط الجهات المؤيدة لإسرائيل وهي كثيرة داخل أمريكا و في أوروبا، لتعرقل محاولات السعودية وجهودها في التأثير على القرار الأمريكي لصالح القضية الفلسطينية والعملية السلمية في المنطقة.

فانطلقت هذه الحملات المسعورة، لإشغال المملكة عن دورها الأساس، ولتعويق حركتها في ساحة القرار الأمريكي، ولكي تدفعها للتراجع أو الحدّ من دعمها لصمود الشعب الفلسطيني.

من هذا المنطلق فإن الرد الحقيقي على هذه الحملات ليس بالانشغال بها، ولا بالوقوع تحت تأثيراتها، وإنما بمضاعفة الجهد، وزيادة الإصرار، وتكثيف المساعي، لدعم الموقف الفلسطيني العربي المشروع، وللدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال، وتصليب قدراته وتعزيز صموده.

ومن أهم ساحات الدعم للقضية الفلسطينية هي ساحة القرار الأمريكي، والمملكة هي الجهة الأقدر والأكثر تأثيرًا على هذه الساحة من بين الدول العربية والإسلامية الأخرى، لما تمثله من ثقل دولي، ولما تتمتع به من علاقات قديمة وثيقة مع الجانب الأمريكي.

من جانب آخر، فإن الحملة على الإرهاب تستغل الآن غطاء وستارًا لحملة على الإسلام، تتنكر لحضارته، وتشوه مبادئه وتعاليمه، وتعبىء ضد رموزه وشعوبه. وما دامت الحملة تستهدف الإسلام والمسلمين، فلا بدّ وأن يكون للمملكة منها النصيب الأوفر، لموقعيتها الأبرز، ولدورها القيادي الواضح.

إنها الدولة الأكثر احتضانًا للنشاط الديني العالمي، فمن جامعاتها تخرج الدعاة المنتشرون في بقاع العالم، وهي التي ترعى المؤسسات والمراكز الإسلامية في كل مكان.

فلا بدّ وأن تكون هي المسؤولة ـ حسب زعمهم ـ عن كل التوجهات التي يعتبرها الغرب متطرفة وإرهابية.

في مواجهة هذ البعد من الضغوط والحملات التي تستهدف المملكة، لا بدّ من التأكيد على نهج الاعتدال والتسامح الاسلامي، فالإسلام شريعة سمحاء كما قال النبي محمد ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحاء»، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

إننا لا يمكن أن ننكر ونتجاهل وجود جهات وجماعات تنتسب للإسلام، وتتبنى أفكارًا متزمتة، وتوجهات متطرفة، لكن لا يصح أن يؤاخذ الدين كله والأمة كلها بجريرة هذه الفئات التي لا تخلو ساحات الأمم والأديان من أمثالها، فالإرهاب والتطرف ليس له دين أو هوية.

ففي داخل أمريكا وأوروبا توجد جماعات دينية متطرفة يهودية ونصرانية.

والمملكة بتبنيها لنهج الاعتدال وتأكيدها على ثقافة التسامح واحترام حقوق الإنسان، تفضح كل الحملات المغرضة والحاقدة، وقد كان لمؤتمر حوار الحضارات الذي انعقد في مكتبة الملك عبدالعزيز تحت رعاية ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، صدى كبيرُ في الأوساط الثقافية العالمية، حيث شارك فيه علماء ومفكرون من مختلف البلدان والأديان والتوجهات، لتأكيد قيمة الحوار كلغة تخاطب وتعامل في ساحة الاختلاف بين أبناء البشر، ولإقرار مبدأ الاحترام المتبادل لحق الإنسان في اختياراته الدينية والفكرية، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

وقد عانت المملكة نفسها كثيرًا من التوجهات المتطرفة، فليس هناك داعٍ لكي تكون المملكة في موقع الدفاع ورد الاتهام؛ لأن تبني نهج الإعتدال، وتأكيد منحى التسامح، هو الجواب الأقوى، وهو الأسلوب الأمثل.

الاستقرار والأمن[1]

لا يناقش أحد في أهمية السلم الإجتماعي وضرورته، ولو أجري استبيان أو استفتاء عام في أي مجتمع بشري، لما صوت أحد لصالح الاحتراب والنزاع الداخلي.

لكن السلم الاجتماعي له مقومات وأركـان لا يتحقق إلا بتوافرها وللفتن والصراعات أسباب وعوامل لا تدرأ إلا بتجنبها.

فالمسألة ليست في حدود الرغبة والشعار، أو في وجود القناعة النظرية، بل ترتبط بواقع حياة المجتمع، وشكل العلاقات الحاكمة بين قواه وفئاته.

ولعل من أهم مقومات السلم الاجتماعي الأمور التالية:

السلطة والنظام

حيث لا يستغني أي مجتمع بشري عن سلطة حاكمة ونظام سائد، يتحمل إدارة شؤون المجتمع وتعمل القوى المختلفة تحت سقف هيبته، وإلا كان البديل هو الفوضى وتصارع القوى والإرادات.

جاء في لسان العرب: قوم فوضى: مختلطون، وقيل: هم الذين لا أمير لهم ولا من

(١) جريدة اليوم، الاربعاء ١٧ شعبان ١٤٢٣هـ، ٢٣ كتوبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٢٢.

يجمعهم، قال الأفوه الأودي:

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ولما سمع الإمام علي عليه السلام قول الخوارج «لا حكم إلا لله» قال:« كلمة حق يراد بها باطل! نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر».

ونقل هذا النص عن الإمام علي عليه السلام (المتقي الهندي في كنز العمال) ص ٧٥١ من الجزء ٥ حديث رقم ١٤٢٨٦ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، وأورده الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة في (الكتاب المصنف) ص ٣١٥ ج١٥ حديث رقم ١٩٧٥٣.

لقد كان من سمات حياة العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام، غياب السلطة المركزية، حيث كانوا يعيشون وضعًا قبليًا تسوده النزاعات وتكثر فيه الحروب، ولا يخضع لنظام أو قانون، إلا بعض التقاليد والأعراف التي لا تصمد أمام نوازع الشّر، وغرور القوة وبسبب ذلك لم يكن لهم كيان ولا شأن بين الأمم، وحينما جاء الإسلام استوعب تلك القبائل المتناحرة، ووحدها تحت لوائه، وصنع منها أمة متماسكة لم تلبث ان أخذت بأزمة قيادة العالم.

يقول تعالى مذكرًا بهذا الإنجاز الإيماني العظيم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ولمواجهة آثار ورواسب حياة الجاهلية السابقة للإسلام، أكدت تعاليم الدين وتشريعاته أهمية النظام والقيادة في المجتمع، وألا يعيش الإنسان خارج هذا الإطار. جاء في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

ولعل في الحديث إشارة إلى أن عدم وجود نظام حكم وسلطة مركزية، هو سمة من سمات المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، فمن تبنى هذا التوجه فهو يشكل امتدادًا للوضع الجاهلي.

من هنا اتفق علماء المسلمين ـ إلا من شذَّ منهم ـ على أن الإمامة في الأمة أمر واجب، وان اختلفوا في مصدر الوجوب، هل هو العقل أو الشرع؟

قال الماوردي (توفي ٤٥٠هـ) في الأحكام السلطانية واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة: وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، لولا الولاة لكانوا فوضويين مهملين، وهمجًا مضاعين.. وقالت طائفة أخرى: بل وجبت بالشرع دون العقل؛ لأن الإمام يقوم بأمور شرعية.

بل يربى الإسلام أبناءه على النظام حتى في تجمعاتهم الصغيرة، فقد جاء في سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»، ومثله عن أبي هريرة، وعلى الصعيد العائلي فقد جعل الإسلام قيادة العائلة بيد الزوج تأكيدًا لمنهجيته في النظام والقيادة.

ومن واقع التجربة رأينا كيف عانت الشعوب التي افتقدت سلطة الدولة، وأصبحت نهبًا لمطامع المليشيات والأحزاب المتصارعة على السلطة والحكم، كما حدث في لبنان والصومال وأفغانستان فلا يمكن الحديث عن سلم اجتماعي في حال غياب الدولة بل هو الفتنة والاضطراب والدمار.

العدل والمساواة

المجتمع الذي يتساوى الناس فيه أمام القانون، وينال كل ذي حق حقه، هذا المجتمع تقل فيه دوافع العدوان، وأسباب الخصومة والنزاع، أما إذا ضعف سلطان العدالة، وحدثت ممارسات الظلم والجور. فهنا لا يمكن التوافر على سلم اجتماعي،

من هنا جاء تأكيد الإسلام على ضرورة العدل وأهميته في حياة البشر، واعتبره هدفًا أساسًا لبعثة الأنبياء وإنزال الشرائع الإلهية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ والقسط هو العدل. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ويصور لنا الحديث الذي أورده البخاري في صحيحه تحت رقم ٢٥٨٧ مدى اهتمام الرسول ﷺ بتربية أصحابه على التزام العدل والمساواة بين أولادهم حتى لا يكون التمييز بين الأبناء سببًا للعداوة والضغائن فيما بينهم.

يقول الحديث الذي رواه حصين عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن اشهدك يا رسول الله، قال ﷺ: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا. قال ﷺ: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». قال فرجع وردت عطيته. وجاء في طرف آخر من الحديث نفسه تحت رقم ٢٦٥٠ في صحيح البخاري انه ﷺ قال: لا تشهدني على جور. ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل له أبنان فقبل أحدهما وترك الآخر فقال له النبي ﷺ: «فهلا واسيت بينهما».

ومبادىء الإسلام وشرائعه العظيمة تقدم النموذج الأرقى للتعايش بين الناس على إختلاف هوياتهم وانتماءاتهم، على أساس العدل والمساواة، وضمان الحقوق والمصالح المشروعة للجميع.

ففي السنة الأولى لتأسيس المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، وضع الرسول ما عرف بصحيفة المدينة التي ذكرتها كتب السيرة النبوية الشريفة وأشار اليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب في مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ١٠٠ من طبعة مؤسسة دار الكتاب السعودي في الرياض.

وقد تضمنت هذه الصحيفة الاعتراف بمواطنة غير المسلمين وعضويتهم في تكوين المجتمع الجديد، وحددت الواجبات التي عليهم والحقوق التي لهم، شأنهم في ذلك شأن المواطنين المسلمين.

تقول إحدى فقرات تلك الصحيفة التي أملاها الرسول ﷺ وأمضاها: وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم (... وفي فقرة أخرى): وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. ويمكن مراجعتها في السيرة النبوية لابن هشام.

وشبيه لها ما كتبه الرسول ﷺ لنصارى نجران، أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم، ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفيه، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حقًا من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيئًا مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين، ويكفي ما روى عن الرسول ﷺ أنه قال: «من آذى ذميًا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله» رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

وفي حديث آخر: «من ظلم معاهدًا أو إنتقصه حقًا، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة» رواه أبو داوود والبيهقي. هكذا يرعى الإسلام حقوق ومصالح من ينتمي إلى دين آخر ويعيش في كنف المجتمع الإسلامي.

بهذه المقومات يتجذر السلم في المجتمع، وتوصد أبواب الفتن والنزاع، وإذا حصلت بادرة من بوادر الشر أمكن تطويقها ومحاصرتها، وهبّ الجميع لمقاومتها.

عن الموقف من الإرهاب[1]

ليس هناك شرع أو عقل يقرّ الإرهاب أو يقبل به، والإسلام كدين أنزله الله تعالى رحمة للعالمين، جعل السلم والسلام شعارًا له، وعنوانًا لرسالته، فالتحية التي يلقيها المسلم على من يلقاه هي: السلام عليكم والقرآن يدعو جميع المؤمنين به إلى الالتزام بالسلم والسلام، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾.

إن مقياس الإيمان ـ حسب النصوص الإسلامية ـ هو احترام حقوق الناس المادية والمعنوية، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[2].

ويعتبر الإسلام أن الإعتداء على شخص بريء بمنزلة إعلان حرب على الإنسانية كلها، يقول تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وحتى في حالة الحرب والجهاد والذي شرعه الاسلام للدفاع وردع المعتدي يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

فالجهاد للدفاع، ولا يصح مقاتلة مسالمين لم يقوموا بأي عدوان. في حالة الحرب

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٦ ذو القعدة ١٤٢٣هـ، ٢٩ يناير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٢٠.

(٢) سنن النسائي، ج٨، ص١٠٥.

المشروعة يضع الإسلام الحدود والضوابط، ويؤكد الآداب والأخلاقيات الإنسانية التي تحمي الأبرياء والمدنيين العزلّ، يروي أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وصيته لجيش الجهاد الإسلامي قائلًا: «انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»(١).

وعن عبد الله بن عمر أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان(٢).

واستثنى الفقهاء عشر طوائف أن يقتلوا في الحرب، بناء على نهي النصوص الدينية عن ذلك، قالوا: لا يقتل في الحرب عشر طوائف: الشيخ الفاني، والمرأة، والطفل قبل البلوغ، والمقعد، والأعمى، والمريض الذي قعد به المرض، والرسول، والراهب المتبتل، والذي لا يصلح قتله لمصلحة، والمجنون بأقسامه. وقال الفقهاء أيضًا: يكره تبييت العدو، أي الإغارة عليهم ليلًا، لما ورد أن رسول الله ﷺ ما بيت عدوًا قط ليلًا، بالإضافة إلى الاستحسان فإن الليل معرض كثرة القتلى، وقتل النساء والأطفال، وقتل المسلمين بعضهم بعضًا، واستبشاع ذلك عرفًا. والحديث عن الرحمة والسلم والتسامح في الإسلام، ونبذ العنف والقسوة والإرهاب، هو حديث عن جوهر الإسلام، والغاية التي يريد تحقيقها في المجتمع البشري، وهو ما يحتاج إلى بحوث مفصلة واسعة.

لقد ابتلي الإسلام والمسلمون بفئات تنتسب إليه، وتمارس باسمه الإرهاب والعنف، منطلقة من عقلية امتلاك الحقيقة المطلقة، وعدم إحتمال الرأي الآخر. لقد عانت الأمة الكثير من الفتن الداخلية، والتمزق والاضطراب الاجتماعي، بسبب هذه التوجهات المتطرفة، وشهدنا في هذا العصر، ممارسات جماعات العنف، . وعادة ما تستفيد هذه الفئات من أجواء الانغلاق الفكري، وتوظيف حالات التأزم الاجتماعي،

---

(١) سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، حديث رقم ٢٦١٤.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٢١.

والانحراف عن منهج الدين، في تعبئة أذهان الناشئة، واستقطابهم نحو توجهاتها.

إن انتشار الوعي الصحيح بمفاهيم الدين، وفسح المجال لحرية الفكر والرأي، ومعالجة المشاكل والضغوط التي تعاني منها المجتمعات، هو الذي يحدّ من أفكار التطرف والتشدد.

إن أمريكا ترفع لحملتها شعار مواجهة الإرهاب، لكنها تمارس سياسة الانتقاء، فما كان متعارضًا عن مصالحها تصنفه إرهابًا، وتقيم الدنيا ولا تقعدها ضده، أما الإرهاب الذي يستهدف غيرها من الدول والشعوب والقوى، فهي تغض الطرف عنه، وقد تدعمه وترعاه، كما هو الحال في دعمها الكامل، ومساندتها الشاملة للإرهاب الصهيوني، وماذا يمكن أن يسمى احتلال أراضي الغير بالقوة؟ وتشريد شعب كامل من وطنه؟ وقصف المناطق المدنية والسكنية؟ واغتيال القيادات السياسية بالصواريخ من الجو؟ وقتل النساء والأطفال؟ وتهديم المنازل؟ وتخريب المزارع؟ إذا لم يكن ذلك إرهابًا فماذا يعتبره الأمريكيون؟

والمدهش حقًا أن يدين الأمريكيون مواجهة هذا الإرهاب والبطش الصهيوني، فيعتبرون دفاع الفلسطينيين واللبنانيين عن أراضيهم وأنفسهم، نشاطًا إرهابيًا، بينما يستقبلون الإرهابي شارون بالأحضان!! ترى كيف يمكن للمسلمين أن يثقوا بمصداقية شعار الحملة والتحشيد الأمريكي ضد الإرهاب؟ إن وجود الاحتلال والإرهاب الصهيوني هو الأرضية التي تغذي التطرف وعدم الاستقرار في المنطقة والعالم.

إن سياسات الظلم والجور على مستوى العالم هي التي تفرخ الإرهاب، وتنشر الكراهية والأحقاد، وتدفع نحو ردود فعل جنونية، عند من لا يجدون أنفسهم قادرين على حماية حقوقهم ومصالحهم بالطرق السليمة المشروعة. وأهم ما ينبغي التنبيه إليه في هذه الظروف الحساسة، هو أن لا تتحول المشكلة التي تواجهها أمريكا الآن إلى مشكلة داخلية بين المسلمين أنفسهم، بين مؤيد ومعارض، وأن نحذر الفتن والقلاقل، لنحافظ على أمن أوطاننا ومجتمعاتنا.

الشعب العراقي والامتحان الصعب[1]

كنا نتمنى أن يسقط نظام صدام على أيدي أبناء الشعب العراقي، لتكون الفرحة أعمق والبهجة أكمل، ولم يقصّر الشعب العراقي في مقاومة هذا النظام البغيض، بل قدم من التضحيات ما لم يقدمه أي شعب آخر، في النضال ضد الظلم والطغيان، فقائمة الشهداء العراقيين وضحاياهم في المواجهة مع النظام الزائل تعد بمئات الألوف، دون أي مبالغة أو تهويل.

فخلال الإنتفاضة الشعبية في جنوب العراق سنة ١٩٩١م، تشير إحصائيات نشرتها جريدة (الحياة) يوم أمس الخميس ٨ صفر ١٤٢٤هـ، إلى أن المفقودين أكثر من ١٠٠ ألف شخص، أكثر من نصفهم لم يعثر على جثثهم!! وفي شمال العراق بلغ مفقودو عمليات الأنفال التي شنها النظام الصدامي ضد المواطنين الأكراد هناك ٢٠٠ ألف مفقود، اعترف مسؤولو النظام خلال جولات التفاوض مع الأكراد عام ١٩٩١م أن عدد المفقودين لا يتجاوز الـ ١٠٠ ألف!!

وفي قائمة الشهداء والضحايا العراقيين، الذين سقطوا في مواجهة النظام، نجد أسماء لامعة، من الفقهاء والعلماء والأدباء والمثقفين والسياسيين والعسكريين، وأساتذة الجامعات وطلابها، ومن الرجال والنساء، والكبار والشباب، ومن جميع

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٤ صفر ١٤٢٤هـ، ١٦ ابريل ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٩٧.

الشرائح والطبقات، والمناطق والمحافظات، والمذاهب والتوجهات..

وهناك مئات الألوف ممن استضافتهم سجون الاعتقال، وذاقوا أهوال التعذيب والتنكيل، والملايين من المشردين والمهجرين، الذين غصّت بهم الملاجئ والمنافي، وبعضهم ابتلعته أمواج البحر غرقًا وهو يبحث عن مأوى، كما حصل لمجموعة من اللاجئين العراقيين انكسرت بهم السفينة على مقربة من أستراليا..

بالطبع فإن حملات التصفية والاعتقال والتشريد، إنما كان يقوم بها النظام كرد على انتفاضات شعبية، أو تحرك للمعارضة، أو كضربات استباقية رادعة، في أوساط متعاطفة مع المناضلين..

لكن هذه التضحيات والجهود التي بذلها الشعب العراقي، والملاحم النضالية التي خاضها، طيلة ثلاثة عقود من الزمن، اصطدمت بجدار سميك من العنف والقمع، لا مثيل له في تاريخ الأنظمة الاستبدادية، كما استطاع النظام توظيف الظروف الدولية والإقليمية، في كثير من الأحيان، لخدمة تسلطه وديكتاتوريته، ومارس كثيرًا من المكر والدهاء، لاستقطاب الرأي العام العربي والإسلامي، بشعاراته البراقة، ومواقفه الخادعة، وإغراءاته لمختلف القوى والشخصيات، كل ذلك ساعد على تهميش حركة المعارضة، والتعتيم على واقع معاناة الشعب العراقي.

فكانت الفرصة متاحة أمام الولايات المتحدة الأمريكية، لكي تستثمر رفض الشعب العراقي لنظام صدام، وشدة معاناته منه، التي جعلته يبحث عن أي وسيلة للانعتاق والخلاص منه.

ويمكن القول بكل ثقة واطمئنان إن أكثرية الشعب العراقي، ومع تجذر الروح الإسلامية والقومية والوطنية في نفوسهم، ومع عمق إبائهم وحساسيتهم تجاه النفوذ الأجنبي، إلا أنهم يرحبون بالإرادة والتصميم الأمريكي على إسقاط نظام صدام، بعد أن ضاقت بهم السبل، وأعيتهم الحيل، وخذلهم الأقرباء والأشقاء.

والعراقيون يعيشون الآن فرحة وابتهاجًا لتهاوي هذه السلطة الظالمة الجائرة، وبدورنا نبارك لهم تحقيق هذه الأمنية العزيزة على نفوسهم ونفوسنا، ونشاركهم مشاعر البهجة والسرور، بالخلاص من هذا الكابوس البغيض.

الثمن الباهظ

بيد أن سقوط نظام صدام على يد القوات الأمريكية والبريطانية، يستلزم ثمنًا باهظًا من استقلال العراق وحريته، ومن مستقبل المنطقة العربية والإسلامية، فالأمريكيون مع أنهم جعلوا عنوان حملتهم العسكرية حرية العراق، وأظهروا اهتمامهم بمعاناة الشعب العراقي، لكنه يعلنون بصراحة انطلاقهم من خدمة مصالحهم الاستراتيجية، وأمنهم القومي، كما يتحدثون عن استهدافات تتعلق بتغيير الخارطة السياسية في المنطقة، وعن مكاسب للكيان الصهيوني بتطبيع وجوده، وإزالة عوائق الممانعة من قبوله.

هذا الثمن الباهظ على العراق والمنطقة بكاملها، يقتضي منتهى اليقظة والحذر، في التعامل مع واقع الوجود الأمريكي في العراق، من قبل الشعب العراقي، وشعوب وحكومات المنطقة.

بالدرجة الأولى ينبغي مقاومة حالة الاستسلام والهزيمة النفسية، حيث لم تحصل معركة حقيقية، بين قوى الأمة والإرادة الأجنبية، لأن صدام لم يكن يمثّل الأمة ولا الشعب العراقي، بل كان حاكمًا ظالمًا خطف إرادة شعبه وشل قدرته، وما انهياره السريع والمدهش، بعد أن ملأ الآفاق بصخب تهديداته، إلا دليل على خواء واقعه وهشاشته.

كما يجب الانتباه من ثقافة وإعلام الهيمنة الأجنبية، التي تنظّر وتبرر للقبول بها، تحت عناوين مختلفة، وبشعارات جاذبة، ويساعدها على ذلك سوء الواقع المعاش، الذي يدفع الرازحين تحت وطأته إلى البحث عن طرق الإنقاذ والخلاص.

والأمل معقود على وعي الشعب العراقي، وإخلاص طليعته المناضلة، للتحرر من الهيمنة الأجنبية بأسرع وقت، وعلى العالم العربي والإسلامي أن يجبر تقصيره تجاه الشعب العراقي، في المرحلة الماضية، بتكثيف الدعم والتضامن معه في محنته الحاضرة، ليتجاوزها بأقل قدر من الخسائر والأثمان.

المساعدات الإنسانية

يعيش الشعب العراقي بعد الحرب الأمريكية وضعًا كارثيًا، على المستوى الإنساني، فهذا الشعب الذي حباه الله تعالى ثروات هائلة من النفط والمياه وخصوبة الأرض، إلا أنه ابتلي بحكم جائر، استنزف ثرواته في معاركه وحروبه المفتعلة مع جيرانه، إيران والكويت، وهدرها في برامج العسكرة والتسلح، واستأثر بموارده الضخمة لإشباع رغبات وشهوات زمرته الفاسدة، وما قصور صدام المتعددة الفخمة، وأرقام ثروته الخاصة، والنشاط الاقتصادي الواسع لولديه عدي وقصي، إلا نماذج من تلاعبهم بثروات شعب العراق.

هذا الشعب الذي أصبح يعيش أسوأ حالات الفقر والحرمان، وخصوصًا في ظل الحصار الدولي طيلة أكثر من عشر سنوات، ثم جاءت الحرب الأمريكية، لتزيد من بلاء هذا الشعب ومحنته، فقد أُسقطت على العراق حمم هائلة من النيران خلال أكثر من عشرين يومًا، واستخدمت مختلف الأسلحة والقنابل الفتاكة الخطيرة، مما أصاب البنية التحتية بدمار كبير، وأوقع الخراب في المناطق السكنية وبيوت المدنيين، وحصد أرواح عدد كبير من المواطنين عسكريين ومدنيين، ولم تكشف حقيقة أرقام ضحايا هذه الحرب الفظيعة لحد الآن، لكنها بالتأكيد تصل إلى عشرات الآلاف من القتلى والمعوقين والجرحى، وانتهت الحرب بانهيار كامل للنظام، ولكل المؤسسات المدنية والخدماتية، وحصل فلتان أمني، عرّض المنشآت العامة للسلب والنهب..

كل ذلك جعل الشعب العراقي في وضع كارثي صعب، يحتاج فيه إلى المساعدة والدعم، حيث يعاني الناس من الجوع والعطش، لعدم توفر المياه الصالحة للشرب،

ومن إنعدام الدواء، ووسائل العلاج للمرضى والجرحى والمصابين.

إن من أول واجباتنا تجاه إخوتنا في العراق، المبادرة إلى مساعدتهم إنسانيًا، بتقديم الغذاء والدواء، ومستلزمات الحياة المعيشية، فعلى رجال الأعمال وأهل الخير، ومن لديه شيء من الحقوق الشرعية، وعلى كل إنسان أن يقتطع جزءًا من دخل هذا الشهر، لمد يد العون لهذا الشعب المنكوب.

وأتوجه بشكل خاص إلى الأخوات الموظفات وذوات الدخل والمقدرة المالية، أن يخصصن أكبر قدر ممكن من إمكاناتهن المالية، لغوث أطفال العراق وأيتامه وأرامله وعوائله المحتاجة.

إن الله تعالى يقول: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ؛ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ؛ فَكُّ رَقَبَةٍ؛ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ؛ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ؛ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[سورة البلد، الآيات: ١١-١٦].

إن الاقتحام يعني الدخول بمشقة وجرأة، والعقبة هي الموقع المرتفع من الطريق، والآية تحريض ودفع لكي يسلك الإنسان طريق الخير، غير متوقف أمام العقبات، بل متجاوزًا لها بإقدام وعزم، وأهم نموذج تقدمه الآيات الكريمة هو عتق العبيد ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وإغاثة المحتاجين، في أيام الشدة ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي في يوم ذي مجاعة. وهو ما ينطبق على واقع الشعب العراقي اليوم.

جاء في الحديث عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ: «من أشبع جائعًا في يوم سغب أدخله الله يوم القيامة من باب من أبواب الجنة، لا يدخلها إلا من فعل مثل ما فعل».

وعن جابر بن عبد الله عنه ﷺ: «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان».

وعنه ﷺ: «من أفضل الأعمال عند الله إبراد الكباد الحارّة، وإشباع الكباد الجائعة، والذي نفس محمد بيده لا يؤمن بي عبد يبيت شبعان وجاره المسلم جائع».

وعنه ﷺ: «من أطعم كبدًا جائعةً أطعمه الله من أطيب طعام الجنةِ، ومن برَّد كبدًا

عطشانةً سقاهُ الله وأرواه من شراب الجنة».

الامتحان الصعب

إن مقاومة نظام صدام هو الجهاد الأصغر للشعب العراقي، وقد انتهت هذه المهمة إن شاء الله، وبقي أمام العراقيين الجهاد الأكبر، وهو القدرة على بناء واقع جديد.

إن عهد الديكتاتورية والقمع يصيب النفوس والأفكار ببعض التشوهات والعاهات، كما أن اختلاف مناخات المعارضة خارج العراق، قد يباعد بين توجهاتها وآرائها، والتنوع الإثني في الشعب العراقي، بتعدد قومياته ومذاهبه وطوائفه، يجعل الوضع أكثر دقة وحساسية، مما يعطي الفرصة للقوى الخارجية، والجهات المغرضة الداخلية، أن تلعب على هذه التناقضات، وتضرب على وتر هذا التنوع، لإثارة النزاعات والخلافات.

ومما يزيد المشكلة إعضالًا، إن الثقافة السائدة في عالمنا العربي والإسلامي، بتوجهاتها المختلفة، من دينية وغيرها، في المجال الفكري والسياسي، غالبًا ما تشجع على الاستبداد والاستفراد، وتدفع نحو الإقصاء والإلغاء للطرف الآخر، والرأي الآخر. والشعب العراقي خاصة في ظروفه الصعبة الحاضرة، في حاجة ماسة لثقافة التسامح، وقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، والاحتكام إلى النهج الديمقراطي، في ميدان السياسة والحكم، بالأخذ برأي الأكثرية العددية، دون تصنيف قومي أو طائفي.

إن توافق قوى الشعب العراقي، على إعتماد سياسة الحوار، وإدارة التنافس السياسي بالطرق الإيجابية، والوسائل السلمية، وتغليب المصلحة العامة على المصالح الفئوية، هذا التوافق هو الذي يساعد الشعب على تضميد جراحات الماضي، وتجاوز مآسيه والأمة، لبناء غدٍ مشرق جديد. وهو الذي يمكّن الشعب العراقي من انتزاع حريته واستقلاله من القوى الأجنبية، الجاثمة على أرضه.

بينما تأزم الخلافات والصراعات، يطفئ نور الأمل في نفوس العراقيين، ويصيبها بالإحباط والإنكسار، ويعطي الذريعة والفرصة لاستمرار الهيمنة الأجنبية.

والدول المجاورة للعراق، عليها أن تساعد الشعب العراقي على حفظ وحدته وانسجامه، وأن تشجع أطرافه المختلفة على التوافق والتعاون؛ لأن استقرار العراق يخدم أمن واستقرار دول المنطقة جميعًا، بينما اضطرابه مصدر قلق أمني للجميع.

إن أخطر شيء على وحدة العراق واستقراره، أن تسعى أي دولة مجاورة لدعم طرف في مقابل بقية الأطراف، كأن تخص بالدعم الأكراد أو التركمان أو العرب أو الشيعة أو السنة، إن ذلك يشجع النزاعات الفئوية، ويكرس الاستقطابات الإقليمية، في داخل الساحة العراقية، بل ينبغي دعم الشعب العراقي بأجمعه، وتشجيع قواه على التوحد.

خطاب التطرف والثمن الباهظ[1]

دفعت الأمة ثمنًا باهظًا لخطاب التطرف والتشدد على الصعيدين الداخلي والخارجي.

فقد كرّس هذا الخطاب حالة التشرذم والنزاع داخل الأمة، حين أعطى أولوية مطلقة، وأهمية قصوى، للمسائل الخلافية الجزئية، في أمور العقيدة والشريعة، وهي كانت محلّ خلاف قديم، ليجعلها حدًا فاصلًا بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، متجاوزًا مساحات الوفاق الواسعة بين المسلمين، في أصول الإيمان، وأركان الإسلام وفرائضه.

مما فتح باب التكفير والتبديع على مصراعيه، وأصبح تكفير الأشخاص والطوائف والجماعات والمجتمعات مسألة سهلة، يفتي بها حتى من له أدنى حظٍ من الاطلاع على العلوم الشرعية.

وأنتج هذا الخطاب ثقافة تحريضية تعبوية، تنشر الكراهية والعداء بين المسلمين، بمبرر الخلاف المذهبي، أو حتى الخلاف الفكري والفقهي ضمن المذهب الواحد.

وتربى على هذا الخطاب جيل صار يتقرب إلى الله تعالى بالبراءة من أخوة له

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٨ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ٣١ ديسمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٥٦.

في الدين، يجمعه وإياهم الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتزام أركانه الإسلام، بل وصل الأمر إلى استباحة الحقوق، وانتهاك الحرمات، وممارسة الإيذاء المادي والمعنوي، وسفك الدماء، والاعتداء على المساجد والأماكن الدينية بالتفجيرات، وإطلاق النار على المصلين، كما حدث مكررًا في باكستان واليمن وربما في بلاد أخرى.

اضطراب الأمن

وعلى الصعيد السياسي قاد هذا التطرف إلى تفجير الأوضاع الأمنية، في كثير من البلدان الإسلامية، وأصبح السلاح والعنف هو لغة التخاطب مع الحكومات والسلطات، عبر الاغتيالات والتفجيرات التي عادة ما تطال الأبرياء المدنيين من مواطنين ومقيمين، وتؤدي إلى سلب الأمن والاستقرار، وإلى تشديد الإجراءات الأمنية على حساب الحريات العامة.

ضياع الطاقات

لقد استقطب هذا الخطاب شريحة من أبناء الأمة اندفعت إليه بإخلاصها وحرصها على خدمة دينها، هذا الإخلاص والحرص، كان يحتاج إلى التوظيف الصحيح، والتوجيه المناسب، ليؤدي دورًا إيجابيًا في تغيير واقع الأمة إلى الأفضل، لكن مسار التطرف أضاع هذه الطاقات، وبددها في الاتجاه الخطأ.

التنفير من الدين

وشريحة أخرى من أبناء الأمة بهرهم تقدم الحضارة الغربية، ولم تتوفر على معرفة كافية بالدين، فتأثرت بالاتجاهات الفكرية الوافدة، وكانت بحاجة إلى حوار موضوعي هادئ، وثقافة إسلامية واعية، لتستعيد ثقتها بدينها، ولتحافظ على هويتها، وتعتز بالانتماء إلى قيمها الأصيلة، لكن خطاب التطرف زادها عن الدين بعدًا، وكرّس لديها

حالة النفور من الإسلام، بلغته الفظّة القاسية، وأسلوبه القمعي الشديد، واهتماماته الجزئية القشرية، البعيدة عن قضايا العصر وتطورات الحياة.

لقد زجّ مسار التطرف الأمة في معارك جانبية شرسة، أضافت للأمة أتعابًا جديدة، وشغلتها عن التحديات المصيرية التي تواجهها، وخلطت الأوراق، وزيّغت الاهتمامات عند قطاع واسع من جماهير الأمة ونخبها.

فخ صدام الحضارات

كل ذلك كان بعض آثار التطرف على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، فقد منح هذا التطرف المنتسب إلى الإسلام، فرصة عظيمة، لدوائر التخطيط للهيمنة العالمية في مؤسسات القرار والحكم الأمريكي، لتجد العدو الذي تبحث عنه بعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط المعسكر الشرقي، حتى يكون عنوانًا للتعبئة والتحشيد، واستمرارية روح التحدي والمواجهة، ومبررًا لممارسة دور الزعامة والهيمنة على الصعيد الدولي.

وما مقولة (صدام الحضارات) إلا تنظير تمهيدي لهذه المعركة الجديدة التي كانوا يخططون لها، وأعانهم مسار التطرف الإسلامي على اختيار الضحية التي يفتشون عنها.

وهكذا وجدت الأمة نفسها في أتون حرب ضروس ومعركة ضارية، لم تتهيأ لها، وغير مستعدة لخوضها، وهي معركة شاملة مفتوحة، عنوانها مكافحة الإرهاب، جعلت كل بلاد المسلمين أرضًا مكشوفة للعمليات العسكرية والتدخل الأجنبي، بدءًا من أفغانستان ومرورًا بالعراق، وسيف التهديد مسلط على باقي الدول والبلدان...

إلى جانب العمليات العسكرية، هناك معركة فكرية ثقافية تستهدف هوية الأمة، ومبادئها الدينية، وانتماءها الحضاري، أطلق عليها أخيرًا وزير الدفاع الأمريكي (دونالد رامسفيلد) عنوان حرب الأفكار، ففي مذكرة مسربة منسوبة إليه وتصريحات

علنية، أكد رامسفيلد: (أهمية هزيمة الإرهاب ليس فقط بالقوة العسكرية ولكن أيضًا في حرب الأفكار مشيرًا إلى خطر المدارس الدينية).

وكان رامسفيلد طرح في مقابلة مع (نيويورك تايمز) فكرة إقامة (وكالة معلومات في القرن الواحد والعشرين في الحكومة للمساعدة في شنّ معركة العقول)[1].

إن جميع المدارس الدينية الإسلامية ومناهج التعليم، والمؤسسات والمراكز والمساجد، وخطب الجمعة، كلها أصبحت في دائـرة الاتهام والاستهداف، والشخصيات الإسلامية الفاعلة أدرجت أسماء كثير منها في القوائم السوداء، وحدثت مداهمات للعديد من المراكز الإسلامية في أمريكا وأوروبا، واعتقل عدد من العلماء والمفكرين المسلمين هناك، كان آخرهم الدكتور عبدالرحمن العمودي المقيم في أمريكا والمعروف باعتداله وانفتاحه.

ولـم تسـلم حتـى مؤسسـات الإغاثـة والجمعيـات الخيريـة لمسـاعدة الفقـراء والمحتاجين، من آثار هذه الحرب الشـاملة، بـل نالها نصيب وافر من التهم والإغلاق ومصادرة الأموال وتجميد الحسابات.

صحيح أن هناك استهدافًا في الأساس للأمة ودينها، لكن الصحيح أيضًا أن المتطرفين وفروا المبررات والذرائع، وأتاحوا الفرص، ومكنوا للأعداء، وفتحوا الثغرات ومنافذ الهجوم لهم.

---

(١) جريدة الحياة اللندنية ٢٥ / ١٠ / ٢٠٠٣م.

العلاقة بين الدول الإسلامية[1]

كانت الأمة تعيش في غالب عهودها السابقة ضمن كيان سياسي واحد، هو دولة الخلافة الإسلامية، ولكنها منذ قرن من الزمان، وبعد سقوط دولة الخلافة، أصبحت تعيش ضمن عدة كيانات سياسية، تمثل الدول القومية القطرية للأمة.

وتتنوع الأنظمة السياسية الحاكمة في الدول الإسلامية، في اتجاهاتها الفكرية والسياسية، ولم تصل بعد فيما بينها إلى صيغة من العلاقة الإيجابية، التي تؤهلها للتكامل، وتحولها إلى كتلة واحدة تضارع سائر التكتلات والأحلاف العالمية.

والأسوأ من ذلك انحدار العلاقة بين بعض هذه الدول الإسلامية إلى هاوية الصراع والنزاع، حيث وقعت حروب مأساوية دامية، ضحاياها أبناء الأمة من أطراف النزاع، ووقودها إمكانات الشعوب الإسلامية وثرواتها.

ومن آخر وأفظع نماذج هذه الحروب، ما عانته منطقتنا الخليجية من حربي الخليج الأولى والثانية، التي أشعلها النظام البائد في العراق ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية ودولة الكويت.

ودفعت المنطقة بكاملها ثمنًا باهظًا لتلكما الحربين الداميتين، من أرواح أبنائها،

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٢ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ١٤ يناير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٧٠.

وخاصة من شعبي إيران والعراق، ومن ثرواتها حيث لا تزال دول المنطقة ترزح تحت أعباء آثار تلك الحربين. كما حصلت نزاعات عسكرية بين دول إسلامية أخرى، أما النزاعات السياسية والإعلامية بين بعض الدول الإسلامية، فلا تكاد تمر سنة تخلو من أزمة بين دولة إسلامية وأخرى.

إن الخلاف على الحدود هو من عوامل النزاع الأساسية، وقد كان للاستعمار دور كبير في بذر بذور هذه الخلافات الحدودية، فعندما انسحبت القوى الاستعمارية من البلدان الإسلامية التي كانت تحتلها، تركت خلفها هذه الألغام، المعدة للانفجار، حيث رسمت الخرائط الحدودية، بشيء من الغموض في بعض خطوطها، ونوع من التلاعب المقصود.

كما أن سعي بعض الأنظمة للتبشير بتوجه فكري أو سياسي معين، جعلها في موقع صراع وصدام مع أنظمة أخرى.

ولا ننسى وجود أطماع للنفوذ عند بعض هذه الأنظمة، تدفعها للتدخل في شؤون بلدان أخرى، وقد يصل هذا التدخل إلى حد السعي لتغيير النظام، أو خلق قوة مناهضة له، أو دعم تيار معارض. وفي أحيان كثيرة، يكون للقوى الأجنبية الخارجية دور أساس في دفع بعض الأنظمة للنزاع والصدام مع بعضها، لخدمة أهدافها ومخططاتها. إن هذا الاضطراب في العلاقة بين الدول الإسلامية، حال دون حصول أي تقدم حقيقي لوحدة الأمة، وأوقع بها خسائر كبيرة، وأنتج مضاعفات خطيرة.

فإضافة إلى الخسائر المادية في الأرواح والممتلكات، وضياع الثروات، وهدر الإمكانات، فإن هذا الاضطراب وما واكبه من انعدام الثقة، والشعور بالقلق لدى دول إسلامية تجاه أخرى، صرف الأنظار عن الأعداء الحقيقيين الطامعين في الهيمنة والنفوذ على العالم الإسلامي، لتتجه إلى معارك مفتعلة، وعداءات زائفة، لم يقتصر الانشغال بها على الأطراف المنجرفة إلى النزاع، بل شغلت كل ساحة العالم الإسلامي وأربكت واقعه.

إن ميزانيات الدفاع، وبرامج التسلح، واهتمامات أجهزة الأمن، وخطط الإعلام، وحتى مسار التحالفات والعلاقات الخارجية، أصبحت متجهة لدى هذه الدول صوب بعضها، مما يعني أن حجمًا هائلًا من الجهود الهامة والإمكانات الثمينة للعالم الإسلامي، قد صرفت ضمن مشاكل هذه النزاعات والخلافات.

وكنموذج لقلق بعض الدول الإسلامية من بعضها نذكر ما اتخذته الكويت من إجراءات لحماية نفسها من أي حماقة أخرى قد يرتكبها نظام صدام البائد في العراق، حيث أشادت سورًا حدوديًا معقدًا أنفقت عليه ميزانية ضخمة.

ويتألف السور الحدودي الذي جرى بناؤه خلال التسعينيات ويمتد مسافة ٢١٧ كيلومتر: من خندق بعرض خمسة أمتار، وعمق ثلاثة أمتار، يحاذيه ساتر ترابي بعلو أربعة أمتار. ثم يلي ذلك على بعد كيلومتر واحد السور الشائك المكهرب الذي يتألف من أسوار متداخلة عدة، ثم أنشأ الكويتيون أربعة أشرطة من السواتر الترابية بين الحدود والعمق الكويتي بمعدل ساتر كل ١٥ كيلومتر[١]. ويقول عبدالمنعم سعيد رئيس مركز الدراسات الإستراتيجية في جريدة الأهرام بمصر:

(إن الصراع مع إسرائيل كلف العالم العربي في العقود الخمسة الماضية ٢٠٠ ألف من الضحايا لكن الصراعات الأهلية والحروب الداخلية في الإطار العربي والإسلامي كلفت ٢,٥ مليون ضحية. ومن حيث الكلفة المادية فإن الصراع الأول كلف العرب حوالي ٣٠٠ بليون دولار أما باقي الصراعات فبلغت تكاليفها حوالي ١,٢ تريليون دولار)[٢]. وكما هو متوقع فقد استثمرت القوى الأجنبية الطامعة هذه الحال المضطربة من العلاقات بين الدول الإسلامية، لتمرير مخططاتها، وخدمة أغراضها، وقامت بدور المشجع والمغذي لهذه النزاعات.

ورغم أننا لا نعيش الآن نزاعًا محتدمًا بين دول إسلامية، إلا أن وجود أزمات

---

(١) جريدة الحياة اللندنية، ٥ محرم ١٤٢٤هـ.

(٢) جريدة الحياة اللندنية ٢٧ شوال ١٤١٩هـ.

صامتة مجمدة، يجعل احتمال تفجرّ النزاعات أمرًا واردًا في أي وقت من الأوقات. ما لم تعالج حال الاضطراب هذه، وتصل العلاقات بين الدول الإسلامية، إلى مستوى من الاستقرار القائم على صيغة واضحة شفافة من التعاون والتكامل. لقد نشأت للعالم الإسلامي تجمعات مؤسسية، يفترض فيها أن تقوم بهذا الدور، وتنجز هذه المهمة المصيرية، كمنظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية،ومجلس التعاون الخليجي، واتحاد دول المغرب العربي، وأمثالها .

لقد أوشكت الشعوب الإسلامية أن تفقد أملها في هذه المؤسسات، بعد مرور عقود على تأسيسها، وتوالي اجتماعات القيادات فيها، دون أن تحقق انجازًا وحدويًا يضاهي ما حققته الدول الأوروبية، من خطوات في صنع وحدتها الماثلة للعيان. إنه لا بدّ من تفعيل هذه المؤسسات القائمة، وإنشاء مؤسسات رديفة، وخلق رأي عام ضاغط، باتجاه الاستقرار في العلاقات بين الدول الإسلامية.

التطرف وتعويق حركة الإسلام[1]

كانت إسرائيل بالمرصاد، وهي التي أربكتها إنتفاضة الشعب الفلسطيني المتواصلة، وضربات حزب الله الموجعة في جنوب لبنان، التي اضطرتها للهزيمة والانسحاب، وأصبح وجودها مهددًا بخطر شديد، مع تنامي الصحوة الإسلامية، وإصرار الشعب الفلسطيني على نيل كامل حقوقه، حتى جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لتقدم لها خشبة الإنقاذ والخلاص، ولتمنحها أثمن الفرص، لتجاوز المأزق الصعب، فركبت موج محاربة الإرهاب، واستثمرت توجهات الإدارة الأمريكية اليمينية المتطرفة، واستغلت الرأي العام السياسي والشعبي الجريح في أمريكا من أحداث ١١ سبتمبر، لتوظيف كل ذلك في حملة إبادة شعواء ضد الشعب الفلسطيني، حيث أعادت احتلال أغلب المناطق الفلسطينية، بشكل متكرر واغتالت العشرات من قياداته، وقامت بأبشع المجازر الدموية، التي أصبحت مسلسلًا يوميًا، على مرأى ومسمع من العالم كله، دون أي اعتراض فعلي، أو ممانعة حقيقية.

إن وضعًا عالميًا أصبح يحيط بالإسلام والأمة، لا سابق له في التاريخ، حيث تتسابق مختلف الدول في إتخاذ الإجراءات التي تجعل من كل عربي ومسلم، محلًا للريبة والاتهام، حتى تثبت براءته.

وصارت الاتهامات تكال للإسلام والمسلمين عبر وسائل الإعلام، وعلى ألسنة

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ١٥ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ٧ يناير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٦٣.

السياسيين والمثقفين، لتنال من سمعة الإسلام ونبي الإسلام، والقرآن الكريم، وتاريخ الأمة. وهي من الكثرة بحيث يصعب متابعتها وحصرها.

وقد تميز الإسلام في السنوات الماضية، بأنه أكثر الأديان انتشارًا، حيث يقبل على اعتناقه أعداد كبيرة من مختلف الأمم، بما في ذلك المجتمعات الغربية، واستقطب نوعيات من المفكرين والمثقفين الغربيين الذين شدّهم إليه عمق معارفه الفلسفية، وإنسانية تشريعاته.

كما أصبحت الجاليات الإسلامية في الغرب أكثر فاعلية وتفاعلًا مع تلك المجتمعات، مما يهيئها لأخذ موقعية أكبر، ونفوذ أوسع، إضافة إلى تجدد حيوية الالتزام بالإسلام داخل المجتمعات الإسلامية.

لكن هذا الوضع المستجد والحملة العالمية على الإسلام والمسلمين، التي اتخذت ممارسات المتطرفين ذريعة لها، عرضت حركة تقدم الإسلام لانتكاسة مفجعة، يحتاج تجاوزها إلى وقت طويل، وجهود كبيرة.

بين الرفق والعنف

نلحظ في تعاليم الاسلام الأخلاقية تركيزًا هامًا على صفة (الرفق)، وتحذيرًا من الصفة المقابلة لها وهي القسوة والعنف.

وقد عرف اللغويون (الرفق) بأن أصل مادته يدلّ على موافقة ومقاربة بلا عنف. فالرفق خلاف العنف.

ورفق الرجل: لطف.

ويقول الليث: الرفق: لين الجانب، ولطافة الفعل.

قال الخليل: العنف ضد الرفق، يقال اعتنفت الشيء إذا كرهته ووجدت له عنفًا عليك ومشقة.

والعنف الشدة والمشقة.

إن خطاب التطرف، وعنف التعامل، ينفر الناس من الاستجابة لدين الله تعالى، ولو كان الداعي أفضل الرسل والأنبياء محمد ﷺ، بينما اللين والرفق يجتذب القلوب والنفوس، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وحتى في مقابل أعتى الطغاة فرعون يأمر الله تعالى نبييه موسى وهارون عليهما السلام بأن يخاطباه برفق دون شدة يقول تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

ومن صفات المؤمنين أنهم لا يستجيبون لاستفزازات الجاهلين فلا يواجهون خطابهم بما يشابهه بل يترفعون عن ذلك، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

وجاء مرة بعض من اليهود وأساؤوا التحية لرسول الله ﷺ حيث قالوا: السام عليكم أي: الموت. فغضبت أم المؤمنين عائشة وردت قائلة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. لكن رسول الله ﷺ رفض هذه الشدة في التخاطب حتى مع اليهود المسيئين وقال لعائشة: «مهلًا يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش».

وجاء في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

وبهذا يكون خطاب التطرف ونهجه موصوفًا بالشين والقبح من قبل رسول الله ﷺ.

وفي حديث آخر يعتبر رسول الله ﷺ العنف والتطرف حرمانًا من الخير كما أورد الترمذي عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير».

وفي حديث رائع عن رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

ويقول الإمام علي عليه السلام: «لكل دين خلق وخلق الإيمان الرفق».

هكذا تركز التعاليم الإسلامية على أخلاقية الرفق واللين، وتحذر من أضرار التطرف والعنف، وقد يتساءل البعض عن موقعية نصوص أخرى يظهر منها الأمر بالشدة والغلظة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

لكن هذه النصوص تتحدث عن حالة المواجهة، ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وفي هذه المرحلة لا بدّ من القوة والثبات، فالشدة والقسوة حالة استثنائية تفرضها ظروف المواجهة، أما الأصل في تخاطب المسلم وتعاطيه فهوالرفق واللين، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

والأخلاق في رؤية الاسلام ليست قضايا مرحلية تكتيكية بل هي منهجية ثابتة في شخصية الإنسان المسلم. والتزام الأخلاق مبدأ في جميع المجالات. في التعامل مع الأسرة والمجتمع، وعلى صعيد العلاقات الدولية، وليس في مجال العلاقات الشخصية فقط.

وعلى ضوء هذه التعاليم يجب محاكمة نهج الشدة والتطرف، وخاصة حينما يقترن بشأن الدعوة إلى الله تعالى، والعمل من أجل دينه، فإن الله تعالى قد حدد أسلوب الدعوة إليه، فلا يصح اتخاذ مسلك آخر قد حذر الشرع منه يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ولا يطاع الله بالمعصية.

إن الأنبياء والمرسلين أحرص منا على تبليغ رسالة الله وإقامة دينه، وهم من أرفق الناس، وأبعدهم عن الشدة والعنف، ويجب أن يكونوا قدوة لنا وأسوة.

الاستقرار السياسي[1]

تعاني أغلب البلدان الإسلامية ضعف الاستقرار السياسي، لاضطراب العلاقة بين الحكومات وشعوبها.

حيث تطمح هذه الشعوب لدور أكبر في المشاركة السياسية، وفي ممارسة حقوقها وحرياتها، أسوة ببقية شعوب العالم التي تتمتع بالديمقراطية، فتنتخب زعماءها، ويتم فيها تداول السلطة، وتتوفر لها حرية تشكيل الأحزاب والتعبير عن الرأي.

ومن الأخبار التي تلفت النظر حول مدى ما تتمتع به الشعوب في البلدان المتقدمة من مشاركة سياسية، ما ذكرته الأنباء والتقارير عن النقاش الدائر في بعض الولايات المتحدة عن حق التصويت للبلهاء والمجانين. يقول الخبر الذي نشرته جريدة الحياة بتاريخ ٣ نوفمبر ٢٠٠٢م:

سيقرر الناخبون في ولاية (نيومكسيكو) ما إذا كانوا سيوافقون على أن يكون للبلهاء والمجانين حق التصويت في ولايتهم. فبموجب دستور الولاية الذي وضع عام ١٩١٢م يمنع البلهاء والمجانين من التصويت في الانتخابات. والتعديل المقترح الذي سيتم التصويت عليه بعد غد سيحذف وصف البلهاء والمجانين من الدستور.

---

(١) جريدة اليوم، الأربعاء ٢٩ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ٢١ يناير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٧٧.

لكن غالب الأنظمة الحاكمة تتجاهل هذه التطلعات الشعبية، وتتمسك بنهج الاستئثار بالسلطة ومصادرة الحريات. وقد تلتف على مطالب شعوبها بالقيام بلعبة الانتخابات الصورية الزائفة، حيث يفوز الحاكم أو حزبه بأكثرية الأصوات، وقد عرّف الرئيس العراقي المخلوع نفسه للقوات الأمريكية التي ألقت القبض عليه في الجحر المظلم، بأنه الرئيس المنتخب لشعب العراق، كما نقلت وسائل الإعلام أيام سلطته البائدة أن نتيجة آخر انتخابات رئاسية فوزه بـ٩٨٪ من الأصوات.

من ناحية أخرى، تشتد وطأة الضغوط الاقتصادية ومتطلبات الحياة، على أبناء هذه الشعوب، وخاصة جيل الشباب، الذين يعانون من قلة فرص التعليم الجامعي، وصعوبة الحصول على فرص العمل، حيث نسبة البطالة في تصاعد مستمر، فيتعرضون لحالات الإحباط واليأس من القدرة على بناء مستقبلهم وتأسيس حياة كريمة.

ويثير الإجرام الصهيوني حفيظة أبناء الأمة وغضبهم، حيث يشاهدون مسلسل العدوان اليومي على الشعب الفلسطيني، قتلًا وتنكيلًا، وجرفًا للمنازل والأشجار، وقضمًا للأراضي، على مرأى من العالم والحكومات الإسلامية دون أي مانع أو رادع.

كل هذه الأمور تحدث الغليان في نفوس أبناء الأمة، وتدفعهم للصدام مع الحكومات، وقد يأخذ هذا الصدام منحى خطيرًا، وشكلًا فظيعًا، بممارسة العنف والإرهاب الأعمى، الذي يصيب الأبرياء، وينشر الرعب والجزع في أوساط المجتمع، ويسيء إلى قضايا الأمة بدل أن يخدمها أو يساعد على معالجتها.

هذا الاضطراب السياسي الداخلي يشل حركة الأمة ويعوق تقدمها، ويشغل قوى الحكومة والشعب عن برامج التنمية والبناء، ويفسح المجال أمام مختلف الاحتمالات، ومنها استغلال القوى الخارجية وتدخلها تحت عنوان حماية حقوق الإنسان، أو الدفاع عن الأقليات، أو نشر الديمقراطية.

الإصلاح السياسي

تتأكد الآن أكثر من أي وقت مضى ضرورة مبادرة الأنظمة السياسية إلى القيام بإصلاحات شاملة، تستجيب فيها إلى تطلعات شعوبها، وتحفظ وجودها، وتحقق الإستقرار والأمن السياسي والإجتماعي، وتسد الطريق على مساعي الدول الكبرى التي يبدو أنها مصممة على التدخل في شؤون مختلف مناطق الشرق الأوسط، لفرض تغيير سياسي فيها بحجة نشر الديمقراطية، وضمن مشروع مكافحة الإرهاب، كما صرح بذلك أكثر من مسؤول في الإدارة الأمريكية.

إن أخذ زمام المبادرة من قبل الحكومات للإصلاح السياسي هو الطريق لتلافي انفجار غضب الشعوب، التي يصعب عليها الاستمرار في تحمل ضغوط الواقع المر، والصبر عليه أكثر، خاصة مع وجود المحفزات الدولية، ووضوح ضعف بنية الأنظمة وقدرات صمودها.

فالنظام إذا لم يكن محميًا بإرادة شعبه، يستند في وجوده إلى دعم القوى الخارجية، فإذا ما قررت سحب دعمها عنه فسيكون انهياره حتميًا. وبدل أن تقدم الأنظمة التنازلات للقوى الخارجية لضمان دعمها، كما رأينا في عروض صدام الشائنة على الأمريكيين قبل الحرب، من الأفضل أن تستجيب لمطالب شعوبها المشروعة.

إن الإصلاح السياسي، الذي يحقق المشاركة الشعبية، وممارسة الحريات، ويصون حقوق المواطن، هو طريق الاستقرار الداخلي، وصنع الأرضية المناسبة للعلاقة الإيجابية بين مختلف الفئات الاجتماعية، دون أن تجور فئة على أخرى، وهو الذي يدفع لاتجاه تكامل الدول الإسلامية وتعاونها على أساس إرادة شعوبها ورغبتهم الصادقة.

العلاقة بين الفئات والطوائف

مع أن التنوع أصيل وعريق داخل المجتمعات الإسلامية، حيث تتعدد الأعراق

والقوميات والأديـان والمذاهب والتيارات الفكرية والسياسية في ظل العالم الإسلامي، ومع أن الحضارة الإسلامية قدمت في سالف تاريخها أروع صفحات التسامح والتعايش مع اختلاف الانتماءات، إلّا أن واقع المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة أخذ يضيق ذرعًا بحالة التنوع الطبيعية، واضطربت فيه العلاقة بين الفئات المختلفة الانتماء، حين تهيمن فئة قومية أو سياسية على مقاليد الأمور، وتجور على حقوق الفئات الأخرى.

وأصبحت مجتمعاتنا تعاني من سياسة الإلغاء والإقصاء والتمييز، على أساس الدين أو المذهب أو القومية.

وتفجرت الخلافات والنزاعات القومية والمذهبية في كثير من المناطق، ومن أسوأ حالاتها فتن الخلافات المذهبية الطائفية، حيث يستخدم الدين فيها سلاحًا للتكفير والتعبئة والتحريض.

وتطورت بعض هذه النزاعات إلى احتراب أهلي أتى على كيان الوطن، وحطم هيكل الدولة، ومزّق الشعب إلى فرق وأجزاء، كما حدث في الصومال، وفي سنين الحرب الطائفية في لبنان،وقريب منه ما حصل في أفغانستان والجزائر، والحرب بين جنوب وشمال السودان.

الفصل الرابع

بناء الذات وأخلاقيات النجاح

المسؤولية الشرعية والوطنية في العمل الوظيفي[1]

لا بدّ لإدارة شؤون المجتمع من جهاز وظيفي، فأي قائد مهما كانت قدراته وكفاءاته لا يستطيع إدارة الأمور بجهده وطاقته الشخصية المباشرة، وأي إدارة لعمل واسع متشعب تحتاج إلى الإستعانة بموظفين.

والجهاز الوظيفي مهم وحسّاس؛ لأنه يشكل القناة بين الحاكم والناس، فعبره تصل أمور الناس وقضاياهم إلى الحاكم، وبواسطته تنفذّ الأنظمة والقوانين، فإذا كان الجهاز الوظيفي صالحًا ويعمل بشكل سليم، أنتظمت أمور الناس وفق النظام والقانون، أما إذا أصابه الفساد والخلل، فستضطرب أمور العباد والبلاد، وتتعثر الأنظمة والقوانين، ولن يغني صلاح الحاكم ولا يعوّض عن فساد الجهاز الإداري.

حسن الاختيار

ومن أجل أن يؤدي الجهاز الإداري والتنفيذي دوره على أحسن وجه، لا بد من حسن الاختيار وخاصة لذوي المراتب المتقدمة، والمناصب العليا، وتركز النصوص الدينية على صفتين رئيستين يجب أن تتوفرا في الموظف المسؤول: صفة الأمانة وصفة الكفاءة. والأمانة تعني أن يحافظ على الإمكانات التي تكون تحت يده فلا

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٩ ذي القعدة ١٤٢٢هـ، ٢٣ يناير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٤٩ .

يُصرف شيء منها إلا في موارده المقررة، وألّا يسيء استخدام موقعه وصلاحياته تبعًا لرغباته وميوله، وتنفيذًا لمآربه الشخصية وانتماءاته.

والكفاءة تعني الجدارة والأهلية للمسؤولية الملقاة على عاتقه، يقول تعالى عن لسان نبيه يوسف عليه السلام حينما رشّح نفسه لإدارة الاقتصاد في مصري: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[سورة يوسف، الآية: ٥٥].

لقد وصف نفسه بصفتين اعتبرهما مبررًا لأهليته وصلاحيته للمنصب: أنه حفيظ، أي أمين مؤتمن يحفظ ما يكون تحت يده من ثروات وإمكانات، وعليم أي صاحب معرفة وكفاءة تمكنه من تحمّل المسؤولية وأداء المهمة.

وفي مورد آخر ينقل القرآن الكريم عن ابنة نبي الله شعيب عليه السلام، حينما اقترحت على أبيها توظيف نبي الله موسى عليه السلام للقيام بأمور خدمتهم، فركّزت على صفتين رأتهما في شخصية تؤهلانه للوظيفة، يقول تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[سورة القصص، الآية: ٢٦].

ويقول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارًا ـ وفي نسخة اختيارًا ـ ولا تولهم محاباة وأثرة»[١].

إن إعطاء الوظائف للمحسوبيات والمحاباة على حساب النزاهة والكفاءة لهو سبب من أهم أسباب الفساد والخلل في الأجهزة الوظيفية والإدارية في أية مؤسسة من المؤسسات.

الرقابة والإشراف

حينما يُكلّف الإنسان بوظيفة من الوظائف، ويجد نفسه صاحب أمر ونهي ضمن صلاحيات منصبه، ويرى تحت تصرفه إمكانات وسلطات، فسيكون أمام امتحان حقيقي، ينجح فيه الصالحون الواعون الذين يخافون ربهم، ويخشون حسابه وعقابه،

---

(١) نهج البلاغة. كتاب رقم٥٣.

بينما يتساقط في هذا الامتحان أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يعتبرون المنصب والوظيفة فرصة ومجالًا لإشباع رغباتهم ونزواتهم، ولتحقيق مطامعهم، وتصفية حساباتهم مع الآخرين من خلال الموقع الذي تسلقوه.

وقبل أيام نقلت الصحف خبرًا يعتبر عيّنة لما تعاني منه بلدان كثيرة من الفساد الإداري وسوء إستخدام الوظيفة، وهو أن أحد كبار مسؤولي الشرطة في بومباي/ الهند، عمد إلى إقفال مطعم صيني فخم اعتاد الأكل فيه مجانا من دون أن يدفع. وكان سبب الإقفال أن مسؤول الأمن طلب حجز طاولة، إلا أن صاحب المطعم اعتذر لأن كل الطاولات محجوزة، فما كان منه إلا أن أرسل قوة أقفلته لتأخره لمدة ربع ساعة بعد الموعد المحدد للإقفال وهو الواحدة والنصف فجرا[١].

وقد يكون هذا الإنسان الموظف صالحًا في بداية الأمر، لكن إغراءات المنصب، والفرص المتاحة أمامه قد تغريه، ويسوّل له الشيطان طريق الفساد، وإساءة استخدام الوظيفة، ويُلحظ أن بعض الأشخاص تطرأ على شخصيته تغييرات في سلوكه وأخلاقه بعد أن يتبوأ موقعًا أو منصبًا رفيعًا. كما يقول تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[سورة العلق، الآيتان: ٦ـ٧].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «الولايات مضامير الرجال»[٢].

في مواجهة هذه الاحتمالات الواردة لا بدّ من رقابة وإشراف على سير أعمال الموظفين، وسلوكهم في ممارسة مهامهم، ووجود الرقابة يشكل رادعًا عن الانحراف، كما تُكتشف عبرها كثير من الأخطاء والمفاسد والثغرات.

ويروى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «أنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا بعث جيشًا فأمهم أمير بعث معه من ثقاته من يتجسس له خبره»[٣].

(١) صحيفة الحياة. بتاريخ ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ، الموافق ١٩ سبتمبر ٢٠٠٠م، ص٦.
(٢) نهج البلاغة. قصار الحكم ٤٤١.
(٣) الشيخ جعفر السبحاني. معالم الحكومة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، (بيروت: دار الأضواء)،

وفي عهده لمالك الأشتر يوصي الإمام علي عليه السلام برقابة العمال والموظفين فيقول: «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ـ العمال ـ فإن تعاهدك في السرّ لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهدًا فبسطت عليه العقوبة»[1]. وعرف عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رقابته الشديدة على الولاة ومحاسبته الصارمة على أخطائهم وتعدياتهم.

وفي كتاب الخراج أشار أبو يوسف القاضي إلى ضرورة هذا الأمر فقال: (وأنا أرى أن تبعث قومًا من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا في البلاد... وإذا صح عندك من العامل والوالي تعد بظلم وعسف وخيانة لك في رعيتك... فحرام عليك استعماله)[2].

وقد تبلورت هذه الرقابة في تاريخ الدولة الإسلامية، وتحولت إلى مؤسسة تحمل عنوان ولاية المظالم أو ديوان المظالم، لتقوم بدور الإشراف والرقابة على موظفي الدولة وتقويم سلوكهم وممارساتهم الإدارية.

وفي العصر الحديث اعتمدت الدول الغربية هذا الأسلوب المؤسسي في الرقابة والإشراف منذ قيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر بعنوان مجلس الدولة، وأطلقت عليه بعض الدول «القضاء الإداري» أي بعد أكثر من ألف سنة على قيامه في الدولة الإسلامية.

كما تلعب الصحافة ووسائل الإعلام الحرة دورًا أساسًا في تلك الدول لملاحقة الأخطاء والمفاسد الإدارية.

ص٦٠٢.

(١) نهج البلاغة. كتاب رقم٥٣.

(٢) معالم الحكومة الإسلامية. ص٦٠٤.

الموظف وتحدي المسؤولية

للرقابة الإدارية، والإشراف الدقيق، دور في تقليص مفاسد الجهاز الوظيفي، لكن فرص الانفلات من تلك الرقابة، أو الالتفاف عليها، ليس معدومًا أمام من تسوّل له نفسه خيانة الأمانة، والتلاعب بالمسؤولية، لذلك تشكو مختلف دول العالم اليوم من مشاكل الفساد الإداري، وأصبح يشكل ظاهرة عالمية.

تقول دراسة لمؤسسة «أرنست أنديونغ» للمحاسبة في لندن، حول موضوع الاحتيال على الشركات الدولية الكبرى: إنه يرتكب أربعة أعمال احتيال من كل خمسة على الشركات أشخاص يعملون في هذه الشركات، وغالبًا ما يكونون موضع ثقة، وخدموا فترة طويلة. وجاءت الدراسة على شركات تعمل في (١١) دولة، وشملت (١٧) قطاعًا، وأكدت أن الاحتيال يكشف صدفة، وليس عن طريق أنظمة الضبط والتحكم المعمول بها.

كما جاء في تقرير نشر في أمريكا بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٥م أنه تبلغ خسائر سرقة الوقت من قبل العاملين والموظفين في أمريكا (١٧٠) مليار دولار سنويًا، وبمعدل تسع ساعات أسبوعيًا من كل عامل وموظف، ويتساوى الرجال والنساء في معدل السرقة من وقت العمل.

لذلك فإن من أفضل وسائل مواجهة هذه المشكلة إيقاظ الشعور بالمسؤولية في ذات الموظف، بحيث يدرك أن الوظيفة أمانة شرعية ووطنية في عنقه، وأن أي خيانة أو تفريط فهو محاسب عليه أمام الله تعالى، ويشكل أضرارًا بمصلحة وطنه ومجتمعه.

فمن الناحية الشرعية يعتبر الموظف ملتزمًا بعقد يؤدي بموجبه عملًا معينًا ليستحق عليه أجرة محددة، وهو مؤتمن على مصالح وإمكانات يتحمّل مسؤولية الحفاظ عليها واستخدامها في مواردها المقررة بحسب نظام العمل.

إن التقصير في القيام بمهام الوظيفة والعمل بسبب الكسل وحب الراحة،

والانشغال بالأمور الشخصية في وقت العمل هو حرام شرعًا لما فيه من تفويت لمصالح الناس، حيث يعاني الكثير من المواطنين من مماطلة بعض الموظفين وتأخير إنجاز معاملاتهم، وإيذائهم بتكرار مراجعاتهم للدوائر، مع إمكان إنهاء المعاملة فورًا وبوقت أقصر وأسرع.

وإلى جانب حرمة تفويت مصالح الناس وإيذائهم، فإن هناك إشكالًا شرعيًا في ما يتسلمه من راتب وأجر مقابل هذا الوقت المهدر، إن كل يوم من أيام العمل وكل ساعة من ساعاته، يتغيّب فيها العامل أو يهدرها دون عذر مشروع، فإن المبلغ الذي يقابل ذلك الوقت من راتبه لا يحلّ له شرعًا.

وقد قدّم للإمام السيد أبو القاسم الخوئي رحمه الله الاستفتاء التالي:

هل يجوز للعامل أو الموظف في الدائر الحكومية أن يتغيّب بصورة عذر كاذبة أو بدون ذلك في أيام بعض المناسبات الدينية؟

فأجاب: إذا كان خلاف النظام، ويأخذ مع ذلك راتب وظيفته فلا يجوز[١].

كما سئل المرجع الديني السيد علي السيستاني عن حكم تأخر الموظف أو المدرس عن الدوام بفارق ١٥ دقيقة أو ٣٠ دقيقة فأجاب حفظه الله:

لا يجوز له ذلك ولا يستحق الراتب المقرر له بمقدار ما تخلّف عن أداء وظيفته[٢].

كما أجاب عن سؤال حول مخالفة النظام الإداري بما يلي:

لا يجوز للموظف المذكور كغيره من الموظفين التخلف عن الأنظمة التي التزم بتطبيقها بموجب عقد توظيفه ما لم تشتمل على محرّم[٣].

وتشدد التعاليم الإسلامية على النزاهة والأمانة تجاه الإمكانات المرتبطة ببيت

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات، ج٢، ص٣٠٠، مسألة رقم٩٤٢.
(٢) السيد علي السيستاني. أجوبة المسائل الدينية، مكتب سماحته بدمشق، ص٦٤، مسألة١١٠.
(٣) المصدر السابق. مسألة ١١١.

المال وثروة الشعب والوطن، فلا يجوز للموظف أن يستخدم شيئًا منها لمصالحه الشخصية خارج النظام والقانون.

وقد سئل المرجع الديني السيد محمد الشيرازي دام ظله: عن استخدام الموظف الحكومي أو الأهلي للتليفون التابع لعمله لأغراضه الخاصة؟

فأجاب ناهيًا: لا يفعل ذلك[1].

هكذا يربي الإسلام أبناءه على احترام المصالح العامة، والوفاء بالتعهدات، والأمانة في أعمالهم ووظائفهم.

فالوظيفة في منطق الإسلام ليست موردًا للكسب والربح فقط وإنما هي قبل ذلك أمانة ومسؤولية. كما يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه لواليه على أذربيجان أشعث بن قيس: «وأن عملك ليس لك بطعمه ولكنه في عنقك أمانة»[2].

الموظف وأخلاق التعامل

يرى بعض الموظفين نفسه في موضع قوة وقدرة، وأن مصالح وقضايا للناس مرتبطة بقراره وتوقيعه وعمله، مما قد يخلق لديه شعورًا بالتعالي على الناس، واستغلال حاجتهم له ضمن واجبه الوظيفي، ويحصل في أحيان كثيرة أن يطبق الموظف القانون بتعسّف وصلافة تجرح مشاعر الناس، وتسيء إلى كرامتهم وحقوقهم.

وينتج ذلك إما من وجود عقد نفسية عند الموظف، أو لعصبية انتماء قبلي أو مذهبي، أو لتصفية حسابات أخرى بينه وبين بعض المراجعين، أو ما أشبه ذلك.

إنه في هذه الحالة يسيء إلى الجهة التي ائتمنته على الوظيفة، ويخون مصالحها، كما يحمّل نفسه الوزر والإثم من قبل الله تعالى.

---

(١) الشيخ جعفر الحائري. أجوبة المسائل الشرعية، ص١١٣، مسألة ٤٠١.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم٥.

وقد ركز الإمام علي عليه السلام على جانب التعامل مع الناس من قبل موظفي الدولة ومسؤولي الأجهزة الحكومية في عهده لمالك الأشتر حينما ولاه مصر، حيث كتب له قائلا: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سَبُعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[1]. وفي كلامه عليه السلام إشارة هامة إلى احترام الجانب الإنساني للمواطنين وإن اختلف الانتماء الديني.

إن الناس بطبيعتهم يستثقلون القوانين والأنظمة بشكل عام، وإن كانت ضرورية لتنظيم الأمور، فإذا ما أضاف الموظف بسوء أخلاقه عليهم ثقلا آخر، فإن ذلك يحدث في نفوسهم السخط والنقمة، وينفّرهم من النظام والقانون.

الإتقان والإخلاص في العمل

وكمواطنين يهمنا أن تتقدم بلداننا، وأن تنتظم شؤون حياتنا وتتطور إلى الأفضل، فإن كل واحد منا يتحمّل جزءًا من المسؤولية في إنجاز هذا الهدف الهام. إن التخلف والمشاكل تحصل بسبب اجتماع وتراكم حالات الإهمال والتسيب والتقصير، فغياب موظف هنا، ومماطلة آخر هناك، وتقصير مسؤول في هذا الموقع، ومحاباة آخر في ذلك الموقع.. من مجموع هذه الممارسات والنواقص يحصل الخلل، وتتأثر مصالح الوطن والمواطنين.

إن أخطاءً قد تحصل في مؤسسات صحية عامة أو خاصة، بسبب الإهمال والتقصير، فتذهب ضحيتها أرواح مواطنين أعزاء، أو إصابتهم بإعاقات وأمراض خطيرة.

وإن تخلفًا وتدنيًا في مستويات بعض الطلاب مما يؤثر على مستقبلهم الدراسي قد ينتج عن تساهل وتقصير من بعض المدرسين، أو الإداريين في المؤسسات التعليمية.

وإن تعثرًا في حركة التصنيع والإنتاج، أو سوءًا وتخلفًا في صفات منتجات متداولة

(١) نهج البلاغة. كتاب رقم٥٣.

تضرّ بالناس، قد يكون بسبب خلل وإهمال في تطبيق القوانين والأنظمة من قبل الموظفين المعنيين.

وهكذا فإن حياة المواطنين وصحتهم ومستقبل أبنائهم وحركة إنتاجهم ومختلف شؤونهم.. وسيادة القانون والنظام في البلاد، كل ذلك يرتبط بمدى إتقان الموظفين لأعمالهم الموكولة إليهم، وإخلاصهم في أدائها.

إن أوطاننا وثرواتنا ومستقبلنا أمانة في أيدينا جميعًا فلنتقِّ الله في أنفسنا ومجتمعنا وبلادنا، وإن التدين الصحيح يجب أن يظهر أثره في أداء الأمانة والقيام بالواجبات والمهام في خدمة المصلحة العامة.

بين التحاسد والتنافس ١/٢ [1]

نعرف جميعًا أهمية سلامة الجسم وعافيته، وندرك كم تسبب الإعاقة والأمراض الجسمية من متاعب وعراقيل في حياة الإنسان، لكن الأشد أهمية هو صحة النفس وسلامتها، فإعاقات الجسم وأمراضه يمكن تحملها والتكيّف معها، كما يمكن تجاوز تأثيراتها ومضاعفاتها الحياتية عبر تنمية وتفعيل سائر المواهب والقدرات المتعددة التي يمتلكها الإنسان، فكم من معاقٍ أو مبتلى بمرض مزمن قطع أشواط النجاح في هذه الحياة، وحقق إنجازات تفوق بها على الأصحاء. وفي قائمة العلماء والعظماء أسماء لامعة كثيرة لمعلولين وفاقدين لبعض أعضائهم أو حواسهم.

لكن المعاق في نفسيته بعاهة أو مرض فتّاك تتحول حياته إلى جحيم وشقاء، فهو لا يهنأ ولا يسعد في حياته، ولا يستطيع التعايش والانسجام مع الآخرين. بالطبع هناك فارق أساس هو أن إعاقات الجسم قدر مفروض على الإنسان، خارج إرادته واختياره، بينما عاهات النفس ضمن سيطرته وفي نطاق إرادته وقدرته، وإلا لما استحق عليها الذم والتوبيخ، والتعرض للجزاء والعقاب.

ومن الأمراض النفسية الخطيرة ما يشعل نار العداوة، ويؤجج لهيبها، ويجعل الإنسان في صدام دائم مع الآخرين، فيشقى هو بذلك أولًا، ويسبب المشاكل

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٧ محرم ١٤٢٣هـ، ١٠ أبريل ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٢٦.

والمتاعب لمن يقع عليه أذاه.

وفي رأس قائمة تلك الأمراض الفتاكة: الحسد.

التنافس الإيجابي

حينما يرى الإنسان أشخاصًا ناجحين في الحياة، يتمتعون بنعم وإمكانات، ويحققون إنجازات ومكاسب، فان ذلك ينبغي أن يدفعه إذا كان سليم القلب معافى النفس إلى أن يتطلع هو إلى مثل تلك الحالة، ويسعى إلى تحقيقها في ذاته، عبر العمل وبذل الجهد، وبالتوجه إلى الله تعالى المالك لكل شيء والمعطي لكل خير.

فالإنسان من حبه لذاته، يريد حيازة الخير لها، ويرغب أن يكون متفوقًا على من حوله، وذلك تطلع مشروع، واندفاع طبيعي، يساعد على إعمار الأرض، وتسخير ثروات الكون، وتفجير طاقات الإنسان، وتحقيق كماله وتقدمه.

إن التسابق نحو خير الدنيا والآخرة مطلوب، يقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[سورة الحديد، الآية:٢١]. ويقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٤٨]. ويقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[سورة الواقعة، الآيتان: ١٠-١١]. والتنافس في ميدان العمل مرغوب، يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[سورة المطففين، الآية: ٢٦].

وذلك يعني أن يكثّف الإنسان نشاطه، ويزيد فاعليته، ليسابق الآخرين، ويحرز ما أحرزوا، فالتطلع المجرد، والتمني الفارغ لا ينتج ولا يثمر شيئًا.

الاقتراب من الناجحين

إن النجاح والتفوق في أي مجال من المجالات، هو ثمرة صفات وسمات معينة، كما ينتج خبرات وتجارب نافعة، فإذا ما رأيت إنسانًا ناجحًا متفوقًا في جانب يحظى باهتمامك فعليك أن تقترب منه، لتدرس تجربته، وتستفيد من خبرته، ولترى كيف

يمكنك أن تكسب من خلال حالته المتقدمة.

وهذا يستلزم أن تنفتح عليه نفسيًا، فتكون نظرتك له إيجابية، فهو عضو في أسرتك البشرية، ومجتمعك الإنساني، ونجاحه وتفوقه في ميادين الخير والعطاء يصب في صالح التقدم العام، وما قد يكون لديه من مواصفات طيبة وعوامل ساعدته على النجاح تستحق الإشادة والتقدير.

هذه النظرة الإيجابية تشجعك على الاقتراب منه، وما ينتج عنها من سلوك وتعامل سيدفعه هو الآخر للتعاطي معك، وتلك هي أرضية الصداقة والعلاقة النافعة المثمرة.

الحسد عدوان بلا مبرر

في الحالة السوية المستقيمة يكون وجود المتفوقين والناجحين حول الإنسان، دافعًا إلى الطموح والتطلع، وسببًا لتوثيق العلاقة والصداقة، أما في الحالة المرضية فإنه يشعل نار العداوة والبغضاء، ويؤدي إلى الفتنة والخطر. حيث يزعج الإنسان ويسخطه وجود شخص متميز عليه في محيطه، فينظر إليه نظرة عدائية، ويتمنى زوال النعمة عنه، وقد يسعى لإيقاع الضرر به، ويطلق على هذه الحالة مصطلح «الحسد».

والحسد ـ كما عرّفه اللغويون وعلماء النفس والأخلاق ـ هو تمني زوال نعمة الغير. جاء في لسان العرب: الحسد أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه. وجاء في (معجم علم النفس والطب النفسي) بأنه: (مشاعر غير سارة تتولد عن الرغبة في تملك ما يمتلكه شخص آخر مثل الثروة أو الجمال أو المكانة)[١].

وروى ابن ماجه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٢] يصف الإمام علي الحسد بأنه: «شرّ الأمراض» وأنه «رأس الرذائل».

---

(١) د. جابر عبد الحميد جابر. د.علاء الدين كفافي، معجم علم النفس والطب النفسي، ج٣، طبعة ١٩٩٠م (القاهرة: دار النهضة العربية)، ص١١٤٩.

(٢) القزويني: ابن ماجه. باب الحسد.

فهو إساءة واعتداء غير مبرر على الغير بلا جرم اقترفه أو ذنب فعله، إلا أنه حظي بنعمة، أو نال مكانة وأحرز مكسبًا، يقول الإمام علي عليه السلام: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له»[1].

فهابيل ابن آدم لم تصدر منه أي إساءة تجاه أخيه قابيل، إلا أن الله تعالى تقبل قربانه دون قربان أخيه قابيل، بسبب إخلاصه وتقواه، فثارت حفيظة قابيل، وامتلأت نفسه حنقًا وغيظًا، حسدًا لأخيه على مكانته عند الله، واندفع ليرتكب أول جريمة قتل في تاريخ البشر، بتصفية حياة أخيه هابيل.

ويوسف بن يعقوب لم يكن له أي ذنب يستوجب عداء أخوته له إلا ما خصه به أبوه من المحبة والودّ، لتميزه على سائر إخوانه بصفات الكمال ومؤهلات النبوة، فقادهم حسدهم إلى الكيد به والتآمر عليه بتلك الطريقة البشعة التي سجل القرآن الكريم تفاصيلها لتبقى عظة وعبرة للأجيال.

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٥٦.

بين التحاسد والتنافس ٢/٢ [1]

آفاق التقدم

فرص التقدم المادي والمعنوي متوفرة ومتاحة أمام كل إنسان، ونعم الله تعالى مبذولة للجميع ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٢٠]. ومن تراه متمتعًا بنعمة من النعم، فتلك حصته التي لا تؤثر على نصيبك ولا تلغي دورك، فشمّر عن ساعدك، وابذل جهدك، لتنال من فرص الحياة بمقدار ما تسعى وتتحرك. وابحث عن نقاط قوتك، وفجر مواهبك الخاصة، فقد تكون مرشحًا لدور آخر وتفوق جديد تمتاز به عن الآخرين.

لكن مرض الحسد الخبيث ينحرف بتفكير الإنسان عن هذا المنحى السليم، لينحدر به إلى منزلق المشاعر العدائية، وليخلق في نفسه حالة الإحباط، فيبقى متخلفًا يراوح مكانه، يعيش التأزم النفسي، ويتكرس لديه العجز والفشل. الآخرون يتقدمون ويواصلون زحفهم، فيحقد عليهم لأن تقدمهم يكشف تخلفه، وتكاملهم يبدي نقصه، وبدل أن يقتحم ميدان الجد والاجتهاد، وساحة التنافس والسباق، ينشغل باجترار الأحقاد، وتمني فشل الآخرين، والعمل من أجل إعاقة تحركهم وعرقلة مسيرهم.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٤ صفر ١٤٢٣هـ، ١٧ أبريل ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٣٣.

فالحاسد لا يفكر كيف يتقدم هو؟ بل يصبح همه الأول في الحياة سقوط الآخرين وزوال نعمهم.

غضب على القدر

وإذا كانت بعض النعم والامتيازات تصل إلى الإنسان دون كسب منه، كالصفات الخلقية، والانتماء العائلي، أو الإمكانات التي يرثها من أرحامه، أو المواقع القيادية الرسالية، فإنها تقدير إلهي، وقسمة ربانية، فلماذا ينزعج الحاسد من ذلك؟ إنه حينئذٍ يعترض على تقدير ربه وحكمته، يقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[سورة النساء، الآية:٥٤].

تحطيم للذات

الحسد مرض خطير فتّاك تبدأ مضاعفاته المدمرة على نفس حامله أولًا، حيث يعيش مأزومًا محبطًا قلقًا، يرى الأمور والأحداث من خلف نظارة سوداء، وفي الوقت الذي ينعم فيه الآخرون بإنجازاتهم ومكاسبهم، يبقى هو يجتر الهموم والحسرات، فلا يرتاح ولا يهنأ بدنياه، وهو في آخرته أخسر وأشقى. يقول الإمام علي: «الحسد مطية التعب» و « ثمرة الحسد شقاء الدنيا والآخرة».

أعراض اجتماعية

قد يكون الحسد مرضًا فرديًا محدودًا يبتلى به بعض الأفراد من المجتمع، فيصطلون بنار أضراره وشقائه، وقد يكون ظاهرة سائدة في بعض المجتمعات، تبرز أعراضه ومضاعفاته على مستوى العلاقات بين أفراد المجتمع وفئاته.

ولعلّ من أبرز أعراض الحسد كظاهرة مرضية اجتماعية، هو ما يتجلى في طريقة التعاطي والتعامل مع الكفاءات والقدرات من أبناء المجتمع، ففي الوضع الصحي السليم تلقى الكفاءة والطاقة، في أي مجال من المجالات العلمية أو الأدبية أو

الاجتماعية أو الاقتصادية، ترحيبًا من أوساط المجتمع، وتشجيعًا وإشادةً، ومساعدةً ودعمًا، يدفعها إلى المزيد من التقدم والعطاء، والنمو والظهور. أما في الحالة المرضية، فإن نظرات التنكر والتجاهل، وإثارة الشكوك والارتياب، وتطلب العثرات والأخطاء، هذه النظرات تلاحق أي كفاءة تبرز، وأي قدرة تظهر، من أبناء المجتمع. وهذا عرض وأثر يدلّ على انتشار مرض الحسد في النفوس.

وغالبًا ما تعشش هذه الحالة المرضية في المجتمعات المتخلفة، فبروز الكفاءة يذكر الآخرين بنقصهم، وذلك أمر يزعجهم، فيتمنون عدم ظهور أي كفاءة (لأن البلية إذا عمت طابت). كما أن التخلف والقهر يكرّسان الأنانية الجوفاء الملتوية في نفس الإنسان، فينظر إلى المتميزين والمتفوقين وكأن تقدمهم جاء على حسابه، وأنه الأولى والأحق منهم بتلك المكاسب والإنجازات التي أحرزوها، نتيجة لتضخم الذات، وانتفاخ الأنا، دون سعي أو حركة.

وتلك هي الأرضية التي تنبت منها العداوات، وتفرخ فيها الأحقاد، وتجد كفاءات المجتمع نفسها محاطة بأجواء العداء والصراع، مشغولة بتخطي العراقيل والعقبات المصطنعة في طريقها.

وما يواجه هذه الحالة هو الوعي الحضاري والتربية الأخلاقية، ليدرك أبناء المجتمع دور وأهمية أي كفاءة تبرز في تعزيز مكانتهم جميعًا، وشق طريق التقدم أمامهم، وأن ظهور أي طاقة عالمًا أو خطيبًا أو أديبًا أو مهندسًا أو تاجرًا أو موظفًا كبيرًا أو رجل أعمال .. هو مكسب لكل المجتمع.

وساحة التنافس والاجتهاد مفتوحة للجميع، ونعم الله واسعة وخيراته كثيرة، فلماذا التحاسد؟ ولماذا التباغض؟

التخطيط في الانفاق[1]

في المجتمعات التي يتوافر لأبنائها وعي اقتصادي حياتي، يعتمد كل فرد له ميزانية سنوية، وفق مستوى دخله، وحسب أولويات احتياجاته، فيحدد نسبة من دخله لكل مجال من مجالات حياته، فللتعليم كذا في المئة، وللصحة كذا، وللغذاء كذا وهكذا.

وعادة ما تخصص نسبة للادخار لمواجهة الحالات الطارئة، التي انطلقت منها شركات التأمين في المجالات المختلفة.

كتب أحدهم رسالة لجريدة عكاظ هي نموذج يحكي حالة الكثيرين، ومما جاء فيها: أنا شاب متزوج ولدي طفلة صغيرة، وأعمل في وظيفة محترمة، وأتقاضى راتبًا يبلغ تسعة آلاف ريال شهريًا، وما إن يأتي آخر الشهر لا أجد ريالًا في جيبي، ومشكلتي تكمن في عجزي عن ادخار أي مبلغ ينفعني في الأيام الصعبة، ويساعدني على تأمين مستقبل جيد لأولادي، عجزت عن شراء متر أرض واحد أو بناء منزل لي ولأولادي.

إن إنفاق الإنسان يجب أن يكون في حدود دخله، وصرفه يجب أن يكون ضمن ميزانية يعتمدها بدراسة وتفكير، لا أن يصبح دخله في مهب رياح الدعاية والإعلان، وتحت تأثير الرغبات الاستهلاكية الارتجالية.

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٩ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ١٠ يوليو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦١٧.

عادات الإسراف والتبذير

لقد تحول الإسراف والتبذير والمبالغة في الاستهلاك إلى عادات وأعراف حاكمة في مجتمعاتنا.

فأطفالنا يتربون من صغرهم على حب الاستهلاك، فتعطى لهم النقود دون حاجة، ويتعلمون الاستمتاع بالشراء، لمجرد الشراء وإن كان لشيء لا يفيدهم، بل قد يكون ضارًا لهم. وترى في حالات كثيرة حينما يبكي الطفل ويريد أهله تهدئته يقال له خذ ريالًا أو خمسة أو عشرة واذهب إلى البقالة!! في مقابل ذلك تشجع بعض العوائل في المجتمعات المتقدمة أبناءها منذ صغرهم على فتح حسابات للادخار، وتعلمهم كيف يفكرون فيما يشترون قبل أن يشتروا.

وعلى المستوى العام فالتسوق والشراء لم يعدّ تلبية لحاجة في حياة العائلة، بل أصبح برنامجًا للترفيه والتمتع، فيذهبون إلى السوق ليس لشراء حاجات معينة يريدونها، وإنما يتجولون في المحلات التجارية لتتخلق عندهم الحاجة ورغبة الشراء، فالاستهلاك بحد ذاته مصدر لذة وارتياح.

كما تعوّد الناس أن يشتروا الأشياء بالكميات، وحتى فيما يسرع إليه التلف، فيحملوا أنفسهم نفقات التخزين والتبريد، ويخسروا قسمًا كبيرًا منها بالخراب والتلف، ذلك أن الواحد منا يستحي أن يشتري بالكيلو أو الحبة الواحدة!!

بينما ترى في أمريكا وأوروبا ان العائلة تشتري بضع حبات من البرتقال أو التفاح أو جزءًا من حبة البطيخ وما أشبه.

وعاداتنا في الأكل والشرب قائمة على الإسراف والتبذير غالبًا، وخاصة في الولائم والمناسبات العامة، حيث يقدم لشخصين أو ثلاثة صحن طعام ممتلئًا يكفي لعشرة أشخاص فيتناولون منه مقدارًا يسيرًا ويرمى الباقي!! وهي حالة مألوفة معروفة.

وتحكي أرقام وزن النفايات المنزلية صورة عن مستوى الإسراف والتبذير، فقبل

سنوات أشارت دراسة نفذها المعهد العربي لإنماء المدن بعد مسح شامل لحوالي ١١١ مدينة عام ١٩٨٦م، إلى أن النفايات المنزلية في ٢٩ مدينة في دول مجلس التعاون الخليجي تشكل ٧٩٪ من المجموع العام للنفايات المختلفة، وهذه النسبة تعتبر من أعلى النسب في كل دول العالم. ويلقي الفرد في مدينة الرياض نحو ٢٠٠٠ جرام من النفايات العامة يوميًا!!

في بعض الدول الأوروبية تجمع القمامة والنفايات المنزلية يومين في الأسبوع، أما عندنا فهي تجمع يوميًا، بل يلاحظ أنها تزيد على استيعاب البراميل المعدة لها.

كما أصبح الاستهلاك ميدانًا للتفاخر والتباهي، فاختيار نوع السيارة أو أثاث المنزل، أو طريقة احتفال الزواج في هذه الصالة أو تلك، وبهذا الشكل أو غيره، لا يتم نتيجة اختيار موضوعي وإنما لتسجيل نقاط في مجال التفاخر والتباهي، ومحاكاة لذلك الشخص أو تلك الجهة.

إننا ندفع ثمنًا باهظًا لهذه العادات السيئة، فأولًا: غضب الله سبحانه وتعالى الذي نهانا عن الإسراف والتبذير، يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

وثانيًا: ترهقنا بأعبائها، حيث يجد الواحد نفسه منساقًا لمماشاة هذه العادات والأعراف، مع عدم قدرته وضعف إمكاناته، فيتحمل الديون والقروض، ويتعرض للإحراج والمشقة، كما تتعرقل بسببها متطلبات وحاجات الحياة، وتنتج المشاكل العائلية والاجتماعية.

فالزواج أصبح يتطلب كلفة كبيرة، ومراسيم العزاء عند الوفاة تحتاج مبالغ طائلة، وتقديم الهدايا عند الولادة من قبل المرأة لصديقاتها يستلزم ميزانية باهظة.

دعوة الى الترشيد

لم تكن مجتمعاتنا تعيش مثل هذه الحالة الاستهلاكية في الماضي، وحتى لدى

الطبقات الثرية والمتمكنة، لكن توافر السيولة في الأيدي، والتأثر بوسائل الإعلام والدعاية، هو الذي شجع على عادات الترف والإسراف. لكن الوضع الاقتصادي الآن أصبح ضاغطًا على الأكثرية الساحقة، فالحاجة ماسة لتغيير أنماط الاستهلاك السائدة، وترشيدها بما يتناسب مع ارتفاع مستوى المعيشة، ومحدودية المداخيل. ومع أن الناس جميعا يتبرمون من هذه العادات الضاغطة المرهقة، إلا أنهم يخضعون لها ويتقيدون بها، خوفًا من الانتقاد والاتهام بالبخل.

والمطلوب تجاوز هذا الإحساس المضخم، وأن تبدأ مبادرات الترشيد على مستوى الانفاق الخاص، وفي المناسبات العامة، وإذا ما تعددت هذه المبادرات فسوف تتكون عادات جديدة راشدة يقبل عليها الكثيرون.

الاستهلاك وعادات الإسراف[1]

تنافس رهيب وسباق محموم على مستوى العالم بين الجهات المصنعة المنتجة، يغرق الأسواق بألوان السلع والخدمات، لمختلف احتياجات الإنسان ورغباته، ففي كل مجال من المجالات، تجد أمامك خيارات عديدة متنوعة قد يتعبك استقصاؤها، وتستعين الجهات العالمية المنتجة بخبراء ومراكز بحوث ودراسات، لتطوير إنتاجها كمًا وكيفًا، من أجل توسيع رقعة أسواقها الاستهلاكية، ولتعزيز مداخيلها وموقعها الاقتصادي.

وتلعب أجهزة الإعلام دورًا كبيرًا في خدمة أغراض التسويق عبر أساليب دعائية إعلانية تتفنن في الإغراء واستقطاب الزبائن المستهلكين.

وحتى السياسة أصبحت توظف لصالح كبريات الشركات ومصانع الإنتاج، حيث يعمل الزعماء السياسيون للدول الصناعية، من أجل فتح الأسواق أمام منتجات بلادهم، وقد يمارسون الضغوط على الدول الأخرى بهذا الاتجاه، ومن أبرز الأمثلة المعاصرة الخلافات التي وقعت بين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة واليابان والصين من جهة ثانية، لإلحاحها على الدولتين لفتح أسواقهما أمام السلع الأمريكية. لقد أصبح الاستهلاك والتسويق أهم قضية اقتصادية يتوجه إليها، فالاستهلاك وقود

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٧ جمادى الآولى ١٤٢٣هـ، ١٧ يوليو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٢٤.

الإنتاج ومحرك الاقتصاد، فلكي تستمر حركة التصنيع والإنتاج وتتطور لا بدّ من أسواق تستهلك، وزبائن تشتري، والإنتاج أصبح كثيفًا وضخمًا للغاية على المستوى العالمي، ويحتاج إلى تصريف واسع.

لذا يكون التنافس شديدًا على الأسواق، وتبتكر مختلف الوسائل والأساليب لتشجيع الاستهلاك، من اقامة المعارض، ومهرجانات التسوق، وإعلان مواسم لتخفيض الأسعار والخصومات، وإعطاء الجوائز والمكافآت على السحب، إضافة إلى الدعايات والإعلانات المستمرة، التي تثير دوافع الاستهلاك، وتصنع الرغبات، وتفتعل الاحتياجات في نفوس المستهلكين.

ولأن الكثير من الناس خاصة في الدول النامية، قد لا يمتلكون السيولة النقدية، التي تستجيب لرغبات الاستهلاك، فقد استحدثت معالجات لهذه الإشكالية، عن طريق البنوك التي تقدم القروض، وعبر (الفيزا كارت)، وبواسطة البيع بالأقساط.. كل ذلك لدفع الناس للشراء والاستهلاك، لتستمر ماكينة الإنتاج والتصنيع، ولتزيد ثروات وأرباح أصحاب رؤوس الأموال خاصة أرباب الشركات الكبرى.

أرقام ودلالات

وتشكل مجتمعاتنا الخليجية سوقًا استهلاكية مغرية، تسعى كل جهة منتجة لأخذ حصتها المناسبة منها، وتثبيت أقدامها في وسطها، ليس لكثافة سكانية في هذه المنطقة، وإنما لتوفر السيولة المالية فيها، ولسهولة التأثير على أنماط الحياة المعيشية للمجتمع، بما يخدم مصلحة المنتجين، فإنسان هذه المنطقة لا يحتاج إلى جهد كبير لإقناعه بشراء أي سلعة، ولا يتشدد كثيرًا في المواصفات، ولا يجادل غالبًا حول القيمة والسعر.

ولو ألقينا نظرة سريعة على بعض الأرقام المتوفرة عن النشاط الاستهلاكي في المنطقة، خاصة حول بعض السلع الكمالية والرفاهية، لأدركنا الأهمية التي توليها

الجهات المنتجة المصنعة للتسويق في هذه المجتمعات كما تظهر لنا دلالات التوجهات الاستهلاكية لدى المواطنين.

مجال الأثاث: يقدر معدل النمو السنوي لسوق الأثاث في السعودية بنحو ٤٪، ويبلغ حجم هذه السوق ما يذيد على ٣ بلايين ريال (٨٠٠ مليون دولار). وحجم إنفاق الأسر السعودية على الأثاث يسجل ارتفاعًا مستمرًا، حيث يزيد على٣٪ من الدخل السنوي للأسرة وفقًا لدراسات السوق، وتغير الأسر السعودية المتوسطة الدخل أثاثها كل ٥ إلى ٧ سنوات، فيما تنخفض المدة للأسر الأكثر دخلًا، التي تغير أثاثها كل ٣ إلى ٥ سنوات.

الملابس: حجم سوق الملابس الرجالية في السعودية يتجاوز أربعة بلايين ريال سنويًا (٠٦ , ١ بليون دولار) منها بليون ريال (٢٧٦ مليون دولار) حجم سوق الشماغ والغتر فقط.

العطور ومستحضرات التجميل: أظهرت دراسة اقتصادية أن إنفاق المستهلك الخليجي على العطور ومستحضرات التجميل، تعتبر من أعلى معدلات الاستهلاك في العالم. وقدرت حجم واردات مجلس التعاون الخليجي منها بنحو ٨١٧ مليون دولار سنة ١٩٩٥م. وأشارت الدراسة التي أعدها مصرف الإمارات الصناعي إلى أن دول الخليج استوردت ألف طن من العطور ومواد التجميل إلى جانب إنتاجها المحلي البالغ ٦٥ ألف طن.

قيمة واردات السعودية منها ٢٥٠ مليون دولار، والإمارات ١٩٠ مليون دولار.

ولاحظت الدراسة تزايد استهلاك العطور ومستحضرات التجميل بصورة مطردة مع ارتفاع مستويات المعيشة، واتساع القاعدة الاجتماعية للفئات ذات الدخل المتوسط في دول مجلس التعاون الخليجي.

وذكرت مجلة اليمامة السعودية ضمن تحقيق لها عن (المرأة في السعودية واستهلاك

أدوات التجميل) أنه خلال عام ١٩٩٥م استهلكت النساء في السعودية «٥٣٨» طنًا من أحمر الشفاه، و«٤٣» طنًا من طلاء الأظافر، و«٤١» طنًا من مزيلات هذا الطلاء!! و٢٣٢ طنًا من مستحضر تجميل العيون، وصباغة الشعر «٤٤٥» طنًا.

الذهب والألماس: تعتبر السعودية ثالث أكبر سوق عالمية للذهب تقدر قيمتها ٣ بلايين دولار سنويًا، وقدر مسؤول في شركة (دي بيرز) أكبر شركة للألماس في العالم حجم سوقه ـ عدا بقية الشركات ـ في منطقة الخليج بأكثر من بليون دولار سنويًا. وقال إن الطلب على الألماس في منطقة الخليج يعتبر من الأعلى في العالم.

المشروبات الغازية: ارتفع حجم السوق السعودية في قطاع المشروبات الغازية إلى أكثر من بليون دولارسنويًا.

هذه نماذج وأمثلة بسيطة عن توجهات وارتفاع وتيرة الاستهلاك في مجتمعاتنا لمواد كمالية يمكن التخفيف من استهلاكها وتوفير تلك المبالغ لبناء صناعة وطنية أكثر ثباتًا وأكثر أهمية في حياتنا.

بين الإنتاج والاستهلاك

في الدول الصناعية يكون الاستهلاك عملية متكاملة مع الإنتاج، وموازية له، فالفكرة هناك أنه لكي تنتج وتصنع أشياء جديدة لا بدّ من وجود قدرة عالية على الاستهلاك، بل إن الإنتاج عندهم يفيض على الحاجة الاستهلاكية لديهم في غالب مجالات التصنيع، لذا يتجهون إلى التصدير، ويبحثون عن أسواق الاستهلاك خارج بلادهم.

لكن مشكلة بلداننا أن الاستهلاك عملية عشوائية قائمة بذاتها لا ترتبط بالإنتاج، ولا تتجه لتشجيع الإنتاج الوطني.

إن الفرد في مجتمعاتنا يلهث خلف الاستهلاك لكنه ضعيف الإنتاجية والفاعلية، وقبل فترة أشارت دراسة أعدتها لجنة علمية أمريكية تحت عنوان: (في مواجهة

المستقبلات) إلى أن الإنتاج الخام للفرد في الدول الصناعية عام ٧٥م كان ٣٠٠٠ دولار وصل في عام ٢٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ دولار، بينما لم يتعد إنتاج الفرد في الدول النامية عام ٧٥م ٢٩٠ دولارا، ووصل عام ٢٠٠٠م إلى ٨٦٠ دولارا، أي إن النسبة بين إنتاجية الفرد هناك وإنتاجية الفرد هنا هي واحد إلى عشرة تقريبًا!!

إنهم يستهلكون ما ينتجون فيتقوى اقتصادهم، وتتنشط دورته، بينما نبالغ ودون وعي أو تقدير عواقب اقتصادية في استهلاك ما ينتجه الآخرون فتتبدد ثرواتنا وامكاناتنا.

ولو كانت لدينا خطط وأطروحات لاستقطاب جزء من السيولة التي في أيدي المواطنين باتجاه مشاريع الإنتاج والعمل والتصنيع، لكنا في مستوى أفضل.

كما أننا بحاجة لتشجيع الإنتاج الوطني، بدل التهافت على الاستيراد واقتناء السلع الأجنبية بحاجة وبدون حاجة.

تحدي العوائق[1]

قد يواجه الإنسان عائقًا قاهرًا يصعب اقتلاعه وتجاوزه، إما لطبيعة ذلك العائق، كالعاهات والاعاقات الجسدية، وإما لاستلزامه ظرفًا وقدرة لا يمتلكها الإنسان بالفعل، وهنا يجب أن يتحلى الإنسان بالواقعية، فلا يصبح أسيرًا لتلك المشكلة التي لا يمتلك حلها بالفعل، بل يخرج عن سيطرتها على نفسه ومشاعره، ويلتفت إلى سائر نقاط قوته، والى الإمكانات المتوافرة لديه، والفرص الأخرى المتاحة أمامه، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه تقدمًا ونموًا يعوض له ما فقده من تطلع ورغبة بسبب تلك العوائق، وقد يجد نفسه في موقع أفضل ومستوى أعلى.

إن من يعيش في مقتبل عمره حالة يتم بفقد والديه أو أحدهما، فيعاني حرمانًا عاطفيًا، ويفتقد الرعاية التي يرى غيره يتمتع بها، هذا الإنسان إذا سيطرت على نفسه معاناة اليتم، وخضع لها، فسيعيش الألم والتمزق النفسي، الذي قد ينعكس عليه اكتئابًا وإحباطًا، وقد يدفعه لتوجهات سلبية خاطئة.

وستكون حياته متخلفة، ومستقبله سيئًا.. بينما لو تكيف مع حالة اليتم كأمر واقع، لا يستطيع تغييره ولا تبديله، واتجه لاكتشاف قدراته، وتنمية طاقاته، فإنه سيصبح في وضع جيد، ومستوى متقدم، يتوفق به على آخرين عاشوا في كنف آبائهم وأمهاتهم،

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٥ جمادى الأخرة ١٤٢٣هـ، ١٤ أغسطس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٥٢.

لكنهم لم يمتلكوا مؤهلاته ومستواه. وكذلك من يبتلى بإعاقة جسدية كفقد البصر، أو تشوه الخلقة، أو حالة كساح أو شلل.. فإنه إذا وقع في أسر معاناته، وأستجاب نفسيًا لحالة النقص التي عنده، فسيحكم على نفسه بالانزواء والانهيار، أما إذا تجاوز تلك الاعاقة نفسيًا، وفتش عما لديه من نقاط قوة أخرى، وفعلها ونمّاها، فسيكون مرشحًا للعب دور مؤثر في الحياة، قد يتفوق من خلاله على الأصحاء العاديين. وكم من معوق أصبح في مصاف العظماء، وحقق تقدما وانجازا في تاريخ البشرية..

ونقرأ في تاريخنا العربي عن شخصية رائدة في الفلسفة والأدب هو أبو العلاء المعري (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ، ٩٧٣ ـ ١٠٥٧م) والذي فقد بصره وهو في الرابعة من عمره إثر اصابته بالجدري، لكنه أقبل على العلم والأدب، ونمّا في نفسه القدرة على الحفظ، فكان يبحث عن الكتب والمكتبات، ويجتهد في حفظ ما يقرأ عليه منها، حيث توجه من بلدته حلب إلى أنطاكية واستفاد من مكتبة عامرة فيها، تشتمل على نفائس الكتب، فحفظ منها ما شاء الله أن يحفظ، وذهب إلى اللاذقية فدرس اليهودية والنصرانية، وزار طرابلس قاصدا مكتبة كبيرة فيها، ثم تردد في طور لاحق على مكتبات بغداد ودور العلم فيها، فأصبح أديبًا نابغًا، روى الثعالبي عن أبي الحسن المصيصي الشاعر قوله:

لقيت بمعرة النعمان عجبًا من العجب، رأيت أعمى شاعرًا ظريفًا يدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء. وأشار ابن العديم إلى قوة حفظ أبي العلاء برواية حكاية عن ابن منقذ ذكر فيها أنه يقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فيحفظهما، ولم يعلم له من شيوخ بعد سن العشرين، وذكر هو أنه لم يحتج اليهم بعدها.

ان فقد البصر لم يقعد به عن طريق المجد والتقدم، بل أكتشف موهبته في الحفظ ونماها، وأستفاد من عشقه للعلم والمعرفة فنهل منها. وأصبح شخصية علمية أدبية عالمية.

ومن الأمثلة المعاصرة لأشخاص تجاوزوا إعاقتهم، وحلقوا في سماء العظمة

والعبقرية، العالم البريطاني المعروف (استيفن هاوكنج) الذي يعد أبرز العلماء في الفيزياء والرياضيات، في النصف الثاني من القرن العشرين.. لقد أصيب بمرض وهو في السابعة من عمره، وصارع المرض حتى اصبح كسيحًا يتحرك على مقعد ذي عجلات، ولا يستطيع التكلم بشكل طلق ومفهوم، فلا تفهم له إلا سكرتيرته أو تلامذته القريبون، لكنه صار أستاذ الرياضيات العليا في جامعة (كامبردج) الشهيرة، وعيّن وعمره ٣٢ سنة في الجمعية العلمية الملكية البريطانية، وشغل فيها كرسي نيوتن، سنة ١٩٧٤م. وقدم نظريات علمية عظيمة وجديدة حول الكون، وفي الفيزياء والرياضيات، وله أبحاث كثيرة مطبوعة، ترجم منها إلى اللغة العربية كتابه (تاريخ موجز الزمان).

مجتمعات تتحدى العوائق

وعلى صعيد المجتمعات، قد يواجه مجتمع ما ظرفًا قاهرًا، تعاق فيه حركته، ويقع تحت سيطرة مناوئة، فإذا ما استسلم وخنع فسيعيش التخلف والذل، وإذا ما سيطرت على أبنائه حالة الإحباط والقنوط فسينكفئون على أنفسهم، وتظهر في أوساطهم تيارات العنف والتطرف، أما إذا شمروا عن سواعد الجد والنشاط، واهتموا ببناء كفاءاتهم، وصقل مواهبهم، واستغلال الفرص المتاحة أمامهم، فسيفرضون أنفسهم على ساحة الحياة، ويصنعون لمجتمعهم معادلة جديدة من القوة والتقدم.

ولعل الشعب الياباني أفضل مثل يقدم في التاريخ المعاصر، فقد خرج هذا الشعب من الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م، منهزمًا محطم القوى، بعد إصابته بالقنبلة الذرية في هيروشيما ونكازاكي.

وكانت خسائرهم البشرية تقدر بمليونين وثمانين ألف إنسان، وخسائرهم الاقتصادية تزيد على ٥٦٢ مليار دولار. وحينما قرر الإمبراطور الياباني وحكومته الاستسلام انتحر آلاف الضباط تألمًا واحتجاجًا. وفرضت عليهم شروط وجود قواعد أمريكية، وعدم عسكرة اليابان، وان يكون جيشهم بحجم حاجتهم الداخلية.

لقد كان هذا الظرف قاهرًا ومفروضًا عليهم، ولا يستطيعون مواجهته بالقوة، لكنهم لم يستسلموا لليأس والقنوط، ولم تسيطر عليهم حالة الإحباط، ولم ينشغلوا باجترار الغبن، والبكاء الدائم على مصائبهم، بل سارعوا بعد تسعة أشهر من انتهاء الحرب إلى تشكيل مجلس أعلى قرر البدء بالإصلاح الشامل، واتجهوا صوب التعليم، ونحو التصنيع التكنولوجي، وحفّزوا الهمم في أنفسهم، واجتهدوا في تفجير كفاءاتهم ومواهبهم، وأسسوا مجالس منتخبة لتطوير المدارس واستيعاب أكبر قدر من الطلاب، فكان من نتائج ذلك ما يلي: أصبح الطفل الياباني في الرابعة عشرة من عمره، يتلقى تعليمًا لا يتلقاه الأمريكي إلا في الثامنة عشرة من عمره. وتبلغ أيام الدراسة في اليابان ٢٢٠ يوما، بينما هي في أمريكا ١٨٠ يومًا.

وبينما يحقق الطالب الأمريكي والأوروبي ١٠٠ نقطة في اختبارات الذكاء فإن الطالب الياباني يحقق ١١٧ نقطة. أما على الصعيد الاقتصادي فإن الدخل القومي لليابان سنة ١٩٥١م كان يعادل ثلث الدخل القومي لبريطانيا، ونصف دخل أمريكا، لكنه في سنة ١٩٩٠م أصبح بمقدار ثلثي دخل أمريكا وثلاثة أضعاف دخل بريطانيا!!

وأصبحت اليابان أغنى دولة في أصولها المالية والعقارية، حيث وصلت ثروتها في هذا المجال إلى ٤٣ تريليون دولار، بينما تقدر ثروة أمريكا في نفس المجال بـ ٣٦ تريليون دولار.

وتعبيرًا عن هذا التقدم الاقتصادي أصدر رئيس شركة سوني اليابانية كتابًا سنة ١٩٨٨م بعنوان (اليابان يمكن أن تقول لا للولايات المتحدة الأمريكية).

ومعروف أن معدل الأعمار في اليابان هو الأعلى عالميًا، حيث يصل الى ٨٢ عامًا للنساء، و٧٦ عامًا للرجال، وفيها أكثر من ٤٠٠٠ شخص أعمارهم تزيد على ١٠٠ عام.

هكذا تكون الفاعلية أفضل طريق وأحسن خيار للالتفاف على العوائق، ولتحقيق تطلعات التقدم والرقي، على صعيد الفرد والمجتمع.

هدر الأوقات[1]

لضعف الإحساس بالمسؤولية تجاه الزمن، وللتصور الخاطئ عن وظيفة وقت الفراغ، فإن البعض يهدرون أوقاتهم خلال العطلة الصيفية والإجازات بشكل مؤسف، ويتحدثون بكل صراحة عن قتل وقت الفراغ. إما عبر جلسات فارغة، تستمر ساعات طويلة، دون فائدة أو قيمة، أو بالتسكع على أرصفة الشوارع والطرقات. إن لقاء الأصدقاء والجلوس معهم أمر جيد، شريطة أن يكون ضمن الحدود الطبيعية، وأن يستثمر في تعميق أواصر المودة، والاستفادة الفكرية والعملية، بمناقشة موضوع مفيد، أو تنمية موهبة وكفاءة.

لكن جلسات قتل الوقت تأخذ منحى آخر، إذ تطول ساعات دون مبرر، ولا يتخللها إلا كلام تافه، قد يكون سببًا للمشاكل والآثام.

التلقي السلبي

أصبحت وسائل الإعلام المتقدمة. وتكنولجيا الاتصالات المتطورة، كقنوات البث الفضائي، وشبكة الانترنت، تستهلك جزءًا كبيرًا من وقت الإنسان المعاصر، وهي تفتح أفقًا معرفيًا واسعًا أمام الإنسان، وتقدم له خدمات عالية، آخذة في الاتساع.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٢ جمادى الأخرة ١٤٢٣هـ، ٢١ أغسطس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٥٩.

وفي أيام إجازات الدراسة والعمل يتضاعف الإقبال على هذه الوسائل، حيث يقضي أمامها الكثيرون ساعات طويلة كل يوم.

وتتمثل سلبية التعاطي مع وسائل الإعلام والاتصالات في جانبين:

أولا: استهلاك الوقت دون حدود، وعلى حساب سائر المهام والأبعاد من شخصية الإنسان والتزاماته، حتى أشار تقرير نشر قبل عشر سنوات، إلى أن بعض الطلاب عندما يتخرج من المرحلة الثانوية يكون قد أمضى أمام جهاز التليفزيون قرابة «١٥» ألف ساعة، بينما لا يكون أمضى في فصول الدراسة أكثر من «١٠٨٠٠» ساعة على أقصى تقدير، أي في حالة كونه مواظبًا على الدراسة، محدود الغياب، ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعة «٦٠٠» ساعة سنويًا، بينما متوسط جلوسه أمام التليفزيون «١٠٠٠» ساعة سنويًا.

وقد سبب الإنجذاب غير المقنن إلى وسائل الإعلام والإتصالات، انخفاضًا في الأداء التعليمي، عند شريحة واسعة من الطلاب والطالبات.. كما سبب تدنيًا في مستوى العلاقات العائلية، واهتمام الزوجين ببعضهما، واهتمامهما بالأبناء. ويحدث كثيرًا أن تهمل الأم أطفالها، من أجل متابعة أحد الأفلام أو المسلسلات.

أما قراءة الكتب، وبرنامج التثقيف الذاتي، فقد أصبحا في خبر كان، عند أكثر أبناء هذ الجيل، المستقطب إعلاميًا ومعلوماتيًا.

الثاني: سوء الاختيار وسلبية التلقي، فهناك أكثر من ٥٠٠ قناة عالمية تبث مختلف البرامج ليل نهار، وهناك ملايين المواقع على شبكة الإنترنت، تعرض كل شيء دون حدود أو قيود، فإذا لم تكن للإنسان قيم وضوابط في اختياره لما يشاهد ويتابع، فإنه سيكون فريسة سهلة، ولقمة سائغة، للتوجهات الفاسدة، التي تحرض الغرائز والشهوات، وتشجع على العنف والإجرام، وتروج لأنماط سلوكية مخالفة للمحيط الاجتماعي، وهي في مجملها أدوات للعولمة الثقافية، التي تريد إلغاء الهويات الحضارية لمختلف الشعوب والأمم، لتذويبها في بوتقة الحضارة الغربية المادية.

إن الإنسان لكي يحرص على صحة جسمه لا يتناول طعامًا ملوثًا، كذلك عليه ان يحرص على صحة فكره وسلوكه، فلا يتلقى المشاهد والتوجهات السلبية الضارة. يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «عجبت لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه».

وإذ يتمتع الإنسان بنعمة السمع والبصر من الله سبحانه وتعالى، فإنه يتحمل المسؤولية تجاه طريقة استخدامهما، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

الفراغ والانحراف

إن من أسو الظواهر التي تنتج عن فراغ العطلة الصيفية، إذا لم تستثمر بالبرامج الصالحة، هي ظاهرة التصرفات الشاذة، والسلوكيات المنحرفة، في وسط الجيل الناشئ.

ذلك أن الشعور بالفراغ يدفع لتقبل أي اهتمام، وعادة ما يصحب التوجهات الخاطئة إغواء وإغراء، ولقلة النضج والخبرة عند الشباب والمراهقين، يكون انزلاقهم سهلًا.

وتؤكد الأبحاث والتقارير، دور مشاهدة الأفلام والبرامج السيئة، في الاندفاع نحو الانحرافات، وأعمال العنف، لدى المراهقين والمراهقات، كما أن استخدام شبكة الإنترنت، كثيرًا ما يكون وسيلة إغواء يستجيب لها الشباب، خاصة في فترة الفراغ، فيدخلون عبرها على مواقع سيئة.

ويذكر عبدالرحمن مصيقر في دراسته عن الشباب والمخدرات في دول الخليج العربي: أن دراسات أجريت في بعض الدول العربية عن متعاطي المخدرات تبين أن أغلبهم كانوا يشغلون بها وقت فراغهم.

ونقل باحث آخر، نتائج بعض الدراسات التي أجريت حول علاقة وقت الفراغ

بالإنحراف، وتوصلت إلى ما يلي:

١. إن أغلبية الأفعال الانحرافية يرتكبها الفرد أثناء وقت الفراغ.

٢. إن نسبة كبيرة من الانحرافات ترتكب بقصد الاستمتاع بوقت الفراغ.

إن حالة الهدوء والاستقرار في كثير من الأحياء السكنية، تتعرض للاهتزاز والاضطراب، عند أول يوم من أيام العطلة الصيفية، حيث يمارس عدد من الشباب هواية التفحيط بسياراتهم، والقيام بحركات بهلوانية حتى وسط الأحياء السكنية، ويمتطي بعضهم دراجات نارية ذات صوت مرتفع مزعج، وينتشر بعض الشباب في الطرقات والأماكن العامة، ليقوموا بتصرفات شاذة، منافية للأدب والاحترام.

وتحسب العوائل ألف حساب للسيطرة على أبنائها عند تعطيل الدراسة، كما تستعد الأجهزة الأمنية للتعامل مع ارتفاع معدل الحوادث والجرائم والمشاكل السلوكية، خلال العطل والإجازات.

وليس مبالغة أن نقول: ان العطلة الصيفية تخرج كل عام أفواجًا من الملتحقين بتيارات الفساد والانحراف وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «من الفراغ تكون الصبوة» أي الممارسات الصبيانية. وعنه: «إن يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة».

إن ذلك يؤكد مسؤولية الجميع في الاهتمام بالتخطيط السليم لوقت الفراغ، والعمل على احتواء وإستيعاب الطلاب والطالبات خلال العطلة الصيفية، لمساعدتهم على استثمارها بما يخدم مستقبلهم ومصلحة الوطن.

لقد كان أرسطو على حق، وبعيد النظر حين رأى أن أهم أهداف التربية، هو تعليم الناس، كيف يستطيعون تمضية أوقات فراغهم، واستغلالها بصورة إيجابية ومفيدة.

المبادرة واستباق الخيرات[1]

تمتلئ الحياة بفرص الخير ومجالات التقدم، ويمتلك كل إنسان من القدرات والاستعدادات ما يؤهله لاقتناص تلك الفرص، وارتياد تلك المجالات، لكن الناس يتفاوتون في الانتباه لها والمبادرة نحوها.

فهناك من يدرّب نفسه على التركيز في النظر، وإمعان الفكر، ودقة الملاحظة، في أي ميدان من الميادين التي تحيط به، في العلم أو العمل، أو السياسة أو التجارة، أو ما أشبه، فيلمح الفرصة من بعيد، ويلتقط الإشارات، ويستقرىء الأوضاع والأشخاص.

وهناك البسيط المسترسل في حياته واموره، الذي لا يرهق نفسه بتفكير أو تحليل، ولا يتجاوز في نظراته السطح أوالظاهر، فتمر عليه الفرص، وتتاح له المجالات، وهو غافل ساهٍ، كأنه لا يبصرها ولا يدركها.

كما أن من يلتفتون إلى الفرص ويدركونها يختلفون ويتفاوتون في مستوى الفاعلية والإقدام، لأخذ زمام المبادرة، والتوثب نحو أعمال الخير.

ذلك أن الكثيرين ترد على أذهانهم أفكار جيدة وتتوافر لهم ظروف مناسبة للإنجاز والتقدم لكن عوائق نفسية تقعد بهم عن الاندفاع والمبادرة بينما يفوز بها الشجعان المبادرون.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٦ جمادى الأخرة ١٤٢٣هـ، ٤ سبتمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٧٣.

فالمبادرة هي عنوان النجاح، وهي طريق التقدم وسلاح اغتنام الفرص، واستثمار الظروف والفرد المبادر يحقق الإنجازات ويحظى بالمكاسب وكذلك المجتمع الذي يتحلى بهذه الصفة، فإنه يتمتع بالحيوية، ويطور واقعه إلى الأفضل بشكل دائم مستمر.

في القرآن الكريم

ولأهمية هذه الصفة في حياة الفرد والمجتمع تحدث عنها القرآن الكريم في آيات عديدة، وبأكثر من تعبير، فقد ورد الحديث عن المبادرة في بعض الآيات بلفظ المسارعة.

يقول تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

والمسارعة في اللغة مصدر قولنا: سارع فلان إلى كذا، مأخوذ من مادة «س ر ع» التي تدل على خلاف البطء وسارع بمعنى أسرع يقال ذلك للواحد، وللجميع سارعوا والمسارعة إلى الشيء المبادرة إليه.

ونلحظ في الآيات الكريمة توجيه الخطاب إلى الجميع وليس إلى الفرد فقط لأن المطلوب أن تكون هذه الصفة سمة للمجتمع كله في مسيرته ومواقفه، كما أن بعض الآيات استخدمت تعبير المسارعة في الخيرات، بدلًا المسارعة إلى الخيرات لتعطي إيحاء بعمّق حالة المبادرة داخل المجتمع، فالجميع في إطار الخير، لكن هناك من يضاعف سيره ونشاطه لأن المسارعة إلى الشيء تكون من خارجه، بينما المسارعة في الشيء تكون من داخله.

يقول ابن عاشور: في للظرفية المجازية، وهي تخييلية تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه.

وتحدثت آيات أخرى عن السبق والمسابقة واستباق الخيرات، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.. والسبق: القدمة في الجري وفي كل شيء وتقول العرب للذي يسبق من الخيل: سابق وسبوق. وأسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا: اي بادروا ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، أي بادروا إليها وقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ معناه ابتدرًا الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه.

هذه الألفاظ الثلاثة، المسارعة والمسابقة والمبادرة، متقاربة المعنى إلى حدٍّ كبير، ومع أن بينها فروقًا في الاستعمال في كثير من السياقات إلا أن بينها ما يسميه بعض اللغويين بالترادف الجزئي ويراد به أن يستعمل اللفظان أو الألفاظ استعمالًا واحدًا في بعض السياقات دون بعضها الآخر وهذه الألفاظ الثلاثة من هذا القبيل فهي عند الاقتران بالخيرات أو العمل الصالح يكون لها المعنى نفسه، وقد كثر لفظ «المبادرة» في الحديث الشريف ولفظ المسارعة في القرآن الكريم، أما المسابقة فقد وردت فيهما على سواء.

الاوائل

المبادرة تجعل الإنسان رائدًا يقتحم مجالات لم يسبقه إليها غيره، وتدفعه إلى تحقيق إنجازات لم يتوفق لها أحد قبله، فيكون قد شق طريقًا جديدًا، وفتح افقا اخر أمام أبناء مجتمعه ونوعه الذين سيسلكون نفس الطريق بعد أن مهّده لهم واكتشفه قبلهم فيبقى هو الأول والمتقدم والسابق. بالطبع فإن الإرتياد والأقتحام لميدان جديد ولطريق لم يُسلك لا يقوم به إلا كفء شجاع لذلك يستحق الأوائل السابقون في ساحات الخير كل تقدير وإكبار، فقد أشاد القرآن الكريم بالأوائل السابقين إلى الدين والحق، يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾.

وفي أكثر من آية كريمة يشجع القرآن الإنسان على أن يتطلع إلى أن يكون الأول في طريق الخير والصلاح، وذلك لا يتم إلا بإمتلاك روح المبادرة، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي

أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ويقول تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والأول هو ابتداء الشيء.

ونجد في حضارتنا العربية الاسلامية اهتمامًا وعناية بمفهوم الأولية حيث خصصوا بداية كل شيء وأوله باسم وعنوان خاص، لتمييزه وإبرازه، فأول النهار صبح وأول الليل غسق، وأول المطر وسمي، وأول العصير سلاف، واول مولود لأبويه بكر، وأول كل شيء باكورة، واول الجيش طليعة.. وهكذا.

بل شهدت نهاية العصر العباسي الأول ولادة فن جديد من فنون التاريخ على يد أبي الحسن علي بن محمد بن عبدالله المدائني المتوفى (٢٢٥هـ/ ٨٤١م) سمّوه (علم الأوائل) وعرف القلقشندي هذا العلم في كتابه (صبح الأعشى) بقوله: «هي معرفة مبادئ الأمور المهمة»، أما حاجي خليفة فقد قال عن علم الأوائل في كتابه (كشف الظنون) ما يلي: «هو علم يتعرف منه أوائل الوقائع والحوادث بحسب المواطن والنسب وموضوعه وغايته ظاهرة وهذا العلم من فروع التواريخ والمحاضرات».

وهكذا كان الاهتمام بالتعرف على الرواد الأوائل وتعريفهم وعلى بدايات ظهور الأشياء والحوادث على أيديهم فظهرت مؤلفات كثيرة حول هذا الموضوع منها ما طبع ومنها ما هو مخطوط، منها كتاب (الأوائل) لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري المتوفى سنة (٣٩٥هـ١٠٠٥م) الذي طبع أكثر من مرة، وكتاب (الوسائل إلى معرفة الأوائل) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٦م) وهو مطبوع أيضًا، وتنوف الكتب المخطوطة حول الأوائل على ثلاثة عشر كتابًا.

شخصية المبادر[1]

هناك عناصر وعوامل تخلق روح المبادرة في شخصية الإنسان، ومن أهمها مايلي:

١ـ الوعي والمعرفة

بمقدار معرفة الإنسان ومتابعته لأي مجال من المجالات، يستكشف الفرص فيه، وتتضح له الإمكانات ضمنه، وذلك أول شرط من شروط المبادرة، فالجاهل بالأوضاع الاقتصادية، ومن لا يتابع حركتها وتطوراتها، لا تخطر بباله فرص الاستثمار، ولا يدرك مواقع الاستفادة والربح، وحتى لو امتلك المال والثروة لكنه لا يلتفت إلى أفضل سبل تنميتها وتفعيلها، وهكذا الحال في المجال السياسي أو الاجتماعي.

كما أن الوعي العام بطبيعة الحياة، ومجريات الأمور، وطريقة التعامل مع القضايا والأحداث، هو الذي يجعل الإنسان مهيأ للتعاطي مع الظروف المختلفة، وقادرًا على فهم معطياتها.

٢ـ الثقة بالذات

بعض الناس ترد على أذهانهم أفكار جيدة، لكنهم يهملونها؛ لأنهم يشكون في

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٤ رجب ١٤٢٣هـ، ١١ سبتمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٨٠.

قدرتهم على إنتاج وإدراك الأفكار الصحيحة ويتساءلون إذا كانت تلك الفكرة سليمة لماذا لم يدركها فلان وفلان؟ ولماذا لم يقل بها فلان وفلان؟

وفي مستوى آخر من ضعف الثقة بالنفس، يشكك البعض في إمكاناتهم وأهليتهم الذاتية، لتحقيق هذا الإنجاز، أو القيام بتلك المهمة.

بينما ينطلق المبادر من ثقة عميقة بذاته، وأنه لا يقصر عن غيره في القدرات والمؤهلات، ولا يقعد به شيء عن الريادة والإبداع.

فإذا ما اقتنع بفكرة ووجدها صحيحة سليمة، لم ينتظر اقتناع غيره لكي يأخذ هو بتلك الفكرة، وإذا سنحت أمامه فرصة لم يتردد في استغلالها ولا يرى أن غيره أولى بها أو أقدر عليها.

٣ـ الاستعداد للتضحية والعطاء

اقتحام الإنسان لما ليس مألوفًا، وارتياده لميادين جديدة، وساحات غير مطروقة يعني خوض مغامرة محفوفة بمختلف الاحتمالات، وهي تكلف عناءً وجهدًا كما تعرض صاحبها للنقد والاعتراض، وهذا ما يقعد بالكثيرين عن المبادرات خوفا من الفشل أو تهيبًا من المخالفة، لكن المبادر الشجاع يتوكل على الله ويستعد للتضحية والعطاء في سبيل ما اتضح له أنه حق وصواب.

٤ـ الفاعلية والنشاط

فالمبادرة تعني الحركة والإقدام، ومن أصيب بداء الكسل والخمول والتواني، لا يكون مبادرًا ابدًا يقول الإمام علي‏ عليه السلام: «التواني إضاعة» إذا ما أتيحت للإنسان فرصة تقدم، فعليه ان يبادر لاغتنامها لأن بقاءها واستمرارها غير مضمون، وغالبًا فان «الفرصة تمرمرّ السحاب» كما يقول الإمام علي، وعودة تلك الفرص أو تكرارها ليس محرزًا ولا سريعًا، فهي «سريعة الفوت بطيئة العود» كما في كلمة أخرى عنه عليه السلام،وهذا

يعني الاستعداد والتهيؤ لاقتناص الفرص نفسيًا وعمليًا.

يقول أحد المفكرين: كما الطيور التي تقفز في السماء تطير بخفة وسرعة فإذا أردنا إصطيادها فلا بدّ أن نهيىء السلاح مسبقًا ونفتح عيوننا جيدًا حتى إذا مرت رميناها فورا وإلا فلن نحصد إلا الحسرات.. كذلك الفرصة تقفز في الزمن مثل الشهاب، فمن أرادها فلا بد أن يتهيأ لها سلفًا، فيرميها بنبال مبادرته وإلا فإن «اضاعة الفرصة غصة» ونظرًا إلى أن «الفرصة خلسة» فإن من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها فالايام ليست ثابتة، والزمن ليس جامدًا، ولذلك فإن الفرص تظهر وتختفي على دقات الساعة، من هنا كانت المبادرة من صفات العظماء.

من ناحية أخرى فإن الإنسان إذا ما سوَّف وتماهل ولم يبادر فإنه بالأضافة إلى إحتمال فوت الفرصة، قد يفقد هو القدرة والإمكانية، فاستمرار حياته ليس بيده، كما لا يضمن صحته، والحفاظ على مستوى نشاطه، ودوام وسائل وآليات الحركة عنده، ويعبر عن هذه الاحتمالات قول الإمام علي ﵇: «وبادروا بالأعمال عمرًا ناكسًا، أو مرضًا حابسًا، أو موتًا خالسًا».

وقد تبقى الفرصة موجودة، وقدرات الإنسان وإمكاناته محفوظة، لكنه إذا لم يبادر مع مرور الزمن قد يفقد حماسه واندفاعه.

روي عن رسول الله ﷺ: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنه».

مجتمع المبادرات

كما يتفاوت الأفراد في مستوى استجابتهم لفرصة التقدم والخير، بين مبادر وخامل كذلك تتفاوت المجتمعات، بين مجتمع تكثر فيه المبادرات، للاستفادة من أي فرصة، ولمعالجة أي مشكلة أو خلل وذلك هو المجتمع الحي الناهض المتحضر. وبين مجتمع يسود أجواءه الخمول والتواكل فلا يفعل الإمكانات المتاحة له ولا يستثمر

الفرص من اجل حل مشاكله أو تطوير واقعه وإنما يكتفي أفراده باجترار الألم والأسى أو يترامون المسؤولية وتنتظر كل جهة مبادرة الجهة الأخرى.

أن مجتمعاتنا تواجه تحديات خطيرة لقيمها واخلاقها، ولاستقرارها ومصالحها، وتمتلك من الإمكانات والقدرات والكفاءات ما يساعدها على مواجهة هذه التحديات والاستجابة لها، لكن المشكلة تكمن في ضعف الحركة والفاعلية، وغياب المبادرات.

يتحدث الناس في مجالسهم عن الكثير من النواقص والمشاكل، ولا يخلو مجتمع منها، ولكن إلى متى نكتفي بالحديث عن المشكلة؟ ومن ياترى يتحمل مسؤولية المبادرة إلى الحل؟ والسعي نحو العلاج؟

يتحدث البعض عن المفروض كذا ويجب أن يحصل كذا ولا بدّ أن يتحقق كذا، فيوزعون الواجبات والمفروضات على الآخرين، دون أن يحدّدوا هم ما هو دورهم وواجبهم وماذا عليهم أن يفعلوا؟

إننا لسنا بحاجة إلى فلاسفة أو متفلسفين، ولا إلى منظّرين ومحللين بمقدار ما نحن بحاجة إلى من يعلق أجراس المبادرات العملية التي تعالج قضايا المجتمع ومشاكله.

فحينما يجري الحديث عن حالة الضياع والفراغ التي يعيشها الكثير من الشباب أو ظاهرة انتشار بعض المفاسد والانحرافات، أو وجود حالات من العوز الفقر، أو ركود في حركة الثقافة والمعرفة أو أي قضية تثير القلق على مستقبل المجتمع فإن المطلوب هو تجاوز حالة التوصيف للمشكلة إلى وضع الحلول والمعالجات العملية التي نتحمل مسؤوليتها.

إن الله سبحانه وتعالى يحذر عباده المؤمنين من أن يصبح الكلام عندهم بديلًا عن العمل، ومن أن يكتفوا بالقول عن الفعل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾..

ويوبخ الامام علي عليه السلام مجاميع ممن حوله من الذين يتحدثون في المجالس بصوت

عالٍ، ويزايدون على بعضهم في الحماسة والاندفاع، لكنهم يتراجعون ويجبنون ساعة الجد والمواجهة والعمل، يقول: «كلامكم يوهي الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد»!.

وما أشدّ انطباع هذا الكلام على الكثيرين من الناس الذين يتحدثون عن بعض المشاكل بحماس واندفاع في المجالس، فإذا ما طلبت منهم عملًا أو دورا تفننوا في تقديم الأعذار والمبررات!!

ولا بدّ أن نشيد هنا بالمبادرات الطيبة التي يقوم بها أفراد مخلصون من أبناء المجتمع كالقائمين على نشاط الجمعيات الخيرية ولجان كافل اليتيم، وصناديق الزواج الخيري، ومهرجانات الزواج الجماعي، وبرامج التوعية والتثقيف الدينية.. إنهم يسدون بذلك ثغرات في واقع المجتمع، فجزاهم الله خير الجزاء، لكن قضايا ومشاكل أخرى تنتظر مبادرين آخرين.

العوائق بين الإحباط والفاعلية[1]

ما هي خيارات الإنسان تجاه العوائق التي تنتصب أمام احتياجاته ورغباته في هذه الحياة؟

وكيف يتعامل مع الأزمات والمشاكل حينما تواجهه في أي ميدان من الميادين؟

هنالك ثلاثة خيارات تتراوح بينها مواقف الناس:

الاستسلام

فالكثيرون يتراجعون أمام العوائق، ويتخلون عن تطلعاتهم واستهدافاتهم، ويستسلمون لكل تداعيات المشكلة ومضاعفاتها، ويعترفون بالعجز والفشل، وأن ذلك قدرهم الذي لا خيار لهم إلا قبوله. وحينما تسيطر نفسية الاستسلام على الإنسان، فانها تفرض عليه الانهزام والانسحاب أمام أبسط التحديات، وأقل الصعوبات، ودون أن يبذل جهدًا كافيًا لتجاوز ما يواجهه من عوائق.

الانفعال النفسي

والبعض من الناس حينما تصطدم رغباتهم بعوائق وموانع، ويواجهون وضعًا غير

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١١ رجب ١٤٢٣هـ، ١٨ سبتمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٨٧.

مريح لهم، فإنهم يعيشون حالة من التوتر النفسي الدائم ويصابون بالكآبة والإحساس بالقهر، وقد يؤدي بهم ذلك إلى حالة الشعور بالإحباط والقنوط.

وهذا الخيار أسوأ وأخطر من الخيار السابق، الذي يتراجع فيه الإنسان عن رغبته، ويعلن الاستسلام والقبول بالهزيمة.

إنه هنا لا يتخلى عن رغبته بل يزداد انشدادا إليها، ويعاني الشعور بالحرمان منها، ويستحضر في نفسه وذهنه دور العوائق في عدم تحقيق تلك الرغبة بشكل دائم مما يجعله عرضة للاضطراب النفسي والمعاناة الشديدة.

الإحباط

ويطلق علماء النفس على هذه الحالة اسم «الإحباط» (furstration) وهو تعبير عن الحالة التي يمرّ بها الفرد حين لا يتوافر له إشباع دافع يلحّ عليه ويشعره بالحاجة، ويعرفونه بأنه: عملية تتضمن إدراك الفرد لعائق يعوق إشباع حاجة له، أو توقع حدوث هذا العائق في المستقبل.

وتتفاوت درجات الشعور بالإحباط حسب تفاوت إلحاح الدافع وقوة العائق فكلما كان دافع الإنسان شديدًا نحو غرض معيّن وكان العائق قويًا تصبح حالة الإحباط عنيفة بنفس الدرجة والمستوى.

وينتج الإحباط خاصة في درجاته المتقدمة، آثارًا تدميرية خطيرة على حياة الإنسان والمجتمع.

فهو يُمعن في تمزيق نفس الإنسان ويجعله يعيش حالة دائمة من السخط والتوتر ويفقده بالتالي الإحساس بالسعادة، والتمتع بمباهج الحياة، فيتناسى ويتجاهل كل ما لديه وحوله من المكاسب ومنابع اللذة والارتياح ويتركز نظره وتفكيره حول ما تعذر عليه نيله والوصول إليه.

فتصبح الدنيا في عينه سوداء قاتمة، ويصبح هو كئيبًا متشائمًا .

والإحباط يشلّ إرادة الإنسان، ويمنعه من التفكير في السعي والحركة حيث يفقد الثقة في ذاته وفي جدوى أي محاولة أو نشاط.

الاحباط دافع للعدوان

وفي أسوأ مرحلة قد يصبح الإحباط دافعًا نحو العدوان حيث يظهر المصاب بالإحباط شديد التوتر ميالا إلى اقتناص أية فرصة للخلاص من ضغط التوتر لديه.

إننا نلاحظ مثل هذه الحالة عند بعض الأطفال حينما يفتقدون الرعاية التي اعتادوها أو يحال بينهم وبين بعض رغباتهم فإنهم قد يقومون بنشاط تخريبي فيضربون ويكسرون ماحولهم من الأواني والأثاث.

وقد يأخذ العدوان الناشئ من الإحباط شكلًا كلاميًا أحيانًا كالشتائم والكلام القاسي، وقد يأخذ شكلًا عاطفيًا كاختزان الكراهية والحقد على الآخرين، وقد يتفجر عنفًا باتجاه الذات أو الغير.

إن حالات الانتحار هي في الغالب إفراز لمستوى متقدم من الاحباط يهيمن على نفس الفرد ويدفعه لإنهاء حياته للخلاص من ضغط التوتر الإحباطي الذي يعانيه.

لذلك يرى علماء النفس أن مرض الاكتئاب قد يكون اللاعب الرئيس وراء محاولات الانتحار، وتقدر الباحثة الأمريكية الدكتورة «جانيس وتينزل» في كتابها (الاكتئاب الإكلينيكي) أن هناك ٢٠٠ ألف شخص كل عام يحاولون الانتحار والتخلص من حياتهم إلا أن الذين ينجحون في الانتحار وقتل أنفسهم هم ٢٥ ألف شخص من بين المئتين ألف سنويًا.

ويشير تحقيق نشرته جريدة الوطن السعودية إلى أن نصف مليون شخص يحاولون قتل أنفسهم سنويًا وأن الإقدام على الانتحار ليس رغبة في الموت بل للهروب من الألم. وفي أمريكا زاد عدد الذين ينتحرون على الذين يقتلون عن طريق الغير والانتحار عادة يكون بسبب زيادة الضغوط النفسية.

وتعرض التقرير لوجود هذه الظاهرة وتصاعد أرقامها في المملكة، فحسب إحصاء وزارة الداخلية السعودية لعام ١٤٢٠هـ تجاوزت حالات الانتحار ٤٠٠ حالة ومن بين المنتحرين مواطن سعودي حاصل على درجة الدكتوراة وضابط برتبة نقيب ونساء غير متزوجات الأمر الذي يعني أن هناك أكثر من حالة انتحار يوميًا.

الاحباط قنوط من رحمة الله

عالج الإسلام حالة الإحباط تحت اسم «القنوط» حيث وردت آيات وأحاديث عديدة تحذر الإنسان من خطر القنوط، وتعتبره مساوقًا للكفر بالله تعالى والضلال عن منهجه القويم.

والقنوط لغة: مصدر قولهم قنط يقنط إذا يئس يأسًا شديدًا.

قال ابن الأثير: القنوط هو أشد اليأس من الشيء، وقيل القنوط اليأس من الخير، ويبدو ان القنوط أبلغ من اليأس للترقي اليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾.

وعدّ علماء الإسلام القنوط من رحمة الله من الكبائر.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

والآية وردت في سياق قصة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام حيث تقدم به وزوجته العمر ولم يرزقا ولدًا فجاءت الملائكة تبشره ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.. لكنه لم يكن متوقعًا لحصول ذلك بسبب كبر سنه ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فحذرته الملائكة من أن يقع في حالة القنوط ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ لكنه أشار إلى إدراكه ومعرفته بسوء وخطر هذه الحالة وأنها تصيب الضائعين التائهين ﴿قال وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾..

وحتى بالنسبة لمن يتورطون في معاصي الله ويرتكبون الذنوب والآثام فإن الله تعالى يفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء ويحثهم على التوبة والإنابة حتى لا يصابوا

بحالة قنوط وإحباط تدفعهم أكثر إلى أحضان الجريمة والانحراف، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾..

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى ما يسببه القنوط لصاحبه من الحرمان وضياع الفرص والمكاسب بقوله: «وفي القنوط التفريط»..

الفاعلية

الخيار الثالث تجاه العوائق والعقبات هو الفاعلية والسعي، ذلك ان قسمًا كبيرًا من العوائق ليس مستعصيًا على التجاوز والاختراق لكنه يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد واستخدام ألوان من الوسائل والأساليب، فالبعض من الناس إذا ما استوقفهم في طريق تحقيق رغباتهم واحتياجاتهم عائق أو حاجز يهرعون سريعًا إلى التراجع والانسحاب ويسيرون ضمن أحد الخيارين السابقين.

بينما أثبتت التجارب ووقائع الحياة، أن الاجتهاد في السعي وتكرار المحاولات وتجديد الأساليب والوسائل كفيل بمساعدة الإنسان على تحقيق مآربه والوصول إلى أهدافه غالبًا.

إن الطفل الصغير قد لا يستجيب له والده في تنفيذ رغبته من أول إشارة أو طلب ومن وحي فطرته وطبيعته يبقى مصرًا على ما يريد مستخدمًا سلاح البكاء والصراخ حتى يتم له تحقيق رغبته.

وكم من طالبٍ تعثر في طريق الدراسة وطلب العلم لكنه مع المواصلة والإصرار نال رفيع الدرجات.

ويدرك كل مراجع للمؤسسات العامة والخاصة أنه قد ترفض معاملته وطلبه في بادئ الامر لكنه إذا تابع المعاملة، وأكمل نواقصها، أو رفعها إلى الجهات العليا في تلك المؤسسة فإنه قد يحظى بالنجاح والقبول.

كيف نواجه المشاكل والتحديات[1]

ينقل أن أحد الأثرياء الواعين كان يأخذ على أهل قريته انعدام المبادرة في حل مشكلات حياتهم وأراد أن يقدم لهم نموذجا عمليًا فقام مبكرًا ذات يوم وحمل حجرًا كبيرًا ووضعه في الطريق الرئيس الذي يسلكه اهل القرية إلى مزارعهم ووضع تحت الحجر مبلغا كبيرًا من المال ثم اختبأ خلف شجرة يراقب..

فمرّ فلاح يجرّ وراءه بقرة سمينة فوجد الحجر في الطريق فأخذ يسخط ويلوم وبالكاد مر ببقرته تاركًا الحجر مكانه..

ثم جاء رجل آخر يحمل حزمة من الحطب على كتفه ويسير في الطريق فاصطدم بالحجر دون أن يراه وتعثر ووقع الحطب وقام الرجل ساخطًا يسبّ ويتألم ثم جمع حطبه وحمله وسار في طريقه متبرما والحجر لا يزال مكانه، وهكذا مرّ العديد من الرجال ولم يزد أحد منهم على إبداء السخط والاستياء من وجود هذا الحجر في وسط الطريق وسب وشتم من وضعه وربما تحادث بعضهم مع بعض لتبادل الآهات والتعبير عن السخط والانزعاج.

وفي آخر النهار مرّ شاب تبدو على وجهه علامات التعب الشديد من كثرة العمل في الحقل طوال النهار لكنه لما رأى الحجر منتصبًا وسط الطريق شمّر عن ساعديه

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٢ رمضان ١٤٢٣هـ، ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٥٧.

وحاول بكل جهده وقوته أن يزيحه وبعد جهد وعناء تمكن من ذلك وأبعد الحجر فوجد تحته مبلغًا كبيرًا من المال فظن أنه سقط من أحد أهالي القرية فرفع صوته مناديًا على السائرين في الطريق ان كان أحد منهم قد فقد شيئا من ماله.. وهنا ظهر ذلك الرجل الواعي الذي وضع الحجر وأخفى المال تحته ليعانق الشاب ويهديه المبلغ ويشكره على مبادرته الطيبة وروحيته الايجابية ثم قدمه لأهالي القرية كنموذج لما ينبغي ان يكونوا عليه من التصدي لحل المشاكل وإزالة العقبات وعدم الاكتفاء بإظهار التبرم والسخط والتألم.

بعض الأفراد والمجتمعات حينما تمرّ عليهم ظروف غير مريحة يتعرضون فيها لضيم أو عدوان فإنهم ينكفئون على انفسهم ويدمنون حالة اجترار الغبن وتسود أجواءهم حالة التشكي والتذمر وبذلك يتضاءل مستوى الفاعلية والنشاط لديهم وتضعف القدرات وتضيع الفرص.

أما المجتمعات الواعية فإنها تحاول استيعاب الصدمات والخروج من آثارها النفسية بأسرع وقت ممكن للانطلاق من إمكاناتها الحاضرة واستثمارها في بناء الذات وتقوية الوجود والالتفاف بالتالي على واقع الضعف والانكسار.

وقد ضرب اليابانيون أروع مثل على هذا الصعيد، فاليابان بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م خرجت من المعركة محطمة منهكة حيث ضربت بالقنبلة الذرية في هيروشيما وناكازاكي وبلغت خسائرها البشرية مليونين وثمانين ألف شخص، وخسائرها الاقتصادية قدرت بخمسمائة واثنين وستين مليار دولار وفرضت عليها الهزيمة والاستسلام بشروط مذلة منها القبول بوجود قواعد عسكرية أمريكية على اراضيها وتحديد قدراتها العسكرية جيشًا وتصنيعًا بحدود حاجتها الداخلية، ورغم الصدمة العنيفة التي أصابت اليابانيين بقرار الاستسلام الذي اتخذه الإمبراطور والحكومة وانتحر على اثره آلاف الضباط إلا أنهم سرعان ما استوعبوا الصدمة وتجاوزوها بخطط تربوية وتعليمية صارمة وببرامج اقتصادية وتكنولوجية طموحة

وعادت اليابان قوة اقتصادية عملاقة تنافس أقوى الدول اقتصاديًا وتكنولوجيًا ولو انشغل اليابانيون بمآتم الحزن والبكاء وسيطرت على نفوسهم حالة التشكي واجترار الغبن لما حققوا شيئًا من هذا التقدم الكبير.

التعامل الإيجابي الصحيح من أي مشكل ينبغي أن يكون عبر الخطوات التالية:

٣. **الدراسة الموضوعية**: لمعرفة حقيقة المشكل وحجمه وأسبابه وخلفياته ومدى الآثار والانعكاسات التي ينتجها وذلك بعيدًا عن التهويل والتضخيم والاستهانة والتبسيط بل دراسة الأمور بواقعية وموضوعية، فقد تختلط الأشياء على الإنسان ويتوهم ما لا واقع له وقد يعتمد الإنسان في تصوراته على الظنون والتخيلات.

٤. **التفكير في الحلول**: انطلاقًا من أن لكل مشكلة حلًا ومن الإيمان بطاقات الإنسان المبدعة وقدراته العقلية الثاقبة فإنه إذا ما وجه عقله نحو نقطة معينة واستعرض مختلف الخيارات والاحتمالات واجتهد في إبداع الحلول وابتكار الأساليب والوسائل فإنه يهتدي إلى طريق الحل والعلاج ولو قرأنا تجارب المخترعين والمكتشفين والعظماء والمصلحين لرأينا كيف تمكنوا من تجاوز العوائق والعقبات وتوصلوا الى تحقيق الطموحات والإنجازات بعد جهد فكري عميق وعمل ذهني شاق، يقول الإمام علي عليه السلام: «من أسهر عين فكرته بلغ كنه همته»، ويقول: «بالفكر تنجلي غياهب الأمور»

إن ما يعاني منه الكثيرون تجاه المشاكل والصعوبات هو وقوعهم تحت تأثير العواطف والانفعالات النفسية على حساب اعمال العقل وتركيز الفكر.

٥. **تحمل المسؤولية**: فالبعض ينتظرون أن تحل مشاكلهم عن طريق الغيب ويتوقع المعجزة من المجهول ويترقبون التغيير والإصلاح أو حدوث تطورات ما في هذه الحياة وفي بعض الأحيان يعلقون الآمال على هذه الجهة أو تلك لتحقيق ما يرغبون.

وهذه كلها تصورات مخالفة لمنطق الحياة وللقوانين والسنن، فإن الله تعالى لا يريد تربية عباده على العجز والكسل ولذلك يحملهم المسؤولية عن أوضاعهم ويحثهم عبر رسالاته وأنبيائه على العمل والجد والاجتهاد فواقع الإنسان نتاج عمله وكسبه ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

فلا بدّ من تحمل المسؤولية تجاه أي مشكل والاستعداد للبذل والتضحية من أجل تجاوزه وألا يعيش الإنسان على الآمال والتوقعات، فمشاكلنا تعنينا ونحن المطالبون بالتصدي لمعالجتها وعلينا أن نبذل الجهد ونعطي من أنفسنا لتحقيق ذلك.

٦. **التشاور والتعاون**: فتبادل الرأي واستعراض وجهات النظر بين المهتمين بالشأن الاجتماعي يساعدهم على الوصول إلى أفضل الآراء وأصوبها كما أن تضافر الجهود واجتماع القوى والإرادات يمكن من تذليل الصعاب وإنجاز المهام الكبيرة.

وبدل أن يتبارى الناس في إعلان الآهات والحسرات عليهم أن يتنافسوا في طرح المعالجات ويتعاونوا في تقديم المشاريع العملية لتجاوز ما يواجهونه من المشكلات يقول الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: «ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم» ويقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

الوسواس في مناطق حياة الانسان[1]

يطلق علماء النفس على مرض الوسواس مصطلح «العصاب القهري» أو «الاضطراب الوسواسي الجبري». وقد وضع فرويد أول وصف للعصاب القهري في كتابه «مقدمة عامة للتحليل النفسي» عام ١٩١٧م، بقوله: «ينشغل عقل المريض بأفكار غير سارة، ويشعر باندفاعات تبدو غريبة بالنسبة إليه، وأنه مدفوع ليؤدي أعمالًا لا تسره، وليس لديه القدرة على الأمتناع عنها، وقد لا يكون للأفكار والوساوس معنى في ذاتها، لكنها مع ذلك، أفكار مثابرة ومسيطرة على عقل المريض دائمًا».

وقدم العالم النفسي «وولمان» سنة ١٩٧٣م وصفًا لهذا المرض قال فيه: «يتميز هذا المرض باقتحام مثابر لتفكير غير مرغوب، أو اندفاعات، أو أفعال، لا يستطيع المريض إيقافها، والتفكير قد ينصب على كلمة مفردة أو فكرة، أو سلسلة من الأفكار يدرك المريض أنها عمل أحمق، وتتراوح الأفكار بين حركات بسيطة، وطقوس معقدة، مثل: تكرار غسل اليدين، وغالبًا ما يظهر القلق والضيق إذا ما أمتنع المريض عن إكمال طقوسه القهرية، أو إذا اهتم بكونه غير قادر على التحكم فيها».

ويتمظهر هذا المرض بأشكال وألوان مختلفة عند المصابين به، فبعضهم يعاني إلحاح هواجس وأفكارًا غريبة على ذهنه، كشعوره بأنه قد يرتكب جرمًا معينًا، أو

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢١ شوال ١٤٢٣هـ، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٨٥.

يصاب بحادث معين، والبعض يصاب بحالة من الوسواس في أمور النظافة والوقاية الصحية، كتكرار غسل الجسم أو اليدين أو الأواني التي يستخدمها لتجنب القذارة والجراثيم، وهناك من يبتلى بالتشكيك وإساءة الظن في تصرفات المحيطين به، فيفسر أي كلمة أو حركة من الآخرين بشكل سلبي خاطىء، وكأنها ضده أو تستهدفه. وتقدّر نسبة المصابين بمرض الاضطراب الوسواسي الجبري في المجتمعات البشرية بحدود ٢٪ قياسًا على إحصائيات المجتمع الأمريكي، وهذه النسبة معناها على المستوى الرقمي في الولايات المتحدة ٤٩٠ ألف مريض يعانون العصاب الوسواسي تقريبًا. هناك أفكار يقتنع بها الإنسان ويقبلها بوعيه وعقله، وهناك رغبات تنطلق من شهوات الإنسان وعواطفه، أما الوسواس فهو خواطر شاذة يدرك المصاب بها أنها خاطئة لا تستند إلى أساس، كما يشعر بثقل وطأتها عليه، فهو لا يرغبها ولا يحبها، ويبدي التذمر والتضجر من معاناته منها. فالوسواسي يدرك ألّا معنى لأفعاله، وأن سلوكياته لا عقلانية ولا منطقية، إلا أنه يشعر بالعجز عن منع نفسه من الانخراط في هذه السلوكيات نظرًا لنزوعاته غير الخاضعة لسيطرته.

ويرى بعض علماء النفس: أن عددًا قليلًا جدًا من المرضى الذين لا ينظرون إلى سلوكياتهم كأمور لا معنى لها أو غير منطقية، بل يعتقدون أن لديهم السبب الكافي لما يبدونه من أهتمام في سلوكياتهم، كما أن طقوسهم الجبرية ستمنع من تعريضهم لنتائج كارثية حسب معتقدهم. فالوسواس لا يعتمد على أساس فكري منطقي، ولا ينبثق من رغبة نفسية، وأنما هو حالة مرضية تبدأ بخاطر يقتحم شاشة نفس الإنسان، فإذا ضعفت إرادة الإنسان عن طرده منذ البداية، وعدم الإستجابة له والتفاعل معه، فإنه ينمو ويترعرع ويتمكن تدريجيًا من السيطرة على مشاعر الإنسان وتوجيه سلوكياته.

ونتيجة لإدراك الوسواسي لشذوذ وضعه وحالته، فإنه لا يحّبذ إطلاع الآخرين عليه، وقد يتخفى في ممارساته وطقوسه الوسواسية، ولا يعترف بها بسهولة، حتى للقريبين منه.

تظهر جرثومة الوسواس وتتكاثر غالبًا في مناطق اهتمامات الإنسان، والأمور التي يحرص عليها، ولأن الإنسان المتدين يهمه الالتزام بالأحكام والقضايا الشرعية، ويحرص على أداء وظائفه وواجباته الدينية فإنه قد يصاب بهذا الفيروس في هذه المنطقة.ونجد بالفعل أن بعض المتدينين يصاب بالوسواس في المجال الديني، ولعله من أخطر مجالات الإصابة بهذا المرض. فالقلق الذي يعانيه الوسواسي في أمور الدين أشد مما يكابده في المجالات الأخرى، لعمق المشاعر الدينية، وارتباط قضايا الالتزام الديني بالمستقبل الأخروي، وما يترتب على الإخلال بها من حساب وعقاب عند الله تعالى مما يجعله أكثر قلقًا واضطرابًا.

وقد يؤدي الوسواس الديني إلى ردّ فعل عند صاحبه تجاه الدين كما تنقل قصص عن أشخاص تركوا الصلاة والتدين، بعد فترة من معاناة الوسوسة فيها. من ناحية أخرى، فإن الوسوسة في الأمور الدينية، تنفر المحيطين بالوسواسي والمطلعين على أوضاعه من الدين، بسبب النموذج المشوّه الذي يقدمه لهم، ولخوفهم من تكرار تجربته في حياتهم. لذا نجد النصوص والتعاليم الدينية تولي اهتمامًا لمكافحة هذا المرض الخبيث، وتحذر من الإصابة به، وتضخ المفاهيم والنصائح الوقائية منه.

أهم ما يحرص عليه المتدين سلامة عقيدته وحسن إيمانه؛ لأن ذلك هو أصل الدين وأساسه. ويحصل في بعض الحالات أن تمر على ذهنه بعض التساؤلات والتشكيكات في قضايا العقيدة والإيمان، وهي إذا كانت على شكل استفهام يبحث عن إجابة، فهذا ليس سيئًا لأن ذلك سيدفعه للتفكير والبحث، مما يوصله للمعرفة وثبات العقيدة. لكن المشكلة هي اقتحام هذه التشكيكات للنفس، دون تجاوب عقلي معها، لأنها لا تنطلق من حاجة معرفية، ولا نقص معلوماتي، لإيمان الإنسان عقليًا وفطريًا بمعتقداته.

وهنا تكون معاناة هذا الإنسان، فهو يؤمن بعقيدة ثابتة، ويحرص على التمسك بها، لكن خواطر مناقضة تهجم على نفسه وذهنه، فيرعبه ويقلقه حدوثها عنده، ويخشى من

آثار ونتائج تلك الخواطر التشكيكية على إيمانه وارتباطه بدينه وربه. ويعالج الإسلام هذه الحالة المرضية بتطمين المصاب بها، أنها لا تؤثر على دينه، وأن عليه ألا يهتم ولا يبالي بها، وبذلك تتلاشى تدريجيًا حتى ينعدم وجودها.

روت أم المؤمنين عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن الرجل يجد الشيء لو خرّ من السماء فتخطفه الطير كان أحب إليه من أن يتكلم به؟ قال ﷺ: «ذاك محض الإيمان» أو «صريح الإيمان»[٢].

(١) كنز العمال. حديث ١٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه. حديث ١٧٠٩.

الوسوسة في العبادات والأحكام(1)

إن أكثر المصابين بالوسواس الديني يعانونه في مجال الالتزام بأحكام الطهارة ومسائل العبادات.

فمثلا أوجب الإسلام طهارة البدن والثياب من النجاسات كشرط لصحة الصلاة، فالمطلوب هو اجتناب ما علم نجاسته، أما الظن والشك والاحتمال فلا يؤخذ به، لأن الأصل هو الطهارة فيحكم بطهارة كل شيء ما لم تثبت نجاسته. وتلك قاعدة فقهية وردت بها نصوص عديدة.

هذا هو الحكم الشرعي، لكن المبتلى بمرض الوسواس في هذا المجال يضع لنفسه قاعدة معاكسة، ويعمل بشكل مناقض لحكم الشرع، فالاصل عنده نجاسة الأشياء، وطهارتها تحتاج إلى إثبات، إنه يشك في نجاسة كل شيء وعلى أساس الافتراضات البعيدة، والاحتمالات غير المنطقية.

وأوجب الإسلام الطهارة من الحدث لأداء الصلاة بالوضوء أو الغسل أو التيمم وأحكامها واضحة اليسر والسهولة، لكن مرض الوسواس يحولها إلى عملية معقدة، حيث يقضي بعض المصابين بهذا المرض وقتًا طويلًا، لإنجاز وظيفة الوضوء أو الغسل، ويهدرون كمية كبيرة من الماء، والأسوأ من ذلك ما يرهقون به أنفسهم من مشقة وعناء..

---

(1) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٨ شوال ١٤٢٣هـ، ١ يناير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٧٩٢.

الصلاة فرصة لقاء روحي، وسمو معنوي، يحلّق خلالها المؤمن في آفاق التقرب الى الله تعالى، ولذلك يقبل عليها بشوق واندفاع؛ لأنه في الصلاة يكون بين يدي الله تعالى، وكان رسول الله ﷺ يعتبرها منبعًا للاطمئنان والاستقرار والراحة النفسية، حيث ورد في الحديث انه كان يقول لبلال: «يا بلال: أقم الصلاة أرحنا بها»، وفي حديث آخر «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»[١].

ويصفها في أحاديث أخرى بقوله ﷺ: «جعل الله جلّ ثناؤه قرة عيني في الصلاة» وإنما يستفيد المؤمن من ثمار صلاته المعنوية الروحية، بإقباله وخشوعه، لكن المصابين بالوسوسة في الصلاة تفقد الصلاة معناها عندهم، ولذتها في نفوسهم، وتتحول إلى موعد للعذاب، وحالة من العناء والاضطراب النفسي، والتوتر العصبي.

وأي غاية للشيطان أفضل من هذه الغاية؟ وأي انتقام يناله من المؤمن المصلي أشد من هذا الانتقام؟

أن بعضهم يتردد كثيرًا ويشك كثيرًا في تحقق نيته للصلاة، فيمكث فترة طويلة قبل تكبيرة الاحرام، وقد يعيد تكبيرة الإحرام أكثر من مرة، لعدم تأكده من تحقق النية، وهذا عرض من أعراض مرض الوسواس، والنية المطلوبة للصلاة هي مجرد الانبعاث والاندفاع لأداء الصلاة باعتبارها واجبًا شرعيًا، ولا تختلف عن أي انبعاث للإنسان باتجاه أي حركة أو عمل، فهو إذا خرج للسوق قاصدًا شراء حاجيات المنزل، فذلك القصد هو النية، وكذلك إذا قام واستقبل القبلة يريد الصلاة، فإن قيامه واستقباله يكشف عن الباعث في نفسه، وهو المقدار الكافي من النية.

قد تحصل للمصلي حالات من الشك والسهو في أفعال الصلاة أو أذكارها، وذلك أمر طبيعي ضمن الحدود المتعارفة، ولهذه الحالات أحكام يذكرها الفقهاء، لكن كثرة الشك، والسهو، تعتبر عرضًا من أعراض مرض الوسواس، لذلك يستثنيها الفقهاء من انطباق أحكام الشكوك، ويتعاملون معها كحالة مرضية ينبغي معالجتها بعدم الاستجابة لها.

---

(١) سنن أبي داوود. حديث ٤٩٨٥ و٤٩٨٦.

ومن أبرز أساليب العلاج المعتمدة حاليًا في المراكز الرائدة في العلاج النفسي السلوكي في الولايات المتحدة، لمرض الاضطراب الوسواسي الجبري، هو برنامج منع الاستجابة، الذي يعني منع المريض من ممارسة تصرفاته الوسواسية، لفترة معينة تحت رقابة وإشراف، داخل مستشفى العلاج، أو في بيته بواسطة المرافقين له. مع توفير أجواء مساعدة.

وقد لوحظ نجاح هذا البرنامج مع كثير من المرضى الراغبين في العلاج، لكنه قد يتطلب وقتًا طويلًا يتفاوت من مريض إلى آخر، ويستلزم صبرًا وأناة من الجهة المشرفة على العلاج.

وإذا ما تأملنا التعاليم الإسلامية حول أحكام المصابين بالوسواس، وكثرة الشك في قضايا الطهارة والعبادات، فإنها تلزم المصاب اعتماد برنامج منع الاستجابة، وأن يباشر ذاتيًا مع نفسه هذا البرنامج، فلا يعتني بحالة الشك والوسوسة، ولا يستجيب لها، وذلك هو تكليفه الشرعي، وهو الطريق الوحيد لتخلصه من هذا المرض.

منذ وقت قريب ظهرت فكرة العلاج المعرفي للاضطراب الوسواسي سنة ١٩٧٦م، وقام كل من (كابلان) و(روبرتسون) سنة ١٩٨٣ بتطبيق هذا الأسلوب من العلاج على عدة حالات وكان نتاج العلاج ناجحًا.

ويستهدف هذا البرنامج إعادة تركيب البنية المعرفية للمريض في مجال إصابته، على أساس تصور ينظر إلى أن موضوع الوسواس كالصلاة أو الوضوء مثلًا هو بمنزلة منبه معرفي، يستدعي ويثير الاستجابات الانفعالية، التي هي الخوف من الخلل والخطأ في الأداء، تترتب عليها استجابة معرفية هي الاعتقاد بالمسؤولية الذاتية تجاه الخلل، والشعور بالإثم والذنب.

فالعملية طبق هذا التصور تمر بثلاث مراحل:

١. المنبه المعرفي ـ الصلاة أو الوضوء ـ.

٢. الاستجابة الانفعالية ـ الخوف من الخلل والخطأ ـ.

٣. الاستجابة المعرفية ـ الاعتقاد بالمسؤولية والشعور بالإثم ـ.

والعلاج المعرفي يعني إعادة بناء تفكير المريض وتصحيحه، لتبديل ما يسمى (الأفكار الآلية المعززة)، التي أخذت صفة الاستمرارية بعيدة عن السيطرة والاستبصار الذاتي، ورغم أن أكثر الوسواسيين يعترفون بلا منطقية أعمالهم وممارساتهم، لكن تضخم بعض التصورات في نفوسهم، والمبالغة والتطرف في بعض الأفكار، هو ما يشكل أرضية لحالتهم المرضية.

فلا بدّ من هزّ تلك التصورات الخاطئة، ونسف حالة الغلو والمبالغة في الأفكار المعززة لهذا الاضطراب.

ويمكن التركيز على النقاط التالية:

- إن الله تعالى هو الذي يقرر موارد الإثم، والأمور التي تستوجب الحساب والعقاب، ولا يصح للإنسان أن يتبرع من نفسه فيقرر أن هذا ذنبًا، وأن هذا العمل يستوجب إثمًا، فذلك افتراء على الله. وما دام الشرع يعلن بوضوح: ألّا مسؤولية عليك في موارد شكك وسهوك، واحتمالك للخلل والخطأ، ويقول لك: إن عملك صحيح، فكيف يجوز لك أن تتوقف عن قبول حكم الله وترفضه؟

فإذا كنت تكرر عملك في الوضوء والصلاة فرارًا من الإثم والذنب، فإنك بهذا التصرف توقع نفسك في أعظم إثم وأسوأ ذنب.

- عرض وتبيين مفاهيم اليسر والسماحة في الدين، فقد أنزل الله شريعته رحمة للناس وإسعاد حياتهم، يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ كما تقرر مبادئ الشريعة أصالة الطهارة، وأصالة الإباحة، ورفع المسؤولية عن الجاهل

والناسي، وأن كل عمل فرغت منه أو تجاوزته ثم شككت فيه فلا قيمة ولا أثر لذلك الشك.

- الحديث عن عفو الله ورحمته وأنه تعالى خلق الناس ليرحمهم، وأن عفوه واسع، وكرمه عظيم، وبالتالي لا داعي لهذا التشدد والتكلف.
- ذكر نماذج وصور من أداء الأنبياء والأئمة والأولياء والعلماء لعباداتهم وأعمالهم الدينية على أساس السهولة واليسر ومن دون أي تعقيد أو تهويل.

إن إحاطة المبتلى بالوسواس بهذا الجو المعرفي، وتكرار هذه الأفكار والطروحات عليه، إضافة إلى تشجيعه على برنامج منع الاستجابة، يساعد كثيرًا على تفكيك تصوراته الخاطئة، وإعادة بناء أفكاره، وتصحيح ممارساته بشكل تدريجي، قد يستغرق وقتًا، لكنه يؤدي إلى نتيجة مفيدة.

الوقاية من العصاب القهري[1]

كأيٍّ مرض من الأمراض فإن للوسواس بيئة تساعد على نموه وتكاثره، وفي المجال الديني فإن الطروحات المتشددة والمتزمته للمسائل الدينية، قد تكون أرضية مناسبة لبذرة الوسوسة، وقبل أيام اطلعت على قضية امرأة كانت تيعش وضعًا عاديًا في حياتها وأعمالها الدينية ـ فسافرت للحج، وكان المرشد الديني في الحملة التي التحقت بها، يدقق كثيرًا على طريقة أداء الوضوء وأعمال الصلاة، ومن خلال بحثه وتوجيهه وأسئلتها له، أكد لها أن وضوءها وصلواتها في السنين السابقة مليئة بالأخطاء وأنها باطلة، وأن عليها أن تعيد وتقضي كل عباداتها للفترة الماضية، وهنا تسللت جرثومة المرض إلى نفسها، وما انتهت من رحلة الحج وعادت إلى بلادها، إلا وهي مصابة بحالة من الوسواس، أخذت تنمو عندها وتزداد حتى تحولت حياتها الشخصية والعائلية إلى جحيم، أنها تصرف ساعات لأداء كل فريضة من الفرائض.

وبالطبع هناك تيهؤ في بعض النفوس أكثر من بعض لاستقبال عدوى المرض، لتفاوت درجة المناعة والحصانة، لكن التوجيه الديني يجب أن يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٥ ذو القعدة ١٤٢٣هـ، ٨ يناير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٧٩٩.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:«إن الدين يسر»[١]، وعنه ﷺ: «خير دينكم أيسره»[٢]، وعنه ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفرًا قطع، ولا ظهرًا أبقى»[٣].

قهر مرض الوسواس له طريقة واحدة، هو قرار المريض نفسه وإرادته، بالطبع يحتاج إلى شجاعة كبيرة، وجرأة عظيمة، لكي يقرر عدم الاستجابة للانفعالات الوسواسية داخل نفسه، ورغم صعوبة ذلك لكنه أمر ممكن، وهناك الكثيرون ممن تعافوا من هذا المرض وتجاوزوه، بعد فترة من معاناة التزام العلاج، وما يسببه لهم من توتر نفسي وضغط عصبي، لكنهم بعد ذلك شعروا بحياة جديدة، وسعادة غامرة.

وعلى المحيطين بالمريض والقريبين منه أن يساعدوه في مقاومة هذا المرض الخبيث، ليس بالسخرية منه والتنكيت عليه، وإنما بتشجيعه على برنامج منع الاستجابة، وتذكيره بالمفاهيم المعرفية المساعدة، وأخذ دور المراقبة والإشراف على انضباطه في العلاج، إنه مريض يثير الشفقة وفي مساعدته وإنقاذه أجر وثواب كبير.

بمقدار ما يسرّ الإنسان من رؤية شاب متدين ملتزم بالشرع، مقبل على العبادة، بذات القدر وأكثر يتألم إذا شاهد شابًا في مقتبل العمر مبتلى بداء الوسوسة في أعماله الدينية، ذلك أن مرحلة الشباب هي أفضل فترات الاستمتاع بالحياة، والتعاطي معها بحيوية وارتياح، ويفترض في الدين أن يجعل الإنسان أكثر سعادة واطمئنانًا، فإذا أصيب الشاب بالوسوسة في أمر دينه، يتكدر صفو حياته، ويفقد استقراره النفسي، ويصبح الدين عبئًا عليه بدل أن يكون دافعًا ومحفزًا له.

وقد أظهرت البحوث العلمية في بعض مراكز التحقيق أن ٥٠ـ٦٠٪ من حالات الوسواس تظهر في عمر ١٥ـ٢٠ سنة، وتزداد تدريجيًا، وتصل إلى ذروتها في الاعوام

---

(١) صحيح البخاري. حديث ٣٩.

(٢) فتح الباري. ج١. ص ١٢٧.

(٣) كنز العمال. حديث ٥٣٧٧.

٢٠ـ٢٥ سنة، ثم تبدأ نسبة احتمال الإصابة في الانخفاض حتى سن ٣٥ عامًا، وكلما تقدم العمر بالإنسان كانت احتمالات الإصابة بالوسواس أقل.

ذلك أن مرحلة الشباب تصاحبها في الظروف الطبيعية حالة الاهتمام بالمعايير الأخلاقية، والقيم المعنوية، وقد تحصل بعض الشوائب والأخطاء في الأجواء الدينية التي يعيشها الشاب، مما يزرع في نفسه بذور القلق والهواجس، التي تدفعه للمبالغة في التأكد من أداء الواجبات الدينية، والتشدد في الالتزام بالأحكام الشرعية بدقة وتزمت.

وقد تكون تلك هي بداية الابتلاء والإصابة بمرض الوسواس.

وفي بعض الأحيان ينتقل الوسواس إلى الإنسان بالعدوى، لمعايشته شخصًا متزمتًا أو وسواسيًا.

وهل تلعب الوراثة دورًا في الإصابة؟ يرى ذلك عدد من العلماء النفسيين، مثل (براين) الذي يرى أن العصاب القهري مظهر لجبلة سيكولوجية ترجع في الغالب إلى الوراثة، وأن صعوبة علاج العصابيين ربما تكون بسبب العوامل الجبلية لديهم، ويذكر (سادلر) ان سجلات عيادته لفترة أكثر من ٣٥ عامًا كشفت عن أن الوراثة تظهر كعامل رئيس في ٩٠٪ من الحالات.

ولكن ذلك كله ليس بدليل قاطع على أن الأعراض القهرية يتم توارثها، فقد يرجع الأمر إلى تعلم الأبناء من آبائهم هذه المسالك القهرية، خلال طفولتهم المبكرة، مما يعرف في التحليل النفسي بالتوحد مع الآباء، فمسألة الوراثة لا يمكن حسمها إلا بدراسة للمورثات (الجينات) وهذا هو ما قام به (براون ومننجر) حيث أدت ملاحظاتهم الكلينيكية وتجاربهم إلى رفض النظريات التي تقول بأن العصاب القهري يتم توارثه عن طريق الجينات.

يفترض في الإنسان المتدين أن ينطلق في أعماله وتصرفاته من أحكام الشرع، كما يفترض أن يكون الدافع إلى ممارسة العملية الوسواسية في الأمور الدينية، حرص

الوسواسي على أداء الواجب الديني بدقة وبشكل صحيح، فلو كان لا مباليًا لِمَ اهتمّ بإتقان وضوئه وصلاته.

وهنا تكمن المفارقة العجيبة، ويتناقض الوسواسي مع نفسه في استجابته للوسواس، وانخراطه في العملية الوسواسية، فهو يريد التأكد من القيام بوظيفته الشرعية في مجال الطهارة والصلاة مثلًا، بتكرار العمل أكثر من مرة، ليطمئن من خلو ذمته، وإنجاز واجبه، لكنه يجهل أو يتجاهل أنه بهذه الممارسة قد أخلّ بوظيفة أهمّ، وبواجب شرعي أكبر.

تساؤلات حول العصاب القهري(١)

إسعاد حياة الإنسان مقصد أساس الدين، فان الله تعالى خلق الناس لينعم عليهم في هذه الحياة، وليفيض عليهم رحمته: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ والشريعة جاءت لخير الناس وصلاحهم ورحمتهم: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والإنسان المتدين يفترض أن يعيش سعيدا بتدينه، وأن يعمر قلبه الرضا والاطمئنان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

لذلك يعدّ الله تعالى المؤمن الصالح بأن تكون حياته طيبة في هذه الدنيا، ثم ينقلب في الاخرة إلى نعيم الله ورضوانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فأين تقع حياة الإنسان الوسواسي من هذا المقصد الديني العظيم؟ وكيف يمكن قياس حالته بهذه المعايير الشرعية؟

إنه يحول الدين من منهج سعادة إلى مصدر قلق وعذاب، ويصبح ذكر الله عنده المتمثل في الصلاة وسيلة ومثيرًا لحالة من الاضطراب والعناء، بدل أن يضفي على قلبه السكينة والاطمئنان. وأساسًا فإن الوسواس يحرم صاحبه من التمتع بلذة العبادة، والاستلهام من ينبوعها المتدفق بالمعنويات والقيم، فهو مشغول مهموم بضبطها،

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٢ ذو القعدة ١٤٢٣هـ، ١٥ يناير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٠٦.

ومستغرق في الحذر والحيطة من وقوع خلل أو خطأ فيها. كما يدفع الوسواس صاحبه لارتكاب بعض المحرمات، والتعود على ذلك، كتأخير الصلاة عن وقتها وكقطع الصلاة وكالاسراف في الماء، وهدر الوقت، وتضييع حقوق الآخرين وايذائهم.

ومن أهم مقاصد الشريعة تحقيق العبودية لله في حياة الإنسان، بأن يسيطر على غرائزه وميوله، ويتحكم في نزعاته وتوجهاته، بحيث تكون في الاتجاه الصحيح، الموافق لما يريده الله سبحانه، لكن الوسواسي يفرط بالسيطرة على نزعاته وتصرفاته، ويجعل للشيطان على نفسه سبيلا، فيصبح أسيرًا لوساوسه، مستجيبًا لإملاءاته، مخالفًا لأمر ربه ولتوجيه عقله. ويأمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من شر الوسواس والوسوسة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

ومما يلفت النظر أن الوسواس في المجال الديني ينحصر في أمور الطهارة والعبادات غالبًا، ولا ترى أثرًا للوسوسة في المجال المالي مثلًا، بحيث يشك المتدين في فراغ ذمته من الزكاة، فيؤديها أكثر من مرة، أو يحتاط في موارد الصرف، فيدفع الحق الشرعي مكررًا في موارد مختلفة، أو يضاعف المبلغ المطلوب منه. بل قد تجد أن من يصرف الوقت والجهد لضبط وضوئه وصلاته، غير مهتم بدفع الحقوق الشرعية، أو يسعى لتقليص ما عليه إلى أقل قدر ممكن، أو يسوف ويتساهل في الأداء، فلماذا لا تحدث وسوسة في الجانب المالي من الدين؟

وكذلك الأمر في جانب حقوق الناس، فإنك لا تجد حالة وسوسة في هذا المجال غالبًا، بحيث يبالغ في احترام حقوق الآخرين، المالية والمعنوية، ويحتاط في حفظها ورعايتها، بل على العكس من ذلك تجد الكثير من المتدينين، وحتى الدقيقين منهم في مسائل الطهارة والصلاة، إنهم يتساهلون في مثل موضوع الغيبة والنميمة، وسوء الظن، وما أشبه مما يرتبط بسمعة الآخرين وحفظ كرامتهم.

فأين الاحتياط والوسوسة عن هذا المجال؟

أليس في ذلك دلالة على شيطانية الوسوسة؟

فالوسوسة في الطهارة والعبادات تضر ولا تنفع، ولذلك يثيرها الشيطان، ويسول بها للإنسان، أما الوسوسة في المجال المالي ولمراعاة حقوق الناس، فإن فيها جانبًا من الفائدة والنفع، لذا لا يمكن أن يوحي بها الشيطان، أو يغري بها الإنسان.

أليس كذلك؟

منهجية الدين قائمة على اليسر والسماحة، يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ واليسر هو السهولة واللين. والعسر هو الضيق والشدة والصعوبة، ويقرر الله تعالى انه وضع تشريعاته وأحكامه على أساس اليسر والسهولة للناس، وليس فيها ما يدعو إلى العسر والشدة والمشقة. وتتجلى هذه المنهجية في كل تشريعات الإسلام حيث ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وأي حكم شرعي يسبب للإنسان حرجا ومشقة لا تحتمل عادة، فإنه مرفوع عنه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وكان رسول الله ﷺ يربي الأمة على استيعاب هذه المنهجية، ورفض منحى التكلف والتزمت، حيث أمره الله تعالى ان يبرز هذه الصفة في نفسه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ والتكلف: اسم لما يفعل بمشقة أو تصنع ـ على حد تعبير الراغب. وحينما كان ﷺ يرى بعض أصحابه يبالغ في العبادة، كان ينصحه بالإعتدال، فقد قال لعبدالله بن عمرو: «يا عبدالله بن عمرو، ألم أخبر أنك تكلف قيام الليل وصيام النهار؟». قال: إني لأفعل، فقال ﷺ: «إن حسبك، ولا أقول افعل، أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، الحسنة عشر أمثالها، فكأنك قد صمت الدهر كله»[1].

وعن أم المؤمنين عائشة: إن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من هذه؟» قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال ﷺ: «مَهْ عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»[2].

وحدث مرة أن قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه، وهريقوا على بوله سجلًا من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل. حديث ٦٨٧٨.

(٢) صحيح البخاري. حديث ٤٣.

تبعثوا معسرين»[١]. وعنه ﷺ أنه قال: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»[٢].

ورأى رسول الله ﷺ رجلًا يصلي في المسجد يسجد ويركع، ويسجد ويركع، فقال ﷺ: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»[٣].

وعنه ﷺ: «إياكم والتعمق في الدين فإن الله قد جعله سهلًا، فخذوا منه ما تطيقون»[٤].

هكذا الإسلام في أحكامه، وفي سيرة قادته، يسر وسماحة، لا تكلف فيه ولا تعقيد، لكن أجواء بعض المتدينين تغذي حالة التشدد والتزمت، خاصة عند الشباب اليافعين المقبلين على الدين، مما يوفر عند بعضهم الاستعداد والأرضية لنمو بذور الوسوسة والتكلف في المسائل الشرعية.

تتمكن حالة الوسواس من الإنسان بشكل تدريجي، فإذا حصل الانتباه والوعي لها في وقت مبكر، كان العلاج والتغلب عليها أمرًا سهلًا ميسورًا، لكن السكوت والإغضاء على الحالة لفترة طويلة، يزيد من صعوبة معالجتها.

وعلى كل حال فمهما كانت درجة الصعوبة إلا أن الخلاص والعلاج ليس مستحيلًا، فقد منح الله تعالى الإنسان إرادة قوية قاهرة، إذا قرر استخدامها فسيقهر بها كل عادة أو سلوك، مهما كانت درجة تجذره في نفسه وحياته.

لكن المشكلة تكمن في ضعف الإرادة، حيث يرفض المصاب التجاوب مع العلاج، أو يتراجع عن الاستمرار فيه، ويخضع لضغوط الوسوسة، وقد أظهرت البحوث أن نسبة ٣٠ - ٤٠٪ من مرضى الوسواس يقبلون على العلاج، وأن ٤٠-٥٠ منهم يحققون درجة متقدمة من الشفاء، لتجاوبهم مع العلاج وتوافر الرعاية اللازمة لهم.

---

(١) المصدر السابق. حديث ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق. حديث ٦١٢٥.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل. حديث ٢٠٦١٧.

(٤) كنز العمال. حديث ٥٣٤٨.

التقدم واحترام الكفاءات[1]

إن تكريم المبدعين يرفع درجة الطموح والتطلع نحو التقدم والإبداع لدى أبناء المجتمع، لذلك تجتهد المجتمعات المتقدمة في وضع البرامج، وابتكار الأساليب، لتقدير الكفوئين من أبنائنا، بالاحتفاء بهم إعلاميًا، وتكريمهم اجتماعيًا، ورصد الجوائز والأوسمة لهم، وتوفير وسائل العيش الكريم، والخدمات اللازمة لفاعليتهم ونشاطهم. وقد أخذت مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة عن المجتمعات المتقدمة بعض عادات الاهتمام وبرامج التقدير للمتفوقين، لكنها تكاد تنحصر في الاهتمام بالمتفوقين في القوى البدنية كالرياضيين، والقدرات الفنية كالمغنين.

في عام ٢٠٠٠م اشترى أحد أنديتنا الرياضية في المملكة لاعبًا من نادٍ آخر بمبلغ ٩ ملايين ريال، نصيب اللاعب مليونا ريال وراتبه الشهري ٢٥ ألف ريال، وقبل فترة تم تكريم لاعب من أحد الأندية بمناسبة اعتزاله وقدمت له هدايا بمبلغ ٤٠٠ ألف ريال.

وذكر موقع (اللاعب) على الإنترنت أنه: أعلنت اللجنة المنظمة لحفل اعتزال لاعب بمناسبة اعتزاله اللعب خلال الأشهر القادمة أن تكلفة إقامة حفل الاعتزال أكثر من مليون ونصف وسيكون في مدن الرياض وجدة والدمام.. وبلغ عدد رجال الأعمال الذي أبدوا مساهمتهم في التكريم ٢٤٥ شخصية.. ومن المنتظر أن يبلغ

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢ محرم ١٤٢٤هـ، ٥ مارس ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٤١.

إجمالي الهدايا ما مقداره ٤ ملايين ريال.

وقبل فترة أفردت مجلة (المجلة في عددها رقم ٨٧٨ بتاريخ ٨ ـ ١٤ من ديسمبر ١٩٩٦م) ملحقًا حول أجور الفنانين العرب، جاء فيه: تصل حصص كبار الفنانين السعوديين إلى ٦٠٠ ألف ريال مقابل النسخة الأصلية من الشريط، ونسبة من توزيعه تختلف باختلاف الفنان. فمنهم من يحصل على ريال مقابل كل شريط أو ريالين، وأحيانًا تصل إلى ثلاثة ريالات، وهذا يعني أن دخل الفنان من الكاسيت فقط يصل لأكثر من مليون ونصف سنويًا، إذا افترضنا أنه يطرح شريطين في السنة. وتتراوح أجرة إحياء الحفلات الخاصة من قبل كبار الفنانين بين ٨٠ الى ١٠٠ ألف ريال للحفلة الواحدة، دون أجر الفرقة المصاحبة.

أما العلماء، والمفكرون، والأدباء المبدعون، وسائر الكفاءات النافعة، فهي في الكثير من أقطار العالم الثالث تتمنى السلامة على نفسها، فضلًا عن أن يتوافر لها الاهتمام والتقدير، حتى قال أحد الأدباء (الشاعر العراقي أحمد مطر) معبرًا عن هذه الحقيقة المرة:

قــال أبــي فــي كـل قطر عربي   إن أعلن الذكي عن ذكائه فهو غبي

بالطبع لا يمكن التعميم فهناك بشائر طيبة وبوادر مشجعة هنا وهناك، لكن المقصود هو الحالة العامة والوضع السائد في الوطن العربي والعالم الإسلامي، قياسا ًعلى إمكاناته الهائلة، ومقارنة بأوضاع المجتمعات الأخرى. ومما يشاد به عندنا في المملكة جائزة الملك فيصل العالمية وبرامج تكريم المتفوقين دراسيًا في كل عام.

أن الكفاءة يجب أن تحترم لذاتها وعطائها، من أي عائلة انبثقت، وإلى أي طبقة انتمت، ومن أي طائفة كانت.

هكذا يأمر العقل وإلى هذا يرشد الشرع.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي النجدي في تفسيره لهذه الآية:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم. ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي: بغضهم. ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا يعدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، فلو كان كافرًا أو مبتدعًا، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق. وفي ثلاثة موارد من القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. والبخس ـ كما يقول ابن عاشور ـ هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه.

ولنتأمل قوله تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ ولم يقل المسلمين أو المؤمنين فقط، ومن مسلمات الفقه الإسلامي عدم جواز البخس والظلم لأي إنسان إلا ان يكون معتديًا فيقاوم عدوانه.

﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ تشمل الحقوق المادية والمعنوية فكما لا يجوز أن تبخس أحدًا من الناس شيئًا من حقوقه المادية، كذلك لا يصح أن تبخس شيئًا من حقوقه المعنوية.

وفي تراثنا الإسلامي تأكيد على خلق الإنصاف من مادة (نصف)، يقال في اللغة أنصف النهار: أي انتصف، وأنصف الشخص إذا عدل. وتناصف القوم: أي أنصف بعضهم بعضًا من نفسه. وقيل: إذا تعاطوا الحق بينهم. وقال في القاموس: انتصف منه: استوفى حقه منه كاملًا.

ومن تعريفات علماء الأخلاق للإنصاف أنه: استيفاء الحقوق لأربابها. ومن روائع حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «الإنصاف يرفع الخلاف ويوجب الإئتلاف» وقال: «زكاة القدرة الإنصاف».

وفي السيرة النبوية: نقرأ كيف احترم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سفانة ـ بفتح السين وتشديد الفاء بنت حاتم الطائي، الذي مات على الكفر قبل الإسلام وأمر بإطلاق سراحها من السبي قائلا: «خلوا عنها فان إباها كان يحب مكارم الأخلاق. وإن الله يحب مكارم

الأخلاق». ونقرأ في تاريخنا أيام عزة الحضارةالعربية كيف أن الشريف الرضي العالم الفقيه (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ) يشيد بأدب وشخصية أبي اسحاق إبراهيم بن هلال الصابي ـ وهو على دين الصابئة ـ وفي مراسلاته له بالشعر والنثر ثم يبكيه ويرثيه بقصيدة تعتبر من أروع قصائده في الرثاء ومطلعها:

أعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلى الأعْوَادِ ... أرَأيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النّادِي
جَبَلٌ هَوَى لوْ خَرّ في البَحرِ اغتَدى ... مِـنْ وَقْـعِـهِ مُتَتَابعَ الإزْبَــادِ
ما كنت أعلم قبل حظك في الثرى ... أن الثرى يعلو على الأطـواد

إلى أن يقول:

الفضل ناسب بيننا إن لم يكن ... شرفي مناسبة ولا ميلادي

وينقل الثعالبي في يتيمة الدهر: إن الشريف الرضي مرّ يومًا بقبر أبي إسحاق الصابي وهو بالجنينة من أرض كرخايا فقال:

أيـعـلـم قـبـر بالجنينة أننا ... أقمنا به ننعي الندى والمعاليا
عطفنا فحيينا مساعيه أنها ... عظام المساعي لا العظام البواليا

إلى آخر قصيدته وهي ٣٥ بيتًا.

وكذلك فعل أخوه السيد المرتضى علم الهدى حيث رثى أبا إسحاق الصابي بقصيدة رائعة، كما تحدث عن ذلك الدكتور محمد إبراهيم المطرودي الأستاذ بجامعة الملك سعود في كتابه (الشريف المرتضى وأدبه) الرياض ١٤١٣هـ. هكذا كان أسلافنا يحترمون الكفاءة لذاتها وعطائها.

وهكذا يشجعنا الإسلام على الاعتراف بفضل ذوي الفضل، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

ويأمرنا بشكر من يستحق الشكر، حيث ورد عن رسول الله ﷺ انه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1].

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، (الرياض: مكتبة دار السلام)، ص١١٤.

تقدير الكفاءة والإبداع[1]

لا تقاس الشعوب والمجتمعات بوفرة عددها وبكثافتها السكانية، فقد تكون الكثرة الكمية عبئًا يستنزف الموارد، ويعوق الحركة، كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ. فيما رواه عنه مولاه ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم، من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا: يا رسول الله أرأيت كيف خبا ضياء النادي أمن قلّةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: أنتم يومئذٍ كثير ولكن تكن غثاء كغثاء السيل»[2].

وإنما تقاس المجتمعات بقوتها النوعية، المتمثلة في كفاءات أبنائها، وقدراتهم المتميزة علميًا وعمليًا. من هنا اعتبر القرآن الكريم فردًا واحدًا بمنزلة أمة كاملة، لما كان يتمتع به من صفات ومواصفات عظيمة، وهو نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام أرأيت كيف خبا ضياء النادي يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وكان العرب يقولون عن المتفوق في شجاعته وتدبيره: رجل كألف. فالكفاءة والإبداع هما مصدر قوة الأفراد والشعوب. والمجتمع الأقوى هو الذي تكثر الكفاءات وقدرات الإبداع بين أبنائه.

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٩ محرم ١٤٢٤هـ، ١٢ مارس ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٦٢.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل. حديث ٢٢٧٦٠.

ولكن كيف تنمو الكفاءات؟ وكيف تتفجر الكفاءات؟ ولماذا تزخر بعض المجتمعات بالمبدعين والمتفوقين، بينما تعاني مجتمعات أخرى من القحط والفقر؟

هناك عوامل وأسباب عديدة تؤثر في مستوى حركة الإبداع والتفوق في أي مجتمع، لعل من أبرزها: مدى ما تجده الكفاءة من تشجيع واحترام، فالمجتمعات المتقدمة عادة ما تحرص على توفير أكبر قدر من الاحترام والتشجيع للطاقات والقدرات المتميزة من أبنائها، بينما تنعدم أو تتضاءل مثل هذه الحالة في المجتمعات المتخلفة.

احترام الكفاءة والإبداع مظهر للرقي وطريق للتقدم.

فالإنسان السوي، يختزن في أعماق نفسه، مشاعر إعجاب وتقدير، لكل كفاءة متميزة، وإبداع خلاق، ودون ذلك لا يكون إنسانًا سويًا أبدًا، لكن امتلاك قدرة التعبير عن تلك المشاعر، والمبادرة لإبرازها هو سمة الراقين المتحضرين.

إن من يظهر مشاعر تقديره للكفوئين المبدعين، إنما يسجل احترامه لذاته أولًا، بالتعبير عما تختزنه من انطباعات، ومنحها جدارة التقديم والعرض، بينما يشكك ضعفاء الثقة بذواتهم، في استحقاق مشاعرهم للإظهار والإبراز، ويبخلون على أنفسهم بفرصة التعبير عما يختلج فيها، لضعف احترامهم لها.

وقد تتراكم على نفس الإنسان حجب قاتمة من نوازع الأنانية والحسد، تمنعه من إعلان تقديره للمستحقين للتقدير، وذلك خلق سيء، وحالة مرضية لا علاج لها إلا بالوعي الصحيح، والتربية الفاضلة، وممارسة جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر. إن البعض تمتلىء نفسه بحب ذاته بشكل نرجسي، ويسيطر عليه الغرور، وتتضخم لديه الأنا بحيث لا يرى أحدًا غيره مستحقًا للمدح والتقدير، بل وينزعج ويتذمر حينما يشاد بآخرين، وقد يكون ذلك ناتجًا من شعور عميق بالنقص والضعف، يستثيره ذكر كمال الآخرين وتفوقهم.

وقد يشعر بعض من يجد في نفسه الكفاءة بالغبن حينما يرى تكريم غيره من

المبدعين، والحقيقة أنه يجب أن يغتبط ويفرح بذلك؛ لأن تقدير أي كفاءة في المجتمع، يعتبر تكريسًا لمنهجية صحيحة، إذا تأكد وجودها، فستشمله بركاتها وآثارها كغيره من المؤهلين.

ولشيوع مثل هذه الأمراض في نفوس أبناء المجتمعات المتخلفة، عادة ما يتأجل تقدير الكفوئين، من العلماء والأدباء والمصلحين إلى ما بعد وفاتهم، ومغادرتهم الدنيا إلى الآخرة، عندها تعقد مجالس التأبين لذكر محاسنهم، وتعداد فضائلهم، وإعلان الحسرة على فقدهم، بينما كانوا في حياتهم مجهولين أو متجاهلين.

وكما قال الشاعر (عبيد بن الأبرص):

لأعرفنك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادي

وذكروا في ترجمة أحد العلماء أن تلميذًا لعالم آخر سأله عن قيمة كتاب أستاذه، فأجابه ذلك العالم الكبير عن سؤاله بما يلي: ما دام مؤلفه حيًا فلا تساوي قيمته فلسًا واحدا، واذا مات فأول من يكتبه أنا، وهذا إخبار عما في الضمير، ثم أنشد:

ترى الفتى ينكر فضل الفتى   ما دام حيًا فإذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة   يكتبها عنه بماء الذهب

التفوق والإبداع لا يتأتى إلا ببذل جهد، وتحمّل عناء، لذلك يكون المتفوقون قلة؛ لأن أكثر الناس يتقاعسون ولا يرغبون في إتعاب أنفسهم وإجهادها، وقديمًا قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

وهنا يأتي دور التشجيع والتقدير، في رفع معنويات رواد الإبداع والتفوق، وامتصاص آثار التعب والعناء الذي يواجهونه في طريقهم، مما يجعلهم أكثر عزمًا وتصميمًا على الإنجاز والتقدم.

إن تقدير الكفاءة يساعد على تنميتها وتطويرها، ويدفع أصحابها إلى المزيد من العطاء

والإنجاز، ويكرس في نفوسهم حب مجتمعهم، والإخلاص إليه، والتفاني في خدمته، بينما تجاهل الكفاءات قد يثبط نشاطها، ويصيبها بالإحباط، وفي أحسن الفروض، تسلك طريق النزوح والاغتراب، وما يصطلح عليه الآن بهجرة الكفاءات والأدمغة.

نحو علم نفس إسلامي[1]

يعتبر المجال الموضوعي، أحد أهم خصائص العلوم، ومنذ انفصال العلوم، عن الفلسفة، أصبح للعلم مجالاته الخاصة، وبالتالي: افتقدت «الفلسفة» أبناءها الشرعيين، لتتحول فيما بعد، من «أم العلوم» إلى مجال، يختص بالمجردات، والمطلقات و.. و..

وإذا كان موضوع علم الاجتماع هو الظاهرة الاجتماعية، ومجال الاقتصاد هو الثروة وعلاقات الإنتاج و.. فان لعلم النفس، مجالًا موضوعيًا، هو «الظاهرة النفسية» وقد كان في البداية موضوع النفس الإنسانية، موضوعًا غامضًا لكن ذلك لا يعني ان «النفس الإنسانية» كانت مجهولة لدى الناس، فالديانات كانت دائمًا مصدرًا أساسيًا لتقييم وتقويم نفوس البشر، وكان الأغلبية يعتمدون في معرفة نفسية الاخرين عن طريق «الاستبطان» وهو نوع من المراقبة، يمارسها الإنسان على نفسه ومن ثم يستخلص حقائق حول نفسه، ثم إسقاطها بالتالي وتعميمها على الناس. كل هذا يعني ان النفس الإنسانية، لم تكن مجهولة تمامًا فيما مضى. ولكن تبلور هذه المعرفة على شكل تكوين معرفي، ومدرسة متكاملة الأبعاد، هذا لم يحدث إلا في القرن التاسع عشر الميلادي.

وتعتبر الظاهرة النفسية من أعقد الظواهر التي اهتمت بها العلوم الإنسانية، ذلك

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٦ محرم ١٤٢٤هـ، ١٩ مارس ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٦٩.

لأن مجالها يتميز بالعمق والتجدد، والعلاقة التي تربطه بعلوم أخرى، كعلم الاجتماع. لا بل الإنتروبولوجيا والاقتصاد والقانون أيضًا. والعلوم كلها، تعاني مشكلة التجدد الذي يطرأ على الظواهر مما يفتح آفاقًا أوسع أمام مسيرة العلوم، وكلما تقدمت العلوم خطوة، واجهتها عواصف من الإشكاليات، وظهور «علم النفس» كنسق معرفي، يتبنى الإجابة عن كل المشاكل التي تتعلق بالنفس الإنسانية، أدخله في مشكلات من نوع آخر، هي مشكلة الاختلاف ـ والتناقض أحيانًا. في وجهات النظر بين المفكرين. وبالتالي بعض المدارس والاتجاهات.

و«التحليل النفسي» يعتبر أهم تلك الاتجاهات حيث كان أول من أتى بنظرية «اللاشعور» المنطقة الأساسية والجوهرية في الإنسان، ويعتمد أسلوب التحليل، في شكله الذري للنفس الإنسانية، ويراقب المظاهر السطحية والرمزية «فلتان لسان، أحلام.. إلخ». ليمسك من خلالها بحقيقة النفس، التي ليست سوى ما يروج داخل منطقة «الهوى النفسية» حسب هذه المدرسة.

جون واطسون «١٩١٣»، يؤسس علمًا جديدًا في حقل الدراسات النفسية، هو «علم السلوك» الذي كان بديلًا عن «علم الشعور» وكانت كلمته التي ألقاها بمناسبة افتتاحية الجمعية الأمريكية للدراسات النفسية هي المنطلق الأول لهذا الاتجاه.

هذا الاتجاه، يعتبر السلوك هو المجال الأفضل، والحقيقي للدراسة النفسية، فهي تنطلق من الخارج، لتصل إلى الداخل، وقد ارتكزت نظريته كثيرًا على نظرية العالم الروسي «بافلوف» رد الفعل الشرطي.

ماكدوجل «١٩٠٥» كان ملهمًا سابقًا بهذا الاتجاه، قال في كتاب «علم النفس الفيزيولوجي» «إن أفضل وأشمل تعريف لعلم النفس، هو علم تصرفات الكائنات الحية».

كان هناك اتجاه آخر، بدأ يتكون في ألمانيا بزعامة «فريتهير»، «كوفكا»، «كهلر»، ذلك هو الاتجاه الجشطالتي «جشطال» **Gestslt** بالألمانية يعني «الشكل» «البنية»..

وهي كلمة استخدمها في بداية الأمر «اهرنغلز» «١٨٥٩ـ١٩٣٢»، بخصوص البنية «الموسيقية»، ومفاد هذه النظرية، أن «النغمة الموسيقية» تتكون من أجزاء، ولكنها ليست مجموع الأجزاء. وفي حقل الدراسة النفسية، تكون المدرسة «جشطالتية»، نقيضًا للاتجاه الذري، الذي يحلل الشخصية إلى جزئيات فهو يتناول النفس الإنسانية ككل لا يتجزأ.

كل هذا ـ طبعًا ـ تبخّر، مع ظهور الاتجاه الماركسي. ففي هذا الاتجاه تكون «النفس» مضغوطة في علبة «الحتمية» التاريخية، تكون انعكاسًا، لنمط الإنتاج، للصراع الطبقي، للشروط التاريخية لطبيعة المجتمع ـ التاريخي ـ وفي النهاية تكون دراسة المجتمع والتاريخ والاقتصاد و.. ضرورة لمعرفة النفس، أو بتعبير آخر، تكون دراسة البنية التحتية للمجتمع، أفضل طريقة لمعرفة النفس الإنسانية.

في زحمة هذه التناقضات، وإلى جانب هذه السجلات.. يضاف مشكل «منهجي» هو عملية «الترحيل» الميكانيكي، لمعطيات الدراسات النفسية «الغربية»، إلى العوالم الأخرى، فالإنسان الغربي الذي عاصر «رحلة» التحولات والقفزات الكبرى في أوروبا إبان القرون: من الخامس عشر إلى التاسع عشر الميلادي، كان هو «نموذج» ومحور الدراسات النفسية في الغرب، الإنسان الغربي، بما يتميز به من خصائص هو إنسان هارب من قبضة الإقطاع، قلق من الدين، يتملكه جشع إلى المادة، يستقطبه تطلع نحو الحرية، أي حرية وكل حرية.. هذا الإنسان في أوضاع كهذه، هو القالب النموذجي، الذي يشكل الحقل الأساسي للدراسات النفسية في الغرب، وتلك المعطيات وتلك النتائج كانت هي النموذج الكوني، ـ الأساس ـ للطب والعلوم النفسية العالمية.

من هنا كانت الحاجة إلى بلورة جديدة، لعلم نفس جديد لا يرفض سيكولوجيًا الغرب لأنها غربية، ولكن يرفض إسقاط معطياتها بكل حذافيرها على الإنسان في بلادنا الإسلامية. يجب البحث عن مكونات أخرى للنفس الإنسانية في بلادنا، المجتمع، البيئة، التاريخ.. المنطلق، الأهداف التطلعات.. الهموم المؤثرات

المعاناة.. كل هذا يختلف ويميز الإنسان في بلادنا. فالدين عامل رئيس ومحوري في بلادنا الإسلامية لذلك يجب إذًا ان يكون أرضية لهذا «الجهاد» جهاد العلم والمعرفة.. ارضية يقوم عليها إنتاج نسق معرفي متميز، حول النفس: والإسلام كدين كوحي، له نظرية حول النفس الإنسانية، كما له نظرية في باقي المجالات، وهنا تكمن الحاجة إلى بلورة «علم نفس إسلامي» يتولى دراسة النفس الإنسانية عمومًا، والنفس الإنسانية في أرض الإسلام. على وجه الخصوص، ويتبنى أدوات العلم الموضوعية.

الخوف برؤية قرآنية[1]

القرآن الذي استهدف أولًا وأساسًا تزكية النفوس وشفاء الصدور، كما يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

والقرآن الذي جاء لبناء الشخصية الإنسانية المتكاملة القويمة على وجه الأرض، هل عالج مشكلة الخوف، وهي من التوجهات والميول الرئيسة في نفس الإنسان... ومن العوامل القوية التأثير على شخصيته وسلوكه؟! أم تجاهلها وأعرض عنها؟!

بالتأكيد ما كان يمكن للقرآن الحكيم أن يغفل عن هذه المشكلة ويتجاوزها وهو يسعى لتزكية نفس الإنسان وتوجيه سلوكه..

إن أزمة العلوم الإنسانية على وجه العموم وعلم النفس على وجه الخصوص هي أنه لا يزال بعيدًا كل البعد عن جوهر الذات النفسية للإنسان، ومن ثم يأتي غالبًا بأخطاء في التحليل النفسي، والغاية القصوى لعلم النفس، هي الوصول إلى مستوى يمكنه من الإحاطة بالنفس إحاطة متكاملة، لتوفير العلاج المناسب، وهذا ما لم يتحقق إلى الآن. بل وما زال علم النفس يعترف بقصوره عن الإحاطة بكل الحالات... والدليل على ذلك فشله في توحيد النظرية حول المشكلة النفسية الواحدة..

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٣ محرم ١٤٢٤هـ، ٢٦ مارس ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٧٦.

وما دام من ضرورة اعتقادنا بالله، أنه خالق الإنسان، ومدرك لكل ما يعتريه من حالات .. فهو الوحيد القادر على الكشف عن حقيقة النفس الإنسانية، والقرآن هو كلام الله. وبيننا والكشف عن حقيقة النفس الإنسانية اعتماد طريقة الاستقراء فقد تمكننا من تشكيل منهج قرآني يوفر كل القواعد والأسس لدراسة النفس الإنسانية دراسة حقيقية توفر النتائج والعلاجات الحقيقية.

تحدث القرآن عن مشكلة الخوف في آيات ومجالات عديدة لو تفرغ لها باحث علمي متخصص لاستطاع أن يستنبط منها رؤية علمية سليمة.. ومنهجًا تربويًا متكاملًا..

وخلال جولة من التدبر في مجموعة من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الخوف تبينت لي الملامح التالية لنظرة القرآن الحكيم حول هذه المشكلة.. تبلغ الآيات التي تتحدث عن الخوف بلفظة الخوف ومشتقاتها «١٣٤» آية في مختلف الشؤون والمجالات.. أما التي جاءت بلفظة «الخشية» فحوالي «٤٨» آية..

وهناك آيات عديدة تتحدث عن هذه المشكلة في جذورها أو أعراضها ومظاهرها وسائر ما يتعلق بها لم نتوفق لمتابعتها ودراستها والتدبر فيها وعسى أن يتوفق لذلك بعض المتخصصين إن شاء الله تعالى..

ومن المهم جدًا أن ننتبه إلى أن القرآن الحكيم تشكل آياته توجيهًا متكاملًا للإنسان وعلاجًا لمشاكله النفسية.. فالحقائق الكونية والعقائد المبدئية والأحكام والآداب كلها تلعب دورًا متكاملًا ومتفاعلًا في تزكية نفس الإنسان وعلاج مشاكلها، ذلك أنّ معتقدات الإنسان وأفكاره التي يؤمن بها.. لها دخل كبير في صياغة نفسيته..

كما أن لنوعية القوانين التي يخضع لها والآداب التي يمارسها تأثيرًا بالغًا في توجهاته النفسية.. من هنا نجد أن حديث القرآن الحكيم عن مشكلة الخوف لا يأتي منفصلًا عن سائر جوانب الهدي الإلهي.. بل يجئ تارة ضمن التأكيد على حقيقة كونية.. أو التركيز على قانون اجتماعي.. أو في استعراض لحدث تاريخي تربوي.. وتلك هي طبيعة النهج القرآني العظيم..

واقعية الخوف

نعم هو شيء طبيعي أن الذي يتهدده.. ولكن «الخوف» الذي يتحول إلى حالة مرضية ينتج عنها خلل نفسي هو الشيء غير الطبيعي ويسمّيها علماء النفس بمرض «الخواف» أو «الفوبياء» وهي حالة من الخوف تتملك الإنسان في حالات مرضية استثنائية والتحليل النفسي يصنفها ضمن الأمراض العصابية وتنشأ عنها حالات مختلفة كالخوف من الماء أو البحر أو غيرهما من الأشياء.

السؤال: هل في إمكان الإنسان «أن يوجه هذا الميل الفطري نحو الأخطار الحقيقية الكبرى؟

نعم وذلك بتقوية الإرادة، والإرادة عامل حاسم في الصحة النفسية وذلك بتوطين النفس على مقاومة حالات «الخواف».. وفي توجيهاتنا الإسلامية «إذا خفت من أمر فقع فيه»؟!

أن يخاف الإنسان الخطر ويخشاه فذلك شيء طبيعي وفطري في أعماق نفس الإنسان.. وليس عيبًا ولا نقصًا.. والمطلوب من الإنسان ليس اقتلاع جذور الخوف من النفس والقضاء عليه نهائيًا فهو أمر غير ممكن إنما المطلوب هو توجيه هذا الميل الفطري نحو الأخطار الحقيقية الكبرى التي تهدد مستقبل الإنسان.. وليس نحو بعض المخاطر الحقيرة البسيطة.

المطلوب أن يخاف الإنسان من مركز القوة والثقل التي تهيمن على العالم، وتسيطر على كل شأن من شؤونه وكل ذرة من ذراته وهي قوة الله سبحانه وتعالى وهيمنته وعظمته.

والمطلوب أخيرًا: ألا يكون الخوف عقبة وحاجزًا أمام الإنسان يمنعه من التقدم والاحتفاظ بالحرية والكرامة.. فالقرآن يعترف بواقعية الخوف لدى الإنسان، ولا يعتبره جريمة أو عيبًا في الأساس.. وإنما الجريمة تكمن في سوء الاستفادة وفي الإفراط في

ممارسة الخوف.. وأن يصبح الخوف عقبة في طريق تقدم الإنسان وكرامته وحريته.

إن القرآن ينقل لنا بعض الصور واللقطات من داخل وأعماق نفوس أنبيائه وأوليائه ليؤكد لنا واقعية الخوف وتجذره، حتى في تلك النفوس المختارة الزكية الطاهرة.

فالأنبياء والأولياء أيضًا يخافون ولكنهم يتجاوزون حاجز الخوف من الأخطار والمشاكل ويقمعونه داخل أنفسهم بقوة إرادتهم وبتسديد الله تعالى لهم..

١. فهذه أم نبي الله موسى عليه السلام تلك الولية المخلصة التي اختارها الله لتكون أم نبي من أعظم أنبيائه ولتضعه في تلك الظروف الحرجة.

لقد كانت تخاف على وليدها «موسى» من فتك «فرعون».. ويأتيها الوحي من السماء ليوجهها إلى استثمار ذلك الخوف في أخذ أشدّ الاحتياطات والاجراءات لحماية الوليد ثم يشجعها على تجاوز حالة الخوف المفرط والركون إلى الطمأنينة والاستقرار.

يقول تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾..

٢. ونبي الله موسى عليه السلام ذلك الرسول الذي أعده الله تعالى لمواجهة طاغية زمانه المتجبر فرعون وزوّده بالآيات والمعجزات ولكنه لما رأى فعل سحرة فرعون العجيب حيث تحولت الحبال والعصي في أنظار الناس إلى حيات وأفاعٍ توشك أن تلتهم الجموع المتفرجة.. لما رأى ذلك تحرك هاجس الخوف الطبيعي في نفسه لكنه انتبه إلى موقفه ومهمته وأسعفته السماء بتوجيهاتها وعنايتها فقمع ذلك الهاجس في نفسه وتحدّى السحرة وأباطيلهم بكل قوة وصمود..

يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً

مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

٣. في قضية اجتماعية كان الرسول الأعظم محمد ﷺ يعلم من قبل الله أن ربيبه «زيد بن حارثة» الذي ربّاه ورعاه سيطلق زوجته «زينب بنت جحش» وأن الله سيزوج رسوله بمطلقة ربيبه «زيد» إلغاء للأحكام الجاهلية في تحريم زوجة الربيب «أي الشخص الذي يربيه الإنسان وليس ولدًا له». ولكن الرسول كان يضغط على زيد ألا يطلقها حذرًا من توجيه الاتهامات والشائعات إلى شخصية الرسول العظيم.

وينزل وحي السماء معترضًا على هذا التخوف والحذر الذي يجيش في أعماق نفس الرسول ﷺ حفاظًا على قدسية رسالته وسمعة شخصيته..

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

إذن: فليس عيبًا أن تخاف إنما العيب ألا تتجاوز الخوف وتقمعه داخل نفسك.

وعظمة الأبطال ليست في أنهم لا يخافون.. وإنما لأنهم يتجاوزون حاجز الخوف.. تجاوزًا واعيًا قائمًا على الإيحاء الذاتي والتحليل الواعي لموضوع الخوف.

من مفردات علم النفس[1]

يقبل كثير من الناس على اقتناء وقراءة كتب علم النفس. تلك الكتب التي تكشف للإنسان نفسه وتسلط الضوء على خبايا ذاته وتعالج مشاكله النفسية والوجدانية. واستجابة لهذا الإقبال صدرت الكثير من الموسوعات والدراسات في مختلف مجالات علم النفس. وكثير من تلك الكتابات تجارية ـ مع الأسف ـ ينقصها العمق والدقة. وما دام أن علم النفس قد تأسس واكتمل بنيانه في أوروبا فإن جلّ الكتابات حول هذا الموضوع لا تعدو أن تكون ترجمة حرفية أو مفهومية للإنتاج الغربي في هذا المضمار.

وبما أن هذا الإنتاج غريب عن مجتمعاتنا وبالتالي فاستقراءاته ومناهجه كلها استمدت مقوماتها من البنية الاجتماعية والنفسية لمجتمعات تخالفنا أو تناقضنا في نمط الحياة وطريقة التفاعل النفسي والاجتماعي للمجتمع وإسقاط كهذه مناهجٍ وإنتاجات على بنية اجتماعية أخرى يعتبر نوعًا من التعسف المنهجي والعلمي الذي يؤدي حتمًا إلى نتائج مغلوطة. وفي التراث الإسلامي تجارب ناجحة تاريخية حافلة وفيه توجيهات إلهية ثمينة أيضًا.

لكن هناك ملاحظة، فالتجارب التاريخية «النفسية» التي حفظها التراث الإسلامي

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٣٠ محرم ١٤٢٤هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٨٣.

كانت محدودة وهذا مدعاة لمزيد من الانفتاح على كثير من التجارب النفسية، وكذلك فهذه تجارب ينقصها المنهج والطريقة العلمية وهي بالتالي في حاجة لمن يبلورها ويودعها في نسق علمي يمكن الاعتماد عليه في المقاربات العلمية لعلم النفس الإسلامي.

أما التوجيهات الإلهية فقد جاءت كاستجابة لمشكلات من هذا النوع وكانت الطريقة هي وضع حلّ لكل معضلة نفسية. لكن وفي غياب الوحي المباشر يحتاج الإنسان إلى اجتهاد معمق ومتواصل لاستقراء منهج علمي تكون التجارب الإسلامية أساسًا له. لأن الإنسان هو أساس التنمية ومحورها وغايتها. ولا تحصل تنمية جادة في أي مجتمع إلا بتنمية قدرات الإنسان ومواهبه وبإطلاق العنان لطاقاته وكفاءاته حتى يبدع وينجز.

ومشكلة المجتمعات النامية أن خطط التنمية فيها تركز على مظاهر البناء والعمران من إنشاء المطارات الضخمة والشوارع العريضة والعمارات الشاهقة والأسواق الاستهلاكية الواسعة وشراء أفخم الطائرات وآخر موديلات السيارات وبناء المشاريع الكبيرة بالاعتماد على استيراد الخبرات وجلب الأيدي العاملة من الخارج، فتعيش البلاد مظاهر التقدم والحضارة وبدرجة مقاربة لمستوى البلدان الصناعية المتقدمة لكن إنسان هذه المجتمعات بينه وبين الحضارة مسافة كبيرة حيث لا دخل له في إنتاج شيء مما يستخدمه من الأجهزة الإلكترونية بل قد لا يجيد إصلاح أي خلل أو عطب يصيبها، فالكفاءات المهنية والفنية من العمالة الأجنبية غالبًا وخطط بناء المشاريع وتنفيذها العملي يتم في أكثر الأحيان على أيدي الآخرين أيضًا.

والنتيجة هي كما قال الشاعر:

خلاصة القضية ... توجز في عبارة
أنا لبسنا قشرة الحضارة ... والروح جاهلية

إن التنمية الحقيقية يجب أن تبدأ من الإنسان بأن يثق بنفسه ويكتشف قدراته ويفجر

طاقاته ويتحمل مسؤوليته في الحياة.

وهذا لا يحصل إذا لم يتحرر الإنسان من داخله ويثور على العوائق الذاتية في أعماق نفسه، تلك العوائق التي تمنعه من التحرك والانطلاق. ويمثل «الخوف» في حالته المرضية واحدًا من أبرز تلك العوائق حيث يفرض الإنسان الخائف على نفسه قمعًا ذاتيًا يشلّ تفكيره وحركته فلا يفصح عن رغبته ولا يعبر عن رأيه ولا يعلن موقفه فضلًا عن أن يقوم بدور أو يمارس تحركًا.

هذا الخوف المكعب المربع، الذي يملأ نفس انساننا، هو المسؤول بدرجة كبيرة عن حالة الجمود والتخلف التي تعيشها مجتمعاتنا.

ولا بدّ من التحرر من سيطرة الخوف دون أن يعني ذلك الوقوع في فخ التهور والفوضى. ومفاهيم الإسلام وتعاليمه تقود الإنسان إلى المسار الصحيح حيث ترشده إلى تجاوز عقبة الخوف والخروج من هيمنته القمعية وترتقي به إلى مستوى الشجاعة الحكيمة والإقدام المسؤول.

«الخوف» كظاهرة نفسية عانت منها البشرية ولا تزال.. تعتبر من أهم «مواضيع» علم النفس، ذلك أن أغلب الناس ـ إن لم نقل جميعهم ـ تعتريهم هذه الحالة أو يصيبهم شواظ منها وقليلًا ما يتخلصون منها.

والخوف هو تلك الحالة النفسية غير الطبيعية التي تؤدي بالإنسان إلى الخوف من أشياء غير واقعية. وهي حالة مرضية تقوم على أساس اختلال في التوازن النفسي سببه القلق والشعور المفرط بالذنب.. وغيرها من الأسباب النفسية ولها في علم النفس تعبيرا آخر هو «الرهاب» أو «الخوف» «الفوبيا» **e_phobia** وتصنف حسب علم النفس ضمن أمراض «العصاب» ومن ضمن الرهاب أو المخاوف المرضية التي اشتهرت في علم النفس:

رهاب الخلاء أو «الآغورافوبيا» وهو خوف يعتري بعض المرضى النفسيين أثناء

وجودهم في الأماكن المفتوحة كالشوارع والساحات الواسعة.

رهاب الاحتجاز وهو عكس الأول خوف شديد يمتلك المريض أثناء تواجده في الأماكن المغلقة كالمقاهي أو قاعات السينما أو البيوت.

رهاب الاحمرار وهو خوف الإنسان أن يحمر وجهه أثناء موقفٍ ما كما لو كان عازمًا على إلقاء خطاب على الجمهور.

رهاب المرض أو توهّمه وهو المراقبة الشديدة التي يمارسها المريض على أعضاء جسده أو بعضها خوفًا من أن تصاب بالمرض وهذا يحدث له ألمًا شديدًا.

هذه النماذج من «الخواف» تعتبر إحدى أهم الإشكالات النفسية التي يهتم بها العلماء والمحللون النفسانيون لكن نحن نحاول هنا تسليط الضوء على نماذج أخرى ترتبط بعلاقات الإنسان ووجوده الاجتماعيين ومقاربتها من خلال الطرح الإسلامي من أجل تكوين رؤية إسلامية عن هذا المرض وتوفير العلاج الإسلامي له من خلال التوجيهات الدينية القويمة.

الخوف من الله كيف ولماذا؟[1]

إن الخوف المرضي أو (الخواف)، هو الخشية من (الوهم)، أما (الخوف) من الشيء الحقيقي فلا يعتبر حالة مرضية. من هنا يكون الخوف من الله تعالى مطلوبًا وحقيقيًا وفي مجاله الصحيح.. فالله تعالى هو القوة القادرة المسيطرة على الكون والإنسان.

فهو خالقنا ومصورنا ومنشئنا وبارينا، وهو الذي يمدّنا بالوجود والحياة والنعم.. وفي أي لحظة من اللحظات، تنحسر عنا رحمته وعنايته، فيصبح وجودنا عدمًا، وحياتنا سرابًا..

وهو سبحانه وتعالى يذكرنا بنعمه ورحمته المتتابعة، ويهددنا بإمكانية سلب هذه النعم إن اقتضت ذلك حكمته ومشيئته، في لحظة واحدة..

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

١. إن عينك التي تعتز بها، وتنظر بها الاشياء، لستَ أنت صاحب القرار في استمرار وجودها وعملها.. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٧ صفر ١٤٢٤هـ، ٩ أبريل ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٩٠.

فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾.

٢. وهذه الأرض التي نعيش فوقها وتقدم لنا مختلف النعم والخدمات، وهذا الغلاف الجوي الذي يقينا نيازك السماء، وشهبها الخارقة، لا يرتبط بقدرتنا ولا إرادتنا، إن ذلك كله بيد الله.. يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

٣. إن ثلاثة أرباع الكرة الارضية التي نعيش عليها وجهها مغمور بمياه المحيطات العميقة، والبحار المتموجة.. وما الذي يمنع زحف طوفان المحيطات، وأمواج البحار علينا، إلا إرادة الله.. ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾.

٤. إن وجودنا وحياتنا مرتبطة بمشيئة الله تعالى، وإذا اقتضت مشيئته ألا نكون فسوف يتبخر وجودنا في أقل من لحظة.. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾.

هذا بعض قليل من مظاهر احتياجنا لرحمة الله تعالى في دار الدنيا.. أما بعد مغادرة الحياة الدنيا.. وانتقالنا إلى الآخرة، فهناك يكون الاحتياج والانقطاع والارتباط برحمة الله ومشيئته أظهر وأجلى وأوضح..

هناك حيث الوحدة والوحشة والحساب والعقاب.

يا رحمة الله الواسعة.. ويلنا إن لم تدركنا رحمته تعالى وعنايته.

هناك يتمنى الإنسان لو أنه كان عدمًا غير موجود: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

وهناك يهرب الإنسان من عائلته وأقربائه واصدقائه، ويكون همّه نجاة نفسه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

إذًا هنا الخوف الحقيقي.

أن أية قوة يمكن أن يخشاها الإنسان في الحياة ويهابها لا تساوي ذرة أمام قوة الله تعالى.

وكل الاخطار التي يخافها الإنسان ويحذرها في الدنيا، ليست شيئًا أمام أخطار الآخرة ومصاعبها. فلماذا نخاف من القوى الزائفة؟

أليس الاصح والأولى أن نخاف من القوة الحقيقية المهيمنة وهي قوة الله تعالى؟

ولماذا نتهيب المشاكل الصغيرة والحقيرة، ونتجاهل تلك الأخطار الكبيرة المصيرية، التي تنتظرنا في الآخرة؟.

مسكين هو الإنسان ينخدع وتنطلي عليه الأمور، ويبتلى بقصر النظر.. رغم التذكيرات المتكررة له من قبل السماء.

إن الله تعالى يذكرنا بهذه الحقيقة في آيات كثيرة.

يقول تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

ولكن كيف وماذا يعني الخوف من الله؟

هل هو مجرّد ازعاج للنفس بالمخاوف والآلام؟ أو تعقيد النفس وإشغالها بالقلق؟

كلا.. إن الخوف من الله منهج وسلوك.

١. إنه يعني الالتزام بحدود الله وقوانينه، والفرار من المعاصي والذنوب والاعتداءات على الآخرين.

إن الخوف من الله هو الذي منع هابيل ابن آدم من البدء بالاعتداء، وقتل أخيه قابيل.. بينما تجرأ قابيل فارتكب أول جريمة قتل في تاريخ البشر؛ لأن قلبه كان خاليًا من خشية الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

والخوف من عذاب الآخرة هو الذي يعصم المؤمن من المعصية والانحراف.. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

٢. والخوف من الله ومن الآخرة يعني الاندفاع والاقبال على العمل الصالح الذي يرضي الله، ويسعد المؤمن في يوم القيامة، ويجنبه العذاب والشقاء.. ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

٣. وأخيرًا، فالخوف من الله يعني احتضان القيم الإلهية، والعمل على نشرها وتطبيقها، والاستهانة بكل قوة أو خطر يقف في طريق ذلك.. فالمؤمنون المخلصون الذين يجسدون حقيقة الخوف من الله في أجلى صوره ومظاهره، حينما يتحملون مسؤولية الرسالة، ويعملون من أجل الحق والخير.. يقول تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

الخوف: الجذور والأسباب «١/٢»[1]

الخوف المفرط الذي يشلّ الفكر، ويرهق الجسم، ويمنع من التقدم وتفجير الطاقات، هو المرض الذي تعاني منه الأكثرية الساحقة من الناس..

إنهم يفرطون في خوفهم من كل شيء: من الفشل، التعب، الألم، السلطة، مراكز القوة، المستقبل، الموت... إلخ.

وهذا الخوف هو المسؤول عن شلّ قدرات الكثيرين، وتجميد طاقاتهم وكفاءاتهم، وبالتالي فهو المسؤول عن قسط كبير من التخلف.

إنه الخوف.. ذلك الشبح الذي يلاحق النفوس حتى إن البعض يخاف من ظله ومن أطياف نومه.. ولعلك تصادف البعض ممن يقصون عليك أحلام نومهم، وهم خائفون وجلون.

فما الأسباب والجذور التي يتكون وينمو بسببها هذا المرض الفتاك «الخوف» المفرط في نفوس كثير من الناس؟

ترى المدرسة اللاشعورية «مدرسة التحليل النفسي» أن الخوف ـ كباقي الأمراض النفسية ـ ذو أسباب «جنسية» بل وإن الخوف ـ المرضي ـ الرهاب يعود إلى الضعف

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٦ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٧ مايو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩١٨.

الجنسي للأفراد ودعم فرويد نظريته، بمجموعة من الامثلة التي تنسجم مع مسلمات المنهج «الفرويدي».

ومعلوم ـ أيضًا ـ أن المرحلة ألاوديبية، في عمر الطفل، تعتبر ـ المرحلة المركزية على صعيد الحياة النفسية كلها، وإن الخوف الشاذّ ـ الرهاب ـ له جذوره في طفولة الإنسان، وبالذات فإن عدم قدرة بعض الأشخاص على تجاوز مشاكلهم «الأوديبية» هي التي تؤدي بهم إلى هذه الحالات ونحن اذ نعالج أسباب مشكلة الخوف غير الطبيعي وأسبابه، نرفض الأخذ بهذه النظرية، لاسباب عدة:

أولًا: إن هذه النظرية ثبت فشلها، بعد ظهور المدارس الأخرى، مثل المدرسة السلوكية، والمدرسة الشعورية «الفيزيولوجية» التي استطاعت أن تخطئ الكثير من مسلمات التحليل النفسي ـ الفرويدي.

ثانيًا: إن العامل الجنسي، الذي يلعب دور المتغير الرئيس في المدرسة اللاشعورية، يعتبر اليوم، وضمن آخر النظريات السيكولوجية، عاملًا «مهمًا» وليس «بمحوري».

ثالثا: ان هذه النزعة «الجنسوية» التي استند اليها التحليل النفسي، قد أفقدته القدرة على تفسير العوامل الأخرى في النفس الإنسانية تفسيرًا علميًا، يرقى إلى المستوى المطلوب.

كذلك نحن لانستطيع أن نقبل العلاقة بين النظرية «الفرويدية» القائلة «بجنسوية» الرهاب أو الخوف، وبين ظاهرة «الأغورافوبيا» التي هي حالة من الرهاب تكتنف الإنسان في الأماكن الوسيعة، المفتوحة؟! ربما في النظرية السلوكية «عند بافلوف» قد نجد، نوعًا من البسط والاتساع في مفهوم الظاهرة النفسية، ذلك أن الخوف هنا ليس سوى رد فعل نفسي، سببه العادة، التي قد تكون «التربية السيئة» أهمها، وتجربة «بافلوف» حول «الكلاب» جعلته يصل إلى نتائج مفيدة في حقل الأمراض النفسية.. كما وفرت إمكانات العلاج..

وعلى أي حال، فإن مجال الدراسة النفسية، هو أوسع مما حددته المدارس النفسية الغربية، لأنها لا تفعل أكثر من استقراء النتائج من تجارب محدودة اكلينيكيًا وفي اوساط وبيئات لها خصوصياتها الاجتماعية والنفسية والجغرافية وبعض الشعوب أكثر خوفًا من الأخرى.. والشعوب التي تعيش في البيئة الديكتاتورية، تكون أكثر عرضة للرهاب من التي تعيش أجواء الحرية..

إذا يمكننا الحديث عن الأسباب والجذور، من جوانبها المتعددة، متجاوزين النظريات ذات الاتجاه الواحد، مع مراعاتنا لخصوصياتنا الاجتماعية والنفسية والتاريخية.

لذلك يمكننا الحديث عن الأسباب والجذور التالية:

الوراثة

موضوع الوراثة، وانتقال الصفات والخصائص الجسمية والنفسية، من الآباء والأمهات إلى الأولاد، واضح بالمشاهدة، وثابت بالبحوث العلمية ومشار اليه في كثير من النصوص الدينية.

فتارة ما نلاحظ التشابه واضحًا بين شكل الولد وبين شكل أحد والديه.. كما نلاحظ احتفاظهم ببعض صفاتهما الأخلاقية والسلوكية..

وعلميا توصل العلماء بعد جهود عظيمة ودقيقة، إلى أن في الخلية التي يبدأ منها تكون الإنسان توجد نواة بيضية الشكل ذات جدار مرن توجد في داخلها أجسام صغيرة، تظهر عند انقسام الخلية، سمّوها «الكروموسومات»، وتحوي كل خلية لدى الإنسان «٤٨ كروموسومًا» ولهذه الكروموسومات أجزاء صغيرة جدًا يبلغ عددها العشرات والمئات تسمى «الجينات» وهذه هي التي تؤثر في نقل الصفات الوراثية..

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق».

والخوف المفرط صفة نفسية قابلة للانتقال والتوارث..

وينقل لنا التاريخ رواية جميلة عن الإمام علي كرم الله وجهه يؤكد فيها على تأثير العامل الوراثي في نقل وتركيز صفة الخوف بالذات، في نفس الولد، ففي واقعة الجمل كان «محمد بن الحنفية» ابن الإمام علي عليه السلام حامل لواء الجيش فأمره الإمام بالهجوم فأجهز على العدو ولكن ضربات الأسنة ورشقات السهام منعته من التقدم فتوقف قليلًا.. وسرعان ما وصل إليه الإمام وقال له: «احمل بين الأسنة» فتقدم قليلًا ثم توقف ثانية فتأثر الإمام عليه السلام من ضعف ابنه بشدة واقترب منه وضربه بقائم سيفه وقال له: «أدركك عرق من أمك»؟![1].

فهنا يثبت الامام عليه السلام إن الجبن والخوف الذي ظهر واضحًا في أبنه محمد ليس موروثًا منه؛ لأنه لا يعرف للجبن معنى قط فلا بدّ وأن يكون من أمه.

(١) شرح نهج البلاغة ج١، ص٢٤٣.

الخوف: الجذور والأسباب «٢/٢»[1]

مصاعب الحمل والولادة

لمدة تسعة أشهر تقريبًا يلبث الجنين في بطن الأم، ريثما تتكامل خلقته وبناؤه، ويأذن الله تعالى له بالولادة والخروج، وخلال هذه الأشهر التسعة، يكون الجنين جزءًا من أمه، ينفعل ويتأثر بأوضاعها وحالاتها الجسمية والروحية.

إن جميع الحالات الجسدية والنفسية للأم تؤثر على الطفل؛ لأن الطفل في رحم الأم يعتبر عضوًا منها، فكما أن الحالات الجسمانية للأم، والمواد التي تتغذى بها، تؤثر على الطفل، كذلك أخلاق الأم فإنها تؤثر في روح الطفل وجسده كليهما، وقد يتأثر الطفل أكثر من أمه بتلك الأخلاق، إذا أصيبت الأم في أيام الحمل بخوف شديد، فالأثر الذي تتركه تلك الحالة النفسية على بدن الأم، لا يزيد على اصفرار الوجه أما بالنسبة إلى الجنين فانه يتعدى ذلك إلى صدمات عنيفة.. ويقول العلم الحديث: أن الاضطرابات العصبية للأم، توجه ضربات قاسية إلى مواهب الجنين قبل ولادته، إلى درجة أنها تحوله إلى موجود عصبي لا أكثر، ومن هنا يجب أن نتوصل إلى مدى أهمية التفات الأم في دور الحمل إلى الابتعاد عن الأفكار المقلقة، والهم والغم، والاحتفاظ بجو الهدوء والاستقرار.

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٣ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ١٤ مايو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٢٥.

وأيضًا فإن العنف أثناء الولادة ينتج مزاجًا كثير الميل لنمو الخوف، والأطفال الذين يولدون بعد مخاض عسير، نفوسهم مهيأة أكثر لنمو هاجس الخوف المفرط.

التربية السيئة

المسألة الرئيسة التي تغيب عن وعي الكثير من الناس، هي رؤيتهم للشخصية الإنسانية، فالكثير من هؤلاء، يظن أن الشخصية، تأتي دفعة واحدة، أو أنها تتكون خارج محيط التأثير الاجتماعي والتربوي. وعلم النفس الحديث، يعتبر الشخصية، الانعكاس الطبيعي للتربية وأن هذه الأخيرة هي المحدد لمصير الشخصية الإنسانية.. وكثيرة هي العقد والنواقص التي يكسبها الإنسان في صباه وطفولته.. في لحظة قصيرة من عمره، لكنها تبقى راسخة في نفسه إلى أن يصير «شيخا» هرما ولذلك اعتبر «علم النفس» التربية مسألة استراتيجية في تكوين شخصية الإنسان.

والدراسات النفسية، كلها أو أغلبها، تتفق على أن الإنسان في بدايته لا يعدو أن يكون «ذاتا» لاشعورية، تتصرف بدون وعي، وأن الوعي يحصل بعد مرور الزمان، وان مجموع التوجيهات والتحذيرات التي تصدر عن الآباء أو المجتمع أو الدين أو السلطة أو..، هي التي تحدد سلوكه الشخصي، بعد أن تتحول هذه «المنظومة» من الأوامر والنواهي، إلى جهاز لاشعوري، يوجه الإنسان.. والطفل في البداية، يكون مستعدًا لتلقي كل شيء سلبًا أو ايجابًا.. ولذلك يجب الحذر في التعامل مع الأطفال وتحصينهم من ان تتسرب العوامل السلبية إلى نفوسهم..

لكن من المؤسف جدًا أن الآباء والامهات في مجتمعاتنا، لا يهتمون بقراءة تعاليم الإسلام حول تربية الأولاد، ولا يقرؤون مناهج التربية العلمية.. بل يربون أولادهم بطرق ارتجالية تقليدية، تخضع للمزاج والتقلبات..

وكثير من الناس يستشير جدته أو اباه في طريقة تربية طفله!! ومع عدم استهانتنا بتجارب الآباء والأجداد في شؤون الحياة والتربية.. إلا أنه لا يصح لنا أن نعتمد عليها

اعتمادًا كاملًا، ونتغافل عن توجيهات الإسلام، وتجارب العلم في هذا المجال..

إن للإسلام توجيهات وتعاليم تفصيلية كثيرة حول أساليب تربية الطفل، والعناية به نفسيًا وجسميًا..

لكن تلك التوجيهات غير معروفة لجماهير المسلمين بسبب تقصير أجهزة ومؤسسات التبليغ الديني وعدم التفات كثير من العلماء والخطباء إلى ضرورة تذكير الناس بتعاليم الإسلام في هذا المجال إلى جانب تذكير الناس بمسائل الطهارة والصلاة.. وأيضًا بسبب عدم توجه الناس أنفسهم واهتمامهم بالرجوع إلى دينهم في هذه القضايا.. وفي حين تزخر المكتبات بألوف الكتب التربوية لشتى الاتجاهات، تتضاءل الكتابات الإسلامية في حقل التربية وصناعة الأجيال البشرية..

إن الموجهين الدينيين علماء وخطباء وكتّابًا مطالبون بتوعية المجتمع بأساليب الإسلام التربوية كما أن المجتمع مسؤول بأن يبحث عن رأي الدين وتوجيهاته في طريقة التربية..

إن للتربية السيئة دورًا خطيرًا في زرع وتكريس السلبيات والصفات الذميمة في نفس الإنسان.. وكثير من الناس الذين يفترسهم شبح الخوف المفرط والمزعج، إنما ابتلوا بهذا المرض الخبيث بسبب سوء التربية.

التربية وتنمية الخوف[1]

هناك ثلاثة أساليب منحرفة في مجال التربية تجعل من الإنسان شخصية خائفة جبانة مهزوزة .

أولًا: التعامل السلبي مع الطفل

للطفل رغبات وممارسات تنبع من عدم بلوغه مستوى النضج والرشد، وإذا كان الوالدان مسؤولين عن توجيه رغباته، وتصحيح سلوكه، فعليهما أولًا: أن يأخذا بعين الاعتبار كونه طفلًا له حق اللعب واللهو والعناية وارتكاب الخطأ .. وثانيًا: أن يسلكا معه الطريق والأساليب التربوية لتوجيهه وتأديبه .. وما يحدث عند كثير من العوائل هو على العكس من ذلك، حيث لا يراعون في الطفل مرحلة الطفولة، ويطلبون منه التزامًا وتأدبًا وإداركًا لا يحتملها سنه .. ومن ناحية أخرى تكون اللغة المستعملة مع الطفل غالبًا هي لغة الزجر والعصا والإرهاب ... هذا الأسلوب يخالف بصراحة تعاليم الإسلام التربوية، والعائلة التي تمارس الإرهاب مع الطفل تكون مخالفة لهدي النبي ﷺ في تعامله مع الاطفال .

ومرة كان الرسول ﷺ يصلي وكان سبطه الحسن بن علي عليه السلام «وكان طفلًا آنذاك»

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٢١ مايو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٣٢ .

متعلقًا به فوضعه النبي ﷺ إلى جانبه وصلى، فلما سجد أطال السجود .. يقول أحد الصحابة: فرفعت رأسي من بين القوم فإذا الحسن عليه السلام على كتف رسول الله ﷺ فلما سلم قال له القوم: يا رسول الله، لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها كأنما يوحى إليك، فقال: «لم يوُحَ إليَّ، ولكن ابني كان على كتفي، فكرهت أن أعجله حتى نزل»[1].

هذا العمل من النبي ﷺ تجاه ولده الصغير أمام ملأ من أصحابه نموذج بارز من سلوكه في تكريم الطفل. إن الرسول ﷺ عمل أقصى ما يمكن من احترام الطفل في إطالته سجدته، وأرشد الناس ضمنًا إلى كيفية إحياء الشخصية والاستقلال عند الطفل.

هذا من الناحية الشرعية ...

وأما الانعكاسات النفسية التي يتركها أسلوب التعامل الإرهابي مع الطفل، فإن، ذلك يزرع في نفسه عقدة الحقارة، ويفقده الثقة بذاته، وينمو لديه إحساس بالحقد والانتقام، ردًا على ما يعانيه من كبت وضغط .. ومن الآثار السيئة التي يتركها هذا الأسلوب الخاطىء، سيطرة الخوف والإرهاب على نفسية الطفل، وتكيفه مع هذه الحالة .. ويبدو أن أوضح تفسير لخضوع الناس للاستبداد والظلم، تكيف نفوسهم وانسجامها وتعودها الخضوع للقوة والاستسلام للإرهاب .. لعدم وجود احساس داخلي بالتناقض مع تلك الأجواء !!

كيف تم ذلك ؟

إنك حينما تلبث فترة من الوقت في مكان دافىء، ثم تخرج فجأة إلى مكان بارد، يشعر جسمك بالتناقض ويصطدم بتغير الجو، وقد تمرض نتيجة لذلك، هذا حينما تنتقل فجأة إلى جوٍّ مغاير للجو الذي كنت تعيش فيه، أما إذا لم يكن مغايرًا فسيستقبل جسمك الجو الثاني بصورة طبيعية ..

وكذلك الإنسان الذي ينشأ من صغره خاضعًا لإرهاب العائلة، تلاحقة السياط

(١) أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، ج٢، (بيروت: دار القلم)، ص ٢٣٠.

والزجر والشتم عند أي حركة أو تصرف .. ثم ينتقل إلى المدرسة حيث لا يقصر بعض المدرسين في مواصلة مسيرة الإرهاب والعنف ضد الطلاب ويتخرج هذا الشاب من الدراسة ليعمل في دائرة أومعمل.. وهناك لا حدود ولا قوانين كافية تحميه من سلبية بعض المسؤولين .. في المقابل لو نظرنا إلى أسلوب التربية وطريقة التعامل مع الأطفال والأولاد في المجتمعات المتقدمة، لرأينا مدى احترامهم لأولادهم، واهتمامهم برعاية مشاعرهم النفسية ...

يقول أحد الأصدقاء: أردنا شراء بيت في إحدى الدول الأوروبية، وحصلنا على بيت يشمل المواصفات التي نريدها، وبسعر مناسب، ولكننا حينما ذهبنا لرؤية البيت، اشترط علينا صاحبه ألّا نتحدث عن موضوع الشراء أبدًا أمام طفلته، التي كان عمرها خمس أو ست سنوات!! فسألناه لماذا؟ قال: رغم أننا سننتقل إلى بيت افضل ولكن نخشى أن تنجرح مشاعرها حينما تسمع عن إمكانية خروجها من هذا البيت الذي ألفته وأحبته!! قلنا: فكيف ستعملون عند الانتقال؟ قال: إننا سنمهد لذلك معها، ونهيئها نفسيًا ليكون الانتقال إلى البيت الجديد شيئًا مرغوبًا لديها !!

إن الطفل الذي ينشأ هكذا محترم الشخصية، ولرأيه ورغباته اعتبار واهتمام، سيكبر محترمًا لنفسه، مدافعًا عن رأيه وحقوقه، وبذلك يصطدم مع أي أجواء تتعامل معه بطريقة تختلف عن الطريقة التي تربى عليها ... هذا عندهم ...

أما عندنا فعلى العكس من ذلك تمامًا، حيث يتربى الطفل غالبًا في أجواء الخوف والإرهاب مما يجعل نفسيته خاضعة لسيطرة الخوف، متربية عليه ...

ثانيًا: التخويف الكاذب

حينما لا يستجيب الطفل لإرشادات أهله يلجأون في بعض الحالات إلى تخويفه بأشياء وهمية ليستجيب لهم تحت ضغط ذلك الخوف .. فيخوفونه (بالجن) ويهددونه (بالشرطي) أو ما أشبه .

والأسوأ من ذلك كله تخويف الطفل بالطبيب أو الحقنة أو الدواء .. مما يخلق مشكلة عويصه، عند مرض الطفل، واحتياجه لمراجعة الطبيب، أو تناول الدواء ...

فتبقى نفس الطفل فريسة لمخاوف غامضة، وأشباح وهمية، وتستمر عادة لديه حالة الخوف من المجهول، والتهيب من الأشباح والأوهام، ولكن رموزها تختلف باختلاف مراحل عمر الإنسان ... إنه أسلوب خاطأ ينمّي صفة الخوف المفرط عند الإنسان.

ثالثًا: الدلال المفرط

كما أن احتقار الطفل، والتعامل الإرهابي معه، أسلوب خاطىء في التربية، فكذلك الدلال المفرط للطفل، هو الآخر أسلوب خاطأ .. إن الدلال المفرط يجعل الوالدين يظهران اهتمامًا بالغًا ومضخمًا بما يصيب الطفل، من مرض أو أذى، حتى ولو كان بسيطًا .. والذي يحدث هو تضخم الأمر في نفس الطفل، واعتقاده بخطورة ما أصابه، وتخوفه من عواقب ذلك ... فإذا ما أشرف الطفل على الوقوع مثلاُ، وهو يمشي، أو من على مرتفع بسيط، تتصرف الأم بطريقة هستيرية مزعجة لتمسك به .. وإذا ما مرض يقيم والداه عند فراشه، يبديان الكآبة والألم تجاهه .. وإذا ما أصابه جرح أو أذى يقيمان الدنيا ولا يقعدانها ..

إن لهذا الأسلوب آثارًا سيئة، من جملتها تهيب الطفل من أدنى خطر، وتخوفه من أبسط أذى .. ويهمنا التنبيه إلى أن تأثير عاملي الوراثة والتربية السيئة، في نمو حالة الخوف المفرط عند الإنسان، ليس تأثيرًا حتميًا، تعجز أساليب التوجيه، وإرادة الإنسان عن مقاومته، بل الأمر لا يعدو وجود التهيئة والاستعداد في نفس الإنسان، وبإمكانه التغلب على هذه الحالة وإن عايشها فترة من عمره.

الخوف من الفشل[1]

الإنسان لديه طاقات وكفاءات، ولديه طموح، والله تعالى وهب الإنسان القدرة على الطموح، إنه يطمح إلى الرقي ويتمنى، لكن هناك دائمًا مشاكل في طريق الوصول إلى ما يطمح إليه، وعلى الإنسان أن يشق طريقه، وأن يصارع ويواجه تلك المشاكل والعقبات، ويستطيع بالتالي تجاوزها والتغلب عليها وتحقيق طموحاته وأمنياته، بيد أن فئة كثيرة من الناس، بمجرد أن يلحظوا أن هناك عقبات ومصاعب ومشاكل في طريق طموحاتهم وأهدافهم، فإنهم يتراجعون!! لماذا يتراجعون؟

ليس لأنهم فقدوا الطموح، وليس لانهم فقدوا الطاقات والمؤهلات، وإنما لأن شعورًا داخليًا ينتابهم، شعور بالخوف من الفشل، يخشى أن يسير باتجاه تحقيق هذا الهدف، ثم لا يستطيع الوصول إليه، يخشى أن يتحرك من أجل تنفيذ عمل ما، ثم تحول العقبات والمشاكل بينه وبين تحقيقه.

قد يطمح الإنسان ان يصبح طبيبًا، وله القدرة على الوصول إلى هذا الطموح ولكن يواجه بعض المشاكل في الطريق، فالجامعة قد لا تقبله واذا قبلته فالمدرسون قد لا يحسنون التعامل معه، وقد يكون الامتحان صعبًا عليه، وقد لا يستطيع أن يستوعب المواد، وقد.. وقد.. وتتراكم هذه الاحتمالات في نفسه، فيخشى إن هو أقدم على دراسة الطب أن يفشل فيه، وألّا ينجح في أن يصبح طبيبًا، فيفضل أن ينسحب منذ

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٢٨ مايو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٣٩.

البداية، وألّا يسلك هذا الطريق، ولا يدرس الطب، لأنه يخاف الفشل؟ قد يكون للانسان طموح أن يكون خطيبًا جيدًا، ولديه القدرة على ذلك، ولكن هناك متاعب وعقبات، وكل خطيب لم يصبح خطيبا إلا بعد أن مرّ بتلك المصاعب والعقبات، ولكن البعض يضخمون المصاعب والمشاكل في نفوسهم، يرددون: أخاف أن أرتبك، أخاف أن أخطئ.. أخاف ألا يتقبل الناس خطابتي.. أخاف ألا أعجب الناس، وبناءً على هذه المخاوف يتراجع من بداية الطريق، لأنه يخاف أن يفشل في أن يصبح خطيبًا ناجحًا!!

كل إنسان لديه طموح، وكل إنسان يريد أن يكون عظيمًا، أن يكون متقدمًا، أن يكون متفوقًا، ولكن ليس كل إنسان يتخلص من عقدة الخوف من الفشل.

الخوف من الفشل، هو ذلك الحاجز الذي يحول بين الإنسان وبين تفجير طاقاته، وبالتالي بينه وبين الوصول إلى أهدافه وطموحاته وأمانيه.

ولكن لماذا الخوف من الفشل؟

أصل المشكل أن بعض الناس نفوسهم رهيفة لا تقبل الصدمة، نفوس متعودة على الدلال والراحة، ولذا تهرب من أي احتمال للمصاعب، وتتراجع عن أي طريق تعترضها فيه الصدمات والمشاكل وإنما يخاف الإنسان الفشل لأن الفشل مضخم في نفسه، وحينما تكون الأمور بسيطة أمامك، فإنك لاتهيب اقتحامها.

فمثلًا لو طلب منك أن تمشي مشوارًا محدودًا «نصف كيلو متر»، فإنك لا تخشى ذلك لأن القضية بسيطة في نفسك ولكن لو طلب منك أن تمشي «عشرة كيلو مترات» فإنك مبدئيًا في داخل نفسك تتهيّب هذا الأمر، لأنك ترى الموضوع صعبًا.

لا تتهيب الفشل

إن أفضل علاج للفشل ألّايتهيبه الإنسان، فليس مشكلا كبيرًا، أن يفشل الانسان، وأساسًا لماذا لاتريد أن تفشل في حياتك؟ لماذا لا تريد أن تصطدم في حياتك؟ إن طبيعة الحياة وسنتها: أن الإنسان لا يصل إلى النجاح إلا بعد أن يجتاز وديان الفشل.

هل يمشي الإنسان سويًا على قدميه من أول يوم يخرج فيه من بطن أمه؟ كلا.. فهو يعيش فترة لايستطيع المشي فيها ثم يحبو ثم حينما يحبو، ويحاول المشي لفترة شهور يقوم ويقع، يحاول المشي فلا يستطيع، يحتاج إلى من يمسكه حتى يستطيع المشي.

ألا تلاحظون حياة الطفل حينما يريد المشي؟ ولو أن طفلًا من الأطفال قال أنا غير مستعد أن أحاول المشي وأقع، فأنا لا أحاول المشي إلا إذا توافرت لي الضمانات الكافية لكي أمشي سويًا من أول مرة، فهل يستطيع ذلك الطفل أن يمارس المشي على قدميه؟ كلا..

بل عليه أن يتحمل لفترة من الزمن التعثر في المشي والوقوع.

وأنت لماذا تخاف الفشل؟

وماذا يحصل لو فشلت؟

لماذا يكون الفشل بعبعًا في نفسك؟

إذا نظر الإنسان إلى الفشل كأمر طبيعي، ولم يضخّمه في نفسه، فإن عقدة خوف الفشل تتلاشى من قلبه، ولكنه إذا تضخم الفشل وصارت هذه العقدة عند الإنسان، حُرم الكثير من المكاسب، وأصيب بالخيبة في حياته، كما يقول الإمام امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «قرنت الهيبة بالخيبة»[1].

الذي يخاف الفشل يصبح خائبًا في حياته، لا يتقدم، ولا يتفوق، ولا تتفجر طاقاته، فعلى الإنسان ان لايضخم قضية الفشل في نفسه، وألّايجعل نفسه ناعمة، تخاف من الصدمة والصعوبة، فالإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إذا هبت أمرًا فقع فيه»[2]، أنظر إلى الأشياء التي تخاف منها، ومارسها، حتى تكسر هيبة الفشل في نفسك، وقد دلت التجارب على أن أكثر الأشياء التي يتهيب الإنسان منها أو يخاف

---

(١) نهج البلاغة. تحقيق د. صبحي الصالح، الطبعة الأولى١٩٦٧م، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، حكمة ٢١.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ١٧٥.

الفشل فيها يستطيع النجاح فيها إذا أقدم عليها.

إذًا الخوف من الفشل سببه تضخيم قضية الفشل في نفس الإنسان وعندما يبدأ الإنسان يتخيل ويجتر صور الفشل، هنا تصبح لدى الإنسان عقدة الخوف في النفس فيصبح الخوف لديه مرضيًا.

البعد الايجابي للفشل

في بعض الأحيان يكون الفشل عنصر خير في حياة الإنسان، فهو الذي يكشف للإنسان نقاط ضعفه، وينبهه إلى الثغرات الموجودة في عمله.. بينما استمرار الإنسان في تحقيق المكاسب والانتصارات، قد يخلق في نفسه الغرور، ويضعف من اهتمامه بالتقدم، ورفع مستوى العمل، وقد أشار القرآن الحكيم إلى هذه الحقيقة عند حديثه عن النكسة التي أصابت المسلمين في واقعة «أحد»، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا..﴾.

إنه تعالى يوبخ المسلمين على تعاملهم السلبي مع الهزيمة ويوجههم إلى الاستفادة الإيجابية منها، بالعودة إلى أنفسهم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا * قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ * إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٦٥]، واكتشاف النواقص والسلبيات التي اكتسبتها بعد تحقيق الانتصارات السابقة.

ثم تتحدث الآيات عن البعد الإيجابي للهزيمة في معرفة الثغرات المخبوءة داخل المجتمع الإسلامي وفرز العناصر المنافقة غير المخلصة، وتجلي صمود المؤمنين وثباتهم في مواقف المحنة والشدة ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ ولعل كلمة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»[1] تشير أيضًا إلى هذه الحقيقة.

---

(١) نهج البلاغة حكمة ٤٦.

أكبر المخاوف أمام الإنسان «١/٢»[1]

الموت هو أكبر المخاوف في حياة الإنسان، بل قد يقال إنه سبب جميع التخوفات، ولكن لماذا يخاف الإنسان من الموت ما دام الموت مصيرًا طبيعيًا لجميع المخلوقات؟ يخاف الإنسان من الموت للأسباب التالية:

أولًا: إنهاء وجود الإنسان في هذه الحياة

فللحياة جاذبيتها القوية، التي تشد الإنسان اليها شدًّا وثيقًا.. وله فيها ارتباطات عديدة، تجعل تشبثه بها متينًا ثابتًا.. وفي الحياة لذات وشهوات، ومصالح تفرض نفوذها وسيطرتها على نفس الإنسان.

والملاحظ أن عجز الإنسان أو ابتعاده ولو كان مؤقتًا عن شيء من لذات الحياة ومصالحها، يؤلم الإنسان ويقلقه ويؤذيه، ففراق الأهل والأصدقاء، وقلة توافر الطعام والشراب، وفقدان المال والمكاسب أو الامتيازات، أشياء مزعجة ومؤذية للإنسان، ولو كانت لفترة محدودة، فكيف والموت ينسف كل هذه الأمور؟ ويلغي ارتباط الإنسان بها بشكل كامل ونهائي؟

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١١ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ١١ يونيو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٥٣.

ثانيًا: العجز عن المواجهة

قد يستطيع الإنسان مقاومة سائر المخاوف، والإفلات والهرب من كثير من الأخطار، ولكنه لا يمتلك ذرة من القدرة على مواجهة الموت، أو الفرار منه، إنه حتم قاهر، لا بدّ أن يرفع الإنسان أمامه راية الاستسلام والهزيمة.

إن الله تعالى يتحدّى عباده بالموت، ليذكرهم بحجمهم الحقيقي الضعيف المتلاشي، تجاه الهيمنة والقدرة الإلهية، يقول تعالى:

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٦٨].

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[سورة الجمعة، الآية: ٨].

فليس هناك في الدنيا منطقة لا يصل إليها الموت، وإلا لسافر إليها وقطنها كل البشر، ولا يفيد أي طبيب أو علاج أو دواء عند نزول الموت. كما لا تستطيع أي قوة ان تواجه الموت.. وإلا لخلد الأباطرة والأكاسرة والفراعنة.

وقد حاول الإنسان أن يوظف تقدمه العلمي والتكنولوجي في العمل على مواجهة أهم خطر يستقبله، وهو خطر الموت الذي يلغي وجوده، وينهي حياته، ولكن باءت كل تلك المحاولات والجهود بالفشل من بداية الطريق، وأخفق حتى في الإجابة عن أول سؤال في الموضوع، وهو: ما سبب الموت؟

يقول الأستاذ وحيد الدين خان في كتابه القيم (الإسلام يتحدى):

إن الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني ـ الآخرة ـ يحاولون بدافع الغريزة ان يجعلوا من هذا الكون عالمًا أبديًا لأفراحهم، ولذلك بحثوا كثيرًا عن أسباب «الموت» حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب، من أجل تخليد الحياة، ولكنهم أخفقوا إخفاقًا ذريعًا، وكلما بحثوا في هذا الموضوع رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن

حتمية الموت وأنه لا مناص منه.

«لماذا الموت؟» هناك ما يقرب من مئتي إجابة عن هذا السؤال الخطير، الذي كثيرًا ما يطرح في المجالس العلمية، منها:

«فقدان الجسم فاعليته»، «انتهاء عملية الأجزاء التركيبية» «تجمد الأنسجة العصبية»، «حلول المواد الزلالية القليلة الحركة محل الكثيرة الحركة منها»، «ضعف الأنسجة الرابطة»، «انتشار سموم «بيكتريا» الأمعاء في الجسم».. وما إلى ذلك من الإجابات التي ترد كثيرًا حول ظاهرة الموت.

إن القول بفقدان الجسم فاعليته جذاب للعقل.. فإن الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها، بعد أجل محدود، فأجسامنا أيضًا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التي نلبسها في موسم الشتاء، ولكن العلم الحديث لا يؤيد ذلك؛ لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنساني تؤكد: أنه ليس كالجلود الحيوانية، والآلات الحديدية، وليس كالجبال.. وأن أقرب شيء يمكن تشبيهه به هو ذلك «النهر» الذي لا يزال يجري منذ آلاف السنين على ظهر الأرض، فمن ذا الذي يستطيع القول: أن النهر الجاري يبلى ويهن ويعجز؟! بناءً على هذا الأساس يعتقد الدكتور «درلنس بالنج ـ وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم»: «إن الإنسان أبدي إلى حدٍّ كبير نظريًا، فإن خلايا جسمه تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائيًا، وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت، ولا تزال علل هذه الظاهرة أسرارًا تحير العلماء.

إن جسمنا هذا في تجدد دائم، وإن المواد الزلالية، التي توجد في خلايا دمائنا تتلف كذلك ثم تتجدد، ومثلها جميع خلايا الجسم، وتحل مكانها خلايا جديدة، اللهم إلا الخلايا العصبية وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجددًا كليًّا خلال ما يقرب من أربع سنين، كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنساني.

أكبر المخاوف أمام الإنسان «٢/٢»[1]

ليس جسم الإنسان هيكلًا فقط، وإنما هو كالنهر الجاري، أي إنه «عمل مستمر». ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده قوته، فإن الأشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب، قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت، فسبب الموت موجود في مكان آخر، وليس في الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب.

ويدّعي بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت؛ لأنها تبقى في الجسم إلى آخر الحياة ولا تتجدد، ولو صحّ هذا التفسير القائل بأن النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الإنساني، فمن الممكن أن نزعم أن أي جسم خالٍ من «النظام العصبي» لا بدّ أن يحيا عمرًا أطول من الأجسام ذات النظام العصبي، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا، فإن هذا النظام لا يوجد مثلًا في الأشجار، وبعضها يعيش لأطول مدة، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لاتعيش أكثر من سنة، وليس في كائن «الأميبا» جهاز عصبي، وهي مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة، ومقتضى هذا التفسير أيضًا أن تلك الحيوانات التي تعدّ من «نسل أعلى» والتي تتمتع بنظام عصبي أكمل وأجود، لا بد أن تعيش مدة أطول من تلك التي

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٨ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ١٨ يونيو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٦٠.

هي أقصر نسلًا وأضعف نظامًا. ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا أيضًا، فإن السلحفاة والتمساح وسمكة «باتيك» أطول عمرًا من أيِّ حيوان آخر، وكلها من النوع الثاني ـ حقير النسل وضعيف النظام.

لقد أخفقت تمامًا تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمرًا غير يقيني، يمكن أن لا يقع، فبقي الاحتمال الذي فرضته الحكمة الإلهية، وهو أن يموت الإنسان في أي عمر وفي أي زمن، ولن نستطيع العثور على أي مكان يمنع الموت رغم جميع الجهود.

ثالثًا: المفاجأة

ليس من عادة الموت أن يرسل إنذارًا أو اشعارًا عن قدومه، حتى ينهي الإنسان أعماله ويستكمل استعداداته، بل يأتي فجأة ودون سابق إشعار، وفقًا للأجل الذي يعينه ويحدده الله سبحانه وتعالى لكل حي.. يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٢٤].

فقد يأتي الموت للإنسان وهو في قمة اللذة والشهوة.. وقد يأتيه وهو يضع اللمسات الأخيرة على مشروع قد عمل له فترة طويلة.. وقد يأتي الموت والإنسان متورط في أوحال الجريمة أو المعصية.. وقد يأتيه وهو في أسعد لحظات حياته.

رابعًا: المصير المجهول

ماذا بعد الموت؟ هذا هو أخطر سؤال يقلق الإنسان عند تفكيره في الموت، فالمشاهد التي يلاحظها الإنسان لأوضاع الموتى، جديرة بأن تثير قلق الإنسان وانزعاجه، فكيف بالجانب الآخر الغيبي الذي لا نراه لما يكون عليه الميت؟ إن كل ما نعرفه هو أن الإنسان بعد الموت يصبح جثة هامدة خامدة، قد غادرتها روح الحياة، وانعدمت فيها القدرة على التحرك والنشاط.

فيحمل الناس تلك الجثة الهامدة ليودعوها حفرة عميقة في باطن الأرض، ثم يغطوها بالتراب حتى تتساوى تلك الحفرة مع الأرض، وبعد ذلك تنقطع كل معلوماتنا وارتباطاتنا ومعرفتنا بما يحدث لذلك الميت في أعماق الأرض.

إن ما بعد الموت أشدّ وأدهى من الموت، هناك الحساب والعقاب والجزاء، والوقوف بين يدي الله يوم القيامة.

أفضل طريقة للتعامل مع الموت خطر الموت الحتمي يختلف عن سائر الأخطار التي يخافها الإنسان في أننا لا نستطيع أن نقدم أي مساعدة للإنسان من أجل مواجهة أو مقاومة الموت.. كما أننا لا نستطيع نزع هيبة الموت من نفس الإنسان وتشجيعه على عدم التخوف منه.

نعم يمكننا تقديم النصيحة التالية من أجل تعامل أفضل مع هذا المصير الذي لا بدّ منه، وهي:

الاستعداد للموت

نحن كمسلمين نعتقد بلطف الله ورحمته، ونؤمن بالآخرة والحساب وبكل شؤون الغيب. لذلك يمكننا أن نستقبل الموت بنفوس واثقة مطمئنة حينما نلتزم حدود الله ونطبق أوامره ونتجنب نواهيه في هذه الحياة.. فأولياء الله لا يزعجهم الموت كثيرًا بل يعتبرونه بطاقة دعوة لدخول جنة الله كما يقول تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[سورة الفجر، الآيات: ٢٧ـ٣٠].

والنصوص الدينية تؤكد سهولة الموت ويسره على الإنسان المؤمن الملتزم يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[سورة النحل، الآية: ٢٨] بينما تتحدث عن بشاعته وصعوبته بالنسبة للكافرين والظالمين والمنحرفين فلهم وضع آخر عند الموت، يقول عنه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ

يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ❋ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[سورة الأنفال، الآيتان: ٥٠-٥١].

وسئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟

فقال: «أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتمال على المكارم، ثم لا يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه! والله لا يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت؟ أم وقع الموت عليه!!».

أنماط الشخصية[1]

يصنف علماء النفس أنماط الشخصية الانسانية إلى ثلاثة أصناف:

١. الشخصية الانطوائية.

٢. الشخصية النرجسية.

٣. الشخصية التوكيدية.

الانطوائية

والانطوائية صفة تطلق في علم النفس، على وجود الرغبة والميل للانعزال والانطواء عن الآخرين، بحيث يتركز انتباه الفرد إلى ذاته وداخله، ويعزف عن التفاعل مع بيئته الاجتماعية، وهي حالة غير صحية، تحصل بسبب الاستغراق المبالغ فيه في بعض الهموم والمشاكل الذاتية، والانطواء يفاقم هذه الحالة ويضاعفها، مما يهدد بالإصابة بالوساوس ـ مثلًا ـ والاضطرابات النفسجسمية. وقد يكون الميل للعزلة والانطواء ناشئًا من الشعور بضعف الثقة في النجاح والتعاطي مع الآخرين.

إن انفتاح الإنسان على الآخرين وعلاقاته معهم، يساعده كثيرًا في تجاوز بعض المشاكل الداخلية التي يعاني منها، بخروجه من دائرة الاستغراق فيها، والتخفيف من ضغوطها. كما تتطور بذلك قدرات الإنسان ومواهبه، ويجد من خلالها السبل

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ١٣ اغسطس ٢٠٠٣م، العدد ١١٠١٦.

والوسائل لمعالجة المشاكل، وتوفير المتطلبات. والانطوائية لها درجات متفاوتة، أدناها أن يقتصر انفتاح الإنسان على دائرة اجتماعية خاصة، كأقربائه أو أبناء محلته، بينما يتردد ويتهرب عن العلاقة مع غيرهم. وقد تصاب بعض الجماعات بحالة انطواء تجاه الجماعات الأخرى، فيغلب على أبنائها الميل للعزلة، والابتعاد عن الآخر المختلف دينيًا أو عرقيًا، فيتقوقعون ضمن مناطق خاصة بهم، وتقتصر صداقاتهم وعلاقاتهم مع أفراد مجتمعهم، ويعزفون عن التعامل والتعاطي خارج اطارهم.

ويرى أحدهم نفسه غريبا خارج منطقته وان كان ضمن الوطن الواحد، فيكون بقاؤه في المناطق الأخرى بحدود الحاجة والاضطرار، وقد يفوت على نفسه فرصًا للتقدم الوظيفي، أو النمو الاقتصادي، اذا كان ذلك في غير منطقته، وقلّ أن يبادر المقيمون منهم في مناطق أخرى إلى تكوين علاقات وصداقات مع البيئة الإجتماعية فيها، بل يشكلون لهم تجمعهم الخاص، مما يكرس لديهم حالة الانطواء والانغلاق.

وحتى على مستوى الجامعات والمؤسسات العامة، يميل هؤلاء إلى العلاقة مع بعضهم فقط. بالطبع لا تصاب جماعة بهذه الحالة إلا نتيجة عوامل وأسباب، من أبرزها اضطراب العلاقة بينها وبين جماعات أخرى أكثر قوة، فيدفعها الإحساس بالضعف، والحفاظ على الهوية، إلى اللجوء لحالة الانطواء والانغلاق، ثم تنشأ ثقافة تكرس ذلك الواقع عبر تشريعات دينية وأعراف وتقاليد إجتماعية. إنها حالة غير سوية على مستوى الفرد والجماعة، تنتج خللًا داخليًا، وتعرقل النمو، وتمنع فرص التقدم، فلا بدّ من معالجة أسبابها، والسعي لتجاوزها.

النرجسية

المبالغة في حبّ الذات، قد تدفع صاحبها لبعض السلوكيات المجحفة بحقوق الآخرين، كالاستئثار عليهم، وإبراز شخصيته بطريقة مميزة، على حساب شخصياتهم، وتضخيم قدراته ودوره، والرغبة في إظهار تفوقه، حيث يطربه تمجيد ذاته، وينتشي بمدح الآخرين له، ويتوقع من الآخرين أن يتعاملوا معه باعتباره متميزًا، ويتحسس تجاه من لا يبدي نحوه اهتمامًا خاصًا.

بل قد يزعجه ظهور الآخرين وتقدمهم، ويثير في نفسه الغيرة والحسد، ويحاول التقليل من شأنهم، حتى لا يبدو في مستوى المنافسة والمزاحمة لموقعيته ومكانته.

ويرفض هذا النوع من الأشخاص أي نقد أو ملاحظة، ويعتبر ذلك تجريحًا وانتقاصًا من مقامه.

يطلق علماء النفس على هذه الشخصية اسم (النرجسية). وعادة ما تكون هذه الشخصية ثقيلة الظل على الآخرين، وتواجه صاحبها كثير من التوترات في علاقاته الاجتماعية، ترتدّ على نفسيته بالآلام والجراحات.

وكما على مستوى الأفراد، كذلك على مستوى الجماعات، فقد تصاب بعضها بمثل هذه الحالة، حين تسود اجواءها مشاعر التفوق والتعالي على سائر الجماعات في محيطها، لانتماء عرقي أو ديني أو قبلي، وما قد تنطوي عليه وتدفع إليه هذه المشاعر، من مواقف وممارسات سلبية تجاه الآخرين.

إن الذات النرجسية الجماعية تعشش في ظلها الثغرات، ونقاط الضعف، نتيجة الرضا عن الذات، ورفض النقد واعتباره عدوانًا من الآخر، كما تفسد أرضية التعايش والانسجام بين الجماعة والجماعات الأخرى، وقد تؤسس لحالة من القطيعة والاحتراب.

ويعكس أدب الحماسة والفخر في العصر الجاهلي، صورًا عن هذه الذات النرجسية، كقصيدة عمرو بن كلثوم التي تحكي مشاعر قبيلته تغلب، وفيها يقول:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطامًا ... تخر له الجبابرة ساجدينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرًا وطينا

التوكيدية

يعتبر مفهوم التوكيدية من المفاهيم الحديثة في مجال علم النفس، ويمكن أن نستخلص من أبحاث العلماء المختصين التعريف التالي: توكيد الذات يعني شعور الفرد بالثقة بنفسه، وسعيه للتعبير عن ذاته في الوسط الذي يعيش فيه، والعمل على حماية مصالحه وحقوقه.

إن الثقة بالنفس هي مفتاح تفجير المواهب والكفاءات، وبدونها تبقى قدرات الإنسان كامنة مشلولة، حيث ينطوي كل إنسان على قدرات هائلة، لكنه لا يلتفت اليها، أو يشك في وجودها، ويتردد في استخدامها، بسبب ضعف الثقة بالنفس. كما ان نجاح الإنسان في بناء علاقات سليمة متكافئة مع الآخرين، يعتمد على ثقته بنفسه.

والهروب عن التعامل مع الآخرين، أو الخوف من الارتباط بهم، أو الفشل في إدارة العلاقة معهم، أو انسحاق الشخصية أمامهم، كل ذلك من مظاهر وأعراض ضعف الثقة بالنفس. وحينما يواجه الإنسان مصاعب الحياة ومشاكلها في الميادين المختلفة، فإن أهم سلاح يتكئ عليه في المواجهة، هو الثقة بالنفس، وبمقدار توفرها تكون درجة صموده ومقاومته. من هنا تصبح الثقة بالنفس أولى ركائز الشخصية التوكيدية.

أما الركيزة الثانية فهي التعبير عن الذات بأن يمتلك شجاعة الإفصاح عن مشاعره السلبية والإيجابية، بالطريقة المناسبة، وعند انخفاض مستوى التوكيدية يتردد الإنسان ويتهيب من إبداء مشاعره، بسبب حالة من الخوف أو الخجل.. إن البعض من الناس يصعب عليه التعبير عن رضاه أو انزعاجه تجاه الآخرين، بينما يعيش احتقانًا داخليًا بتلك الأحاسيس والمشاعر، والأمر الأهم هو شجاعة إبداء الرأي التي يفتقدها ضعاف الشخصية، بينما يتحلى بها ذوو الشخصية التوكيدية.

والركيزة الثالثة في التوكيدية، السعي لحماية الحقوق والمصالح، التي قد تتعرض للمصادرة والانتقاص من قبل المعتدين والطامعين، ولا يصونها ويحفظها إلا حرص الإنسان عليها ودفاعه عنها.

التعبير عن المشاعر[1]

المشاعر والأحاسيس هي انعكاس صور الأحداث والأشخاص على لوحة نفس الإنسان، حيث يواجه ما يسره وما يحزنه، ومن يرتاح إليه ومن يزعجه، وما يرضيه وما يغضبه. هذه الانطباعات تترجمها المشاعر والأحاسيس، التي تظهر على قسمات وجه الإنسان، وعبر أحاديثه وكلامه. وفي الحالة السوية يفصح الإنسان عن مشاعره تجاه الأشياء والأحداث، مما يجعله أكثر حيوية وتفاعلًا مع الحياة، ويجدد نشاطه النفسي والعاطفي، وينظم علاقته بما حوله.

وقد يكبت الإنسان مشاعره ويقمعها، مما يحدث له إيذاءً نفسيًا، ويضعف تفاعله مع الواقع المحيط به، وبمرور الزمن يصاب بتبلد الأحاسيس وجفاف المشاعر. ولعل من معاني قسوة القلب التي تحذر منها النصوص الدينية، كسل مستوى الأداء العاطفي، وجمود المشاعر والأحاسيس الإنسانية، إن التفاعل العاطفي هو ميزة إنسانية يختلف بها عن الجمادات التي لا مشاعر لها، فإذا تجمدت مشاعر الإنسان، تساوى مع الجمادات، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

لذلك من المحبذ أن يعبر الإنسان للآخرين عن مشاعره الإيجابية تجاههم، مما

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٢٠ أغسطس ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٢٣.

ينشط أداءه العاطفي، ويسعد الآخرين، ويقوي علاقته بهم. وفي العلاقة مع الزوجة ورد عنه ﷺ: «قول الرجل لزوجته إني أحبّك لا يذهب من قلبها أبدًا». وفي العلاقة مع الآخرين ورد عنه ﷺ:«إذا أحب أحدكم صاحبه أو أخاه فليعلمه، فإنه أبقى في الألفة وأثبت في المودة». ويأتي في هذا السياق الحث على إبداء الشكر والاحترام للمحسنين: جاء في الحديث عنه ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». وعند وفاة ابنه إبراهيم عبّر رسول الله ﷺ عن مشاعر حزنه أمام المسلمين وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». فإبداء المشاعر له وظيفة إيجابية في حياة الإنسان، وكبتها وقمعها حالة غير سوية لها مضاعفات سلبية، وقد تفرض الظروف الخارجية على الإنسان ذلك، لكن البعض من الناس يمنعهم من إبداء أحاسيسهم، انخفاض المستوى التوكيدي في شخصياتهم، وضعف ثقتهم بذواتهم، وهذا ما ينبغي أن يعالج بالتثقيف والتوجيه والممارسة العملية.

التعبير عن الرأي

حركة فكر الإنسان، وتأمله فيما حوله، وخلفيته المعلوماتية، تنتج لديه آراءً وأفكارًا، منها ما يكون صائبًا مفيدًا، ومنها ما يخالف الصواب، ويفتقد النضج. وتطور ساحة المعرفة الإنسانية إنما يكون بتداول الآراء وتلاقحها، ولو انطوى كل إنسان على رأيه وفكرته، لما تقدمت حياة البشر خطوة واحدة في أي ميدان من الميادين. لذلك يمتن الله تعالى على الإنسان بمنحه القدرة على البيان والتعبير، يقول تعالى:﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

إن التعبير عن الرأي ينشط حركة الفكر عند الإنسان، ويشجعه على المزيد من العطاء، يقول الإمام علي رضي الله عنه: «العلم يزكو على الإنفاق» كما يساعد في بلورة الرأي وإنضاجه، وتبين موقعه من الصحة والخطأ، ويشكل إسهامًا وإثراءً لساحة المعرفة، وتقويمًا للأوضاع الاجتماعية.

وقد أصبح التعبير عن الرأي من أهم مقاييس تقدم المجتمعات،، ويهمنا في هذا البحث ما يرتبط بالجانب الذاتي، حيث يمارس الإنسان على نفسه قمعا ذاتيا، ويصادر حقه في التعبير عن رأيه، حذرًا من مخاوف وهمية، وانتقاصًا من قدراته، وتشكيكًا في قيمة آرائه. ويحدث مثلًا أن تتداول الآراء في شأن من الشؤون، ويبدو للإنسان فيه رأي، لكنه يتردد في طرحه، حتى إذا طرحه آخرون، واستحسنه الجميع، لام نفسه على تردده وتوقفه عن إبداء رأيه.

التربية التوكيدية

التنشئة الأسرية لها الدور الأساس في صياغة شخصية الإنسان، وتحديد معالمها وتوجهاتها، لذلك يلحظ علماء النفس تأثير دور التربية العائلية على مستوى توكيد الذات، ارتفاعًا وانخفاضًا. فالتنشئة السليمة يتخرج منها أقوياء الشخصية، من تتوافر لهم درجة عالية من التوكيدية، بينما التربية الخاطئة تنتج عناصر مهزوزة الشخصية، تفتقد الثقة بذاتها، وقدرة التوكيد.

إن احترام الطفل وتشجيعه على التعبير عن مشاعره وآرائه، وتدريبه على مواجهة المواقف، وعدم الهروب منها، والتواري خلف مساعدة والديه دائمًا، هو الذي ينمي توكيد الذات وقوة الشخصية عنده. أما تحقير الطفل وعدم الاعتناء بمشاعره وآرائه، وتعويده الاتكالية على والديه في مواجهة المشاكل، فذلك ما يضعف شخصيته، ويخفض درجة التوكيدية لديه. لذلك تنصح الأحكام الدينية، وأبحاث علماء التربية، بإتاحة الفرصة للطفل كي يعبر عن ذاته من خلال اللعب والمرح، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان عنده صبي فليتصابى له».

وكذلك تشجيعه على التعبير عن رأيه في الأمور الخاصة بالأسرة، كوجبات الغذاء، وأثاث المنزل، ورحلات السفر، وإثارة القضايا الاجتماعية والسياسية أمامه، وطلب رأيه فيها. ويجري الآن في بعض دول العالم الديمقراطية استضافة مجاميع من طلاب المدارس الصغار، إلى مبنى البرلمان، في بعض الأيام، وعقد جلسة برلمانية خاصة

بهم، لمناقشة قضايا محددة، وتدريبهم على التصويت وإبداء الرأي.

وفيما يرتبط بمواجهة المواقف ينصح علماء التربية، بتدريب الطفل على تحمل المسؤولية عن أقوله وأفعاله، فإذا طلب من أمه ـ مثلًا ـ أن تخبر صديقًا يريد محادثته تليفونيًا أنه نائم، لأنه لا يريد الذهاب معه لبرنامج ما، فعليها أن ترفض ذلك، وتوضح له أن عليه مواجهة صديقه بعدم رغبته والاعتذار إليه، بدلًا من التهرب منه والاحتماء بها.

وحين تعود الابنة باكية من المدرسة لأن أحد الشباب ضايقها في الطريق، وتقرر عدم الذهاب للمدرسة، أو الذهاب برفقة أخيها، فمن الأفضل رفع معنوياتها، وإشعارها بأنها قادرة بنفسها على ردع هذا الشاب، بتهديده بإبلاغ الشرطة، وتحريض المارة لإيقافه عند حده وفضحه أمام الناس. وكذلك حين يحصل نزاع بين الابن وبعض زملائه في المدرسة، فلا ينبغي للأب أن يسارع إلى التدخل للدفاع عن الابن والانتصار له، بل عليه أن يرشده إلى أفضل الطرق لمواجهة المشكلة بنفسه. وهكذا فالمنهج الصحيح تدريب الولد على تحمل المسؤولية، والدفاع عن حقوقه ومصالحه، إلا في المواقف التي تستدعي التدخل.

الفصل الخامس

الفاعلية الاجتماعية

الشباب: محاولة فهم[1]

بين حينٍ وآخر تقوم بعض الفئات والمجاميع من الشباب بممارسات وتصرفات مزعجة تعكر صفو الأمن الاجتماعي، وتخالف النظام الأخلاقي والقيمي للمجتمع، كما حصل أيام عيد الفطر الماضي في كورنيش جدة، وقبله في شارع الأمير عبدالله في الرياض، وما حدث من تصرفات عبثية طالت بعض المصالح العامة والممتلكات الخاصة خلال الأسبوع الماضي في القطيف.

إن مثل هذه الممارسات لا يمكن قبولها ولا تبريرها، ذلك أن حماية الأعراض والممتلكات الخاصة والعامة، هي من أولويات المبادئ والقيم الدينية، وأجلى مصاديق الأمن والاستقرار الاجتماعي.

والمواطن الصالح هو من يشعر بالمسؤولية تجاه مصالح وطنه وأبناء مجتمعه ويحرص على حمايتها من أي عبث أو اعتداء.

لكن مجرد الإدانة والرفض لهذه التصرفات الخاطئة لا يكفي لاحتوائها ولا يمنع من تكرارها، بل يجب أن نتعامل معها كجرس إنذار، ومؤشر خطر على ما يعتمل في أوساط الجيل الناشئ من أبنائنا وشبابنا.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٥ صفر ١٤٢٣هـ، ٨ مايو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٥٤.

هذا الجيل الذي نشأ في عالم مليء بالتحديات، مزدحم بالمؤثرات الإعلامية والثقافية، ويكاد يعيش هذا الجيل نوعًا من الاغتراب والازدواجية بين ما يسمعه من موروث ديني، وقيم اجتماعية، وبين مايشاهده من وضع خارجي، بانفتاحه على العالم عبر وسائل الاتصالات وقنوات الإعلام والبث المباشر.

كما أن لصعوبات الحياة ومشاكلها في الظروف المعاصرة أثرًا واضحًا في تأزم نفسيات أبناء هذا الجيل من الشباب.

وذلك يستدعي دراسة جادة واهتمامًا عميقًا من قبل الجهات المعنية والواعية في المجتمع، لمساعدة هذا الجيل من أبنائنا على مواجهة تحديات الحياة.

طبيعة مرحلة الشباب

لكل مرحلة في عمر الإنسان طبيعتها وسماتها وينبغي النظر إليها من خلال تلك الطبيعة والسمات، لا عبر منظار مرحلة أخرى، فلا يصح التعامل مع مرحلة الطفولة على أساس معادلات مرحلة الشباب، ولا مقايسة فترة الشباب بمرحلة الشيخوخة.

إن مرحلة الشباب هي فترة التطلعات والآمال عند الإنسان، فهو في مرحلة الطفولة لم يكتشف ما حوله بعد، ولا يمتلك القدرة النفسية والذهنية للتفكير المستقبلي واستهداف طموحات معينة، فشعوره بذاته يكون في مرحلة بدائية، وتطلعاته بسيطة محدودة.. وكذلك في مرحلة الشيخوخة والكبر حيث تخبو آمال الإنسان وتطلعاته غالبًا، بسبب ما واجهه في حياته من مشاكل وإخفاقات، تجعله أكثر واقعية ورضىً بما هو فيه وأبعد عن الآمال والتخيلات..

أما مرحلة الشباب فهي فترة انبعاث الآمال والتطلعات، حيث تتوهج طموحات الإنسان نحو بناء مستقبله وحياته.، ويفكِّر في تأمين متطلبات معيشته، وتكوين شخصيته وموقعيته في المجتمع.

وهنا يحتاج الشباب إلى أفق مفتوح أمام طموحاتهم، بأن تتوفر لهم فرص التقدم

العلمي والعملي، وأن تتيسر لهم سبل تحقيق مطالب الحياة، وبناء المستقبل. كما يحتاجون إلى التوجيه السليم الذي يدفعهم لتفجير طاقاتهم وكفاءاتهم، وتحمّل المسؤوليات والتحديات، فبالجدّ والاجتهاد تتحقق الآمال والتطلعات.

إن شعور الشباب بانسداد الأفق أمام طموحاتهم، وتعذر تحقيق رغباتهم المشروعة في بناء كفاءتهم ومستقبل حياتهم، ينتج حالة من القلق والاضطراب الذهني والنفسي، قد يتحول إلى حالة من الإحباط، وحسب تأكيد علماء النفس فإن ظاهرة قبول الإحباط والرضى به أكثر قوة عند الشباب.

والإحباط حالة مرضية لها آثار خطيرة على نفس المصاب بها، قد تدفعه إلى العدوان والتمرد على واقعه الاجتماعي، وتشير العديد من الدراسات الاجتماعية إلى أن قلة فرص العمل وارتفاع مستوى البطالة في صفوف الشباب هو من أهم أسباب ظاهرة الانحراف والتمرد عند هذا الجيل.

بين العاطفة والعقل

في مرحلة الشباب تتوهج مشاعر الإنسان، وتقوى عواطفه وأحاسيسه، كأثر من آثار نموه الجسمي، وتفتق غريزته الجنسية. وهنا غالبًا ما يقع الشاب تحت ضغط عواطفه وأحاسيسه، فيستجيب لإثارات الشهوة، وتسيطر عليه حالات الحماس والاندفاع، ويتخذ مواقف وقرارات غير ناضجة، قد تسبب له ضررًا بالغًا في مستقبل حياته.

وإذا كان عنفوان العاطفة قويًا عند الشاب، فيجب استثارة العقل لديه، والتأكيد على مرجعيته، لتتوازن توجهات الشاب وتصرفاته بين عقله وعاطفته، فلا ينساق خلف أهوائه وشهواته، ولا يخضع للمشاعر والأحاسيس على حساب العقل والمنطق.

وهو بهذا يحتاج إلى التذكير بدور العقل، وإلى التحذير من الغفلة عنه، ويحتاج إلى مرافقة العقلاء الناضجين، والاستفادة من نصائح المرشدين.

ومن أهم ما يعانيه شباب هذا العصر تأثير وسائل الإعلام التي تحرّض فيهم

عواطفهم، وتذكي مشاعرهم وأحاسيسهم، فأغلب البرامج والأفلام في القنوات الفضائية، تستثير الشهوة والغريزة، وتدفع نحو المغامرة والعنف، وتشجع على التمرد والانفلات من القيم والأعراف تحت شعار الحرية والاستمتاع بالحياة.

شلة الأقران

من جانب آخر نلحظ تكريسًا في الانفصال بين جيل الأبناء الشباب وجيل الآباء الكبار، حيث يعيش الشباب مع بعضهم كأقران وشلل وتجمعات، وتضعف لديهم حالة التواصل مع آبائهم وعوائلهم.

إن انجذاب الشباب نحو أقرانهم وأندادهم شيء طبيعي، لكن الأقران قد يكرسون ويؤكدون فيما بينهم التوجهات السلبية، إن لم تتوفر لهم الأجواء الصالحة.

إن وجود الشاب الاجتماعي يتوزع بين عوالم ثلاثة: الأسرة، ورفاق الدراسة والأصدقاء أو شلة الأقران. وتنفرد شلة الأقران بتأثير خاص في حياة الشاب، فهي جماعته المرجعية التي تسبق في أهميتها غيرها، ويستمد الشاب منها قيمه وعاداته وأساليب تصرفاته، ومعايير الحكم على الذات والآخرين.

وترجع أهمية شلة الأقران في حياة معظم الشباب إلى عدة عوامل، من أهمها:

ما توفره لأعضائها من صحبة دافئة وتقبل وصداقة حقيقية، تزودهم بطاقات متجددة لتحمل متاعب الحياة ومشكلات مرحلة السن. وما تقدمه لهم من فرص تصريف التوترات التي يعانون منها في حياتهم. كما تتيح لهم الاستفادة من خبرات ومهارات بعضهم بعضًا، وتبعث فيهم الشعور بالأهمية الشخصية.

غير أن لشلة الأقران وجهًا آخر تمثله بعض أبعادها السلبية، التي من أهمها:

١. التسلط على الأعضاء وقهر فرديتهم وإلغاء استقلالهم، ومن ثم يعيش الشاب تسلط الرفاق، وخاصة العناصر القوية التي تهيمن على سائر الأعضاء.

٢. ليس من النادر أن تتسبب ثلة الأقران في زيادة حدة الصراع بين الشاب وأسرته ومربيه والكبار الآخرين، بما توفره له من دعم في تحدّيه لهم وثورته عليهم.

٣. قد تدفع الجماعة أفرادها إلى التورط في ألوان من السلوك اللااجتماعي أو المضاد للمجتمع لم يكونوا ليقدموا عليه وحدهم.

٤. غالبًا ما يكون النشاط داخلها عشوائيًا لا هدف موضوعيًا له، وغالبًا ما تنغلق الثلة على نفسها وتصنع لها عالمها الخاص، مما يعزلها عن الواقع الاجتماعي ويدمر علاقاتها به.

إن على الآباء أن يحرصوا على الصداقة مع أبنائهم، وإشراكهم معهم في أجوائهم، بما يستلزم ذلك من إظهار الاحترام لهم، والاستماع لآرائهم؛ لأن تواصل الشباب مع جيل الكبار يساعدهم في تجاوز ضغوط العاطفة والأحاسيس، ويجعلهم أقرب إلى العقلانية والاعتدال.

الانفتاح على الشباب[1]

لا يصح لنا أن نترك أبناءنا وشبابنا فريسة لوسائل الإعلام والاتصالات وقنوات البث الفضائي، وهي تبشّر بثقافة مادية استهلاكية، وأنماط سلوك غريبة مخالفة لقيمنا وأمن مجتمعنا.

ولا ينبغي أن ننفر منهم ونبتعد عنهم حينما تزعجنا بعض تصرفاتهم الطائشة، فهم ضحايا بيئة تعاني من خلل في أساليبها التربوية، وأجوائها الاجتماعية.

كما لايمكن المراهنة على القمع والردع وحده، فقد يدفعهم إلى المزيد من التحدي ويدخلنا في دوامة الفعل ورد الفعل، إننا نحتاج إلى الردع والتأديب، ضمن حدود معينة، لكن المراهنة يجب أن تكون على الاقتراب من الشباب أكثر، وفهم ظروفهم ومعاناتهم، وتوفير الأجواء الصالحة لهم.

إن الحاجة ماسة في مجتمعاتنا إلى الانفتاح على الشباب وتجسير العلاقة معهم، من قبل العائلة، وعلماء الدين، والمسؤولين، لمساعدتهم على تجاوز هذه المرحلة الحرجة التي يمرون بها، والظروف الصعبة التي يعاني منها بعضهم في تسيير أمور حياته، ولتطمينهم ومعالجة ما يساورهم من قلق على بناء مستقبلهم، وتأمين متطلبات الحياة.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٣ ربيع الأول ١٤٢٣هـ، ١٥ مايو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٦١.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى ضرورة تطوير الخطاب التربوي والديني مع الشباب، بحيث يكون أقدر على التأثير فيهم، فشباب اليوم منفتحون على لغة وسائل الإعلام الجذابة، ومطلعون على كثير من المعارف والعلوم المعاصرة، وهم يشاهدون أساليب التخاطب الوجداني والعاطفي، وإتاحة الفرصة للنقاش والحوار وتفهم الرأي الآخر .

وبهذا لا يستقطبهم التخاطب الفوقي بأسلوب الأمر والنهي، والردع والزجر، والاسترسال في ذكر النصوص والأقوال، ومصادرة حق الاعتراض والتساؤل.

ولنا في منهج رسول الله ﷺ خير قدوة وأسوة، فقد جاءه غلام شاب فقال: يا رسول الله، إيذن لي في الزنا! فصاح به الناس وقالوا: مَهْ.

فلم يرض رسول الله ﷺ بمجابهتهم له، بل دنا منه وأقبل عليه يحاوره بهدوء وقال له: «أتحب الزنا لأمك؟» أجاب الغلام: لا. فقال ﷺ: «وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لأختك؟» قال: لا. قال ﷺ: «وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم. أتحبه لابنتك؟» قال:لا. قال ﷺ: «وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. فاكره لهم ما تكره لنفسك وأحب لهم ما تحب لنفسك». ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر الغلام الشاب ودعا له قائلًا: «اللهم كفِّر ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه».

توجيه الطاقة والنشاط

النضج الجسمي والتوهج العاطفي في مرحلة الشباب يبعث لدى الشاب طاقة هائلة من القوة والنشاط، تحتاج إلى تصريف وتفعيل، فمرحلة الشباب هي منطقة القوة في حياة الإنسان، التي تعقب ضعف الطفولة، وتسبق عجز الشيخوخة. كما تشير إلى ذلك الآية المباركة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾.

إن هذه القدرات والطاقات الهائلة من النشاط لدى جيل الشباب تشكل رصيدًا هامًا للتنمية في المجتمع، ولتحقيق قفزات التقدم في مستواه العلمي والعملي، إذا ما

أتاح المجتمع للشباب فرص العمل والحركة، وفتح أمامهم أبواب الفاعلية والإنتاج، في الميادين المختلفة.

وقد كان للشباب في تاريخنا الإسلامي دور بارز في بناء الحضارة الإسلامية، وصنع المكاسب والإنجازات، حين كانت قيادة المجتمع تدفع بالشباب الكفء إلى الواجهة، وتمنحه الفرصة لإبراز مواهبه وقدراته القيادية.

فحينما أراد رسول الله ﷺ أن يختار أميرًا لمكة وحاكمًا عليها بعد الفتح، اختار من دون كبار صحابته شابًا في حوالي الثالثة والعشرين من عمره يقال له « عَتّاب بن أسيد» مع حداثة عهده بالإسلام، حيث لم يسلم إلا يوم الفتح، وعينه أميرًا لمكة، المدينة الأهم قداسة ومكانة في الجزيرة العربية، كما أن آخر مهمة عسكرية أمر بها رسول الله ﷺ، كانت بعث فرقة من الجيش لغزو الروم، تضم كبار الصحابة من وجوه المهاجرين والأنصار، كأبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وقتادة بن النعمان وأمثالهم، تحت إمرة شاب لم يبلغ العشرين من العمر، هو «أسامة بن زيد بن حارثة» وحينما اعترض بعض المسلمين على ذلك، وقال أحدهم، وهو عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين؟ وبلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب غضبًا شديدًا، وتحامل على مرضه وخرج الى المسجد وخطب الناس قائلًا:

«أما بعد أيها الناس، فما مقالة قد بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيمُ الله كان للإمارة لخليقًا وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة....» وكرر ﷺ وهو على فراش مرضه عدة مرات: «أنفذوا جيش أسامة».

إن طاقات الشباب تأبى الكبت، وترفض الجمود، وإذا لم تجد أمامها قنوات سليمة للتصريف والتفعيل، وإذا لم تفتح أمامها الخيارات المناسبة لممارسة الحركة والنشاط، فستتفجر في الاتجاهات الخاطئة، وعبر الطرق المخالفة للقانون والنظام.

وما اهتمام دول العالم اليوم برعاية الأنشطة والفعاليات الشبابية وتشجيعها كالنشاط الرياضي، إلا من أجل احتواء هذه الطاقات الفائضة لدى جيل الشباب.

إن الأندية الرياضية، وسائر المؤسسات التي تعنى باستيعاب قدرات الشباب ومهاراتهم العلمية والفنية والاجتماعية، أصبحت من الضرورات في عالم اليوم. والمجتمع الأرقى هو الأكثر اهتمامًا بطاقات أبنائه وشبابه.

البرامج والمؤسسات

مرحلة الشباب هي مرحلة صقل الشخصية، وبلورة الطاقات والمواهب، وذلك لا يتم إلا عبر برامج ومؤسسات تستوعب الشباب وتنمي قدراتهم ومهاراتهم، بما ينفع مستقبلهم ومستقبل الوطن، ويتيح لهم مجال تصريف فائض القوة والنشاط، والاستفادة من أوقات الفراغ.

وكلما توفرت البرامج والمؤسسات لاحتضان الشباب، كانت ضمانة أكبر لصلاحهم وتقدمهم. بينما الضعف والفراغ في هذا المجال يعني توقع بروز توجهات سلبية، في وسط هذا الجيل.

لذلك تهتم كل دولة بإنشاء مؤسسة خاصة تعنى بشؤون الشباب باسم وزارة أو وكالة أو مديرية حسب اختلاف التنظيمات الحكومية في البلدان.

وقبل نصف قرن من الزمان استحدثت في المملكة العربية السعودية إدارة لرعاية الشباب تابعة لوزارة الداخلية سنة ١٣٧٢هـ ثم إنتقلت إلى وزارة المعارف سنة ١٣٨٠هـ ثم أصبحت ضمن مهام وزارة العمل والشؤون الاجتماعية سنة ١٣٨٢هـ وحتى صدور قرار مجلس الوزراء سنة ١٣٩٤هـ بأن تصبح جهازًا مستقلًا بأسم (الرئاسة العامة لرعاية الشباب) التي ترعى الآن أكثر من إثنتين وسبعين منشأة رياضية وثقافية في مختلف مناطق المملكة.

إن مجتمعنا السعودي يعتبر في طليعة المجتمعات الشابة حيث تصل نسبة الفئة

التي تقل عن ٢٥سنة إلى ٥٥٪ من عدد السكان.

ويواجه شباب المملكة اليوم تحديًا كبيرًا في الحفاظ على قيم دينهم وتقاليد مجتمعهم، في ظل العولمة الثقافية، والانفتاح الإعلامي الهائل. كما أن سنوات الطفرة الاقتصادية أوجدت تغييرًا في بعض أنماط السلوك والعادات الاجتماعية، أضعفت التماسك العائلي والعلاقات الأسرية.

وبعض الصعوبات الحادثة في مجال التعليم وخاصة لجهة قدرة الجامعات على استيعاب الراغبين في الالتحاق، أو في مجال تأمين فرص العمل والوظائف للخريجين، أو لزيادة التعقيد في متطلبات بناء الحياة من زواج وسكن.. كل هذه الصعوبات تشكل ضغوطًا على من يتعرض لها من جيل الشباب.

وليس بعيدًا أن يكون مجتمعنا مستهدفًا من قبل جهات معادية تسعى لتشجيع حالات الميوعة والانفلات في أوساط أجيالنا الناشئة.

من هنا يجب النظر بعمق واهتمام لما يواجه شبابنا من تحديات، وأن نتعامل مع ما يطفو على السطح من تصرفات خاطئة تصدر من بعض فئات الشباب على أنها جرس إنذار وعلامة خطر. فلا ننشغل بتلك الظواهر عن الجذور والخلفيات، حيث لا تفيد معالجة أعراض المرض الخارجية إن لم يتم تشخيصه ومداواته.

إن العائلة والجهات الحكومية، والمؤسسات الأهلية، وعلماء الدين المرشدين وكل واعٍ في المجتمع، مطالبون جميعًا بمضاعفة الجهد والاهتمام لرعاية هذا الجيل الشاب، ومساعدته على مواجهة تحديات عالم اليوم.

قلق الاختبارات[1]

في مثل هذا الحين من كل عام، يعيش الطلاب والطالبات ومعهم أُسرهم، ما يشبه حالة الطوارئ، والظروف الاستثنائية، استعدادًا لمواجهة الاختبارات في مراحل التعليم المختلفة. وذلك يعكس موقعية التعليم في حياة الإنسان المعاصر، حيث أصبح محددًا أساسًا لقيمته الاجتماعية، ولتشكيل حياته المعيشية. ولأن الاختبار هو نقطة العبور من محطة تعليمية إلى أخرى، وهو بوابة التخرج إلى ميدان الحياة العامة، والتأهيل الوظيفي والعملي، ولأن معدّل الدرجات التي يحصدها الطالب، ومستوى الأداء في الاختبار يؤثر في تحديد المرحلة التالية، وفي مقدار ونوعية الخيارات والفرص المتاحة أمام الطالب المتخرج والطالبة المتخرجة، لكل ذلك من الطبيعي أن تواكب الاختبارات هذه الدرجة العالية من الاهتمام.

بين الاهتمام والقلق

وإذا كان الاهتمام بالاختبارات مطلوبًا، ليكون الطالب أفضل استعدادًا وقدرة على الأداء، ولتقف الأسرة خلفه مشجعة ودافعة نحو المزيد من الجد والاجتهاد. فإن المبالغة في الاهتمام ليتحول إلى حالة من القلق العالي أمر مضرّ، ويؤدي إلى نتائج عكسية.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٠ بيع الأولى ١٤٢٣هـ، ٢٢ مايو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٦٨.

ويبدو أن الكثير من الطلاب والطالبات وعوائلهم في مختلف المجتمعات، يعانون من درجة عالية من القلق، تنتابهم في أوقات الاختبارات، وتخلّف العديد من الآثار والمضاعفات السلبية.

وقد اهتم الباحثون وخبراء علم النفس التربوي بهذه الظاهرة، ورصد نتائجها، وخاصة على صعيد مستوى الإنجاز الأكاديمي للطلاب.

فمنذ منتصف الخمسينات من هذا القرن وحتى الآن، أُجريت العديد من الدراسات والبحوث، في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حول موضوع قلق الاختبارات عند الطلاب، في كل المراحل التعليمية المختلفة. وحصلت دراسات قليلة محدودة حول ذات الموضوع في العالم العربي.

ووضع بعض الخبراء قياسات لتحديد درجة القلق من الاختبار، عبر طرق عديدة، ولعل استفتاءات التقرير الذاتي (**self Report**) هي أشهر تلك الطرق المستخدمة.

وهناك مقياس قلق الاختبار **Test Anxiety Inventory** من إعداد **Spielberger** وزملائه.

وتقدر الدراسات المختلفة في أمريكا وأوروبا أن حوالي ٢٠٪ من طلبة المدارس يعانون من قلق الاختبار، بدرجات متفاوتة، وأن ٢٠٪ من المتعلمين الذين كانوا يعانون من درجة عالية من قلق الاختبار، تسربوا من المدرسة، بسبب الفشل الأكاديمي. ويفترض أن هذه النسب تكون مرتفعة في العالم الثالث.

النتائج العكسية

إن ما يطمح إليه الطالب هو تجاوز الاختبار بنجاح، وتحقيق معدل متقدم، وهو ما تتمناه له أُسرته، والإخفاق في تحقيق هذا الطموح هو ما يوجب القلق والخوف، إن الدرجة المقبولة من القلق هي التي تبعث على المزيد من الجد والاجتهاد، والتهيؤ والاستعداد.

لكن شدة القلق التي تعتبر حالة سلبية مرضية، تؤدي إلى نتيجة عكسية، وتوقع الطالب فيما يحذر منه، وتفوّت عليه فرصة النجاح والتقدم؛ لأنها تحدث عنده حالة انفعالية مصحوبة بتوتر وتحفز، وحدة انفعال، وانشغالات عقلية سالبة، تفقده القدرة على التركيز المطلوب في المذاكرة وأثناء الاختبار.

إن القلق الشديد ينبعث من ضعف الثقة بالنفس، حيث يشكك في قدرته على استيعاب المادة، أو استذكار المعلومة عند الحاجة إليها. كما تغذيه بعض الأفكار الوسواسية، والهواجس التشاؤمية، التي تجعل الطالب أمام شبح الفشل المرعب، والمصير القاتم المجهول.

وكم من طالب يكون استيعابه للمادة جيدًا، وحافظته للمعلومات يقظة، وقدرته على الاستعادة والاستذكار مناسبة، لكن ارتفاع درجة القلق لديه، وانشغاله بالهواجس والمخاوف، يصيبه بنوع من الإرباك والاضطراب، فتتشتت أفكاره، وتفلت المعلومات من بين يديه، ويتردد في اختيار الإجابات، وبالتالي يكون أداؤه ضعيفًا سيئًا.

إن ذات الطالب لو أتاح لنفسه فرصة الاطمئنان والارتياح النفسي، ولو سيطر على حالة القلق والخوف لديه، لوجد في قدراته وإمكاناته الخير الكثير، ولو واجهته الأسئلة التي تعثّر أمامها في موقف الاختبار، ضمن حالة طبيعة، لما رأى صعوبة في تقديم الإجابات الصحيحة عليها. لكن سيطرة الحالة السلبية عليه أعاقته عن حسن الأداء والإنجاز.

وكما يتحدث علماء النفس، فإن الإنسان حينما تواجهه مهمة ما، يحتاج إلى تركيز انتباهه، وتوجيه طاقاته نحو أدائها، وأن يتمحور اهتمامه بذات الأمر المطلوب، لكن حالة القلق العالي تنتج لديه استجابات غير مرتبطة بالمهمة المطلوبة، وغالبًا ما تكون مركزة حول الذات. فمثلًا بالنسبة للطالب في موقف الاختبار، يحتاج إلى تركيز اهتمامه وذهنه حول الأسئلة المثارة أمامه، لكن الإفراط في القلق يشغل ذهن الطالب، بما يدور في أحاسيسه ومشاعره، فقد يجد نفسه مستغرقًا في التفكير حول ما سيترتب

على فشله وضعف أدائه، وكيف سيكون موقفه أمام أهله أو زملائه؟

وهناك دراسات علمية ميدانية كثيرة، وخاصة في المجتمعات الغربية، اهتمت ببيان العلاقة بين قلق الاختبار والإنجاز الفعلي عند الطلاب، وأكدت الارتباط بين مستويات القلق العالي للاختبار، وانخفاض مستوى الأداء الأكاديمي عند الطلاب، حيث توصلت إلى أن الطلاب الذين يعانون من القلق العالي للاختبار، يحصلون غالبًا على تقديرات أقل في هذه الاختبارات، مقارنة بالطلاب الآخرين ذوي القلق المنخفض.

وتشير نتائج عدد من الدراسات في هذا المجال، إلى أن الأفراد الذين يعانون من درجة عالية من قلق الاختبار، يقضون كثيرًا من وقتهم قبل وخلال الاختبار، وهم:

١. منزعجون حول أدائهم ويفكرون في أداء الآخرين.

٢. يفكرون في البدائل التي يمكن اللجوء إليها في حالة فشلهم في الاختبار.

٣. تنتابهم بشكل متكرر مشاعر العجز وعدم الكفاية.

٤. يتوقعون العقاب وفقدان الاحترام والتقدير.

٥. تنتابهم ردود فعل واضطراب فسيولوجية مختلفة.

وينتج عن هذا كله نوبات من الاضطراب أو الهيجان الانفعالي، الأمر الذي يعيق التركيز والانتباه لمهمة الإجابة عن أسئلة الاختبار، ويؤدي بالتالي إلى ضعف الأداء.

الثقة والاطمئنان

الثقة بالنفس والاطمئنان هي أهم قوة يتسلح بها الطالب في موقف الاختبار، فهي التي تمكنه من استيعاب موادّ دراسته عند المذاكرة والمراجعة، وهي التي تركز انتباهه على ما يواجهه من أسئلة الاختبار، وتعطيه الفرصة لاسترجاع المعلومات واستذكارها بشكل منظم وفق الحاجة إليها.

أما كيف يتوفّر الطالب على هذه الصفة؟ وكيف يمتلك هذه القوة؟ فإن عوامل عديدة لها دور في بناء الشخصية على أساس الثقة والاطمئنان، منها: التربية العائلية السليمة، ومنها الثقافة والوعي الصحيح، الذي يخلق عند الإنسان منهجية التعامل والتصرف السليم في مختلف الظروف والأزمات.

وهذا ما تؤكده القيم والمفاهيم الدينية التي تجعل الإنسان على صلة دائمة بالله سبحانه وتعالى، هذه الصلة تشيع في النفس الثقة والاطمئنان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[سورة الرعد، الآية: ٢٨].

وذكر الله هنا يعني تلك المنظومة من القيم والمفاهيم التي يؤمن بها الإنسان المسلم، وينظر من خلالها إلى الحياة والأمور، فيكون موضوعيًا في تفكيره، منطقيًا في حساباته، متحملًا لواجباته ومسؤولياته، دارئًا عن نفسه المخاوف والقلق بالتوكل على الله، والثقة به وبما رزقه الله من قدرات وإمكانات ذاتية عظيمة. ويقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[سورة إبراهيم، الآية: ٢٧] والقول الثابت هو منهجية التفكير الصحيح، ونمط السلوك السليم.

من ناحية أخرى، فإن استعداد الطالب وتهيئه للاختبار، باهتمامه الدراسي طوال العام، ومراجعته الدقيقة لكل مادة يذهب لاختبارها، يجعله على بصيرة من أمره، واثقًا من نفسه. إن مشكلة بعض الطلاب والطالبات هي التساهل في دروسهم، وعدم الاجتهاد في استيعابها أثناء الدراسة، والتسويف في المذاكرة، فيداهمهم الاختبار، وهم على غير أهبة كافية، فيضغطون على أنفسهم في وقت محدود قصير قبل الاختبار، وذلك من أهم أسباب الإصابة بحالة القلق الشديد.

ويمكن القول هنا إن حالة الطالب في موقف الاختبار، تعكس مجمل علاقته مع المدرسة والتعليم، فالطالب الجادّ المجدّ، يستقبل الاختبار بثقة واطمئنان غالبًا، ويتعامل معه ضمن حالته الطبيعية، ووضعه الاعتيادي، مع درجة من التركيز والاهتمام. أما الطالب الضعيف في جديته واجتهاده، أو الذي يعاني من مشاكل في

علاقته مع المدرسة والتعليم، فإنه يجد نفسه في سباق مع الزمن للمذاكرة في آخر الوقت، فيدخل قاعة الاختبار وهو غير متأكد من استيعابه للمادة، مما يجعله فريسة سهلة للقلق والاضطراب.

كما أن للظروف الحياتية التي يعيشها الطالب أيام الاختبار دورًا في استقرار حالته النفسية، فالسهر ليلة الاختبار وقلة النوم، وارتباك البرنامج الغذائي، قد يؤثر على قدرة التركيز الذهني، ويساعد على رفع مستوى القلق والتوتر النفسي.

دور العائلة

ينبغي أن تساعد العائلة أبناءها طلابًا وطالبات في تجاوز مرحلة الاختبار بثقة ونجاح، وذلك بالاهتمام المسبق الدائم بوضعهم الدراسي، فليس صحيحًا أن تغفل العائلة عن متابعة الوضع التعليمي لأبنائها، ثم تبالغ في الاهتمام فجأة عند الاختبار.

وللعائلة دور أساس في زرع الثقة في نفس الطالب ـ الطالبة، وترشيد حالة القلق لتكون ضمن الوضع الطبيعي الإيجابي، وتوفير الأجواء المساعدة له على المراجعة الكافية لدروسه، وتشجيعه ليكون أكثر ثقة واطمئنانًا.

وتخطئ بعض العوائل حينما تبالغ في الضغط على الأولاد فترة الاختبارات، وتواصل تحذيرهم من الرسوب، وتتوعدهم على الإخفاق، فتزيدهم قلقًا واضطرابًا، وتسبب لهم أضرارًا تطاول أعماق نفوسهم وتكوين شخصياتهم.

إن مستويات الذكاء تختلف من طالب إلى آخر، وليس التفوق وإحراز أرفع الدرجات أمرًا متوقعًا من كل طالب، كما أن الرغبة في التعليم متفاوتة أيضًا بين الطلاب، فيجب أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار. ولا يجوز استخدام أساليب القمع والقسوة ضد الولد إذا كان قاصرًا في استيعابه، أو مقصرًا في اجتهاده، إلا بمقدار التوعية والتنبيه والتأديب، ضمن الحدود المعقولة، بما لا يتجاهل إنسانيته وحقوقه، ولا يدفعه إلى ردات فعل خاطئة منحرفة، تضر بحياته الشخصية، وارتباطه العائلي.

المدرسة والمعلم

المدرسة هي جهة الاتصال المباشر مع الطالب في الشأن التعليمي، وكما هي معنية بالمستوى العلمي الدراسي، فهي مؤثرة في الجانب التربوي النفسي، فمهمتها تربوية تعليمية، لذلك تطلق كثير من الدول على الوزارة المعنية بالتعليم عنوان وزارة التربية والتعليم.

والجانب التربوي هو أرضية التعليم، وهدف أساس له، واهتمام المدرسة بالتربية يخدم الإنجاز التعليمي. ومن أجل ذلك يجب أن تسعى المدرسة لإقامة أفضل العلاقات مع طلابها، لينجذبوا إليها نفسيًا، ويرتبطوا بها عاطفيًا، عبر تعامل المدرسين الأبوي مع الطلاب. فالمعلم بمنزلة أب للطالب، أو أخ أكبر له، وكذلك المعلمة عليها أن تشعر بالأمومة لطالباتها، والصداقة لهن، وأحوج ما يكون الطلاب إلى رعاية معلميهم هو في وقت الاختبارات.

إن هدف الاختبارات هو التأكد من استيعاب الطالب للمادة العلمية التي درسها، واهتمامه بمراجعتها، فالأسئلة التي توضع للاختبار تكون لخدمة هذا الهدف. ولا ينبغي أن يتبارى المعلمون، ويزايدوا على بعضهم بعضًا، في التشديد وتصعيب الأسئلة، وصياغتها كألغاز وأحاجي، أو بطريقة تعجيزية، أو إلجاء الطلاب إلى الانهماك في حفظ النصوص والمعلومات، مع أن المطلوب في العملية التعليمية هو الفهم والاستيعاب بالدرجة الأولى.

وفي الاستعداد للاختبارات، يكون لتوجيهات المعلم وإرشاداته دور كبير في صنع الحالة النفسية للطلاب، فهو الذي يشجعهم على الاهتمام الإيجابي، وينمي فيهم روح الثقة، وأجواء الاطمئنان، وينزع عنهم هالة الرعب والقلق.

وخطأ ما يقوم به بعض المدرسين، من التهويل والتهديد لطلابهم قرب الاختبارات، وهم يقصدون بذلك دفعهم أكثر للاهتمام، لكن الأسلوب الخاطئ غالبًا ما يعطي نتيجة خاطئة.

وفي قاعة الاختبار يجب أن تتجلى رعاية المعلم وحنوه على الطالب، فهو في لحظة حساسة، يحتاج فيها إلى العون والدعم، الذي يوفر له الاطمئنان والاستقرار، ويشيع في نفسه روح الثقة، فيصبح أكثر ارتياحًا وتركيزًا. والعون الذي نقصده من المعلم هو الخلق الطيب، والتعامل الهادئ، والتشجيع ورفع المعنويات.

إن بعض المعلمين يدخل على الطلاب في قاعة الاختبار كضابط عسكري، أو كمحقق يواجه متهمين، وذلك بحجة تطبيق القانون والتعليمات، فيتعامل بقسوة وشدة، ويسيء الظن في أقل حركة من الطالب، وينشر أجواء الرعب والخوف، وكل ذلك مضر بمصلحة الطلاب، ومخالف لأساليب التربية الصحيحة، والتعليم السليم.

فتطبيق القانون والتعليمات أمر مطلوب ولكن بروح طيبة، وأخلاق سامية، وكلما توفرت للطالب في قاعة الاختبار أجواء الراحة والاطمئنان، كان أداؤه أفضل، وإنجازه أحسن. لذلك توصي الدراسات التربوية التعليمية بأن لا ترتبط طريقة الاختبارات وإجراءاتها ونظمها بأساليب تبعث على الرهبة والخوف.

ونشير هنا إلى حاجة الطالبات بشكل خاص إلى حسن الرعاية وقت الاختبار، فهنّ أكثر عرضة لقلق الاختبار من الذكور، كما استنتجت دراسات عديدة، ومشاعرهن أرقّ وأرهف، لذلك تنشر الصحف كل عام، عن حالات من الإغماء والإعياء تقع في صفوف الطالبات، أثناء الاختبارات، ويبدو أن إمكانية القسوة والشدة في التعامل مع الطالبات أكثر منها مع الطلاب، مما يغري بعض المعلمات بممارسة ذلك الأسلوب، وهو ظلم وانحراف عن أساليب التعليم والتربية السليمة.

العطلة الصيفية ووقت الفراغ[1]

تتفق كل أنظمة التعليم في جميع دول العالم، على منح طلابها إجازة سنوية خلال فترة الصيف، تقارب ثلاثة أشهر يطلق عليها (عطلة الصيف).

وإقرار نظام العطلة الصيفية جاء محصلة ونتيجة لتطور تجارب المجتمع البشري، في مجال علم التربية والاجتماع.

فالدراسة الأكاديمية المنتظمة، تستلزم بذل جهد ذهني ونفسي من الطالب، وتقيد حريته وحركته ببرنامجها اليومي الرتيب، مما يجعله في حاجة الى فترة من الراحة، بالتوقف عن التزاماته الدراسية، وشعوره بالحرية والانطلاق.

محطة التوقف هذه أثناء العطلة الصيفية تؤدي عدة وظائف لصالح العملية التعليمية، فهي:

أولًا: تعطي الطالب فرصة لتجديد نشاطه الذهني والنفسي، حتى لا يستنزفه العناء، ولا يسيطر عليه الإرهاق والملل، فيستأنف بعدها عامه الدراسي الجديد برغبة وشوق.

ثانيًا: تشكل العطلة الصيفية فاصلة بين المراحل والبرامج التعليمية، تنبه الطالب

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٨ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ١٩ يونيو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٥٩٦.

إلى حركة مسيرته الدراسية، وتجاوزه لأشواطها، ومستوى خطواته في طريقها، وتهيئه للاستعداد لكل مرحلة جديدة.

ثالثًا: تمنحه المجال لاستكمال بعض نواقصه، ومعالجة ثغرات تحصيله، ليواكب مسيرة المنهج الدراسي، ولا يتخلف عن مستوى زملائه وأقرانه.

رابعًا: تتيح الفرصة لتنمية شخصيته الإنسانية، في أبعادها المختلفة، فهو إنسان ذو مشاعر وأحاسيس، وله مواهب وقدرات، فلا بدّ له من أفق مفتوح أمامه، لإشباع مختلف حاجاته، وممارسة رغباته المتعددة.

لكل هذه الأغراض وأمثالها اتفقت أنظمة التعليم على إقرار العطلة الصيفية، ومن نفس المنطلق، اعتمدت أنظمة العمل في جميع الدول، حق الإجازة السنوية لكل عامل.

صحيح أن العمل ذهنيًا كان كالدراسة، أو عضليًا كسائر مجالات الإنتاج، هو القيمة الأساس في الحياة، وهو يعني الفاعلية والنشاط المباشر، لتوفير المتطلبات، وتحقيق الطموحات، لكن وقت العطلة والفراغ، هو الآخر لا يخرج عن هذا الإطار، حيث يقصد منه تحديد رغبة العمل، وتنمية دوافعه، وتوفير مستوى من الارتياح والرضا النفسي.

وقت الفراغ

وهو الوقت الذي يتحرر فيه الإنسان من التزامات العمل وواجباته، أو التزامات الدراسة ووظائفها بالنسبة للطالب، وهناك عدد كبير من التعريفات والتصنيفات، وأساليب القياس لوقت الفراغ، تناولتها الدراسات المختصة.

ويمثل موضوع (وقت الفراغ) ميدانًا لبحوث مكثفة من قبل علماء الاجتماع، ورغم حداثة الاهتمام بهذا الموضوع علميًا، إلا أنه سرعان ما جذب اهتمام العلماء، واستقطب جهودهم، فأصبح منافسًا لكثير من فروع علم الاجتماع، مع أسبقيتها عليه.

وذلك لما لهذا الموضوع من آثار تمتد لتشمل مختلف جوانب حياة الإنسان، التربوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية. مما جعل الاهتمام بوقت الفراغ ليس مسألة جانبية أو هامشية، بل جزءًا أساسيًا من الاهتمام بشخصية الإنسان، وبالنظم الاجتماعية القائمة في الحياة المعاصرة.

وقد تبلورت ظاهرة وقت الفراغ لدى الإنسان المعاصر، في أعقاب الثورة الصناعية في مجتمعاتها، بعد أن كان العامل في عصور الإقطاع مسخرًا، لا يتمتع بشيء من حقوقه الإنسانية، فضلًا عن حق الإجازة والعطلة السنوية، وفي معظم المجتمعات البدائية والزراعية، يضطر الإنسان للاستمرار في الكدح والعمل طوال السنة، لتوفير احتياجات حياته، التي تكاد تخلو من الفراغ بالشكل السائد اليوم.

وكشفت دراسات علماء الأنثروبولوجيا، لأساليب الحياة اليومية، للمجتمعات البسيطة والتقليدية، أنه لم يكن يوجد في هذه المجتمعات خط فاصل تمامًا، بين العمل والفراغ، ذلك أن العمل يستنفد طاقاتهم، وتختلط أنشطته بأنشطة الترويح والتسلية، حيث كانوا يقومون ببعض العادات والتقاليد الترويحية أثناء العمل، كالرقص أو الغناء أو المزاح أو العمل التعاوني، وبعض هذه العادات والتقاليد كان ذا طابع ديني.

لكن باحثين من علماء الاجتماع، يذهبون إلى عراقة ظاهرة وقت الفراغ، في كل الحضارات، عبرتاريخ البشر، لكنها كأي ظاهرة إنسانية أخرى تعرضت للتغير والتطور، حتى أصبحت الآن أكثر تقنينًا وانتظامًا، بفعل تطور الحياة، وتجارب الزمن.

ونجد في كتابات أرسطو وأفلاطون، وسائر فلاسفة اليونان، مؤشرًا على وجود ظاهرة وقت الفراغ في تلك المجتمعات، حيث لم تخلُ تلك الكتابات من تناول هذه الظاهرة، والحديث عنها بدقة وعمق، باعتبارها فرصة للتربية، وتنمية النفس أو الروح.

على أن بعض علماء الاجتماع، يرون أن ظاهرة وقت الفراغ آنذاك، كانت محصورة في إطار الطبقة الممتازة، صاحبة المكانة الرفيعة في المجتمع الإغريقي، ولم تكن حالة عامة لدى سائر الطبقات.

أما في العصر الحديث فيتمتع كل عامل أو طالب بوجود وقت فراغ، نظرًا للأنظمة السائدة في العالم، القائمة على تحديد ساعات الدراسة والعمل، وإقرار نظام الإجازات والعطل، ونظرًا لتقدم مستوى المعيشة والحياة، مما جعل وقت الفراغ جزءًا من نظام حياة الناس غالبًا.

الاهتمام بوقت الفراغ

في وقت مبكر اهتم فلاسفة اليونان بوقت الفراغ، وأكدوا على ضرورة توظيفه روحيًا، حيث ركز أرسطو على أهمية استغلال الفراغ في الموسيقى والتأمل، انطلاقًا من رؤيته لدور الأنشطة الموسيقية في تنمية العقل وملكة التفكير، ولمحورية التأمل في بناء شخصية الإنسان و تحقيق إنسانيته.

أما في العصر الحديث فإن الاهتمام بوقت الفراغ أحرز تقدمًا كبيرًا، وشغل مساحة واسعة، على الصعيد المعرفي والثقافي. فمنذ العشرينيات والثلاثينيات للقرن العشرين، ظهرت كتابات ودراسات كثيرة، في أوروبا وأمريكا، عن وقت الفراغ.

وفي عام ١٩٢٤م نظم مكتب العمل الدولي أول مؤتمر عالمي عن وقت فراغ العامل، شارك فيه أكثر من ٣٠٠ عضو يمثلون نحو ثماني عشرة دولة.

وفي أوروبا حقق علم اجتماع الفراغ تقدمًا كبيرًا، إذ عمل «جورج فريدمان» بوجه خاص، على تنمية الاهتمام بدراسة دور الفراغ في إعادة وضع الإنسان، وتكييفه مع الحضارة التي تسيطر عليها التكنولوجيا.

وفي إنجلترا كان للدراسة التي أجراها كل من «روانتري» و«لافيرز» بعنوان «حياة الإنجليز والفراغ» أثرها في توجيه الاهتمام نحو تحرير عدد من المقالات «السوسيولجية»، والبحوث المتخصصة. كما بدأ «جو فردي مازدييه» في هولندا بحوثه عام ١٩٥٣م لعل أهمها أطلق عليه «نحو حضارة الفراغ» وكذلك دراسته بعنوان «الفراغ الحضري».

وقت الفراغ: رؤية دينية[1]

إن استغراق الإنسان لوقته في عمل واحد، قد ينتج عنه الملل والسأم، لذلك تنصح التشريعات الدينية بأن يقسم الإنسان وقته على وظائفه ومهامه المختلفة، لتنمية شخصيته في مختلف الأبعاد، وتلافيًا للتعب والملل. فيكون وقت الفراغ من عمل، فرصة للانتقال الى عمل من نوع آخر. وحتى في العبادة المستحبة، لا ينصح الدين بالاستغراق فيها إلى حد فقدان الرغبة والنشاط، ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أيها الناسُ! عليكم من الأعمالِ ما تُطيقون. فإنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا . وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ ما دُووِمَ عليه وإن قَلَّ».

إن ما يعيشه الإنسان من عمر في هذه الحياة يبدو قصيرًا، قياسًا إلى عمر الزمن، وإلى آمال الإنسان، ورغبته في الخلود، وهذا ما تعبر عنه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحكي عما يدور في نفس الإنسان تجاه الحياة بعد مغادرتها. يقول تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان: ١١٢ -١١٣]. ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [سورة يونس، الآية: ٤٥].

ويحكى عن شيخ المرسلين نوح عليه السلام: أنه جاءه ملك الموت ليتوفاه بعد أكثر من

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٥ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ٢٦ يونيو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٠٣.

ألف سنة عاشها قبل الطوفان وبعده «في قول»، فسأله: يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: «كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر».

إن ما يخسره الإنسان من ماله وسائر ممتلكاته ومكاسبه يمكن تعويضه، والتوفر على بدائله، لكن الوقت هو الشيء الذي لا يعوض ما فات منه، ولا يمكن تداركه، فكل لحظة تمضي لا تعود، وكل يوم ينقضي لا يرجع. فهو رصيد محدود، ورأس مال نادر، بل هو رأس المال الحقيقي للإنسان، فلا بدّ من الحفاظ عليه، والاستفادة منه بأعلى حدٍّ ممكن.

وفي الحقيقة فإن الوقت هو الحياة يقول علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنما أنت عدد أيام، فكل يوم يمضي عليك يمضي ببعضك».

وقال الشاعر:

كل يوم يمر يأخذ بعضي   يورث القلب حسرة ثم يمضي

وقال شاعر آخر:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها   وكل يوم مضى جزء من العمر

وتنبيها للإنسان على أهمية الزمن يقسم الله تعالى في القرآن الكريم بالعديد من الفواصل والمحطات الزمنية، كما في الآيات التالية:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [سورة الليل، الآيتان: ١ -٢] .

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [سورة الفجر، الآيتان: ١ -٢].

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [سورة الضحى، الآيتان: ١ -٢] .

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [سورة العصر، الآيتان: ١ -٢].

هذه النصوص والتعاليم تربي الإنسان على احترام الوقت والاهتمام باستثماره وأن يتصرف فيه بمسؤولية وتقدير، ليستطيع تحقيق أكبر قدر من الإنجازات والمكاسب.

فهو مسؤول أمام الله تعالى عن تعامله مع أوقات حياته، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه...» رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح.

وكما يهتم الإنسان باحترام وقته واستثماره، عليه أن يحترم أوقات الآخرين، فلا يكون سببًا في تضييعها وإهدارها بعدم الالتزام في المواعيد، والزيارة في الأوقات غير المناسبة لهم، وإطالة اللقاء والحديث دون فائدة أو غرض.

إن احترام الوقت هو أحد أهم مقاييس التقدم للأفراد والمجتمعات.

تنوع المهام والأبعاد

وهذه هي الزاوية الثانية من الرؤية الدينية لوقت الفراغ، فالإنسان كائن مميز، لشخصيته أبعاد مختلفة، فهو مادة وروح، نفس وجسد، وهو مواطن في عالمين: الدنيا والآخرة، له مصالحه الفردية وارتباطاته الاجتماعية، يتمتع بقدرات ذهنية عقلية وقوى عضلية بدنية..

هذه الأبعاد المختلفة لشخصيته تجعله متنوع الأدوار والمهام، بسبب تنوع قدراته وطاقاته، وإذا ما حصر الإنسان نفسه ضمن بعد واحد، فإنه يئد ويكبت سائر الجوانب والأبعاد.

كما أن استغراق الإنسان لوقته في عمل واحد، قد ينتج عنه الملل والسأم، لذلك تنصح التشريعات الدينية بأن يقسم الإنسان وقته على وظائفه ومهامه المختلفة، لتنمية شخصيته في مختلف الأبعاد، وتلافيًا للتعب والملل.

فيكون وقت الفراغ من عمل، فرصة للانتقال إلى عمل من نوع آخر.

وحتى في العبادة المستحبة، لا ينصح الدين بالاستغراق فيها إلى حدٍّ فقدان الرغبة والنشاط، وورد في صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة عن النبي أنه قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون. فإن الله لا يمل حتى تملوا. وإن أحب الأعمال

الى الله ما دووم عليه وإن قلّ»، وفي حديث آخر عن أنس عنه ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد».

وروي عن أحد العلماء الأجلاء أنه قال: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات».

من خلال هذه الرؤية تصبح العطل والإجازات من الدراسة والعمل، فرصة لتنمية أبعاد أخرى في شخصية الإنسان، وللقيام بأدوار ومهام في ميادين وحقول ثانية.

إن الله تعالى يخاطب نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [سورة الشرح، الآيتان: ٧ -٨] أي إذا فرغت من مهمة ودور، فانتصب لمهمة أخرى، ودور آخر.

إن لكل جهة في حياة الإنسان حقوقًا ومستلزمات، فلا يصح أن يستهلك جهده في جهة واحدة على حساب بقية الجهات، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لبدنك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا».

مشروعية الترويح

أما الزاوية الثالثة فهي ما تشير إليه النصوص والتشريعات الدينية، مشروعية الترويح عن النفس، وممارسة بعض البرامج الترفيهية.

تجاه وقت الفراغ، وطريقة التعامل معه، نجد أمامنا ثلاثة اتجاهات: يتمثل الأول في النظرة الجادة للوقت، ورفض التفريط بأي ساعة من ساعاته خارج إطار العمل، وتحمل الالتزامات والمسؤوليات. ولعلنا نجد في حماس اليابانيين للعمل، وعدم رغبتهم للتعطيل، والاستفادة من الإجازات، نموذجًا لهذا الاتجاه، حتى إن نسبة من الوفيات لديهم تحصل بسبب إرهاق العمل، ذكر (ميشيل البير) في كتابه (الرسمالية

ضد الرأسمالية): أن ١٠٪ من الذكور البالغين الذين يموتون في اليابان كل عام، يقتلون أنفسهم بكثرة العمل، ويحصل اليابانيون على أسبوع واحد إجازة في السنة، واقترحت الحكومة اليابانية تخفيض ساعات العمل من ٤٤ ساعة إلى ٤٢ ساعة أسبوعيًا، ولكن الأكثرية من الشعب تخالف هذا الاقتراح.

أما الاتجاه الثاني فعلى العكس من ذلك، حيث ينظر إلى الفراغ والتحلل من واجبات العمل، كهدف وطموح، ويتعاطى مع الالتزامات العملية، كحالة اضطرارية قسرية، يبحث عن أي فرصة للتهرب منها.

والتقارير التي تتحدث عن ضعف مستوى الإنتاجية لدى شعوب الدول النامية، مؤشر على شيوع هذا الاتجاه فيها.

إن بعض العمال والموظفين يختلق المبررات لأخذ الإجازة للتغيب عن العمل، ويأتي متأخرًا عن وقت الدوام، ويخرج قبل انتهائه، وأثناء وقت العمل، يصرف وقتًا كثيرًا في قضاياه الشخصية، من شرب الشاي، أو محادثة الزملاء، أو التكلم هاتفيًا، وما أشبه ذلك من الظواهر المؤسفة الشائعة، التي بسببها يتدنى الإنتاج، ويتأخر إنجاز الأعمال.

والاتجاه الثالث يتبنى نظرة تكاملية تعتبر الفراغ وجهًا آخر لعملة العمل، فهما جانبان متفاعلان يثري كل منهما الآخر.

ففي وقت الفراغ، يمارس الإنسان بعض برامج الترويح والترفيه عن النفس، بهدف تجديد النشاط، وإراحة الأعصاب، وتنفيس ضغوط العمل وصعوباته.

ونجد في التشريعات الدينية إقرارًا لمشروعية الترويح والترفيه عن النفس. فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت».

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم».

والقرآن الكريم يوجّهنا إلى التأمل في الطبيعة، والاستمتاع بجمالها، والتفكر في عظمة الخالق المبدع..

كما وردت نصوص دينية كثيرة في التشجيع على الأسفار والرحلات، وتجيز الفكاهة والمزاح المناسب، وتحث على الرياضة، من سباحة وركوب خيل، وسباق وغير ذلك.

لقد أصبح واضحًا في المجتمعات الحديثة تأثير وقت الفراغ في مستوى العمل، فازداد الاهتمام ضمن العمل بساعات الترفيه وفترات الراحة والإجازات، من أجل أن يتمتع العامل بوقت فراغه، بصورة تنعكس إيجابيًا على أدائه للعمل.

إن برامج الترويح عن النفس مصدر حيوية ونشاط، ودافعية للإنجاز، فساعة الترويح عن النفس، تجدد نشاط الإنسان وقدرته على أداء مهامه وواجباته، في الأبعاد المختلفة.

نحو استثمار أفضل للعطلة الصيفية[1]

يتعامل كثيرون مع أيام العطلة الصيفية وسائر إجازات العمل والدراسة، وكأنها مدة إضافية من الزمن، ليست من حساب أعمارهم، ولا تشكل جزءًا من رصيد حياتهم، لذلك يهدرون أوقاتهم خلالها، ولا يخططون للاستفادة منها، فتتصرم أيامها دون أن يحققوا لأنفسهم إنجازًا يذكر.

إن عدم التفكير والتخطيط لاستثمار وقت الفراغ في العطلة والإجازة، قد يحولها من مبعث راحة، وتجديد نشاط، إلى مصدر كآبة وملل، ومن فرصة تنمية وبناء للذات، إلى أرضية سوء تنبت المفاسد والأشواك.

قد يشعر الإنسان بالارتياح، في اليوم الأول والثاني من أيام الإجازة، لتحرره من التزامات العمل أو الدراسة، لكنه بعد ذلك سيعاني ضغط الفراغ، إن لم يكن له برنامج بديل، أو اهتمامات تشغل نفسه ووقته، فحين لا يجد الإنسان ما يهتم به، يصيبه إحساس بالضياع واللاقيمة، كما قد تتسلل إلى نفسه اهتمامات سيئة، لملء فراغه النفسي والعملي.

يتحدث شاب جامعي عن نظرته لحالة الفراغ قائلًا: «وقت الفراغ في نظري، هو الوقت الذي لا أفعل فيه أي شيء، أي إنني أكون في هذا الوقت غير مشغول بممارسة

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، ٧ أغسطس ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٤٥.

أي نشاط سواء كان نشاطا ذهنيًا أم عمليًا.. وهذا الوقت هو أكثر الأوقات سببًا في الإحساس بالملل، بل إنه ممل جدًا بالنسبة لي، ولا أستطيع احتماله أكثر من ربع ساعة، والسبب في ذلك أن هذا الوقت يعطي للعقل فرصة في أن يفكر في أشياء كثيرة، تجعل الإنسان يصاب بحالة اكتئاب نفسي، لأنه في الغالب تكون هذه الأشياء جزءًا من مخزون المشاكل التي تواجه الإنسان يوميًا، ولذلك فأحسن تعبير يطلق على وقت الفراغ هو الوقت القاتل».

التوجهات السيئة

غالبًا ما يكون الفراغ أرضية للانحراف، ودافعًا للتوجهات السيئة، حيث لا يشعر الإنسان بوجوده وقيمته، إلا إذا كان له تفاعل ما مع قضايا الحياة من حوله، فإن لم يتوافر له ما يمنحه هذا الشعور إيجابيًا، فسيعاني حالة فراغ نفسي، تتولد منها هواجس وتصورات غير منضبطة، كما قد تتحرك لديه بعض النوازع والرغبات غير السليمة، التي هي تحت السيطرة في الأوضاع العادية السوية.

وأخطر ما يكون الفراغ في مرحلة الشباب، حيث يمتلك الشاب قوة فائضة، تبحث عن قنوات للتصريف، وحماسًا كبيرًا، يدفع نحو الفاعلية والنشاط. فإذا كانت أمامه برامج وأدوار، وخيارات مناسبة، تشغل اهتمامه، وتنمي شخصيته، وتفعل قدراته بالاتجاه الصحيح، فإن ذلك سيكون لصالحه وصالح المجتمع.

أما في حالة الفراغ فسوف يكون الشاب فريسة لمشاعر الملل والإحباط، ولقمة سائغة لتيارات الفساد والانحراف، وهذا ما يعانيه كثير من المجتمعات المعاصرة.

وكما اشتهر على الألسن قول الشاعر ـ أبو العتاهية:

إن الفراغ والشباب والجدة   مفسدة للمرء أي مفسدة

وقال شاعر آخر:

لقد هاج الفراغ عليه شغلًا   وأسباب البلاء من الفراغ

وينقل عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه قال لعامله: «إن هذه الأيدي لا بدّ أن تشغل فأشغلها بطاعة الله قبل أن تشغلك بمعصيته».

وروى البيهقي عن عبدالله بن الزبير قال: أشرّ شيء في العالم البطالة.

ومن أخطر السلبيات التي تنتج عن الفراغ، حالة الملل والسأم وهي مؤذية للنفس، مربكة لشخصية الإنسان، وهناك مقولة متداولة هي: «أن تشعر بالملل هو أن تقبل الموت»، والملل قد يدفع الإنسان إلى تصرفات عبثية ضارة، من أجل التخلص من الملل والخروج من عبء وطأته.

إن عدم التخطيط لاستثمار وقت الفراغ، خاصة في العطلة الصيفية والإجازات، وعدم الاهتمام بتوفير البرامج المناسبة من قبل الفرد والمجتمع، هو الذي ينتج العديد من الظواهر السلبية، التي تعانيها مجتمعاتنا، ونلحظها في حياة الكثيرين في أوقات فراغهم، ومن أبرزها الظواهر التالية:

كثرة النوم

يجد البعض في العطلة والإجازة فرصة جيدة لزيادة ساعات نومه، التي قد تصل إلى عشر ساعات أو أكثر. بينما يكون معدل نومه أيام الدراسة والعمل في حدود ست ساعات أو سبع ساعات في أقصى حدّ.

لا شك في أن النوم حالة طبيعية، وضرورة بيولوجية للإنسان، كما لسائر الكائنات الحية، وأنه يخدم وظائف أساسية، مهمتها استعادة الإنسان لنشاطه، وللمقومات التي يعتمد عليها هذا النشاط، وإعادة التوازن الذي اختل أثناء ساعات اليقظة.

ومن الواضح أن النائم يفقد إدراكه بما يحيط به، ويتوقف إحساسه بالحياة، وتفاعله معها. حيث تتضاءل جميع أنشطته، وترتخي عضلاته، وتتباطأ ضربات القلب، وينخفض معدل التنفس.

فالنوم في مظهره يشكل شبه خروج مؤقت للإنسان عن معادلة الحياة، وإذا كان

الإنسان ينام ثماني ساعات، في كل أربع وعشرين ساعة، فمعنى ذلك أن ثلث عمره يكون خارج دائرة الإحساس والتفاعل مع الحياة، ومن يحب الحياة، ويتبنى فيها أهدافًا وتطلعات، عليه أن يحرص على كسب أي ساعة ولحظة منها، والنوم فيما يزيد منه على الحاجة والضرورة، بمثابة هدر وتضييع لجزء من العمر.

لقد افترض الكثيرون: إن الحاجة اليومية للنوم، هي ثلث ساعات اليوم الواحد، أو ما معدله ٨ ساعات، في كل ٢٤ ساعة، واعتبر البعض: أن الإخلال بهذا المعدل، يلحق الأذى بصاحبه، لكن بحوث العلماء، والتجارب الميدانية والاختبارية، أظهرت: أن معظم الناس ينامون لمعدل زمني يقع بين ٥ إلى ٦ ساعات في اليوم الواحد، بينما البعض لمدة أقل من ذلك، حدها الأدنى ٤ ساعات، وأن التفاوت في معدل النوم بين الناس يتأثر بعوامل شخصية تتعلق بالفرد نفسه.

وقد لوحظ أن أولئك الذين يعيشون حياة نشطة وخلاقة ومجدية، وخالية من الهم، فإن حاجتهم للنوم، هي أقل من حاجة أقرانهم، ممن لا يظهرون مثل هذه الصفات.

ويقرر باحثون أخصائيون: إن الحد الأدنى للحاجة إلى النوم في الفرد النامي، ذكرًا أو أنثى، يقع ما بين ٤ إلى ٥ ساعات في اليوم، وقد يكون فيما يزيد على هذا الحد إضافة لا حاجة هامة لها، وأن بإمكان الفرد أن يستغني عنها.

وتحديد مدة النوم وزمنه، يخضع لما يعود الفرد عليه نفسه، ضمن الظروف والحالة الطبيعية، فإذا برمج وضعه على مدة معينة للنوم، فسينتظم عليها، وقد ينزعج للإخلال بها.

ويتضح من دراسات علمية عديدة، للمقارنة بين سمات وصفات فئة الأفراد طويلي النوم، وفئة الأفراد قصيري النوم: إن قصيري النوم هم أكثر نشاطًا وفعالية، وأكثر طموحًا، واتخاذًا للقرار، وأكثر رضًا عن أنفسهم وحياتهم، وأكثر اجتماعية، وهم قليلو التشكي بشأن دراستهم وظروف حياتهم، وهم يتصفون بالانفتاح، وقلة القلق، ويشغلون أنفسهم بصورة دائمة بفعالية أو أخرى، وقلما يعانون مشاكل نفسية، ويتضح

من هذه الخصائص أن قصر النوم يتوافق عادة مع مقومات أفضل في الشخصية، ومع حياة نفسية واجتماعية وإنتاجية أفضل. ولهذا أن يدلل على أن النوم وإلى حدٍّ ما، هو أقلّ ضرورة أو فائدة لصاحبه مما كان يظن.

إنه ينبغي التعامل مع النوم ضمن حالة الحاجة والضرورة، وليس كهواية يستمتع بها الإنسان فيستكثر منها.

وما نراه عند البعض، من زيادة وقت نومهم أيام العطلة والإجازة، يعتبر ظاهرة سلبية، تحرم الإنسان من الاستفادة المناسبة من وقت فراغه.

ونجد في النصوص والتعاليم الدينية ما يؤكد أهمية التقليل من النوم، ويلفت نظر الإنسان إلى سلبيات الإكثار منه. جاء في الأثر «إياكم وكثرة النوم»؛ لأن كثرة النوم ستكون على حساب العمل الصالح الذي هو غنى الإنسان وثروته في الدنيا والآخرة.

العمل التطوعي في خدمة المجتمع[1]

تواجه الانسان في هذه الحياة مسؤوليات كبيرة تنتظم في عدة دوائر، فهو مسؤول بالدرجة الأولى عن نفسه لتسيير شؤون حياته، وتوفير متطلباته الذاتية مادية ومعنوية، ثم هو مسؤول عن عائلته وأسرته، بأن يتكفل باحتياجاتهم ويرعى مصالحهم، وباعتباره جزءًا من مجتمعه ومحيطه، فهو معني بالشأن الاجتماعي العام، ولأنه ينتمي إلى الدائرة الإنسانية، فلا بدّ له من تحمل مسؤولياته على الصعيد الإنساني العالمي.

ولكن هل الإنسان قادر ومؤهل للقيام بهذه المسؤوليات في دوائرها المتعددة؟ وعلى جبهاتها المختلفة؟

نعم وبكل تأكيد، فقد هيأه الله تعالى ليكون خليفته في الأرض، ومنحه قدرات عقلية ونفسية هائلة، يستطيع بها أن يسخّر امكانات الحياة والكون وأن يحقق أضخم الإنجازات ويؤدي أكبر الأعمال والمهام، ولسنا بحاجة إلى أدلة وبراهين نظرية لإثبات هذه الحقيقة، لأننا نرى مصاديقها في الواقع الخارجي، فتاريخ البشرية في الماضي والحاضر يحفل بشخصيات قيادية لامعة، قامت بأدوار عظيمة على مستوى العالم، وتجاوزت حدود ذواتها وإطار عوائلها، ونطاق مجتمعاتها، وأصبحت في موقع الريادة والتأثير على صعيد الإنسانية جمعاء والعالم كله.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٨ رجب ١٤٢٣هـ، ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٩٤.

فالإمكانات والمؤهلات متوافرة لدى الإنسان لتحمل كل هذه المسؤوليات، شرط الإدراك والوعي، وإرادة التصدي، وبذل الجهد والنشاط، وهنا يتفاوت الناس، فهناك من يفتقد الوعي والإدراك حتى لمسؤوليته تجاه نفسه، ويقصر في خدمة ذاته ويصبح عبئًا وكلًا على الآخرين يحملهم مشاكله، ويعتمد عليهم في معالجة قضاياه، وهناك من يتعاجز أو يعجز عن القيام بمهام أسرته وعائلته، لقصور في وعيه، أو تقصير في حركته وأدائه، كما أن هناك من لا يبالي بواقع مجتمعه ولا دور له في خدمته وفي مقابل هذه الحالات توجد صور مشرقة ونماذج رائعة، لأناس يمتلكون الوعي والإدراك لمسؤولياتهم الذاتية والعائلية والاجتماعية والإنسانية، فيقومون بأدوار كبيرة، ويقدمون خدمات جليلة.

ويتحدث القرآن الكريم مقارنًا بين هاتين الصورتين المتناقضتين لمن يعجز حتى عن خدمة نفسه، ويكون عبئًا على غيره، ولمن يجسّد الفاعلية والحركة الدائبة بالاتجاه الصحيح، ساعيًا لتوجيه الآخرين وقيادتهم، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أسباب العزوف

واذا كان تحمل المسؤولية ضمن دائرة الذات والعائلة أمرًا يفرض نفسه على الإنسان، لأن متطلبات الحياة الشخصية، والالتزامات العائلية تضغط عليه بشكل مباشر، كما تنعكس عليه مردودات ونتائج حركته في هذا الاتجاه بصورة فورية، لذلك لا يكاد يفلت من دائرة هذه المسؤولية الا الشاذ النادر، فإن المعادلة على العكس من ذلك تمامًا فيما يتعلق بتحمل المسؤولية تجاه المجتمع، حيث لا ينبري ولا يتصدى لها إلا ثلة قليلة من الواعين المخلصين.

وتكمن جملة من الأسباب وراء الظاهرة العامة للعزوف عن العمل في الخدمة الاجتماعية، منها:

١. الاستغراق في الحالة الذاتية، فينصرف الإنسان إلى خدمة مصالحه الذاتية المباشرة، ولا يرى نفسه معنيًا بخدمة مصالح الآخرين.

٢. تعدد الاهتمامات والانشغالات خاصة في هذا العصر، حيث لم تعد الحياة ببساطة الماضي، ومحدودية آفاقه، فقد اتسعت دائرة المستلزمات المعيشية ووسائل الراحة والرفاه، وأصبحت تربية الأولاد ومتابعة تعليمهم تأخذ وقتًا وجهدًا كبيرًا من المهتمين بمستقبل أبنائهم، كما أن البرامج الإعلامية المتطورة عبر البث المباشر ووسائل الاتصالات المتقدمة كالإنترنت تقتطع من أوقات المنجذبين والمنشدين إليها الشيء الكثير.. وهكذا يعيش الإنسان في دوامة من الالتزامات والاهتمامات التي تصرفه وتشغله عن التوجه للعمل في ميادين خدمة المجتمع.

٣. ويعترض طريق العمل في الخدمة الاجتماعية العديد من المعوقات والمثبطات في غالب بلدان ومجتمعات العالم الثالث، فالقوانين والأنظمة غير مشجعة، والروتين السائد يضاعف العناء والمشقة والمواقف السلبية التي يتخذها البعض من الناس تجاه العاملين تسبب الإحباط والانزعاج.. بينما يتوفر أمام الراغبين في الخدمة العامة للمجتمعات المتقدمة، كل وسائل التشجيع وأجواء التقدير والدعم.

النتائج والمكاسب

صحيح أن العمل التطوعي لخدمة المجتمع يأخذ من الإنسان وقتًا وجهدًا قد يكون في حاجة إليه لشؤونه الذاتية، وأنه يحمله أعباء ومسؤوليات مرهقة ويضعه في مواقف حرجة بعض الأحيان إلا أن له نتائج ومكاسب عظيمة إذا أدركها الإنسان استسهل كل الصعوبات، واستعذب كل المشاق.

أولًا: يحقق السعي في خدمة المجتمع وقضاء حوائج الناس، راحة نفسية وسعادة معنوية كبيرة، ففي أعماق الإنسان ميول ونوازع خيرة وبين جنبيه ضمير

أخلاقي حسّاس، وإذا ما أنجز الإنسان أي خدمة تطوعية أنقذ بها محتاجًا أو أعان ضعيفًا، أو ساعد مظلومًا فإن ذلك يسعد ضميره وينعش احاسيسه النفسية، ويشعره بالكثير من السعادة واللذة الروحية.

ثانيًا: العمل الاجتماعي ينمي عند الإنسان قدرات ذهنية ومهارات ومؤهلات سلوكية تزيد من نقاط قوة شخصيته حيث يكسبه الخبرة والتجربة ويجعله أكثر معرفة وإحاطة بواقع المجتمع الذي يعيش ضمنه والظروف التي تكتنفه.

ثالثا: وبمقدار ما يؤدي الإنسان من دور اجتماعي يأخذ موقفًا وينال مكانة في وسط المجتمع وتتسع دائرة علاقاته وارتباطاته وتظهر مواهبه وكفاءاته.

رابعا: إن وجود مؤسسات الخدمة الاجتماعية وإرساء قواعد التعاون والتكافل الاجتماعي يوفران الاطمئنان في نفس الانسان على مستقبله ومستقبل ذويه حيث هو معرّض لحالات الضعف وحدوث المشاكل والمخاطر التي قد لا يستطيع مواجهتها بإمكاناته الذاتية، فعمله وأمثاله هو الذي يصنع الضمانات لتوفير الدعم والمساندة، عند الحالات الطارئة لأبناء المجتمع.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾..

فإذا كنت مهتما بمستقبل أبنائك الصغار من بعدك فاجتهد في إقرار نظام تكافل اجتماعي لحماية الأيتام وخدمة مصالحهم وذلك خير ضمانة لأطفالك لو احتاجوا الى الحماية والرعاية لا قدّر الله.

خامسًا: والإنسان المؤمن يدفعه إلى التطوع لخدمة الناس تطلعه إلى ثواب الله تعالى وجزائه، حيث تؤكد النصوص الدينية، على ان خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم من أفضل الأعمال التي تقرب الإنسان إلى ربه، وتوجب له المزيد من ثوابه ورضوانه.

التطوع ظاهرة إنسانية(١)

التطوع لغة: تفعّل من الطاعة، وهو ما تبرع به من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه، وفي الاصطلاح الشرعي: يطلق على الأعمال والعبادات التي يحبذها الشرع دون أن يعتبرها فرضًا واجبًا على المكلف، وهي النوافل والمستحبات، يقول تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٨٤].

أي من زاد على المقدار الواجب.

أما على الصعيد الاجتماعي فيقصد من التطوع: ذلك الجهد أو الوقت أو المال الذي يبذله الإنسان في خدمة مجتمعه دون أن يفرض عليه، ودون انتظار عائد مادي في المقابل.

والتطوع الآن ظاهرة إيجابية منتشرة في أغلب المجتمعات الإنسانية، وقد أصبحت مادة لتخصص علمي، يدرس دوافعها وآثارها ومعوقاتها وسبل تطويرها، ويرصد تجاربها وأساليبها.

فإلى جانب المؤسسات الرسمية الحكومية، هناك منظمات ومؤسسات أهلية تطوعية تقوم بالعديد من الأنشطة والمهام في سبيل خدمة القضايا الإنسانية والاجتماعية، وفي

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٥ رجب ١٤٢٣هـ، ٢ كتوبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٠١.

إحصائية عن عقد الثمانينات، بلغ عدد المنظمات والهيئات غير الحكومية حوالي ٥٠ ألف منظمة وهيئة في البلدان النامية فقط، تعمل في الميادين التنموية المختلفة، ويقدر عدد الأفراد المستفيدين من خدماتها بحوالي «١٠٠ مليون نسمة».

وتعج المجتمعات الغربية بالكثير من المؤسسات والهيئات التي تعمل في مجالات الخدمة الاجتماعية والإنسانية داخل بلدانها وعلى مستوى العالم، ففي أمريكا وحدها هناك «٣٢, ٠٠٠» مؤسسة خيرية بلغت ممتلكاتها عام ١٩٨٩م أكثر من «١٣٨» مليار دولار، كما شارك في العمل التطوعي حوالي «٩٣» مليون أمريكي يشكلون نسبة ٣٠٪ من مجمل الأمريكيين، ينفقون سنويًا «٢٠» بليون ساعة في العمل التطوعي لصالح الأطفال والفقراء والتعليم وقضايا أخرى، كما يقدر معدل التبرع المالي لكل أمريكي بـ«٥٠٠» دولار سنويًا.

وقبل سنتين تبرع الأمريكي «تيد تورنر» بثلث ثروته إلى المنظمات الإنسانية في الأمم المتحدة ويساوي مبلغ مليار دولار، وقال «تورنر» في بيان التبرع إن زوجته شاركته في القرار وفرحت به، ويعني بذلك أنها لم تعترض ولم تقل له: ما لنا وللأمم المتحدة وليبقَ المليار دولار لأولادنا!

وكانت عائلة «روكفلر» قد تبرعت قبل نصف قرن بالأرض التي أنشىء عليها مبنى المنظمة الدولية «الأمم المتحدة».

وواضح أن لسيادة الروح التطوعية الجماعية أثرًا كبيرًا في تقدم المجتمع الأمريكي، فعندما زار «الكسيس توكفيل» الكاتب الفرنسي الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر لاحظ أن الأمريكيين يشاركون في كثير من الجمعيات التي ينظمونها لخدمة أغراض مجتمعاتهم: زراعية ومالية ودينية واجتماعية وجمعيات من كل نوع وفي كل اتجاه. وعلق «توكفيل» على هذا معتبرًا أن هذه الجمعيات تمثل خاصتين في المجتمع الأمريكي ستؤديان إلى تقدمه بسرعة متفوقًا بذلك على أوروبا، التي كانت تسيطر على العالم في ذلك الوقت، هاتان الخاصتان هما: فن التنظيم الاجتماعي،

والرغبة في العمل الجماعي الطوعي وغير الطوعي.

وجاء في تقرير حديث لجمعية فرنسا للشؤون الاجتماعية أن ١٠ ملايين ونصف المليون فرنسي يتطوعون في نهاية الأسبوع للمشاركة في تقديم خدمات اجتماعية مختلفة تخص الحياة اليومية، من مجالات التربية والصحة والبيئة والثقافة والترفيه وغيرها.

وتتراوح أعمار ٥١٪ من المتطوعين ما بين الخامسة والثلاثين والتاسعة والخمسين، ويمثل الطلبة نسبة ٢١٪ وتتراوح أعمار المتطوعين منهم ما بين ١٨ و ٢٥ عامًا.

وتنطلق الأعمال التطوعية في تلك المجتمعات من الدوافع الخيرة الموجودة في أعماق كل إنسان، ومن تقدم مستوى الوعي الاجتماعي، وبعضها لأغراض مصلحية، ومكاسب مادية.

حال مؤسساتنا الخيرية

يفترض أن تشهد مجتمعاتنا الإسلامية إقبالًا على العمل التطوعي الاجتماعي أكثر من المجتمعات الغربية، لما في تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف من حث كبير على نصرة المظلومين، ومساعدة الفقراء، وخدمة المحتاجين، حتى اعتبر القرآن الكريم ذلك مقياسا لصدق التدين، وأن من لا يهتم بمناطق الضعف في المجتمع، كاذب في تدينه، وإن تظاهر بطقوس الدين وشعائره، يقول تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

إضافة إلى الحاجات الكبيرة في مجتمعاتنا التي تتطلب الكثير من الجهود والطاقات لتلبيتها ومعالجتها، فهناك حالات الفقر والعوز، ومشاكل العلاقات والخلافات الاجتماعية، وقضايا التعليم والتوجيه الديني والسلوكي، وأمور البيئة، وأوضاع المحتاجين إلى الرعاية من مسنين ومعوقين وأيتام، إلى سائر مناطق الحاجة والفراغ.. إن كل ذلك يستلزم تعبئة الجهود والطاقات، وشحذ العزائم والهمم، لسدّ

النواقص وتنمية المجتمع وتطويره.

وقد تأسست بحمد الله في مجتمعنا مؤسسات خيرية اجتماعية كالنوادي الرياضية، والجمعيات الخيرية، ولجان كافل اليتيم، وصناديق الزواج الخيري، ومهرجان الزواج الجماعي، وهيئات ولجان للنشاط الديني والثقافي، وترعى الدولة هذه المؤسسات والأنشطة الخيرية وتقدم لها الدعم اللازم عبر وزارة العمل والشؤون الاجتماعية وعبر الرعاية العامة لشؤون الشباب ومختلف أجهزة الدولة، ومع التقدير والامتنان للجهود الطيبة التي يبذلها القائمون على العمل في هذه المؤسسات التطوعية، إلا أننا نلحظ أن درجة الإقبال على العمل التطوعي ضمن هذه المؤسسات لايزال محدودًا وغير متناسب مع التوجه الديني لمجتمعنا والحاجات الملحة القائمة بالفعل.

وتتضح هذه الحقيقة في قلة انضمام عناصر جديدة لإدارات هذه المؤسسات، وضعف رفد لجانها ومجالات عملها بالطاقات والكوادر التي تطور مسيرة العمل، وتواصل تقدمه.

إن بعض الجمعيات الخيرية تواجه مأزقًا وحرجًا عندما يحين موعد انتخاب أعضاء لإدارة جديدة، حيث لا يتقدم أحد لترشيح نفسه، أو لا يكون عدد المتقدمين كافيًا للمواقع الشاغرة في الإدارة!!

إنه أمر موسف جدًا حيث يعج مجتمعنا بالطاقات والكفاءات، والعناصر المؤمنة والواعية، فلماذا الإحجام عن التصدي للمسؤوليات الاجتماعية؟ ولماذا نتقاعس عن دعم هذه المؤسسات الخيرية التي تشكل تجسيدا لمبادىء التعاون والتكافل والتراحم الاجتماعي؟

أعذار ومبررات

يعتذر البعض من الناس بانشغالاتهم والتزاماتهم الدراسية أو العملية والعائلية عن المشاركة في العمل الاجتماعي، لكن هذا العذر غالبًا ما يكون وسيلة وتبريرًا للتهرب

عن المسؤولية، وإلا فإن العاملين فعلًا في المؤسسات الخيرية، ليسوا خالين من الالتزامات، ولا عاطلين عن العمل.

إن الإنسان إذا امتلك التطلع لثواب الله ورضوانه، وأدرك مسؤوليته الدينية والاجتماعية، فإنه بحاجة إلى شيء من تنظيم وقته، وهندسة اهتماماته وأولوياته، فالكثيرون يضيعون أوقاتهم وجهودهم في أمور وقضايا ثانوية هامشية بينما يعتذرون بعدم الفرصة للقيام بواجباتهم الاجتماعية.

إن تنظيم الوقت، والحرص على الانضباط الدقيق يعطي للإنسان مجالًا كبيرًا للإنجاز واستثمار حياته، والذين يقومون بالأعمال الكثيرة، ويحققون النتائج الهائلة في حركتهم ونشاطهم، لا يفعلون المعجزات، وإنما يحسنون الإدارة والتنظيم لأوقاتهم.

كما أن الاستعداد للتضحية وبذل الجهد في سبيل خدمة المجتمع أمر مطلوب يفرضه وعي الإنسان والتزامه الديني، وانتماؤه الاجتماعي.

وقد يعتذر البعض بما قد يسبب لهم العمل الاجتماعي من إشكاليات واعتراضات من قبل هذه الجهة أو تلك، لكن المؤمن الواعي يعرف أن الأجر والثواب يستلزم تحمل الأذى والمشاق، والمصلحون طوال التاريخ كانوا عرضة للاتهام والتجريح، لكن ذلك يصدر من الجهلة أو المغرضين، ولا يفتّ في عضد العاملين المصلحين.

اننا ندعو العناصر الواعية والمخلصة من أبناء المجتمع للالتفاف حول هذه المؤسسات الخيرية الاجتماعية، وأن ينخرطوا فيها، ويتحملوا أعباء إدارتها وتطويرها، وإذا كانت للبعض إشكالات على برامج هذه المؤسسات، فليمارسوا التصحيح والتغيير من داخلها، إنها توفر الفرصة المناسبة للتعاون على البر والتقوى، وللتدريب على اكتساب روح العمل الجمعي، وتكاتف القدرات والكفاءات، كما تساعد في معالجة الكثير من المشاكل والمصاعب التي تعيشها الفئات الضعيفة في المجتمع.

النادي الرياضي والمجتمع[1]

يشعر كثير من العوائل بقلق بالغ تجاه مستقبل أبنائهم الفكري والسلوكي، في ظل انفتاح إعلامي مبتذل، وتواصل معلوماتي غير منضبط، ومع وجود مشاكل وتحديات، تثير في نفوس الشباب مختلف الانفعالات، يرافق ذلك انشغال الوالدين عن إحاطة الأبناء بما يحتاجون من رعاية واهتمام.

ويزيد من مستوى هذا القلق، ما يسمعه ويلحظه الآباء من وقوع بعض أبناء المجتمع في مهاوي الانحراف والفساد، كعصابات الإجرام، والإدمان على المخدرات، والاعتداء على أعراض الناس، وممارسة سلوكيات شاذة كالتفحيط بالسيارات.

ولكن ماذا يفيد اجترار القلق، وإبداء الاستياء، تجاه واقع يزداد قتامة وسوءًا؟

إنه يجب أن يكون دافعًا نحو مبادرات إيجابية فعالة تضع حدًا للمشكلة، وتقدم حلولا لمعالجتها.

إن توفير المناخ الصالح والأجواء الطيبة لشباب المجتمع، هو من أجدى الوسائل، وأنفع الأساليب، لحمايتهم من الغواية والضياع، ولتوجيههم نحو الاستقامة والخير.

والنادي الرياضي يمثل خيارًا نموذجيًا على هذا الصعيد، ضمن ظروفنا الاجتماعية القائمة، فهو مؤسسة تحظى برعاية الدولة، وتوفر له مستوى من الإمكانات، وينجذب

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ٢٥ يونيو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٦٧.

إليه الشباب، مما يتيح الفرصة لتوجيه مسارهم وتنمية طاقاتهم، وحماية أفكارهم وسلوكهم. لكن نسبة نجاح النادي في القيام بمهامه المرجوة، تتوقف على مدى تفاعل المجتمع معه، فكلما تقدم مستوى التفاعل الاجتماعي مع النادي، ارتفعت نسبة نجاحه، وارتفعت درجة أدائه وإنجازه.

وقد ينظر البعض من الناس للنادي كمؤسسة رسمية حكومية، تتحمل الحكومة أعباء رعايتها ونجاحها. لكن هذا التفكير ليس صحيحًا، وإنما هو تبرير للتهرب من المسؤولية. فالنادي مؤسسة أهلية في الأساس تحظى بدعم الحكومة، فإذا لم تكن هناك حالة رياضية في منطقة ما، ضمن مستوى يستحق إقامة نادٍ، فإن الحكومة لا تنشئ النادي أبتداءً. كما أن أعضاء الإدارة ينتخبون أهليًا ولا تعينهم الحكومة، وفائدة النادي تعود على المجتمع، وهو يشكل إسهامًا في حل مشكلة يعانيها الجميع، هي استيعاب الشباب وحسن توجيههم.

من ناحية أخرى، فإن بعض الأوساط في المجتمع لا تزال تنظر للنادي نظرة ريب وتجاهل، فهو عندهم مجرد ساحة للعب واللهو، وإشغال الشباب وتضييع أوقاتهم، وقد تتسلل إليهم من خلاله عوامل الفساد والانحراف!!

هذه النظرة الضيقة نابعة من محدودية أفق اصحابها، وقد تكون نشأت كرد فعل من تجارب بعض الأندية غير الناجحة في بعض الفترات. وأساسًا فان هؤلاء يتصورون أن النادي منحصر في الاهتمام الرياضي، ولا يعرفون الجوانب الأخرى التي يمكن الاستفادة منها، كما أن نظرتهم للرياضة وكأنها أمر معيب لا تستحق العناية والاهتمام، نظرة خاطئة.

الرياضة بين نظرتين

غالبًا ما تتركز النظرة السلبية نحو النشاط الرياضي في بعض الأوساط الدينية، انطلاقًا من أن الرياضة لعب ولهو على حساب جدية الإنسان، واتزان شخصيته، وأنها مدخل لتجمع غير مضمون الاستقامة والصلاح، وقد يستشهدون بنماذج سلبية، لأوضاع إدارية وسلوكية في بعض الأندية، كما يشيرون إلى جانب المبالغة والتضخيم

في النشاط الرياضي، وأن ذلك له استهدافات سياسية واجتماعية، لتزييف اهتمامات الناس، وإشغالهم عما هو أهم وأوجب.

يجب أن نعترف بأن هذه النظرة السلبية نحو الرياضة، لا تقتصر على هذه الأوساط الدينية، فهناك علماء اجتماع ومفكرون من مختلف العصور والمجتمعات، كانت لديهم مثل هذه التحفظات.

فقد أشار «كارل ديم» الألماني الجنسية ١٩٤٩م وهو أحد رواد علم اجتماع الرياضة، إلى الوظائف السلبية للرياضة عندما كتب عنها إنها «أنشطة بلا غاية» وأنه توصل إلى ذلك من خلال تحليله الأفكار النظرية الغربية، ولكنه عدل عن هذا الرأي فيما بعد، حيث صرح بأن الرياضة تعني القوى الحيوية، ولكن ليس دائمًا في الاتجاه الصحيح، ولذلك ينصح بأن يناط بالرياضة التوجيه التربوي.

ولم يتحرج ارنو بلاك من نعت الرياضة بأنها ليست سوى شكل من أشكال العدوان، حتى لو تم الادعاء بعدم ضررها، ذلك لان التاثير النفسي اللاشعوري للرياضة يعني عدم الإيمان بجدية الذات الإنسانية، وتجاهل القيم الأخلاقية الإنسانية، فقد اتهم ممارسو الرياضة التنافسية بالتحايل والمغالطة في سبيل الفوز.

ولقد أورد لوشن في دراسته الممتازة «الرياضة والصراع وحلّ الصراع» قائمة بالباحثين ممن تناولوا سلبيات المنافسات الرياضية مثل مظفر وكارولين شريف ١٩٦١ اللذين إثبتا بطريقة ميدانية تطبيقية إلى أي حدٍّ يؤثر التعبير النفسي في الرياضة على العنف والعدوانية، حتى يقال إن المسؤولين عن التجربة تدخلوا لفض بعض المنازعات التي حدثت بين الأندية التي اشتركت في التجارب البحثية!

ولقد استعرض لوشن عددًا من المؤلفين والباحثين ممن أبرزوا السلبيات الاجتماعية للرياضة، ولعل أشهرهم باسكال وفبلن حيث نظروا للرياضة والرياضي خلال المنافسة على أنه موقف عدمي، لا جدوى ترجى منه.

ونقول في مناقشة هذه التحفظات: إن كل ظاهرة من ظواهر النشاط الإنساني، قد

ترافق ممارستها بعض السلبيات والأضرار، وحتى أقدس الممارسات وهي الأعمال العبادية التي يتوجه بها الانسان الى الله تعالى، لم تنج من هذا الاحتمال، حيث يؤديها البعض رياء، وتصبح ستارًا لأغراض دنيئة، كما قد يتنطع البعض في أدائها إلى حدّ الإصابة بالوسواس. والمطلوب هو ترشيد الظواهر الاجتماعية، وتوجيهها بالاتجاه الصحيح، وصيانتها من سوء الاستغلال. والرياضة هي أحد الانشطة الإنسانية العريقة في تاريخ الإنسان، فلا يكاد يخلو مجتمع إنساني من ممارستها، وتؤكد تجارب البشرية على الدور الحيوي للرياضة، ليس في مجال تقوية عضلات الجسم، وصحة البدن، وحفظ لياقته فقط، بل تؤدي دورًا على الصعيد النفسي، حيث تعتبر إحدى الوسائل الاجتماعية المقبولة لتفريغ الدوافع والنوازع المكبوتة، وتخفيف مشاعر المعاناة والتوتر التي يستشعرها الفرد حيال ضغوط الحياة.

يقول الدكتور أمين الخولي «الرياضة والمجتمع ص ٥٩، سلسلة عالم المعرفة ٢١٦، الكويت ١٩٩٦م»: بالرغم من ادعّاء البعض أن الرياضة تتضمن بعض العناصر العدوانية، أو أن الناس قد تستعرض العدوانية من خلال الرياضة، والعدوانية قد تكون مضمرة وقد تكون معلنة، بل إن العدوانية في بعض الأحيان تتنكر في شكل رقيق يصعب اكتشافه، لكن ما زال الكثيرون يؤمنون بأن أحد عوامل الجذب في الرياضة، أنها تتيح وسطًا اجتماعيًا مقبولًا للفرد لاستعراض العدوانية أو التنفيس عنها.

وقد تكون هناك مساحة ما للعدوانية في الرياضة لكنها محكومة بقواعد اللعب وجزاءاته، لكن مما لاشك فيه أن الرياضة كأحد المناشط الإنسانية، تعدّ أكثر هذه المناشط ملاءمة للتخلص من قدر كبير من العدوانية، حتى إننا كثيرًا ما نسمع التربويين يشبهون ضرب الكرة بالمضرب أو بالعصي كآلية تسمح بتخريج قدر كبير من العدوانية والتنفيس عنها.

وللرياضة دور إيجابي في تنمية قدرات التعامل والعلاقات الاجتماعية، حيث يكون الفرد جزءا من فريق، وعضوًا في مؤسسة، وملتزمًا في ممارسته الرياضية بنظام وقانون، ويطمح إلى الانتصار على الطرف المقابل، لكنه مستعد لاحتمال الهزيمة أمامه.

النادي الرياضي ودوره الاجتماعي[1]

من أهم ما تحتاجه شريحة الشباب وجود أطر ومؤسسات اجتماعية تستقطبهم وتستوعبهم، وتحقق لهم الوظائف التالية:

إشباع الحاجة إلى انتماء

ففي مرحلة الشباب، يكون الشعور بالحاجة إلى الانتماء لكيان ما، أكثر منه في أي مرحلة أخرى، لأن الانتماء يشكل مدخلًا إلى ساحة القوة والتأثير في المعادلة الاجتماعية، وهذا ما يسعى الشباب للوصول إليه، تأكيدًا لتجاوزهم حالة التبعية والخضوع، إلى مستوى القدرة والفاعلية.

والانتماء عنوان ومظلة ينتزع الشباب عبره أدوارهم الاجتماعية، ويثبتون حضورهم ووجودهم الفاعل في الحياة العامة. وعادة ما يكونون مخلصين لانتمائهم، فالكبار تتبلور عندهم استهدافات المصلحية الشخصية، وقد يسخّرون انتماءهم لخدمة مصالحهم، بينما يضحي الشباب بصدق وإخلاص في خدمة الجهة التي ينتمون إليها، ويطغى عليهم الحماس للدفاع عنها، والتضحية من أجلها.

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ٢ يوليو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٧٤.

تنمية الطاقات والمواهب

الشباب منطقة تزخر بالكفاءات والطاقات، لكنها بحاجة إلى التحفيز والتنمية، وهذه من أولويات المؤسسات الشبابية، حيث يكتشف الشباب عبر أجوائها التنافسية مواهبهم وقدراتهم، ويتوافر لهم التشجيع والتوجيه، لتفجير تلك الطاقات وتفعيلها.

فائض القوة والوقت

بسبب محدودية الالتزامات والمسؤوليات، يجد الشباب لديهم فائضًا من الطاقة ووقتًا للفراغ، وعدم تصريف هذا الفائض يحدث مضاعفات ومشاكل نفسية، وقد يدفع لانحرافات سلوكية.

لذلك لا بدّ للشباب من مؤسسات تفتح أمامهم آفاق الحركة والنشاط، وتتيح لهم فرص استغلال فائض الطاقة والوقت، ضمن برامج نافعة تخدم مستقبلهم، ومصالح المجتمع.

الإعداد والتأهيل الاجتماعي

والشباب كضيوف جدد على هذه الحياة تنقصهم الخبرة والتجربة، فيحتاجون إلى إطار يتدربون ويتأهلون من خلاله على مواجهة تحديات الحياة، وعلى ممارسة العلاقات الاجتماعية، واتخاذ القرارات والمواقف، وتحمل مسؤولياتها وتبعاتها.

التحصين والترشيد

ضبط الغرائز والشهوات يمثل تحديًا صعبًا للشباب، حيث تتأجج أحاسيسه وعواطفه، خاصة في هذا العصر الذي تشتد فيه أساليب الإغراء والإغواء، الموجهة نحو شريحة الشباب بالذات، إضافة إلى التيارات الفكرية والثقافية المختلفة، التي تسعى لاقتناص الشباب واحتوائهم. ومن أجل تحصين الشباب، وترشيد مسارهم،

يحتاجون إلى أجواء حاضنة، تنتصر لعقولهم على عواطفهم، وتحفظ انتماءهم القيمي، والتزامهم السلوكي.

هذه الوظائف الهامة لا تتحقق عبر التوجيه العام للشباب، ولا من خلال الإرشاد الفردي، والسبيل الأفضل لتحقيقها وجود المؤسسات والأطر الاجتماعية للشباب.

الأندية الرياضية نموذج

تتنوع المؤسسات التي تعنى باستقطاب الشباب في المجتمعات البشرية، تبعًا لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية، فهناك الاتحادات الطلابية، التي تتنافس على استيعاب الشباب في المرحلة الجامعية، وتشكل إطارًا لتفعيل حركتهم ونشاطهم، وهناك النقابات العمالية والمهنية، وهناك الأحزاب والتنظيمات في البلدان التي تسمح بها، لمختلف الأغراض الدينية والسياسية والاجتماعية والبيئية.

وفي مجتمعنا فإن الأندية الرياضية هي الإطار المناسب لملء هذا الفراغ في أوساط الشباب، حيث يصبح النادي كيانًا ينتمون إليه، واطارًا يجتمعون ويتلاقون في فنائه، ومن خلاله يمكن لطاقاتهم ومواهبهم أن تظهر وتتجلى، وأن يتوافر لهم مختلف البرامج الترفيهية والتدريبية، للتأهيل والإعداد الاجتماعي.

لم يعد النادي مجرد ساحة للرياضة، وحفظ اللياقة الجسمية، وتقوية العضلات، بل أصبح مؤسسة شبابية اجتماعية متعددة الأبعاد، يمكن أن يسهم في إعداد جيل المستقبل، وتأهيلهم للنجاح والتقدم. حيث تتسع مهامه ووظائفه للنواحي العلمية والتربوية والدينية والاجتماعية، وغالبا ما يعنون بأنه: رياضي ثقافي اجتماعي، تتوافر فيه مكتبة للمطالعة، ومسجد للصلاة، وميزانية للنشاط الثقافي يمكن أن تقام فيه دورات تقوية تعليمية، للمواد الدراسية التي يحتاجها الأعضاء، وأن تعقد فيه دروس للقرآن الكريم، حفظًا وتلاوة وتجويدًا وتفسيرًا، وأن تجري من خلاله مسابقات قرآنية وثقافية، وأن تشجع ضمنه المواهب الفنية من رسم وخط وتمثيل مسرحي، وكذلك

تنمية الكفاءات العلمية العملية، كالحاسب الآلي، واللغات الأجنبية.

كما تتهيأ عبر النادي فرص العمل الاحترافي وتحصيل الرزق، فاللاعب الموهوب يستحق راتبًا ومكافأة شهرية، قد تصل إلى عشرين ألف ريال شهريًا وأكثر، وتنافس الأندية على شراء اللاعبين المتفوقين، والمدربين الأكفاء، والحكام المعتمدين على الصعيد الوطني والدولي. لقد أصبح النادي من الواجهات الحضارية للمجتمعات، يعبر عن جانب من مستوى تقدمها الاجتماعي، كما يشكل مرآة لقدراتها التنظيمية والأخلاقية. والجانب المهم في الأندية الرياضية أنها إطار يحتضن الأبناء والشباب، ويحميهم من الضياع والتسيب، إذا توافرت فيه أجواء صالحة مناسبة.

فاعلية الإدارة

من أجل ان يأخذ النادي دوره الاجتماعي المطلوب، ويتمكن من استقطاب الشباب، وتنمية كفاءاتهم وطاقاتهم، وتأهيلهم ثقافيًا واجتماعيًا، لا بدّ له من إدارة صالحة كفوءة، تنطلق في تصديها من منطلق تحمل المسؤولية تجاه المجتمع والوطن، وتدرك خطورة الشريحة التي تتعامل معها، وهي شريحة الشباب، وتتفهم ظروفهم وآمالهم وتطلعاتهم .

إن ضعف الإدارة يحرم الشباب والمجتمع من الاستفادة الكاملة من مؤسسة النادي، ويحجم دوره ونشاطه، في وقت تشتد فيه الحاجة إلى تفعيل حركة النادي، وتنشيط دوره، وتطوير أدائه. فمجتمعنا تقارب فيه نسبة الشباب ٥٥٪ ولا تتوافر فيه أطر ومؤسسات بديلة لاستيعاب هذه النسبة الكبيرة من الشباب، والنادي هو الخيار المتوافر، فينبغي استثمار دوره إلى أقصى حد ممكن، مما يوجب دفع العناصر الواعية الصالحة، لتحمل مسؤولياتها، والتصدي لإدارة الأندية، وإذا كان ذلك يأخذ من وقت الإنسان وجهده، ويسبب له شيئًا من المعاناة والمشاكل، فإنه كأي عمل تطوعي يحتسب الإنسان فيه الأجر والثواب من قبل الله تعالى، ويسهم من خلاله في خدمة مجتمعه ووطنه، مما تنعكس آثاره ونتائجه الإيجابية عليه كجزء من هذا المجتمع والوطن.

ومؤسف جدًا أن يصل العزوف عن التصدي لهذه المسؤولية الخطيرة، في بعض أندية المنطقة، إلى حدّ تعطيل مجلس الإدارة، لعدم تقدم مرشحين يكتمل بهم نصاب مجلس الإدارة، مما يدلّ على ضعف الإقبال على العمل التطوعي، ومجالات الخدمة الاجتماعية.

إنني أدعو الواعين القادرين من رجال المجتمع، لأن يتحملوا مسؤولياتهم تجاه أبنائهم وشباب وطنهم، بالدخول في مجالس إدارات الأندية، ليسهموا في تقديم أكبر خدمة للمجتمع والوطن، برعاية هذا الجيل الناشئ، وتنمية مواهبه وطاقاته، وفي ذلك عظيم الأجر والثواب إن شاء الله، كما نأمل من الإدارات القائمة مضاعفة جهدها، وتطوير أدائها، لتصبح أنديتنا في طليعة أندية الوطن، وتحقق التقدم على المستويين الإقليمي والعالمي.

الرياضة.. برؤية دينية[1]

تكاملية الإسلام وشموليته تفرض أن يهتم بلياقة الجسم كما يهتم بسمو الروح، وان يرعى تنمية مختلف الأبعاد في شخصية الإنسان، لذلك من الطبيعي أن نجد في تعاليم الإسلام إشادة بممارسة الرياضة، وتشجيعًا للاهتمام بأنشطتها.

فقد أورد البخاري في صحيحه عدة أحاديث حول الفروسية وسباق الخيل منها ما رواه عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (سابق رسول الله) بين الخيل التي قد ضمرت، فأرسلها من الحفياء، وكان أمدها ثنية الوداع، ستة أميال أو سبعة وسابق بين الخيل التي لم تضمر، فأرسلها من ثنية الوداع، وكان أمدها مسجد بني زريق - ميل أو نحوه، وكان ابن عمر ممن سابق فيها[2].

وإضمار الخيل: إعدادها للسباق بأن تعلف حتى تسمن وتقوى، ثم يقلل علفها، ويستنزل عرقها، حتى يخف لحمها، وتقوى على الجري.

قال ابن حجر في فتح الباري: وفي الحديث مشروعية المسابقة، وأنه ليس من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو، والانتفاع بها عند الحاجة، وهي دائرة بين الاستحباب والإباحة، بحسب الباعث على ذلك، قال

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٩ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ٩ يوليو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٨١.

(٢) صحيح البخاري، حديث ٢٨٩٩.

القرطبي: لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيرها من الدواب، وعلى الأقدام، وكذا الترامي بالسهام، واستعمال الأسلحة، لما في ذلك التدريب على الحرب[١].

كما أورد البخاري أحاديث عن ممارسة رياضة الرمي، منها ما عن سلمة بن الأكوع قال: مر النبي على نفر من أسلم، قبيلة عربية، ينتضلون، لتناضل الترامي للسبق ـ فقال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ ما لكم لا ترمون؟ قالوا: كيف نرمي وانت معهم؟ فقال النبي ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم»[٢].

ونقرأ في حديث آخر أنه ﷺ مرّ بقوم يربعون حجرًا، يعني يرفعونه ليعرفوا الأشد منهم فلم ينكر عليهم[٣]، وهي رياضة حمل الأثقال.

تعطينا هذه النصوص وأمثالها صورة واضحة عن تشجيع النبي ﷺ ورعايته لأشكال وألوان من ممارسة النشاط الرياضي: سباق الخيل، الرماية، حمل الأثقال، السباحة، المصارعة.. وأين هذا من مظاهر التزمت التي يوحي بها بعض المتدينين، وكأن الرياضة شيء مستهجن مذموم؟!

وقد أدرج الفقهاء في كتب الفقه أحكام المسابقة والرمي ضمن أبواب معنونة بها.

وأفرد ابن القيم الجوزية مؤلفًا كاملًا تحت اسم (الفروسية)، ورصد الباحث محمد كامل علوي ما يربو على الخمس والأربعين لعبة رياضية كان يمارسها العرب الأقدمون، بل لقد ذهب إلى أن عددًا كبيرًا من الرياضات المعاصرة التي يمارسها الغرب هي من أصول عربية إسلامية، وقد ضرب مثلًا برياضة البولو، التي مارسها المسلمون الأقدمون في عصر الخلافة العباسية وما بعدها تحت اسم الصوالج أو الصولجان.

---

(١) فتح الباري، ج ٦، ص ٨٩.

(٢) صحيح البخاري، حديث ٢٨٧٠.

(٣) عبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة، المغني، ج١٣، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، (القاهرة: هجر للطباعة)، ص ٤٠٥.

الدعم المطلوب

تعاني أغلب أندية المنطقة من عجز مالي كبير بعد تراجع الدعم الرسمي لها من الرئاسة العامة لرعاية الشباب، فبعض الأندية وخاصة التي لا تمتلك منشأة لم تعد قادرة حتى على تسديد إيجار مقرها، فضلًا عن رواتب الموظفين، ومستلزمات النشاط الرياضي، مما يهدد بعضها بالانهيار والإغلاق.

وقد أثر هذا العجز المالي على نشاط مختلف الأندية، وفي الوقت الذي نأمل فيه مضاعفة الاهتمام من قبل الحكومة بهذه الأندية، لما لضعفها وتراجعها من انعكاسات سلبية على الأمن الاجتماعي، فإن على رجال المال والأعمال في المجتمع أن يتحملوا مسؤوليتهم تجاه هذه الأندية، ولا ينبغي أن تكون كل أعبائها على كاهل الدولة، وفي الوضع الحاضر عليهم، أن يمدوا يد الدعم والإنقاذ لتستمر الأندية الرياضية في أداء دورها الاجتماعي الخطير، بل هي بحاجة إلى إمكانات كبيرة لتطوير نشاطها، بما يتناسب مع تصاعد التحديات أمام أجيال الشباب.

وفي بعض مناطق الوطن تحظى الأندية الرياضية بدعم جيد من القطاع الخاص، وهذا ما نطمح الى حصوله في منطقتنا إن شاء الله.

ان كل ناد رياضي بحاجة الى هيئة أعضاء شرف، تتكون من رجال الفكر والأعمال المهتمين بمصلحة المجتمع والوطن، لتصبح هذه الهيئة ظهرًا وسندًا للنادي في احتياجاته المادية، ومصدرًا للتوجيه والرعاية والدعم المعنوي.

وحينما يتحدث الفقهاء عن المكافأة والعوض الذي يجعل في السباق، يذكرون أن المكافأة إما أن تكون من أحد الفريقين، او تكون من الإمام شخصيًا أو من بيت المال.

قال ابن قدامه في المغني: «إن المسابقة إذا كانت بين اثنين أو حزبين، لم تخلُ إما أن يكون العوض منهما أو من غيرهما، فإن كان من غيرهما نظرت فإن كان الإمام جاز،

سواء كان من ماله، أو من بيت المال»[١].

ويبدو لي أن التبرع للنادي الرياضي في إطار رعاية أبنائنا واستقطابهم وحمايتهم من الانحراف، هو من أفضل موارد الإنفاق في سبيل الله تعالى، ولا يقلّ عن ثواب الإنفاق على المساجد والأعمال الخيرية الأخرى؛ لأن الشباب هم المنطقة الأكثر خطورة وأهمية في هذا العصر، وما يبذل من أجل هدايتهم وارشادهم، أنفع وأجدى.

من ناحية أخرى، فإن المأمول من علماء الدين ورجال الفكر في المجتمع ألّا يبخلوا على الأندية الرياضية بدعمهم ورعايتهم، لتفعيل الجوانب الأخرى من الأنشطة الثقافية والاجتماعية، وينبغي تجاوز الهوة والحاجز بينهم وبينها، فعالم الدين من أولى مسؤولياته الهداية والإرشاد، وخاصة لمن هم أحوج إليها وهم الشباب، وحضور عالم الدين في أوساط الشباب، وضمن تجمعاتهم يجعله أقرب إلى نفوسهم، وأكثر تأثيرًا على توجهاتهم، فهناك شريحة من الشباب لا يلتقيهم عالم الدين في المسجد أو المجلس، لكنه يجدهم في النادي، ومنه يمكن استقطابهم إلى المسجد والأجواء الدينية.

---

(١) المغني، ج ١٣، ص ٤٠٨.

كيف يفكر اليتيم؟[1]

هل يمكن لليتيم أن يصبح عظيمًا؟ أو يكون شخصًا ذا تأثير وفاعلية في المجتمع؟

- هل في اليتم دلالة على ضعف الرعاية والمقام عند الله؟
- ما الدور المنتظر من المجتمع تجاه الأيتام؟

الحالة الطبيعية أن ينشأ الولد في أحضان والديه، وفي كنف أسرته، التي تحوطه بالرعاية والعناية، وتغمره بالعطف والحنان، وتقومه بالإرشاد والتوجيه.

إلا أن الإرادة الإلهية قد تقتضي أن يفقد الإنسان أحد والديه أو كلاهما في صغره، فيصبح يتيمًا.

ويذكر اللغويون لليتم معاني كثيرة، منها: الهمّ والإبطاء والحاجة والانفراد، فيقال (هذا عمل يتيم) أي ليس له نظير فهو منفرد، وتطلق العرب على من فقد أباه يتيمًا، ولا تطلق ذلك على من فقد أمه، هذا بالنسبة للبشر، أما بالنسبة للحيوانات فتطلق العرب على من فقد أمه منها يتيمًا، لأن الأم في عالم الحيوان تتحمل الرعاية دون الأب. وفي المصطلح الشرعي يطلق اليتيم على من فقد أباه قبل بلوغه.

حيث يخلف فقد الأب فراغًا حقيقيًا لا يمكن سده، ذلك أنه في حالة فقد الأم فإن

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٦ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ١٤ يوليو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٥٢.

الأب يوفر الحاضنة ويسد النقص، فلا يصبح الابن محتاجًا للآخرين. مع الاعتراف بما للأم من خصوصية نفسية وعاطفية. أما مع فقد الأب فالولد معرض للاحتياج والنقص.

ويلازم حالة اليتم عادة أمران: شعور بالنقص العاطفي، فاليتيم لا يتمتع بما يتمتع به الآخرون من عاطفة وحنان من قبل آبائهم. وافتقاد بعض متطلبات الحياة واحتياجاتها من لوازم المعيشة ووسائل الترفيه وبعض الخدمات التي يقدمها الآباء غالبًا.

إن الشعور الذي ينتاب اليتيم قد لا يكون مجرد شعور متخيل، بل واقع ملموس يعيشه ويعاني آثاره، غير أن هذا الواقع لا يصح الاستسلام والإذعان له، بل ينبغي مواجهته على الصعيدين النفسي والعملي.

أولًا: على اليتيم أن يسلم بأن هذه الحالة هي قضاء وقدر إلهي، وهي للبشر امتحان وابتلاء من الله جل شأنه. ابتلاء لليتيم في كيفية تقبله مشيئة الله تعالى، فهل يرضى ويسلم لإرداة الله؟ أم يحمل روح الرفض والاعتراض؟ وابتلاء للناس في كيفية تعاملهم مع هذا اليتيم، فهل يقومون بما حثهم الله عليه ندبًا أو أوجبه فرضًا؟! إذًا لا ينبغي لليتيم أن يشعر بالنقص في قيمته عند ربه فاليتم لا يدل على الدونية وضعة المقام عند الله، فنبي الله إبراهيم عليه السلام ولد يتيمًا مات أبوه تارخ وهو في بطن أمه، ثم عاش في بيت عمه آزر وهو المشار إليه في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. وكذلك نبي الله موسى عليه السلام الذي لا تجد دورًا لأبيه في القرآن أو نصوص التاريخ عند ولادته ونشأته، رغم المخاطر التي حفت بأمه أثناء ولادته، والملابسات التي اكتنفت نشأته.

وأن نبي الله عيسى عليه السلام ولد من غير أب. أما نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أفضل الخلق، وأعزّهم على الله، وأحبهم إليه، فقد مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وعمره ست سنوات، ثم عاش في كفالة جده عبدالمطلب، ومن بعده عمه أبي طالب.

ثانيًا: على اليتيم أن يفجر طاقاته وكفاءاته، حتى يحيل النقص كمالًا، ويصنع من

الهم والمعاناة طاقة خلاقة، وليس ذلك بعيدًا فكثيرًا ما تكون حالة الضعف والقصور دافعة نحو البذل والعطاء، فكم من يتيم معدم بزّ أقرانه من أبناء الأغنياء الموفورين. إذًا علينا أن نشعر اليتيم بأن بإمكانه أن يتفوق، ويصل إلى مراتب عالية إذا توجه إلى ذلك، وفجر طاقاته الكامنة، وبلور قدراته ومواهبه، فاليتم لايعدو أن يكون امتحانًا وابتلاءً من الله سبحانه وتعالى لليتيم وللناس من حوله.

المجتمع واليتيم[1]

تقوم الأم بدور كبير في توجيه اليتيم نحو تفجير طاقاته وكفاءاته، ورسالتنا إلى أم اليتيم: أن عليها أن تعوّض ابنها عما قد يشعر به من نقص في العاطفة والحنان، وأن تعكف على تربيته تربيةً صالحة جادة، وتساعده على أن يشقّ طريقه بنجاح، مع ملاحظة عدم الإفراط في الدلال بذريعة التعويض عن النقص العاطفي. فإهمال الرقابة، وإعطاء الحرية المطلقة، والتهاون بالأوامر والنواهي، وإغداق المال، قد تكون له نتائج سلبية جدًا على شخصيته.

إن من الضروري للأم أن توازن بدقة بين حقوق الطفل وواجباته، وأن تراعي ما يريده ابنها، وما هو محتاج إليه حقًا، فما كل ما يطلبه يحتاج إليه، وقد لا يرغب فيما يحتاج إليه. فليس كل إعطاء مصلحة، ولا كل حرمان مفسدة. وكم من أم كرّست حياتها، وضاعفت جهدها لرعاية أبنائها بعد فقد أبيهم، وصنعت منهم شخصيات ناجحة مؤثرة.

إلى جانب دور الأم هناك دور المجتمع فمن أجلى مظاهر الإيمان في المجتمع رعاية المحتاجين، وفي طليعتهم الأيتام، فهم أشد حاجة للرعاية والاهتمام. حيث يحتاج الفقير إلى النفقات المادية الحياتية.بينما تمتد حاجات اليتيم لتشمل الجوانب

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٤ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، ٢١ يوليو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٥٩.

المادية والعاطفية. والمجتمع المتدين المؤمن يشعر بالمسؤولية تجاه الأيتام ويتحسس آلامهم، وينسب للإمام علي قوله:

ما إن تأوهت من شيءٍ رزئت به كما تأوهت للأيتام في الصغر

وفي قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَ تُكرِمُونَ اليَتِيمَ﴾[سورة الفجر، الآية: ١٧]، تنديد بالمجتمع المادي الجاهلي المعرض عن القيم والمبادئ الأخلاقية. وقد جعل الله تعالى إهمالهم لليتيم عنوانًا لانحرافهم، وأول شيء يذكره من مساوئهم.

ومن أبرز مفردات مسؤولية المجتمع نحو الأيتام ما يلي:

١. توفير الحنان والعاطفة للأيتام، وعدم توجيه الإساءة إليهم حيث يولي الإسلام اهتمامًا كبيرًا للمشاعر والأحاسيس، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقهَر﴾[سورة الضحى، الآية: ٩] وإهمال الأيتام دليل على أن المجتمع غير صادق في تدينه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ﴾[سورة الماعون، الآيتان:١-٢] أي يهمله بدفعه دفعًا شديدًا وهذا الفعل يكشف عن قسوة القلب وتبلّد العاطفة، بينما قد لا يحتاج اليتيم إلى شيء سوى المواساة القلبية، ليعوّض بعض ما فقده، قال الإمام علي ﵁: «ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم ترحمًا إلا كتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة».

وقال أيضًا في وصيته الأخيرة قبيل وفاته: «الله الله في الأيتام، فلا تُغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم»، ويشير الإمام عليّ بهذا إلى الحاجة المادية «لا تغبوا أفواههم» كما يشير إلى الرعاية الشاملة الكاملة بعدم تضييعهم.

٢. تلبية المتطلبات والاحتياجات المادية التي يحتاجون إليها. فقد تكون الاحتياجات سكنًا ملائمًا، أو ثيابًا مناسبةً، أو طعامًا صحيًا، أو ما شابه ذلك. يقول ﷺ: «من عال يتيمًا حتى يستغني عنه أوجب الله عز وجل له بذلك الجنة».

وعنه ﷺ أنه قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وقال بإصبعيه: السبّابة والوسطى.

٣. توفير الإرشاد والتوجيه الثقافي والسلوكي، ولعله الأمر الأكثر أهمية، وأشد خطورة، فالولد ذكرًا كان أو أنثى، بحاجة إلى التوجيه والإرشاد، في حداثة سنه، ومقتبل حياته، خاصة فترة المراهقة، ويفترض أن يقوم الأب بشكل رئيس بهذا الدور تجاه أولاده، ومع غيابه يخشى على الأولاد من الضياع، وخاصة في هذا العصر، حيث تسود دواعي الإغراء والغواية والانحراف.

فعلى ذوي الأيتام خاصة كإخوانهم وأعمامهم وأخوالهم وسائر أقربائهم أن ينتبهوا لهذا الجانب المهم، فيصرفوا قسطًا من جهدهم واهتمامهم لتوفير التوجيه التربوي والسلوكي لهؤلاء الأيتام.

وحينما يكون على اليتيم ولي بعد أبيه، فإن تصرفاته في شؤون اليتيم يشترط فيها لكي تكون نافذة شرعًا، أن تستهدف مصلحة اليتيم، أما إذا كان هناك ضرر على اليتيم، أو عدم مصلحة له، في أي تصرف من قبل الولي، فلا يكون نافذًا شرعًا.

ويلزم على ولي اليتيم (أن يصونه عما يفسد أخلاقه فضلًا عما يضر بعقائده).

رعاية الايتام[1]

تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة مؤكدًا حماية أموال اليتيم وحفظها وعدم التفريط فيها، وبأن الولاية على أموال اليتيم بعد الأب والجد، تكون للوصي المكلف بذلك من قبل أحدهما، فإن لم يكن هناك وصي، فالولاية للحاكم الشرعي، وفي المذهب الحنفي فالولاية على اموال الصغير تكون للأب، ثم وصيه بعد موته، ثم وصي وصيه، ثم جده (أبو أبيه)، ثم وصي جده، ثم وصي وصيه، ثم الوالي، ثم القاضي أو وصي القاضي. وعند المالكية والحنابلة: الولاية بعد الأب لوصيه، ثم للحاكم، ولا تثبت الولاية المالية للجد والأخ العم إلا بإيصاء الأب. وقال الشافعية: إن الولاية بعد الأب للجد، ثم وصي من تأخر موته من الأب أو الجد، ثم القاضي أو نائبه. ولا ولاية لسائر العصبات كالأخ والعم، كما لا ولاية للأم[2].

ولكون اليتيم صغيرًا ضعيفًا فإن ذلك قد يغري بعض المتولين على أمواله من ضعاف النفوس والإيمان بإساءة التصرف فيها، لذلك يوجه القرآن الكريم الخطاب إلى هؤلاء الأولياء، محذرًا لهم من هذا التعدي الخطير.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١١ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، ٢٨ يوليو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٦٦.
(٢) الدكتور وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج٥، ص٤٢٦-٤٢٧.

وَسَيَصلَونَ سَعِيرًا﴾

وفي آية اخرى يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَآتُوا اليَتَامَى أَموَالَهُم وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأكُلُوا أَموَالَهُم إِلَى أَموَالِكُم إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن المسؤولين والعاملين في لجان كافل اليتيم، مخاطبون بهذه الآيات الكريمة ومطالبون بالحفاظ على ما يردهم من أموال مخصصة للأيتام، وأن يهتموا بالدقة والاحتياط في صرفها لما فيه خير الأيتام ومصلحتهم.

لجان كافل اليتيم

يمكن لكل فرد أن يقوم بواجبه تجاه يتيم واحد أو تجاه بعض الأيتام ويثاب على عمله. ولكن تشكيل المؤسسات، وتنظيم اللجان والهيئات، التي تعمل على تلبية حاجات الأيتام، وتوفير الخدمات المناسبة لهم، تساعد على ضم الجهود إلى بعضها، مما يؤدي إلى زيادة كفاءة العمل، وتحقيق الأهداف بشكل أفضل. ولهذا العمل قيمة معنوية كبيرة في حل مشاكل الأيتام.

إن وجود لجنة تهتم بالأيتام، يعني وجود جهة توجه الأفراد والتجمعات نحو هذه الفئة، وتحث مختلف الشرائح على دعمها. وقد رأينا أن لجان كافل اليتيم في بلادنا استطاعت أن تطور وتنوع الخدمات التي تقدم للأيتام. فمعظم هذه اللجان تقدم مساعدات مالية شهرية، وأخرى طارئة، فضلًا عن الإعانات الصيفية والشتوية. وتقوم بصيانة المساكن وغير ذلك.

كما أن وجود لجنة لكفالة الأيتام هو طمأنة للأيتام. فهم يشعرون بأن ثمة جهة ومؤسسة ترعاهم، وتتابع شؤونهم، وهذا في حدّ ذاته مواساة معنوية كبيرة.

بالطبع فإن الجهود تتطور وتتكامل إذا انضمت إلى بعضها. ووجود لجنة يعني

ضم كافة الطاقات والكفاءات التي يمكن أن تسهم في إنجاح هذا المشروع، مما يعني إدخال عنصر التخطيط والمشورة وهذا إرساء لأسلوب مهم في العمل.

تقدير وتذكير

في الوقت الذي نعرب فيه عن تقديرنا للدور الكبير الذي تقوم به لجان كافل اليتيم، حيث ملأت فراغًا هامًا، وتحملت عن المجتمع مسؤولية عظيمة، فإننا نذكّر هذه اللجان بضرورة مضاعفة الجهد، وتطوير النشاط، خاصة فيما يرتبط برفع كفاءة الأيتام، وتقدمهم على صعيد التعليم وبناء القدرات والمهارات، بمتابعة مسيرتهم الدراسية، وتشجيعهم على التميز والتفوق، ومساعدتهم في تحصيل فرص الدراسات الجامعية والعليا.

ومن ناحية أخرى الاهتمام بإحاطتهم بأجواء الرعاية التربوية، والتوجيه السلوكي، بوضع خطط وبرامج للتوعية والإرشاد، وملاحظة ما قد يطرأ على حياتهم وسلوكهم من نواقص وثغرات، من أجل المعالجة والإصلاح.

ونأمل أن يتفاعل المجتمع أكثر مع هذه اللجان (كافل اليتيم) بدعمها ماليًا، وبرفدها بالعناصر المخلصة الكفؤة، والاقتراحات المفيدة البناءة، لتقوم بواجبها على خير وجه.

وكان الله في عون كل يتيم حتى يتجاوز محنة يتمه بسلامة ونجاح، ووفق الله المؤمنين لتحمل مسؤولياتهم تجاه الأيتام في مجتمعهم، وأمدّ الاخوة الأعزاء العاملين في لجان كافل اليتيم بالمزيد من توفيقه ورضاه.

الفصل السادس

في التنمية الأسرية

الفحص الطبي قبل الزواج[1]

للزواج استهدافان رئيسان: الأول: تحقيق سعادة الحياة لكل من الزوجين. والثاني: إنجاب الذرية الصالحة.

لذا ينبغي الاهتمام بالمواصفات المناسبة، التي تساعد في إنجاز كلا الغرضين، على أكمل صورة، وأحسن وجه. والنصوص الدينية الواردة حول الزواج، تلفت نظر الإنسان عند اختيار شريك الحياة، زوجًا أو زوجة، إلى تأثير هذا الاختيار على مستقبل الذرية والأولاد، في سماتهم المادية والمعنوية.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اختاروا لنطفكم»[2] فأنت حينما تختار زوجة، فإنك في نفس الوقت تختار أمًا لأولادك، تؤثر فيهم صفاتها وتربيتها. وكذلك حينما تختار المرأة زوجًا فإنها تختار أبًا لأولادها تنعكس عليهم شمائله وملامحه.

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إياكم وتزويج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع»[3].

وإذا أعجب الإنسان بجمال امرأة، لكنها تفتقد صفات أساسية كالعقل، فعليه أن

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٥ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٢٧ فبراير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٨٤.

(٢) الكافي ج٥، ص٣٣٢.

(٣) المصدر نفسه. ص٣٥٤.

يتجنب الإنجاب منها، خوفًا من انتقال النقص إلى الأولاد، فقد سأل رجل الإمام محمد الباقر ؈: عن الرجل المسلم تعجبه المرأة الحسناء أيصلح له أن يتزوجها وهي مجنونة؟ قال: «لا ولكن إن كانت أمة مجنونة فلا بأس بأن يطأها ولا يطلب ولدها»[1].

قانون الوراثة

يؤكد علم الوراثة الحديث النشأة ما أشارت إليه النصوص الدينية من انتقال الصفات الجسدية والنفسية من الوالدين إلى الأولاد. «ولعل أول من كشف الأسس العلمية التي تتحكم بالوراثة في المخلوقات الحية، وأجرى تجارب عليها، هو النمساوي جريجوري مندل (١٨٢٢ـ١٨٨٤م) الذي لاحظ أن صفات نبات البازلاء تنتقل إلى النباتات المتولدة منه بنظام ثابت، وبناء على تلك الملاحظات وضع مندل القوانين التي عرفت باسمه (قوانين مندل) ثم تعمق علماء آخرون في دراسة الظاهرة، فتوصلوا إلى المزيد من الحقائق، حول طبيعة الوراثة والقوانين التي تتحكم فيها».

الأمراض الوراثية

ضمن قانون الوراثة فإن هناك أمراضًا وراثية يكسبها الأولاد من الوالدين، وقد وصلت قائمة هذه الأمراض إلى أكثر من ثمانية آلاف مرض وراثي حتى عام ١٩٩٨م، ومشكلة أغلب هذه الأمراض الوراثية، أن الشخص الحامل للجين المعطوب، أي المرض الوراثي، هو في الغالب شخص سليم، ولا يعاني من أي مرض ظاهر، ولكنه إن تزوج بامرأة تحمل الجين المصاب ذاته، فإن نسبة من نسلهما، حوالي الربع، سيصابون بهذا المرض.

وهذا النوع من الأمراض الوراثية لا علاج لها، فيعاني منها المصاب طوال فترة حياته وقد تؤدي به إلى الموت.

بالطبع لا تنتشر كل هذه الأمراض الوراثية في كل المجتمعات، بل في كل مجتمع

(١) الكافي. ج٥، ص٣٥٤.

تنتشر أمراض وراثية معينة، لأسباب بيئية.

لذلك على الإنسان المقدم على الزواج أن يأخذ هذه المسألة مأخذ الجد، حتى لا يكون سببًا في إنجاب أولاد مصابين يتعذبون في حياتهم، ويكدرون صفو حياة العائلة كلها.

الأمراض الوراثية في المنطقة الشرقية

تتوطن المنطقة الشرقية بعض أمراض الدم الوراثية، ومن أبرزها:

١. **فقر الدم المنجلي Sickle Cell Disease**: وهو مرض وراثي ينشأ عن تحول كرات الدم الحمراء من شكلها الطبيعي (القرص المقعر الوجهين) إلى شكل المنجل (الذي تقصّ به الحشائش) وتسمى هذه الكريات حينئذٍ: الخلايا المنجلية.

وقد عرف هذا المرض لأول مرة في العالم سنة ١٩١٠م واكتشف في المملكة عام ١٩٦٣م في المنطقة الشرقية وجيزان وخيبر في المدينة المنورة.

وهو من أكثر أمراض الدم الوراثية شيوعًا في العالم، حيث تشير الإحصائيات إلى ولادة ٢٥٠ ألف طفل مصاب على مستوى العالم سنويًا، إلا أنه لا ينتقل بالعدوى، فمن ولد سليمًا، لا يمكن أن يصاب به. وينتشر هذا المرض في كثير من مناطق المملكة، وأكدت الدراسات أن المنطقة الشرقية هي أكثر المناطق التي ينتشر بها فقر الدم المنجلي، حيث تبلغ نسبة حاملي المرض ما بين ٢٠ـ٢٥٪ من السكان، تليها منطقة الجنوب غرب المملكة، ثم المنطقة الشمالية[(١)]

٢. **أمراض التلاسيمية Thalassemias**: وتعتبر من أهم الأمراض الوراثية الشائعة، وتأتي في الدرجة الثانية بعد فقر الدم المنجلي، حيث تظهر الإحصائيات أن التلاسيمية (الألفا) تصيب ٥٠٪ من سكان الشرقية، وجنوب غرب المملكة، بينما تبلغ درجة انتشار التلاسيمية (البيتا) نسبة ١٣٪ من سكان الشرقية،

---

(١) الدكتور علي الدبوس: الدكتور إبراهيم الجامع، أمراض الدم الوراثية، مجلة صحة الشرقية، عدد١١ يناير ١٩٩٨م.

و٣,١٥٪ من سكان المنطقة الجنوبية الغربية.

٣. **مرض نقص خميرة جي سيكس بي دي G6PD Deficiency**: ينتشر هذا المرض في كثير من مناطق العالم، وخصوصًا في حوض البحر المتوسط، وكثير من مناطق القارة الأفريقية، ويقدر عدد المصابين به على مستوى العالم، حوالي ٢٠٠مليون شخص.

وفي المملكة تتفاوت نسبة الإصابة في مختلف المناطق، فتصل نسبة إصابة الذكور في القطيف ٣٩,٨٪ والإناث ٢١,٤٪. وفي الأحساء تصل نسبة إصابة الذكور ٢٣٪ والإناث ١٢٪ وفي جيزان الذكور ٢٠٪ والإناث ٥٪. أما في الرياض فلا تتعدى نسبة إصابة الذكور ٧٪ والإناث ٣٪.

وتم اكتشاف هذا المرض في عقد الخمسينات من القرن العشرين ١٩٥٠ـ١٩٦٠م أما في المملكة فتم اكتشافه في مستشفى أرامكو عام ١٩٦٥م.

الزواج وانتقال الأمراض الوراثية

انتقال أمراض الدم الوراثية إلى الأولاد يعتمد على مدى وجودها لدى الأبوين. ويتحدث الأطباء عن الاحتمالات بالشكل التالي:

قد يكون الإنسان حاملًا لسمة المرض ولكنه غير مصاب به وهنا لا تظهر عليه أي أعراض للمرض، وقد يكون مصابًا بالمرض.

فإذا كان أحد الأبوين مصابًا بالمرض، والآخر سليمًا منه، فإن الأولاد لا يصابون بالمرض، وإنما قد يحملون سمته فقط.

أما إذا كان كلاهما مصابًا فسيكون الأولاد أيضًا مصابين.

وإذا كان كلا الأبوين حاملًا لسمة المرض، فإن واحدًا من كل أربعة أولاد لهما، قد يصاب بالمرض، واثنان من كل أربعة قد يحملان سمة المرض.

لذلك ينبغي ألّا يتزوج المريض أو الحامل لسمة المرض إلا من شخص سليم.

الفحص الطبي قبل الزواج

عند اختيار الزوج أو الزوجة ينبغي التأكد عن طريق الفحص الطبي في مراكز الرعاية الصحية، من وجود هذه الأمراض الوراثية المنتشرة في منطقتنا؛ لأن المشكلة لا تكمن في الإصابة بالمرض فقط، التي ستكون واضحة من خلال الأعراض والآثار، وإنما لأن مجرد حمل سمة المرض، التي لا أعراض لها، وبالتالي يجهل الإنسان وجودها، قد يسبب حدوث المشكلة للأولاد فيما إذا كان كلا الأبوين حاملين لسمة المرض.

وبالفحص الطبي يتبين ذلك، فإذا كان كلاهما مصابًا أو حاملًا فعليهما إعادة النظر في قرار الزواج، أو أن يتزوجا مع قرار عدم الإنجاب، أو الاعتماد على الفحص عند تلقيح البويضة كمشاريع أطفال الأنابيب، أو أثناء الحمل.

وتتأكد أهمية الفحص الطبي عند زواج الأقارب؛ لأن احتمالات انتقال الأمراض الوراثية فيها أكثر.

رأي الشرع

انطلاقًا من اهتمام التعاليم الدينية بالتفكير في مستقبل الذرية والأولاد، وتوفير أكبر قدر ممكن من ضمانات صلاحهم، ولأن الإسلام يمنع إيقاع الضرر على الآخرين وتسبيب الأذى لهم، فقد أفتى بعض الفقهاء بلزوم الفحص الطبي قبل الزواج في مثل هذه الظروف.

يقول المرجع الراحل السيد محمد الروحاني في الإجابة عن استفتاء وجه إليه بتاريخ ١٢/ ٨/ ١٤١٦هـ حول الموضوع ما نصه: (إن الأمر المذكور في المسألة من الأمور المهمة حيث يعد ـ على فرض تحققه ـ من موارد الظلم كان مقتضى الاحتياط هو الفحص).

وعلى نفس الاستفتاء أجاب المرجع السيد محمد الشيرازي بقوله: (احتمال الضرر

الكثير يوجب الوقاية سواء كان بالنسبة إلى النفس أو الآخر ولو الولد المستقبل).

وكان أهالي قبرص يعانون من انتشار مرض الثلاسيميا، ولكنهم اعتمدوا برنامجًا للفحص الطبي والتزموا نتائجه في قرار الزواج، فأثمر ذلك توقف ظهور المرض كليًا عندهم منذ سنوات.

وفي دول عديدة ومنذ أكثر من نصف قرن هناك إلزام بالفحص الطبي قبل الزواج.

وبالطبع فإن الفحص الطبي لا يعني ضمان سلامة الذرية من جميع الأمراض، وإنما هو للوقاية من الأمراض السارية المنتشرة في المجتمع، التي يستهدفها الفحص فقط.

إن التساهل في موضوع الفحص الطبي لاستحكام الرغبة في الزواج من خيار معين، أو للحفاظ على السمعة الصحية، يعني القبول باحتمالات خطيرة تضر بمستقبل الأولاد، وتؤثر على وضع حياة الوالدين.

والبعض من الناس ينقصهم الوعي والإدراك لأهمية الموضوع، مما يعني الحاجة إلى المزيد من التوعية حول هذه الأمراض، وحماية الجيل القادم منها.

والفحص الطبي حول هذه الأمراض تقوم به مراكز الرعاية الصحية في المنطقة، ويتم أخذ عينة من الدم خلال ثوانٍ قليلة، كما أن حمل الرجل أو المرأة لسمة المرض لا يعني وجود عيب أو خلل يمنع من الزواج، وإنما يعني ضرورة الاقتران بطرف سليم، حتى لا يكون الزوجان معًا حاملين للمرض، فتحدث الإصابة للأولاد، فيكفي إذًا التأكد من خلو أحد الطرفين وسلامته.

ونأمل أن يهتم كل راغب في الزواج بإجراء الفحص الطبي أولًا، من أجل سلامة ذريته وأولاده.

وقد صدر أخيرًا بحث جميل للدكتور محمد علي البار بعنوان (الفحص قبل الزواج والاستشارة الوراثية)[1] بلغة علمية سهلة، وهو متوفر في المكتبات، يمكن الاطلاع عليه والاستفادة منه.

---

(١) المصدر نفسه.

نحو وعي تربوي[1]

يشغل الأولاد أكبر حيز من الاهتمام في حياة الوالدين، بل يصبحون هم الشغل الشاغل والمحور الأساس في حياتهما، فعلى المستوى الذهني ينشغل الإنسان بالتفكير في متطلبات حياة الاولاد، وتوفير أسباب الراحة لهم، وعلى الصعيد النفسي يصبحون هم مركز الانشداد والتفاعل العاطفي، ومن الناحية العملية يأخذون القسط الأكبر من جهد الإنسان ونشاطه، بل قد يشكلون أقوى دافع له للعمل والحركة من أجل الوفاء بمستلزمات حياتهم وتسيير شؤونها.

ولكن لماذا يصرف الإنسان كل هذا الجهد والاهتمام من أجل أولاده؟

ولماذا تتلخص حياة الإنسان وتتمحور في دائرتهم؟

هناك سرّ الهي حيث أودع الله تعالى في قلب الوالدين ينبوعًا من الحب والعطف يتدفق على الأولاد بشكل غريزي.

ومن دون هذ النبع العاطفي الفياض ما كان يمكن تحمل عناء الحمل، ومخاطر الولادة، وصعوبات التنشئة والتربية.

ينقل أن نبي الله موسى عليه وعلى نبينا وآله السلام رأى أمًّا تحتضن طفلها الرضيع

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٤ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، ٢٤ يوليو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٣١.

بكل لهفة وشوق، فلفت نظره هذا المشهد الإنساني البليغ، فأوحى الله تعالى اليه: يا نبيي، أنا أودعت هذا الحنان والمحبة في قلب الأم على طفلها، أوتريد أن ترى خلاف ذلك؟ وخلال لحظة واحدة أبدت الأم انزعاجها من صراخ طفلها، وتركته على الأرض، وولت عنه غاضبة، ومع تصاعد بكائه وصراخه واستمرار استغاثته بها، إلا أنها معرضة عنه غير مبالية به، فرق قلب نبي الله موسى عليه وعلى نبينا وآله السلام لهذا الطفل، ودعا الله أن يعيد العطف والحنان إلى قلب أمه عليه، وفي أقل من لحظة هرعت الأم نحو طفلها وضمته إلى صدرها وغمرته بقبلاتها وحنانها وصارت تفديه بنفسها وحياتها.

الاولاد امتداد للذات

وثمة عامل آخر وراء هذا الارتباط العميق بالأولاد والاهتمام بهم، هو كونهم يمثلون الامتداد والاستمرار لذات الإنسان، فهم جزء حقيقي من الوالدين، يحملون الكثير من صفاتهما وملامحهما، وينسبون إليهما، لذلك يرى الوالدان فيهم ذاتيهما. وبقاء ذكرهما.

يقول الإمام علي عليه السلام مخاطبًا ولده الحسن عليه السلام: «وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئًا لو أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي».

إن رغبة البقاء والاستمرار في هذه الحياة متجذرة في أعماق الإنسان، وإذا كانت فرصته فيها محدودة على المستوى الذاتي، فإنه يسعى لتمديد وإطالة فرصة بقائه واستمراره عبر أولاده المتفرعين منه، وإذا لم يكن له ولد فكأن حياته تبتر وتقتطع، وبتعبير القرآن يكون أبتر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وروي أنه «من مات بلا خلف فكأنما لم يكن في الناس، ومن مات وله خلف فكأنه لم يمت».

إن القرآن الكريم يحدثنا عن حرص ورغبة أنبياء الله العظام في أن يكون لهم أولاد وذرية، مع ما لهم عند الله تعالى من الشأن الرفيع، فنبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا وآله السلام، وهو خليل الله، كان يدعو ربه في طلب الولد، حتى استجاب الله دعاءه في سن متقدمة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

ونبي الله زكريا عليه وعلى نبينا وآله السلام كان يسأل الله بإلحاح أن يرزقه الولد ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

ونبينا الأعظم محمد ﷺ حينما كان الكفار يشمتون به ويعيرونه أنه لا عقب له، فان الله تعالى طمأنه وبشّره بكثرة الذرية والنسل، كما ورد حول تفسير سورة الكوثر، وإن الله أعطى نبيه كثرة الذرية، بينما أعداؤه الذين عابوه بأنه أبتر لا نسل له قد انقطع نسلهم.

واذا كان عدد من الناس يعانون في الماضي الحرمان من الذرية والنسل، فإن تقدم علوم الطب في هذا العصر، قلّص من رقعة ذلك الحرمان، وأتاح فرصة التمتع بالإنجاب للكثيرين ممن كانوا يعانون بعض العوائق، وذلك عبر التلقيح الصناعي الذي لا ترى الشريعة فيه بأسًا، بل هو مستحب ومرغوب فيه ما دام داخلًا تحت عنوان التناسل المندوب إليه شرعًا.

الرعاية الشاملة

الاهتمام الكبير الذي يوليه الوالدان للأولاد، والحرص الشديد منهما على رعايتهم، غالبًا ما ينحصر في العناية بالجانب الجسمي المادي من شخصية الأولاد،

كتوفير الغذاء والدواء بأسرع ما يمكن، كما يحرصان على إشباع حاجته من الغذاء، ولا يتحملان بكاءه من جوع أو عطش ولو لحظة واحدة، ويهيئان له ما يناسبه من كسوة ولباس.

لكن هناك جوانب أخرى في شخصية الطفل تحتاج إلى توجه ورعاية أكبر، إنه ليس جسمًا فقط، بل هو كائن إنساني متعدد الجوانب والأبعاد، ومسؤولية الوالدين هي الرعاية الشاملة، والاهتمام الكامل بتلك الجوانب المختلفة.

إن الإنسان مخلوق مميز، عن بقية الكائنات، بتنوع أبعاده، فلديه نفس مليئة بالمشاعر والاحاسيس المتصارعة، والميول والرغبات المتناقضة، ولديه قدرات عقلية هائلة، ولأنه مدني بطبعه، له بعد اجتماعي، كما أنه مهيأ ومؤهل للعب دور كبير على مستوى الحياة والكون، باعتباره مستخلفًا لله في الأرض.. لكن ما لديه من كفاءات وقدرات وميول ورغبات، حينما يأتي إلى الدنيا، إنما هي على شكل مواد خام، وبذور واستعدادات، فيحتاج إلى فترة من الرعاية والتربية، لتنمو طاقاته، وتتطور قدراته، ويتدرب على قضايا الحياة، وتتشذب غرائزه وميوله، وتترشد مساراته وسلوكه.

بينما بقية الحيوانات تعيش ضمن بعد محدود، تسير فيه بغريزة وتقدير إلهي، لذلك لا تحتاج إلا لقدر ضئيل من التنشئة والإعداد، ثم تنطلق لأداء دورها المحدد المرسوم، ففترة الطفولة عند الحيوانات قصيرة تقاس بالأيام أو بالأسابيع أو بالشهور في أقصى التقديرات، ولا تكاد تجد نوعًا من الحيوانات يحتاج إلى رعاية امه لأكثر من سنة.. وبعض الحيوانات كالحشرات والأسماك قد لا تحتاج إلى تربية ورعاية أصلًا، فأنثى السمك تلقي بيضها في الماء قبل الفقس، فيفقس في الماء وبعض الأنواع منها يفقس البيض داخل السمكة ثم تضع اليرقات في الماء وبمجرد أن تفقس السمكة من بيضها، أو تلقي يرقتها في الماء، تمارس حياتها بشكل مستقل دون حاجة لرعاية أو تدخل من قبل الأم.. وتوجد أنواع قليلة من السمك ترعى نسلها للحظات بسيطة جدًا.. علما بأن هناك اثنين وعشرين ألف نوع من السمك، وبعض الأسماك مثل سمكة القد في كل

موسم للتناسل تلقي تسعة ملايين بيضة، يفقس قسم منها والباقي لا تساعده الأجواء على الفقس.

ولتميز الإنسان في مكانته ودوره وكفاءاته وقدراته، شاءت حكمة الله تعالى أن يمر بفترة طويلة من الحاجة لرعاية الأبوين وتربيتهما، لتتبلور شخصيته، وتنمو مواهبه وطاقاته، إلى جانب تكامله وتطوره الجسمي.

كيف نفهم أطفالنا؟[1]

إذا كانت التربية تعني تنشئة الطفل ورعاية نموه في الأبعاد المختلفة جسديًا ونفسيًا وعقليًا وسلوكيًا، فإنها بحاجة إلى وعي وتخطيط ومعرفة، إن تصنيع أي جهاز من الأجهزة يستلزم معرفة وخبرة سابقة، وكلما كان الجهاز أكثر دقة وتعقيدًا تطلب مستوى أعلى من المهارة عند صانعه.

والتربية هي صناعة الشخصية الإنسانية، بما تحمل من مؤهلات وكفاءات، وتتطلع إليه من دور وإنجاز. ومما يلفت النظر أن الله تعالى قد عبر عن التربية بالصناعة والتصنيع، في الحديث عن نشأة نبي الله موسى عليه وعلى نبينا وآله السلام وإعداده لدور الرسالة والقيادة، يقول تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

لكن ما نلحظه من واقع حياة الناس، أن الأكثرية يتعاملون مع تربية أطفالهم كعمل عفوي، ينطلق من العادات الموروثة، ويحكمه المزاج الشخصي الآني.

إن نسبة الإنجاب والمواليد في مجتمعاتنا تعتبر من أعلى المعدلات في العالم، فعندنا في المملكة مولود جديد كل دقيقة، وحسب إعلان لوزارة الصحة: أنه في شهر رمضان الفائت ١٤٢٠هـ كان عدد المواليد في المملكة ٤٥,٠٠٠ مولود أي بمعدل كل أربعين ثانية مولود جديد.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢١ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، ٢١ يوليو ٢٠٠٢م، العدد ١٠٦٣٨.

والسؤال المطروح هو مدى توفر الجدارة والتأهل التربوي عند العوائل التي تستقبل هذا العدد الكبير من المواليد.

إن أغلب الشباب والفتيات حينما يبدؤون حياتهم الزوجية، ويصبحون على أعتاب مرحلة الوالدية، لا يهتمون بالاستعداد لهذه المرحلة، بالتعرف على عالم الطفل الذي ينتظرونه بلهفة وشوق، وبتحصيل معرفة مناسبة عن برامج التربية وأساليبها ووسائلها، ليكونوا قادرين على إنجاز هذه المهمة بنجاح.

إن مناهج الدراسة والتعليم للشباب والفتيات خاصة في المراحل المتقدمة كالثانوية والجامعة ينبغي أن تولي هذا الجانب اهتمامًا مناسبًا؛ لأن رواد هذه المراحل يقتربون من الدخول في فئة الآباء والأمهات.

والمؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية في المجتمع يجب أن تضع برامج للإعداد والتوعية التربوية، فذلك يوفر عليها الكثير من الجهود المستقبلية، ويساعدها على تحقيق أهدافها في إصلاح وإرشاد المجتمع. لأننا إذا علمنا العوائل كيف تربي أبناءها تربية سليمة، فسنكسب جيلًا أقرب إلى الصلاح، وأسرع استجابة إلى الخير.

إن وجود دورات مركزة ولو لعدة ساعات يمكن أن تفتح آفاق ذهن المقبل على مرحلة الوالدية، ليكون أكثر تفهمًا وإدراكًا لمتطلبات العملية التربوية.

ولوسائل الإعلام والتثقيف دور هام يمكن أن تؤديه في هذا المجال، عبر البرامج المختلفة، ونشر الكتب التوجيهية والمتخصصة في الحقل التربوي، وقد لفت نظري عنوان كتاب صادر عن معهد «جيزيل» لنمو الطفل، ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور فاخر عاقل، بعنوان (التهيؤ للوالدية) وهو يتحدث كما يشير عنوانه عن تحضير الوالدين لصناعة الوالدية، ويحدثهم عن المشكلات المختلفة التي تصادف الوالدين والحلول العملية لها. وفي تراثنا الإسلامي مخزون عظيم من المفاهيم والمعارف والإرشادات التربوية، التي لو قدر لها أن تنشر وتتداول في أوساط المجتمع، لأنتجت وعيًا عامًا باتجاه أفضل الأساليب التربوية. وهنا تأتي مسؤولية علماء الدين وخطباء

المنبر، ليولوا هذا الجانب اهتمامًا أكبر في أحاديثهم وخطاباتهم.

ربما ينظر الكثيرون لأطفالهم نظرة بسيطة ساذجة، فالطفل عندهم مساوق للجهل وعدم الفهم والإدراك والشعور، وفي مجتمعنا يعبر عن الأطفال بـ(الجهال) فضمن التحية يسأل الواحد منا الآخر: كيف حال الجهال؟ أي الأولاد والأطفال! ويتحدث رب العائلة قائلًا: سافرت مع الجهال!

وربما تستمر هذه النظرة عند بعض العوائل لأبنائها حتى حينما يتجاوزون مرحلة الطفولة، ويصبحون شبابًا، لكنهم يبقون في نظر أهاليهم أطفالًا وجهالًا.

إنها نظرة خاطئة فالطفل ليس عديم الإدراك والفهم والشعور كما يتصور الكثيرون، إنه يتحسس ما حوله، وتستيقظ مداركه في وقت مبكر، ويسجل الانطباعات ويلتقط الصور، وتبدأ عملية التكون والتشكل لشخصيته المستقبلية وللدعامات التي ترتكز عليها، منذ السنوات الخمس أو الستّ الأولى، التي يطلق عليها علماء التربية السنوات التكوينية.

«فقد أثبتت الدراسات الإكلينيكية وكذلك الملاحظات التجريبية التتبعية أن السمات الأساسية للشخصية عند الكبير ما هي إلا امتداد لتأثير الخبرات الطفلية المبكرة التي سبق أن مر بها، فمنذ الأسابيع الأولى في عمر الطفل تبدأ قابليته للتعلم، والمقصود بالتعلم هنا، إما اكتساب مثيرات شرطية، عن طريق الاشراط الاستجابي أو الكلاسيكي ـ وإما تعديل في السلوك الإجرائي ـ عن طريق التدعيم أو مبدأ الاشراط الإجرائي ـ وأفادت تجارب كثيرة أن الطفل يمكنه في وقت مبكر جدًا، أن يكتسب مثيرات شرطية مثل صوت شوكة رنانة مثلًا، أو إضاءة ضوء، وذلك بالنسبة لأفعال منعكسة مثل رمش العين، أو حركة الرضاعة عندما تقترن تلك المثيرات بالمثيرات الطبيعية لهذه الأفعال المنعكسة».

وعندما يصل الوليد إلى سّنِ الثالثة يكون قد حقق نموًا حركيًا ومعرفيًا سريعًا، نموًا يتضمن أكثر من مجرد زيادة في الوزن والحجم، فمع تقدم السن يتقدم الطفل بشكل

واضح في النمو الحركي، ونمو التآزر والنمو المعرفي بالبيئة المحيطة به، من عالم البشر وعالم الأشياء. وتؤكد دراسات علمية أن الوليد يستطيع ابتداءً من الشهر الرابع أن يميز الانفعالات التي تظهرها تغيرات الوجه البشري. فهو في هذا الشهر يطيل النظر في الوجوه المعبرة بالفرح، أكثر مما يفعل بالنسبة للوجوه الغاضبة أو المحايدة.

وملحوظ أن الطفل بعد سنّ الثانية تنمو لديه المفردات الكلامية بسرعة كبيرة، فعندما يصل السنة الثانية تكون حصيلته في حدود الخمسين مفردة لكنه في الثانية والنصف يصل متوسط عدد المفردات لديه إلى ٤٠٠ كلمة تقريبًا، وببلوغه الثالثة يمتلك ما يقارب الألف كلمة في المتوسط، ويبدأ في تركيب الكلمات على شكل جمل مفيدة، ويصبح ٨٠٪ من كلامه مفهومًا للسامع، وفي السنة الرابعة يتقن اللغة تمامًا.

وما الأسئلة الكثيرة التي يمطر بها الطفل والديه عن كل شيء يستوقفه إلا مؤشر على تيقظ مداركه، ونشاط أحاسيسه ومشاعره.

ويركز الأطفال ملاحظتهم على سلوك وتصرفات من حولهم، ويكتسبون من تلك الملاحظة، في بناء قناعات وتصورات داخل نفوسهم تبقى آثارها على أفكارهم وتوجهاتهم المستقبلية، كما يندفعون لمحاكاة ما يشاهدون ويلاحظون.

هذه العينات من مظاهر النشاط الذهني والنفسي والسلوكي عند الطفل تفرض علينا إعادة النظر في رؤيتنا وفهمنا لعالم الطفولة، فالطفل ليس ذلك الكائن الجاهل الذي لا يمتلك أي مستوى من الإدراك والشعور، بل هو مشروع شخصية تأخذ في النمو والتكامل، وتنطوي على قدر من الفهم الإحساس يتزايد ويتصاعد يومًا بعد آخر.

الأطفال نعمة وأمانة

الأطفال ليسوا ممتلكات يتصرف فيها الوالدان كما يحلو لهما، بل هم نعمة وأمانة من قبل الله تعالى، نعمة تستوجب الشكر، وشكرها القيام بواجب الرعاية والتربية،

وأمانة تترتب عليها المسؤولية والالتزام.

والوالدان مسؤولان أمام الله عزّ وجلّ عن تعاملهما مع أولادهما الصغار، إضافة إلى تحملهما لنتائج التربية في حياتهما.

وإذا كان الطفل لا يملك قوة تردع الإساءة، فهو تحت تصرف أبويه، لكن الله تعالى هو الجهة التي تقف خلفه، وترصد أي إساءة تتوجه إليه.

المرأة والمعرفة الدينية[1]

هل المؤسسة الدينية العلمية مؤسسة ذكورية لا مكان فيها للمرأة؟

وهل أن حركة الاجتهاد والفقاهة محصورة في الرجال محظورة على النساء؟

ولماذا لا نجد للمرأة المسلمة المعاصرة دورًا في المعاهد العلمية والمؤسسات الدينية وساحة النشاط الفكري الإسلامي؟

تفرض هذه الأسئلة نفسها من عدة منطلقات:

أولًا: إن المرأة مخاطبة بالدين كالرجل تمامًا، فالدين يخاطب الإنسان بقسميه الذكر والأنثى على حدٍّ سواء، وهو ليس للذكر أولًا وللأنثى ثانيًا، ولا أن المرأة مخاطبة عبر الرجل وبالتبع له، بل هي مكلفة مباشرة من قبل الله تعالى ومحاسبة أمامه يوم القيامة كما هو الرجل.

وحينما يأتي في القرآن نداء للناس، أو لبني آدم، أو للعباد، أو للإنسان، فإنه موجه بالطبع للذكور والإناث، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وقوله

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٤ شعبان ١٤٢٣هـ، ٣٠ كتوبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٢٩.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

إن هذه الآيات وأمثالها نداءات من قبل الله تعالى للرجل والمرأة، وكذلك فالتكاليف والأحكام الشرعية موجهة لهما معًا.

وباعتبارها مخاطبة ومكلفة فهي معنية بتلقي الخطاب وفهمه، وبمعرفة التكليف وتبينه. ومن الطريف هنا أن ننقل الحديث المروي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر: «يا أيها الناس! وكانت الجارية تمشطها، فقالت للجارية: استأخري عني ـ أي أمهليني حتى أسمع ـ فقالت الجارية: إنما دعا الرجل ولم يدع النساء، فأجابتها أم سلمة: إني من أناس»[1].

ثانيًا: مشاركة المرأة في الحركة العلمية، والنشاط الفكري والشرعي الإسلامي، يعني مضاعفة الجهود التي تبذل في هذا الميدان، فالمرأة نصف المجتمع، وتمتلك الطاقة والكفاءة، فإذا ما وجهت قدراتهاوإمكاناتها الذهنية والفكرية، في خدمة البحث العلمي الديني، أضافت إليه رصيدًا كبيرًا، وإثراءً عظيمًا، بينما انكفاؤها عن هذا الميدان يعني خسارة ونقصًا.

وقد تكون عدم مشاركة المرأة في ميدان العلوم الدينية خسارة نوعية في بعض الأحيان، لأن مشاركتها لا تضيف رصيدا كميا في الجهود العلمية المبذولة فقط، بل قد تقوم المرأة بدور مميز، خاصة في تنقيح الأحكام والموضوعات المرتبطة بشؤون المرأة، والقضايا المختصة بها، فالفقيه في ممارسته لاستنباط الحكم الشرعي ليس جهاز حاسوب آلي، ينجز مهامه بعيدًا عن أي تأثير، بل هو بشر تنعكس الأجواء المحيطة به، والمشاعر والتصورات التي يحملها على رأيه ورؤيته، بشكل أو بآخر، خاصة في مجال تنقيح الموضوعات الخارجية. فإذا امتلكت المرأة قدرة الاجتهاد والاستنباط، وتصدت لبحث القضايا والأحكام المرتبطة بها، ضمن الضوابط المقررة، فقد يكون تشخيصها أعمق وأدق في تلك الموضوعات.

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الفضائل ٢٩، حديث ٢٢٩٥.

ثالثًا: في هذا العصر وحيث أصبح موضوع المرأة معركة صراع بين الحضارات والتوجهات، ووظفت الحضارة المادية وسائل الإعلام والمعلومات المتطورة، للتبشير برؤيتها وثقافتها، ولترويج أنماط السلوك الاجتماعية المنبثقة عنها، فإن من الضروري جدًا أن تتسلح المرأة المسلمة برؤية الإسلام، وأن تتحصن بمفاهيمه ومناهجه، حتى لا تقع فريسة لتأثيرات الأفكار والبرامج الوافدة، خاصة وأنها تستهدف المرأة بدرجة أساسية، وأيضًا لتكون المرأة المسلمة هي خط الدفاع عن تعاليم الإسلام، والمبشرة بمفاهيمه وقيمه الأخلاقية الاجتماعية، على مستوى العالم.

إن مؤتمرات كبرى عالمية تعقد حول موضوع المرأة، كمؤتمر (نيروبي) عام ١٩٧٥م، ومؤتمر (بكين) عام ١٩٩٥م، ضمن سياق إبراز النموذج الغربي للمرأة، وتعميمه لكل المجتمعات البشرية، وهناك سيل لا ينقطع من البرامج الإعلامية والثقافية، عبر الأفلام والمجلات، والمؤسسات الاجتماعية الضخمة، التي تدفع بهذا الاتجاه.

فإذا ما كانت المرأة محدودة المعرفة والوعي الديني، أو لم تكن مفاهيم الإسلام واضحة وراسخة في ذهنها وفكرها، فإنها لن تصمد أمام هذه الثقافة الغربية الزاحفة.

إن تفقه المرأة في الدين، وإلمامها بمعارفه، وتعمقها في فهم أحكامه ومناهجه، هو الذي يؤهلها للقيام بدور الدعوة إلى الإسلام، والتبشير بنموذجه للمرأة على الصعيد العالمي.

بالعلم تميز الإنسان على غيره من المخلوقات، ونال الجدارة من الله سبحانه بأن يكون خليفته في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولما تساءلت الملائكة عن مدى صلاحية الإنسان للقيام بهذا الدور، وهو ينطوي على غرائز وشهوات قد تقوده إلى الإفساد في الأرض، أجابهم الخالق القدير بإظهار ما منحه تعالى للإنسان من قدرة على التعلم، وكفاءة في كسب المعرفة، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

هكذا أصبح العلم ميزة للإنسان، وصفة نال بها الجدارة للخلافة في الأرض، وكلما زاد علمه زاد تميزه، واتسعت قدراته لتسخير قوى الطبيعة، واستثمار طاقات الكون والحياة.

وكما تميز الإنسان على غيره بالعلم. فإن أفراد الإنسان يتمايزون فيما بينهم ويتفاضلون بالعلم أيضًا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فباب العلم مفتوح للراغبين فيه وساحته ميدان سباق، بما منحه الله تعالى من نعمة إدراك وتعقل، دونما فرق بين شقيه الذكر والأنثى.

فالمرأة كالرجل، توازيه في إنسانيته، وتشاركه في القيام بدور الخلافة، وتحمل مسؤولية عمارة الأرض، وقد منحها الله تعالى كالرجل نعمة العقل، وقدرة الإدراك والمعرفة، ولا تختلف عنه في كونها تملك استعدادًا وقابلية تامة لإدراك الحقائق والمفاهيم، وتملك القدرة على العمل والتعلم، والسير في هذا الطريق إلى أقصى غاياته.

بل إن دماغ النساء يحتوي على خلايا الدماغ المسماة العصبونات، بنسبة تزيد بحوالي ١٠٪ عن دماغ الرجال، بالرغم من أن الرجال بصفة عامة أكبر حجمًا من النساء، وأدمغتهم كذلك أكبر حجمًا.

والتفاوت في حجم الدماغ لا يؤثر في مستوى فعاليته، وإلا فدماغ الفيل يزن حوالي ٦ كيلوغرامات بينما دماغ الإنسان لايزن أكثر من ١٣٠٠ غرام.

وقد نشرت الدكتورة (كيمورا) الباحثة في الأسس العصبية والهرمونية للوظائف

الفكرية ـ الذهنية ـ لدى الإنسان، وهي أستاذة في علم النفس في جامعة غربي أونتاريو، نشرت بحثًا علميًا حول الفوارق في الدماغ بين الجنسين، أكدت فيه وجود تفاوت متبادل في بعض الجوانب والمهارات، حيث يقابل تفوق كل طرف في جانب، تفوق الطرف الآخر في جانب آخر، وخلصت إلى (أن الفوارق الجوهرية بين الجنسين، تكمن في الطرز المختلفة للمهارات الفكرية التي يتمتع بها كل منهما، أكثر مما هو راجع إلى المستوى العام للذكاء (حاصل الذكاء)، فمن المعروف أن هناك تفاوتًا بين الناس في قدراتهم الذهنية: فمنهم من يبرع في الجوانب اللغوية، ومنهم من يجيد الأعمال اليدوية، وهكذا يمكن لشخصين أن يتمتعا بمستوى واحد من الذكاء، مع اختلاف في نمط المهارات التي يجيدها كل منهما).

مشاكل الحياة بين المعالجات والآهات[1]

يودّ الإنسان أن يعيش حياته دون مشاكل أو صعوبات، وألّا تعترض طريقة عوائق وعقبات، بيد أن القسم الأكبر من المشاكل التي يواجهها إنما تنبع من ذاته، وتحصل بسبب نواقصه واخطائه، وبإمكانه تجاوزها بمزيد من المعرفة والاستقامة والاجتهاد. وهذا ما تشير إليه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحمل الإنسان فردًا ومجتمعًا، مسؤولية ما يقع عليه من نكسات وآلام، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وهناك قسم من المشاكل تقتضيها حكمة خلق الحياة، فإن الإنسان ينطوي على مخزون من القدرات والطاقات، ويحتاج إلى دوافع وحوافز تستثير إمكاناته، وتستنهض قواه، وغالبًا ما تلعب المشاكل والتحديات هذا الدور في حياة الإنسان، فالحاجة أم الاختراع والمشكلة تدفع إلى التفكير والحركة، وما الاختراعات العلمية، والإنجازات الصناعية، في مختلف المجالات إلا استجابة من الإنسان للتحديات التي شعر بمواجهتها، وعاش تحت وطأة ضغوطها.

لقد هيأ الله تعالى للإنسان في هذه الحياة كلّ أسباب السعادة والكمال، حتى لا يعاني حاجة أو نقصًا، لكن ذلك مشروط بحركة الإنسان وسعيه، وبالسعي والحركة

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٩ رمضان ١٤٢٣هـ، ٤ ديسمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٦٤.

تتفجر طاقاته، وتنصقل شخصيته، وتتسع مداركه وآفاقه، إلى جانب توفير متطلباته وتحقيق طموحاته. وبالتالي فإن لكل مشكلة حلًا، ولكل داء دواء، وما على الإنسان إلا الاجتهاد في التفكير، والجد في الحركة والعمل، ليصل إلى ما يريد، فبعض المشكلات تحتاج معالجاتها الى مستوى أعلى من النشاط، وبعض التحديات تستوجب بذل درجة اكبر من الجهد.

وكمثال على ذلك فان أمراضًا كانت تفتك بالإنسان وتودي بحياته، لكن كفاح العلماء المتواصل مكن الإنسانية من التغلب على خطرها، عبر التلقيح وأدوية العلاج كالجدري والحصبة والملاريا وأمثالها. وهكذا في مجال مقاومة الحر والبرد حيث صنع الإنسان وسائل التكييف والتدفئة، وفي مجال المواصلات والاتصالات وغيرها. فإن كل الاختراعات والاكتشافات، كانت من وحي الحاجة ومواجهة المشكلة.

هكذا يكون وجود المشاكل طريقًا لتفعيل قدرات الإنسان، وتنمية طاقاته، وحتى بالنسبة للأنبياء والأولياء فإن المشاكل التي تواجههم والآلام التي تحل بهم، هي التي تبرز كفاءتهم، وتظهر مقامهم المتميز، إضافة إلى ما ينالون بتحملها من الأجر والثواب عند الله سبحانه. على ضوء هذا الفهم لطبيعة مشاكل الحياة، فإن على الإنسان ألّا يستسلم ولا ينهزم أمام أية مشكلة أو عقبة، بل عليه أن يعود لذاته، وأن يفتش عن الخلل والخطأ الذي حصل منه، وأنتج المشكل، هل هو نقص في المعرفة والوعي؟ أم هو تقصير في الحركة والسعي؟ أم هو إنحراف في الممارسة والسلوك؟ وعبر إصلاح ذاته، وتغيير نفسه ألى الأفضل، سيتمكن من تجاوز المشكل والتغلب عليه. كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

وكم من فرد كان يعيش وضعًا مترديًا، ثم تجاوزه إلى حالة متقدمة، بعد أن غير ذاته، وأصلح الخلل في شخصيته؟ وكم من شعب كان يعاني التخلف والاضطهاد، ثم حقق تقدمه، حينما قاوم عوامل الضعف؟ وإذا كان المشكل قد أنتجته ظروف و أوضاع خارجية، فإن الإنسان إذا ما أستثار فكره، واستنهض إرادته، واستجمع قواه فسيجد له

من أمره فرجًا ومخرجًا. ذلك أن المشكل ليس قدرًا مفروضًا، ولا حتمية أبدية، بل هو كأي وضع أو حدث قابل للتغيير والزوال، ضمن إطار سنن الله في الكون والحياة. إذًا فلا داعي للانهيار أمام المشكل، ولا الاستسلام والانهزام أمام التحديات، بل يجب شحذ الهمة، وحشد الجهد والطاقة، بالتوكل على الله تعالى والثقة في رحمته. وبهذه الحقيقة نطقت آيات الذكر الحكيم لتشيع في نفوس البشر الأمل والتفاؤل، وتعزز في قلوبهم الثقة والإرادة، وتدفعهم للبحث عن وسائل التغيير والتطوير.

يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ويقول تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وما أروع هذه الأية الكريمة التي تعبر عن مفهوم عظيم، وتنبئ عن حقيقة هامة: إن كل عسر يبشر بيسر، وإن كل مشكل يكون بابًا وطريقًا إلى مكاسب وإنجازات، إذا ما استجاب الإنسان للتحدي، وتعاطى مع المشكل بإيجابية ووعي. وفي آية اخرى يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ والتقوى هنا بمفهومها الواسع الشامل التي تعني مراعاة القوانين والسنن الطبيعية والشرعية، والمتقي بهذا المعنى لا يجد نفسه أمام طريق مسدود، بل يبتكر الحلول، ويجدد المحاولات، للخروج من اي مشكل أو مأزق.

كما أن مفاهيم الإسلام التي تحرم اليأس والقنوط، إنما تريد ان تخلق في نفس الإنسان روح الأمل، وقوة الإرادة، حتى لا يستسلم ولا ينهزم أمام المشكلات. فالقنوط تكريس للخطأ والسوء، ومن يتصف به يضلّ عن طريق التقدم والصلاح ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ وإذا ما سيطر الاستسلام واليأس على نفس الإنسان، فإنه يفوت عليه فرص التغيير والخلاص، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «في القنوط التفريط».

ألفَ كثير من الناس كأفراد ومجتمعات اجترار الآهات، والتباري في إظهار التألم من وقع المشكل وتأثيراته، فأدباؤهم ينظمون أشعار الحزن والأسى، وكتابهم يتفننون في توصيف النكبات والآلام، ومجالسهم تبدأ ولا تنتهي في التباكي على المصائب، وإبراز التبرم من مشاكل الواقع، ويبقون يراوحون مكانهم، ويستمرون في دوامة التأوه

والتألم. ولكن هل البكاء مُجدٍ في تغيير الواقع السيئ؟ وهل تكرار الحسرات وجرّ الآهات يعالج المشاكل ويحلها؟ أم أنه مجرد تنفيس لإراحة النفس بشكل زائف، ولتصريف الحماس والانفعال بطريقة خاطئة؟

إن البكاء سلاح العاجز، والتظلم وسيلة الضعيف، وهي طريقة متخلفة في التعامل مع تحديات الحياة، والموقف الصحيح يجب أن يبدأ من التفكير في طرق الحل، واستعراض وسائل المعالجة، ومن ثم اتخاذ قرار المبادرة للتصدي لمواجهة المشكل.

فمثلًا يتحدث بعض المتدينين في جلساتهم ومجالسهم عن انتشار المفاسد والانحرافات، وخاصة في أوساط الشباب والفتيات، ويزايدون على بعضهم بعضًا في ذكر القصص والأحداث السيئة في هذا المجال، وينعون حالة التدين، وانهيار الأخلاق في المجتمع، ويختمون جلستهم بالتأوه والتألم كما بدأوها، دون أن يتجاوزوا توصيف المشكلة إلى تلمس طرق الحلول والمعالجات، ودون ان يطالبوا أنفسهم بمبادرة ما، لصالح نشر القيم الدينية، وبث الوعي السليم، أو استيعاب أبناء المجتمع في برامج ومشاريع نافعة مفيدة.

إن أي مجتمع لا يخلو من المشاكل والنواقص حتى في أكثر البلدان تطورًا وتقدمًا، لكن المجتمع الواعي هو الذي يفكر في حلّ مشاكله ويسعى إلى معالجة قضاياه، ولا يكتفي بتكرار الحسرات والآهات.

الزواج بين مسؤولية الفرد والمجتمع[1]

إذا كان الزواج ضرورة وحاجة ملحة للإنسان في كل عصر، فإنه في هذا الزمن أكثر ضرورة، واشد الحاحًا. وذلك لما يتعرض له إنسان اليوم من وسائل تحريض للشهوة، وعوامل إثارة للغريزة، تجعله يعيش حالة من الهياج والاندفاع الجنسي العنيف. فوسائل الإعلام وإجهزة الأتصالات تتفنن في إذكاء الغرائز والشهوات، إضافة إلى انتشار أجواء الخلاعة والابتذال. ولم تعد هناك حدود أو مراعاة لشيءٍ من الحياء والاحتشام، الذي كان يميز الإنسان في ممارساته لغرائزه عن بقية الحيوانات.

كما تحيط بالإنسان المعاصر الكثير من دواعي القلق، وأسباب الاضطراب النفسي، للتعقيدات التي يواجهها في توفير متطلبات الحياة، وللأخطار والتحديات المختلفة التي تنتصب أمامه على الصعيد الشخصي والاجتماعي.

وبذلك تزداد حاجة الإنسان الى مأوى يلجأ إليه ليمنحه الطمأنينة والاستقرار، وإلى قناة سليمة، وإطار مشروع، يمارس من خلاله غريزته الجنسية الطبيعية.

والزواج هو ذلك الحصن الحصين والكهف المنيع، الذي يوفر للإنسان أجواء الراحة النفسية، واللذة الغريزية، ففيه سكون واطمئنان نفسي، حيث يشعر كل من الزوجين بوجود من يشاركه هموم الحياة، ويعينه على مشاكلها، ويمكنه الانفتاح عليه،

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٧ شوال ١٤٢٣هـ، ١١ ديسمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٧١.

وبثه آلامه وآماله، لذلك يصف الله تعالى الزواج بأنه سكن للإنسان، فالرجل سكن لامرأته، وهي سكن له، أي يتوفر بكل واحد للآخر سكون النفس واطمئنانها. يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ والخطاب موجّه للرجال والنساء.

وبالزواج يصبح الإنسان أكثر حصانة ومناعة تجاه الانحرافات السلوكية، والمفاسد الاخلاقية، بل وتجاه مختلف الجرائم. وهذا ما تدلّ عليه الإحصاءات والأرقام. فالمتزوج امامه طريق سالك لإشباع رغباته وشهواته، وهو غالبًا ما يفكر أكثر في تصرفاته وممارساته، لما يشعر به من مسؤولية عائلية وأسرية.

أخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ شبابًا لا نجد شيئًا فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ اي النفقة ـ فليتزوج فإنه أغض للبصر، واحصن للفرج».

أصبح تأخير الزواج للشباب والشابات هو الحالة السائدة في مجتمعاتنا، حيث تستغرق الدراسة حوالي ثمانية عشر عامًا، إضافة إلى السنوات الستّ الأولى قبل سن الدراسة، وبعد التخرج يحتاج إلى بضع سنوات حتى يجد له عملا، وحتى يكون نفسه ليكون قادرًا على توفير مستلزمات الزواج.

وهذا يعني أن يقضي الشباب والشابات أهم الفترات حراجة وحساسية في حياتهم العاطفية والنفسية، وهم في حالة العزوبة، مما يعرضهم للكثير من مخاطر الانزلاقات والانحرافات، ويعرض أمن المجتمع الأخلاقي للاهتزاز والاضطراب. إن المجتمع الذي يفكر في تحصين أمنه واستقراره، ويهتم بصلاح وإصلاح أبنائه، يجب أن يسهل وييسر أمور الزواج، ويساعد الشباب على الإسراع في بناء حياتهم العائلية.

وإذا ما تأملنا النصوص والتعاليم الدينية نراها تحمل المجتمع مسؤولية زواج أبنائه، يقول تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَنْكِحُوا﴾ أي زوجوا، وهو خطاب للمجتمع بأن يزوجوا العزاب، حيث لم يخاطب العزاب هنا بأن يتزوجوا، وإنما خاطب الناس أن يزوجوهم. ذلك لأن الزواج غالبًا ليس قضية فردية يقوم بها الطرفان المعنيان فقط، وبمعزل عن الارتباطات والتأثيرات الاجتماعية، كسائر الأمور من بيع وشراء وإجارة. بل هو مسألة لها أبعادها وارتباطاتها المؤثرة بأكثر من جانب اجتماعي.

كما أن من يريد تأسيس حياته العائلية وخاصة لأول مرة، قد يحتاج إلى دعم وعون مادي ومعنوي، لمساعدته على إنجاز هذه المهمة وإنجاحها. من هنا يتوجه الخطاب إلى المجتمع ﴿وَأَنْكِحُوا﴾. و﴿الْأَيَامَى﴾ جمع (أيم) على وزن (قيم) وتعني الإنسان الذي لا زوج له رجلًا كان أو امرأة، وأن كان قد كثر استعمال هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأته، وفي المرأة إلإذا مات زوجها، ولكنه كما نص عليه اللغويون: تشمل كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها بكرًا وثيبًا.

وإذا كان بعض الأشخاص، يعانون من الضعف الاقتصادي، فإن زواجهم قد يكون دافعًا لهم للمزيد من العمل والإنتاج، كما أن الله تعالى سيبارك لهم ويوسع عليهم، بتحملهم لمسؤولياتهم العائلية والاجتماعية.

حول مراسيم الزواج وتكاليفه(1)

والمساعدة على الزواج للمحتاجين من أفضل موارد صرف الحقوق الشرعية؛ لأنها تحقق غرضين أساسيين في وقت واحد، هما: قضاء الحاجة، وحماية الأخلاق والقيم، لذلك أفتى الفقهاء بأنه يصح أن يصرف من أموال الزكاة لتزويج المحتاجين للزواج، مع ضعف وضعهم الاقتصادي.

ولا يجب إعلام الفقير المحتاج الى الزواج أن المدفوع إليه زكاة، بل لو كان ممن يترفع ويدخله الحياء منها، وهو مستحق، يستحب دفعها إليه على وجه الصلة ظاهرًا والزكاة واقعًا.

كما أن مساعدة المحتاجين للزواج تعتبر من أفضل موارد البذل والصدقة لأنها تعالج حاجة ماسة حقيقية، وتسهم في تعزيز أمن المجتمع وسد ثغرات الفساد والانحراف، كما أنها استجابة للحث الإلهي والديني على الانكاح والتزويج، وإن ذلك من أحب الأمور إلى الله تعالى، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله عزّ وجلّ من التزويج».

إن إنشاء صندوق خيري لمساعدة المحتاجين للزواج، هو أفضل أسلوب لتحقيق وإنجاز هذا المطلب الديني الاجتماعي الهام، فعبر الصندوق تنتظم أمور هذا السعي

(1) جريدة اليوم. الأربعاء ١٤ شوال ١٤٢٣هـ، ١٨ ديسمبر ٢٠٠٢م، العدد ١٠٧٧٨.

المبارك، وتدرس حالات الأفراد، وتقدر لهم احتياجاتهم، والعمل الجمعي أنفع وأبرك من الأعمال الفردية. فينبغي المبادرة إلى إنشاء هذا المشروع الهام في كل مدينة وقرية، وأن يدعم الناس الصناديق القائمة ماديا ومعنويا لتؤدي وظيفتها المقدسة على أفضل وجه.

ولا بدّ أن نشيد هنا بالدور الرائد الذي يقوم به صندوق الزواج الخيري في مدينة صفوى، الذي تأسس عام ١٩٩٣ وصرف حتى عام ٢٠٠٠م مبلغًا قدره ٣,٦٦٨,٥٨٣ ريالا لمساعدة ٣٥٧ شابًا على الزواج عبر برنامج القروض والإعانات.

وصندوق الزواج الخيري في سيهات الذي تأسس عام ١٩٩٢م والذي صرف حتى عام ٢٠٠٠م ١,٧٧٧,٩٥٢ ريالا قروضًا ومساعدات، استفاد منها ٢٢٥ شخصًا للزواج.

والصندوق الخيري للزواج في القطيف ١٩٩٩م الذي صرف خلال سنتين من تأسيسه مبلغا قدره ٤٠٥,٩٤٩ ريالا لمساعدة ٦٤ شابا على الزواج بين قرض وإعانة.

انها تجارب رائدة جزى الله القائمين عليها والمتعاونين معها خيرًا، وينبغي أن تنال حقها من الإشادة والتشجيع وأن يحتذى بها في بقية المناطق والمدن.

لأن الزواج حدث هام في حياة الإنسان، بل لعله أهم حدث يترك تفاعلاته العميقة في وجدان الإنسان ومشاعره، ويؤثر في مجريات حياته، كما أن له انعكاساته الاجتماعية على المحيطين بالمتزوج، لذلك من الطبيعي أن ترافقه مراسيم احتفاء، وبرامج إعلام وإظهار، تتيح الفرصة للتعبير عن مشاعر الفرح والسرور، عند المتزوجين والمحيطين بهما، وتكشف عن مدى تعاطف الآخرين وتقديرهم بالمشاركة والتفاعل.

ومراسيم الزواج هي إعلان عن ولادة كيان اجتماعي جديد، وتأسيس علاقة محترمة في شرع المجتمع وأعرافه، وأيضًا فإنها توثيق لروابط المحبة والودّ والتآلف بين أبناء المجتمع.

من هنا شجع الإسلام على الاحتفاء بالزواج، وإقامة مراسم مناسبة له، كصنع

الوليمة والإطعام، وزفاف العريسين.

بالطبع يمكن لمراسيم الزواج أن تتطور أساليبها وبرامجها، مع اختلاف العصور والمجتمعات والظروف، لكن ما ينبغي التنبيه إليه أمران:

أولًا: ان تبقى في إطار مراعاة الأحكام الشرعية، فلا يجوز شرعًا أن يحصل تجاوز لأحكام الستر والحجاب بين النساء والرجال الأجانب عليهن.

ومن المخالفات الشرعية تداول تصوير حفلات الزواج النسائية، وتسربها إلى الرجال الأجانب.

وقد نشرت جريدة الوطن السعودية يوم الجمعة١/ ٤/ ١٤٢٢هـ، ص٣٣، تحقيقًا من الدمام حول الموضوع تحت عنوان «تسرب أشرطة حفلات الزواج بالسعودية يثير مشكلات أسرية بعضها ينتهي بالطلاق».

ثانيًا: الحدّ من المبالغة المتصاعدة في هذه المراسيم التي تثقل كاهل المتزوجين وأهاليهم، حيث تستنزف مبالغ طائلة، وجهودًا مضنية تجعل تكاليف الزواج باهظة معقدة، مع ما نعيشه من صعوبة في الظروف الاقتصادية.

والملاحظ استمرار الزيادات والموضات الجديدة، فيما يرتبط بحفلات الزواج والتنافس على عقدها في أضخم الصالات، حيث تصل التكلفة في بعضها إلى ٧٠ ألف ريال، وتقديم الولائم بطريقة فيها الكثير من الإسراف والتبذير، ثم التفاخر بأغلى الفساتين لليلة الزفاف، وأحدث موديلات السيارات للزفة، وإلى قائمة من العادات والتقاليد المرهقة الباهظة.

إن المجتمع بحاجة إلى ثقافة واعية لتغيير هذه العادات والتقاليد، وإلى مبادرات شجاعة من قبل فتيان وفتيات يتمردن على هذه الموضات والموديلات في مراسيم الزواج، ويعودون بها إلى حالة البساطة واليسر، كما تؤكد تعاليم الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

استضعاف المرأة في الماضي والحاضر[1]

المرأة شقيقة الرجل، وشريكته في الحياة من بدايتها، ولا يستغني عنها كما لا تستغني عنه، فوجود أحدهما يعتمد على وجود الآخر؛ لأن التكاثر واستمرار النسل البشري يحتاج إلى كليهما، وإدارة شؤون الحياة وقضايا العيش لا تنتظم دون تكاملهما.

لكن حكمة الحياة اقتضت أن تظهر في الرجل حالة القوة والخشونة، وأن تتجلى في المرأة حالة العطف والحنان، هذا العطف والحنان الذي يحتاج إليه الرجل حين يكون جنينًا في أحشاء المرأة، ورضيعًا على صدرها، ووليدًا في حجرها، وزوجًا تبذل له حبها..

وكان يجب أن يقدر الرجل دائمًا للمرأة هذا الدور العظيم، لكنه بدلًا من ذلك غالبًا ما يستضعفها، ويستغل طبيعتها اللينة الطيبة، ويتعامل معها من موقع قوة مهيمنة، حدث ذلك في ماضي الزمان وما زال مستمرًا إلى حاضره، فقد كانت إنسانية المرأة يومًا ما محلّ نقاش وجدال، بين الفلاسفة الرجال: هل أنها روح أم لا؟هل روحها انسانية أم لا؟ وعلى فرض إنسانيتها هل هي كالرجل؟ وهل خلقت لذاتها أم لخدمة الرجل وإمتاعه؟

وكان يتعامل معها في بعض الأزمان الغابرة كرقيق يباع ويشرى، أو كسلعة تقتنى

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٩ ذو القعدة ١٤٢٣هـ، ٢٢ يناير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨١٣.

وتمتلك، وينظر إليها كمصدر للشرور والخطيئات، وفي بعض الأحيان كان يستكثر عليها الحق في الحياة والوجود، فتوأد وتدفن حية كما ينقل ذلك عن عرب الجاهلية مثلًا، وأشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

في ظل الإسلام

ومع أن الإسلام أعاد للمرأة اعتبارها، وأقر لها بدورها المميز، وشأنها العظيم، وحرم أي تنكر أو تجاهل لحقوقها ومكانتها، وأعلن على لسان النبي محمد ﷺ أن الجنة على عظمتها وخطرها هي تحت قدم المرأة الأم، فقد روى أنس عنه ﷺ أنه قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[١].

وعاشت المرأة في ظل الإسلام واقع العزة والكرامة، لكن ذلك لم يدم طويلًا، حيث عادت رواسب الجاهلية وبقايا آثارها إلى الظهور، وصار ينظر إلى المرأة نظرة دونية، وكأنها إنسان من الدرجة الثانية، وتعرضت حقوقها للامتهان والانتهاك، وأسوأ ما في الأمر هو تبرير وتسويغ ذلك الظلم والعدوان من الناحية الدينية الشرعية، باختلاق نصوص موضوعة على لسان الشرع تارة، وبتحريف مقصد بعض النصوص تارة أخرى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

المرأة المعاصرة

رغم أن المرأة المعاصرة قد حققت تقدمًا جيدًا في اكتساب بعض حقوقها، في العديد من المجتمعات، وأصبحت تشارك في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم، إلا أنها من ناحية أخرى تعيش معاناة الاستغلال لأنوثتها، والتسليع لجمالها، وعادت في

(١) كنز العمال. حديث ٤٥٤٣٩.

ظل الحضارة المادية فريسة سهلة لشهوات الرجل، وأداة لإمتاعه ولذته، تقام لها أسواق النخاسة تحت عنوان انتخاب ملكات الجمال، وتدفع إلى التعري واستعراض المفاتن باسم التحرر، وتبتذل صورها الفاضحة كأدوات دعاية واعلان للجذب والاستقطاب، وتدفع هي ثمن كل ذلك بإهدار إنسانيتها وكرامتها، ونزعات الأمومة العميقة لديها، وتصبح عرضة للاغتصاب والابتزاز والاستغلال.

أفادت دراسة أوروبية نشرت في (ستراسبورغ) بمناسبة اليوم العالمي للمرأة سنة ١٩٩٩م أن امرأة من كل خمس نساء تقع ضحية أعمال عنف مرتبطة بجنسها في دول مجلس اوروبا، وحسب الدراسة التي أجراها مجلس أوروبا فإن العنف يطول النساء من كل الأعمار، وكل الطبقات، وكل الثقافات. وقالت (ايفيت رودي) رئيسة اللجنة التابعة للجمعية البرلمانية لدول أوروبا: في وقت وصلنا فيه إلى فجر الالفية الثالثة ترجعنا أعمال العنف هذه إلى العصر الحجري.

وفي مؤتمر عقد في مدينة الإسكندرية بمصر بعنوان: واقع المرأة المصرية، نظمته الجمعية المصرية لتنظيم الأسرة بالتعاون مع وكالة التنمية الدولية، وتحدثت فيه الدكتورة عايدة سيف الله عن العنف ضد المرأة، فقالت: إن الإحصاءات تؤكد أن ثلثي النساء في مصر يتعرضن للضرب من الأزواج، وأن ٣٠٪ من العاملات يتعرضن لتحرش جنسي.

وكشفت اللجنة العدلية التابعة لمجلس الاتحاد الأوروبي في ستراسبورغ أنها بصدد إعداد مسودة قانون خاص بمكافحة تجارة واسترقاق النساء في بلدان الاتحاد الأوروبي، حيث يشير تقرير الاتحاد الأوروبي بالأرقام إلى أن حوالي نصف مليون امرأة تم استرقاقها وإجبارها على ممارسة الدعارة في بلدان أوروبا الغربية عام ١٩٩٥م، وكانت شرطة الإجرام الألمانية كشفت في تقريرها السنوي عام ١٩٩٥م حول تجارة العبيد واستعباد القاصرات في الدعارة عن ازدهار مذهل لهذا العمل الإجرامي الجديد، وقدرت الناطقة الرسمية باسم الشرطة عدد النساء العاملات قسرًا

في الدعارة في ولاية شمال الراين ويستغاليا وحدها بـ ١٠ آلاف امرأة تشكل النسوة القادمات من أوروبا الشرقية حوالي ٩٠٪ منهن.

وفي امريكا تشير الاحصاءات إلى أن هناك نحو ١,٢ مليون امرأة يقعن في براثن المغتصبين سنويًا في الولايات المتحدة، أما عدد وقائع الاغتصاب فترتفع إلى ٥,٩ مليون محاولة تمر بها النساء الامريكيات خلال العام الواحد، وتؤكد الأرقام الأمريكية أيضًا أن واحدة من كل ست نساء مررن بتجربة اغتصاب، كما ان نحو ستة ملايين امرأة امريكية يتعرضن لمحاولة التحرش الجنسي سنويًا.

ويترنح وضع المرأة في أغلب مجتمعاتنا الإسلامية بين واقعين سيئين: واقع الانجراف خلف النموذج الغربي للمرأة في بعده السلبي، حيث الابتذال والسفور، واستعراض المفاتن، واللهث وراء موضات الإثارة والاستهلاك، على حساب عفة المرأة وكرامتها، وعلى حساب دورها الإنساني الخطير.

وهناك واقع التخلف والجمود، الذي يشلّ حركة المرأة، ويحجّم دورها، ويصادر الكثير من حقوقها المشروعة.

ينقل الشيخ محمد الغزالي عن خطيب مشهور وقف يصيح بأسى وغضب قائلًا: رحم الله أيام كانت المرأة فيها لا تخرج إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى العالم، ومن بيت أبيها إلى الزوج، ومن بيت زوجها إلى القبر!

وعلى الصعيد العلمي يجري استغلال الكثير من الأحكام الشرعية من قبل بعض الرجال على حساب كرامة المرأة وحقوقها الإنسانية، فبناء على ثبوت ولاية الأب والجد على الفتاة البكر في مسألة زواجها، واشتراط إذنه وموافقته، فإن بعض الآباء يسيئون استخدام هذا الحق بشكل يؤدي إلى عضل زواج البنت، ومنعها من الخاطب الكفء الذي ترغب فيه، وذلك حرام من الناحية الشرعية، حيث تسقط ولاية الولي حينما يمارس الإعضال بحقها.

وبعض الأزواج يسيئون التعامل مع زوجاتهم استغلالًا لمبدأ قوامة الزوج، والحال أن قوامة الزوج على زوجته هي في إطار المعروف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

وبعضهم يستغل حق الطلاق الذي جعله الشارع بيده، لإذلال المرأة وابتزازها، وإبقائها معلقة، أو تخضع له، بإعطائه أي مبلغ يريده، مع أنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، ومع تخويل الإسلام لحاكم الشرع أن يستخدم صلاحيته في رفع الضرر وتطليق المرأة، ضمن حيثيات نصّ عليها الفقهاء.

أمام هذين الواقعين، التقيد للنموذج الغربي، وأسر حالة التخلف، تواجه المرأة امتحانًا صعبًا لوعيها وارادتها.

إن العودة إلى مفاهيم الإسلام الصحيحة، وتشريعاته الهادية، وتعاليمه القيمة، هو سبيل المرأة لتحرير نفسها، وتحصيل حقوقها الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

الوقاية من الخلافات الزوجية[1]

من وظائف الزواج الأساسية تحقيق الاطمئنان والاستقرار النفسي، حيث يجد كلّ من الزوجين في الآخر مبعث سرور وارتياح، وسند تعاطف ودعم، في مواجهة مشاكل الحياة، وتلبية احتياجاتها.

لذلك يعبر القرآن الكريم عن العلاقة الزوجية بأنها سكن وملجأ، يأوي إليه الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. ولا يحصل السكون والاطمئنان في الحياة الزوجية، إلا إذا كانت العلاقة بين الزوجين في إطار المودة والرحمة، والمودة تعني الحب والانشداد العاطفي، والرحمة تعني رفق كل منهما بالآخر، وشفقته عليه.

وذلك هو أرضية التوافق الزواجي، الذي لا تحقق الحياة الزوجية أغراضها إلا بوجوده. ويعني التوافق الزواجي: قدرة كل من الزوجين على التواؤم مع الآخر، ومع مطالب الزواج. ونقيض التوافق حالة التنافر التي تبدأ بحصول انطباعات سلبية من أحد الزوجين تجاه الآخر، أو من كليهما، وبصدور ممارسات وتصرفات من أحدهما مخالفة لرغبة الآخر، أو من كليهما، مما يلبد سماء الحياة الزوجية بغيوم الخلاف والنزاع، ويكدر صفوها بشوائب الأذى والانزعاج.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٣ ذو الحجة ١٤٢٣هـ، ٥ فبراير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٢٧.

إن الخلافات والمشاكل في الحياة الزوجية، إذا لم تعالج تسلب الطرفين راحتهما وسعادتهما، وتفقدهما أهم ميزات وخصائص الارتباط الزواجي، ويضغط الخلاف العائلي على الإنسان أكثر من أي خلاف آخر، لأنه يقع في أقرب الدوائر والحلقات الى ذاته.

كما تنعكس الخلافات العائلية على تربية الأولاد، فتتمزق نفوسهم، وتضيع حقوقهم، ويستقبلون الحياة من خلال أجواء سيئة ملوثة.بالطبع مهما كانت درجة التوافق الزواجي عالية، فإنها لا تمنع حصول بعض الخلافات والإشكالات فيما بين الزوجين، بخاصة في السنوات الأولى من الزواج، حيث تكون خبرة كل منهما بالآخر قليلة، والثقة في بدايتها، لكن أسلوب التعامل، مع المشاكل الحادثة، إذا كان واعيًا ناضجًا، فإنه يمنع تفاقمها وتطورها، بل يحولها إلى مصدر إغناء وحماية لتجربة التوافق بين الزوجين.

لا أحد من الزوجين يرغب في وجود مشاكل في حياته الزوجية، بل يتمنيان السعادة والانسجام، لكن هناك عوامل وأسباب، تنشأ وتنمو في ظلها الخلافات والمشاكل العائلية، منها أسباب ذاتية تعود إلى ضعف ثقافة العلاقات الزوجية، حيث يعتمد الأزواج الجدد في بناء حياتهما الزوجية، على الاندفاع العاطفي، ومحاكاة الحالة القائمة في المجتمع، وعلى الإدراك العفوي البسيط لطبيعة العلاقة الزوجية، دون أن يتوفروا على معرفة مناسبة لتشريعات الإسلام وتعاليمه، فيما يرتبط بالحقوق المتبادلة بين الزوجين، وبآداب وأخلاق التعامل العائلي. ودون اطلاع كاف على الابحاث والتوجيهات العلمية المتخصصة.

ومن الأسباب الذاتية انحراف المزاج وسوء الأخلاق، الذي قد يكون لدى أحدهما أو كليهما وبمقدار ذلك تحدث الخلافات والأزمات إن لم يكن الطرف الآخر قادرًا على الاستيعاب والتكيف.وهناك أسباب خارجية منها تدخلات بعض أهالي الزوجين ومنها الصعوبات الحياتية المعيشية فكثيرًا ما تنعكس الأزمات الاقتصادية للعائلة،

على التوافق الزواجي. الوعي الحياتي للزوجين، وتوفرهما على مستوى من الثقافة الزوجية، يشكل عامل وقاية وحصانة من نشوب الخلافات الضارة، أو اشتدادها وتفاقمها. ومهما كانت درجة التوافق الزواجي فإن حصول شيءٍ من الخلاف أمر محتمل ومتوقع، وخاصة عند مواجهة الأزمات والصعوبات، وهنا يأتي دور الوعي ونضج الشخصية، لمعالجة الموقف بتعقل وحكمة، بعيدًا عن التشنج والانفعال، الذي يحول المشكلة البسيطة الى قضية معقدة. والتعاليم الدينية التي تتحدث لكل من الزوجين حول حقوق الآخر وفضله ومكانته، وتحث على احترامه وخدمته، وتحمل ما قد يصدر منه من أخطاء أو تقصير إنما تريد تعزيز المناعة في نفسية الطرفين تجاه ما قد يواجههما من مشاكل في علاقتهما الزوجية.

فهناك نصوص دينية كثيرة تخاطب الزوج ليعرف قدر زوجته، وليحسن معاشرتها، وليتحمل مسؤوليته تجاهها. ففي آيات متعددة يؤكد القرآن الكريم على معاشرة الزوجة بالمعروف، يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ويقول تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وينهي الله تعالى الرجل عن توجيه اية مضايقة لزوجته أو إنزال أي ضرر بها، في حياتها المعيشية كالسكن، حتى ولو كانت مطلقة، ما دامت في فترة العدة الرجعية، يقول تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾.

وفي السنة الشريفة أحاديث وروايات كثيرة تخاطب الزوجة، لتذكرها بفضل الزوج، ودوره ومكانته في حياتها الزوجية، وأن عليها أن تحترم مقامه كربٍّ للأسرة ومتحمل لأعبائها ومسؤولياتها.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت آمرا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها».

إن إجراء عقد الزواج بالإيجاب من قبل الزوجة أو وكيلها والقبول من طرف الزوج

أو وكيله يعني توقيعهما على اتفاقية مشتركة ينبغي أن يسبقها معرفة واضحة من كليهما بما تلزمه هذه الاتفاقية من واجبات تجاه الآخر، وما تعطيه من حقوق على الآخر، لكن مثل هذه المعرفة الواضحة بالواجبات والحقوق الزوجية، قد لا تتوافر لكثير ممن يدخلون عشّ الزواج الذهبي.

ومن الملحوظ ان التصدي للأعمال الهامة يأتي بعد التأهيل والاستعداد المناسب لإنجازها، فقيادة الطائرة، أو حتى السيارة، ومباشرة العمل الطبي، بل حتى التمريض، وكذلك التعليم وما شابه من الأعمال والمهام، عادة ما يسبقها تأهيل وإعداد، لكن الحياة الزوجية على أهميتها يدخلها الشاب والفتاة دون التوفر على برنامج تأهيلي إرشادي، ودون الحصول على مستوى من الثقافة والمعرفة، لطبيعة هذه العلاقة الزوجية، ووظائفها وآدابها، ومواجهة ما قد يعترضها من عراقيل وصعوبات.

إن ذلك يجب أن تتكفله مناهج التعليم في المرحلة الثانوية والجامعية، ويجب أن يسبق عقد الزواج إرشاد توعوي ولو عن طريق التثقيف الذاتي، بأن يعطى كل من الزوجين بحوثًا تتضمن تعاليم الإسلام في تسيير الحياة الزوجية بوسائل مقروءة أو مسموعة. وقد بادرت بعض المؤسسات الاجتماعية لعقد دورات تثقيفية توعوية لمجاميع من المقبلين على الحياة الزوجية، وهو برنامج مفيد جدًا ينبغي أن يتحول إلى سنة حسنة، ليساعد أبناءنا وبناتنا على النجاح في حياتهم الزوجية، خاصة ونحن نعيش ظرفًا زادت فيه حدة المشاكل العائلية، وارتفعت وتيرة الطلاق، كما تتحدث الأرقام والإحصاءات.

نموذج من إنصاف الإسلام للمرأة[1]

فطرة الإنسان، وثقته بعدالة الشارع، وكمال التشريع الألهي، تدفعه للبحث عن الحل والعلاج، لأي معضلة تواجهه، أو محنة يتعرض لها في حياته الاجتماعية.

فإذا ما وجد فراغًا تشريعيًا في قضية من القضايا، عليه أن يعود إلى مصادر التشريع جادًا مجتهدًا، للحصول على الحكم المطلوب لملء ذلك الفراغ، ومعالجة ذلك المعضل.

يتحدث القرآن الكريم عن امرأة واجهت هذا التحدي في بدء تكوين المجتمع الإسلامي، حيث كانت لا تزال بعض الأعراف والتقاليد الجاهلية حاكمة سائدة؛ لأن التشريع كان يتكامل تدريجيًا.

رأت هذه المرأة ان الحكم السائد في القضية التي واجهتها يضر بمصلحتها، ويهدد مستقبلها ومستقبل عائلتها بالضياع والدمار، فلم تسكت على ذلك، ولم تقبل الخضوع لعرف وتقليد يلحق بها الظلم والأذى، فانطلقت نحو جهة التشريع، النبي محمد، تعلن معارضتها ورفضها القبول بالعرف السائد، وتطالبه بتشريع عادل يعالج مشكلتها وأمثالها بواقعية وإنصاف، وحينما اعتذر لها النبي ﷺ بأنه بعد لم ينزل عليه وحي حول هذا الـوضع، لم يقنعها ذلك، ودخلت معه في نقاش وجدال، تلح وتضغط

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١١ ذو الحجة ١٤٢٣هـ، ١٢ فبراير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٣٤.

لجهة الإسراع في وضع حلّ.

لم ينهرها النبي، ولم يغضب من جدالها وإصرارها، ولا استنكر عليها المطالبة والشكوى لحماية مصالحها، بل إن الله تعالى أشاد بموقفها وخلّده بأن جعله عنوانًا لسورة كاملة في القرآن الكريم، تبدأ بالحديث عن المشكلة التي طرحتها تلك المرأة، وتضع التشريع الإلهي لمعالجتها، وهي السورة رقم ٥٨ واسمها سورة (المجادلة) .

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

قال أكثر المفسرين: إن تلك المرأة صحابية من الأنصار اسمها «خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية» وزوجها أوس بن الصامت، وكان شيخًا كبيرًا، قد ساء خلقه، فدخل عليها يوما، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر امي، وكان الرجل في الجاهلية، إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه، ويسمى ظهارا، ولأنه أول حادث من نوعه في المجتمع الإسلامي، ولم يكن قد نزل حوله تشريع، فإن الحكم السابق يبقى ساري المفعول في عرف المجتمع.

ورغم أن الزوج قد تراجع عن كلامه، لكن التراجع لا يجدي وقد انتهت إلى الأبد العلاقة الزوجية بينه وبين زوجته.

فأتت الزوجة (خولة) رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن أوسًا تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني، ونثرت له بطني ـ جعلني عليه كأمه، وتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله، تنعشني بها وإياه فحدثني بها؟

قال ﷺ: «والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن».

وفي رواية: «ما أراك إلا قد حرمت عليه».

قالت: ما ذكر طلاقًا. وجادلت رسول الله ﷺ مرارًا. ثم قالت: اللهم إني أشكو اليك شدة وحدتي، وما يشقّ عليَّ من فراقه.

وفي رواية قالت: أشكو إلى الله تعالى فاقتي، وشدة حالي، وإن لي صبية صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا!!

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني اشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك. وما برحت حتى نزل القرآن فيها. فقال ﷺ: «يا خولة أبشري».

قالت: خيرًا؟ فقرأ ﷺ عليها أوائل آيات سورة المجادلة، التي تتضمن تشريعًا جديدًا، يتيح للزوج التراجع عن تحريم زوجته عليه بتشبيهه لها بأمه، شريطة أن يقوم بالتكفير عن ذلك، بعتق رقبة، فإن لم يستطع يصوم شهرين متتابعين، فإن لم يكن قادرًا يطعم ستين مسكينًا. وعند ذلك يستعيد علاقته الزوجية، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا...﴾.

أصبحت هذه المرأة الجريئة التي طالبت بتشريع يحمي حقوقها ومصالحها، ذات موقعية واحترام في وسط المسلمين، بعد أن خلّد موقفها الذكر الحكيم.

ينقل السيد محمود الآلوسي البغدادي في تفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن) أنه كان (عمر يكرمها إذا دخلت عليه، ويقول: قد سمع الله تعالى لها، وروى ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات أنها لقيته ـ رضي الله عنه ـ وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها، ودنا منها، وأصغى اليها، ووضع يده على منكبيها، حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجال قريش على هذه العجوز؟ قال: ويحك! أتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله تعالى شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف حتى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها. وفي رواية للبخاري في تاريخه: أنها قالت: قف يا عمر.

فوقف فأغلظت له القول. فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم! فقال: وما

يمنعني أن أستمع إليها وهي التي استمع الله تعالى لها فأنزل فيها ما أنزل).

وجميل ما قاله الشيخ ابن عاشور عند تفسيره لسورة المجادلة: (افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها، تنويهًا بالمرأة التي وجهت شكواها إلى الله تعالى، بانها لم تقصر في طلب العدل في حقها وحق بنيها. ولم ترض بعنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصر ولا روية، وتعليمًا لنساء الأمة الإسلامية ورجالها، واجب الذود عن مصالحها).

فرص العلم والمعرفة في مختلف مستوياتها، يجب أن تتاح للنساء كما للرجال على حدٍّ سواء، وإذا ما لاحظت المرأة نقصًا أو غبنًا لها في هذا المجال، فعليها ألا تسكت على ذلك، بل تطالب بحقها في كسب المعرفة والعلم. وهذا ما حدث في عهد رسول الله ﷺ، وأقر لهن بمشروعية طلبهن، واستجاب لرغبتهن.

جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.

دور الأم في البناء الثقافي للطفل[1]

في السنوات الأولى من عمر الإنسان تتشكل ملامح شخصيته، وتنغرس بذور صفاتها الأساسية، لذلك يسميها خبراء التربية بالسنوات التأسيسية. وفي تلك السنوات لا أحد أقرب إلى الطفل وأشدّ التصاقًا به من الأم، وبذلك تكون هي الجهة الأكثر تأثيرًا في تشكيل شخصيته وصناعتها.

ويتيح لها الارتباط العضوي والنفسي بينها وبين الطفل أكبر فرصة للتأثير، فهو في الأساس جزء منها، تكون في أحشائها، وتغذى من دمها، ثم ينشأ في حضنها، وينمو جسمه من لبنها، فمن الطبيعي أن تتعلق به، وأن ينشد إليها، هذه العلاقة الخاصة والانشداد الوثيق، هي التي تجعل بيد الأم أدوات الرسم والتشكيل لشخصية الولد.

ولا تستطيع أي جهة أخرى أن تأخذ نفس مكانة الأم وتأثيرها، حتى وإن مارست وظائف الأم العملية كالإرضاع والحضانة، لأنها لا تملك آليات التفاعل والارتباط النفسي والعاطفي الموجود لدى الأم، بل يمكن القول إن هناك برمجة غريزية أودعها الخالق جلّ وعلا للاستجابة والتفاعل بين الأم ووليدها، ليس في عالم الإنسان فقط، بل في عوالم سائر الحيوانات أيضًا، فحتى عند الثدييات الدنيا مثلًا يبدأ التعلق مباشرة بعد الولادة، فالصغير يتعرف على أمه ويبقى إلى جانبها دون غيرها، والأم بدورها ترعى وتغذي وتحمي وليدها دون غيره.لقد حاولت بعض النظريات في مجالات

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٨ ذو الحجة ١٤٢٣هـ، ١٩ فبراير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٤١.

التربية وعلم النفس، أن تقصر تفسير ظاهرة التعلق والانشداد، بين الطفل والأم، على أساس تلبية الأم للحاجات البيولوجية للطفل، حيث توفر له متطلباته الأساسية، لكن هذ النظريات لم تصمد أمام النقد العلمي، والملاحظة التجريبية، ويرى (بولبي) ومجموعة من العلماء المتخصصين: أن هذه النظريات ليست مقنعة في تفسيرها لظاهرة التعلق عند الإنسان، ويستند (بولبي) إلى نتائج البحوث والدراسات التي تبين أن التعلق يمكن أن ينمو ويتطور تجاه أفراد غير معنيين بالعناية الجسدية للطفل وتطور العلاقة بين الأم والطفل يتجاوز تلبية الحاجات البيولوجية، ويعتمد إلى حدٍّ كبير على طبيعة التفاعل بين الجانبين، فإرضاء حاجات الطفل الأساسية عملية ضرورية، ولكنها غير كافية لنمو التعلق بين الأم والطفل، وغالبًا ما يكون إرضاء هذه الحاجات فرصة للتفاعل المتبادل بكل أشكاله، فعندما ترضع الأم طفلها، تشعره بحرارة جسدها، وبحنو لمساتها، وبرقة عباراتها ومناغاتها ويظهر الطفل بدوره علامات الرضا والارتياح، مما يشجعها على الاستمرار في التفاعل معه.

أصبح من الواضح علميًا كما هو ملحوظ وجدانيًا، مدى حاجة الطفل إلى الحنان والعطف، الذي تفيضه عليه الأم بشكل خاص، والذي لا يعوض عنه أي بديل، وإن توفير الاحتياجات الجسدية للطفل، لا يمكن أن يغنيه عن حب أمه وحنانها، ذلك الحب والحنان المميز الذي لا يصطنع ولا يستبدل.

حتى إن أبحاثًا علمية حديثة تشير إلى خطأ دارج من قبل المستشفيات التي يتم فيها التوليد بإشراف طبي، حيث يفصل الصغير عن الأم مباشرة بعد الولادة، لأسباب العناية الصحية، لكن نتائج هذه الأبحاث تخلص إلى القول: بوجوب وضع الوليد على تماس حسي مع الأم بعد الولادة مباشرة، وذلك لأهمية هذه اللحظات في العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم، وأهمية توفير الفرصة للأم لرؤية الطفل وملامسته، بعد الولادة مباشرة، فهي في أشدّ الحاجة لتحسه وتلمسه وتشمه، لذا يجب المزيد من الحذر قبل التفكير في فصل الطفل عن الأم بعد الولادة مباشرة.

إن الطفل يحتاج إلى الغذاء، ويمكن توفير حاجته الغذائية من أي مصدر، لكن أي

تغذية للطفل لا يمكن أن تكون بمستوى لبن الأم، لا من حيث القيمة الغذائية فقط، بل لما يوفره من فرصة للإشباع العاطفي، ولإفاضة الحنان والحب على المولود، إضافة إلى ما تشعر به الأم من سعادة وسرور.

فحليب الأم تتناسب مركباته وحاجات الطفل خاصة في الأشهر الأولى، فهو قد تم تكوينه متوازنًا فيما يحويه من معادن وأملاح ليفي بحاجات الطفل، يومًا بيوم، ويعتبر رابطة فسيولوجية محسوسة بين الطفل والأم، وامتدادًا لحبل الولادة، وفوق ذلك كله، فإن قطرات حليب الأم التي يجتذبها الطفل، تصحبها دفقات عظيمة من العطف الحنان، تغذي نفسه إلى جانب تغذيته الجسدية. ونفس الشيء يقال عن الحضانة، فقد يتوافر من يقوم بشؤون الطفل غير الأم، لكن لا أحد يوفر له ما تغدقه عليه الأم من حب وشفقة وعطف وحنان.

لذلك قرر الإسلام أولوية الأم بإرضاع طفلها وأحقيتها بحضانته في السنوات الأولى من عمره، على خلاف بين المذاهب والفقهاء في تحديد تلك السنوات.

إن انفصال الطفل عن الأم، وحرمانه من فيض حبها وعطفها يحدث آثارًا سلبية عميقة في نفسه، تنعكس على تشكيل شخصيته، ومستقبل سلوكه، وسيرته في الحياة. وكان العرب حينما تعجبهم متانة شخصية إنسان وقوتها، يصفونه بأنه (شبعان من حليب أمه ولم يرضع حليب غيل قط) للتعبير عن ارتواء نفسيته، عطفًا وحنانًا في صغره، مما جعله قوي الشخصية والجنان فيما بعد.

وتناقش دراسات تربوية واجتماعية حديثة، تأثير ابتعاد الام العاملة عن وليدها عند ذهابها للعمل، وخاصة قبل إكمال السنة الأولى، وأن ذلك يعود بآثار سلبية على الأم والطفل، ومن الأفضل أن تمدد إجازة الأمومة إلى سنة كاملة.

وفي تقريره إلى منظمة الصحة العالمية قدم (بولبي) براهين عدة، تبين أن اضطراب الشخصية والعصاب، يكونان غالبًا نتيجة الحرمان من عناية الأم، أو نتيجة لعلاقة متقطعة زمنيًا، وغير دائمة بين الطفل والأم، وأن انقطاع العلاقة بينهما يعود بالنتائج السلبية على الطفل.

إن فيض حنان الأم يمنح نفس الطفل الأمن والاستقرار، ويغذي مشاعره بالطمأنينة والاستقامة، ويصلب شخصيته تجاه ما يستقبله في الحياة من مشاكل وأزمات.

يبدو العالم غريبًا على الطفل حينما يتفتق إحساسه، ويبدأ وعيه، وتكون الأم هي أقرب شيء إليه، ينظر إلى ما يحيط به، ويتعامل معه من خلالها، فمنها يتعلم اللغة والكلام، وبواسطتها يتفهم ما يدور حوله.

وبإمكان الأم الواعية أن تقوم بدور كبير في تنمية معارف طفلها، وزرع حب المعرفة في نفسه، وتربيته على التفكير، وتقوية مداركه العلمية، عبر التحادث معه، واثارة اهتماماته، وتشجيعه على الاستفهام والبحث.

إن حالة الفضول والسؤال عن كل شيء، حالة طبيعية، تحصل عند الطفل مبكرًا، وفي العوائل المتخلفة، قد تقمع هذه الحالة الإيجابية عند الطفل، ويستثقل الوالدان كثرة تساؤلاته، وقد ينظر إليها باستخفاف، أو يجاب عنها بشكل خاطئ.

بينما يفترض أن يتيح فضول التساؤل عند الطفل فرصة مناسبة لتنمية معارفه، وتشجيع قدراته الذهنية.

والأم صاحبة الدور الأكبر في هذا المجال، ولا يصحّ أبدًا أن تترك عقل ونفس طفلها ساحة مفتوحة أمام برامج التليفزيون، لتتشكل ثقافته ومعارفه وفق توجيهات قد لا تكون منسجمة مع نظام القيم الديني والاجتماعي.

كما لا ينبغي الاستهانة بقدرات الطفل على الفهم والاستيعاب، إن حقائق كثيرة، ومفاهيم مختلفة، يمكن تقديمها للطفل، عبر أساليب التوضيح والتبيين، وبواسطة التكرار والإعادة.

وكثيرًا ما يكون نبوغ بعض الأطفال وتفوقهم الدراسي، ناتجين عن التشجيع والاهتمام من قبل العائلة بالنمو المعرفي والبناء الثقافي.

الأم وصناعة الشخصية[1]

يكتسب الطفل لغة الكلام من المحيط الذي يعيش فيه، وكذلك يأخذ سلوكه وأسلوب تعامله من خلال ملاحظته وتقليده للقريبين منه، أنه يأتي للحياة صفحة بيضاء فارغة، ثم تبدأ رسوم العادات والتقاليد التي ينشأ في أجوائها، تنعكس وترتسم على صفحة نفسه وسلوكه. ولأن الطفل يتأثر بالأقرب إليه، والأكثر التصاقًا به، فإن الأم هي المؤثر الأكبر في سلوكه في السنوات التأسيسية من عمره، تلك السنوات التي تتحكم في بناء شخصيته المستقبلية. فالطفل شديد الملاحظة والتأمل في تصرفات أمه وحركاتها، ومن ثم يندفع لمحاكاتها وتقليدها، وتبقى في أعماق نفسه، وخبايا مشاعره، الكثير من الانطباعات عن مشاهداته ومعايشاته لسلوك المحيطين به فترة صغره، وخاصة الأم.

هذه الانطباعات قد تصبح له مصدر توجيه وإلهام فيما يواجهه من مواقف وظروف. وإذا كان بعض العظماء والمفكرين والأدباء، قد تحدثوا عن بعض ما علق بذاكرتهم من فترة طفولتهم، وعن تأثيرات تلك الفترة في تشكيل شخصياتهم، فإنما هم يتحدثون عن ظاهرة عامة، لكل أبناء البشر، وميزة هؤلاء تعبيرهم عن هذه الظاهرة.

انطلاقًا من هذه الحقيقة فإن الأم الواعية، ذات السلوك القويم، والتوجيه التربوي،

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٥ ذو الحجة ١٤٢٣هـ، ٢٦ فبراير ٢٠٠٣م، العدد ١٠٨٤٨.

تصنع شخصيات أبنائها في مستوى رفيع، وبكفاءة عالية.

إن دراسة حياة العظماء في نشأتهم، والتأمل في ظروف تربيتهم العائلية، يكشف في غالب الأحيان عن دور الأمهات في صناعة شخصيات هؤلاء العظماء.

لقد تحدث القرآن الكريم عن نبي الله موسى عليه السلام وظروف ولادته ونشأته، في آيات كثيرة، نقرأ فيها حضورًا فاعلًا لأمه، دون إشارة أو ذكر لأبيه عمران، مع تأكيد المصادر التاريخية على وجوده عند ولادة موسى، وأن عمره آنذاك كان سبعين سنة، كما في تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير.

أما نبي الله عيسى بن مريم، فلم يكن له أب، وانفردت أمه برعايته وتربيته، وجاء ذكرهم بالتعظيم والتقديس في القرآن الكريم، بل خصصت سورة باسمها: سورة مريم.

وكتب أحد الباحثين: «تستطيع الأم الفاضلة أن تؤدي مهمة مئة أستاذ من أساتذة المدارس، هذا ما قاله الشاعر الإنجليزي جورج هربرت، وهذا ما أثبته التاريخ، فجورج واشنطن أول رئيس للجمهورية في الولايات المتحدة، كان قد فقد أباه وهو في الحادية عشرة من عمره، وما كان ليشب على ما شب عليه من رصانة الخلق، وقوة الشخصية، لو لم تكن أمه على جانب كبير من الحكمة والاقتدار، وقد تولت تربيته منفردة بعد وفاة أبيه، ويصدق ذلك كثيرًا أو قليلًا على عدد من أعلام الأدب والعلم والشعر عبر التاريخ. نذكر منهم على سبيل المثال: جوته، وجرين، وشيللر، وبيكون، وارسكني، فلولا تربية أمهاتهم لهم لما احتل هؤلاء مكانتهم بين أعلام المبدعين».

إن كل أم ترغب الخير لولدها، وتتمنى أن يكون متقدمًا متفوقًا، عليها أن تعلم أن ذلك رهن بحسن تربيتها، وإتقان رعايتها واهتمامها بتوجيهه، وتهذيب سلوكه.

لا يمكن إنكار دور الأب، ولا تجاهل تأثيره في تربية الأبناء، والحديث عن دور الأم إنما هو باعتبارها الأكثر التصاقًا بالولد، خاصة في الفترة الأولى من عمره، التي يطلق عليها علماء التربية والنفس، أنها السنوات التأسيسية لتشكيل شخصية الإنسان.

لذلك نجد النصوص الدينية تؤكد على مكانة الأم، وحقها الكبير على الإنسان فأتعابها وتضحياتها تجاه الولد، أثناء الحمل والولادة والحضانة، لا تقاس بأي جهد آخر، حتى جهد الأب.

ورد عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من. قال: أباك[(١)].

وأوضح أن العلاقة بين الطفل والأم خاصة في السنوات الأولى، هي أوثق وأقوى من علاقته مع الأب، بسبب طبيعة دور الأم، لذلك تكون هي الأكثر تأثيرًا عليه وقدرة على صناعة شخصيته.

تقاس أهمية أية وظيفة بعدة مقاييس، من أبرزها ما يلي:

١. أهمية الإنجاز الذي تنتجه الوظيفة.

٢. مدى الجهد المبذول في القيام بها، والكفاءة المؤهلة لذلك.

٣. نسبة توفير البدائل والخيارات لأدائها.

فكلما كان الإنجاز أهم، والجهد المبذول أكبر، والتأهيل المطلوب أرفع، والبدائل أقل، كانت الوظيفة أرقى وأعلى.

على أساس هذه المقاييس فإنه يمكن اعتبار الأمومة أرقى وظيفة في المجتمع البشري، فهي ترتبط بإنتاج الإنسان نفسه، وصنع شخصيته، وذلك إنجاز لا يدانيه أي إنجاز.

أما الجهد الذي تتطلبه مهمة الأمومة من حمل وولادة ورضاعة وحضانة، ففيه درجة قصوى من الخطورة والعناء والمشقة، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، وفي آية أخرى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾.

---

(١) صحيح البخاري. ج ٧، ص٦٩.

كما أن مؤهلات دور الأمومة صفات نفسية فطرية لا يمكن توفيرها بأي ثمن، إنها الحب الحقيقي، والحنان الصادق، والتحمل للعناء بكل رضا وسرور.

وعلى صعيد توفير البدائل والخيارات فإن من الواضح وجدانًا وتجربة أن لا أحد يملأ مكان الأم، ولا يستطيع تقمص دورها المتميز.

فالأمومة هي الوظيفة الأرقى، والأم التي تحسن أداء هذه الوظيفة، لا يمكن تثمين دورها بأي ثمن، ولا تحديد أجرها بأي مقابل، وكل إنسان مطوّق بفضلها، ومهما عمل وقدم لأمه فلن يستطيع مكافأتها.

ومن المؤسف جدًا ما تعيشه أغلب المجتمعات في هذا العصر، من إعلاء شأن الاهتمامات المادية والشهوانية، على حساب النوازع الإنسانية النبيلة، حيث تروج بعض الأفكار والتصورات التي تقلل من قيمة دور الأمومة وتستخف به، في مقابل الإشادة بالأعمال الوظيفية الأخرى، التي تدفع المرأة للقيام بها، بعض النساء أصبحن يشعرن بالهامشية والتخلف والخجل، إذا كان دورهن متركزًا على القيام بمهمة الأمومة، بينما الوظيفة مدعاة للفخر والاعتزاز.

إنه لا مانع من عمل المرأة في أي مجال من مجالات الحياة لكن لا ينبغي أن يكون على حساب دور الأمومة، ولا يصح أبدًا أن يستهان بقيمة هذا الدور.

وكما تطالب المنظمات الإنسانية والتربوية، فإنه ينبغي سنّ القوانين والتشريعات، التي تمكن المرأة العامة من أداء وظيفة الأمومة المقدمة بالشكل المناسب.

إن الضعف والتقصير في أداء مهام الأمومة، ينعكس سلبًا على شخصيات ونفسيات الجيل القادم، فلا بدّ من تعبئة وتوعية واسعة، تعيد هذه الوظيفة إلى مركز الصدارة في اهتمام امرأة اليوم.

إلى جانب إغداق الحنان والعطف، وتقديم الرعاية اللازمة للطفل، يجب أن تهتم الأم بغرس بذور الاستقامة والصلاح في نفسية وليدها، وأن تسعى لإعداده للرقي

في مدارج الكمال، إنها بسلوكها وسيرتها تستطيع أن تكون نموذجًا يحرص أبناؤها على الاحتذاء به، ومحاكاته، فاهتمامها بالمعرفة، والتزامها بالخلق القويم، وأداؤها للواجبات الدينية، يوجد في نفوس أبنائها نفس هذه التوجهات، ويدفعهم للأخذ بها.

كما أن محادثة الأم مع الأبناء، وتقديمها النصائح والإرشادات، وشرح حقائق الحياة ومعادلاتها لهم بلغة واضحة رقيقة، يسهم كثيرًا في بناء شخصياتهم الواعية الناضجة.

احتفالات الأعراس[1]

يعبر أهالي العروسين وأصدقاؤهما عن البهجة والسرور ليلة العرس، عبر مراسيم احتفائية يتعارف عليها كل مجتمع من المجتمعات، كما يجتهد العروسان في إظهار جمالهما وأناقتهما أمام المحتفين، خاصة بالنسبة للمرأة العروس. يقول أحد الباحثين الاجتماعيين (محمد رفعت: ألف باء الحياة الزوجية):

يوم الزفاف هو اليوم الوحيد الذي تضمن فيه العروس ان تتركز جميع الأنظار عليها فقط، لذلك تحرص كل الحرص على أن تكون في هذا اليوم أجمل من أي وقت آخر في حياتها، سبب واحد فقط يجعل كل امرأة تشعر بأن يوم زفافها هو أجمل وأسعد يوم في حياتها، ويجعلها تعيش حياتها كلها على ذكرى هذا اليوم، وكأنها لم ترَ السعادة الحقيقية قبله أو بعده، هذا السبب ليس لانها حققت في هذا اليوم الحلم الجميل الذي كانت تحلم به طوال السنوات السابقة، أو لأنها اصبحت سيدة بيت مستقلة، بل لأنها كانت أجمل من أي يوم آخر في حياتها قبل الزواج وبعده، ولأنها كانت ـ وربما لأول مرة ـ أجمل واحدة بين جميع الموجودات، واكثر واحدة تركزت عليها الأنظار، فالسعادة كلها في نظر المرأة لا تتعدى هذه الإحساسات.

وإذا كان من الطبيعي وجود مراسيم احتفاء بليلة العرس، وتعاليم الشرع تشجع

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٦ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ١٦ يوليو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٨٨.

على ذلك، فإن ما تعانيه بعض مجتمعاتنا اليوم هو المبالغة في أنماط هذه المراسيم والأعراف، حتى تحولت إلى عبء يرهق كاهل العروسين وعائلتيهما، إنها لم تعد مراسيم احتفاء رمزي تفيض فيها المشاعر والأحاسيس، وتزخر بقيم المودة والتضامن الاجتماعي بل أصبحت ذات متطلبات شاقة مكلفة، من الناحية الاقتصادية والعملية.

فتكاليف الزواج لها ثلاثة مصاريف:

الأول: المهر وملحقاته.

الثاني: تأثيث المنزل.

الثالث: نفقات مراسيم الاحتفاء ليلة العرس.

وغالبًا ما يكون هذا المصرف الثالث أكثر استهلاكها من المصرفين الآخرين، مع فارق ما ينفق في المهر أو التأثيث المنزلي، سيبقى للزوجين، بينما لا يستفيدان مما ينفق على مراسيم الزواج إلا المظهر الاحتفائي، والسمعة التي يتفاخر بها.

وكأمثلة ونماذج لبعض نفقات هذه المراسيم في مجتمعنا نذكر ما يلي:

هناك بطاقات الدعوة، وكلفة البطاقة الواحدة من المستوى العادي خمسة ريالات، وترتفع قيمتها في بعض أشكالها الفخمة لتصل إلى ما يزيد على العشرين ريالًا!!

وصالات الأفراح ذات المستوى العادي يصل إيجارها إلى عشرين الف ريال أما في الفنادق الفخمة فتصل إلى ستين ألف ريال أو اكثر تبعًا لعدد المدعوين!!

وايجار (الكوشة) وهي المنصة التي تجلس عليها العروس أثناء الحفل في المستوى العادي يصل إلى ثلاثة آلاف ريال، وترتفع في مستوياتها المتقدمة إلى عشرة آلاف ريال!!

ومكافأة المرأة المنشدة التي تقرأ المدائح والأناشيد في الاحتفال النسائي تبلغ في المتوسط أربعة آلاف ريال، وقد تصل إلى عشرة آلاف ريال!! وتصوير العروس

فوتوغرافيًا في الاستديو قبل الحفل قيمته ألف وخمسمائة ريال!! وتصوير الحفل بالفيديو كلفته حوالي ألفين وخمسمائة ريال!!

هذا عدا قيمة أو إيجار فستان العرس، وأسعار المرطبات، وقيمة (كيكة) العروس التي تبلغ ألفي ريال في صالات الأفراح!!

يقول الدكتوران أبو بكر أحمد باقادر ويحيى تركي الخزرج، أستاذا علم الاجتماع بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة، في دراستهما الميدانية الاستطلاعية عن تكاليف الزواج في التسعينيات (مدينة جدة نموذج):

تحول كل ما يتعلق بالزفاف، وتأسيس الحياة الزوجية من كونه نشاطًا يهم المجتمع المحلي والجوار، ومن ثم ما يستلزم ذلك من تكافل وتفاهم، ليصبح، نشاطًا اقتصاديًا ذا نزعة تجارية بحتة، ولد دون مبالغة ما يمكن أن نسميه بصناعة الزفاف، إن حجم المتاجر وانتشارها التي تعمل في مستلزمات وكماليات حفلات الزفاف كبير، ولقد ولدت هذه الصناعة دوافع ومبررات الاستهلاك البذخي من ناحية، وفرضت أوجه صرف لم تكن في الحسبان في الماضي القريب.. وهذا التحول أدى إلى تأخير الشباب موضوع الزواج، حتى تسنى لهم الصرف على ليلة العمر، وما يتبعها من تبعات، بل وتفكير بعضهم في الاستدانة من البنوك أو الحصول على مساعدات من مؤسسات خيرية.

مستحبات الزفاف

ذكر الفقهاء بعض المستحبات لدخول الزوج على زوجته ليلة العرس، منها:

الوضوء: بأن يتوضأ كل منهما وصلاة ركعتين قربة الى الله تعالى. وأن يدعو كل منهما بعد الصلاة بحمد الله تعالى والصلاة على نبيه وآله، وطلب الألفة والتوفيق في حياتهما الزوجية، ومن الادعية المأثورة هنا: (اللهم ارزقني ألفتها وودها ورضاها بي، وأرضني بها، وأحسن بيننا بأحسن اجتماع، وأنفس ائتلاف فإنك تحب الحلال وتكره الحرام).

وأن يضع الزوج يده على رأس زوجته مستقبل القبلة ويدعو الله تعالى طالبًا بركته وتوفيقه، ويدعو بالأدعية المأثورة ومنها: (اللهم على كتابك تزوجتها، وفي أمانتك اخذتها، وبكلماتك استحللت فرجها، فإن قضيت في رحمها شيئًا فاجعله مسلمًا سويًا، ولا تجعله شرك الشيطان).

وروي أن أبي سعيد مولى أبي أسيد أن عبدالله بن مسعود وأبا ذر وحذيفة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: «إذا دخلت على أهلك فصل ركعتين، ثم خذ رأس أهلك، فقل: اللهم بارك لي في أهلي، وبارك لأهلي في، وارزقهم مني، وارزقني منهم».

وروى أبو داوود عن النبي ﷺ الدعاء التالي: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما جبلت عليه، واعوذ بك من شرها ومن شر ما جبلت عليه».

وواضح أن هذه المستحبات تلفت نظر الزوجين وهما في اللحظات الأولى لبناء حياتهما الزوجية المشتركة، إلى البعد الديني في علاقتهما، وإلى الارتباط بالله تعالى والتوجه اليه، مما يؤكد في نفسيهما الثقة والاطمئنان، واستحضار القيم الخيرة، ويجعلهما مشمولين بتوفيق الله تعالى وبركته للنجاح والسعادة.

الزواج الجماعي

قبل عقد من الزمن ظهرت في مجتمعنا عادة طيبة، وسنة حسنة، وهي انبثاق لجنة أهلية في كل منطقة، تتصدى لتنسيق حفل موحد للمتزوجين في تلك المنطقة تحت عنوان مهرجان الزواج الجماعي.

وتتحدد ليلة معينة، وتقوم لجنة المهرجان بنشر الإعلانات وتوزيع الدعوات وتهيء مكانًا واسعًا، وتعد وليمة الإطعام، ويجتمع العرسان كلهم ضمن حفل موحد، يحيط بهم أهاليهم وجميع أبناء بلدتهم، ويكون هناك برنامج مفيد للاحتفال، تلقى فيه الكلمات والأناشيد، وبعض العروض المسرحية ثم يزف العرسان وتعيش البلدة كلها

فرحا وبهجة ونشاطًا عامًا.

وتؤدي هذه الظاهرة الرائعة أغراضًا عديدة، حيث تنخفض فيها الكلفة المادية، فيدفع كل عروس بين ستة إلى ثمانية آلاف ريال، بينما ترتفع الكلفة لو تزوج بمفرده إلى عشرين ألف ريال على الأقل.

كما أنها توفر الجهد على المتزوج وأهله، فيحضرون الحفل كضيوف، لا يتحملون اي مسؤولية عملية، لوجود لجان عاملة ضمن المهرجان فمثلًا مهرجان الزواج الجماعي في صفوى، يعمل ضمن لجانه المختلفة ٨٥٠ شخصًا متطوعين من أبناء المجتمع.

كذلك فإنه يشكل مظهرًا رائعًا لتعاون المجتمع وتماسكه، واطارًا مفيدًا لتنظيم الطاقات والجهود.

فينبغي تشجيع ظاهرة مهرجانات الزواج الجماعي، وعدم الالتفات إلى الأفكار السلبية التي تعتبره خاصًا بذوي الدخل المحدود، وأنه لا يليق بالمتمكنين ماليًا أن يتزوجوا ضمن المهرجان، أو أن المتزوج وأهله لا يشعرون بخصوصيتهم حينما يتم الزواج بشكل جماعي إنها أفكار سلبية تحرم المجتمع من فوائد عظيمة كبيرة، وتكرس الحالة الطبقية، والأعراف المتكلفة.

ليلة العرس والزفاف[1]

ليلة العُرس هي البداية الفعلية لتأسيس الحياة الزوجية، فإجراء عقد الزواج يعتبر إرساءً لمشروعية العلاقة بين الطرفين، وأنهما أصبحا زوجين بحكم الشرع، لكن مع وقف التنفيذ وتأجيله عرفًا، وبالزِّفاف يدخل اتفاق الزوجية حيز التنفيذ والتجسيد العملي، حيث يبدأ الزوجان حياتهما الواحدة المشتركة، بالعيش في سكن واحد، والتعاون في برنامج حياتي مشترك. وليلة العُرس تشكل منعطفًا هامًا ونقطة تحوّل في حياة الزوجين، ففيها يغادران مرحلة العزوبة وحالة الفردية، والتبعية لعائلتيهما، ليكوّنا حياة زوجية يرتبط فيها مصير كل منهما بالآخر، وليصبحا كيانًا اجتماعيًا مستقلًا، ونواة لأسرة جديدة نامية.

والزِّفاف يعني الإعلان عن قيام هذا الصرح الاجتماعي الجديد. والزِّفاف لغةً: إهداء الزوجة إلى زوجها. من الزفيف وهو سرعة المشي مع تقارب خطو وسكون. وفي القرآن الكريم: ﴿فَأَقبَلُوا إِلَيهِ يَزِفُّونَ﴾ أي يسرعون، وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها. وما جاء في الحديث تزويج فاطمة: أنه ﷺ صنع طعامًا وقال لبلال: أدخل على الناس زُفَّة زُفَّة، أي فوجًا بعد فوج، وطائفة بعد طائفة، سميت بذلك لزفيفها في مشيها، أي إسراعها[2].

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٣ يوليو ٢٠٠٣م، العدد ١٠٩٩٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٣٢.

وقد تعارفت المجتمعات البشرية على الاحتفاء بهذه المناسبة، بحيث يُزَّف العروس إلى عروسه «والعَرُوس: نعت يستوي فيه الرجل والمرأة يقال للرجل عروس كما يقال للمرأة»[١] ضمن أجواء فرح وابتهاج، تختلف مظاهرها من مجتمع إلى آخر. وفي تعاليم الإسلام تشجيع للاحتفاء بمناسبة الزواج. ولما تعنيه هذه المناسبة في حياة الزوجين، ونظرًا لما يرافقها من مظاهر وبرامج احتفائية في مجتمع العروسين، فإن لها وقعًا خاصًا في نفسيهما، وصدى يبقى خالدًا في ذاكرتهما، وكذلك من حولهما. فهي ليلة العمر، التي ينتظرها بلهفة وشوق كل شاب وفتاة.

وليمة العُرس

روى أحمد من حديث بريدة قال: «لما خطب علي فاطمة قال رسول الله ﷺ: إنه لا بد للعروس من وليمة»[٢]، وقال ﷺ لعبد الرحمن بن عوف حين تزوج: «أولم ولو بشاة»[٣]، وأخرج الطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت: «لقد أولم علي بفاطمة فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي بشطر شعير»[٤].

فالوليمة عند الزواج سنة مستحبة عند جمهور العلماء، وهو مشهور مذهبي المالكية والحنابلة، ورأي بعض الشافعية، وفي قول لمالك والمنصوص في الأم للشافعي ورأي الظاهرية: أن الوليمة واجبة، لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «أولم ولو بشاة» وظاهر الأمر الوجوب[٥].

وإجابة الدعوة إلى الوليمة واجبة حيث لا عذر من نحو برد وحر وشغل، لحديث:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٧٣٣.
(٢) فتح الباري، ج٩، ص٢٨٧.
(٣) صحيح البخاري، حديث ٥١٦٧.
(٤) فتح الباري، ج٩، ص٢٩٩.
(٥) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧، ص١٢٥.

«ومن دُعي إلى وليمة ولم يجب فقد عصى أبا القاسم»، وحديث: «إذا دعي أحدكم إلى وليمة عرس فليأتها». والإجابة واجبة حتى على الصائم، لكن لا يلزمه الأكل[(١)].

وما ينبغي التنبيه إليه: هو ما يحصل في أكثر ولائم العُرس من مظاهر إسراف وتبذير، للتفاخر بذلك، ولأن أسلوب تقديم طعام الولائم وتناوله في مجتمعاتنا، لا يزال بالطريقة القديمة، حيث تقدم صحون الطعام كبيرة مملوءة لعدد قليل من الأشخاص، فيأكلون منها مقدارًا بسيطًا ثم يُرمى الباقي.

وسمعت من عدة مصادر مطلعة في مجتمعنا أنه غالبًا ما تصل نسبة الكمية الزائدة من ولائم الزواج إلى الثلث وقد تبلغ النصف، ويكون مصيرها الإلقاء في البحر أو القمامة!! إن لم يكن هذا مصداقًا للتبذير والإسراف، فما التبذير والإسراف إذًا؟ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ ويقول تعالى: ﴿وكُلُوا وَاشرَبُوا وَلاَ تُسرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسرِفِينَ﴾.

مراعاة الحجاب والعفة

في غمرة أفراح احتفالات الزواج، عادة ما يحصل شيء من التهاون والتساهل في الالتزام بالحدود الشرعية، فالنساء المشاركات من أهالي العروسين ومحيطهما، عادة ما يكنَّ في أبهى حلل الزينة والجمال، كما أن الرجال والشباب المشاركين غالبًا ما يهتمون بأناقتهم ومظاهرهم في حفلات الزواج. وهنا لا بد من رعاية الحجاب من قبل النساء، وعدم إظهار أي نوع من أنواع الإثارة واستعراض المفاتن، وكذلك بالنسبة للرجال عليهم غض البصر، والابتعاد عن أجواء الإثارة، وينبغي اجتناب الاختلاط، والحذر من بعض التجمعات الشبابية غير المنضبطة التي تستغل مثل هذه المناسبات، وقد نشأت أخيرًا بعض العادات المخالفة لأجواء الحشمة والعفاف، مثل أن تزّف العروس إلى صالة الاحتفال ويدخل معها بعض إخوتها وأقربائها وسط النساء المشاركات، بمبرر إظهار معزة العروس عند أهلها، لكن ذلك ليس صحيحًا

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧، ص١٢٦.

من الناحية الشرعية، إلا أن يتقيد كل النساء الحاضرات بحجابهن وحشمتهن، وهو أمر صعب في الاجتماعات النسائية لمثل هذه المناسبات.

ومن الظواهر المخالفة للشرع استخدام مكبرات الصوت في حفلات النساء بحيث تصل أصواتهن إلى الخارج، ويسمع غناؤهن وأناشيدهن الرجال الأجانب، ولا مانع من استخدام مكبرات الصوت ولكن في حدود المكان الخاص بالنساء. وهناك ظاهرة تصوير الحفلات النسائية فوتوغرافيًا أو بالفيديو، ولا مانع من ذلك ولكن الإشكال في تسرّب الصور والأشرطة، ورؤيتها من قبل الرجال الأجانب. إن عدم مراعاة الأحكام الشرعية على هذا الصعيد ليس فقط موجبًا للإثم وارتكاب الحرام، وإنما قد يكون سببًا لمشاكل اجتماعية وأخلاقية.

إرهاق العروسين

المفروض تهيئة الأجواء المناسبة لتوفير أكبر قدر من الراحة والارتياح النفسي والجسمي للعروسين، حتى يلتقيا ليلة زفافهما بكامل نشاطهما النفسي والجسمي، لكن الملاحظ إثقال كاهلهما بالعديد من المراسم والعادات، التي تستغرق منهما خاصة من العروس الفتاة وقتًا طويلًا، وجهدًا كبيرًا، حيث تقضي ساعات انتظار في صالون التجميل، تصل في بعض الأحيان من ثلاث إلى خمس ساعات، ثم تصرف وقتًا آخر في استوديوهات التصوير، من ساعة إلى ساعتين، ثم تمكث عدة ساعات ضمن برنامج الاحتفال، وهكذا تزف إلى زوجها بعد حوالي ست ساعات، في أقل التقادير، وقد تبلغ عشر ساعات، وتبذل فيها الكثير من الجهد النفسي، والعناء الجسمي، الذي تستلزمه حالة الانتظار ومقابلة الناس المهنئين، والترحيب بهم.

وهكذا الحال بالنسبة للزوج لكن بنسبة أقل، إن إرهاق العروسين بمثل هذه العادات المكلفة، له نتائج سلبية في كثير من الأحيان. وقد لاحظت الجهات الطبية أن البعض منهم يصاب بأزمة ربوية، أو ارتكاريا، أو زكام، أو لون من ألوان الحساسية، أو حالة من الإعياء والتعب الشديد.

المعاشرة بالمعروف[1]

جعل الله تعالى للرجل حق القوامة في الحياة الزوجية، فقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾. فهو يتحمل مسؤولية الكيان العائلي، بالمبادرة الى تأسيسه حيث يطلب يد الفتاة، ويدفع المهر، ثم هو المتكفل بالإنفاق على متطلبات الحياة للأسرة، وهو المتصدى لحمايتها والدفاع عنها.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة، فالرجل في موقعية تتيح له التزام هذه المسؤولية وتحملها، من حيث قوته الجسدية، وطبيعته النفسية المؤهلة أكثر لتحمل المشاق والأعباء، وتوفير نفقات الحياة.

بينما تمتاز المرأة برقة الجسد ونعومته، وبما تمتلك من فيض الحنان والعاطفة، الذي يؤهلها للقيام بدور الأمومة العظيم.

فهناك امتيازات وخصائص متقابلة بين الزوجين، فليس هناك امتياز مطلق لأحدهما على الآخر، بل نقاط قوة عند كل منهما تجاه الآخر، وبمشاركتهما وتكاملهما تتحقق سعادتها ويؤديان دورهما الإنساني الاجتماعي.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٣٠ يوليو ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٠٢.

وقوامة الرجل على المرأة في الحياة الزوجية تكليف قبل أن تكون تشريفًا، وفي مقابل الواجبات الملقاة على عاتقه تجاهها، تكون له بعض الصلاحيات وأهمها أن حق الطلاق بيده، ما لم تشترط هي في العقد وكالتها عنه في طلاق نفسها، حيث تشاركه بموجب هذا الشرط في حق الطلاق.

وللزوج حق الاستمتاع وهي تشاركه في ذلك، لكن صلاحيته أوسع، كما أن له التحكم في أمر خروجها من المنزل على تفصيل، لكن هذه الصلاحيات الممنوحة للرجل من خلال موقع القوامة في الحياة الزوجية، لا يصح أبدًا أن تتحول إلى تسلط وقهر، وإلى استضعاف للمرأة وإساءة لكرامتها، ولأن ذلك كثيرًا ما يحدث من بعض الأزواج تجاه زوجاتهن، فقد جاء التأكيد في آيات عديدة، وأحاديث كثيرة، على أهمية مراعاة حقوق الزوجة المادية والمعنوية، والتعامل معها باحترام وإحسان.

تؤكد أكثر من آية في القرآن الكريم أن تعامل الزوج مع زوجته يجب أن يكون في إطار المعروف، وتكرر ذلك في إثني عشر موضعًا من القرآن الكريم، منها: يقول تعالى:

١. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
٢. ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.
٣. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.
٤. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
٥. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
٦. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

والمعاشرة بالمعروف تعني أن تكون مخالطة الرجل ومعاملته لزوجته بأسلوب لائق منسجم مع تعاليم الشرع وأعراف المجتمع.

قال الطباطبائي في تفسير الميزان: «المعروف هو الذي يعرفه الناس بالذوق المكتسب من الحياة الاجتماعية المتداولة بينهم».

وقال الشيخ السعدي النجدي في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»: «وعاشروهن بالمعروف» وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكفّ الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال».

أما في السنة الشريفة فقد وردت أحاديث وروايات كثيرة توصي الأزواج بحسن المعاشرة مع زوجاتهم، ففي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: «فاستوصوا بالنساء خيرًا» وعنه ﷺ: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وعنه ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخيارهم خيارهم لنسائهم» في المقابل فإن هناك نصوصًا وتعاليم تؤكد على الزوجة حسن المعاشرة لزوجها، ومعاملته باحترام، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعظم الناس حقًا على المرأة زوجها». وعنه ﷺ: «ويل لامرأة أغضبت زوجها وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها».

الاحترام المتبادل

المعاشرة بالمعروف بين الزوجين تعني شيئين: أولًا: ان يؤدي كل منهما للآخر حقوقه ضمن المستوى المتعارف في المجتمع، وليس ضمن الحدّ الأدنى، فنفقة الزوجة مثلًا، تكون حسب المتداول لمثيلاتها في المجتمع.

وثانيًا: الاحترام المتبادل مما يرتبط بالجانب المعنوي، فلا يجوز إيذاء الزوجة بجرح مشاعرها أو إهانتها واذلالها بغير حق، كما لا يجوز للزوجة خدش احترام زوجها وكرامته.

ولا يقف الأمر عند حدود التحريم الشرعي واستحقاق الإثم عند إيذاء الزوجة، بل اقر الإسلام إجراءات رادعة، للانتصاف للمرأة وحماية حقوقها، إذا كان الزوج معتديًا مسيئًا، لأن الدين لا يسمح ان تبقى المرأة مستضعفة فريسة لاضطهاد الزوج غير الملتزم بأوامر الله تعالى.

فاذا كان الزوج يؤذي زوجته ويشاكسها بغير وجه شرعي، جاز لها رفع أمرها الى الحاكم الشرعي، ليمنعه من الإيذاء والظلم، ويلزمه بالمعاشرة معها بالمعروف، فإن نفع وإلا عزّره بما يراه ـ من توبيخ أو ضرب أو ما أشبه ـ فإن لم ينفع أيضًا كان لها المطالبة بالطلاق، فإن امتنع منه ولم يمكن إجباره عليه طلقها الحاكم الشرعي.

والآيات القرآنية واضحة في أن الحالة المشروعة المقبولة للحياة الزوجية هي المعاشرة بالمعروف، وإلا فهو إنهاء العلاقة والتسريح بإحسان ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

حق الخدمة بين الزوجين(١)

بالزواج تنشأ أخصّ وأوثق علاقة بين شخصين هما الزوج والزوجة، ويحصل بينهما انفتاح مطلق على مستوى الروح والجسد، ومشاركة مصيرية في شؤون الحياة، وقد عبر القرآن الكريم عن شدة الالتصاق بين الزوجين بتشبيهها بالتصاق اللباس بالجسد ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم وَأَنتُم لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾. ووصف الحياة الزوجية بأنها سكن يأوي إليه الإنسان ويعيش في أحضانه ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزوَاجًا لِتَسكُنُوا إِلَيهَا وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً﴾.

لكن هذه العلاقة الفريدة المميزة لا تلغي خصوصية كل من الزوجين، ولا تسلبه استقلال شخصيته، فهما شخصيتان مستقلتان، قررتا بملء إرادتهما الاقتران والشراكة، ضمن ضوابط حقوقية، تحمي خصوصية كل منهما في حدود رغبته واختياره، وتصون العلاقة المفتوحة بينهما من أي نزوع للإساءة والاستغلال ﴿وَلَهُنَّ مِثلُ الَّذِي عَلَيهِنَّ بِالمَعرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

ودرجة القيمومة التي يعطيها الإسلام للرجل في الحياة الزوجية لا تعني إلغاء خصوصية المرأة، ولا تجاوز استقلالية شخصيتها، فالقيمومة هي تحمّل مسؤولية الإنفاق والرعاية للأسرة، وأن بيده حق الطلاق، وله حق الاستمتاع، الذي يجيز له أن

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ١٦ اغسطس ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٠٩.

يمنع ما يزاحم هذا الحق، ضمن تفصيل تناولته مسائل الفقه.

أما على الصعيد الديني فهي إنسان منحها الله تعالى إرادة الاختيار كالرجل، لتتحمل أمام الله تعالى مسؤولية اختيارها، فلا يصح للزوج لو كانت زوجته كتابية مثلًا أن يفرض عليها اعتناق الإسلام، ذلك أنه ﴿لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

وكذلك لو كانت الزوجة ضمن مذهب إسلامي آخر غير مذهب الزوج، فلا يحق له إكراهها ولا مضايقتها حتى تعتنق نفس مذهبه.

ولو تعددت المدارس داخل المذهب الواحد، فليس للزوج أن يضغط على زوجته للانتماء إلى مدرسة معينة يؤمن بها.

وعلى المستوى الفكري والثقافي ليست ملزمة بأفكار زوجها وثقافاته بل تقبل ما تقتنع به وترتأيه.

وفي المجال السياسي لها حرية الرأي والموقف وإن اختلفت مع رأي زوجها وموقفه.

نعم يمكن لأي منهما أن يسعى لإقناع الآخر برأيه الديني أو الفكري أو السياسي، الذي يراه أحق وأصوب، لكن دون ضغط أو إكراه، ففي أجواء الحياة الزوجية، ينبغي أن تسود بينهما المودة والرحمة ﴿وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً﴾.

وعلى الصعيد المالي فإن للمرأة استقلالها الاقتصادي التام، فنفقتها واجبة على الرجل على كل حال، أما أموالها فهي صاحبة القرار والمتصرفة فيها، ولا حق للرجل ولا أمر ولا نهي في أموال زوجته، تدخرها إن شاءت، أو تستثمرها كما تريد، أو تستهلكها، أو تعطيها لأي أحد.

وما يقوم به بعض الرجال من الضغط على زوجاتهم العاملات والموظفات للأخذ من رواتبهن، إن لم يكن بطيب نفس منهن، فهو غصب ونهب محرم شرعًا.

وعلى المستوى الاجتماعي فالمرأة حرة في صداقة من شاءت، وفي التواصل

مع من ترغب، من أرحامها وغيرهم، وفي ممارسة أي دور اجتماعي، لا يحدها إلا أوامر الله تعالى ونواهيه، وبشرط ألا يزاحم ذلك حق زوجها في الاستمتاع، واستئذانه في الخروج من البيت، إذا كان الخروج مزاحمًا لحق الاستمتاع ـ كما هو رأي بعض الفقهاء ـ أو مطلقًا حسب رأي المشهور.

وفيما عدا موضوع الاستمتاع فالمرأة حرة في نفسها ووقتها تفعل ما تشاء وما تريد، ولا حق لزوجها في منعها من شيء لا يزاحم حقه.

خدمة المنزل

من المتعارف عليه أن تقوم المرأة للزوج بالخدمة المنزلية، فتطبخ الطعام، وتغسل الملابس والأواني، وتكنس البيت، وتقوم باحتياجات الأولاد.

وهو جهد طيب تبذله المرأة، وتستحق عليه الثواب الكبير من قبل الله تعالى، لكن ما يجب أن يُعلم أن ذلك ليس واجبًا على المرأة وليس هو حقًا عليها، يقول الفقهاء: لا يستحق الزوج على الزوجة خدمة البيت وحوائجه التي لا تتعلق بالاستمتاع من الكنس أو الخياطة أو الطبخ أو تنظيف الملابس أو غير ذلك حتى سقي الماء وتمهيد الفراش، وإن كان يستحب لها أن تقوم بذلك.

بل اتفق الفقهاء أنه لا يجب على المرأة إرضاع ولدها ولا حضانته ولها المطالبة بأجرة على الرضاعة والحضانة.

أما الحنفية وجمهور المالكية أوجبوا ذلك على المرأة مستدلين بما ورد من أنه ﷺ قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت، وعلى الإمام علي عليه السلام ما كان خارج البيت من عمل، وأنه ﷺ كان يأمر نساءه بخدمته كقوله ﷺ: «يا عائشة، أسقينا، يا عائشة أطعمينا، يا عائشة هلمّي الشَّفرة وأشحذيها بحجر»، وردَّ ابن قدامة الحنبلي على هذا الاستدلال بقوله: إن المعقود عليه من جهتها الاستمتاع، فلا يلزمها غيره، كسقي دوابه، وحصاد زرعه، فأما قسم النبي ﷺ بين علي وفاطمة فعلى ما تليق به الأخلاق المرضية، ومجرى

العادة، لا على سبيل الإيجاب، كما قد روى عن أسماء بنت أبي بكر، أنها كانت تقوم بفرس الزبير، وتلتقط له النوى، وتحمله على رأسها. ولم يكن ذلك واجبًا عليها.

ومن المؤسف أن بعض الرجال يلزمون زوجاتهم بخدمتهم وخدمة الأولاد والعائلة والضيوف بشكل متعسف، وكأن ذلك واجب عليهن، وتتعرض بعض الزوجات للأذى إذا ما قصّرن في شؤون الخدمة أو أخطأن في شيء منها.

الإخدام للزوجة

إن الزوجة إن كانت من أهل بيت كبير، ولها شرف وثروة لا تخدم بنفسها، فعلى الزوج إخدامها، وإن تواضعت في الخدمة بنفسها، وكذا إن كانت مريضة تحتاج إلى الإخدام لزم. و إن لم تكن شريفة، بل لو كانت الزوجة أمةً تستحق الإخدام لجمالها لزم ذلك لها، للقضاء بالعادة... وإذا وجبت الخدمة على الزوج لزوجته، فالزوج بالخيار، بين الإنفاق على خادمها إن كان لها خادم، وبين ابتياع خادم، أو استئجاره، أو الخدمة لها بنفسه، وليس لها التخيير... ولا يلزمه أكثر من خادم واحد؛ لأن الاكتفاء يحصل بها، وهذه المسألة محل اتفاق وذلك يعني أن المرأة لا يجب عليها خدمة الزوج بحال من الأحوال، بل ذلك مستحب، لها فيه الأجر العظيم، والثواب الجزيل، ولكن الزوج عليه توفير الخدمة للزوجة في بعض الحالات، كما إذا كانت من ذوي الشأن، وقد اعتادت على أن تخدم، وكذلك لو كانت مريضة أو ذات عاهة تقعد بها عن الخدمة.

الأسرة وتحديات العصر[1]

تمثل الأسرة خط الدفاع الأخير عن إنسانية الإنسان، وآخر القلاع والحصون لحماية ما تبقى للبشرية من قيم الفضيلة والصلاح.

فقد استهلكت الاهتمامات المادية إنسان هذا العصر، واستنزفت كل توجهاته وميوله المعنوية والروحية، ومسخت هويته الإنسانية القيمية، وحولته إلى شيء من الأشياء، وسلعة من السلع.

لقد أصبح الناس ينظرون إلى بعضهم بعضًا، من خلال معادلة الربح والخسارة المادية، فيتقاربون أو يتباعدون، ويتعاونون أو يتحاربون، ضمن إيقاعات معادلة المصالح.

أما الأخلاق والقيم والمبادئ، فهي آثار وذكريات لماض إنساني غابر، مكانها سجلات التاريخ، ومتاحف الآثار.

بلى قد يستفاد من هذه المفردات، كإعلانات دعائية، وشعارات برّاقة، لتحقيق مصالح ومكاسب.

كان الإنسان يولد في جو عائلي مفعم بالمودة والحنان، حيث تأتي (القابلة) ـ

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢٤ مارس ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٤٠.

المرأة المتخصصة في التوليد ـ إلى البيت، لمساعدة من طرقها مخاض الولادة، ويخرج الوليد من بطن أمه، تستقبله التهاليل والزغاريد، وتتلاقفه أكف العائلة، وتحتضنه صدورهم، بمنتهى البهجة والسرور.

وينشأ الطفل في أحضان العائلة، يتغذى من ثدي أمه، وتنمو أحاسيسه ومشاعره من فيض حنانها، ويترعرع تحت رعاية أبيه، ويتقلب بين أحضان أفراد أسرته الكبيرة: جده وجدته، وعمه وعمته، وأخيه وأخته..

وهكذا ترافقه العواطف النبيلة، فإذا ما اشتدّ عوده، وتكاملت شخصيته، وأصبح مؤهلًا لبناء حياة عائلية مستقلة، هبّ الأقرباء والأصدقاء لمساعدته، وتسابق أبناء المجتمع للاحتفاء بزفافه، فيدخل حياته الزوجية، وسط تيار من الحب والفرح.

وحين يعتري الإنسان مرض، أو تصيبه مشكلة، أو تحل به مصيبة، أو يتقدم به العمر، يجد إلى جانبه المواسين والمتعاطفين، مما يرفع معنوياته، ويساعده على مواجهة التحديات، ومقارعة الصعاب.

وإذا حانت ساعة المغادرة والرحيل عن هذه الدنيا، ودع الإنسان بحفاوة بالغة، وتكريم كبير، عبر مشاعر الحزن والأسى، ومراسيم التشييع والعزاء.

هذه الأجواء المفعمة بالعواطف النبيلة، ومشاعر الحب والإحترام، هي التي تنمي إنسانية الإنسان، وتثير نزعاته الخيرة، وتؤكد حضور الأخلاق والقيم في شخصيته وحياته.

لكن إنسان هذا العصر قد حرم من كثير من هذه الأجواء الطيبة، فهو يولد في المستشفى، ضمن وضع مهني تجاري، تستقبله الممرضات كرقم من أرقام عملهن اليومي الوظيفي، الذي لا يتسع كثيرًا للمشاعر والعواطف.

وما عاد وقت الأم يتسع لإرضاع الولد ـ غالبًا ـ لذلك يتلقى غذاءه من الحليب المجفف، عبر قنينة ومصاصة من البلاستيك، كما قد يقضي الكثير من أيام طفولته في دار الحضانة، أو تحت رعاية الخادمة، بعيدًا عن عواطف الوالدين.

لقد أصبح التعامل مع احتياجات الإنسان، وحالات ضعفه، ومشاكل حياته، يمثل فرصًا للاستثمار التجاري، والكسب المادي، بشراهة ونهم، لا مكان فيها للأخلاق والقيم.

وهذا واضح في صناعة الدواء، وعلاج الأمراض لدى الأطباء وفي المستشفيات، وفي أمور المحاماة، وتهيئة برامج الزواج، وحتى الموت تحولت مراسيمه إلى صناعة تجارية.

بالطبع لم تكن هذه الخدمات تقدم كلّها مجانًا في الماضي، ودون أي مكافأة مادية، لكن الجانب الاكبر منها كان تطوعيًا، يقوم به الأقرباء والأصحاب والجيران، باندفاع ذاتي، ورغبة صادقة.

وما يقدم للبعض كالأطباء من مكافأة مالية، كان في حدود الميسور، دون أن تتوقف الخدمة على حصوله، أو يشكل فرصة للجشع والابتزاز.

والأخطر من ذلك مايعانيه إنسان اليوم، على مستوى السياسات الدولية، ففي ظل نظام العولمة الشاملة، تتحكم مجموعة من الشركات المتعددة الجنسية، والمؤسسات الاقتصادية العالمية، في مصائر الشعوب والأمم، عبر إدارات الحكم في الدول الكبرى، وتحت غطاء المؤسسات الدولية، فتسحق خصوصيات الشعوب، وتصبح سيادتها واستقلالها وثروتها نهبًا لأطماع النافذين الدوليين، كما يجري العبث بالبيئة وإفسادها، حسبما تقتضيه مصالح الشركات الصناعية المهيمنة.

هكذا أحاطت بالإنسان حالة الجفاء المادي، لتنتزع منه جوهر إنسانيته، وتجفف ينابيع ميوله الخيرة، وتطلق العنان لأنانيته ونوازعه الشهوانية المصلحية.

وهنا يأتي دور الأسرة، وتتجلى قيمتها، كرافد أساس، ما زال يصارع عوامل التصحّر والجفاف، ليغذي عروق شخصية الإنسان، من ينابيع العواطف النبيلة، والقيم الأخلاقية الفاضلة.

فكيان الأسرة لا يقوم على أساس مادي بحت، وإذا بني كذلك لا يلبث أن ينهار؛ لأن الله تعالى بلطفه وحكمته، جعل العلاقة الزوجية قائمة على أساس المودة والرحمة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

كما شاءت الإرادة الإلهية أن يكون مجيء الإنسان إلى هذه الحياة، وبداية نشأته، ضمن حالة ارتباط عاطفي وثيق تستنهض كل دوافع الخير، ونوازع النبل، في أعماق النفس البشرية.

إن عواطف الأمومة، وفيض حنانها الدافق، ومدى انشداد الطفل وتعلقه بأمه لا يمكن قياس ذلك بالموازين المادية، ولا إخضاعه للمعادلات المصلحية.

فطبيعة الحالة الأسرية، تغذي وتنمي البعد الإنساني الأخلاقي، في حياة الإنسان وشخصيته. وكلما قوي كيان الاسرة، وترسخت موقعيتها، زاد ثراء الإنسان المعنوي، ورصيده القيمي، وكان أقرب إلى إستهداف الخير والصلاح.

ولعلّ ذلك هو ما يفسر شدّة ضغوط الحضارة المادية على نظام الأسرة في المجتمع المعاصر، لوجود التضاد بين الاندفاع المادي العارم لهذه الحضارة المادية، وبين التوجهات القيمية التي تغذيها الحالة الأسرية.

ففي ظل الحضارة المادية، هناك تشجيع للعزوف عن تكوين الاسرة، وتحمل مسؤوليتها وأعبائها، حيث يتم تحريض الغرائز الشهوانية، وتوفير مجالات إشباعها، وحيث تزدحم العراقيل والعقبات أمام تأسيس الكيان الأسري، بدءًا من طبيعة نظام التعليم، إلى واقع سوق العمل وفرص التوظيف، إلى رفع سقف متطلبات الحياة، وصولا إلى التبشير بأنماط السلوك والحياة المادية المصلحية.

لقد أصبحت طبيعة العيش والحياة، في ظلّ الحضارة المادية، تضعف انشداد الإنسان العائلي، وتستقطب اهتماماته على حساب ارتباطه الأسري.

الوعي بالحقوق الزوجية[1]

إن تشريع الحقوق المتبادلة والمناسبة بين الزوجين، في نظام الاجتماع الإسلامي، يشكل الأساس الرصين، والقاعدة الصلبة، لبناء صرح العلاقة السليمة بينهما، ولإقامة حياة أسرية طيبة.

حيث لم يترك التشريع الإسلامي سفينة العلاقات الزوجية، لرياح العاطفة والمزاج الذاتي، ولا لأمواج العادات والتقاليد غير العادلة. بل شرّع ضوابط وحدودًا واضحة للعلاقة بين الزوجين، وحذّر من تعدّيها وتجاوزها، ففي آيتين متتاليتين من سورة البقرة، يتحدث القرآن الكريم عن هذه الضوابط، تحت عنوان (حدود الله)، ويكرر هذا العنوان لها ستّ مرات في الآيتين الكريمتين. يقول تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وفي الآية التي تليها يقول تعالى: ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

ثم إن الإسلام لم يجعل الحقوق الزوجية امتيازًا ولا سلاحًا بيد أحد الطرفين، بل هي حقوق متبادلة متوازنة بينهما، يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

والمماثلة هنا ﴿مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ لا تعني المشابهة والمطابقة في نوع الحقوق،

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٩ صفر ١٤٢٥هـ، ٣١ مارس ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٤٧.

وتفاصيلها، فكل حق على أحدهما، يكون بذاته حقًا على الآخر، وبنفس القدر، كلا؛ لأن هناك شيئًا من الاختلاف في طبيعة دور كل منهما في الحياة الزوجية، يستلزم نوعًا من التغاير في الوظائف والحقوق، فالنفقة حق للمرأة على الرجل، وليس له عليها حق الإنفاق، وخروجها من البيت يحتاج إلى إذنه، (ضمن تفصيل) بينما ليس لها عليه مثل هذا الحق. إن المماثلة إذًا تعني المقابلة والمشابهة في أصل وجود الالتزام بحقوق من كل طرف تجاه الآخر، وهي متوازنة متكافئة، لكنها متغايرة في بعض الجوانب والتفاصيل.

إن تشريع الحقوق الزوجية هو أشبه ما يكون بتصميم لخريطة البناء الأسري، لكن هذه الخريطة مهما كانت رائعة في هندستها وتصميمها ستبقى حبرًا على ورق، إن لم تتوافر إرادة التنفيذ والالتزام بتلك الحقوق، على الصعيد الفعلي، في العلاقة بين الزوجين.

وملحوظ حصول كثير من التجاوزات والتعديات على الحقوق الزوجية في مجتمعاتنا، وما ارتفاع نسبة الطلاق، وكثافة قضايا الخلافات العائلية في المحاكم، إلّا مؤشر على وجود تلك التجاوزات والتعديات.

فلا بدّ من تفعيل ضمانات الالتزام، وبرامج حماية الحقوق الزوجية، لتوفير أجواء التوافق الزواجي، وأرضية الانسجام والسعادة، ولوقاية العلاقات الأسرية من التصدع والانهيار.

ومن أهم ضمانات الالتزام بالحقوق الزوجية، معرفتها والوعي بها من قبل الطرفين، حيث نلحظ أن كثيرًا من الأزواج يجهل الالتزامات المتوجبة عليه، ويتصور أن له على زوجه حقوقًا لم يفرضها الشارع المقدس، ونتيجة لهذا الجهل والتصورات غير الصحيحة، تحدث المشاكل والأزمات العائلية.

فمثلًا: يعتقد بعض الأزواج، أن الخدمة المنزلية حق على الزوجة، فيغضب إذا قصّرت أو تقاعست عن بعض الخدمات، كالطبخ والغسل، ورعاية شؤون الأطفال،

وقد يتخذ إجراءً لمحاسبتها ومعاقبتها، اعتقادًا منه أنها أخلّت بواجب عليها.

كما أن بعض الزوجات، ترى أن على زوجها تلبية كل رغباتها، خاصة في مجال التسوق ومتابعة موضات الأزياء والكماليات، وامتناع الزوج عن ذلك تعتبره تقصيرًا تجاه حقوقها!!

وأكثرهن يعتبرن تفكير الزوج في الاقتران بزوجة أخرى، وإقدامه على ذلك، خيانة وذنبًا لا يُغتفر، ويصبح مبررًا للتمرد على حقوق الزوج، والتخلي عن كل التزام تجاهه.

إن هذه التصورات والممارسات، تكشف في كثير من الأحيان، عدم المعرفة والوضوح في قضايا الحقوق الزوجية، بينما يريد الله تعالى بيانها ووضوحها للناس كما تشير الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعلَمُونَ﴾.

الأسرة في فكر الإسلام وتشريعاته[1]

رسالة الشرائع الإلهية إحياء إنسانية الإنسان، وبعث النوازع الأخلاقية القيمية في وجوده، وحمايتها من طغيان الدوافع الشهوانية المادية، لذلك من الطبيعي أن تهتم بنظام الأسرة في المجتمع البشري، وتعطيه الأولوية والعناية اللازمتين، لترسيخ وجوده، وتقوية بنيته، ومكافحة كل عوامل إضعافه.

وهذا ما نجده في جميع الشرائع الدينية، كاليهودية والمسيحية والإسلام، حيث تتفق على محورية الأسرة في نظام حياة المجتمع، وإن اختلفت في تفاصيل التشريعات، لذلك وجد ممثلو هذه الديانات أنفسهم في موقف متقارب تجاه القضايا الاجتماعية، في المحافل الدولية، كما حصل في مؤتمر السكان في القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر المرأة في بكين عام ١٩٩٥م.

والإسلام كآخر رسالة ودين أنزله الله تعالى للبشر، يمثل كمال الشرائع الإلهية، وصيغتها المتطورة المتقدمة، أولى موضوع الأسرة اهتمامًا محوريًا مميزًا، لا نظير له في أي شريعة سماوية أو أرضية.

ويتجلى هذا الاهتمام المميز في وفرة التشريعات الإسلامية، التي تتناول وتعالج كل شؤون الأسرة، في مختلف الجوانب، وحول أدق التفاصيل، فيما يرتبط بتأسيس

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٤ صفر ١٤٢٥هـ، ١٤ أبريل ٢٠٠٤م، العدد ١١٢٦١.

الأسرة وتكوينها، وطريقة إدارتها، وتحديد خريطة الحقوق والواجبات لأعضائها، ومعالجة المشاكل والعقبات التي قد تواجهها، وتعزيز موقعيتها في المجتمع، وحمايتها من التفكك والتصدع.

ويشتمل القرآن الحكيم، على عدد كبير من الآيات الكريمة، التي تتناول موضوع الأسرة، كأطرٍ مفاهيمية، وأحكام تشريعية، ونماذج تاريخية للعبرة والاقتداء.

كما تتضمن مصادر الحديث والروايات الإسلامية، عددًا هائلًا من النصوص المرتبطة بشأن الأسرة، في أبعادها المختلفة.

وفي كتب الفقه والتشريع الإسلامي، يحتل موضوع الأسرة مساحة كبيرة واسعة، يلحظها كل مطلع على التراث الفقهي.

***

لكن هذه الثروة المعرفية الهائلة، من مفاهيم وتشريعات إسلامية حول الأسرة، لم تتوافر لها فرص العرض والحضور، على مستوى المجتمعات الإنسانية العالمية، بل إن حضورها في وعي وثقافة جمهور الأمة الإسلامية، لايزال ضعيفًا محدودًا.

في الوقت الذي تجنّد فيه وسائل الإعلام والاتصالات المتطورة، كل طاقاتها وإمكاناتها الهائلة، للتبشير بقيم وأنماط الحياة الغربية المادية، التي تُضعف شأن الأسرة، وتهزُّ موقعيتها.

كما تنشط جهات مشبوهة، عبر المؤتمرات والمؤسسات الدولية، للترويج لتشريعات عالمية، تصبّ في صالح الابتذال الأخلاقي، والضياع القيمي، وإضعاف الكيان الأسري، كتطبيع العلاقات المثلية الشاذة، وتسويغ العلاقات الجنسية خارج الإطار الزوجي، ونشر ثقافة الإباحية، تحت عنوان الصحة الجنسية، والسماح بالإجهاض.. وغير ذلك من المفردات، التي تعكس توجهات الحضارة المادية، في الصدام مع القيم الإنسانية الأخلاقية.

إن الحاجة ماسّة لعرض رؤية الإسلام، ونشر منظومة مفاهيمه وتشريعاته، حول قضايا الأسرة، على مستوى المجتمعات الإنسانية بشكل عام، وعلى صعيد جمهور الأمة الإسلامية بشكل خاص، ليكون أمام المجتمع البشري خيار آخر، غير ما تطرحه حضارة الغرب.

وذلك يستلزم تحويل هذه الثروة المعرفية، من مادة علمية جامدة، إلى خطاب معرفي جماهيري واضح.

ونلحظ هنا أن المفاهيم والتشريعات الإسلامية حول الأسرة وقضاياها، تتوافر عادة في مصادرها من كتب النصوص والفقه، بلغة علمية تخصصية، وبمنهجية وأسلوب ينقصه التطوير والتجديد. وحتى الرسائل العملية الفقهية ـ كتب الفتاوى التي يضعها الفقهاء للجمهور ـ غالبًا تعاني هاتين المشكلتين، لذلك لا تجتذب المثقف المعاصر، ولا يجد فيها القارئ البيان والوضوح.

***

ومن خلال عملي الديني الاجتماعي، الذي يرتبط جانب منه بقضايا الأسرة، كالمساعدة في موضوع الزواج، وإجراء عقود النكاح، وإيقاع الطلاق، والسعي لإصلاح ذات البين، ومعالجة المشاكل العائلية، ومتابعة الشأن التربوي، والانفتاح على الشباب ورصد علاقتهم بأهاليهم.. من خلال ذلك لاحظت نقصًا، وفراغًا كبيرًا، في وعي الجمهور ومعرفتهم، بتعاليم الإسلام وأحكامه في هذه الأبعاد، مما يتيح المجال واسعًا للتلقي من وسائل الإعلام، التي تروّج لأنماط الحياة الغربية المادية، أو الاسترسال مع العادات والتقاليد السائدة، التي قد لا تكون متوافقة مع رأي الدين ورؤيته.

ملحق

متابعات إعلامية

رئيس تحرير جريدة اليوم يستقبل الشيخ الصفار[1]

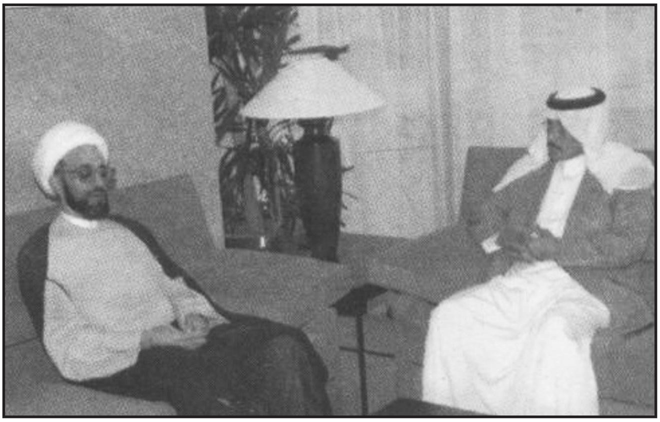

استقبل الزميل محمد الوعيل رئيس تحرير اليوم فضيلة الشيخ حسن الصفار بمكتبه في الصحيفة ظهر أمس الاثنين وقد دارت أحاديث حول الإسلام والإرهاب وما هو مطلوب من المسلمين لتجاوز هذه الحملة الغربية على الإسلام.

المعروف أن الشيخ حسن الصفار له عدة مؤلفات تدعو إلى الفهم الحقيقي للإسلام بتعدده وتنوعه وغناه الثقافي والاجتماعي.

---

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ٢٤ شوال ١٤٢٢هـ الموافق ٨ يناير ٢٠٠٢م، العدد ١٠٤٣٤.

الحوار الوطني خيارنا الصحيح لمواجهة التحديات الصعبة[1]

أكد الشيخ حسن الصفار أن الحوار الوطني ضرورة ملحة فقد اتسعت شريحة المثقفين وأصحاب الرأي من أبناء الوطن وارتفع مستوى الوعي الشعبي العام وانفتح الناس على تجارب مختلف الشعوب.

وأوضح الصفار أنه من هنا كان لا بدّ من مبادرة سريعة للارتقاء بمستوى العلاقات الداخلية إلى حيث أمر الله سبحانه وتعالى من الوحدة والاعتصام بحبله المتين والانفتاح على الرأي الآخر طلبًا للأفضل والأصوب، كما يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّـهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. وانعقاد اللقاء الوطني للحوار الفكري في الرياض بتاريخ ١٥ ـ ١٨/ ٤/ ١٤٢٤هـ بدعوة كريمة من سمو ولي العهد كان المؤشر الواضح على اهتمام القيادة السعودية بالاستجابة لهذا التحدي الكبير.

وباعتباري قد شاركت في ذلك اللقاء الرائع أراه يمثل خطوة ناجحة وموافقة خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ على إنشاء مركز دائم للحوار الوطني تؤكد نجاح تلك المبادرة وتطلع القيادة والمواطنين إلى تطويرها وتعميقها. وقال ما نأمله هو اهتمام

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٧ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٦ أغسطس ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٠.

الجهات المعنية بإنجاح هذا المسعى الحضاري.

كما ينبغي أن نعمل جميعًا كمسؤولين ومواطنين لتكريم منهجية الحوار الوطني على مختلف الصّعد الدينية والسياسية والفكرية فهو خيارنا الصحيح لمواجهة التحديات الصعبة.

هل يسعى المعلم للتطور والابداع؟[1]

■ **الدمام ـ وجدي آل مبارك**

ضمن تقرير أعده (وجدي المبارك) أجاب الشيخ حسن الصفار عن سؤال (هل يسعى المعلم للتطور والإبداع؟) بقوله:

نعرف جميعًا مدى الحاجة الملحّة لتربية الأبناء وتهذيب نفوسهم وتشذيب سلوكهم، حيث تتعرض القيم الدينية والاجتماعية للاهتزاز، ويعاني المجتمع من خطر انفلات أبنائه الناشئين، بسبب حالة الانفتاح الإعلامي والثقافي، الذي يبث ويروّج لأنماط من الحياة والسلوك تخالف النظام القيمي في مجتمعاتنا، ويحرّض على التسيب والميوعة والانحلال، وحيث تعصف بجيل الشباب شتى الأزمات والمشاكل الواقعية والمفتعلة. فأين دور المعلم في خضم هذه الظروف والأجواء الحساسة الخطيرة؟

إن الشعور بالمسؤولية الدينية والاجتماعية يجب أن يدفع المعلم لاستنفار كل طاقاته وقدراته، واستغلال موقعيته للإسهام في تربية هذا الجيل، الذي تحدق به الأخطار من كل جهة وجانب، وأضاف بقوله: ومما يثير القلق حقًا كون بعض المعلمين يعانون نواقص في شخصياتهم وسلوكياتهم، ومؤهلهم للتعليم لا يعدو شهادة التخرج، دون خبرة أو نضج وهذه الشريحة من المدرسين تشكل مصدرًا خطرًا على شخصيات وسلوك الطلاب. لكنها شريحة محدودة ويمكن تلافي تأثيراتها السيئة بوعي الإدارة وسائر المدرسين.

---

(١) جريدة اليوم. الجمعة ١٣ شعبان ١٤٢٤هـ، ١٠ أكتوبر ٢٠٠٣م، العدد ١١٠٧٤.

أهالي الشرقية يستنكرون العمل الإجرامي في مجمع المحيا السكني

الإرهاب فتنة عظيمة يجب محاربته بكافة السبل[١]

عبر عدد من أهالي المنطقة الشرقية عن إدانتهم الشديدة لحادث مجمع المحيا الإرهابي[٢] واعتبروه عملاً جبانًا وحقيرًا استهدف الآمنين والأطفال والنساء.

(اليوم) رصدت آراء عدد من هذه التصريحات...

يقول الشيخ حسن الصفار: إن معالجة الإرهاب تتوقف على ثلاثة أمور: أولها تكريس حالة الانفتاح السياسي، وتوسيع المشاركة الشعبية التي بدأت بها وبخطواتها المملكة ونأمل أن تستمر وتتواصل لتحقيق تطلعات المواطنين ونشر الفكر الإسلامي الصحيح الذي يدعو إلى الرحمة والتسامح واحترام حقوق الإنسان في مقابل الأفكار المتطرفة التي ابتدأت بغلو الدين والاستهانة بحقوق الإنسان والتبرير بإيذائهم ومعالجة المشاكل المعيشية والحياتية.

---

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ، ١١ نوفمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٠٦.

(٢) في الثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٢٠٠٣ هزت انفجارات مجمع المحيا السكني غرب مدينة الرياض، بسبب سيارة جيب محملة بمتفجرات تزن ٣٠٠ كيلوغرام نتج عنها وفاة ١٧ شخصًا وإصابة ١٢٢ من جنسيات مختلفة.

الصفار في أحدية الدكتور راشد المبارك[1]

أكد الكاتب حسن الصفار على ضرورة الاعتراف بالآخر، وقال في محاضرة ثقافية ألقاها في أحدية الدكتور راشد المبارك في الرياض مساء الأحد الماضي: لسنا مخيرين في وجود الآخر فهو حتمية اقتضتها حكمة الله تعالى في الخلق لتكون الحياة أكثر ثراءً، وليشحذ التنافس همم أبناء البشر، ويفجر طاقاتهم.

وتناول الصفار في محاضرته عدة محاور، أولها التعارف قاعدة أساس. حيث أكد أن الخطوة الأولى، والقاعدة الأساس، لتنظيم علاقة مع الآخر هي التعارف. بأن يتعرف كل من الطرفين على الآخر، خاصة فيما يرتبط بزاوية التغاير والتمايز بينهما. ذلك أن الجهل وسوء الفهم غالبًا ما يؤدي إلى التباعد حذرًا، أو إلى النزاع والخصومة عداءً

وأشار في المحور الثاني إلى أن المجتمعات المتقدمة، ممثلة بمراكز الدراسات والأبحاث فيها، الرسمية والأهلية، وعبر المبادرات الفردية الطموحة، تحرص على تحصيل أكبر قدر من المعلومات عن البلدان والشعوب الأخرى، لإثراء المعرفة، ولخدمة المصالح والأغراض.

وتحدث في إطار هذا المحور عن حركة الاستشراق وكيف أنها أسهمت مساهمةً كبيرة في تعرف الغرب على الشرق. مضيفًا قوله في مقابل هذه الحركة الاستشراقية النشطة، هناك خمول في الشرّق في الاهتمام بمعرفة الغرب.

---

(١) جريدة اليوم. الأحد ٢٦ شوال ١٤٢٤هـ، ٢١ ديسمبر ٢٠٠٣م، العدد ١١١٤٦.

أما المحور الثالث فتحدث فيه عن الآخر الجوّاني.فقال إنه المختلف ضمن ذات الإطار الديني أو الوطني، حيث تعددت المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية والتوجهات ضمن إطار الأمة الواحدة والوطن الواحد.

وأضاف الصفار قوله رغم حساسية الاختلاف في الدائرة الأقرب، والخطأ في التعاطي مع هذا الآخر إلا أنه بالإمكان تلافي هذا الخطر من خلال تقديم قراءة صحيحة لهذا الآخر الداخلي التي تعتبر أكثر إلحاحًا وأشد ضرورة.

وفي المحور الرابع تحدث عن القراءة الصحيحة حيث أكد أن القراءة الصحيحة فيما بين الأطراف تؤسس للرؤية السليمة والتعامل الإيجابي، بينما خطأ القراءة ينتج سوء الفهم والتفاهم، ويؤدي إلى علاقات سلبية متسائلًا: كيف ينبغي أن نقرأ الآخر؟

وأشار في الإجابة عن هذا التساؤل إلى أبرز الملاحظات في شروط القراءة الصحيحة للآخر حيث قال: أن من أبرز الشروط القراءة المباشرة، إذ إن قراءة الآخرين عبر الوسائط لا توفر للقارئ صورة واضحة دقيقة؛ لأن الوسيط قد لا يكون محايدًا، فيتأثر نقله بموقفه المنحاز، وقد يكون اطلاعه ناقصًا، أو مصادره غير موثوقة، أو استنتاجاته غير صائبة، إلى ما هنالك من الاحتمالات.

وتأتي بعدها القراءة الموضوعية وهي الهادفة لمعرفة الآخر كما هو على حقيقته دون ميل أو انحياز مسبق، يجعل بصر القارئ زائغًا. وكذلك تعني الموضوعية عدم إساءة التفسير وتحدث عن الاستيعاب في القراءة التي تأتي من خلال الاطلاع على مختلف أبعاد الرأي الآخر، أما الاقتصار على جانب واحد فهو يشكل قراءة ناقصة مبتورة، وأكد في نهاية محاضرته على عوامل مساعدة للقراءة الصحيحة من ضمنها نشر الوعي والثقافة التي تدعو إلى قراءة الآخر قراءة صحيحة. والسعي للتعرف من كل طرف على الآخر بمبادرة وسبق.

وحضر المحاضرة مجموعة كبيرة من الأكاديميين والمثقفين والباحثين الذين أثروا اللقاء بمداخلاتهم وآرائهم حول نفس الموضوع.

في منتدى الثلاثاء بالقطيف

الشيخ الصفار يستعرض نتائج اللقاء الوطني[1]

استضاف منتدى الثلاثاء الثقافي بالقطيف سماحة الشيخ حسن الصفار في برنامجه الأسبوعي، متحدثًا حول (الحوار الوطني.. نتائجه ومستقبله)، وأدار الندوة الزميل الصحفي ميرزا الخويلدي، بحضور نخبة متنوعة من مثقفي وإعلاميي ورجال أعمال المنطقة، حيث تميز بحضور متميز وكثيف.

وبدأ الشيخ الصفار حديثه عن وصف اللقاء الثاني، الذي عقد مؤخرًا في مكة المكرمة، بأنه تميز عما سبقه بزيادة الأعضاء المشاركين في الحوار، وتنوع توجهاتهم وكذلك مشاركة المرأة لأول مرة. حيث شارك في اللقاء ممثلون عن مختلف التوجهات الفكرية في المملكة. وأضفت التشكيلة في الحضور على اللقاء حالة من التنوع الواضح، وفرصة للحديث الجريء والصريح. كما تميز اللقاء أيضًا بإعداد بحوث مكتوبة ودراسات حول مختلف محاور النقاش من قبل باحثين متخصصين، وقدم الباحثون ملخصات لأبحاثهم ثم تتم المداخلات للمشاركين في اللقاء.

وأكد الشيخ الصفار حسن اختيار عنوان المؤتمر (الغلو والاعتدال.. رؤية منهجية شاملة)، حيث إنه ذلك يعتبر من أبرز التحديات التي تواجه الوطن في هذه المرحلة،

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ٢٠ ذو القعدة ١٤٢٤هـ، ١٣ يناير ٢٠٠٤م، العدد ١١١٦٩.

وساعد تنوع الأطياف المختلفة المشاركة في اللقاء في أن تكون لغة التخاطب واضحة وجريئة، وأن يكون الهدف هو تسليط الأضواء على الثغرات والمشاكل، وليس المدح والثناء كما حصل في السابق. وسيطر على اللقاء محاور أساسية، كنقد سياسات الإلغاء والإقصاء والطائفية، التي تمارس على الجميع، والمطالبة بإعادة النظر فيها، كحرية التعبير عن الرأي، خاصة أنها حالات عامة، وليست ممارسات فردية. وكذلك توسيع رقعة المشاركة الشعبية في القرار السياسي.

وأشار المحاضر إلى أن التوصيات تعتبر متقدمة جدًا على توصيات المؤتمر السابق، وأعطى سمو ولي العهد دفعًا كبيرًا للمؤتمر، من حيث تشجيعه على استمراره. وكان للتغطية الإعلامية للمؤتمر دورُ مهمُ في انعكاسه الإيجابي على المجتمع ثقافيا وإعلاميًا.. وأكد أن من أبرز النتائج هو الإقرار بالتنوع والوجودات المختلفة في المجتمع السعودي، وتعزيز العلاقات بين مختلف الأطراف، الأمر الذي قد يشكل أرضية مناسبة لمشروع الإصلاح السياسي، ولكن من الواجب التفكير في آليات تنفيذية لتحويل هذه التوصيات إلى مشاريع عمل تخدم مصلحة الوطن. وهناك توقعات إيجابية كبيرة لدى عموم المواطنين، بتفعيل هذه اللقاءات وتحويلها إلى واقع ملموس.

وعلق الشيخ الصفار على تأكيد سمو ولي العهد وإشاراته إلى ضرورة الحدّ من الاتجاهات الطائفية والمواقف المتشنجة التي تعبر عنها مواقع الإنترنت.. منوهًا بحضور مختلف المسؤولين في الدولة في هذا اللقاء.. ومشيرًا إلى أهمية مشاركة جميع التيارات في الحوار، وضرورة تعرفهم على وجهات نظر القوى الاجتماعية الأخرى.. ومؤكدًا أن التعاطي معهم يجب أن يتسم بالحكمة والمرونة، بحيث يكون الدافع هو حماية الوطن، وإشراك كل القوى الفاعلة والمؤثرة، وعدم إقصاء أي طرف قائم. وأشار إلى أن الروح الوطنية كانت سائدة في اللقاء، وانعكست على حالة التضامن في مختلف القضايا التي كانت تتكامل أطروحاتها مع بعضها، ولم تكن هنالك حالة تخندق من قبل أي فئة على نفسها.

وبدأت تعليقات ومداخلات الحضور، مؤكدين ضرورة تفعيل التوصيات التي خرج بها المؤتمرون، بقيام الدولة باتخاذ الإجراءات التنفيذية لتحويل هذه التوصيات إلى برامج عمل، وتشكيل فرق عمل أهلية لدراسة بعض القضايا المهمة، كالوحدة الوطنية ووضع المرأة مثلًا، وتقديم مشروع عملي بهذا الخصوص، وضرورة المشاركة الشعبية في متابعة وتنشيط التواصل بين الفئات الاجتماعية، ودفع الحوار الوطني لتوسيع رقعته عبر رسائل تأييد للمسؤولين، تحدد المسؤوليات المرحلية المهمة، ومتوافقة مع المطالبات الشعبية القائمة.

كما أكد أحد الحضور ضرورة تفعيل حاضنات للمجتمع المدني، كأمر سابق لأي حوار جاد، حيث إنها ستكون ممثلة للتوجهات المختلفة، ويكون الحوار بينها فاعلًا وعبر وجود آليات واضحة.

الشيخ الصفار وثقافة الواقع[1]

■ **د. سعد الناجم**

في أمسية أحسائية تحدث الشيخ حسن الصفار عن حقوق الإنسان في سبتية الموسى وانصب حديثه على ثقافة الحقوق ومسؤولية الفرد في الاطلاع على حقوقه من خلال فهمه للأنظمة والقوانين المتعلقة بحياته على كافة المسؤوليات ابتداءً من الأسرة وانتهاء بالعمل ليدرك واجباته ويطالب بما يستحق. ولا شك في أن المطالبة بالحقوق تقع ضمن بعدين: بعد الذات، وبعد من وضع القوانين والأنظمة المتعلقة بتلك الحقوق. وهنا يظهر تساؤل حول طبيعة تلك القوانين والأنظمة ومقاصدها ومدى تناميها مع متطلبات العصر والحسّ الشعبي في وضعها والمصالح المشتركة في قوتها واستمراريتها فليس هناك قوانين خالدة إذا تجاهلت ثقافة الواقع المعاش.

لقد حاول الشيخ الصفار أن يؤسس للتعايش مع ثقافة الواقع وتوسيعها بشيء من التعقل والامل وتكرار المحاولة الهادئة التي تصل إلى نتيجة دون صراع ليس له فائدة لجميع الأطراف.

إن ثقافة الواقع على الرغم من جدواها في مجتمعاتنا إلا أن على الجميع أن يدركوا أن الواقع المحلي يقع ضمن واقع عالمي محيط وهجه وأمواجه عاتية تريد منا ألا نخلد

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٦ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ٢٦ مايو ٢٠٠٤م، العدد ١١٣٠٣.

متكئين على قول (مكانك تحمدي) ولا أن نركب التيار ظنًا منا أنه النجاة من الغرق بل لا بدّ أن نقيم مسلكنا ونستشرف مستقبلنا في ضوء عقيدتنا لنصل جميعًا إلى مستقبل مشرق بإذن الله.

رسالة

الأخ عبدالعزيز الموسى صاحب السبتية: إن تنوع المتحدثين في السبتية يعطيها شيئًا من التميز في زمن نحن بحاجة أن نستمع مثلما نسمع، فشكرًا لكم.

آل بو ليلة تحتفل بقبيلة بني خالد بمناسبة العفو عن هادي المري[1]

■ **أحمد الوباري ـ فضيلة**

أقامت قبيلة آل بو ليلة بهجرة فضيلة حفلًا لقبيلة بني خالد بمناسبة تنازل أسرة بو مرة عن هادي صالح المري.

وبدأ الاحتفال بالترحيب بقبيلة بني خالد واستقبالهم استقبالًا حارًا بحضور محافظ محافظة القطيف بالإنابة خالد الصفيان ورئيس مركز حرض مطلق بن خالد المطيري ومشايخ القبائل وأعيان ووجهاء هجرة فضيلة ومدينة عنك بمحافظة القطيف وجموع غفيرة من المواطنين.

وبدأ الحفل بأيٍ من الذكر الحكيم رتلها عبيد بن حمد المري، ثم كلمة حمد بن صالح المري تحدث فيها عن الإرهاب، وقال: إن وطننا وطن الدين والعروبة الذي يتعرض لمحاولات وزعزعة للأمن والإخلال به من قبل فئة مغرر بها ومنحرفة عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وهجمة شرسة من الإعلام الغربي وهي هجمات مغرضة و حاقدة على ما ينعم به وطننا الغالي من نعم وأمن و تلاحم بين الشعب والقيادة

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ٣٠ يوليو ٢٠٠٥م، العدد ١١٧٣٣.

التي تحكم بالشريعة، وإن هذه الحادثة لأكبر دليل على ترابط الأسر ببعضها وترابط القيادة بالشعب. ثم تليت بعد ذلك قصيدة ترحيبية للشاعر دعيكان بن ناصر المري وقصيدة للشاعر ناصر بن علي البرقي.

ثم قصيدة أخرى للشاعر راشد عبد الهادي آل حميدان، ثم كلمة لشافي بن بذيع الثواب وبعدها قدمت العرضة السعودية من قبل الحاضرين.

(اليوم) رصدت انطباع وجهاء وأعيان بعض القبائل، فقال رئيس مركز حرض مطلق بن خالد المطيري: إن الصلح الذي تم بين عائلتي آل بو مرة والعرق من آل مرة نتيجة توسط أهل الخير وتكاتفهم وبذل كافة الجهود لحل هذه القضية وديا وذلك بتوجيهات صاحب السمو الملكي سيدي أمير المنطقة الشرقية وسمو نائبه سمو سيدي صاحب السمو الأمير جلوي بن عبدالعزيز بن مساعد آل سعود وصاحب السمو سيدي الأمير بدر بن محمد بن جلوي محافظ الأحساء الذين يولون حفظ دماء المسلمين وأرواحهم وأموالهم كل الاهتمام ويحرصون على راحة الموطنين والمقيمين سواء؛ وذلك من توجيهات توصية حكومتنا الرشيدة بقيادة مولاي خادم الحرمين الشريفين حفظه الله وأطال في عمره وصاحب السمو سيدي ولي العهد وصاحب السمو الملكي سيدي النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء - حفظهم الله - جميعًا. وإننا نشكر جميع من شارك في حل هذه القضية من مواطنين ومسؤولين جعلها الله في ميزان حسناتهم.

صالح بن محمد المري (والد المعفى عنه) قال: أشكر من قام بالمساعدة في عتق رقبة ابني هادي وكل من سعى في سبيل الإصلاح بيننا؛ حيث أعادوا البسمة والحياة ليس لابني فقط وإنما لي إيضًا ولوالدته وإخوانه.

ناصر بن صالح العرق (عم المعفى عنه) قال: بمناسبة زيارة قبيلة بني خالد لهجرة فضيلة بناء على دعوة الشيخ علي بن صالح بو ليلة أقدم شكري لقبيلة بني خالد أهل عنك لما قاموا به في سبيل التوسط لدى الشيخ حسن الصفار وقناعه أهل الدم بقبول التنازل لقاء مبلغ خمسة ملايين ريال عن ابن أخي هادي بن صالح العرق وإن كان الدم

لا يساويه ثمن.

وقال سطام بن عبدالله بن زيتون من كبار بني خالد: أتينا إلى إخواننا قبيلة آل مرة (آل ابو ليلة) للتهنئة بهذه النهاية السعيدة للحدث المؤلم وبما يرضي الطرفين ويزيل ما بالنفوس واجدها مناسبة لأن أتوجه إلى الشباب بأن عليهم التروي والتحلي بالصبر فيما قد يختلفون عليه من أمورهم الحياتية وأن يجعلوا الله سبحانه وتعالى وقدرته أمامهم.

يذكر أن الوساطة بين القبيلتين بدأت بتوجيهات صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز آل سعود أمير المنطقة الشرقية ونائبه صاحب السمو الأمير جلوي بن عبدالعزيز بن مساعد آل سعود وصاحب السمو الأمير بدر بن محمد بن جلوي محافظ الأحساء بعدما زار أحمد الخالدي أبو ليلة بن حمد بو ليلة في هجرة فضيلة وقام أحمد وقبيلته من بني خالد والشيخ علي بوليلة وجماعته بزيارة الشيخ حسن الصفار والتحدث إليه في الموضوع الذي قام بالوساطة عند والد المقتول علي بن عبدالله بو مرة واستغرقت الوساطة ٩ شهور.

القطيف: الشيخ الصفار يهاجم السلوكيات الخاطئة لدى الشباب[1]

ألقى الشيخ حسن الصفار محاضرة في ساحة جنوب منطقة القطيف حضرها رؤساء الجمعيات وجماعة الخط المستقيم بالقطيف ورؤساء لجان جمعيات كفالة الأيتام ونخبة كبيرة من الوجهاء وأبناء المجتمع بالقطيف، تحدث فيها عن الشباب ودورهم والنماذج التي عليهم الاقتداء بها، كما تطرق الشيخ الصفار للأخطار الكبيرة التي يواجهها الشباب اليوم ومن بينها تعاطي المخدرات والممارسات الطائشة في المجتمع الصادرة من جيل الشباب اليوم نتيجة تعاطي المنشطات، وقد حذر من مخاطر الانزلاق في ممارسة مثل هذه الأمور لما تحدثه من أضرار سلبية نفسية وجسمية واجتماعية.

وبيّن الشيخ الصفار في محاضرته التي ألقاها قبل يومين أنه في الماضي كانت الأخطار التي تواجه الشباب محدودة وكان يمكن للشباب أن يتجاوزوها بشيء من التوعية، أما اليوم فهم يواجهون أخطارًا هائلة كثيرة ويحتاجون لأجواء مساعدة وإرادة قوية، ومن جملة هذه الأخطار التي يواجهها الشباب ذكورًا وإناثًا المخدرات والممارسات الطائشة التي تصدر من بعض الشباب متسائلًا عن أسبابها وهم عماد المستقبل ودعامة المجتمع ونماذج للخير فيه، ودلل بظاهرة ركوب الدراجات النارية مخاطبًا الشباب بأنهم أعزاء على أهاليهم الذين يتأثرون بما يحدث معهم، كما ضرب

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٣ رمضان ١٤٢٦هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٥م، العدد ١١٨٢١.

مثالًا على ذلك بأحد الشباب الذين شيعوا قبل أيام نتيجة حادث دراجة نارية مؤكدًا أن هذا الأمر يعدّ تهلكة مستدلًا بقوله تعالى﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، ثم تطرق إلى مشكلة المخدرات والمنشطات التي تحمل أضرارًا نفسية وجسمية وسلوكية خاصة أن البعض يتناولها دون أن يدرك أخطارها ومساوئها وبالخصوص عندما يكون ذلك عن طريق رفاق السوء، وهنا يبدأ الانزلاق فيتعود الإنسان عليها ولا يمكنه أن يقاومها، وتبدأ الأطراف الأخرى تساومه على نفسه وعرضه، وذكر الشيخ الصفار قصصًا خطيرة وواقعية كثيرة يندى لها الجبين تحدث بسبب هذه الأمور.

وقال: (لا أريد أن أرسم لكم صورة قاتمة ولكن الأمر خطير وزاحف لمجتمعنا خاصة بعد أن يصبح متعاطيها عبدًا لها فيتحول إلى مجرم في المجتمع)، مؤكدًا أنه من الممكن للمجتمع علاج هؤلاء حين يتعامل معهم كمرضى ويقدم لهم العلاج الذي يخلص الجسم من الآثار السلبية للمخدرات، كما تطرق إلى دور المجتمع الفعال في العلاج فقال إنه ينبغي التعاون والبحث عن العلاج المناسب.

وتناول الصفار تجربة القطيف في علاج هذا الخطر عن طريق تشكيل لجنة تحتضن هؤلاء الذين تورطوا في هذا الخطر متمثلة في (جماعة الخط المستقيم في القطيف)، ولديهم مقر في مدينة الأمير نايف الرياضية وهم لديهم استعداد تام لمساعدة أي إنسان تورط في هذا المنزلق، ثم توجه بخطابه للآباء وأولياء الأمور بأنه يجب عليهم الوعي بما يحدث مع أبنائهم واحتوائهم، وأشار الصفار إلى ظاهرة التفحيط والاستعراض بها كظاهرة خطيرة بدأت تحصد أرواح الكثير من الشباب، وقال إن أغلب الذين يستعرضون غالبًا (بالموتوسيكلات) أو (التفحيط بالسيارات) هم شباب خضعوا لإغراءات منشطات معينة غالباً كما أدان الذين يتفرجون عليهم بأنهم شركاء معهم لكونهم يشجعونهم على هذا الأمر، كما أنه تحدث عن دور رجال الدين ووجوب دعمهم في هذا المجال لتواجد برامج بديلة تحتويهم وتشغل أوقاتهم، وقال إن هذه الأنشطة لو لم تشجع من قبل المسؤولين ورجال الدين فكيف يمكننا أن نحدث تغييرات

في المجتمع لوقاية الشباب واستيعابهم، لذا يجب أن تبذل جهود إضافية لخدمة هؤلاء الشباب واحتواء طاقاتهم بالبرامج والأنشطة والفعاليات المفيدة باعتبار أن المبادرة إلى ذلك حسنة من الحسنات تذهب السيئات.

الصفار يحذر من ظاهرة العنف الأسري في محاضرة بالقطيف[1]

حذّر الشيخ حسن الصفار في كلمته التي ألقاها مؤخرًا بالقطيف، من تفشي ظاهرة العنف الأسري في المجتمع، مؤكدًا وجود حالات كثيرة ترتبط بهذا الموضوع، مما يجعلها ترتقي لمستوى الظاهرة، مشيرًا أن الأضواء العامة على المستوى الوطني والعربي والإنساني بدأت تُثير هذا الموضوع على مختلف الصُّعد. وأضاف إن العنف الأسري أسوأ أنواع العنف وهو سيئٌ وقبيح؛ لأن الأسرة هي ملاذ الإنسان وملجؤه ومأمنه، وإذا كان الإنسان يواجه العدوان داخل أسرته فأين يبحث عن الأمن والملجأ؟ وقال: إن العنف الأسري يُهيئ الإنسان لممارسة العنف ضد الآخرين.

وحول أسباب استخدام العنف ضمن الأسرة تحدث الصفار عن البعض منها، مشيرًا إلى أن العائلة هي الدائرة الأقرب للإنسان والأكثر التصاقًا به، وحينما تكون علاقة الإنسان داخل عائلته علاقةً طيبة، فإن ذلك يجعل الإنسان أكثر سعادة، وأكثر قدرة على الإنتاج والفاعلية، وأقرب إلى حسن المعاملة مع الآخرين.

واستشهد الصفار كعادته ببعض القصص التي حصلت عن ممارسات للعنف ضد الأسرة وبأنها لا تورث غير الندم لمن يمارسها.

---

(١) جريدة اليوم. الاثنين ٢٨ ذو القعدة ١٤٢٦هـ، ١٩ ديسمبر ٢٠٠٥م، العدد ١١٨٧٥.

أدان الإساءة لشخص النبي محمد «صلى اللّه عليه وسلم».. الصفار:

قادة ومفكرو الأمة الإسلامية مطالبون بنشر السيرة العطرة للرسول الكريم[1]

عبر الشيخ حسن الصفار عن إدانته واستنكاره الإساءة لشخص الرسول الكريم ﷺ من بعض الصحف الدنماركية والنرويجية مؤكدًا أن الإدانة يجب أن يواكبها نشاط وعمل من أجل إبراز شخصية الرسول ﷺ.. وأكد أن الحرية التي تزعمها تلك الدول إذا ما وصلت إلى حدّ التجريح والانتقاص من شأن الآخرين لا تصبح حرية إنما تتحول إلى عدوان.

مشيرًا إلى أن الإساءة للإسلام تعدت حدود الصحف إلى المحطات الفضائية.

كما أشار إلى أن الأمة متى ما امتلكت رصيدًا قويًا من المهابة والعزّة يكون احترامها أكثر.

وأكد ضرورة أن تتخذ الأمة من موقعها الواضح تجاه هذه الإساءة لشخص الرسول الكريم وأن يقوم مفكرو وقادة الأمة بالسعي الجاد لنشر الصورة العطرة للرسول الكريم ﷺ وطباعتها بمختلف اللغات، كما ينبغي صناعة أفلام عن حياة الرسول ﷺ وعرضها بمختلف اللغات حتى يتعرف العالم على شخصية النبي العظيمة.

---

(١) جريدة اليوم. الأحد ٢٩ ذو الحجة ١٤٢٦هـ، ٢٩ يناير ٢٠٠٦م، العدد ١١٩١٦.

الشيخ الصفار: القطيف تتطلع إلى احتضان صرح جامعي أسوة بسائر المناطق[1]

ليس غريبًا أن يهيمن حب خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز على قلوب المواطنين بمختلف شرائحهم، فقد لمسوا منه الصدق والإخلاص، وأن قلبه استوعب همومهم وتطلعاتهم، لقد أكد من بداية عهده الميمون في كلمته الأولى على المساواة بين المواطنين، وكرس نهج الحوار الوطني، وأعلن حربه على الفقر ورعايته للفقراء، وتعهد بإنجاز خطوات الإصلاح التي يتطلع إليها المواطنون.

إن أبناء المنطقة الشرقية عامة وأهالي محافظة القطيف خاصة يعيشون هذه الأيام فرحة غامرة بزيارة مليكهم وتفقده لأوضاعهم، آملين أن تسفر هذه الزيارة المباركة عن مزيد من المشاريع التنموية التي تحتاجها المنطقة، وخاصة على المستوى التعليمي حيث تتطلع محافظة القطيف بكثافتها السكانية وحشود الخريجين من أبنائها إلى احتضان صرح جامعي أسوة بسائر المناطق التي أنارتها صروح الجامعات العلمية.

حفظ الله مليكنا المحبوب وحقق على يديه آمال الشعب وتطلعاته وحمى الله الوطن من كل مكروه، وأهلًا وسهلًا بمليك القلوب وصاحب المبادرات الكريمة والأيادي البيضاء.

(١) جريدة اليوم. الأحد ١٤ جمادى الأولى١٤٢٧هـ، ١١ يونيو ٢٠٠٦م، العدد ١٢٠٤٩ .

السياسة النبوية ودولة اللاعنف «للصفار»[1]

صدر حديثًا للكاتب والمفكر الشيخ حسن الصفار كتاب بعنوان (السياسة النبوية ودولة اللاعنف) في طبعته الثانية عن دار العارف للمطبوعات ببيروت. وقد تم طبع الكتاب للمرة الثانية للتعريف بسيرة الرسول ومنهجه القيادي في التعامل مع الشعوب والأقوام من خلال سياسة اللاعنف. حيث طبع عام ٢٠٠٤، ولكن إعادة الطباعة جاءت بعد الهجوم الذي شن على الإسلام من خلال الرسوم الكاريكاتيرية.

يقول الصفار: إن الغرض من هذا البحث التأكيد على تطلع شعوب الأمة إلى بناء مؤسسة الحكم الصالح القائم على مبدأ الشورى واحترام إرادة الأمة، كما أرسى قواعده رسول الله ﷺ والإشارة إلى خطأ الصورة المغرضة التي يحاول الأعداء نشرها عن شخصية رسول الله ﷺ ظلمًا وعدوانًا.

ويتكون الكتاب من ١٣٥ صفحة من القطع الصغير ويضم عدة عناوين، منها (دولة اللاعنف ـ المنافقون والدور الخطير ومن مواقف التآمر ـ إثارة الفتنة والنيل من القيادة...) وغيرها من الموضوعات.

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ، ٢٨ يونيو ٢٠٠٦م، العدد ١٢٠٦٦.

برنامج مكافحة سوسة النخيل يستضيف «الصفار»(١)

■ **جعفر تركي ـ القطيف**

استضاف برنامج مكافحة سوسة النخيل الحمراء بالقطيف أمس الأول فضيلة الشيخ حسن الصفار للحديث حول أهمية التوعية بضرر هذه الحشرة.. وذلك ضمن الأنشطة التي ينظمها البرنامج في مختلف قرى المحافظة هذه الفترة.

ورحب مدير عام الإدارة العامة لشؤون الزراعة بالمنطقة الشرقية سعد المقبل في كلمة تقديمية ألقاها بالشيخ الصفار وشكره على الاستجابة والحضور.

واستمع الصفار من مدير البرنامج المهندس علي السيهاتي إلى نبذة عن سوسة النخيل الحمراء، وجهود وزارة الزراعة لمكافحة سوسة النخيل الحمراء، بالإضافة إلى وضع الإصابة بسوسة النخيل في المحافظة.

وتحدث الصفار عن أهمية التوعية ودور المزارعين في مكافحة الحشرة.. ودعا جميع الحضور الذين كانوا من العاملين في البرنامج إلى العمل بنية خالصة لخدمة الوطن والمواطن وحماية البلد من هذه الآفة الخطيرة، كما أشار إلى ضرورة عدم التهاون في أداء المهام المناطة بالموظفين وأدائها على أكمل وجه وعدم التعذر بأي

---

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ، ٥ يونيو ٢٠٠٧م، العدد ١٢٤٠٨.

عذر كان، بعدها جاءت فترة للمناقشة العامة استعرض فيها العمال مشاكلهم التي من أهمها مشكلة عدم الترسيم التي وعد المقبل فيها الحضور بسرعة إيجاد حل للمشكلة من خلال مناقشتها مع الجهات ذات العلاقة.

الصفار: أبو السعود كان أملًا واعدًا لخدمة الدين والمجتمع[1]

ألقى الشيخ حسن الصفار كلمة تأبينية على جنازة الشيخ سعد أبو السعود بعد الصلاة عليه في مقبرة القطيف حيث شيع الفقيد عصر يوم الأربعاء الماضي في حشد كبير من المواطنين من مختلف أنحاء محافظة القطيف وفي مقدمتهم العلماء وطلاب العلوم الدينية.

وقال الشيخ الصفار في كلمته التأبينية: إن هناك من إذا مات تحسّرت وأصيبت به عائلته فقط وهناك من يتحسر المجتمع كله على موته، ويشعر بالمصيبة لفقده، والفقيد الغالي الذي تشيعه القطيف اليوم يشعر مجتمعه كله بالحزن والحسرة لفقده. فقد كان أملًا واعدًا لخدمة الدين والمجتمع، فقد نهل من علوم الدين بجدّ وذكاء وعشق المعرفة والعلم، وتوفر على أخلاق عالية، حيث كان يحترم الجميع، وينفتح على الجميع، والميزة الهامة في شخصيته أنه كان يحمل هموم مجتمعه، ويتصدى لقضاء حوائج الناس وحلّ مشاكلهم.

وأضاف الشيخ الصفار: ولا غرو في ذلك، فهو ابن عائلة كريمة عريقة (عائلة أبو السعود) التي أنجبت عددًا من الزعامات الاجتماعية الوطنية. ودعا في نهاية كلمته للفقيد بالرحمة والمغفرة، مقدمًا التعازي لولديه العزيزين وإخوته الكرام وأسرته الكريمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) جريدة اليوم. الإثنين ٩ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٢٥ يونيو ٢٠٠٧م، العدد١٢٤٢٨.

الصفار يستقبل المعزين في وفاة والده[1]

استقبل الشيخ حسن الصفار عددًا من المعزين في وفاة والده يوم أمس الخميس في مدينة القطيف. وقدم رئيس مجمع المحاكم بالقطيف فضيلة الشيخ فؤاد الماجد ورئيس تحرير «اليوم» الأستاذ محمد الوعيل، العزاء أمس بحضور عدد كبير من المشايخ والمسؤولين ورجالات المنطقة الشرقية.

(١) جريدة اليوم. الجمعة ٣٠ محرم ١٤٢٩هـ، ٨ فبراير ٢٠٠٨م، العدد ١٢٦٥٦.

رفع شكره للمليك والأمراء على مواساتهم في وفاة والده

الصفار: اتصال خادم الحرمين الشريفين خفف مصابنا[1]

رفع الشيخ حسن الصفار أسمى آيات الشكر إلى مقام خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز على تعازيه الكريمة في وفاة والده الحاج موسى الصفار وذلك خلال اتصال هاتفي، وقال الصفار: أشكر خادم الحرمين الشريفين على اهتمامه بمشاركة مواطنيه في أفراحهم وأتراحهم وأدعو له بالتأييد والتسديد لخدمة الإسلام والأمة وحماية الوطن وتقدمه، وأكد أن الاتصال الكريم خفّف من المصاب وجبر خاطر ذوي المتوفي.

كما قدم الصفار شكره لصاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز آل سعود أمير المنطقة الشرقية، وصاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز نائب وزير الداخلية، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف مساعد وزير الداخلية للشؤون الأمنية، وصاحب السمو الملكي الأمير سعود بن نايف سفير خادم الحرمين الشريفين في أسبانيا، وصاحب السمو الملكي الأمير تركي بن طلال بن عبدالعزيز،

(١) جريدة اليوم. الأحد ٢ صفر ١٤٢٩هـ، ١٠ فبراير ٢٠٠٨م، العدد ١٢٦٥٨.

وصاحب السمو الملكي الأمير مشعل بن محمد بن سعود بن عبدالعزيز، وأصحاب السمو الملكي الأمراء وأصحاب المعالي والسعادة على تعازيهم ومواساتهم داعيًا لهم بالخير والتوفيق لخدمة الوطن.

خلال محاضرة ألقاها في مكتب الصفار

النجيمي: قيادة البلاد تنسجم كليا في دعم مشروع الوحدة الوطنية[1]

استضاف الشيخ حسن الصفار في مكتبه بمدينة القطيف مساء الخميس الماضي عضو المجمع الإسلامي أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية الملك فهد الأمنية الشيخ محمد النجيمي في محاضرة بعنوان «أصول يجب أن يتفق عليها المسلمون ووجوب الوحدة الوطنية».

وتطرق النجيمي في محاضرته التي حضرها نحو ألف شخص بينهم شخصيات دينية واجتماعية وثقافية حضرت من مختلف مناطق الشرقية إلى الأسس التي تحكم العلاقة بيننا كمواطنين، وتجعلنا متحدين، وفصلها في ثلاث نقاط، هي أن جميع سكان البلاد مسلمون يؤمنون بقرآن واحد لا يأتيه الباطل أبدًا، وأن جميع الطوائف الإسلامية تحب الرسول وتؤمن برسالته السماوية، وأن الجميع يحب أهل البيت ويعتبر حبهم فضلًا كما يحب الجميع صحابته.

وذكر أنه لا حلّ يخرج الأمة الإسلامية من نزاعها الداخلي، إلا الحوار والانفتاح والاجتماع الذي يفهم كل واحد منه الآخر.

---

(١) جريدة اليوم. الأحد ١٧ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٢٢ يونيو ٢٠٠٨م، العدد ١٢٧٩١.

و شدد النجيمي على أن قيادة البلاد تنسجم كليًا في دعم مشروع الوحدة الوطنية، بل إن خادم الحرمين الشريفين أطلق حوارًا داخليًا، وبعد النجاح الكبير أطلق حوارًا إسلاميًا إسلاميًا، وأتبعه بحوار بين الأديان.

من جانبه أكد الشيخ حسن الصفار ضرورة أن ننفتح على بعضنا كي يفهم كل واحد منا الآخر، و أكد أنه لا تزال هناك إرادة جادة في الوحدة، فما يقوم به خادم الحرمين الشريفين من حوار في مكة المكرمة يطمح إليه الكثير من علماء الأمة الإسلامية، كما أننا نتحمل مسؤولية إنجاح هذه التطلعات الوحدوية التي تعطي الأمل داخل الأمة الإسلامية.

مقالات لسماحة الشيخ حسن الصفار في السياسة النبوية[1]

يطل علينا سماحة الشيخ حسن الصفار بثمرة من ثمار فكره الخلاق، ليضيف للمكتبة كتابًا يتناول السياسة النبوية في التعامل مع بعض القضايا التي واجهتها، متناولًا هذه المواقف بالشرح والتحليل.

هو كتيب من القطع المتوسط، بلغت عدد صفحاته مئة واثنتان وستون صفحة، يثبت فيها المؤلف التعامل المحمدي تجاه بعض القضايا التي ترافقت مع ظهور الإسلام، تعامله مع المنافقين، واحتوائه للمواقف السيئة من أجل السلم والاستقرار.

يفتتح المؤلف كتيبه بمدخل عن الأمة وتحدي الإصلاح الداخلي، مبينًا أن التدخل في شؤون الإنسان البالغ الراشد الذي يدير شؤونه بنفسه مرفوض من قبل الشرع والعرف والناس، أما التدخل في شؤون القاصر الفاقد للأهلية أمر مشروع ومطلوب؛ لحفظ مصلحته ورعاية مستقبله، ورعاية المصلحة العامة ثانيًا، وهذه القاعدة ـ كما يقول ـ تطبق على المجتمعات والشعوب، حيث إنه من المتفق عليه في النظام الدولي: إدانة تدخل أي بلد في شؤون بلد آخر.

---

(١) جريدة اليوم. الخميس ١٠ رمضان ١٤٢٩هـ، ١١ سبتمبر ٢٠٠٨م، العدد ١٢٨٧٢.

ثم ينتقل سماحته في تحليل للعلاقة بين الحاكم والمحكوم في قسم عنونه بـ (دولة اللاعنف) حيث يؤكد أن الامتحان الحقيقي لأي قيادة هو في التعامل مع المناوئين أو المخالفين أو المنافسين لها، فإن أغلب الزعامات غير الديمقراطية تقمع مثل هذه الحالات تحت مختلف العناوين والمبررات، ومن تقوم بالقمع هي عقلية الاستبداد، وتضخم الذات، وحب الهيمنة والاستحواذ، ما يؤدي إلى تهميش المجتمع، ووأد طاقاته وكفاءاته، كما يؤسس لحالات الانقسام والمواجهة والصراع.

ثم يشرع في سرد كيفية تعامل النبي محمد ﷺ كقيادة مع من خالفوه من التيارات المناوئة، والعناصر المخالفة، داخل المجتمع الإسلامي في المدنية المنورة، وهم تيار (المنافقين) هؤلاء الذين أظهروا انتماءهم للإسلام وأضمروا بغضهم له ولمبادئه.

فقد كان عناصر المنافقين بمكانتها القبلية، وتسترها بالإسلام، واستغلالها للمشاعر العاطفية، وآثار العهد الجاهلي ورواسبه، تمتلك مساحة من التأثير في المجتمع، وقد أدرك النبي محمد ﷺ خطورتهم على مسيرة الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي، فكان لزامًا عليه ﷺ التعامل معهم.

ونرى المؤلف يجمل لنا دور المنافقين في عهد النبوة حيث قاموا بعدة أدوار، منها: التشجيع على محاربة الإسلام بتواصلهم مع المشركين واليهود وتنسيق الجهود والمواقف معهم، وسعيهم المحموم لإضعاف الجبهة الداخلية للإسلام ببث الشكوك تجاه الإسلام وقيادته، وتآمرهم ضد الإسلام ووضع الخطط الكيدية، وإرباك وتثبيط عزائم المسلمين، وعرقلة أوامر القيادة وإفشال البرامج والسياسات.

وتحت عنوان (سياسة الاستيعاب) يوضح سماحته أن الرسول الأكرم ﷺ تعامل مع المنافقين بصدر رحيب واحتمال عظيم رغم إساءاتهم الخطيرة، فيوضح الخطوط العريضة لأوجه تعامل الرسول ﷺ مع المنافقين فيما يلي: عدم اللجوء للقوة والقمع رغم جرائمهم واستفزازهم، وعدم مصادرة أي حق من حقوقهم المدنية، بل إنه ﷺ كان يبذل لهم الإحسان ويحوطهم بمداراته ويشملهم بكريم أخلاقه.

والسيرة النبوية على امتداد سنواتها معطرة ومطرزة باحتوائها لكل المواقف السيئة التي تصدر عن قصد أو بدون قصد تجاه الإسلام وشخص النبي محمد ﷺ ولم يستخدم ضدهم القمع والعنف في أي حالة من الحالات رغم توفر الأسباب والمبررات.

فإدارة النبي محمد ﷺ لكل جزئية من الجزئيات ترفض العنف، وتبني دولة اللاعنف، بحث يجد الناس أمامهم فرصة للتعبير عن آرائهم وأفكارهم مهما كانت مخالفة لتوجه القيادة دون أن يتعرضوا للتصفية والتنكيل.

وضمن عنوان (بناء الوحدة والشراكة الاجتماعية) يتساءل سماحته: كيف يمكن تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية في مجتمع يعيش انقسامات حادة على أساس قومي أو ديني أو مذهبي أو مناطقي أو قبلي ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل، يرجعنا إلى الإنجاز التاريخي الذي تحقق على يد رسول الله ﷺ بقيام الدولة والمجتمع الإسلامي الأول، فبعد أن كانت نزعة الطرف والولاء للقبلية، وحالة الصراع والاحتراب بين قبائل العرب سائدة، استطاع الرسول الأكرم ﷺ في أقل من ربع قرن من الزمن أن يقلب المعادلة، ويبني من تلك القبائل المتناحرة مجتمعًا متماسكًا حقق رجاله معجزات علمية.

استطاع النبي محمد ﷺ أن يذوب كل تلك الحواجز التي كانت بين القبائل في قالب إيماني اخترق تلك النفوس المتصارعة، وحولها إلى نفوس مطمئنة. حول ولاءهم إلى الهوية الإسلامية المشتركة بدل الانتماء العشائري، ليفخر الجميع بدرجة متساوية بإسلامهم رغم اختلاف قبائلهم وتفاوت مكانتها وقوتها.

كما رسخ النبي محمد ﷺ ثقافة الوحدة، وذلك باجتثاث جذورها النفسية والفكرية، ومقاومة آثارها السلوكية، حيث أكدت التعاليم السماوية أن الأصل واحد لكل بني الشر، ونسفت كل مبررات التفاضل الزائفة بين الناس إلا على أساس كسبهم الاختياري للصفات الفاضلة، كما شن الرسول الأكرم ﷺ حربًا ضارية على الأفكار والتصورات الجاهلية كالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتماء القبلي أو العرقي.

ولا شيء يحقق الوحدة الاجتماعية كالشراكة الفعلية بين أطرافه كلها، حيث كان الرسول ﷺ يمارس الشورى على الصعيد الاجتماعي العام ليدلي كل شخص سواءٌ أكان صغيرًا أم كبيرا برأيه، كما أن الحوار والإقناع هو ديدن الرسول ﷺ ومن يقرأ سيرته يرى أن الحوار كان منهجه في الدعوة إلى الله تعالى.

ويبرز الكاتب معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة في فصل يخصصه لذلك، ويورد قصصًا حدثت في سبيل تبليغ الرسول للدعوة، كقصة الحصار والمقاطعة، وأذى عمه أبي لهب، ومحاولات الاغتيال والضرب والإهانة والسخرية والتحقير ويوم الطائف.

هو كتاب يضعك على مفاصل مهمة في الفلسفة الإسلامية، فلسفة التعامل مع الغير، وثقافة الاختلاف، فلسفة الاختلاف في إطار الاحترام.

توقعات بإطلاق سيريوس ستار خلال أيام[1]

تفاعل أهالي المخطوف بالأنباء التي تواردت بشأن الإفراج عن الناقلة السعودية المختطفة من قبل قراصنة على السواحل الصومالية، مشيدين بكافة من ساهم في الوصول إلى الحل الذي من شأنه الإفراج عن الناقلة وطاقمها المحتجزين بداخلها.

من جهة أخرى زار سماحة الشيخ حسن الصفار مساء أول أمس الاثنين منزل أسرة آل حمزة في حي التركيا بمحافظة القطيف. والتقى والد حسين آل حمزة السعودي الوحيد على متن ناقلة النفط (سيريوس ستار)[2] المختطفة من قبل القراصنة الصوماليين.

وقال الشيخ الصفار إنه ذهب لزيارة أسرة آل حمزة من باب الواجب، ومشاركة لهم في هذه الظروف الصعبة التي يمرون بها، مشيرًا إلى أنه من الواجب عليَّ أن أقف معهم ليشعروا أن المجتمع يتفاعل مع ما هم فيه، كما أكد أن ابنهم حسين هو ابننا جميعًا، فنحن في هذا الوطن كالجسد الواحد.

من جانبه شكر والد المخطوف (موسى آل حمزة) الشيخ حسن الصفار على الزيارة وعلى هذه المشاعر الطيبة، مضيفًا أننا قلقون وخائفون من المصير المجهول لابني حسين، آملًا أن أرى ابني في أسرع وقت، مضيفًا إننا أوكلنا أمرنا لله تعالى.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٢٧ ذو القعدة ١٤٢٩هـ، ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٨م، العدد ١٢٩٤٨.

(٢) قام قراصنة في بحر العرب في ١٥ نوفمبر ٢٠٠٨م باختطاف ناقلة نفط سعودية تحمل اسم «سيريوس ستار» التي تملكها شركة «فيلا البحرية» إحدى شركات «أرامكو» السعودية، وتحمل طاقماً من ٢٥ فردًا من كرواتيا وبريطانيا والفلبين وبولندا والسعودية.

إطلالة حول الكرامة الإنسانية بين النص والخطاب الديني[1]

■ **إبراهيم بن علي آل عاشور**

نطلّ من جديد على ثمرة من ثمرات فكر الشيخ حسن الصفار، حيث بلغت ـ حسب علمي ـ ثمراته الفكرية أكثر من مئة مؤلف، ثمرة تقف بنا على أهم ما يحتاجه الإنسان في حياته، أقصد بذلك حقوقه، حيث يعرض في الكتاب كيف يصون ويحفظ الإسلام حقوق الإنسان ذكرًا كان أم امرأة، مسلمًا كان أم غير مسلم.

تبلغ صفحات الكتاب مئة وإحدى وتسعين صفحة، تناول فيها الشيخ تسعة مواضيع تتعلق بحقوق الإنسان، نوردها في هذا المحفل على عجالة من أمرنا: الإنسانية بين النص والخطاب الديني، حيث يقول في هذا الموضوع: «يحتل الخطاب الديني في مجتمعاتنا الإسلامية موقعية خطيرة من التأثير لا يضاهيه فيها أي خطاب آخر، فهو الذي يصوغ العقل الجمعي، ويوجه السلوك العام، نظرًا لارتباط مجتمعنا بالدين، ولما يمثله هذا الخطاب في نظرها من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه».

ثم يتناول موضوع كرامة الإنسان والخطاب الديني حيث يقول فيه: «إننا نجد في

(١) جريدة اليوم. الخميس ٢٥ محرم ١٤٣٠هـ، ٢٢ يناير ٢٠٠٩م، العدد ١٣٠٠٥.

النصوص الإسلامية تأكيدًا على فضل الإسلام والإيمان، ومدخليته في كمال شخصية الإنسان، وإشادة بمكانة الإنسان المسلم ـ المؤمن، وتوجيهًا لاحترامه ورعاية حقوقه».

تلاها بتحدثه عن الخطاب الديني والاهتمام بالإنسان حيث يقول فيه: «إن خطابنا الديني يحتاج إلى اهتمام أكبر بالقضايا الإنسانية، لحشد الجهود لمعالجة كثير من الحاجات ومتطلبات الحياة في مجتمعاتنا التي تعاني انتشار الأمية والفقر ونقص الخدمات».

ثم يشرع في التحدث حول عنوان الإسلاميين وحقوق الإنسان حيث يقول «لقد أكدت آيات القرآن الكريم، قبل انبثاق مواثيق حقوق الإنسان في أوروبا بعشرة قرون على كرامة الإنسان، وحفظ حقوقه المادية والمعنوية بكل تفاصيلها وجزئياتها، واعتبرت أن أي انتهاك لشيء من هذه الحقوق يشكل عدوانًا ومناوأة لله تعالى ولدينه ورسله، تستوجب غضب الله تعالى وسخطه وعقوبته».

بعدها يتحدث سماحته حول واجب الدفاع عن حقوق الإنسان، حيث يقول في هذا الصدد: «إن القرآن الكريم يشجع من انتُهك شيءٌ من حقوقه أن يجهر بالاعتراض وإعلان ظلامته، بما يقتضي ذلك من نيل وتشويه لسمعة الجهة المعتدية والإساءة إليها... ومن سعى وتحرك للانتصار لحقوقه، والدفاع عن مصالحه المشروعة، فقد مارس حقه الطبيعي، ولا لوم عليه ولا مؤاخذة له، ولا ينبغي للإنسان أن يتساهل ويفرط في مصالحه فيقع عليه الحيف من الآخرين، فإنه بذلك لا ينال التقدير من الناس ولا الثواب من الله سبحانه».

ويواصل الشيخ التحدث عن حقوق الإنسان تحت عنوان «ثقافة حقوق الإنسان وبرامج العمل»، حيث يقول في هذا الصدد: «إن أول خطوة في طريق إحقاق حقوق الإنسان والدفاع عنها، هي التعريف بتلك الحقوق، ونشر ثقافتها، ذلك أن الكثير من مجتمعاتنا لا يعرفون الحقوق التي لهم والتي عليهم تجاه الآخرين، فلا يطالبون بما لهم، ولا يلتزمون بما عليهم، بسبب الجهل وانعدام المعرفة».

ثم شرع في التحدث حول عنوان «بين الحقوق والواجبات»، حيث يقول: «قسم كبير من الناس يوغلون في التمحور حول ذواتهم، فيرون الحق من الزاوية التي يكونون فيها، ويتحدثون دائمًا عن المفروض والواجبات على الغير، دون أن يلتفتوا إلى ما عليهم من حقوق وواجبات، وكأن الحق يدور معهم حيثما داروا».

وانتقل بعدها الشيخ ليتحدث حول قدسية الحياة وثقافة الاستهتار، حيث يقول في هذا الخصوص: «تحتاج الأمة إلى صياغة جديدة لوعي الإنسان المسلم، لعلنا نطبب تلك الجراحات التي أحدثتها ثقافة الاستهتار بالحياة، ونرسم لوحة من القيم النبيلة لصورة الإسلام الحقيقي، التي عملت تلك العقليات الخربة على تشويهه في نظر الآخرين».

ويختم الشيخ الكتاب بالتحدث حول مبحث النهي عن المنكر شفقة وإصلاح، حيث يقول فيه: «إن حرية الإنسان لا معنى لها خارج دائرة الأحكام والفرائض الشرعية الأخرى، فكما يأمر الإسلام باحترام حرية الإنسان، فإنه أيضًا يأمر المكلفين بتطبيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي واحدة من الفرائض الأخرى كالصلاة والصيام والحج والزكاة».

ويذيل الشيخ كتابه بثلاثة ملاحق، هي: وثائق، جاءت الأولى بعنوان (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)، وجاءت الثانية بعنوان «إعلان حقوق الطفل»، وجاءت الثالثة بعنوان (وثيقة حقوق الإنسان في الإسلام).

هو كتاب يبحث في أهم ما يركز عليه الخطاب الديني، ويسلط الضوء حول أسس الخطاب الديني وعلاقتها بحقوق الإنسان، كما يحاول معالجة بعض مكامن الخلل التي قد تعطل وظيفة الخطاب الديني وبالتالي حقوق الإنسان.

مطالب كويتية بالتحقيق في الواقعة

«هوسات» تستهزئ بالشيخين بن باز وبن عثيمين وتفجر الغضب[1]

■ خالد المطيويع ـ الدمام

على أثر بث مقطع فيديو على موقع «يوتيوب» تم تصويره في الكويت يتعرض لعدد من العلماء بالمملكة، طالب الشيخ حسن الصفار بسن نظام يجرم التحريض على الكراهية والإساءة للأشخاص.

وقال الشيخ الصفار: أشعر بالقلق، من النعرات الطائفية التي تشحن النفوس، والاتجاهات المتشددة التي غزت مختلف المناطق، ولا بدّ لنا جميعًا كأهالي المنطقة من السنة والشيعة أن نتحمل مسؤوليتنا في حماية الجيل الجديد من عدوى التشدد الطائفي، وأن نواصل مسيرة التعايش والتواصل والتعاون التي نفخر بها في هذه المنطقة.

وأضاف إن على العقلاء من السنة والشيعة أن يتحركوا لمنع الفتنة، ولمنع أن تتجه الأمور نحو التصعيد.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٤ صفر ١٤٣١هـ، ٢٠ يناير ٢٠١٠م، العدد ١٣٣٦٨.

الصفار: حمل مضامين عميقة عن نبذ العنف والتسامح[1]

قال الشيخ حسن الصفار حول خطاب خادم الحرمين الشريفين: تمتاز خطابات خادم الحرمين الشريفين بإدراك ثقل المسؤولية، وتنمية الحس الوطني، ورعاية مقاصد الشريعة. فخطابه أمام مجلس الشورى تضمن مفاهيم ورؤى عميقة، ورسم تطلعات عالية، حيث أكدّ منهجية الحوار والوسطية والتعايش، و تبني خطاب سلامي يقوم على التسامح والتقريب ونبذ مظاهر العداء والكراهية بين أتباع المذاهب والأديان، وأشار إلى معركة الوطن المصيرية ضد التشدد والتطرف والإرهاب، إضافة إلى ما تضمنه الخطاب من عرض لاهتمام الدولة بالقضايا الأساسية لمصالح الوطن والمواطنين، كالدفاع عن حدود الوطن، والارتقاء بمستوى التعليم، وتطوير مرافق القضاء، والتأكيد على دور المرأة ومشاركتها في التنمية إلى جانب شقيقها الرجل، ومواصلة مسيرة التنمية الاقتصادية، وتوفير حياة الرفاه للمواطنين.

وقال الصفار: علينا جميعًا كمواطنين أن نتحمل المسؤولية في خدمة هذه التوجهات الوطنية الرائدة، فلا نقصّر في أداء الواجبات، ولا نسكت على الخطأ، وأن نبذل كل الجهود لتحقيق هذه التطلعات الكبيرة.

---

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول ١٤٣١هـ، ٩ مارس ٢٠١٠م، العدد ١٣٤١٦.

في استجابة لدعوة مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطنى

لقاء «التعايش» يطالب بتعزيز الوحدة والمحبة بين مكونات المجتمع[1]

■ **جعفر الصفار، ليلى المزعل، ليلي الخميري - القطيف**

في استجابة لدعوة مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطنى التى تحث على التواصل بين أبناء الوطن والتلاقي بين النخبة الواعية نظم منتدى حوار الحضارات ندوة بعنوان «لقاء التعايش ووحدة الوطن» حضره جمعٌ من العلماء والأدباء والمثقفين من جدة والمدينة والرياض ونجران والخبر والدمام والأحساء والقطيف.

وقد التقت «اليوم» عددًا من الشخصيات التي حضرت اللقاء..

بداية قال الشيخ حسن الصفار: إن الذي دعاه لحضور اللقاء إيمانه القوي بصلابة الوحدة الوطنية وتأكيد التعايش في الوطن الواحد، وأن قيادة البلاد تتبنى شعارات الحوار والتعايش داعيًا في الوقت نفسه إلى وقفة وطنية شعبية تدعم هذا التوجه. مشددًا على ضرورة تحويل هذه المشاريع الوطنية إلى واقع عملي على الأرض، داعيًا لوقفة وطنية شعبية تدعم هذه التوجهات وتحويلها لمشروع فعلي..

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ١٤ ربيع الآخر ١٤٣١هـ، ٣٠ مارس ٢٠١٠م، العدد ١٣٤٣٧.

العبيكان والعلي: نقاط اتفاق مع الشيعة ونسعى معًا للعيش المشترك[1]

■ **خالد المطيويع و أحمد المسري الدمام، القطيف**

أكد المستشار القضائي في الديوان الملكي الشيخ عبد المحسن العبيكان بأن الحوار بين السنة والشيعة من شأنه أن ينتج اتفاقًا على الأصول ونقاطًا للتلاقي، واعتبر الشيخ العبيكان تأكيد الشيخ حسن الصفار وهو أحد الرموز الشيعية بالمنطقة الشرقية بتحريم سب الصحابة وأمهات المؤمنين إيجابيًا.

وقال الشيخ العبيكان:الشيخ حسن الصفار سبق وأكد في جلسة مشتركة بأن المصحف الذي يطبع في مطابع مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة هو المصحف المعترف به.

وأضاف أن الشيخ الصفار حرم سبّ الصحابة وحرم التعرض لأمهات المؤمنين وسبهن. وقال العبيكان: تأكيد الصفار بحرمانية كل هذا يشكل أمرًا إيجابيًا ونقطة تلاق.

وقال المستشار القضائي في الديوان الملكي الشيخ عبد المحسن العبيكان لـ اليوم: إننا نسعى إلى الجلوس معًا للحوار والاتفاق على الثوابت لما فيه الخير، أما الفروع فقد

(١) جريدة اليوم. الجمعة ١٧ ربيع الآخر ١٤٣١هـ، ٢ أبريل ٢٠١٠م، العدد ١٣٤٤٠.

جعل الإسلام فيها مساحة كبيرة للاجتهاد.

وكان الشيخ حسن الصفار قد أفتى في وقت سابق بتحريم التعرض لصحابة رسول صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن ما ألقى ارتياحًا كبيرًا لدى أهل السنة، من جهة أخرى لا تزال المحاولات بالنيات الصافية تتوالى وتنبع من هنا وهناك من أجل زيادة اللحمة الوطنية من جميع الأطياف وفي مختلف الأماكن فتنبع فكرة هنا وفكرة من هناك لجمع الصفوف حيث احتضن منتدى الوسطية في مدينة صفوى مؤخرًا ندوة ضمت كلًا من الشيخ الدكتور محمد صالح العلي والشيخ حسن موسى الصفار في حوار تحت عنوان «ثقافة السلام والعيش المشترك» ليجسد الشيخان ثقافة تبشر بالأمل وضمان العيش المشترك المبني على التسامح والعفو والثقافة المرتكزة.

حيث قال الدكتور العلي من جامعة الإمام محمد بن سعود فرع الأحساء قسم كلية الشريعة لا بدّ أن نمتلك صفة التسامح والتعايش والاعتراف بالآخر مشيرًا إلى وجود احتقانات وهناك من ينفخ فيها ومن هنا يكمن الخطر في ذلك ولن تنتهي هذه الاحتقانات إلا إذا وجد العيش المشترك والتسامح والسلام، فالدين الإسلامي هو أول من أسس وأرسى هذه القيم، فالقرآن والسنة النبوية يغرسان فينا هذه القيم.

فيما قال الشيخ حسن الصفار: نحن المسلمين لا بد وأن نقضي على الخلل المتواجد عندنا ونعالج ذلك حتى لا يفرز لنا نتائج وصراعات متنوعة ونحن نحتاج إلى ثقافة تصنع السلام وتفرز العيش المشترك، والمسلمون لا يوجد عندهم أي تعصب في عرق أو عنصرية ولكن يوجد لدينا حديث «الفرقة الناجية» الذي سيطر علينا حيث الكل يرى نفسه هو المعني بذلك ونحتاج لثقافة تذويب هذا الأمر، وتجمع بيننا وتقضي على مواطن الفرقة لنعيش جميعًا بسلام وعيش مشترك.

دعا لمواجهة العنف بنشر ثقافة التسامح والحوار

الصفار: الردع وحده لا يكفي لحماية الأمن الاجتماعي[1]

طالب الشيخ حسن الصفار، بتأسيس مراكز أحياء في كل بلدة بالمحافظات والمناطق لحماية الأمن الاجتماعي تضم بعض رجال الأعمال والعلماء والمثقفين، مشددًا فى الوقت نفسه على أن دور تلك المراكز ليس بديلًا عن الجهات الرسمية في البلاد، وإنما داعمًا لها من خلال التواصل والتعاون مع الجهات الأمنية والخدمية لتحقيق المنفعة العامة للمجتمع وحفظ مصالح الناس وحمايتها.

برامج وقائية

وأوضح الشيخ الصفار في لقاء عقد بديوانية الشاب وفي الشيوخ في جزيرة تاروت مساء أمس الأول بحضور ٧٠ شابًا يمثلون مجموعات شبابية مختلفة. إن الردع وحده لا يكفي لحماية الأمن الاجتماعي وإنما لا بدّ من التفكير في إيجاد برامج وقائية ومنظومة أمنية وثقافية وأخلاقية متكاملة.

(١) جريدة اليوم. الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، ٤ مايو ٢٠١٠م، العدد ١٣٤٧٢.

حالات قتل

وقال: في الماضي لم تكن هناك حالات قتل في المجتمع، إلا نادرًا، فيما نسمع اليوم عن حالات كثيرة يلعب فيها السلاح دورًا هاما، مضيفًا أن استخدام السلاح في المشاجرات مؤشر لتنامي ظاهرة العنف الاجتماعي، محذرًا من عدم التصدي للعنف بعنف مضاد وإنما عن طريق نشر ثقافة تحث على التسامح والحوار بدلًا من التناحر والقتل لأتفه الأسباب.

حماية الناس

ورأى الشيخ الصفار أن أسباب انتشار العنف تعود لأسباب عدة، منها: ضعف التنشئة الأسرية، مشددًا على أن وسائل الإعلام تلعب دورًا فاعلًا يؤثر على تنشئة الأبناء، منوهًا إلى أهمية قيام الأجهزة الأمنية بواجبها في حماية الناس، وبالخصوص مع تعقّد الحياة اليومية وتطوّر وسائل ارتكاب هذه الجرائم. داعيًا إياها إلى وجوب تطوير آليات عملها وإلى الجاهزية الكافية بما يحقق الأمن الاجتماعي للمواطن.

ردع ورقابة

وأشار إلى أن الأجهزة الأمنية تتحمل المسؤولية الأكبر في معالجة هذه الظواهر، من خلال مضاعفة جهدها ودورها على صعيد حماية أموال وأعراض الناس. وشدد الشيخ الصفار في نهاية اللقاء على ضرورة إشراك الشباب وإفساح المجال أمامهم في العمل الاجتماعي وإعطائهم دور القيادة في حل مشاكل المجتمع، مشيرًا إلى أهمية استقطاب الجمعيات الخيرية والمشاريع الثقافية والدينية طاقات الشباب وتفعيلها.

الصفار يطالب بمشاركة المرأة في الأنشطة الاجتماعية[1]

شدد الشيخ حسن الصفار على ضرورة مشاركة المرأة في النشاط الاجتماعي مشيرًا بدورها في العمل التطوعي لما يحققه ذلك من ترابط وتآلف بين أفراد المجتمع، مؤكدًا أن الدين الإسلامي يحث على العمل التطوعي. ودعا الشيخ الصفار في لقاء مفتوح عقد مساء أمس الأول بحضور ٥٠ ناشطة اجتماعية يمثلون لجان تطوعية وجمعيات خيرية إلى أهمية تحمل المسؤولية في عمل الخير والبذل في سبيل الله سواء بالمال أو الجهد أو القول أو العمل ونشر القيم الإسلامية والتوعية بثقافة العمل التطوعي والحث على بناء الكفاءات العالية في مجال النشاط الاجتماعي.

وناقش الشيخ الصفار مع الناشطات بعض العراقيل التي تواجههن أمام مزاولتهن للنشاط الاجتماعي والاستمرار فيه، وذكرت إحدى الناشطات مشكلة عزوف شريحة كبيرة من المجتمع عن الحضور عن الأنشطة الثقافية لعدم وعيها بأهميتها.

وأضافت ناشطة أخرى أن ضعف وعي البيئة الأسرية بالعمل التطوعي من أشد المعوقات لمشاركة المرأة في النشاط الاجتماعي واستمرارها فيه.

في الوقت نفسه من الاندفاع والعجلة في مجال العمل الخيري التطوعي.

---

(١) جريدة اليوم. الخميس ٢٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، ٦ مايو ٢٠١٠م، العدد ١٣٤٧٤.

الصفار يلتقي المبتعثين بجامعة أيوا الأمريكية[1]

التقى الشيخ حسن الصفار أثناء زيارته للولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الطلبة المبتعثين بجامعة شمالي أيوا في مدينة سيدر فولس بولاية أيوا.

وألقى الصفار محاضرة بعنوان (تغيير النفس نواة التطور)، حث فيها الطلاب على البدء بتغيير النفس من (الداخل الفردي ثم محاولة التغيير من الخارج الاجتماعي). وقال: إن التغيير أصبح ضرورة لتقدم المجتمعات بما يتناسب والواقع الحالي منوها أن تغير الأفراد لا يغير المجتمعات إلا بشرط أن يكون هناك مشروع والتغيير يُعنى بأمرين، تغيير الأفكار، وتغيير المشاعر والأحاسيس بحسب تعبيره.

وأكد بأن هجرة الإنسان لطلب العلم أبعد من كسب معلومات ومعارف فقط، فهي كسب قيم وأساليب وطرق لحياة متقدمة، مشددًا على تعلم المنهجية في العلم والعمل والتصنيع فهي بحسب قوله أكثر الأمور ضرورة لنتاج التغيير.

وأشاد بتواصل أبناء الوطن من مختلف مناطقهم، كالقطيف والرياض ونجران والقصيم وجدة والدمام في مدينة سيدرفولس وهنأ الخريجين بإنجازهم داعيًا إياهم مواصلة طريق العلم والمعرفة.

---

(١) جريدة اليوم. الاثنين ٣ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ، ١٧ مايو ٢٠١٠م، العدد ١٣٤٨٥.

وحضر اللقاء البروفسور الدكتور بجامعة أيوا رضي المبيوق ومهدي البحارنة.

كما التقى الصفار المبتعثات في جامعة أيوا داعيًا إياهن إلى الجدّ والاجتهاد في دراستهن وأن يكن قدوات في أخلاقهن ليمثلن دينهن ومجتمعهن أفضل تمثيل. وأكد عليهن أن يهيئن أنفسهن لممارسة دور أكثر فاعلية في «خدمة الوطن والمجتمع».

يشار إلى أن الشيخ الصفار قام بتكريم الطلبة الخريجين من الدفعة الأولى بشهادة البكالوريوس في جامعة شمالي أيوا بالولايات المتحدة بإحدى قاعات الجامعة،

والخريجون المكرمون، هم: علي الغباري، السيد أحمد الهاشم، أمجد البو أسعد، محمد البحارنة، مصطفى البوري.

الصفار: مشروع الحوار الوطني بدأ يؤتي ثماره[1]

قال الشيخ حسن موسى الصفار: إن تجربة الحوار الوطني الذي انطلق قبل عدة سنوات في المملكة بدأ يؤتي ثماره، وأضاف: تغيرت الأوضاع الثقافية والفكرية في البلد، بسبب اعتماد العقلاء الحوار كأداة حضارية ودينية للتواصل.

وأوضح الصفار خلال لقاء أقيم مؤخرًا في العاصمة الأميركية واشنطن أنه ومنذ أن انطلق مشروع خادم الحرمين الشريفين للحوار الوطني في المملكة فإن الأوضاع الداخلية العامة بدأت تشهد تغيرًا ملحوظًا إما على صعيد الحراك الفكري والإعلامي، أو على الصعيد الاجتماعي، فلقد تبنى العقلاء في البلد، وفي إطار مشروع الحوار الوطني، مبدأ الاعتراف بالآخر واحترام الرأي والرأي الآخر وكذلك الاعتراف بالتنوع المذهبي على وجه التحديد، كأدوات حضارية ودينية ووطنية للتواصل بين مختلف شرائح المجتمع، الأمر الذي ساعد كثيرا على تهدئة الأجواء وتليين المواقف.

واستعرض الشيخ الصفار بعض مشاهد الحراك الثقافي والاجتماعي في المملكة، كما تناول بعض العوائق والتحديات التي تعترض مسيرة الإصلاح والتطوير، وكان الصفار قد أجاب في نهاية محاضرته عن أسئلة الحضور الكريم التي تنوعت بين

(١) جريدة اليوم. الجمعة ١٤ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ، ٢٨ مايو ٢٠١٠م، العدد ١٣٤٩٦.

الأسئلة الفكرية والأخرى السياسية.

وقدم الشيخ الصفار نصائح للطلاب المبتعثين للدراسة في الولايات المتحدة ألأميركية بألا يألوا جهدًا من أجل تحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله إلى بلاد الغربة ألا وهو طلب العلم، وأتمنى عليهم أن يواصلوا دراساتهم العليا وتخصصاتهم في كل المجالات التي يدرسون فيها، فهم قادة المستقبل وبناة البلد.

وأشار إلى أن المشكلة في معظم جامعاتنا هي أنها تخرج موظفين، أما الطلبة المبتعثون فإن عليهم ألا يفكروا بهذه الطريقة وإنما يسعون من أجل أن يكونوا مفكرين ومخترعين ومبدعين في اختصاصاتهم العلمية التي يدرسون فيها.

وعلى صعيد آخر أقام سفير خادم الحرمين الشريفين في الولايات المتحدة الأمريكية عادل الجبير مأدبة غذاء على شرف الشيخ حسن الصفار بمناسبة زيارته لواشنطن في مقر السفارة بحضور أركان السفارة والملحق الثقافي وسائر الملحقين الرسميين، و أكد السفير الجبير على أن اهتمامه بأوضاع المبتعثين تنفيذًا لتوجيهات خادم الحرمين الشريفين، كما أشاد بدور الأندية السعودية وبروز الطاقات الجادة في دراستها التي أحرزت التفوق ونيل مراتب الشرف في الجامعات التي تدرس فيها.

في منتدى «حوار الحضارات» بالقطيف

الشيخ الصفار: برنامج خادم الحرمين للابتعاث أساسي لتنمية المجتمع(1)

أشاد الشيخ حسن الصفار ببرنامج الابتعاث الذي أطلقه خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، وأتاح الفرصة لعشرات الآلاف من أبناء الوطن لتلقي العلم والمعرفة من أرقى الجامعات، مشيرًا إلى أنه يعدّ أهم عوامل التقدم في المجتمع السعودي، وقال الشيخ الصفار في لقاء عقد أمس الأول في منتدى حوار الحضارات بمحافظة القطيف بعنوان «المبتعثون وتطلعات المجتمع» إن برنامج الابتعاث يهدف إلى إتاحة الفرصة لنخبة من أبناء هذا الوطن حتى يتربوا في رحاب وأحضان تلك الجامعات العريقة في مختلف دول العالم، من أجل أن يعودوا لنا بالنتائج التي تساعدنا على النهوض وتوطين العلم والمعرفة في بلادنا، وعلى أن نكون منتجين للعلم والمعرفة في المستقبل.

وأكد الشيخ الصفار أن نجاح برنامج الابتعاث يعني نجاحنا كشعب ووطن، واصفًا إياه بـ «الوطني والطموح»، وأنه ينبغي أن نعمل جميعًا على إنجاحه، منوهًا إلى أن هذا البرنامج ليس برنامجًا حكوميًا تتحمل الحكومة ـ فقط ـ مسؤوليتها، معتبرًا أن برنامج

---

(1) جريدة اليوم. السبت ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ، ٥ يونيو ٢٠١٠م، العدد ١٣٥٠٤.

الابتعاث مفردة من مفردات التواصل والتداخل الإيجابي مع الأمم والشعوب الأخرى، لافتًا إلى أن من مصلحة وطننا وشعبنا الانفتاح على تلك الشعوب والأمم، وأن انفتاحنا عليها لن يؤثر على التزامنا بديننا، مراهنًا بذلك على الثقة بأنفسنا.

واستعرض الشيخ الصفار ما رآه من أوضاع الطلاب المبتعثين، وقال «إن فرصة الدراسة ستتيح للطالب السعودي التعرف على تجارب الأمم والشعوب، ما يترك استفادة لديه فينقل ما رآه من قيم التقدم والتطور لمجتمعه السعودي».

وجاءت مداخلات الحضور في ختام المحاضرة لطرح بعض الإشكاليات والهواجس والصعوبات التي قد تواجه المبتعثين خاصة ما بعد عودتهم وكان من أبرزها مداخلة الدكتور سعيد عطية أبو عالي، وعبداللطيف البريكي، وسعيد الخباز، ومحمد الغانم، وعلي شعبان، وعلي البحراني.

الصفار يدعو لتعزيز الوحدة الوطنية والبعد عن «اتهام النوايا»[(١)]

دعا الشيخ حسن الصفار، الكتاب والمثقفين في محافظة القطيف إلى تعزيز الوحدة الوطنية وإدارة الاختلاف بين الفرقاء في الساحة المحلية بروح حضارية بعيدًا عن أساليب اتهام النوايا وممارسة الوصاية والإقصاء بحق الأطراف العاملة.

جاء ذلك على هامش زيارة قام بها عشرات الكتاب والمثقفين للشيخ الصفار في مكتبة مساء أمس الأول فى إطار الاستياء العام من ارتفاع حدة الجدل واستخدام أساليب التحريض والتعبئة بين الفئات المختلفة في الساحة المحلية. وألقى الصفار كلمة شكر فيها اهتمام الكتاب والمثقفين بتنقية الأجواء الاجتماعية في المنطقة.

وأعرب عن تطلعه لبلوغ مرحلة إدارة الاختلاف بين الأطراف بروح حضارية بعيدا عن اتهام النوايا وفرض الوصاية أو الإقصاء ضد الأطراف الأخرى. مستدركًا أن اختلاف الآراء وتعدد وجهات النظر أمر طبيعي وصحي في كل مجتمع. وأدان الشيخ الصفار المواقع الإلكترونية التي تنشر المقالات والتعليقات لكتاب مجهولين، معتبرًا ذلك مدخلًا للاختراقات من قبل أعداء المجتمع الذين يعملون على إشغال المجتمع بالنزاعات والخلافات لإضعافه وإسقاط رموزه وشخصياته.

---

(١) جريدة اليوم. الجمعة ١١ شعبان ١٤٣١هـ، ٢٣ يوليو ٢٠١٠م، العدد ١٣٥٥٢.

كما دعا لتعزيز الوحدة الوطنية قائلًا: «يجب أن نحرص على الوحدة الوطنية. فنحن حينما نطرح مشروع الوحدة كنا أول المستجيبين سلمًا من أنفسنا، حيث لم نقاتل، ولم ندعُ للعنف، بل بالعكس رحبنا بهذا المشروع، مشروع بناء الدولة الواحدة والانضمام إلى هذا الكيان». مشيدًا بدعوات خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز وسمو ولي العهد الداعية للوحدة الوطنية، مشيدًا بأهل المنطقة الشرقية وانتمائهم الوطني الصادق.

ودعا الصفار إلى تجاوز الخلافات بين المواطنين؛ لأننا نعيش في بلد واحد، وضرورة تجاوز حالات القطيعة، منوهًا بالتوجهات الرسمية التي تشجع على ذلك بدءًا بترسيخ الحوار الوطني إلى الدعوات التي يصرح بها المسؤولون ونبذ الطائفية.

وقال الشيخ الصفار: إنه لا يتحمل مسؤولية ما ينشر في أي موقع الكتروني آخر سوى موقعه الخاص، وأنه يبرأ إلى الله من أي إساءة أو تشكيك في أديان الناس ونواياهم. وأكد أن الحوار مع الأطياف الأخرى مفيد لتجاوز سلبيات القطيعة والصور النمطية المتداولة بوصفه قيمة في حدّ ذاته، وليس مجرد وسيلة لعلاج مشكلة سياسية.

مثمّنًا رسالة القرضاوي..

الشيخ الصفار: ضرورة التركيز على إدانة ظاهرة الشحن الطائفي(1)

■ **جعفر الصفار ـ القطيف**

بعث رجل الدين الشيعي الشيخ حسن الصفار رسالة شكر وامتنان إلى رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الدكتور يوسف القرضاوي تعليقًا على إشادة الشيخ القرضاوي بالتصريحات التي وصفها بالإيجابية الرصينة للشيخ الصفار تعليقًا على المسيئين لعرض رسول الله ﷺ والتعرّض لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأكد الشيخ الصفار أن ذلك هو أقل واجب الغيرة والذبّ عن حرمة النبي الأعظم، والدفاع عن شرف زوجاته أمهات المؤمنين، ولحماية وحدة الأمة من عبث العابثين، وتصرّفات الحمقى الجاهلين المنحرفين، وصدّ اختراقات الأعداء الطامعين.

وأشاد الشيخ الصفار بما ذكره الشيخ القرضاوي من حاجة التقريب بين الفرق الإسلامية إلى المواقف الجادّة من قبل عقلاء كل طرف تجاه ممارسات الإساءة في أوساطه للطرف الآخر.

وأوضح الصفار أن من بين أهداف المتطرّفين في الجانبين ومن يقف خلفهم إيقاع

(1) جريدة اليوم. الاثنين ١١ شوال ١٤٣١هـ، ٢٠ سبتمبر ٢٠١٠م، العدد ١٣٦١١.

اليأس والإحباط في نفوس دعاة الوحدة والتقريب، حتى يتراجعوا عن حمل هذا المبدأ العظيم والتبشير به، مؤكدًا أن وجود الشيخ القرضاوي وأمثاله من أئمة الدعوة المخلصين الواعين بمقاصد الشريعة، والمدركين لما يحيط بالأمة من أخطار هو ما تعقد عليه الآمال بعد لطف الله تعالى وعنايته، للتصدي لهذه التوجّهات البغيضة، ولبث روح المحبة والوئام في أوساط أبناء الأمة.

وكان الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي قد ثمّن موقف العلماء الشيعة في المملكة إزاء الإساءات التي أطلقها ياسر الحبيب بحق أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، وذلك من خلال رسالة شكر بعثها القرضاوي إلى الشيخ حسن الصفار مشيدًا بالتصريحات التي وصفها بالإيجابية الرصينة للشيخ الصفار تعليقًا على الإساءة إلى زوج النبي الأكرم أم المؤمنين عائشة.

من جهته، أكد الشيخ حسن الصفار أمام مئات المواطنين في محافظة القطيف أمس الأول على أن ما حدث من إساءة من قبل مجتبى الشيرازي، وياسر الحبيب ينبغي أن يدفع علماء الأمة إلى الوحدة والتقارب وتركيز الجهود على إدانة ظاهرة (الشحن الطائفي)، بدلًا من الاكتفاء بإدانة المتطرفين في مختلف الأطراف.

الصفار في خطبة الجمعة: إياكم والعنف والمندسين[1]

دعا الشيخ حسن الصفار في خطبة الجمعة بالقطيف الشباب إلى ضرورة الالتزام بالوسائل السلمية في التعبير عن الرأي وعدم الانجرار إلى أي شكل من أشكال العنف، محذرًا من أي دعوة باتجاه مظاهر العنف، قائلًا: «لا تُستدرجوا للعنف، ولا تسمحوا لمندسين بممارسات عنفية، وكونوا كما عهدناكم أبناءً بررة».

وقال الصفار: إن «العنف منزلق خطير»، مستشهدًا بأمثلة من عهد الرسول الكريم تكشف عن مدى اهتمام الإسلام بالحياة، فقد وجد رجل مقتول من قبيلة جهينة ولا يعلم قاتله، فغضب رسول الله لذلك فأمر باجتماع المسلمين في المسجد وصعد فيهم خطيبًا قائلًا : «أيها الناس، أيقتل إنسان ولا يعلم قاتله، والله لو أن أهل السماوات والأرض اشتركوا في دم مسلم واحد بريء أو رضوا به لكان حقًا على الله أن يكبهم كلهم على مناخيرهم في نار جهنم».

وقال: «لقد فجع مجتمعنا في القطيف هذه الأيام بإراقة دماء ٤ شباب كما أصيب عدد من الجرحى، ما أدى إلى تشنج الأوضاع، وهياج المشاعر. وإننا نحذر من هذا الانزلاق الخطير نحو هاوية العنف وسفك الدماء».

---

(١) جريدة اليوم. الجمعة ٢٨ ذو الحجة ١٤٣٢هـ، ٢٥ نوفمبر ٢٠١١م، العدد ١٤٠٤٢.

وأضاف: إن استخدام الشغب والعنف أمر مدان ومرفوض، وأن هذا الحدث يمكن أن يكون محورًا لتوحيد المواطنين والتفافهم حول تعزيز الأمن ونبذ العنف، مؤكدًا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعدّ تدخلًا في خصوصيات الغير، بل هو رفع لمستوى الاهتمام بالسلوك الاجتماعي العام.

احتفاء وتقدير لتجربة الفنان الضامن في أمسية بالقطيف[1]

في احتفالية كبيرة ممزوجة بالوفاء كرم منتدى الثلاثاء الثقافي بالقطيف الفنان التشكيلي عبد العظيم الضامن

حضر الأمسية التي حملت عنوان «دور الفن في تنمية المجتمع: الفنان عبد العظيم الضامن أنموذجًا» العديد من الشخصيات الفكرية والثقافية، وحشد كبير من المهتمين. في بداية الأمسية التي قدمها الإعلامي محمد الحمادي، رحب عضو إدارة المنتدى محمد آل محسن بالحضور وبالفنان الضامن، المحتفى به تقديرًا لجهوده وعطائه الكبير والمستمر طوال السنوات الماضية.

وتحدث الشيخ حسن الصفار مثنيًا في حديثه على عطاء الفنان الضامن، مشيدًا بميزتين تميز بهما، وهما: الحس الفني الرفيع، بالإضافة لنشاطه وحيويته في العمل.

وأكد الصفار أن الضامن طاقة من النشاط وكتلة من الحيوية والعمل، حيث استطاع أن يتجاوز كافة الصعوبات التي من الممكن أن تعيق أي صاحب نشاط وفعالية، وهذا يعود لإصراره على التميز والعطاء والانفتاح على كافة مناطق الوطن.

---

(١) جريدة اليوم. الجمعة ٣ ذو الحجة ١٤٣٣هـ، ١٩ أكتوبر ٢٠١٢م، العدد ١٤٣٧١.

الشيخ الصفار يندد بالإساءة إلى صحابة النبي وزوجاته[1]

دان الشيخ حسن الصفار إهانة الرموز الدينية واعتبرها «أمرًا مرفوضًا جدًا»، مستنكرًا بشدة «التطاول على صحابة النبي وزوجاته»، وقال إن «هذا التصرف مدان ومستنكر وهو مخالف لما أمر به أهل البيت شيعتهم».

وهاجم الشيخ الصفار من وصفهم بتيار البذاءة والإساءة الى رموز أهل السنّة قائلًا: إنهم يقومون بدور مشبوه لتبرير أعمال القتل والإرهاب التي يرتكبها التيار التكفيري.

وأضاف أمام حشد من أهالي القطيف أمس الجمعة أن «الأمة باتت تعاني من وجود تيارين خطرين على وحدتها، تيار التكفير والإرهاب الذي نشأ وسط أهل السنة، وتيار البذاءة والإساءة الى رموز أهل السنّة الذي تشكل حديثًا وسط الشيعة»، مضيفًا أن كبار المرجعيات والرموز الشيعية أدانت بشدة ممارسات هذا التيار واعتبروه مخالفًا لمدرسة أهل البيت وخارجًا على توصيات الأئمة في العلاقة مع أطياف الأمة.

وأشار الصفار إلى الفتوى الصادرة من المرجع الأعلى السيد علي السيستاني التي أدانت تصرفات أفراد هذا التيار الذين خرجوا في حي الأعظمية ببغداد وأساؤوا لرموز أهل السنة، مشددًا على أن غرض تيار الإساءة لرموز السنّة هو التغطية على الممارسات

(١) جريدة اليوم. السبت ٧ ذو الحجة ١٤٣٤هـ، ١٢ أكتوبر ٢٠١٣م، العدد ١٤٧٢٩.

العنفية لتيار التكفير والإرهاب «فهم بتصرفاتهم الحمقاء يغطون على التيار التكفيري ويبررون له أمام الرأي العام وسط أهل السنّة». وأفاد بأن الغرض الآخر لتيار البذاءة هو تأجيج الفتنة الطائفية بالإمعان في الإساءة لأكثر الرموز الدينية احترامًا في أوساط أهل السنّة لتحقيق الاستفزاز الأقصى في صفوفهم، لافتًا إلى أن الغرض الأخير هو إفشال المساعي المتعثرة أساسًا للتقريب والوحدة بين أطياف الأمة التي يقف خلفها العقلاء والمعتدلون السنّة والشيعة.

وتابع: «إن القوى المعادية للأمة هي من ترعاهم وتدعمهم لأن هذا يخدم مخططاتها وأهدافها»، مستدركًا بأن هذا التيار يحظى كذلك بدعم بعض «الحمقى والموتورين» الباحثين عن موطئ قدم وزيادة الاتباع في أوساط الشيعة عبر «دغدغة» المشاعر المذهبية والطائفية المتنامية في ظروف الفتن والنزاعات.

وجدد الشيخ الصفار دعواته إلى العلماء والباحثين لتنقية التراث الإسلامي، قائلًا: «نحتاج إلى تنقية التراث وتعطيل الألغام الموجودة فيه وإلا ستنفجر بواقع الأمة»، معربًا عن أمله في تكثيف المراجع الدينية والعلماء والدعاة أدوارهم في توعية الأمة وتحذيرها من الانخداع والانسياق خلف تيار التكفير والإرهاب من جهة وتيار البذاءة والإساءة على الجهة المقابلة. وزاد في حديثه، أن الأمة أحوج ما تكون للوحدة والتقارب لا سيما في موسم الحج وفي هذا الظرف الحسّاس الذي تعيش فيه مرحلة انتقالية تأمل أن تتجاوز معها واقع الاستبداد والهيمنة الأجنبية والعبور نحو الحكم الرشيد.

الشيخ الصفار يستعرض التواصل المذهبي في المملكة بالكويت[1]

استعرض الشيخ حسن الصفار تجربة المملكة في التواصل بين النخب الدينية، والثقافية من السنة والشيعة، مشيرًا إلى أنها تجربة ثرية، وإيجابية ومشجعة، وذلك بحضور نخبة من الأكاديميين، والمثقفين في مجلس الشيخ «عبدالله دشتي» في دولة الكويت، وسلط (الصفار) الأضواء على تجربة التواصل مع علماء السنة في المملكة، مبينًا أن التواصل والتقارب بين أبناء الأمة على اختلاف مذاهبها يجب أن يكون مبدأً، واستراتيجية يعمل من أجلها كل الواعين والمخلصين.

(١) جريدة اليوم. الخميس ١١ جمادى الأولى ١٤٣٥هـ، ١٣ مارس ٢٠١٤م، العدد ١٤٨٨١.

القطيف.. تفعيل دور الجهات لتثقيف المجتمع بـ «بر الوالدين»[1]

■ **جعفر الصفار ـ القطيف**

طالب المشاركون في مشروع «برّ الوالدين» تحت شعار «رضاهما جنة» في ختام فعالياته بتفعيل دور الجهات المختصة في تثقيف المجتمع وتعريفه بقيمة برّ الوالدين، ومدى الآثار السلبية الناتجة عن عقوقها، بحضور عدد من الشخصيات الرسمية والاجتماعية والدينية في القطيف.

وقال الشيخ حسن الصفار: إن إعلان يوم برّ الوالدين والاحتفاء بهذه القيمة الإنسانية الأخلاقية العظيمة، هو مكسبٌ كبيرٌ لمجتمعنا، ومكسبٌ كبيرٌ لإثراء المشاعر والأحاسيس الإيجابية في المجتمع الإنساني، مضيفًا، أن مسألة البرّ بالوالدين لا يختلف عليها اثنان من المتدينين بدين الإسلام أو المتدينين بغير دين الإسلام، والدواعي لذلك يجتمع فيها الجانب الشرعي والجانب الفطري والعقلائي.

(١) جريدة اليوم. الخميس ٢٢ رجب ١٤٣٥هـ، ٢٢ مايو ٢٠١٤م، العدد ١٤٩٥١.

الكفاءات الشبابية قادرة على تحريك عجلة التطور بالمجتمع[1]

■ **جعفر الصفار ـ القطيف**

ثمّن روّاد مجلس الشيخ حسن الصفار بمحافظة القطيف الذي يعقد أسبوعيًا دور المؤسسات الخيرية واللجان التنموية على ما تقدمه من خدمات إنسانية تكفي حاجة البعض من أفراد المجتمع.

مبينًا أن هذه المؤسسات هي بأمسّ الحاجة إلى الكفاءات والقدرات الشبابية التي تستطيع القيام بدورها بشكل فعال، و طالب عدد من رواد المجلس وهم رؤساء وأعضاء بعض الجمعيات الخيرية بالإضافة إلى عدد من رجال الدين وطلبة العلم أن على هذه الكفاءات أن تبادر بالمشاركة في أعمال هذه المؤسسات بغرض الاستفادة من طاقاتهم؛ لأن ذلك سوف يخدم المجتمع، وليس الانتظار حتى يطلب منهم.

وقد تناول صاحب المجلس الشيخ حسن الصفار عددًا من المحاور في حديثه قائلًا: إن في مجتمعنا الكثير من الكفاءات الذاتية التي باستطاعتها أن تحرك عجلة التطور والنماء داخل أروقة هذه المؤسسات الاجتماعية، وإن القائمين على هذه المؤسسات

(١) جريدة اليوم. الخميس ٢٧ شعبان ١٤٣٥هـ، ٢٦ يونيو ٢٠١٤م، العدد ١٤٩٨٦.

ليس بإمكانهم تلبية حاجات الناس إذا لم يكن هناك رافد قوي من قبل أفراد المجتمع، سواء كان ماديًا أو معنويًا، ولذلك فقد أوضح الصفار ضرورة وجود أشخاص من ذوي القدرات القيادية والكفاءات الإدارية وذوي المهارات والطاقات والمواهب التي تسهم بشكل فعال في ازدهار وتطور أعمال هذه الجمعيات.

وأشار الصفار إلى أن المشاركة في الأعمال الخيرية التي تقدمها هذه المؤسسات في المجتمع تظهر معنى التكاتف والتضامن بين أفراده، وهي مرآة ناصعة تظهر قوة المجتمع ورقيه الحضاري، وقال: إن العمل في هذه المؤسسات يمثل مستوى متقدمًا من البذل والعطاء والإنفاق وبذل الجهد والوقت والجاه، ويجب أن يشكر جميع العاملين في هذه المؤسسات على ما يبذلونه من جهد ومال.

وقد تطرق الصفار في نهاية حديثه إلى الدور الذي تقوم به بعض المؤسسات الخيرية في دعم البرامج الإنسانية والاجتماعية في المملكة، ومنها مؤسسة الأمير الوليد بن طلال الخيرية، التي تبنت برنامجًا خيريًا يعنى بدعم الإسكان، بالإضافة إلى بعض الأعمال الأخرى، كذلك مؤسسة الملك خالد بن عبدالعزيز الخيرية التي ترعى عددًا من البرامج الاجتماعية في مختلف مناطق المملكة.

«تحديات الوطن» في لقاء لجنة التواصل مع شخصيات بالقصيم(١)

■ جعفر الصفار ـ القطيف

نظمت لجنة التواصل الوطني بالقطيف عدة لقاءات وجولات لشخصيات ثقافية وأدبية من مدينة عنيزة خلال زيارتهم للمنطقة يومي الأربعاء والخميس الماضيين.

وضم الوفد الزائر رجل الأعمال فهد العوهلي الأمين العام لمؤسسة عبدالعزيز العوهلي الخيرية، والأديب صالح الكريدا مسؤول برنامج دمج العوق البصري والمهندس عبدالرحمن القرعاوي الاستشاري في العديد من المؤسسات الخيرية في عنيزة.

وتناولت اللقاءات الحوارية أبرز التحديات التي يواجهها الوطن، حيث أكد الحضور أهمية تفعيل دور المثقفين لتعزيز الوحدة الوطنية.

وأشاد حسن الصفار خلال استقباله الوفد في مكتبه بمؤسسة العوهلي الخيرية، وقال: إن الزيارة تعزز قيمة التواصل بين أبناء المجتمع.

وأضاف: ننتظر من رجال الأعمال الكثير لخدمة مجتمعاتهم، فهم الأهمّ في المجتمع وقد حباهم الله وأنعم عليهم، وعليهم تقع مسؤولية تنمية مجتمعاتهم، وأشاد الصفار برسالة المؤسسة التي لخصت في (تنمية المجتمع).

(١) جريدة اليوم. الأحد ١٨ ذو الحجة ١٤٣٥ هـ، ١٢ أكتوبر ٢٠١٤م، العدد ١٥٠٩٤.

الشيخ حسن الصفار يؤكد أن منفذي العملية الإرهابية بالأحساء أرادوا تفجير النسيج الاجتماعي الوطني في المملكة[1]

أكد الشيخ حسن الصفار أن المتطرفين الإرهابيين الذين استهدفوا قتل أبرياء في قرية الدالوة بمحافظة الأحساء، إنما هم أرادوا من ذلك تفجير النسيج الاجتماعي الوطني، وإشعال الفتنة الطائفية.

وقال في تصريح لوكالة الأنباء السعودية: «إن الردّ المطلوب على هذه الجريمة النكراء، هو تعزيز التلاحم والتعايش الوطني، بنشر ثقافة التسامح، وتجريم التحريض على الكراهية، وإدانة الشحن الطائفي».

وأشار الصفار إلى أن ضحايا هذا العدوان الأثيم نحتسبهم عند الله تعالى شهداء أبرارًا، ونسأل الله تعالى لهم المغفرة والرضوان ورفيع الدرجات، وأن يلهم ذويهم الصبر والسلوان، وأن يمنّ على الجرحى والمصابين بالشفاء العاجل، ويعوضهم بخير الدنيا والآخرة، مشيدًا بموقف أهل الأحساء ووطنيتهم، حيث أثبتوا ما كان متوقعًا منهم، وما هو معروف في تاريخهم من التسامي على الجراح، ونضج الوعي الديني والوطني، والتمسك بنهج التعايش والتسامح.

---

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٢ محرم ١٤٣٦ هـ، ٥ نوفمبر ٢٠١٤م، العدد ١٥١١٨.

وأشاد بمواقف التعاطف والتضامن الواعية النبيلة، التي انطلقت على مستوى الوطن، من مسؤولين وعلماء وكتّاب وإعلاميين، استنكروا هذا العدوان الأثيم، التي تؤكد الوحدة والمساواة بين المواطنين، وترفض نهج التطرف والإرهاب والتكفير، وأن هذه المواقف المشكورة هي خير سلوة وعزاء، يجب استثمارها والتأسيس عليها لتعزيز الوحدة الوطنية، وسدّ الثغرات التي ينفذ منها أصحاب الفكر الضال.

وثمن الجهود المبذولة من رجال الأمن الذين سقط منهم شهداء وقدموا أرواحهم وبذلوا كل جهدهم في مواجهة الإرهابيين وحماية الوطن، مقدمًا إلى أهلهم وذويهم واجب العزاء، داعيًا الله أن يلهم أهلهم الصبر والسلوان.

ودعا الشيخ الصفار في ختام تصريحه، الله العلي القدير أن يحمى بلادنا وبلاد المسلمين من كل شر ومكروه، ويعين الله أمتنا على مواجهة الفتن والتحديات، وسدّد خطوات قادتها ـ حفظهم الله، نحو التقدم والإصلاح.

تعزيز التلاحم الوطني أبلغ ردّ على الجريمة النكراء[1]

أكد الشيخ حسن الصفار، أهمية الوحدة الوطنية، مشيرًا إلى أن إقدام المتطرفين الإرهابيين على قتل ٥ مواطنين وإصابة ٩ آخرين في قرية الدالوة الأحساء، يؤكد رغبتهم في تفجير النسيج الاجتماعي الوطني، وإشعال الفتنة الطائفية، وشدد على أن الردّ المطلوب على هذه الجريمة النكراء، هو تعزيز التلاحم والتعايش الوطني، بنشر ثقافة التسامح، وتجريم التحريض على الكراهية، وإدانة الشحن الطائفي، وأضاف قائلًا: «أثبت أهلنا الكرام في الأحساء ما كان متوقعًا منهم، وما هو معروف في تاريخهم من التسامي على الجراح، ونضج الوعي الديني والوطني والتمسك بنهج التعايش والتسامح».

(١) جريدة اليوم. الخميس ١٣ محرم ١٤٣٦ هـ، ٦ نوفمبر ٢٠١٤م، العدد ١٥١١٩.

الصفار: الحادث أظهر صفاء القلوب[1]

طالب الشيخ حسن الصفار خلال تقديمه واجب العزاء في شهداء بلدة الدالوة، بأن نعمل جميعًا حتى لا تضيع دماء شهداء الوطن هدرًا، التي يجب أن تصان ويجب أن تحفظ وذلك لا يتحقق إلا إذا كانت هذه الدماء سببًا في تجفيف منابع التطرف والإرهاب والتكفير والتوجهات الإجرامية التي عاثت في أوطان المسلمين فسادًا وتخريبًا وشوهت سمعة الإسلام في العالم، وقد وصل بلاؤها وخطرها إلى مختلف الأرجاء أن تتضافر الجهود والقوى في مواجهة هذه التيارات المتطرفة وذلك لا يكون إلا بتجفيف منابع الثقافة التكفيرية ثقافة التحريض على الكراهية وعلى البغضاء والتعبئة التعصبية التي نجدها في مختلف المجالات والأوساط آن للوطن أن تتكاتف جهود أبنائه المخلصين حتى يضعوا حدًا لهذه الثقافة الإرهابية الإجرامية.

الإرهاب لم يأتِ من فراغ وإنما جاء من هذه الأرضية التي نما فيها والتي أصبحت لكل هذا البلاء الخطير والعظيم على الأمة والدين، إن أهم ما نسعى إليه أن يستثمر الوطن هذه الدماء وأن نوظف هذا التفاعل الوطني الرائع الذي حصل بعد هذه الحادثة المروعة من أجل تصنيف الوحدة الوطنية ووضع حدٍّ لهذه التوجهات الإرهابية المتطرفة، ولا يفوتني أن أشيد بأهالي الأحساء الكرام الذي بيضوا الوجوه على مستوى

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ١٩ محرم ١٤٣٦ هـ، ١٢ نوفمبر ٢٠١٤م، العدد ١٥١٢٥.

الوطن وعلى مستوى العالم بأدائهم الوطني الوحدوي. هذه الحادثة أظهرت للعالم كله ولأبناء الوطن مدى الطيبة والصدق الذي يكمن في نفوس الأحسائيين وكلنا نعيش هذا الصفاء وهذا الإخلاص.

الصفار يدعو لتعزيز الوحدة الوطنية لمواجهة الإرهاب[1]

دعا الشيخ حسن الصفار إلى سنّ قانون يجرم التحريض الطائفي والحض على الكراهية وإثارة العنصرية بين فئات الشعب السعودي.

وأضاف الصفار أمام جمع من المواطنين في محافظة القطيف، الجمعة بقوله: «لا يصح أبدًا ترك الساحة مفتوحة للمحرضين ضد مكونات المجتمع والوطن»، مضيفًا: إن قوانين تجريم التحريض على الكراهية وإثارة العنصرية إنما تأتي في مصلحة الأمن واستقرار المجتمعات. وتابع: إن التعبئة الطائفية تخلق أرضية للاحتراب والعنف وتقود حتمًا لأعمال العنف والاقتتال، وهذا ما لا يرتضيه أي مجتمع أن يتحول إلى ساحة نزاع واحتراب.

وقال الصفار: «لا يكفي مواجهة حالات التعدي على الحقوق المعنوية للآخرين بالوعظ والنصيحة»، داعيًا إلى مواجهة ذلك بإيقاع العقوبات المباشرة كما يقضي الشرع والقانون. وأشاد الشيخ الصفار بما وصفه بالتعاطي الإيجابي الذي أظهره أهالي الأحساء في أعقاب وقوع «فاجعة الدالوة» وسقوط ثماني ضحايا برصاص العناصر الإرهابية.

---

(١) جريدة اليوم. الأحد ٢٣ محرم ١٤٣٦ هـ، ١٦ نوفمبر ٢٠١٤م، العدد ١٥١٢٩.

وقال الشيخ الصفار: إن الأهالي «أثبتوا للجميع ما هو معروف في تاريخهم.. من الإصرار على وحدة الصف وإدانة المعتدي دون تعميم أو انجرار إلى الفتنة».

وأضاف: إن فاجعة الدالوة أيقظت الضمير الوطني وسلطت الأضواء على خطورة التجييش الطائفي وضرره على الجميع بما يخلقه من أرضية للاحتراب والاقتتال. وأشاد بالتعاطي الرسمي والتعاطف الشعبي على المستوى الوطني مع ضحايا الحادثة. ورأى الشيخ الصفار أن الوقت بات مناسبًا لمعالجة ملف التحريض الطائفي. ودعا إلى انتهاز الفرصة وأخذ زمام المبادرة.

وتابع: إن وطننا مستهدف من قوى الإرهاب، داعيًا إلى مواجهة هذه القوى «بصف واحد»، مشيرًا إلى أن الجميع ينتظر أن تكون حادثة «الدالوة» منعطفًا إيجابيًا في تاريخ البلد بفضل تعاون الجميع.

المملكة السابعة عالميًا في الإصابة بالمرض..

مشروع وطني لمكافحة السكري والسمنة أمام وزراء الصحة الخليجيين[1]

■ **سيف الحارثي ـ الخبر**

تعليقًا على محاضرة الدكتور كامل سلامة: (المشروع الوطني لمكافحة السكري والسمنة) المقامة في ديوانية الأطباء مساء أمس الأول بمنزل الشيخ عبدالعزيز التركي رئيس ديوانية الأطباء بالمنطقة الشرقية، طالب الشيخ حسن الصفار، بأن تتبنى الجهات الدعوية والمؤسسات الدينية في المملكة هذه الاستراتيجية «المشروع» خاصة وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد وهيئة كبار العلماء من أجل حثّ أئمة المساجد والخطباء بالتحذير من مرض السكر والسمنة والمدعوم عقلًا وشرعًا لأن إنكار تفشي هذه الأمراض واجب على كل مسلم ويندرج تحت إيذاء النفس البشرية ولا بدّ ان يكون لهم دور في هذا المشروع الوطني الضخم.

(١) جريدة اليوم. الخميس ١٣ جمادى الآخر ١٤٣٦ هـ، ٢ إبريل ٢٠١٥م، العدد ١٥٢٦٦.

أهالي القطيف طالبوا بالانتباه إلى مخطط التفرقة

رسالة تشييع شهداء القديح تأكيد على تلاحم الوطن والتصدي للفتنة[1]

■ **جعفر تركي، جعفر الصفار ـ القطيف**

جسّد مشهد تشييع شهداء مسجد الإمام علي بن أبي طالب بالقديح أمس الأول اللحمة الوطنية بين جميع أطياف الوطن واتفق الجميع على أن الارهاب وعملياته المشبوهة هدفها تمزيق وحدة الوطن وجرّه إلى الفتنة، وأرسل مشهد التشييع رسائل أبرزها أن أهالي القطيف طالبوا بالانتباه إلى مخطط التفرقة الغاشم.

وأكد الشيخ حسن الصفار، أن المشهد العظيم لتشييع شهداء مسجد الإمام علي في القديح رسالة ثبات وصمود.

مشيرًا إلى أن مشهد التشييع لم تشهد البلاد له نظيرًا، لافتًا إلى أن الأهالي أثبتوا القدرة على التلاحم وإدارة المواقف وتنظيم الأمور.

وقال الصفار: إن الإرهابيين القتلة أرادوا بث الرعب والذعر في النفوس، من خلال استهداف بيت من بيوت الله وجمع من المصلين يوم الجمعة.

مبينًا أن العمل الإرهابي سعى لدفع الناس تجاه مواقف التشنج والتوتر وإيقاظ الفتنة

(١) جريدة اليوم. الأربعاء ٠٩ شعبان ١٤٣٦ هـ الموافق ٢٧ مايو ٢٠١٥م، العدد ١٥٣٢١.

الطائفية، مؤكدًا أن تلك الأهداف خابت وفشلت.

مضيفًا أن أهالي القطيف رضعوا الثبات والعزيمة والقوة بالتمسك بالدين، مؤكدًا أن مواطني القطيف يختزنون الحب الصادق للوطن والوعي العميق بالوحدة الوطنية، وبالتالي فمن الطبيعي أن ينجحوا في تجاوز الامتحان الصعب مع هول الفاجعة وقسوة الألم.

وأضاف: أنّ مشهد تشييع الشهداء مثل رسالة واضحة في الثبات والصمود ضد الارهاب والإجرام، بالإضافة لإدانة ورفض التحريض على الفتنة الطائفية.

مشيرًا إلى أن هناك تحريضًا مستمرًا وتشكيكًا وقدحًا في الولاء للوطن بأساليب مختلفة عبر مختلف وسائل الإعلام والمنابر.

وذكر أن مواطني القطيف أصروا على وضع حدًّ لهذا التحريض، خاصة بعد حادثة الدالوة الأليمة في الأحساء قبل شهور، لافتًا إلى أن التحريض يجرح الكرامة، ويهيئ أجواء الفتنة، ويشجع على القتل والإرهاب.

وأعرب عن أمله في أن تؤدي هذه رسالة (التشييع) التي أكدها مئات الآلاف المشاركين في التشييع دورها، وأن تجد الإصغاء والاستجابة الضرورية لحفظ أمن الوطن وحماية وحدته.

وسأل الله ـ تعالى ـ الرحمة للشهداء الأبرار الذين عرجت أرواحهم إلى بارئها في يوم مبارك ومكان مقدّس وهم يؤدون الصلاة لربهم، وأن يمنّ على الجرحى بالشفاء العاجل وأن يلهم أهالي القديح الكرام خاصة وأهالي القطيف عامة الصبر والسلوان.

وشكر الجهود المبذولة من قبل اللجان وجميع المواطنين في إظهار هذا التشييع بالمظهر اللائق وجزيل الامتنان للوفود التي شاركت أهالي القطيف المصاب الأليم من مختلف المناطق من داخل المملكة وخارجها.

ذوو شهداء العنود والأهالي عبر اليوم:

شكرًا لوقفة الملك سلمان وعزاء المواطنين خفف آلامنا[1]

■ **جعفر الصفار ـ القطيف**

قدَّم ذوو شهداء جامع الحسين بحي العنود وأهالي القطيف والدمام الشكر لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، ولصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف ولي العهد وزير الداخلية، ولصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان ولي ولي العهد، وصاحب السمو الملكي أمير المنطقة الشرقية الأمير سعود بن نايف، على وقفتهم ومواساتهم لأسر الشهداء، مقدمين الشكر والعرفان لخادم الحرمين الشريفين على أمره بمعاملة ضحايا الحادث الإرهابي معاملة شهداء الواجب ومنحهم نوط الشجاعة.

وأثنى الشيخ حسن الصفار على بيان وزارة الداخلية الأخير الذي وصف شهداء العنود بالأبطال، معبرًا في الوقت نفسه عن جزيل الشكر إلى اللفتة الكريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز على تقليد شهداء مسجد العنود بالدمام نوط الشجاعة من الدرجة الأولى.

(١) جريدة اليوم. الأحد ٢٠ شعبان ١٤٣٦ هـ، ٧ يونيو ٢٠١٥م، العدد ١٥٣٣٢.

وقال خلال خطبة صلاة الجمعة بمسجد الرسالة بالقطيف: إن المواقف الوطنية أثبتت وقفتها الصادقة مع الأحداث الأليمة سواء من خلال الكتابات المختلفة في وسائل الإعلام المقروءة والمكتوبة والمسموعة، أو عبر الحضور الشخصي لتقديم واجب العزاء، لافتًا إلى أن الوفود التي قصدت شهداء القديح وشهداء العنود لم تقتصر على منطقة دون أخرى بالمملكة، بل شملت جميع أرجاء البلد المترامي الإطراف.

وأشاد بالجهود الكبيرة والتعاون المنقطع النظير الذي برز خلال مراسيم التشييع في حادثتي القديح والعنود، حيث لمس الجميع التعاون الكبير بين رجال الأمن والمواطنين، معتبرًا ذلك دلالة على ارتفاع مستوى الوعي لدى الجميع في التعاطي مع المرحلة الحرجة التي تمرّ بها البلاد، خصوصًا وأن التعاون يمثل الضمانة للاستقرار وتفويت الفرصة على الأعداء لشق الصف الواحد.

ورأى أن تعامل الناس في القطيف والاحساء والدمام مع الأحداث الإرهابية الثلاثة أثبت وعيًا إسلاميًا وطنيًا رائعًا، لافتًا إلى أن طريقة التعامل في ردود الأفعال خيبت الآمال لدى الأعداء، وأكدت مدى التماسك والتآلف بين جميع الشرائح الاجتماعية.

وأكد أن الجميع كابد الآلام لما حصل في الدالوة والقديح والعنود، معتبرًا هذه الأحداث الدامية امتحانًا وابتلاًء للمجتمع، متطلعًا أن ينجح المجتمع في الامتحان الصعب والخروج من الأزمة الحالية بعزيمة قوية.

وأرجع أسباب الإرهاب إلى انطلاق التيار التكفيري من جديد، لافتًا إلى أن هذا الفكر يقوم على إقصاء الجميع ويحرض على القتل وإسالة الدماء دون احترام لحرمة الدماء، وذكر الشيخ الصفار أن الصراعات الإقليمية والإرادات الدولية التي تريد الهيمنة على الشعوب تمثل أحد أسباب الإرهاب، مؤكدًا أن المجتمع يمرّ حاليًا بتحدٍّ وابتلاء كبير وهو مواجهة آفة الارهاب.

المحتويات

تقديم ٧

مقدمة.. ١١

الفصل الأول: ثقافة الوحدة والحوار والتسامح ١٧

العداوات .. الأخطار والأزمات........................ ١٩

احترام مشاعر الناس ٢٥

حق الاختلاف ٣٣

الموقف من الرأي الآخر ٤١

أولوية احترام الناس........................ ٤٧

فضيلة الاعتذار (١/ ٢) ٥٣

فضيلة الاعتذار (٢ – ٢) ٥٧

الفرار من الخصومات........................ ٦١

الاستجابة الواعية للتحديات ٦٥

إطفاء الحرائق الاجتماعية........................ ٦٩

الارتياب وتدمير العلاقات ٧٣

بين الحقوق والواجبات ٧٧
الأمن والتقدم ٨٣
ثقافة السلم وأخلاقياته ٨٩
منهجية التفكير ٩٧
وقفة بين الموضوعية والانحياز ١٠١
الدين بين الانتماء والتطبيق ١٠٥
مرض الغرور في الدين ١٠٩
الدين في حياة الإنسان ١١٣
الدين بين العقل والتقليد ١١٧
لا إكراه في الدين ١٢١
احترام الآخرين في تربية الإسلام ١٢٥
الحوار منهجية الدعوة ١٢٩
واقع الاختلاف في حياة البشر ١٣٣
ثقافة الوحدة والحوار ١٣٧
رفض الانغلاق ١٤٣
مؤسسات أهلية للسلم الاجتماعي ١٤٧
هل نقرأ الآخر؟ ١٥١
التعرف على الآخر: من سمات التقدم ١٥٥
نحو قراءة موضوعية للآخر ١٥٩
كيف نقرأ الآخر ١٦٣
الدين يصنع الوحدة ويُستغل للتمزيق ١٦٧

التعاون سبيل النهوض ١٧١
كيف ننمي إرادة التعاون؟ ١٧٧
الخوف من التعاون ١٨١
علماء الدين والمسؤولية الخطيرة ١٨٥
الأمة ومشاريع الوحدة ١٨٩
العلماء والاختلافات في الأمم السابقة ١٩٣
حين يختلف العلماء ١٩٧

الفصل الثاني: قضايا الثقافة والفكر ٢٠١

حركة الوعي والثقافة في المجتمع ٢٠٣
معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة ٢١٣
حصانة المسلم وحقوق المواطنة ٢١٩
القدوة الصالحة ٢٢٥
شهر رمضان ومكاشفة الذات ٢٣١
شهر رمضان وعادات خاطئة ٢٣٧
ليلة القدر: قرارات التحول والتغيير ٢٤٣
الانفتاح على الرأي الآخر ٢٤٧
الشورى على صعيد الفرد والمجتمع ٢٥١
الشورى تربية وسلوك ٢٥٥
في ظل الشورى ٢٥٩
مبدأ الشورى و صيغة التطبيق ٢٦٣
الدماء خط أحمر ٢٦٧

قدسية الحياة........................ ٢٧١
ثقافة الاستهتار بالحياة ٢٧٥
قصة من التاريخ في الدفاع عن حقوق الإنسان........................ ٢٧٩
الدفاع عن الحقوق........................ ٢٨٣
ثقافة حقوق الإنسان ٢٨٧
العمل من أجل حقوق الإنسان ٢٩١
الخطاب الإسلامي والانتماء للعصر ٢٩٥
الخطاب الديني من أجل التنمية والبناء ٢٩٩

الفصل الثالث: من هموم السياسة ٣٠٣

أمريكا وصدام الحضارات ٣٠٥
في مواجهة الحملات والضغوط ٣٠٩
الاستقرار والأمن ٣١٣
عن الموقف من الإرهاب ٣١٩
الشعب العراقي والامتحان الصعب ٣٢٣
خطاب التطرف والثمن الباهظ ٣٣١
العلاقة بين الدول الإسلامية........................ ٣٣٥
التطرف وتعويق حركة الإسلام........................ ٣٣٩
الاستقرار السياسي........................ ٣٤٣

الفصل الرابع: بناء الذات وأخلاقيات النجاح ٣٤٧

المسؤولية الشرعية والوطنية في العمل الوظيفي........................ ٣٤٩

بين التحاسد والتنافس١/ ٢ .... ٣٥٩
بين التحاسد والتنافس٢/ ٢ .... ٣٦٣
التخطيط في الانفاق ٣٦٧
الاستهلاك وعادات الإسراف ٣٧١
تحدي العوائق ٣٧٧
هدر الأوقات ٣٨١
المبادرة واستباق الخيرات ٣٨٥
شخصية المبادر ٣٨٩
العوائق بين الإحباط والفاعلية ٣٩٥
كيف نواجه المشاكل والتحديات ٤٠١
الوسواس في مناطق حياة الانسان ٤٠٥
الوسوسة في العبادات والأحكام ٤٠٩
الوقاية من العصاب القهري ٤١٥
تساؤلات حول العصاب القهري ٤١٩
التقدم واحترام الكفاءات ٤٢٣
تقدير الكفاءة والإبداع ٤٢٧
نحو علم نفس إسلامي ٤٣١
الخوف برؤية قرآنية ٤٣٥
من مفردات علم النفس ٤٤١
الخوف من الله كيف ولماذا؟ ٤٤٥
الخوف: الجذور والأسباب «١/ ٢» ٤٤٩

الخوف: الجذور والأسباب «٢/ ٢» ٤٥٣
التربية وتنمية الخوف ٤٥٧
الخوف من الفشل........................ ٤٦١
أكبر المخاوف أمام الإنسان «٢/ ١» ٤٦٥
أكبر المخاوف أمام الإنسان «٢/ ٢» ٤٦٩
أنماط الشخصية ٤٧٣
التعبير عن المشاعر ٤٧٧

الفصل الخامس: الفاعلية الاجتماعية ٤٨١

الشباب: محاولة فهم........................ ٤٨٣
الانفتاح على الشباب........................ ٤٨٩
قلق الاختبارات........................ ٤٩٥
العطلة الصيفية ووقت الفراغ ٥٠٣
وقت الفراغ: رؤية دينية........................ ٥٠٧
نحو استثمار أفضل للعطلة الصيفية........................ ٥١٣
العمل التطوعي في خدمة المجتمع........................ ٥١٩
التطوع ظاهرة إنسانية........................ ٥٢٣
النادي الرياضي والمجتمع ٥٢٩
النادي الرياضي ودوره الاجتماعي ٥٣٣
الرياضة.. برؤية دينية........................ ٥٣٩
كيف يفكر اليتيم؟........................ ٥٤٣
المجتمع واليتيم ٥٤٧

رعاية الايتام.. ٥٥١

الفصل السادس: في التنمية الأسرية ٥٥٥

الفحص الطبي قبل الزواج ٥٥٧
نحو وعي تربوي ٥٦٣
كيف نفهم أطفالنا؟.................................... ٥٦٩
المرأة والمعرفة الدينية ٥٧٥
مشاكل الحياة بين المعالجات والآهات ٥٨١
الزواج بين مسؤولية الفرد والمجتمع ٥٨٥
حول مراسيم الزواج وتكاليفه ٥٨٩
استضعاف المرأة في الماضي والحاضر ٥٩٣
الوقاية من الخلافات الزوجية ٥٩٩
نموذج من إنصاف الإسلام للمرأة....................... ٦٠٣
دور الأم في البناء الثقافي للطفل....................... ٦٠٧
الأم وصناعة الشخصية................................ ٦١١
احتفالات الأعراس ٦١٧
ليلة العرس والزفاف ٦٢٣
المعاشرة بالمعروف ٦٢٧
حق الخدمة بين الزوجين............................... ٦٣١
الأسرة وتحديات العصر ٦٣٥
الوعي بالحقوق الزوجية ٦٣٩
الأسرة في فكر الإسلام وتشريعاته ٦٤٣

ملحق: متابعات إعلامية ٦٤٧
رئيس تحرير جريدة اليوم يستقبل الشيخ الصفار ٦٤٩
الحوار الوطني خيارنا الصحيح لمواجهة التحديات الصعبة ٦٥١
هل يسعى المعلم للتطور والابداع؟ ٦٥٣
الإرهاب فتنة عظيمة يجب محاربته بكافة السبل ٦٥٥
الصفار في أحدية الدكتور راشد المبارك...............................٦٥٧
الشيخ الصفار يستعرض نتائج اللقاء الوطني...........................٦٥٩
الشيخ الصفار وثقافة الواقع ٦٦٣
آل بو ليلة تحتفل بقبيلة بني خالد بمناسبة العفو عن هادي المري ٦٦٥
القطيف: الشيخ الصفار يهاجم السلوكيات الخاطئة لدى الشباب ٦٦٩
الصفار يحذر من ظاهرة العنف الأسري في محاضرة بالقطيف ٦٧٣
قادة ومفكرو الأمة الإسلامية مطالبون بنشر السيرة العطرة للرسول ٦٧٥
الشيخ الصفار: القطيف تتطلع إلى احتضان صرح جامعي ٦٧٧
السياسة النبوية ودولة اللاعنف «للصفار» ٦٧٩
برنامج مكافحة سوسة النخيل يستضيف «الصفار» ٦٨١
الصفار: أبو السعود كان أملًا واعدًا لخدمة الدين والمجتمع ٦٨٣
الصفار يستقبل المعزين في وفاة والده..................................٦٨٥
الصفار: اتصال خادم الحرمين الشريفين خفف مصابنا ٦٨٧
النجيمي: قيادة البلاد تنسجم كليا في دعم مشروع الوحدة الوطنية ٦٨٩
مقالات لسماحة الشيخ حسن الصفار في السياسة النبوية ٦٩١
توقعات بإطلاق سيريوس ستار خلال أيام...............................٦٩٥

إطلالة حول الكرامة الإنسانية بين النص والخطاب الديني ٦٩٧
«هوسات» تستهزئ بالشيخين بن باز وبن عثيمين وتفجر الغضب ٧٠١
الصفار: حمل مضامين عميقة عن نبذ العنف والتسامح ٧٠٣
لقاء «التعايش» يطالب بتعزيز الوحدة والمحبة بين مكونات المجتمع ... ٧٠٥
العبيكان والعلي: نقاط اتفاق مع الشيعة ونسعى معًا للعيش المشترك ... ٧٠٧
الصفار: الردع وحده لا يكفي لحماية الأمن الاجتماعي ٧٠٩
الصفار يطالب بمشاركة المرأة في الأنشطة الاجتماعية ٧١١
الصفار يلتقي المبتعثين بجامعة أيوا الأمريكية ٧١٣
الصفار: مشروع الحوار الوطني بدأ يؤتي ثماره ٧١٥
الصفار: برنامج خادم الحرمين للابتعاث أساسي لتنمية المجتمع ٧١٧
الصفار يدعو لتعزيز الوحدة الوطنية والبعد عن «اتهام النوايا» ٧١٩
الشيخ الصفار: ضرورة التركيز على إدانة ظاهرة الشحن الطائفي ٧٢١
الصفار في خطبة الجمعة: إياكم والعنف والمندسين ٧٢٣
احتفاء وتقدير لتجربة الفنان الضامن في أمسية بالقطيف ٧٢٥
الشيخ الصفار يندد بالإساءة إلى صحابة النبي وزوجاته ٧٢٧
الشيخ الصفار يستعرض التواصل المذهبي في المملكة بالكويت ٧٢٩
القطيف.. تفعيل دور الجهات لتثقيف المجتمع بـ «بر الوالدين» ٧٣١
الكفاءات الشبابية قادرة على تحريك عجلة التطور بالمجتمع ٧٣٣
«تحديات الوطن» في لقاء لجنة التواصل مع شخصيات بالقصيم ٧٣٥
منفذي العملية الإرهابية بالأحساء أرادوا تفجير النسيج الاجتماعي ٧٣٧
تعزيز التلاحم الوطني أبلغ ردّ على الجريمة النكراء ٧٣٩

الصفار: الحادث أظهر صفاء القلوب.............................. ٧٤١
الصفار يدعو لتعزيز الوحدة الوطنية لمواجهة الإرهاب ٧٤٣
مشروع وطني لمكافحة السكري والسمنة أمام وزراء الصحة الخليجيين ..٧٤٥
رسالة تشييع شهداء القديح تأكيد على تلاحم الوطن والتصدي للفتنة...٧٤٧
شكرًا لوقفة الملك سلمان وعزاء المواطنين خفف آلامنا ٧٤٩
المحتويات ٧٥١